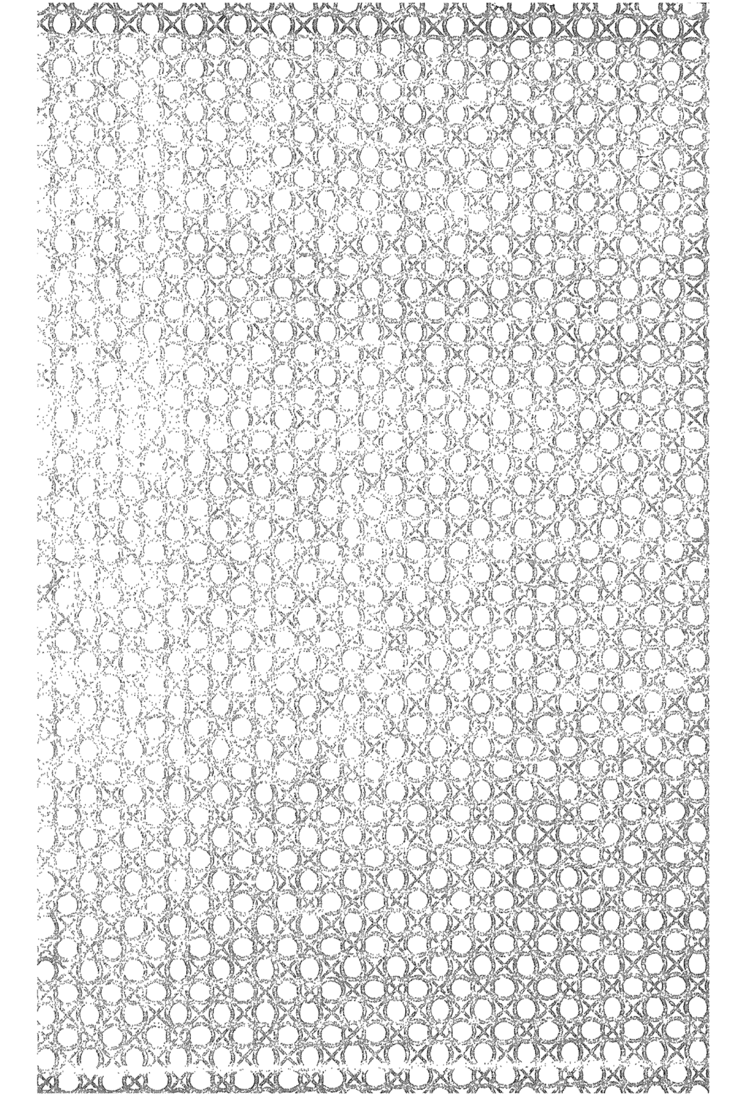
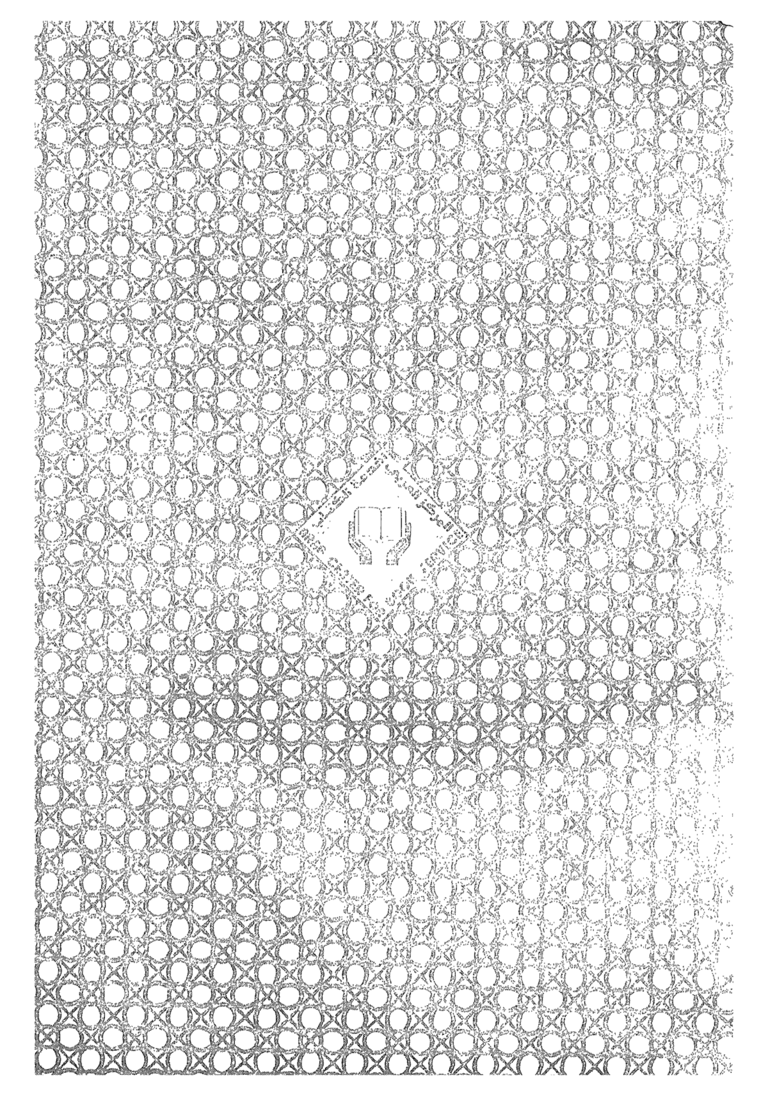

الكتاب الذي يجمع موضوع الخلافة
أحسن الوثائق
لسماحة الإمام محمد جواد الشيرازي






أمير المؤمنين

PRINTED IN LEBANON طبع في لبنان

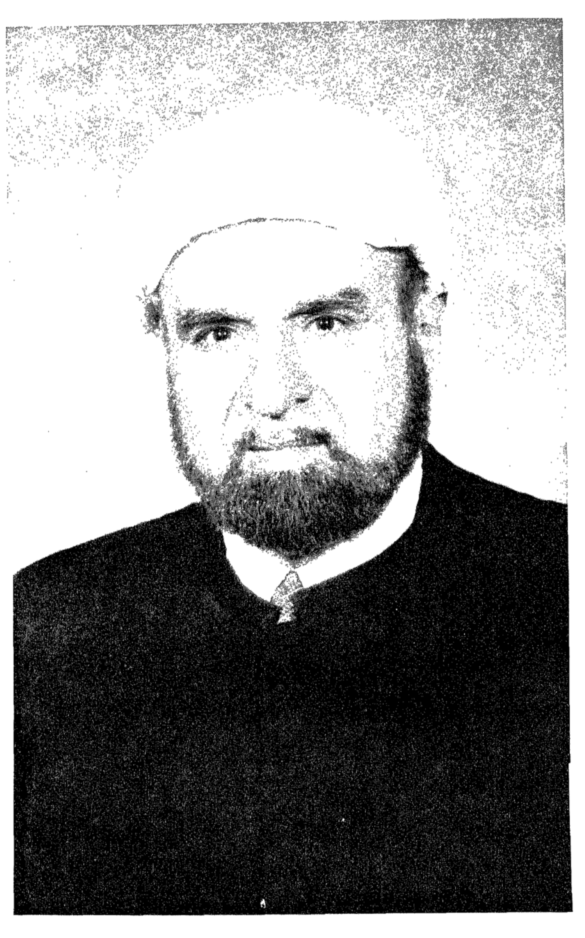
IMAM MOHAMAD JAWAD CHIRRI

DIRECTOR OF THE ISLAMIC CENTER OF DETROIT
15571 JOY ROAD, (near GREENFIELD)
DETROIT, MICHIGAN 48228, U.S.A.

Phone 313/5827442

الإمام محمد جواد الشري

أمير المؤمنين



الإمام محمد جواد الشري

لمحة عن مؤلف كتاب (امير المؤمنين)

اذا كان لا بد من التعريف التقليدي المطلوب عن كل مؤلف، فان هذا يدخلنا في بديهيات معروفة لدى القاريء العربي والاسلامي بالنسبة لمؤلف هذا الكتاب الأمام العلامة الشيخ محمد جواد الشري، مؤسس ومدير المركز الاسلامي في ديترويت مشيغن بالولايات المتحدة، والمسؤول الديني عن شؤون الطائفة الاسلامية الجعفرية في اميركا. وسيراً على الخوض في البديهيات ورغم تشديد المؤلف، على عدم ذكر أي تعريف يُشَمُّ منه المدح، فقد وجدنا انفسنا امام مشكلة لا يمكن التهرب منها او الغاؤها، وهي انه لا بد من سرد وقائع معينة عن المؤلف وذكر ولو جانب مجتزأ من نشاطه وجهاده. وهذا لا يجوز ان يتهمنا فيه المؤلف بمدحه او اخجال تواضعه:

الأمام شري هو من مواليد الجنوب اللبناني، ومن خريجي جامعة النجف الاشرف الدينية في العراق، وهو منذ تخرجه كان بين اوائل المصلحين الدينيين المجددين في جبل عامل، عندما نادى بخروج رجل الدين الى المجتمع وخوض المعترك العصري، لعدم تعارض الدين مع التصدي لتحديات الحياة الحديثة، فاشترك في قيادة حملة تثقيفية في قرى ومدن جبل عامل، كان هدفها الثورة على كثير من المفاهيم البالية، ونشر الوعي الديني والفكري على اوسع نطاق ممكن. وتلبية لنداءات الطائفة الاسلامية في الولايات المتحدة، والتي كانت تتحدث عن خطر ذوبان الأجيال الجديدة من ابناء المسلمين الأميركيين في محيطها الأميركي، سافر الى الولايات المتحدة، للتصدي لهذا التحدي الصعب في العالم الجديد.

قبل تلبية دعوة المسلمين اللبنانيين والعرب في اميركا، وتصديه للقيام بهذا الواجب فيما وراء البحار، كان قد اصدر في لبنان باكورة مؤلفاته: «الخلافة في الدستور الاسلامي». ورغم ان الكتاب محدود الصفحات، فقد تناول بأسلوب علمي منطقي جديد موضوع الخلافة، واحدث اهتماماً كبيراً في الأوساط الدينية والثقافية وخاصة في مصر والعراق. وكان من الذين تناولوا الكتاب بالتقييم

الأيجابي العلامة الكبير الدكتور طه حسين، والعلامة العراقي الكبير المغفور له الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، واعتبرته الأوساط الدينية والثقافية في النجف الأشرف، حدثاً فكرياً، واصدرت مجلة « الغري » النجفية، عدداً خاصاً، نقلت فيه وقائع احتفال كبير بالكتاب، اقيم دون علم المؤلف وفي غيابه، شارك فيه عدد من كبار علماء ومثقفي وشعراء النجف، وفي طليعتهم العلامة المحقق السيد محمد تقي الحكيم والعلامة الشيخ محمد رضا المظفر، رئيس منتدى النشر وسواهما من كبار العلماء والكتاب. وكان المؤلف في هذه الأثناء قد وضع مخطوطة كتابه (المبادىء العامة في رسالة محمد (ص)

ولعل من أهم مراحل نشاط المؤلف في خدمة الأسلام، قيامه رغم اقامته الدائمة في اميركا بالجولات التثقيفية الأسلامية في المهاجر الأفريقية عامي ١٩٥٨ و١٩٥٩، حيث اعتبرت نمطاً جديداً في نشر الدعوة الأسلامية ومثلها العليا، والعمل الدؤوب الصامت الناجح في سبيل الأسلام، دون ان يتوخى لنفسه أي مغانم ذاتية، في تلك المناطق المعروفة بامكاناتها المادية الوفيرة. ورغم العراقيل التي وضعتها في وجهه السلطات الاستعمارية التي كانت تتمتع بنفوذ كبير في القارة الأفريقية، فقد استطاع بصبره ومواجهته للسلطات الاستعمارية، وامكاناته الخطابية التي توجه فيها للجماهير الوطنية الأفريقية مباشرة، قبل إن يتوجه فيها الى المهاجرين، مسلّحاً بلغة انكليزية ادبية عالية، ان يدخل في ضمائر وعقول المواطنين من ابناء هذه القارة المناضلة، فالتفوا حوله ليحموا نشاطه وجهاده في سبيل اعلاء كلمة الحق والدين. وقد اراد بمحاولته اعطاء القدوة في النزاهة، ان يشق الطريق لمدرسة جديده في التبشير الأسلامي الحديث المرتبط بالمنابع التراثية الأصيلة، محاولاً تأمين سمعة نموذجية لأمكانات رجل الدين المسلم واعطاء فكرة عن مدى قدرته على مواكبة التحديات المعاصرة فكراً وحضارة.

وقد بلغ من توفيق الله له في جهوده، انه اقام في أكثر من مجال تعاونا مشتركاً بين الطبقات الشعبية الأفريقية والمغتربين اللبنانيين والعرب، لدرجة استجابة الأفريقيين. في بعض الحالات لدعوته لهم بالتبرع بالأرض لأقامة مشروعات انسانية ودينية يموّلها اللبنانيون المهاجرون لصالح المواطن الأفريقي، بعد ان

كانت نظرة الأفريقيين لبعض قطاعات المهاجرين، نظرتهم الى من يريد استغلالهم وحرمانهم من فرص المساواة والكرامة.

اما عن محاولته لشد اواصر عرى الوحدة الوطنية بين اللبنانيين في الخارج، فقد اقتضت منه جهوداً مضنية، شهد بعض الوزراء اللبنانيين الذين ذهبوا لتدشين خط جوي بين بيروت واحدى هذه العواصم الأفريقية، بأنها تعادل ما بذلته السفارات اللبنانية والعربية على مدى سنوات.

ومن اهم محطات نشاطه التي كان لها دوي على صعيد العالم الأسلامي، مسعاه التاريخي في عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، عندما استطاع اقناع القيادة السياسية (وفي عام ١٩٥٩ على وجه التحديد) الممثلة بالرئيس عبد الناصر نفسه، والقيادة الدينية الممثلة بشيخ الأزهر المرحوم الشيخ محمود شلتوت، بضرورة اخذ المبادرة، لألغاء العصبية المذهبية بين المسلمين. وقد استعرض مع الرئيس عبد الناصر مطولاً، ثم مع شيخ الأزهر، ما عانته احدى اكبر الطوائف الأسلامية، وهي الطائفة الجعفرية الأسلامية الأمامية، على مر التاريخ من مظالم، بسبب اهواء وانحرافات الحكام، وانه اذا صدقت النية في قطع الطريق على دسائس الأستعمار، فلا بد من اقامة الوحدة النفسية قبل السعي للوحدة السياسية. وهكذا اصدر الشيخ محمود شلتوت، عام ١٩٥٩ بناء لهذا المسعى، فتوى المساواة بين المذاهب الأسلامية الأربعة (السنية)، والمذهب الأسلامي الأمامي الجعفري (الشيعي)، حيث كانت هذه الفتوى نقطة تحول، ومبادرة لم يسبق لها مثيل من اعلى مرجع للسنة في العالم، منذ قيام المذاهب الأسلامية أي منذ حوالي ثلاثة عشر قرنا.

اما نشاطاته ورحلاته لتثبيت تلك الفتوى فقد شملت العراق وايران وباكستان، وذلك تكملة لمساعيه في خدمة الدين وتقوية اواصر الأخاء الأسلامي، حيث اجتمع الى قادتها الدينيين والسياسيين، الى جانب محاضرات وندوات ومؤتمر صحفي في لبنان عقد لشرح اهداف المسعى الذي قام به. وكان له في جامعة الزيتونة بتونس، وخاصة مع حوزتها العلمية بقيادة المرحوم الشيخ محمود بن عاشور مفتي الديار التونسية الراحل جولات خطابية لا تزال ماثلة في الأذهان.

اما حول نشاطاته في الولايات المتحدة نفسها حيث اقامته الدائمة، فقد شملت الى جانب قيادته للعمل الديني من مقره بالمركز الأسلامي الذي اسسه في ديترويت مشيغن، وهو المركز الأسلامي الوحيد في العالم الذي انشيء بتمويل شعبي من المواطنين المسلمين المهاجرين باستثناء مساهمة وحيدة من الرئيس عبد الناصر، قدمها خصيصاً للطائفة الأسلامية الشيعية في ديترويت كتجسيد عملي لأيمانه بصحة المذهب الجعفري. اما باقي تكاليف المركز الأسلامي التي كلفت مئات الوف الدولارات، فقد تأمنت بنهوض المهاجرين المسلمين انفسهم، الذين استطاعوا ان يقوموا تلقائياً باعباء مؤسسة المركز الأسلامي التي تعتبر نموذجية في اشعاعها الديني في العالم الجديد.

عام ١٩٦٧، اصدر مؤلفه المعروف بالأنكليزية «inquiries about islam» «استنطاقات حول الأسلام». وهو يجيب على جميع التساؤلات التي يطرحها العقل الغربي المسيحي، وخاصة الناشئة والطلاب الجامعيون الأساتذة والمثقفون الأميركيون والأوروبيون حول العقيدة الأسلامية. وهو في الواقع كتاب يعرض موقف الأسلام من التحديات الفكرية الغربية المعاصرة. وكان من الذين اعتبروه «من احسن الكتب التي كتبت في الأديان» الفيلسوف البريطاني الراحل برتراند راسل، ومن بين الذين ارسلوا للمؤلف رسائل تقدير مفعمه بالحرارة، رئيس وزراء كندا السابق، «بيراليوت ترودو» وعدد كبير من الكتاب والمثقفين الأميركيين.

ويرجو المؤلف ان يوفق بأذن الله الى اصدار طبعة منه بالعربية قريبا، حيث لم يتسع الوقت قبل الآن، لترجمة الكتاب من الأنكليزية رغم حاجة القاريء العربي للأطلاع على هذا النوع من النشاط الفكري الأسلامي في العالم الغربي. كما يرجو ان يواكب ذلك تجديد طبعه باللغة الأنكليزية بعد نفاد طبعته السابقة.

وقد اصبح هذا الكتاب مرجعاً لقطاعات من الناشئة الأميركية، الذين يريدون التعرف على الأسلام، ليس في ولاية مشيغن والولايات الأخرى المحيطة بها مثل اوهايو وانديانا وايوا، فحسب، بل الولايات البعيدة مثل كاليفورنيا وساوت داكوتا، وبنسلفانيا، اضافة الى واشنطن ونيويورك ونيوجرسي، الى

جانب الطلبات التي تأتي من انحاء كندا وعدد من البلدان الأفريقية والعربية، التي يتقن مثقفوها اللغة الأنكليزية، ويتطلعون الى معرفة حقائق منطقية عن التراث والفكر الأسلاميين. ومن مؤلفاته بالأنكليزية ايضا «مسلم براكتس» وتحليل بالأنكليزية لعهد الأمام علي في بناء الدولة من خلال ترجمة العهد الذي كتبه الى مالك الأشتر عندما اراد توليته شؤون مصر. وكذلك تحليل قصة استشهاد الأمام الحسين باللغة الأنكليزية، لتعريف القراء الأميركيين بهذه الملحمة البطولية الخالدة. عدا عن اكثر من الف محاضرة باللغة الأنكليزية القيت بواسطة الاذاعة خلال برنامج (الاسلام في الصميم) الذي استمر منذ ١٤ عاما، والتي يرجو المؤلف ان يوفق لأصدارها في مجلدات، وهي غير المحاضرات التي يبلغ عددها الألوف والتي يلقيها قبل بدء الخدمة الدينيه يومي الجمعة والأحد من كل اسبوع. وتأمل لجنة المركز الأسلامي، ان تصبح هذه المحاضرات عند طبعها في المستقبل مرجعاً للطلاب والمواطنين الأميركيين الذين يريدون توسيع معارفهم عن الدين الأسلامي، وهي تتضمن الخطوط العامة لفكر الأمام شري واسلوبه في طرح القضايا الأسلامية على ضوء التحديات المعاصرة في مواجهة العقل الغربي المتقدم.

اما كتاب «امير المؤمنين» الذي يصدر اليوم، والذي يمكن القول بأنه حسم حقيقي للخلاف حول موضوع من ادق المواضيع حساسية في التاريخ الأسلامي، وهو موضوع الخلافة، فقد خصص له المؤلف مئات الساعات، رغم اعبائه الكبيرة التي تشمل مخاطبة الأميركيين انفسهم عبر الكنائس والأجتماعات العامة والمدارس «والطاولة المستديرة» التي تمثل جميع الطوائف والأديان «round table» ، او على صعيد المسلمين اللبنانيين والعرب وفي البلدان الأسلامية المختلفة، الى جانب نشاطاته في الاجتماعات الدورية لمؤسسة رؤساء الطوائف في الولايات المتحدة وكندا، وكذلك مجلس ائمة المراكز الأسلامية في اميركا الشماليه والذي استطاع توحيد البرامج والأعياد الأسلامية، ويتولى الدفاع عن القضايا الأسلامية على الصعيد الأميركي عموما (والأمام شري اسهم بتأسيس المجلسين: مجلس رؤساء الطوائف الذي يضم المسلمين والمسيحيين اللبنانيين والعرب الأميركيين، ومجلس ائمة المراكز الأسلامية الذي يضم رجال الدين المسلمين في اميركا، وهو يشغل في

المجلسين مركزاً قياديا). ويتولى مجلس رؤساء الطوائف دعم التضامن اللبناني في اميركا على مستوى القمة الدينية، وكذلك طرح القضية اللبنانية والقضايا العربية، من زاوية القاسم المشترك للأهداف التي تجمع اللبنانيين. وتصل نشاطات هذا المجلس حد طرح الأمور المصيرية احيانا بصورة مباشرة امام اعلى سلطة في اميركا وهي رئيس الولايات المتحدة في البيت الأبيض، كما حدث عندما واجه هذا المجلس الرئيس الأميركي فورد في البيت الأبيض بالحقائق حول الوضع في لبنان ابان المحنة، او كما واجه الأمام شري بنفسه السيد هنري كيسنجر بأسئلة دقيقة، حول احداث لبنان عندما قام كيسنجر بزيارة ديترويت واجتمع الى الفعاليات الهامة فيها لأستطلاع آرائها حول السياسة الأميركية الخارجيه. عدا عن تصدي الأمام شري شخصياً لطرح القضايا العربية العادلة ومواجهة المنطق الصهيوني في الحفلات العامة والمناسبات الكبرى كما حدث في الاحتفال بذكرى مرور مائتي سنة على استقلال اميركا، او على صفحات الصحف الأميركية وفي الندوات التلفزيونية، وفي المؤتمرات الصحفية، التي يعقدها في المناسبات الحاسمة مثل حريق الأقصى، والحرب العربية الأسرائيلية عام ١٩٦٧، واحداث لبنان.

ولما كانت نشاطات المؤلف ديناميكية واسعة، لدرجة نجد صعوبة في حصرها، فاننا نكتفي بهذه النبذة التي تظل غير وافية،رغم انها تبدو طويلة.

دار الاعلام الاسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

- ١ -

يتفق المسلمون على ان للأمام امير المؤمنين علي بن أبي طالب ما ليس لغيره من المسلمين من المميزات. فهو من بينهم الأنسان الوحيد الذي رباه الرسول أيام طفولته ونشأه على طريقته، ثم اختاره من بين جميع الرجال أخاً لنفسه.

ويتفق علماء المسلمين على أن الأمام كان أعلم اصحاب الرسول بكتاب الله وسنة نبيه واعظمهم جهاداً وأنطقهم بالحكمة وأبلغهم خطابا وأحرصهم على إقامة حدود الله وأصلبهم في إقامة العدل وإحقاق الحق وأزهدهم في المادة ومتع الحياة، وهي صفات جعلها الله في محكم كتابه مقاييس للتفاضل بين الناس، اذ فضل الله المجاهدين على القاعدين وأعلن انه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون كما أعلن ان أكرم الناس عند الله أتقاهم.

إن علماء المسلمين لا يجادلون في ذلك، فمكان الامام الديني ومكانه العلمي في الاسلام واضحان لا جدال فيهما. وما يختلفون فيه هو مكانه السياسي - الديني في التاريخ الإسلامي:

فهم إذ يتفقون على أنه خليفته راشد جاء الى الحكم بانتخاب شعبي يختلفون في أنه كان بالأضافة الى ذلك خليفة بانتقاء نبوي.

والذين لا يؤمنون بأن النبي اختار عليّا خليفة من بعده يفكرون بأن القول بانتقاء النبي لعلي هو قول بوارثة الحكم. والقائلون بالأنتقاء ينكرون ذلك ويرون ان القول بالأنتقاء النبوي لا يجتمع مع القول بوراثة الحكم.

ويختلفون ايضاً في مكانه السياسي كرجل دولة. فهم إذ يتفقون على تمسكه بمبدإ العدالة المطلقة وحرصه على تنفيذ القانون الأسلامي بكل حرفيته يختلفون في حكمة هذا الموقف الصلب.

وهنالك امر آخر أغمض المؤرخون الباحثون اعينهم عنه، فلم يذكر بجلاء ولم يجعل موضوعا لبحث جدي: الا وهو دوره في بناء الدولة الإسلامية.

لا يستعرض هذا الكتاب (امير المؤمنين) تاريخ الأمام بالتفصيل ولا يتحدث عن علمه وبلاغته وحكمه ولا عن زهده وكراماته، بل يتركز ما فيه على مكان علي السياسي - الديني في الإسلام وقرابته الروحية من النبي ومساهمته في بناء الدولة ونشر الأسلام.

انه يتحدث عنه كخليفة وكرجل دولة وعما قيل في سياسته. ويبحث عن الأسباب التي أدت الى تراكم المصاعب التي حالت دون وضوله الى حكم مستقر هادىء في ايام خلافته.

واخيراً يتحدث عن الخلافة نفسها كنظام سياسي - ديني وعما يتلاءم من انواع الخلافة مع طبيعة الرسالة الإسلامية. ولذلك فان هذا الكتاب يحتوي الأقسام التالية:

(١) الإمام في عهـد النبـوة
(٢) الإمام في عهد الخلفاء الثلاثة.
(٣) الإمام في عهد خلافته.
(٤) الخلافة في القانون الإسلامي.
(٥) خاتمة في خلاصة بعض البحوث التي حفل بها الكتاب.

لقد جهدت في هذا الكتاب أن أتبين الروابط بين أحداث التاريخ التي تمسي حياة الإمام والتي حفلت بها السنوات الثلاثة والخمسون منذ بدء الرسالة الى نهاية الخلافة الراشدة.

وقد يرى القارىء ان تلك الأحداث ترتبط فيما بينها برباط وثيق، فكانت سلسلة من أسباب ومسببات، اللاحق منها كان نتيجة السابق.

ولم أكتف فيما بحثت من احداث تلك الفترة المعنية بما تعلق من مصادر التاريخ المعتمدة، بل جهدت حيثما امكن ان أضم الى ما ورد في كتب التاريخ ما ورد في كتب الصحاح وعدد آخر من كتب الحديث الجيدة التي تحدثت عن تلك الأحداث. ذلك ان كثيراً من علماء المسلمين يثقون بالحديث اكثر مما يثقون بالتاريخ، سيما إذا كانت الأحاديث مدونة في الصحاح المعروفة وبقية الكتب المعتمدة.

ولم أحاول أن أبحث الإمام كانسان ميزته صلته الخاصة بربه فاجرى على يديه المعجزات وخصه بالكرامات، بل حاولت ان أبحثه كانسان يخضع لكل عوامل الطبيعة والزمن والبيئة حاول جهده ان يعمل في سبيل مبادىء مقدَّسة وان يعيش تلك المبادىء ولتلك المبادىء.

وإني لأرجو ان يساهم هذا الكتاب في تعزيز التفاهم والأخاء بين المسلمين. ففي شخصية أمير المؤمنين علي وسيرته ما لو استوحاه المسلمون لقادهم الى الوحدة. وحريّ بمن اختاره النبي لنفسه اخا ان يكون فيما يكتب حول شخصيته من حقائق ما يقوي روح الأخاء والمودة بين جميع المسلمين.

محمد جواد الشري

القسم الأول

الامام في عهد النبوّة

مَنزلة آل الرسول من الرسول

الفصل الأول

يتفق المسلمون على حب اقرباء الرسول وذريته الصالحين وتعظيمهم والاعتقاد بقداسة من عاش في ايامه منهم. ويرون ان من التناقض ان يحب المسلم نبيه ولا يحب من احب النبي من اقربائه وذريته.

لقد كان اعلام الصحابة يتقربون الى الله بحب اقرباء الرسول الصالحين، حتى من لم يكن من خاصة عترته منهم. وقد شهد التاريخ الخليفة الثاني (رض) عام الرمادة يصلي صلاة الاستسقاء ثم يلح في الدعاء ثم يأخذ يد العباس بن عبد المطلب (رض) ويرفعها، قائلا:

«اللَّهمَّ، انَّا نتشفع اليك بعم نبيك ان تذهب عن المَحْل وان تسقينا الغيث.» فلم يبرحوا حتى سُقُوا، واطبقت السماء عليهم اياماً[1].

لقد فعل الخليفة ذلك في حين ان كثيرين من الصحابة الذين حضروا تلك الصلاة كانوا اقدم اسلاماً وهجرة من العباس. فقد كان العباس آخر من هاجر قبل فتح مكة اذ بدأت هجرته والرسول في طريقه اليها، ولذلك لم يكن العباس (رض) من البدريين ولا من الاحديين. فما ظنك في الخاصة من عترة الرسول ومن كان منهم اقدم المسلمين اسلاماً واكثرهم بالرسول التصاقاً واغزرهم علماً واشدهم جهاداً وفداء؟.

وقد كان ائمة المذاهب الاربعة يعظمون اهل بيت الرسول ويتقربون اليه بحب الائمة من ذريته. وكان الامامان مالك وابو حنيفة على جلالة قدرهما يعظمان الامام جعفر الصادق وقد اخذا عنه واغترفا من بحر علمه.

هذا الموقف الايجابي من جانب اعلام المسلمين تجاه اعضاء الاسرة النبوية المباركة له ما يدعمه ويؤكده من تعاليم الرسول، بل ومن القرآن العظيم. فقد امرنا الرسول ان نقرن باسمه المبارك عترته حينما نصلي عليه.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (ج ٣ - ص ٣٢١) وقد رواه العديد من المؤرخين.

واذا كان علينا ان نفعل ذلك فعلينا ان نحبهم ونأخذ عنهم ونضعهم بعده ونحلهم في نفوسنا في اقرب رتبة الى رتبته.

ان الله عز وجل امرنا ان نصلي على نبيه فقال في محكم كتابه: ﴿ان الله وملائكته يصلون على النبي. يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾ (سورة الاحزاب ٣٣ - آية ٥٧). وإذ كانت هذه الآية تلزم المؤمنين بالصلاة والسلام على الرسول (ص). فقد سأل المسلمون الرسول بعد نزولها عن كيفية الصلاة عليه فعلمهم ماذا يقولون ليؤدوا هذا الواجب القرآني.

روى البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة والنسائي عن كعب بن عجرة انه وآخرين سألوا رسول الله ان يعلمهم ما يقولون في الصلاة عليه فاجاب:

« قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل ابراهيم انك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل ابراهيم انك حميد مجيد.»(٢)

وروى البخاري عن ابي سعيد الخدري ان النبي قال وهو يعلم السائلين كيف يصلون عليه:

« قولوا: اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على آل ابراهيم. وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل ابراهيم.»(٣)

وروى مسلم عن ابي مسعود الانصاري ان الرسول قال في مجلس سعد بن عبادة معلما كيف يصلي عليه:

« قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل ابراهيم،

---

(٢) رواه البخاري في الجزء السادس من صحيحه (في كتاب التفسير، في تفسير سورة الاحزاب) ص ١٥١ ورواه مسلم في الجزء الرابع (في الصلاة على النبي بعد التشهد) ص ١٣٦. ورقم الحديث في سنن الترمذي ٤٨٣ وفي سنن ابن ماجة ٩٠٤. ورواه النسائي في صحيحه ج ٣ ص ٤٨.

(٣) صحيح البخاري ج ٦ ص ١٥١. وروى النسائي في الجزء الثالث من صحيحه ص ٤٩ عن ابي سعيد ما يقرب منه.

وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل ابراهيم في العالمين. انك حميد مجيد.»[٤]

وروى النسائي عن طلحة بطريقين انه قال وهو يعلم من سأله كيف يصلي عليه:

«قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وآل ابراهيم. انك حميد مجيد. وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وآل ابراهيم انك حميد مجيد.»[٥]

وقد روى ابن ماجة عن عبد الله بن مسعود انه كان يعلم المسلمين ان يقولوا لدى الصلاة على النبي: «.... اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم. انك حميد مجيد.»[٦]

هذه الاحاديث تشهد بأن الرسول امر المسلمين بان يصلوا على اهل بيته كلما صلوا عليه. وان الصلاة عليهم متمة للصلاة عليه، سواء كانت الصلاة عليه حال آداء الصلوات اليومية أو خارجها. وقد كان المسلمون وما زالوا يصلون على آل محمد في صلواتهم اليومية كما يصلون على النبي نفسه.

واذ امر الرسول اتباعه بأن يصلوا على اهل بيته كما يصلون عليه فانه يصدر بذلك عن أمر الله عز وجل. فهو الرسول الذي لا ينطق عن الهوى، سيما وهو يعلم المسلمين امور دينهم.

واذ يأمر الله ورسوله المسلمين بأن يضلوا على آل محمد كلما صلوا على محمد (وما اكثر ما يصلي المسلمون على نبيهم عندما يحدثون أو يخطبون أو يكتبون) فقد شرفهم بذلك ورفع منزلتهم فوق منازل جميع المسلمين وجعلهم بعد رسوله في الرتبة واقربهم اليه في المنزلة.

---

(٤) صحيح مسلم ج ٤ ص ١٢٥

(٥) صحيح النسائي ج ٣ ص ٤٨

(٦) سنن ابن ماجه ج ١ ص ٢٩٣ - ٢٩٤. ورقم الحديث ٩٠٦

هل التشريف من اجل القرابـة؟

ربما يظن ان تشريف آل الرسول بالصلاة عليهم انما هو من أجل قرابتهم منه. واذا كان الأمر كذلك فان تمييزهم عن سواهم وتشريفهم الى هذه الدرجة يكون اعلانا لمبدأ تفوق قبلي وتمييزاً يتنافى مع روح التعاليم الاسلامية ويناقض عددا من المبادىء الاسلامية.

فمن المبادىء التي تتناقض مع دعوى التفوق القبلي المبدأ القائل. بان الناس يتساوون امام الله. وان من اهم اغراض الرسالة الإسلامية هدم الارستقراطية وازالة الحواجز بين الناس والوصول الى مجتمع متحد محذوف الفواصل. والقرآن يعلن ما يلي:

﴿يا أيها الناس، انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. ان اكرمكم عند الله اتقاكم.﴾(٧)

وقد اعلن رسول الله يوم انتصاره على مشركي مكة. مبدأ المساواة قائلاً:

« يا معشر قريش ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم وآدم من تراب ». « ان اكرمكم عند الله اتقاكم. »(٨)

ومن تلك المبادىء ان الله لا يثيب ولا يعاقب احداً من عباده من اجل ما عمله قريبه من عمل حسن أو سيء. والقرآن يعلن ما يلي:

﴿يا ايها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا. ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا. ولا يغرنكم بالله الغرور..﴾(٩)

---

(٧) سورة الحجرات (٤٩) آية ١٣

(٨) سيرة ابن هشام الجزء الثاني صفحة ١٢

(٩) سورة لقمان (٣١)، آية ٣٣

وفي آية اخرى:

﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى وان تدع مثقلة الى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى...﴾[10]

ومن المبادىء التي تتناقض مع فكرة التفوق القبلي ان الله لا يعاقب ولا يثيب انساناً من اجل شيء فوق طاقته ووراء مقدوره واختياره. ان انتساب انسان الى عائلة ليس باختياره. ولذلك فانه يكون منطقياً ومنسجماً مع الاعتقاد بالعدالة الإلٓهية ان نعتقد بان الله لا يفضل احداً على سواه من اجل انتسابه الى عائلة خاصة. إن الاسلام يقف ضد اي تمييز عنصري أو قومي أو قبلي لأن هذه التمييزات تمثل ثواباً أو عقاباً على ما هو وراء مقدور الفرد.

ان انتساب اي فرد الى عائلة او قومية او عنصر ما ليس من صنع ذلك الفرد. وليس منا احد اختار عائلته، او قوميته او عنصره قبل ولادته، بل ولدنا ونحن نحمل تلك العلاقات.

لذلك، فانه ليس من المعقول ان يشرف الله انساناً أو يضعه من اجل انتسابه الى عائلة خاصة. ان الناس جميعاً متساوون عند الله وهو لا يميز بين خلقه الا من اجل ما يعملون من خير أو شر باختيارهم: ولذلك يشرف التقي ويرفعه فوق العصاة الا شرار من عباده.

واذا كانت هذه المبادىء صحيحة، وهي صحيحة دونما شك، فان من الصعب التوفيق بينها وبين تشريف آل محمد ورفعهم فوق سواهم والزام المسلمين بالصلاة عليهم من اجل انتسابهم الى الرسول.

لا تناقض

ولإيضاح ان هذا تناقض متوهم نذكر ان هذه الشبهة مبنية على مقدمتين:

(١) ان تشريف آل محمد بالزام المسلمين بالصلاة عليهم حين الصلاة عليه يعود الى انهم اقرباء محمد ومنتسبون اليه. وانه ليس لهذا التشريف سبب سوى ذلك.

---

(١٠) سورة فاطر (٣٥) آية ١٩

(٢) ان تشريفهم لهذا السبب يتناقض مع المبادىء الثلاثة التي مر ذكرها (مساواة الناس امام الله. وانه لا يثيب ولا يعاقب احداً من اجل عمل قريب من اقربائه وانه لا يثيب ولا يعاقب احداً على ما هو فوق مقدوره وبغير اختياره).

ان المقدمة الثانية صحيحة لا شك فيها. اما الأولى فهي بعيدة عن الصحة. اننا نعتقد ان قرابة اي انسان من الرسول لا تجعله بمأمن من عقاب الله. ان الله خلق الجنة لمن اطاعه مهما كانت قوميته، وخلق النار لمن عصاه ولو كان من ابناء الرسول. ان القرآن يتضمن سوْرة نزلت في ذم ابي لهب وهو عم رسول الله:

﴿تبَّت يدا ابي لهب وتبّ★ ما أغنى عنه ماله وما كسب★ سيصلى ناراً ذات لهب★ وامرأته حمالة الحطب★ في جيدها حبل من مسد﴾[١١]

ليس جميع الهاشميين من عترة الرسول

ان ما ينبغي ان يفهم بجلاء هو ان كلمة «آل محمد» لا تشمل كل من انتسب الى الرسول. انها لا تشمل معظم الهاشميين والمتحدرين من نسل محمد. ولو كانت تشملهم جميعاً لكان هنالك تمييز قبلي لأن كثيراً من المنتسبين الى الرسول لم يسيروا في طريقه ولم يخدموا الاسلام كما يريده الرسول. فلو ميزوا جميعاً وشرفوا بالصلاة عليهم حين الصلاة عليه لكان ذلك دعوة الى طبقية والى الاعتقاد بتفوق قبلي. وهذا يتناقض مع المبدأ القرآني الذي يعلن ان النبل هو التقوى. والاسلام لا يتناقض مع نفسه.

والحقيقة ان كلمة «آل محمد» تعني افراداً معينين من اقرباء الرسول اختارهم الله لما لهم من فضل. هؤلاء الاشخاص الذين اختارهم الله لم يخترهم لقرابتهم من رسوله بل لأنهم كانوا في اسمى درجات الفضيلة. انهم عاشوا الحياة الاسلامية الصحيحة. وتبعوا كتاب الله وسنة نبيه ولم يفارقوهما بعمل أو قول.

---

(١١) السورة رقم ١١١

تفضيلهم يدل على فضلهم

ان النبي حينما يأمرنا بالصلاة عليهم حينما نصلي عليه فإنه بذلك يخبرنا عن تفوق أولئك الاشخاص على غيرهم علماً وعملاً وفضيلة. وهذا ما يجعلهم يستحقون هذا التشريف الخالد الفريد. ان الله اعدل من ان يشرف احدا من خلقه اعتباطا وبدون استحقاق.

اجل حينما يعلن الله عز وجل ان مقياس النبل هو التقوى وفي الوقت نفسه يأمرنا بتشريف اشخاص معنيين فأننا نستنتج ان اولئك الاشخاص انبل من سواهم لانهم اتقى. وهكذا فإننا لا نجد اي تناقض بين المبادىء الاسلامية التي ذكرت وبين تشريف آل محمد. بل نجد انسجاماً تاماً.

تاريخهم يشهد بعلو منزلتهم

واذا كنا نستنتج من تشريف اهل البيت بالصلاة عليهم انهم جديرون بهذا التشريف فان تاريخهم يدعم هذا الاستنتاج. انني لا أود الآن أن ابحث في تحديد اعضاء العترة من آل محمد بل اترك ذلك لفصل مقبل. ولكنني اكتفي الآن بان اقول ان المسلمين يتفقون على ان علياً بن ابي طالب وزوجته فاطمة الزهراء وولديهما الحسن والحسين هم من آل محمد وسيرة هؤلاء تدعم استنتاجنا وتثبت جدارتهم بهذا التشريف. فمن السهل على قراء التاريخ الاسلامي ان يعرفوا ان علياً بن ابي طالب كان سيد المجاهدين وبطل الاسلام واعلم اصحاب الرسول واشدهم تمسكاً بالقرآن والتزاماً بمبادئه واتباعاً لتعاليم الرسول.

اما زهده في الجوانب المادية من الحياة من جاه وسلطان ومال فقد كان غير مضارع. انه الرجل الذي لم يتردد في اختيار المثل العليا كلما رأى تزاحماً بينها وبين القيم المادية.

اما علمه فمدهش في عمقه وسعته. ومحتويات نهج البلاغة تشهد بصحة الحديث المروي عن رسول الله:

«انا مدينة العلم وعلي بابها فمن اراد المدينة فليأت من الباب»[١٢]

وتاريخ الثلاثة الآخرين من آل محمد (أعني فاطمة الزهراء وولديها الحسنين) يدل بجلاء على انهم كانوا في أعلى درجات التقوى وانهم كانوا يمثلون الحياة الاسلامية الصحيحة.

شهادة الرسول لهم.

وليس ادل على فضل هؤلاء الاربعة من شهادات الرسول فيهم التي تضعهم في

(١٢) صحيح المستدرك للحاكم ج ٣ ص ٢٢٦

اعلى مراتب الشرف والفضيلة. فقد روى زيد بن ارقم عن رسول الله انه قال لعلي وفاطمة والحسن والحسين:

«انا سلم لمن سالمتم وحرب لمن حاربتم»[13]

وانه لمن غير المعقول ان يكون الرسول في حالة حرب مع كل من يحارب عليا وفاطمة والحسنين الا اذا كان كل واحد منهم حليفاً للحق لا يفارقه. ان الرسول اعظم من ان يعادي خصوم هؤلاء الاربعة إذا كان خصومهم على الحق.

وروى حبشي بن جناده انه سمع رسول الله يقول:

« علي مني وانا منه ولا يؤدي عني الا علي.»[14]

بالطبع ان النبي لم يقصد ان يميز عليا على سواه لقرابته منه. لقد كان العباس عمّاً للرسول وبقية الهاشميين بمن فيهم جعفر بن ابي طالب كان لهم من القرابة مثل ما لعلي. ولو كانت القرابة هي السبب في التمييز لكان كل منهم مؤهلاً للاداء عن رسول الله. ولكنه قال:

« ولا يؤدي عني الا علي.» وما ذلك الا لأن لدى علي من المؤهلات للاداء عن الرسول وتمثيله ما ليس لدى غيره من المسلمين.

وفي الحديث ان سعد بن ابي وقاص قال لمعاوية حينما كان هذا ينتقص من علي: اتقول هذا في رجل سمعت رسول الله يقول فيه: « من كنت مولاه فهذا علي مولاه» وسمعته يقول له: « انت مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي.»[15]

لقد اعطى رسول الله عليا منزلة لم يعطها احداً. ففي التصريح الاول جعله مولى لكل مسلم ومسلمة. وان القرآن يصرح ان النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم. وكلمة الرسول تعطي علياً نفس المركز فهو مولى لكل من رسول الله مولاه.

وفي التصريح الثاني جعله بمنزلة هارون من موسى. ومعنى ذلك انه يأتي رتبة بعد رسول الله. فمن المعلوم ان هارون كان يتلو موسى رتبة وانه لم يكن بين قوم

---

(١٣) سنن ابن ماجه الحديث رقم ١٤٥

(١٤) ابن ماجه في سننه حديث ١٤٣

(١٥) ابن ماجه في سننه حديث رقم ١٢١

موسى من يساوي هازون فضلا. فلعلي، طبقاً لهذا التصريح، كل رتب هارون ما عدا النبوة لأنه لا نبي بعد محمد.

وقد روى البخاري ان رسول الله قال لعلي:

«الا ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟»[16]

وقد روى البخاري ايضاً ان رسول الله قال:

«فاطمة سيدة نساء اهل الجنة»[17] ان دخول الجنة انما يكون بالتقوى. واذا كانت فاطمة سيدة نساء اهل الجنة. فهي اتقى النساء

وقد روى ابو هريرة ان رسول الله قال:

«من احب الحسن والحسين فقد احبني ومن ابغضهما فقد ابغضني.»[18]

وروى الحاكم في المستدرك ان رسول الله قال:

«الا ان مثل اهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح. من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق.»[19]

لقد جعل رسول الله اتباع اهل بيته الوسيلة للنجاة ومخالفتهم سببا للغرق. وليس يعني ذلك الا ان قولهم وفعلهم يطابقان قوله وفعله.. فاتباعهم اتباعه ومخالفتهم مخالفته.

---

(١٦) الجزء الخامس من صحيحه (باب فضائل علي) ص ٢٤.

(١٧) المصدر نفسه ص ٢٥ في باب فضائل اقرباء الرسول.

(١٨) سنن ابن ماجه الحديث رقم ١٤٣

(١٩) اخرجه الحاكم بالأسناد الى ابي ذر الجزء الثالث من المستدرك ص ١٥١

لماذا لم يوجد مثلهم في سائر الأُسَـر؟

ويحق للقارىء ان يقول: لقد عرفنا الى الآن ان لا تناقض بين تمييز آل الرسول وبين المبدأ القائل ان اكرم الناس عند الله اتقاهم لأن تمييزهم يكشف عن انهم في اعلى درجات التقوى. ولذلك لم يكن هذا التمييز ارستقراطيا ولا هو مكافأة لهم على عمل سواهم ولا هو ثواب على ما ليس تحت قدرتهم ووراء اختيارهم وهو قرابتهم من الرسول. انه تشريف لهم يستحقونه باعمالهم الصالحة وبسيرهم على خطى الرسول نفسه.

كل هذا عرفناه. ولكن يحق لنا أن نسأل:

كيف حدث ان وجد هؤلاء الأتقياء المميزون في اسرة الرسول ولم يوجدوا في اسرة عربية اخرى أو في قومية غير القومية العربية؟

لم يكن بدعاً في تاريخ النبوات

وجوابنا على هذا السؤال: ان ما حدث لم يكن بدعاً في تاريخ النبوة. وعلى العكس فتاريخ النبوة بشهادة القرآن حافل بمثل ذلك. فقد اشرك الله هارون بالرسالة مع اخيه كليم الله موسى. ولم يشرك معه في تلك الرسالة احداً من الاسرائيلين أو سواهم فيها. وقد كان ذلك لاستحقاق هارون تلك المنزلة السامية واستجابة لدعاء اخيه كليم الله:

« واجعل لي وزيراً من اهلي. هارون اخي. أشدد به أزري. وأشركه في أمري. كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا. انك كنت بنا بصيراً. قال: قد اوتيت سؤ لك يا موسى. »[٢٠]

---

(٢٠) سورة طه (رقم ٢٠) آية ٢٩ - ٣٦

وقد دعا ابراهيم ربه فسأله ان يجعل من ذريته أئمة للناس فاستجاب الله دعاءه ووعده ان يجعل ائمة من صالحي ذريته دون ان يوصل الى تلك الدرجة العليا ايّاً من الظالمين لأنفسهم او لغيرهم من نسله:

« واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن. قال:

« إني جاعلك للناس إماما. قال: ومن ذريتي. قال: لا ينال عهدي الظالمين. »[21]

وقد صرح القرآن مرة اخرى باستجابة دعاء ابراهيم بأن جعل في ذريته النبوة والكتاب:

« ووهبنا له اسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب. وآتيناه اجره في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين. »[22]

وقد اختار الله آل ابراهيم وآل عمران وفضلهم على العالمين:

﴿ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين. ذرية بعضها من بعض، والله سميع عليم.﴾[23]

وقد دعا زكريا ربه فسأله صلاح الذرية واستجاب الله دعاءه وبشرته الملائكة بذلك:

﴿هنالك دعا زكريا ربه قال: رب هب لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء. فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب: ان الله يبشرك بيحي مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين﴾[24]

ان هذه الايات (وعدداً آخرسواها) تدل بجلاء على ان نبوات سابقة سارت في هذا المجرى: فكان من ذراري الانبياء السابقين واقربائهم من شابهوهم في اعمالهم وساروا على مناهجهم فبلغوا اعلى درجات التقوى واستحقوا بذلك حمل الرسالة واصطفاهم الله على سواهم من العالمين.

---

(٢١) سورة البقرة (رقم ٢) آية رقم ١٢٤

(٢٢) سورة العنكبوت (رقم ٢٩) آية رقم ٢٧

(٢٣) آل عمران (رقم ٣) آية رقم ٣٣ - ٣٤

(٢٤) آل عمران (رقم ٣) آية ٣٨ - ٣٩

وتفسير ذلك ان الله خلق من ذويهم وذرياتهم اولئك الافراد الممتازين إما استجابة لدعوات اولئك الانبياء أو مكافأة لهم على جهادهم في سبيل نشر دينه واعلاء كلمته.

اذن لم يكن من غير الطبيعي ان يكون في آل محمد هؤلاء النخبة من الاتقياء بل يكون من غير الطبيعي ان لا يكون في اهل بيت الرسول اعلام هدى يرتفعون الى اعلى درجات التقوى. فمحمد هو اكرم رسل الله عليه واحبهم اليه. فإذا كان الله قد اكرم ابراهيم ونوحاً وزكريا وآخرين بان خلق في ذرياتهم الصالحين الذين استحقوا ان يصطفيهم على العالمين، فلماذا لا يكرم الله خاتم انبيائه واكرم رسله عليه بان يخلق الصالحين الهداة في ذريته؟ واذا كان الله اكرم موسى بان جعل له وزيرا من اهله وأشرك اخاه في رسالته فلماذا لا يكرم محمدا بان يجعل له وزيرا من اهله فيكون مثل ما كان هارون من موسى في كل شيء الا النبوة لأنه لا نبي بعده؟

وان رسول الله دعا ليلة زفاف فاطمة لعلي، ناضحا عليهما من ماء شرب منه، سائلا الله ان يعيذهما وذريتهما من الشيطان الرجيم.[٢٥]

وروى الحاكم ان النبيّ القى على عليّ وفاطمة والحسنين كساءً ثم قال: اللهم هؤلاء آلي فصل على محمد وعلى آل محمد. وأنزل الله عز وجل: ﴿انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾[٢٦]

وما اجدر محمدا بأن يُكافأ على اداء الرسالة بأن يُستجاب دعاؤه في اهل بيته.

لقد كان من الطبيعي أن يكون الأمر كذلك. ولذلك رأينا رسول الله يتخذ عليّا اخاً له وبعد ذلك يقول له:

«انت مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي»

---

(٢٥) الرياض النضرة للحافظ المحب الطبري (مطبعة الاتحاد المصري) ج ٢ ص ١٨٠ واخرجه أحمد في المناقب وذكره المنفي في كنز العمال (ج ٧ - ص ١١٣) وقال رواه ابن جرير والهيثمي في مجمعه (ج ٩ - ص ٢٠٩) وقال: رواه الطبراني وابن حجر في صواعقه ص (٨٤) وقال اخرجه ابو حاتم. نقل هذا كله الفيروز بادي في كتابه فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ٢ - ص ١٤٣ الطبعة الثالثة.

(٢٦) المستدرك ج ٣ - ص ١٤٨.

ويعلن فضل جميع اهل بيته المطهرين من الرجس بأن يأمر المسلمين وهو الصادق الذي لا ينطق عن الهوى بأن يصلوا على اهل بيته كلما صلوا عليه استجابة لأمر الله:

« يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما. »

وان القرآن نفسه يصرح بأن من مبادىء الاسلام حب آل رسول الله. فقد امر الله رسوله ان يطلب من المسلمين **مكافأة على اداء الرسالة** وان تكون المكافأة مودتهم لأهل بيته:

﴿ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات★ قل لا اسألكم عليه أجراً الا المودة في القربى★ ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً★ ان الله غفور شكور.﴾[٢٧]

وقد روى الحاكم في المستدرك بسنده عن عليّ بن الحسين أن الحسن بن عليّ قال:

« وأنا من أهل البيت الذين افترض الله مودتهم على كل مسلم فقال تبارك وتعالى لنبيّه (ص): قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى. ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا. فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت. »[٢٨]

لقد امر الله رسوله في هذه الآية ان يقول للمسلمين انه لا يسألهم اجراً على اداء الرسالة الا مودتهم لاقربائه (وهم اهل بيته). ولم يكن هذا بدافع حب النبي لأهل بيته استجابة لغريزة بشرية حيث فطر الناس على حب اقربائهم. فالنبي اعظم من ان يفضل اهل بيته على الناس ويخصهم بالمحبة اذا كان سواهم اقرب الى الله منهم. ولو كان كذلك لكان بدافع الانانية. ولو كان بهذا الدافع لما امره الله ان يجعل اجره على اداء الرسالة حب الناس لأهل بيته فليس بين الله وبين احد من خلقه قرابة. ولا يميز الله أهل بيت النبي ولا يأمر نبيه بأن يطلب من المسلمين حبهم الا لأنهم كانوا في اعلى درجات التقوى والا لأن محبتهم تقرب من الله ومتابعتهم تقود الى الحق.

---

(٢٧) الشورى (رقم ٤٢) آية رقم ٤٣ (السورة مكيّة ولكن هذه الآية والآيتين اللتين بعدها مدنيات)

(٢٨) ج ٣ - ص ١٧٢.

مَن هُم آل الرسُول

الفصل الثاني

- ١ -

تحدثنا في الفصل السابق عن تمييز اهل بيت الرسول دينياً بالصلاة عليهم واثبتنا ان منحهم هذا الشرف الرفيع لا يتنافى مع المبدأ الاسلامي الذي يعلن ان اكرم الناس عند الله اتقاهم. ذلك ان التفضيل الآلهي لهم يكشف عن فضلهم واستحقاقهم للتفضيل وانهم كانوا في اعلى درجات التقوى. وقد رأينا ان سجل اعمالهم يتطابق مع هذا الاستنتاج وان شهادات الرسول في حقهم تعلن هذا الاستحقاق. وبعد ذلك اكتشفنا ان وجود عباد مكرمين في اهل بيت الرسول لم يكن بدعا في تاريخ النبوة. فالقرآن يحدثنا ان نبوات سابقة سارت في الطريق نفسه حيث اصطفى الله آل ابراهيم وآل عمران وفضلهم على العالمين وحيث اشرك الله هارون في رسالة اخيه موسى واستجاب الله دعاء زكريا فوهب له وليا يرثه ويرث من آل يعقوب.

كل هذا تحدثنا عنه ولكنا لم نحاول حصر عدد اهل البيت. لقد ذكرنا ان عليّاً بن ابي طالب وزوجته فاطمة الزهراء وولديهما الحسنين اعضاء لهذه الاسرة الشريفة معتمدين في ذلك على اتفاق المسلمين على عد هؤلاء الاربعة من اعضاء تلك الاسرة المباركة. ولكنا لم نحاول ان نأتي بدليل آخر على انهم من اهل البيت كما انا لم نحاول ذكر سوى هؤلاء ايجابياً أو سلبياً. وغرضنا من عقد هذا الفصل هو الحصول على فكرة واضحة نعرف بها من تعنيه كلمة آل محمد.»

ان ما ينبغي الاعتماد عليه في هذا هو الاحاديث المروية عن رسول الله التي جاء فيها ذكر «آل محمد» أو «أهل بيته» أو «عترته». حيث ان المقصود من جميع هذه التعابير واحد. هذه التصريحات المروية يمكن ان توضع في صنفين:

(١) الاحاديث التي تتضمن أوصافا لتلك الاسرة الكريمة. فبواسطة تلك الاوصاف نتمكن ان نعرف خروج من لا يتصف بها عن مفهوم كلمة «آل محمد» ودخول من يتصف بها في ذلك المفهوم.

(٢) الاحاديث التي تضمنت شهادة تدل بوضوح على ان اشخاصا معينين هم من «آل محمد» أو «أهل بيت محمد» أو «عترته».

الاحاديث الواصفة

من التصريحات النبوية الواصفة الاحاديث التالية:

عن جابر بن عبد الله ان رسول الله قال:

« يا ايها الناس اني تركت فيكم ما ان اخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي اهل بيتي.»[1]

وعن زيد بن ارقم ان رسول الله قال:

« اني تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي:
كتاب الله، حبل ممدود ما بين السماء والارض، وعترتي اهل بيتي. وانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض. فانظروا كيف تخلفوني فيهما.»[2]

وعن زيد بن ثابت ان رسول الله قال:

« اني تارك فيكم خليفتين: كتاب الله حبل ممدود بين السماء والارض (أو ما بين السماء الى الارض) وعترتي اهل بيتي. وانهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض.»[3]

وعن زيد بن ارقم ان رسول الله قال يوم غدير خم:

« كأني دعيت فاجبت. اني قد تركت فيكم الثقلين احدهما اكبر من الآخر: كتاب الله تعالى وعترتي. فانظروا كيف تخلفوني فيهما. فانهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض.»

ثم قال: « ان الله عز وجل مولاي. وانا مولى كل مؤمن.»

ثم اخذ بيد علي فقال:

« من كنت مولاه فهذا وليه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه...»[4]

---

(١) اخرجه الترمذي في صحيحه ج ٥ ص ٣٢٨. وهو الحديث رقم ٣٨٧٤.

(٢) رواه الترمذي في صحيحه ج ٥ ص ٣٢٩ حديث رقم ٣٨٧٦

(٣) اخرجه الامام احمد في الجزء الخامس من مسنده ص ١٨١. وقد رواه بطريقين صحيحين.

(٤) اخرجه الحاكم في صحيحه المستدرك ج ٣ ص ١٠٩.

ان هذه الاحاديث وكثيراً من اشباهها تدل على ان اهل بيت الرسول انما هم الذين تتوفر فيهم الصفات التالية:

(١) انهم **عترته**. وعترة الرجل عشيرته الادنون ممن مضى وبقي وذريته وبذلك يخرج عن دائرة اهل البيت نساء الرسول واصحابه من غير الهاشميين.(٥)

(٢) انهم **في اعلى درجات التقوى** والصلاح لأنهم لا يفارقون القرآن. وغير الاتقياء في خلاف مع القرآن. ولذلك يخرج الهاشميون المرتكبون للذنوب الذين يعصون الله. وبالأحرى، ان يخرج العصاة من غير الهاشميين.

(٣) انهم **في اعلى درجات المعرفة الدينية** واعلم الناس بمضامين القرآن. فالجهلة ومحدودو المعرفة الدينية من الهاشميين، وان كان لهم شرف القرابة من الرسول ليسوا من العترة المعنية. لأن الجاهل ومحدود المعرفة معرض لمخالفة القرآن عمداً أو خطأ وليس لديه اي ضمانة على موافقته قولاً أو عملاً مع مضامين القرآن. وتبعية الناس لمثله والاقتداء به يكون في بعض الاحيان مؤديا الى المخالفة لكتاب الله.

(٤) **ان اهل البيت يجب ان يوافق بعضهم بعضا** لكي يكونوا على اتفاق مع القرآن. ان الذين يتناقضون في تعاليمهم يكون احدهم على خطأ لأن الصدق لا يناقض صدقاً آخر. وربما كانوا جميعا على خطأ لأن الخطأ كما يناقض الصدق يمكن ان يناقض خطأ آخر. وحينما تتناقض تعاليم فريق من العلماء لا يمكن ان يكونوا جميعا على اتفاق مع القرآن.

(٥) **ان تكون معرفتهم الدينية يقينية**. وبذلك يخرج عن دائرة اهل البيت المعنيين جميع المجتهدين من هاشميين واصحاب وتابعين وسواهم. والسر في ذلك ان معرفة المجتهد في غالب مواطن اجتهاده غير يقينية، بل هي ظنية.

---

(٥) في فاكهة البستان العترة بالكسرة ولد الرجل وذريته وعشيرته الادنون ممن مضى وغبر.

ونقول ان معرفة اهل البيت يجب ان تكون يقينية. لا إجتهادية، لأن المجتهد الذي يأخذ بأرجح المحتملات في نظره قد يخالف القرآن وهو غير عامد.

ما دامت معرفته ظنية فليس لديه ولا لدى اتباعه اي ضمانة لأن يكونوا على اتفاق مع القرآن. ولذلك نرى المجتهدين يختلفون ويتناقضون في آرائهم.

ان الاحاديث التي مرت تدل بوضوح على ان معرفة اهل البيت الدينية معرفة يقينية لا اجتهادية. وإلَّا، لافترقوا في كثير من الأحيان عن القرآن. وبهذا يكون مجتهد كابن عباس خارجا عن دائرة اهل البيت المعنيين بالرغم من علو مقامه وانه ابن عم الرسول، فضلا عن بقية الاصحاب الذين ليسوا من اقرباء الرسول ولا بلغوا مثل علم ابن عباس.

فالمجتهدون كلهم بالرغم من انهم مأجورون على اجتهادهم المخلص سواء اصابوا أو أخطأوا ليسوا من اهل البيت الذين عناهم الرسول في تصريحاته السابقة.

كيف يكون كل علمهم يقينيا؟

وقد يسأل القارىء: كيف يمكن لأعضاء اهل البيت ان يحصلوا على معرفة يقينية في جميع آيات القرآن وجميع الاحكام الشرعية والسنن النبوية؟

والجواب عن ذلك ان حصولهم على المعرفة اليقينية كان ممكنا جداً. لقد كان من الممكن للرسول ان يُعلم تلميذا ذكياً بارزاً كعلي بن ابي طالب كل معاني آيات القرآن وجميع ما يتعلق بالعقيدة الاسلامية وجميع القوانين الاسلامية التي لا يتجاوز عددها بضعة الوف. ومن المعقول ان يكون علي علَّم ولديه الحسنين كل ما علمه رسول الله اياه. وهكذا نتمكن ان نتصور أن عليا وولديه قد حصلوا على معرفة يقينية كاملة.

ان هذا الافتراض يتفق جدا مع الواقع. فعلي كان مع رسول الله منذ ايام صغره الى يوم وفاته. وكان تلميذه الأمين الحافظ الذي يحضر جلساته العامة ويخلو به في خلواته الخاصة. وهو ذلك الذكي القلب المخلص لله في سريرته وعلانيته. وولداه الحسنان عاشا معه السنين الطوال. وهما ذانك الصِّدّيقان الطاهران الشبيهان بجدهما وابيهما وما علماه علَّماه لأفضل ذرية الرسول وعلي.

كيف نميز مجموعة

وقد يسأل القارىء: هب ان هنالك مجموعتين من العلماء المنتسبين الى الرسول، وان اعضاء كل واحدة من المجموعتين متفقون مع انفسهم ومختلفون رأياً مع اعضاء المجموعة الأخرى. فكيف يمكن لنا ان نعرف اي المجموعتين هم العترة التي ارشد النبي الى اتباعها؟

ولكن القارىء نفسه يتمكن ان يزيل هذا الالتباس لو وقع، بان يعود الى قراءة حديث زيد بن ارقم المتقدم الذي اورده الحاكم في الجزء الثالث من صحيحه المستدرك والذي يصرح باسم واحد من اعضاء العترة وهو الامام علي.

فالمجموعة الحقة التي هي العترة التي تتفق مع هذا العضو البارز. والمجموعة التي تخالفه لا تكون من العترة وان كان كل عضو منها منتسبا الى رسول الله.

على ان التباسا كهذا أو سواه يزول تماما حينما نضم الى هذه الاحاديث الواصفة احاديث التسمية:

– ٣ –

احاديث التسمية

من الاحاديث التي ذكرت اعضاء اسرة آل محمد باسمائهم ما يلي:

روى مسلم في صحيحه عن سعد بن ابي وقاص انه قال: « .... ولما نزلت هذه الآية: فقل: تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم.... دعا رسول الله عليا وفاطمة وحسنا وحسينا فقال: « اللهم هؤلاء اهلي. »[٦]

وروى الترمذي في صحيحه عن عمر بن ابي سلمه انه قال: « نزلت هذه الآية على النبي (ص): ﴿انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا.﴾ في بيت ام سلمه. فدعا النبي فاطمة وحسنا وحسينا فجللهم بكساء وعلي خلف ظهره فجلله بكساء ثم قال: اللهم هؤلاء اهل بيتي فاذهب عنهم

---

(٦) ج ١٥ ص ١٧٦. وقد روى ذلك ايضا كل من الترمذي والحاكم والبيهقي.

الرجس وطهرهم تطهيرا. قالت ام سلمه: وانا معهم يا رسول الله؟ قال: انت على مكانك وانت الى خير.» قال الترمذي وفي الباب عن ام سلمه ومعقل ابن يسار وابي الحمراء وانس بن مالك.[٧]

وروى الامام احمد في مسنده عن ام سنمه زوجة الرسول انها قالت: «في بيتي نزلت آية: انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ويطهركم تطهيرا، وفي البيت فاطمة وعلي والحسن والحسين فجللهم بكساء كان عليه ثم قال: (اللهم) هؤلاء اهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.» [٨]

وروى مسلم عن عائشة زوجة الرسول انها قالت: خرج رسول الله وعليه مرط مرجل من شعر اسود فجاء الحسن فادخله ثم جاء الحسين فادخله ثم جاءت فاطمة فادخلها، ثم جاء علي فادخله ثم قال: «انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا.» [٩]

وعن الدر المنثور للسيوطي (في تفسير القرآن) الروايتنان التاليتان:

يقول ابو الحمراء (من اصحاب الرسول) حفظت من رسول الله ثمانية اشهر بالمدينة ليس مرة يخرج الى صلاة إلاَّ اتى الى باب علي فوضع يده على جنبتي الباب ثم قال: «الصلاة الصلاة. انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا.»[١٠]

وعن ابن عباس. قال شهدنا رسول الله تسعة اشهر يأتي كل يوم باب علي بن ابي طالب عند وقت كل صلاة فيقول: «السلام عليكم ورحمة الله اهل البيت. انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا.»[١١]

وقد روى انس بن مالك ان رسول الله، استمر يقول ذلك ستة اشهر[١٢]

ان هذه الاحاديث واضحة الدلالة على ان كلاًّ من هؤلاء الاربعة عضو من

---

(٧) ج ٥ ص ٣٢٨ (رقم الحديث ٣٨٧٥).

(٨) ج ٦ ص ٢٩٢. وذكر السيد التقي الحكيم في كتابه اصول الفقه المقارن ص ١٥٥ - ١٥٦. نقلا عن كتاب الدر المنثور للسيوطي ج ٥ ص ١٩٨. إن الحاكم والبهقي رويا هذا الحديث.

(٩) صحيح مسلم ج ١٥ ص ١٩٢ - ١٩٥.

(١٠)و(١١) ج ٥ ص ١٩٨ (الفقه المقارن للحكيم ص ١٥٥)

(١٢) رواه احمد في مسنده ج ٣ ص ٢٨٦

اعضاء اهل الرسول. كما انها تنفي عضوية اي شخص آخر من الذين كانوا على قيد الحياة في زمن الرسول سواء كان ذلك الشخص من الهاشميين أو من زوجات الرسول. ان قوله (ص) اللهم هؤلاء اهلي واضح الدلالة على انحصار العضوية في اولئك الاربعة في ايام حياته الشريفة.

فكل من سواهم حتى عمه العباس وجعفر بن ابي طالب وسائر الأحياء من الهاشميين زمن التصريح خارج عن دائرة العترة المعنية وان كانوا جميعاً من عشيرته الاقربين.

على ان هذا الحصر لا يخرج كل من ولد من الهاشميين بعد وفاته. فقد ذكر في احاديث الصنف الأول ما يدل على ان اعضاء من اهل بيته وعترته سوف يوجدون، بعد حياته خلال عديد القرون. لقد صرح الرسول في تلك الأحاديث ان القرآن واهل بيته لن يفترقا حتى يردا على الحوض.

اما كيف نعرف عضوية الاعضاء الذين يولدون بعد الرسول فذلك موكول الى الاعضاء الذين عاصروه. ان اي واحد من هؤلاء كان يتمكن ان يسمي خلفه، ان كان خلفه من اعضاء العترة، ويدل الناس على اهليته وعلو درجته في التقوى والصلاح والعلم والحكمة. وخلفه بدوره يسمي من يخلفه.

واذ عرفنا مكان اهل بيت الرسول في الاسلام واعضاء الاسرة المباركة الذين كانوا في عصر الرسول، فمن الجدير ان نتحدث في الصفحات الآتية عن ابرز اعضاء هذه الاسرة. ذلك الامام علي بن عم الرسول الذي حباه الرسول بأعلى رتب التشريف.

---

(١٢) رواه احمد في مسنده ج ٣ ص ٢٨٦.

ذَوو الدَور الاصيل

الفصل الثالث

اذا نظرنا الى الاحداث الكبرى التي تناولت امة أو امما بما فيها الرسالات الدينية وانتشارها، ونظرنا الى الذين عاصروا بدءها والمراحل الاولى التي مرت بها، نجد ان تلك الاحداث وتطوراتها الاولى لا ترتبط بمعظم الذين عاصروها سواء كانوا افرادا أو مجموعات صغيرة. فوجود هذا الجندي أو ذلك المزارع أو العامل، أو التاجر أو السياسي مثلا أو عدم وجوده، ما كان ليؤثر في تلك الاحداث وتطوراتها سلبا أو ايجابا. فكل فرد الا القليل القليل كان يمكن ان يستغنى عنه في بروز تلك الاحداث باحلال انسان آخر محله ليقوم بمثل دوره المتواضع.

ان ما تقوم به امة من الامم من اعمال كبرى يرتبط غالبا بمجموع الامة ولا يرتبط بمعظم الذين تتألف منهم الامة من الافراد والمنظمات الصغيرة ذات الادوار العادية المتواضعة. فهؤلاء كعمال يعملون في اقامة بناء. كل منهم له اثره في تشييده. ولكن كل واحد منهم يمكن ان يستبدل بمثله ليقوم بمثل دوره. وانما يستثنى من ذلك بعض المجموعات وبعض الافراد الذين قاموا أو يقومون بادوار يصعب على سواهم (أو لم يشأ سواهم) القيام بها. هؤلاء ما كان يستغنى عنهم وكان يصعب استبدالهم بسواهم. وهؤلاء ارتبطت بهم الاحداث ارتباطا وثيقا.

ولذلك يحق لنا ان نعتبر وجود أي من الذين قاموا بأدوار متواضعة (وهم الاكثرية الساحقة من كل امة) بالنسبة الى الاحداث الكبرى اتفاقيا ومصادفا. وان كان كل شخص بنظرة علمية يأتي نتيجة لسلسلة اسباب تتابعت وتظافرت لتبعثه الى الوجود. ونقول ان وجود هذا الانسان او تلك المجموعة الصغيرة مصادف واتفاقي بالنسبة الى حادث مصيري لأن ذلك الحادث كان يمكن ان يتحقق مع ذلك الوجود وبدونه. اذ يمكن ان يحل محل هذا الفرد فرد آخر ومحل هذه العائلة أو القبيلة عائلة أو قبيلة اخرى وان يقوم بمثل دوره أو دورها. **واود ان اوضح للقارىء ان ما اقصده هو ان الاحداث الكبرى لا ترتبط بوجود اي انسان بمفرده ولا بوجود اي مجموعة صغيرة بمفردها، ولكنها ترتبط بمجموع الأفراد غالبا وبوجود بعض الافراد والمجموعات الصغيرة احيانا حيث يكون دور هؤلاء بارزا جدا.**

واذ نلقي نظرة على نشأة الاسلام وانتشاره ايام النبوة نجد ان الاسلام كان يرتبط ارتباطا وثيقا ايجابيا بقليل من الافراد وقليل من المجموعات.

وان من نافلة القول ان نتحدث عن ارتباط الأسلام بشخص الرسول الاعظم. فهو الذي تلقى الوحي وحمل الرسالة ولقي ما لم يلقه احد من صعوبات. وهو الانسان الوحيد الذي اهلته صفاته لتلقي الوحي. والله اعلم حيث يجعل رسالته.

واذ كان الاسلام مرتبطا بشخص الرسول الاعظم بدءاً واستمرارا خلال ايام النبوة فانا نجد إستمرار الاسلام في تلك الحقبة مرتبطا بثلاث مجموعات صغيرة حافظت على حياة الرسول وبذلت في سبيل الدفاع عنه كبار التضحيات.

دور هاشم:

اولى هذه المجموعات قبيلة هاشم (ومعها بنو المطلب) الشجرة المباركة التي كان الرسول اشرف ثمارها، والتي بذلت في سبيل حماية الرسول والمحافظة على وجوده الشريف ما لم تبذله اي قبيلة من قبائل مكة خلال السنين التي قضاها النبي منذ مبعثه الى بدء هجرته. هذه المجموعة المباركة تفردت بشرف الدفاع عن الرسول خلال تلك السنوات. ولم تختر أي قبيلة اخرى ان تشاركها في هذا الشرف، بل شاءت بقية القبائل المكية ان تتخذ من النبي ورسالته وعشيرته موقفا عدائيا احاط الرسول واعضاء عائلته بأخطار كانت تتهدده وتتهددهم باستمرار. ولذلك يمكننا ان نقول ان وجود بقية القبائل المكية بالنسبة الى استمرار الرسالة كان اتفاقياً مصادفا. اذ ان تلك القبائل لم تقدم كمجموعات اي عون للرسالة.

وغني عن القول ان افرادا ينتمون الى بعض تلك القبائل آمنوا بالرسول وضحوا في سبيل رسالته ولكنهم قاموا بذلك كافراد. اما المجموعات التي كانوا ينتمون اليها فقد وقفت منه موقفا سلبيا واضطهدت اولئك الافراد الذين خرجوا على خطها العدائي.

ولذلك نقول ان وجود تلك القبائل كمجموعات بالنسبة الى استمرار الرسالة في تلك الفترة كان مصادفا دون اثر ايجابي. بلى ان وجود تلك القبائل كان ذا تأثير سلبي. فلو ان امية ومخزوما وزهرة وجمحا وسائر القبائل المكية المعادية

كانت غير موجودة لتحرر النبي ورسالته من اخطار كثيرة. وقد ذكر الامام علي في كتاب وجهه الى معاوية ما يلي:

«فأراد قومنا قتل نبينا واجتياح اصلنا. وهموا بنا الهموم وفعلوا بنا الافاعيل، ومنعونا العذب واحلسونا الخوف، واضطرونا الى جبل وغر واوقدوا لنا نار الحرب، فعزم الله لنا الذب عن حوزته والرمي من وراء حرمته. مؤمننا يبغي بذلك الاجر، وكافرنا يحامي عن الاصل. ومن اسلم من قريش خلو مما نحن فيه بحلف يمنعه أو عشيرة تقوم دونه. فهو من القتل بمكان آمن.

وكان رسول الله اذ احمر البأس واحجم الناس قدم اهل بيته فوقى بهم اصحابه حر السيوف والاسنة....»(١)

دورا الاوس والخزرج

وهكذا تفردت هاشم بشرف حماية الرسول والمحافظة على وجوده كما تفردت بشرف القرابة منه.

اما المجموعتان الاخريان اللتان ارتبط استمرار الاسلام بهما ارتباطا وثيقا في مرحلة اخرى فهما قبيلتا الاوس والخزرج اللتان تفردتا من بين القبائل العربية غير الملكية بشرف الدفاع عن الرسول ورسالته بعد الهجرة وبذلت في سبيل ذلك عظيم التضحيات. ولو شاءت قبائل اخرى ان تشاركها في هذه الشرف العظيم لفعلت ولكنها لم توفق لذلك، بل اختارت لنفسها عار قتال الرسول بدلا من شرف مؤازرته.

وهكذا ارتبط استمرار الرسالة وتقدمها بهذه القبائل الثلاث وكان وجود بقية القبائل اقل من مصادف واتفاقي بالنسبة الى الاسلام في تلك الفترة اذ كان ذا تأثير سلبي كثير الاخطار على النبي ورسالته

-٢-

واذا كان لهذه المجموعات الثلاث ذلك الارتباط الوثيق بالرسالة فان التاريخ

---

(١) نهج البلاغة ج ٣ ص ٩

الاسلامي يبرز لنا شخصين كان وجودهما جوهريا وضروريا في تلك الفترة الحاسمة بالنسبة الى سلامة الرسول واستمرار رسالته ببقائه.

ابو طالب:

(١) احد هذين الرجلين ابو طالب عم الرسول وكافله في ايام صغره والمدافع الرئيسي عنه بعد مبعثه. لقد كانت حماية هذا البطل لابن اخيه الرسول ودفاعه عنه ضد تهديدات قريش عاملا رئيسيا في استمرار حياة الرسول واستمرار رسالته. لقد ظلت قبائل قريش تتلظى غيظا على الرسول سنين عديدة وتود ان تسفك دمه مواجهة أو غيلة. وكان من اليسير لها ان تفعل ذلك لولا ابو طالب شيخ البطحاء الذي قاد الهاشميين وجعل منهم ومن نفسه جدارا حصيناً حول الرسول لا يخترق.

ان قراء التاريخ الاسلامي يعرفون كيف وجهت قبائل قريش الى ابي طالب انذارا نهائيا ليكف ابن اخيه عن شتم آبائهم وعيب آلهتهم وتسفيه احلامهم والاّ نازلوه واياه حتى يهلك احد الفريقين.

ومع انه لم يكن في ذهن ابي طالب شك في ان قبوله التحدي القرشي سوف ينتهي بهلاكه وهلاك اسرته بما فيهم الرسول، فانه لم يضغط على ابن اخيه ليكف. بل حدثه بما وجهت اليه قريش من انذار ثم قال له مقترحا في رفق: «فابق علي وعلى نفسك يا بن اخي ولا تحملني من الامر ما لا اطيق.»

وحينما جاء رد الرسول قاطعاهازئابتهديدهم مترفعاحتى عن ذكره ومعلنا لعمه انه لا يرضى حتى ملكوت الارض والسماء بديلا عن رسالته، وانه لن يترك تلك الرسالة حتى يظهرها الله أو يهلك فيها، لم يتردد شيخ البطحاء لحظة واحدة في ان يسير مع الرسول الى النهاية. فقد ناداه بعد ان ولى قائلا: أقبل يا بن اخي. فلما اقبل عليه الرسول قال له:

«اذهب يا بن اخي فقل ما احببت. فوالله لا اسلمك لشيء ابداً.» (٢)

وقد نفذ ابو طالب هذا الوعد الضخم الذي قطعه على نفسه للرسول، اذ صمد كالطود لا تهزه الاخطار ولا تثنيه الصعاب، ولا تخيفه قوى الشر. القى شقي من

---

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٢٦٦

المكيين على الرسول فرثا وهو ساجد فمضى ابو طالب شاهرا سيفه متأبطا يد ابن اخيه. وحينما رآه جمع منهم جالسون في فناء المسجد الحرام وهموا بالتصدي له قال لهم: «والذي يؤمن به محمد لئن قام منكم احد لاعاجلنه بسيفي». ومضى يضع الفرث على وجوههم ولحاهم.

وتحالفت قبائل قريش على ابي طالب واسرته ولجأت الى سلاح التجويع بدلا من القتال علما بان الهاشميين سوف يقاتلون ان قوتلوا وان استئصالهم يكلف قريشا غاليا من الارواح. فضربت عليهم حصارا اقتصاديا واجتماعيا استمر ثلاثة اعوام الجأهوهم خلالها الى ان يقيموا في جبل وعر عرف فيما بعد بشعب ابي طالب. وقد اضطر الهاشميون خلال تلك المدة ان يأكلوا ورق الشجر احيانا ليخففوا وطأة الجوع.

وفي كل ذلك كان هم الشيخ البطل ان يحافظ على حياة الرسول.

وكان ابو طالب خلال تلك السنين كثيرا ما يضجع بعض اهله، وبصورة خاصة ولده عليا، على فراش الرسول واقيا اياه باعز احبائه خطر الاغتيال.

-٣-

اسلام ابي طالب

ومن العجيب ان يسجل العديد من المؤرخين والمحدثين في كتبهم ان ابا طالب مات على الشرك ويروون ان الآية: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولي قربى بعد ما تبين انهم اصحاب الجحيم.﴾ نزلت في ابي طالب اذ أراد النبي ان يستغفر له، فنهي عن ذلك.

وارى ان الاحاديث التي رويت في هذا الموضوع موضوعة، وانها جزء من الحملة التي شنها الامويون واحلافهم على الامام علي، وانهم كانوا يقصدون من وراء هذه الاحاديث ان يثبتوا لعامة الناس ان ابا سفيان والد معاوية خير من ابي طالب والد علي لأن ابا سفيان مات مسلما وابا طالب مات مشركا.

احاديث لا تتفق مع تاريخ نزول الآية

وقد اخذ المحدثون والمؤرخون بتلك الروايات الموضوعة دون ان ينتبهوا الى

الحيثيات التي تدل على وضعها ودون ان يحاولوا تمحيصها. هذا في حين ان تاريخ نزول الآية الكريمة يشهد بأنها لم تنزل في شأن ابي طالب. فالآية جزء من سورة براءة، وهي سورة مدنية بكل آياتها ما عدا الآيتين الآخيرتين (رقم ١٢٩ و١٣٠) والآية المذكورة هي الآية رقم ١١٤. والواقع ان هذه السورة نزلت في السنة التاسعة بعد الهجرة. وقد امر النبي ابا بكر ان ينادي في ايام الحج من تلك السنة بالجزء الاول من تلك السورة اذ ارسله اميرا على الحج.

ثم ارسل بعد ذلك عليا فأخذ ذلك الجزء منه لأن الوحي نزل على النبي يأمره بأن لا يبلغ عنه احد الا هو أو رجل من اهل بيته. والسورة تتحدث عن حوادث وقعت في غزاة تبوك التي كانت في رجب من السنة التاسعة.

واذا كانت السورة بما فيها هذه الآية قد نزلت في السنة التاسعة بعد الهجرة فلن تتناول الآية ابا طالب الذي توفي في مكة قبل الهجرة بسنتين على الاقل.

فالاستغفار للميت عادة يكون حين اداء الصلاة عليه قبل دفنه. ويدل على ذلك قوله: « ما كان للنبي والذين آمنوا » اذ يشعر ذلك بان النبي لم يكن المصلي الوحيد في الحادثة التي نزلت فيها الآية، بل كان معه جماعة من المؤمنين في صلاة جامعة.

والواقع ان صلاة الميت لم تشرع قبل الهجرة. واول صلاة اقامها الرسول على ميت كانت صلاته على البراء بن معرور الانصاري في المدينة.

واحرى ان تكون الآية قد نزلت على النبي بعد ما صلى على احد المنافقين الذين كانوا يظهرون الاسلام ويبطنون الشرك. والمرجح ان يكون ذلك المنافق عبد الله بن ابي سَلول الذي مات في تلك السنة وكان علما في نفاقه وبغضه للرسول والاسلام. وفيه وفي اتباعه نزلت سورة « المنافقون » من قبل.

ولو ان المحدثين والمؤرخين الذين اثبتوا في كتبهم (عن غفلة وحسن نية) فرية اشراك ابي طالب فكروا قليلا بمنطق سليم لما وقعوا في هذا الخطأ التاريخي الفاحش.

ان القول باشراك ابي طالب يعني انه كان يعتقد بألوهية الاصنام ولن يجتمع

ايمانه بألوهية الاصنام مع ايمانه بصدق محمد الذي كان يخبر عن الله ووحيه ويدعو الى عبادة الاله الواحد القهار بناء على رسالة سماوية، تلقاها من جبرئيل عن الله عز وجل، تنبىء بان عبادة الاصنام وتأليهها تحد لله الواحد الخلاق. فهو اذ يعتقد بألوهية الاصنام اما ان يعتقد بأن محمدا كان يقول غير الحق عامدا؛ واما ان يعتقد بأن محمدا يقول ما يقول متخيلا هاذيا شأن الموسوسين الذين يتحدثون عن اشياء وهمية وكأنهم يرونها.

واذا كان ابو طالب مشركا مؤمنا بالوهية الاصنام وقام بكل ما قام به من تضحيات في سبيل محمد، فلا بد لنا من ان نعتبر ابا طالب نفسه احد المجانين واحمق الحمقاء، سواء كان معتقدا بأن محمدا يقول غير الحق متعمدا أو كان معتقدا بأنه موسوس.

لو كان ابو طالب مشركا وعاقلا، ومعتقدا بان محمدا يقول غير الحق متعمدا وكان يرى ان دعوته، كما كانت تبدو، ستجر عليه وعلى قبيلته جوع سنوات وخرابا ودمارا وموتا لكان عليه على الاقل ان يزجره بشدة ويوقفه عند حده وان يكون اشد الناس عليه لان المكيين سيعتبرونه مسؤولا عن كل آثام ابن اخيه.

ولو كان ابو طالب مشركا عاقلا ومعتقدا بأن ابن اخيه موسوس ويرى ان دعوته، كما كانت تبدو، مبيدة مهلكة له ولأهله، لكان عليه ان يشده وثاقا ويحبسه ويعلن للملأ انه هاذ لا يسأل عما يقول.

ولكن ابا طالب ربط مصيره بمصير ابن اخيه وسار معه الى النهاية غير عابىء بما سيحيق به وبعشيرته. ورأى الاخطار محيطة به والآلام الكبرى تتراكم عليه وعلى عشيرته من جراء حمايته له. ولم ينقل التاريخ ان ابا طالب بالرغم من كل ما حدث له ولاهله قال لابن اخيه كلمة غليظة أو نابية. بل بذل نفسه واهله فداء له، وعامله بما لم يعامل به اب رؤوف احب ولده. وقال له: يا بن اخي اذهب فقل ما احببت فوالله لن اسلمك لشيء ابدا.

واذ فعل ابو طالب ذلك فاما ان يكون رجلا عظيم الايمان بصدق محمد الى

درجة رأى معها ان الخسارة في هذه الدنيا مهما عظمت لا تعادل ما يجنيه من رضا ربه في تعضيد رسالته. واما ان يكون ابو طالب مجنونا شديد الحماقة يتحمل مالا يتحمل من آلام وخسارة في سبيل تعضيد رجل غير صادق يقوم بدعوة ليس لها بصيص امل من النجاح. فقد عاش ابو طالب مع هذه الدعوة احدى عشرة سنة وكانت الشدائد على محمد وعليه تزداد حجما كلما تطاول الزمن.

بالطبع لن يقول عاقل بأن ابا طالب الشريف الذكي الحكيم البطل كان مجنونا. وابسط قواعد المنطق تحملنا على القول بأنه كان رجلا على درجة عجيبة من الايمان بالاسلام. ولقد شهد التاريخ ان كبار المؤمنين من الصحابة كانوا يفرون اذا حزب الامر واشتد البأس. ولكن ابا طالب لم يفر ولم يتقاعس طوال احد عشر عاما.

ومن هذا نعرف صحة ما روي عن الامام الصادق عن ابائه عن علي انه كان ذات يوما جالسا في الرحبة في الكوفة والناس مجتمعون حوله. فقام اليه رجل فقال: « يا امير المؤمنين، انت بالمكان الذي انزلك الله به وابوك معذب في النار؟» فقال له الامام: « صه. فض الله فاك. والذي بعث محمدا بالحق نبيا لو شفع ابي في كل مذنب على وجه الارض لشفعه الله فيهم....» (٣)

ان ابا طالب كان، على النقيض مما اثبته هؤلاء المحدثون والمؤرخون، ينطوي على ايمان بالاسلام عميق الجذور ثابت ثبوت الجبال. ايمان لم يهتز لتهديد متواصل ولا لتجويع طويل. وقد كتم ذلك الايمان الراسخ فآتاه الله اجره مرتين. وكان في كتمانه ذلك الايمان يهدف الى المحافظة على حياة الرسول. فلو انه اعلن اسلامه وهو رئيس هاشم وبني المطلب لانقطعت الصلة بينه وبين قريش. وما كان يريد ان ينقطع الحبل والحوار بينه وبين القرشيين الى درجة تؤدي الى انفجار مسلح في معركة فاصلة قد تأتي على حياته وحياة عشيرته. وبذلك ينهار الجدار الهاشمي المضروب حول محمد فيصلون اليه.

وبالرغم من كتمانه لإيمانه فانه لم يتمالك نفسه اكثر من مرة. ففاه بما يجيش به

---

(٣) احتجاج الطبرسي ج ١ ص ٣٤١

ضميره شاعرا مرات وناشراً مرات اخرى، فمن شعره قوله:

«ولقد علمت بان دين محمد — من خير اديان البرية دينا
والله لن يصلوا اليك بجمعهم — حتى اوسد في التراب دفينا»[٤]

وقوله:

«لقد علموا ان ابننا لا مكذب — لدينا ولا يعنى بقول الأباطل
حليم رشيد عادل غير طائش — يوالي الها ليس عنه بغافل
وابيض يستسقى الغمام بوجهه — ثمال اليتامى عصمة للأرامل
فأيده رب العباد بنصره — واظهر دينا حقه غير باطل.»[٥]

وقوله لما بلغه ان قريشا كتبت صحيفة تتعاهد فيها على مقاطعة الهاشميين وحصارهم:

«الا ابلغا عني على ذات بينها — لؤيّاً وخُصًّا من لؤي بني كعب.
الم تعلموا انا وجدنا محمدا — نبيا كموسى خط في اول الكتب
وان عليه في العباد محبة — ولا حيف فيمن خصَّه الله بالحب
وان الذي لفقتم في كتابكم — يكون لكم يوما كراغية السقب»[٦]

اما كلماته المنثورة فاليك منها بعضا من وصيته لذويه وهو في غمرات الموت:

«الا واني اوصيكم بمحمد خيرا فانه الأمين في قريش والصادق في العرب. وهو الجامع لكل ما اوصيكم به. ولقد جاء بأمر قبله الجنان وانكره اللسان مخافة الشنآن.... والله لا يسلك احد سبيله الا رشد، ولا يهتدي بهديه (احد) الاّ سعد. ولو كان في العمر بقية لكففت عنه الهزاهز ولدفعت عنه الدواهي.»

«وانتم يا معشر بني هاشم اجيبوا محمدا وصدقوه تفلحوا وترشدوا.... انصروا محمدا فانه الهادي الى سواء السبيل.»[٧]

---

(٤) في رحاب علي للاستاذ خالد محمد خالد

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ج ص ٢٧٩ - ٢٨٠

(٦) تعليقات السيد محمد باقر الخرسان على الاحتجاج للطبرسي ج ١ ص ٣٤٦

(٧) في رحاب علي لخالد محمد خالد.

جميع المسلمين مدينون لأبي طالب

وليس من المبالغة ان نقول بان المسلمين اجمعين بما فيهم الجيل الحاضر ومن مضى ومن يأتي مدينون في اسلامهم لابي طالب. لأن بقاء الرسالة الاسلامية ثمرة من ثمار حياة الرسول الاعظم واستمرارها الى ان اكمل الله دينه. وكانت حماية ابي طالب للرسول السد المنيع الذي حال بين قريش وبين سفك دم الرسول.

لقد قلت هذه الكلمة في حوار اسلامي ضم عددا من علماء المسلمين فوجه الي احد الحاضرين السؤال التالي:

اذا كان الله هو الذي اراد ان تبقى رسالة الاسلام وتنتشر فانه قادر على نشرها وابقائها بدون ابي طالب وحمايته للرسول. فكيف تقول اننا مدينون في اسلامنا لأبي طالب؟ وقد اجبته بما يلي:

اننا كمسلمين، نؤمن اشد الايمان بان الله اراد للاسلام ان يبقى وينتشر، كما نؤمن بان الله قادر على كل شيء وانه اذا اراد شيئا قال له: كن فيكون. ونؤمن بان الله قادر لا على حفظ حياة الرسول فحسب بل هو قادر على ان يجعل جميع بني آدم مسلمين صحيحي الاسلام مؤمنين بالله ووحدانيته وباليوم الآخر ومطيعين لكل قانون سماوي. وقد كان قادرا على ان يجعل جميع قبائل قريش التي كانت معادية لمحمد مطيعة لمحمد. بل كان الله قادرا على ان يجعل الناس مطيعين لامره بدون ان يخلق محمدا.

ولكننا مع ايماننا بكل ذلك نعرف ان الله لم يفعل ذلك ولم يجعل الناس جميعا مؤمنين ولم يتدخل مباشرة ليحول تفكيرهم وعقائدهم، بل ترك لهم حريتهم ليختاروا الهدى أو الضلالة. ومعنى ذلك ان الله شاء ان لا يسير حوادث العالم باعجاز وتدخل آلهي بل ان يسيرها وفقا للوسائل العادية والاسباب الطبيعية. ولذلك انزل الوحي على بشر اسمه محمد ونشر الاسلام بواسطته، وشاء انلا يجبر قريشا على الطاعة أو المعصية. واختارت قريش ان تعادي محمدا وتقاتله واختار ابو طالب ان يؤمن برسالته وان يدافع عن الرسول بكل ما لديه ومن لديه.

وكانت حماية ابي طالب وذبه عن الرسول سببا من اسباب حفظ حياة الرسول واستمرار دعوته الى ان انتقل ابو طالب من هذا العالم.

هل جزاء الاحسان الا الاحسان؟

واود ان اقول ان نسبة الشرك الى رجل كأبي طالب الذي طوق اعناق المسلمين جميعا بفضله بمحافظته على حياة رسول الاسلام نحواً من احدى عشر عاما لهي من شر انواع العقوق وجزاء لأعظم انواع الاحسان بأعظم انواع الاساءة.

فأعظم بابي طالب البطل واحد الرجلين العظيمين من اتباع الرسول الذين ارتبط استمرار الاسلام بوجودهما وجهودهما ارتباطا وثيقا، فلم يكن وجودهما بالنسبة الى استمرار الاسلام مصادفا واتفاقيا.

-٥-

وعلي ذو الدور الاصيل

اما الرجل الثاني الذي ارتبط استمرار الاسلام في ايام الرسول بوجوده ارتباطا قويا فهو ابن ابي طالب علي الذي تولى بعد وفاة ابيه البطل نفس المهمة الكبرى ولكن على نطاق اوسع.

كثيرون من اصحاب الرسول الابرار قاموا بجهود كبرى في سبيل الاسلام واسدوا لنبي الاسلام معونات تشكر وتذكر. ويكفي ان نذكر الخلفاء الثلاثة ابا بكر وعمر وعثمان والعديد من الصحابة المكيين الآخرين امثال الزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وابي عبيدة ابن الجراح وسعد بن ابي وقاص والمقداد بن الاسود وعبدالله بن مسعود وعمار بن ياسر، والمجاهدين من المدنيين امثال ابي دجانة وسعد بن عبادة وسعد بن معاذ وابي ايوب الانصاري وابي طلحة وقيس بن سعد وآخرين من سوى البلدين المذكورين امثال ابي ذر وسلمان الفارسي، ومئات سوى من ذكرنا. هؤلاء جميعا جاهدوا في سبيل الله باموالهم وبانفسهم أو بكليهما

ولكن اذا نظرت في احداث ايام النبوة ونظرت الى الإدوار التي قام هؤلاء الاصحاب رضوان الله عليهم تجد انه كان من الممكن ان يستبدل اي واحد منهم بآخر ليقوم بنفس دوره.

فقد كان بالامكان ان يستبدل ابو بكر بعمر ليقوم بمثل دوره وكان يمكن ان يستبدل ابو بكر وعمر وعثمان بابي عبيدة بن الجراح وطلحة والزبير. وكان بالامكان ان يستبدل سعد بن عبادة بسعد بن معاذ أو بابنه قيس بن سعد بن عبادة؛ أو يستبدل ابو ذر بسلمان أو عمار بن ياسر أو المقداد بن الاسود. فادوار هؤلاء متقاربة حجما واهمية ان لم تكن متماثلة. ولو كان عمر صاحب رسول الله في الغار بدلا من ابي بكر لقام بمثل دوره دون ان يفقد رسول الله شيئا.

ولكن الدور الذي قام به علي في المحافظة على حياة الرسول ما كان ليقوم به الا علي. وما كان علي بالذي يستبدل. لقد كان بامكان علي ان يقوم باي دور قام به اي صحابي في زمن الرسول، ولكن لم يكن بامكان اي صحابي آخر ان يقوم بدور علي.

وكان من السهل على علي ان يكون صاحب الرسول في الغار ولكن لم يكن من اليسير لأبي بكر أو عمر أو اي صحابي آخر ان يبيت على فراش الرسول ليلة الهجرة فاديا للرسول بنفسه موطنا نفسه على تلقي الهجوم القرشي المنتظر الذي يقوم به عشرة من انجاد الرجال الذين كان يشاطرهم في رأيهم وتصميمهم مئات بل الوف من المكيين.

وما كان بامكان احد من الاصحاب ان يقوم بدور علي في بدر اذ تولى ابادة نحو من نصف من قتل من قريش في تلك المعركة ورجح بجهوده الفردي كفة الجيش الاسلامي الصغير، حيث كان مصير الاسلام كله في كفة الميزان.

وما كان بالمستطاع لأي صحابي ان يقوم بدور علي في احدٍ إذْ فرَّ الاصحاب يصعدون ولا يلوون على احد والرسول يدعوهم في اخراهم وافرد النبي ليواجه الوف المشركين بنفسه فلم يبق معه سوى علي يواجه الكتائب الباحثة عن الرسول واحدة بعد اخرى ويجبرها على التراجع الى ان عاد القليل من الاصحاب الى الدفاع عن نبيهم. ولو فر علي مع من فر ووصل المشركون الى الرسول لما كان من المستبعد ان يتغير اتجاه التاريخ. اذا لم ينقذ الله الاسلام ورسوله بمعجزة خارقة للعاده.

هذا بعض من كثير يرينا بوضوح ان جهاد علي، الذي بدا بارزا منذ ليلة الهجرة واستمر الى ان انتقل الرسول الاعظم من هذا العالم، كان عاملا اساسيا في ايصال القوى الاسلامية الى النصر والحاق الهزيمة بالمشركين وسواهم من اعداء الاسلام وانه كان درع الرسول الواقي امام الاخطار التي كانت تحيط بحياته الشريفة.

الشرفان الفريدان

ومعنى ذلك ان عليا تفرد في تلك الفترة من بين اتباع الرسول بالشرفين التاليين:

(١) ان استمرار الاسلام الذي كان مرتبطا بحياة الرسول وانتصاره في تلك البرهة كان مرتبطا بوجود علي وجهاده.

(٢) اما الشرف الثاني فهو ارتباط قيام الدولة الاسلامية بوجوده. فما كان بالامكان ان تقوم للاسلام دولة لو انتصر اعداء الاسلام عسكريا وتمكنوا من يسحقوا القوة الجديدة. واذ كان لجهاد علي اثره الواضح في ترجيح كفة القوة الجديدة في المعارك الفاصلة بين النبي واعدائه، فان من الحق ان نعتبر جهاده احد العوامل الاساسية في قيام الدولة الاسلامية.

وما اصدق الكلمة التي فاه بها عمر بن الخطاب (رضـ) في ايام خلافته حينما قال لرجل اتهم عليا بالتيه:

«والله لولا سيفه لما قام عمود الاسلام.» (٨)

-٦-

شجاعة خارقة يدعمها اخلاص غير مضارع

لم تكن شجاعة علي وقوته الجسدية الخارقتان لتجعلا منه درعا واقيا للرسول ولا لترتبطا استمرار الاسلام ونشوء الدولة الاسلامية بوجوده لو لم تقترنا باخلاص لدين الله غير مضارع وبصيرة نفاذة تتكشف لها غوامض الحقائق.

---

(٨) شرح النهج لابن ابي الحديد، مجلد ٣ ص ١١٥

فكم من رجال اشداء توفرت فيهم القوة والشجاعة ولكن اعوزهم عرفان الحق أو الاخلاص له، فبذلوا ما اوتوا من قوة في سبيل نصرة الباطل ومصارعة الحق أو عكفوا على عبادة انفسهم فبذلوا كل جهودهم في سبيل مجد زائف أو مادة تافهة.

ولكن عليا كان من نادري الوجود الذين وصفهم هو في بعض كلماته فقال: « هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وانسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بابدان ارواحها معلقة بالمحل الاعلى. اولئك خلفاء الله في ارضه، والدعاة الى دينه.» [٩]

اعد للمهمة منذ الطفوله

ولئن أرتبط استمرار الاسلام ونشوء الدولة بجهاد علي بعد ان بلغ اشده فان عليا كان قد اعد لذلك الشرف منذ ايام طفولته. فقد تفرد بشرف ارتباط وجوده بوجود الرسول الاعظم، اذ حدب عليه في صغره وضمه الى نفسه ووجه عقله اللقن الصافي وطبيعته النيرة الى ذات الحق وسقاه فارواه من ينبوع علمه وايمانه وحكمته وطهره.

مولده وتربيته

على يد ذلك المربي العظيم ترعرع علي واكتملت صفاته فكان مرآة صافية تعكس اضواء النبوة.

ولدت فاطمة بنت اسد، زوجة ابي طالب (التي كان الرسول يعتبرها امّاً ثانية) عليافي الكعبة، فكان اول انسان ولد في بيت الله الحرام. وكان مولد علي بعد مولد الرسول بثلاثين سنة وقبل الهجرة بثلاث وعشرين.

سمته امه حيدره أو اسدا وسماه ابوه عليا ووافق الاسمان مسماهما فكان اسد الله واسد رسوله واعلى الناس شأنا بعد الرسول.

واصاب اهل مكة ازمة شديدة وكانت مقدرة ابي طالب على الانفاق لا

---

(٩) نهج البلاغة ج ٤ ص ٣٧ - ٣٨

تتناسب مع عدد اعضاء عائلته. فاقترح النبي على عمه العباس ان يخففا عن ابي طالب فيأخذا من ولده اثنين. واجابهما ابو طالب الى ما طلبا، فأخذ العباس جعفرا واخذ النبي عليا. وبقي علي مع الرسول الى يوم مبعثه.[10]

لقد كان بامكان الرسول والعباس وهما من ذوي اليسار، ان يقدما لابي طالب ما كان يحتاج اليه في تلك الازمة من طعام ويبقيا علياً وجعفرا مع ابويهما. ولكن الرسول اختار ان يضماهما اليهما. ويبدو ان الرسول اغتنم فرصة حلول الازمة فأخذ عليا ليوفر له بتربيته اياه غذاءه الروحي الى جانب غذائه الجسدي، وليعده للمستقبل العظيم الذى كان ينتظره.

رأى في علي كنزه الثمين

وكأنه كان يريد ان يفعل ذلك لو لم يصب قريشا ما اصابها من ازمة. ان النبي كان ينظر بنور الله فيرى ان في نفس علي كنزه الثمين. واراد ان يستخرج ذلك الكنز ويطوره. والنبي نفسه يخبرنا ان علاقة علي معه لم تكن وليدة صدفة. فقد قال له يوما:

« يا علي، الناس من شجر شتى وانا وانت من شجرة واحدة ثم قرأ رسول الله (ص) قوله تعالى: «﴿وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان تسقى بماء واحد.﴾[11]

بالطبع لم يعن الرسول بأنه وعليا من شجرة واحدة انه قريبه وابن عمه وان جدهما عبد المطلب، فذلك امر واضح يعلمه علي ويعلمه كل من عرفهما، ولا يجدر بالنبي ان يتحدث الى علي او الى الناس عن امر واضح كهذا. ومع ذلك لم يكن علي وحده من شجرة عبد المطلب ليخصه بذلك، فالعباس وحمزة كانا ابني عبد المطلب، وجعفر وعقيل كانا اخوي علي. وقرابتهما من النبي مثل قرابة علي منه

---

(١٠) رواه الحاكم في مستدركه (ج ٣ ص ٥٧٦) بسنده عن مجاهد. ورواه ابن هشام في سيرته ج ١ ص ٢٤٦.

(١١) المستدرك ج ٢ ص ٢٤١

تماما.

ان ما قصده الرسول هو ان نفس علي تتجانس مع نفس الرسول وانها اقرب النفوس الى نفسه صفات وكمالا. وان عليا يرتبط روحيا مع الرسول ارتباط شجرتين متلاصقتين نمتا من اصل واحد. وهذا ما عبر عنه علي حينما قال:

«وانا من رسول الله كالصنو من الصنو والذراع من العضد.» (١٢)

ويظهر ان الرسول ضم عليا اليه وهو صغير جدا وانه كان يحبه حبا شديدا يفوق حب الوالد لولده. ويتحدث علي عن ذلك فيقول:

«وقد علمتم موضعي من رسول الله (ص) بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة. وضعني في حجره وانا ولد. يضمني الى صدره، ويكنفني الى فراشه ويمسني جسده ويشمني عرفه. وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه......» (١٣)

والجملة الاخيرة تدل على ان عليا كان مع رسول الله قبل ان تنبت، او قبل ان تكتمل اسنانه، والا لما احتاج الى رسول الله ليمضغ له الطعام.

عاش رسول الله قبل ايام النبوة وكأنه عالم بنفسه بالرغم مما كان يحيط به من مجتمع يغمره الجهل وتعبد فيه الاصنام وتقدس فيه الخرافات وتستحل فيه الحرمات. كان يفكر بما لا تسمو اليه عقولهم ويرتفع بطاهر طبيعته عن دناياهم واوضارهم، ويصله بربه حبل اخلاصه فيرى ما لا يرى الناس ويسمع ما لا يسمعون. فكان كجزيرة علم وحكمة وحضارة يحيط بها محيط من البربرية والجاهلية.

وقد شاء الله لعلي ان يكون جزءاً من ذلك العالم المنفرد الذي يمثله محمد وان يعيش في جو تلك الجزيرة الانسانية الحضارية دون ان يتأثر باخلاق المجتمع الجاهلي الذي كان يحيط به.

ويحدثنا الامام نفسه عن تربية رسول الله اياه وعن تأثيره تلك التربية في

---

(١٢) نهج البلاغة ج ٣ ص ٧٣

(١٣) نفس المصدر ج ٢ (الخطبة القاصعة). ص ١٥٧

تكامل صفاته الخلقية والروحية فيقول:

«وما وجد (رسول الله) لي كذبة في قول ولا خطله في فعل. ولقد قرن الله به من لدن كان فطيما اعظم ملك من ملائكته. يسلك به طرق المكارم ومحاسن اخلاق العالم ليله ونهاره. ولقد كنت اتبعه اتباع الفصيل أثر أمه. يرفع لي في كل يوم من اخلاقه علما ويأمرني بالاقتداء به. يرفع لي في كل يوم من اخلاقه علما ويأمرني بالاقتداء به. ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء، فاراه ولا يراه غيري. ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الاسلام غير رسول الله وخديجة وانا ثالثهما. ارى نور الوحي والرسالة واشم ريح النبوة....» (١٤)

ويبدو ان عليا وصل في معراجه الروحي الذي قادته اليه تربية الرسول الى درجة انه اصبح يسمع ويرى ما يسمعه ويراه الرسول نفسه لدى مبعثه. ويذكر الامام في تتمة حديثه المتقدم ان رسول الله قال له بمناسبة حادث وقع في الايام الاولى من مبعثه: «..... انك تسمع ما اسمع وترى ما ارى الا انك لست ببني ولكنك وزير وانك لعلى خير.» (١٥)

واذ كان علي قد قطع هذا الشوط البعيد في تطوره الروحي وهو بعد لم يبلغ الحادية عشرة من سنيه فقد كان من الطبيعي ان يضم الى شرف ارتباط وجوده بوجود الرسول شرف السبق الى الايمان بنبوته فيكون اول المسلمين واسرع المؤمنين اجابة لدعوة الرسول.

---

(١٤) نفس المصدر ج ٢ ص ١٥٧

(١٥) نفس المصدر ص ١٥٧ - ١٥٨

أول المسلمين

الفصل الرابع

لقد تآزر نقاء طبيعة علي ومقدرته الفكرية واندماجه في حياة رسول الله فمكنه كل ذلك، وهو بعد لم يتجاوز العاشرة من عمره، من ان يفكر تفكير الحكماء وان يقيس ويستنتج ويصل الى نتيجة منطقية لم يصل اليها رجال قريش وشيوخها. لقد رفض المجتمع المكي باكثريته المطلقة ان يفتح عينيه على الحقائق وسد اذنيه عن نداء الرسول مدة ثلاث عشر عاما قائلا: انا وجدنا آباءنا على امة وانَّا على آثارهم مقتدون.

ولقد كان وما يزال السير على طريق الآباء والاجداد الضمانة الاولى ضد تغيير الاديان. ولا يزال الاصرار على طريقة الآباء حائلا بين اساتذة المفكرين الغربيين وبين قبول المبادىء الاسلامية. ولكن عليا وهو في سن حداثته فكر تفكير المستقلين واستنتج استنتاج المتحررين.

دخل علي فرأى محمدا وخديجة يصليان صلاة لم يكن رآها من قبل، فوقف حتى أتمَّا صلاتهما فسأل: لمن تسجدان؟ فاجابه الرسول: «انما نسجد لله الذي بعثني نبيا وامرني ان أدعو الناس اليه.»

ودعاه الرسول الى اعتناق الاسلام وتلا عليه من آيات الذكر الحكيم، فأُخِذَ علي عن نفسه وملأ عقله جمال الآيات، ولكنه استمهل ابن عمه حتى يشاور اباه. وبات علي ليله مفكرا وفي اليوم التالي اعلن لرسول الله اعتناقه للدين الجديد، دون ان يشعر بحاجة الى استشارة ابيه وقال:

«لقد خلقني الله من غير ان يشاور ابا طالب فما حاجتي الى مشاورته لأعبد الله؟»[1]

كلمة قصيرة جدا ولكنها تذيع الشيء الكثير عن استقلال في التفكير والرأي وعمق في الايمان واخلاص للحق ومنطق لا يشوبه تناقض ولا يتأثر بعاطفة القرابه.

انه يحب اباه ويعظمه ويرى ان على الولد حقا ان يشاور اباه. ولكنه يعرف ان الالزام باستشارة الوالد غير مطلق. بل له حدوده. فالاستشارة تكون حيث

---

(١) حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل ص ١٣٨

يشتبه الامر. اما حين ينجلي الحق فان الاستشارة تصبح لغوا. وقد انجلى لعلي قبل انجلاء الصباح ان محمدا رسول الله وانه قد تلقى نداء ربه. وعلى علي ان يستجيب لذلك النداء وان يستجيب فورا.

والأمر جديد كل الجده. وليس يدرى علي ماذا سيكون موقف ابيه من الرسالة الجديدة. فقد يؤمن ابو طالب بما آمن به ولده الصغير وبذلك يتوافق الوالد والولد. وما يضر الوالد بل يسره ان يسبقه ولده الى قبول الحق. وقدا يتردد ابو طالب فلن يسع عليا ان يتأخر في الاستجابة لنداء ربه. وخالق ابي طالب وابنه اولى من ابي طالب بان يطاع.

استفاضة حديث سبقه

لقد استفاض حتى بلغ حد التواتر ان عليا كان اول المسلمين. فقد ذكر ابن هشام ان عليا بن ابي طالب كان اول ذكر من الناس آمن برسول الله وصلى معه وصدق بما جاءه من الله تعالى وهو يومئذ ابن عشر سنين. [٢] وكان رسول الله اذا حضرت الصلاة خرج الى شعاب مكه وخرج معه علي مستخفيا فيصليان الصلاة فيها، فاذا امسيا رجعا.

وروى الحاكم عن انس بن مالك انه قال: «نبيء النبي (ص) يوم الاثنين واسلم علي يوم الثلاثاء.» [٣]

وروى الحافظ محمد بن ماجه في سننه [٤] والحاكم في مستدركه [٥] ان عليا قال:

«انا عبد الله واخو رسوله، وانا الصديق الاكبر. لا يقولها بعدي الا كذاب. صليت قبل الناس بسبع سنين.»

وروى الحاكم ايضا عن سلمان الفارسي ان رسول الله قال: «اولكم واردا

---

(٢) السيرة النبوية ج ١ ص ٢٤٥
(٣) المستدرك ج ٣ ص ١١٢
(٤) ج ١ ص ٤٤ (رقم الحديث ١٢٠)
(٥) ج ٣ ص ١١٢

، (وروداً) على الحوض اولكم اسلاما: علي بن ابي طالب ». [٦]

وروى الامام احمد بن حنبل بسنده عن معقل بن يسار ان رسول الله قال لابنته فاطمة:

« أو ما ترضين اني زوجتك اقدم امتي سلما واكثرهم علما واعظمهم حلما؟ » [٧]

وليس هنالك كثيرون يجادلون في ان علياً كان اول ذكر آمن برسول الله وصلى معه. ولكن هنالك من يجادل في تقييم اسلام علي اذا قيس باسلام آخرين من الصحابة ممن اسلم بعد علي. اذ يقول هؤلاء ان عليا كان لا يزال صبيا في العاشرة من عمره. ولا يتوقع من صبي في مثل هذا السن ان يفكر تفكير الرجال ويصدر في رأيه عن روية وتدبر فيما يعرض عليه من الامور. واحرى بعلي وهو في ذلك السن ان يعتنق الاسلام بدافع التبعية للنبي اذ كان ربيبه وعضوا من اعضاء عائلته.

قد يستقيم هذا اذا اعتبرنا عليا احد الاطفال العاديين ولكن عليا لم يكن عاديا في ايام طفولته ولا كان عاديا في ايام رجولته. وكل الادلة تشير الى انه كان من النوابغ الذين يبكرون في نضوجهم ويتفوقون على الرجال العاديين في تفهمهم للحقائق وان كانوا في دور المراهقة او قبله.

ولو كان علي من الذين يندفعون الى اعتناق رأي بدافع التبعية للنبي (ص). لما طلب من النبي ان يمهله ليستشير اباه، فقد كان النبي مربيه ومعلمه وما كان يتردد في الأخذ بتعاليمه الادبية اذ كان يرفع له في كل يوم من اخلاقه عَلَما ويأمره بالاقتداء به. وكان علي، كما قال، يتبعه اتباع الفصيل أثرامه. لم يستمهله في اتباع اي من تلك التعاليم الخلقية ولكنه حينما عرض عليه دينا جديدا استمهله ليشاور اباه. وقضى ليلته مفكرا. وحينما انجلى له الحق بعد تفكيره قرر ان لا يشاور اباه وان يسرع بالاجابة الى الدعوة النبوية. وجاء الى الرسول فأعلن

---

(٦) المستدرك ج ٣ ص ١٣٦

(٧) المسند ج ٥ ص ٢٦

اسلامه ونطق بكلمته الحكيمة التي لا ينطق بها عاديو الاطفال كلا ولا عاديو الرجال.

صبي فاق الرجال

ودعوة الرسول اياه نفسها تدل على ان الرسول لم يعتبره طفلا عاديا. فما نعرف في التاريخ ان الرسول دعا احدا من الاطفال. بلى انه كان يدعو الرجال والنساء ويعتبر اطفالهم تبعا لهم، لأنهم لا يتمكنون بانفسهم من التمييز بين الحق والباطل. وبالرغم من ذلك فانه ميز عليا فوجه اليه الدعوة الى الاسلام وهو في العاشرة من سنيه. **بلى انه شرفه فدعاه الى الاسلام من دون سائر الاطفال بل دعاه الى الاسلام قبل ان يدعو اليه احداً من الرجال.**

واود ان اقول ان التشكيك في اهمية اسلام علي من اجل حداثة سنه لا يتفق مع ايماننا بحكمة الرسول وصواب رأيه. فالحادث الاسلامي الذي سنتحدث عنه في الفصل المقبل يدل على ان نظرة الرسول الى علي لا تتفق مع نظرة هؤلاء الجادلين. **فاذا كان الجاحظ وامثاله قد حاولوا ان يقللوا من اهمية اسلامه لحداثة سنه فانهم قد نسوا أو تناسوا ان النبي استوزره وامر الرجال بطاعته يوم مؤتمر الدار وكان بعد لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره.**

أخٌ وَوَزِيـرٌ

الفصل الخامس

لقد مرت ثلاث سنين بعد بدء النبوة، والنبي لا يجهر بالدعوة فبقيت حديثا غير معلن لأن اعلانها يعني مجابهة جماهير مكة بما لا تقبله وتصر على رفضه وتحاربه حتى الموت.

المبادىء الجديدة تحتاج الى قوة تحميها

لقد كان النبي يعلم ان قبائل مكة والجماهير العربية من ورائها سوف لا تتردد في استعمال اي وسيلة من وسائل العنف ضده إذا هو اصر على نشر الرسالة واراد منهم ترك دينهم ودين آبائهم.

ولكن هذه المجابهة كانت لا بد منها وهي آتية لا ريب فيها بالرغم من عظيم مخاطرها. فالرسالة لم تنزل على محمد لتبقى حديثا مكتوما وسراً غير مذاع. انها رسالة نزلت لأصلاح البشر وتغيير عقائدهم وطرق حياتهم. ولن يكون ذلك إلاّ بمناداتهم عاليا وانذارهم علناً وتعريفهم عن مضامين تلك الرسالة. وفي الوقت نفسه يريد الله للرسالة ولحاملها النجاح.

ولكن لكي يكتب النجاح لرسالة دينية جديدة (او لأي ايديولوجية جديدة) تتعارض مع رغبات الجماهير يجب ان يتمتع حاملو الرسالة وناشروها (والذين يتوقع ان يعتنقوها) بشيء من حرية القول والعمل.

ان الأفراد العاديين لا يجرؤون على اعتناق مبادىء جديدة إذا كان اعتناقها يعرضهم لغضب المجتمع وضغطه وعنفه سيما إذا كان المجتمع لا يؤمن بحرية الفرد ولا يخضع لقانون.

ان مجتمعاً من هذا النوع يلجأ بطبعه الى العنف في معارضته للمبادىء الجديدة. وليس لدى الكثيرين من الأفراد الجرأة الكافية للوقوف ضد ارادة الجماهير ولا الأستعداد لتحمل الخسائر في الأموال والأنفس في سبيل مثل عليا. لذلك كان من الضروري لنجاح دعوة من هذا النوع ان يتمتع صاحبها، على الأقل، بشيء من حرية القول والعمل.

هذه الحرية لا تتحقق الاَّ إذا كان هنالك من يحميها. وحيث ان المجتمع غير

ديمقراطي وعنيف فلا بد ان يكون لصاحب الدعوة انصار اقوياء مخلصون لديهم الأستعداد لمقابلة العنف بالعنف في سبيل حماية حريتهم وحرية الذين يرغبون في الأنضمام الى المبادىء الجديدة او على الأقل من اجل حرية حامل الرسالة نفسه.

فان لم يتيسر عدد كبير ولا حفنة من المخلصين الذين يقدمون على التضحية في سبيل حماية المبادىء، فمن الضروري ان يوجد على الأقل شخص واحد له مثل قوة صاحب الرسالة وجرأته واخلاصه ليشد ازره ويكون وزيره ورده ودرعه الواقي الذي يخفف عنه الصعوبات ويجابه معه الأخطار.

وأولو الارحام بعضهم اولى ببعض

وأَحْرِ بأن يكون العضد المطلوب من ذوي القربى لصاحب الرسالة، حيث يتوقع من ذوي القربى ان يكونوا احنى عليه. والقرآن يحدثنا ان موسى حينما نزلت عليه الرسالة وقال له ربه: ﴿اذهب الى فرعون انه طغى﴾ وعرف موسى انه سيواجه بذهابه الى فرعون ودعوته الى الأيمان اخطاراً جساما لا قبل له بها ولم يكن له امل في الحصول على معاضدة عدد كبير من المخلصين من قومه لحمايته ومواجهة الأخطار معه، سأل ربه ان يشد ازره بوزير من اهله:

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِيْ صَدْرِي. وَيَسِّرْ لِيْ اَمْرِيْ. وَأَحْلُلْ عُقْدَةَ مِنْ لِسَانِي. يَفْقَهُوْا قَوْلِيْ. وَاجْعَلْ لِيْ وَزِيراً مِنْ اَهْلِيْ. هَارُوْنَ اَخِيْ. اشْدُدْ بِهِ اَزْرِيْ...﴾ (١)

الرسالة الاخيرة يجب ان تنجح

محمد خاتم الأنبياء ورسالته منتهى الرسالات السماوية. ومعنى ذلك انه يجب ان تنجح وتبقى الى الأبد. وحيث ان الله يجري الأمور عادة بأسبابها الطبيعية لذلك لم يأمر رسوله بمواجهة المجتمع كله بالدعوة الأسلامية دفعة واحدة. لأن ذلك قد يؤول الى فشل الرسالة لا الى نجاحها. بل اراده ان يتدرج في الدعوة. فأصدر اليه بعد مضى ثلاث سنوات من بدء النبوة امراً بأن يبدأ بعشيرته الأقربين:

---

(١) سورة طه (رقم ٢٠) آية ٢٥ - ٣١

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيْرَتَكَ الأَقْرَبِيْنْ وَاخفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ. فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّيْ بَرِيْء مِمَّا تَعْمَلُوْنْ.﴾ (٢)

فعشيرته الأقربون مهما كان الحال سيكونون اقل عنفا من سواهم ولو لم يستجيبوا لدعوته. وربما يوجد فيهم شخص قوي شديد الأخلاص مستعد للتضحية يكون له وزيرا يواجه معه الصعوبات ودرعاً يقيه الكثير من الأخطار وعونا له على بناء امة ودولة.

المؤتمر الاسلامي الأول

لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله بني عبد المطلب وهم يومئذٍ اربعون او ثلاثون، لمأدبة كان فيها قليل من الطعام وقليل من اللبن. فأكلوا وشربوا من ذلك القليل حتى شبعو وارتووا. وحينما حانت الفرصة تكلم رسول الله (ص) فقال:

« يا بني عبد المطلب. اني والله ما اعلم ان شابا من العرب جاء قومه بافضل مما جئتكم به. اني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة.

وقد امرني الله ان ادعوكم اليه فأيكم يوازرني على هذا الأمر على ان يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟ »

فاحجم القوم جميعاً، سوى علي بن ابي طالب (الذي كان لا يزال في الثالثة عشرة من سنه) فانه قال: يا نبي الله، انا أكون وزيرك عليه.

واعاد الرسول دعوته اياهم فأمسكوا. ولكن عليا اعاد كلمته.

فأخذ الرسول برقبة علي وقال موجها خطابه للحاضرين: «إن هذا اخي ووصيي وخليفتي فيكم. فاسمعوا له واطيعوا.»

---

(٢) سورة الشعراء (رقم ٢٦)، آية ٢١٤ - ٢١٦

فقام القوم يضحكون، قائلين لأبي طالب: قد امرك ان تسمع لإبنك وتطيع. (٣)

وروى الامام احمد بن حنبل في مسنده عن علي انه عندما نزلت الآية، سأل الرسول بني عبد المطلب: من يضمن عني ديني ومواعيدي ويكون معي في الجنة ويكون خليفتي في اهلي؟ فلم يجبه منهم احد الا علي فانه قال له: انا (٤)

-٢-

احاديث تربط بالآية احداثاً اخرى

ان الشيخين البخاري ومسلما لم يذكرا هذه الحادثة المهمة مع كثرة من رواها من المؤرخين والمحدثين. ولكن مسلما وآخرين من المحدثين رووا حادثة اخرى وقعت بعد هذه. لقد رووا قيام الرسول على الصفا ومناداته قبائل قريش ودعوته اياهم للأيمان. ورووا هذه الحادثة المتأخرة مربوطة بآية انذار عشيرته الأقربين.

لقد روى مسلم عن ابي هريرة انه قال:

«لما انزلت هذه الآية: وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِيْنَ دعا رسول الله قريشا فاجتمعوا. فعم وخص، فقال: يا بني كعب بن لؤى، انقذوا انفسكم من النار. يا بني مرة بن كعب، انقذوا انفسكم من النار. يا بني عبد مناف، انقذوا انفسكم من النار. يا بني هاشم، انقذوا انفسكم من النار. يا فاطمة انقذي نفسك من النار. فاني لا املك لكم من الله شيئاً، غير ان لكم رحما سأبلها ابلالها.» (٥)

---

(٣) روى هذا الحديث ابن اسحاق وابن ابي حاتم وابن مردوية وابو نعيم والبيهقي في الدلائل. (نقل ذلك المتقي الهندي في كنز العمال ج ١٥ - ص ١٠٠ ورقم الحديث ٢٨٦، الطبعة الجديدة).

وروى الحادث المذكور عديد من المؤرخين. فقد اخرجه الطبري في كتابه تاريخ الأمم والملوك والرسل ج ٢ ص ٢١٦ وابن الأثير في كتابه الكامل ج ٢ ص ٢١ - وابو الفداء. في الجزء الأول من تاريخه عند ذكر اول من اسلم ص ٢١٦ (نقل ذلك السيد شرف الدين في كتابه المراجعات ص ١١٠ والشيخ الأميني في كتابه الغدير ج ٢ - ص ٢٧٩ - ٢٨٠).

(٤) ج ١ ص ١١١ ورواه ابن جرير وصححه. ورواه الطحاوي والضياء المقدسي (كنز العمال ج ١٥ ص ١١٣ ورقم الحديث في الكنز ٣٢٣).

(٥) ج ٣، صفحة ٧٩ - ٨٠

ومن العجيب ان يأمر الله الرسول بان ينذر الأقربين من عشيرته(والأقربون من عشيرته هم بنو عبد المطلب) فيبدأ الرسول ببني كعب بن لؤى وبني مرة بن كعب وهم من الأبعدين. فهل يمكن ان يتجاوز الرسول أمر ربه؟ واعجب من ذلك ان ينادي رسول الله ابنته فاطمة ويدعوها لتنقذ نفسها من النار وهي طفلة صغيرة في بيته وهي مع ذلك اطهر المسلمات. ابوها رسول الله وآمنت به أمها خديجة يوم بعث ابوها. وقد اختلف الرواة في تاريخ ولادتها.[٦] فمن الرواة من روى انها ولدت بعد المبعث بسنة.[٧] والمكثرون يروون انها ولدت قبل المبعث بخمس سنوات. فهل يعقل ان يخاطب الرسول طفلته الطاهرة كما يخاطب بني كعب وبني مرة، وسواهم من المشركين، واعجب من ذلك ما روى مسلم عن عائشة (رض) انها قالت:

«لما نزلت وَأَنْذِرْ عشِيْرَتَكَ الأَقْرَبِيْنَ قام رسول الله على الصفا، فقال: يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئا، سلوني من مالي ما شئتم.»

تناقض واضح

ان هذا الحديث لا يتفق مع سابقه إذ وجه هذا الحديث لآل عبد المطلب وحدهم في حين ان سابقه موجه باكثريته لغير عشيرة النبي الأقربين والغرابة في هذا الحديث ان الرسول يخاطب طفلته الصغيرة فاطمة التي لم يجر عليها قلم التكليف الشرعي ويخاطبها وهو على الصفا وهي في بيته كل ساعة. ومع ذلك فإن الخطاب لها ولغيرها من بني عبد المطلب لم يتضمن رسالة يأمرهم فيها بترك عبادة الأصنام أو الإيمان بالأسلام.

أضف الى ذلك ان عائشة كانت لا تزال غير مولودة وقت الحادث فقد بنى بها

---

(٦) ذكر الحاكم المستدرك ج ٣ ص ١٦١ ان فاطمة ولدت سنة احدى واربعين من مولد ابيها.

(٧) صحيح مسلم ج ٣ ص ٧٩ - ٨٠

الرسول في المدينة وهي في التاسعة من عمرها [٨] ومعنى ذلك ان ولادتها كانت بعد المبعث بنحو من خمس سنوات. وابو هريرة ايضا لم يكن من شهود الحادث. فانه رأى الرسول وهو في خيبر او عائداً من خيبر في السنة السابعة بعد الهجرة. [٩] واعجب من ذلك كله ان الزمخشري ذكر عائشة بنت ابي بكر وحفصة بنت عمر مع الذين ناداهم الرسول يوم الأنذار (في حين ان عائشة كانت غير مولودة يوم الانذار). [١٠]

ان هذا يدل بجلاء على اختلاط الأمر على الرواة وان الشيخين غفلا عن السياق الطبيعي لحادثتي نزول الأمر بالأنذار وما فعله النبي بعد نزول الأمر. وكم اغفلت الصحاح من صحيح!!

ان الآية تدل بوضوح ان الله امر رسوله بان ينذر عشيرته الأقربين. وعشيرته الأقربون هم بنو عبد المطلب لا بقية قبائل مكة. وحاشا للنبي ان يفعل سوى ما أمره الله به. فما رواه المؤرخون وكثير من المحدثين من جمع الرسول بني عبد المطلب على مائدة ودعوته اياهم للأيمان برسالته وندبه اياهم، وهم اهله وعشيرته الأقربون الى مؤازرته في مهمته الشاقة الخطرة هو الذي ينسجم مع المنطق وطبيعة الأحداث. ومن اولى بعون الرسول من اهله في مواجهة الأخطار التي كان الرسول يتوقعها؟

وكان من الطبيعي ان تتدرج الدعوة الأسلامية وان يحاول الرسول ان يستوثق من معاضدة اهله واقرب الناس اليه قبل ان يدعو سواهم وبقية القبائل العربية الى تغيير عقائدهم وترك اصنامهم وهم الذين سيواجهونه بكل عنف وعداء.

---

(٨) الطبقات لأبن سعد ج ٨ ص ٥٩
(٩) الطبقات ج ٤ ص ٣٢٧
(١٠) السيرة الحلبية ج ١، ص ٣٢١

-٣-

ماذا كان هدف الرسول؟

ان هذه الحادثة تدل على ان رسول الله لما دعى اعضاء عشيرته للأسلام كان هدفه الأكبر في حديثه اليهم ان يجد بينهم شخصاً يؤازره على نشر الرسالة. اذ اعتناق الأسلام مهم ولكن الأهم منه ان يوجد بين المعتنقين له من يبذل في سبيل الأسلام اغلى ما لديه لإنجاحه. وكم لدينا اليوم من ملايين من المسلمين الذين لا يبذلون حتى ارخص الأشياء في سبيل دينهم.

ان الموقف يحتاج الى من يقر بالأسلام بمقدار ما كان يحتاج الى شخص تتناسب جرأته واخلاصه وصلابته مع جرأة النبي واخلاصه وصلابته. اربعون شخصا من بني عبد المطلب لو أسلموا أفادوا الأسلام كثيراً. ولكنهم إذا كانوا عاديين، لا يتمكنون من مواجهة الوف مكة وعشرات الألوف خارجها حينما يحتدم النزاع، وهو سوف يحتدم لا محالة. ولأن الله سيأمر النبي بتوجيه الدعوه الى جميع العرب والأمم الأخرى. وكلهم الا القليل منهم سوف يقفون ضدها بكل قواهم وعنفهم الى سنين عديدة.

اجل اربعون شخصا من العاديين لا يتمكنون من مواجهة الألوف الغاضبة ولكن شخصا واحدا غير عادي تتناسب نفسيته وصفاته مع نفسية الرسول وصفاته يتمكن ان يواجه ما سوف يواجهه الرسول. من اجل ذلك نرى النبي يتحدث اليهم عن هذا الغرض الرئيسي بعد مقدمة غير طويلة قائلة: «فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على ان يكون اخي ووصيي وخليفتي فيكم؟»

كيف قطع النبي هذا العهد على نفسه؟

وقد يعجب المرء بادىء بدء لدى قراءة هذه الكلمات القليلة الكبيرة كيف قطع رسول الله على نفسه عهدا لمن يؤازره ان يجعله اخاه ووصيه وخليفته فيهم؟ هب انهم جميعا أو أن معظمهم اسلموا حينما خاطبهم ووعدوه بالمؤازره ماذا كان يصنع؟ قد نتصور ان من الممكن ان يصبحوا جميعاً اخوانا له ولكن من الصعب ان نتصور ان يكونوا جميعاً اوصياء. وإذا كان ذلك ممكنا، فليس من الممكن ان يكون كل منهم خليفة له.

ولكن لدى قليل من التأمل والتحليل تعرف الجواب. ان الرسول يعرف انهم لو اسلموا جميعا في ذلك الموقف فان الأكثرية منهم لا تقدم على قطع عهد بالمؤازره

التي يطلبها لأن هذه المؤازره تعني مخاصمة المجتمع العربي واصطلاء نار حرب لا قبل لهم بها. ويفكرون انها لو وقعت فانها تنتهي بدمارهم وخسارة نفوسهم وأموالهم. ان الرسول يعرف ان الوزير المطلوب شخص غير عادي. والأكثرية الساحقة منهم كانوا افرادا عاديين.

وما حدث في تلك الجلسة يدل بوضوح على صحة ما توقعه الرسول. فلم يكن بينهم احد يجرؤ على قطع عهد لرسول الله بمؤازرته سوى شخص واحد اثبتت الأيام والسنون التي تلت ذلك الحادث انه غير عادي بل هو فريد، عديم المثال في جرأته واخلاصه.

وللمرء ان يتساءل لماذا وعد رسول الله من يؤازره بان يكون اخاه ووصيه وخليفته فيهم؟

النبي يحذو حذو موسى

ان ما يظهر هو ان النبي اراد ان يحذو حذو موسى. لقد طلب موسى من ربه ان يجعل له وزيرا من اهله وها هو الرسول محمد يجمع عشيرته الأقربين ويلتمس فيهم وزيرا له منهم. وقد كان وزير موسى من اهله. اخاه هارون. والرسول محمد لم يكن له أي أخ لأنه كان المولود الوحيد لأبيه عبد الله وامه آمنة. ولكي يحذو حذو موسى اراد ان يجعل وزيره من اهله اخاً له. والأمر في الخلافة ايضا متشابه فهارون كان خليفة لاخيه موسى في قومه حينما ذهب موسى الى الجبل لميقات ربه وغاب عن قومه اربعين ليلة، والقرآن يعلن ما يلي:

﴿وَوَاعَدْنَا مُوْسَى ثَلاثِيْنَ لَيْلَةً، وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيْقَاتُ رَبِّهِ اَرْبَعِيْنَ لَيْلَةً. وَقَالَ مُوْسَى لأَخِيْهِ هَارُوْنَ: اخْلُفْنِيْ فِيْ قَوْمِيْ وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيْلَ الْمُفْسِدِيْنَ.﴾(١١)

ويعضد هذا الأستظهار ويؤكد صحته وصحة حديث المؤتمر بجملته ما قاله

---

(١١) سورة الاعراف (رقم ٧) آية ١٤٢

رسول الله (ص) لعلي بعد سنين في الحديث المجمع على صحته بين المسلمين:

« يا علي أما ترضى ان تكون منّي بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي؟ »

.ان اعطاء علي منزلة هارون باستثناء النبوة يدل على انه مثل هارون في بقية الرتب وهي الوزارة والأخوة والخلافة. فالحديثان متطابقان في المعنى ويهدفان الى غرض واحد.

اما الوصية فهي ان لم تكن رتبة من رتب هارون فانها رتبة اعطاها النبي لعلي بالأضافة الى رتب هارون

وزارة وتضحية وبناء

وقد يقول قائل لماذا يكافىء الرسول عليا على وزارته له بالأخاء والوصية والخلافة مع ان الوزارة نفسها هي مكافأة؟ والجواب ان المؤازرة او الوزارة كانت عطاء من علي وتضحية. والأخوة والوصية والخلافة عطاء من رسول الله ومكافأة له على ذلك العطاء وتلك التضحية. ولإيضاح الموضوع اذكر ان الوزارة تكون من نوعين:

(١) وزارة تدبير شؤون دولة قائمة

الوزير في هذا النوع من الوزارة يكون مشيرا على رئيس الدولة او يتولى حكم البلاد بتكليف من رئيس الدولة او البرلمان او الشعب.

(٢)وزارة تأسيس وانشاء وبناء يكون فيها الوزير مساعداً لرئيسه على ايجاد دولة لم توجد بعد او تأسيس دين جديد لم يعرفه الناس بعد. مهمة الوزير في وزارة من هذا النوع ان يتحمل مع رئيسه كل المشقات ويواجه كل المخاطر التي يواجهها رئيسه بل يكون درعه الواقي الذي يبذل نفسه فداء له.

ان الوزارة من النوع الأول تعتبر عطاء من رئيس الدولة لوزيره وتشريفا له برفعه إياه الى هذا المركز العالي.

اما الوزارة التي هي من النوع الثاني فهي ليست عطاء من الرئيس بقدر ما

هي عطاء من الوزير. انها تضحية جسيمة يقدمها الوزير باستمرار في سبيل رئيسه ومن اجل إنجاح مهمته. ان الوزير من النوع الأول يدبر او يشترك في تدبير شؤون دولة قائمة موجودة. اما الوزير من النوع الثاني فمهمته الأشتراك في ايجاد دولة لم توجد بعد او في نشر دين لم ينتشر بعد. ومعنى ذلك انه يجابه مع رئيسه اخطارا وصعوبات قد لا تتمكن مجموعة بشرية من مواجهتها وتحملها.

الوزير الذي يلتمسه رسول الله من بين اعضاء عشيرته لم يكن من النوع الأول. بل كان من النوع الثاني. لم تكن هنالك دولة اسلامية بعد ليحتاج الرسول الى من يشير عليه في تدبيرها. كلا ولم تكن توجد بعد جماعة اسلامية ولم يكن رسول الله في تلك المرحلة (حتى ولا بعدها يوم قامت دولة نبوية) بحاجة الى من يشير عليه في كيفية نشر الدعوة او في طريقة التأسيس. انه كان بحاجة الى قوة تدعمه، قوة تتمثل في شخص فيه صفات لا توجد في سواه. يبلغ اعلى درجات البطولة والتضحية والنبل والأخلاص والطاعة لله ولرسوله.

ولكي يستحق ان يكون اخا لرسول الله وخليفة له يقوم مقامه بعد مغيبه، يجب ان تكون نفسه امتداداً لنفس الرسول ومرآة له، يشبهه الى حد بعيد في علمه وحكمته وارتفاعه عن شهوتي السلطة والمال. وبتعبير آخر يكون صورة مصغرة للنبي الأعظم.

اجل لم يكن رسول الله بحاجة الى من يشير عليه بالرأي ويدله على حكيم المنهج فهو اذكى الأذكياء، واحكم الحكماء. ولكنه كان بحاجة الى وزير معوان بعمله وبطولته وتضحيته، تفنى نفسه في نفس الرسول ويتمكن إذا الزم الأمر ان يمثل الرسول حينما يجلس على كرسي الحكم بعده.

-٤-

حصيلة مؤتمر الدار:

لقد اسفر مؤتمر الدار الذي دعا اليه الرسول بني عبد المطلب عن عقد ميثاق فريد لم يشهد التاريخ له مثيلا. ولا شهد التاريخ انبل ولا اضخم منه غاية. ميثاق بين الرسول الأعظم حامل رسالة السماء ووزيره علي بن ابي طالب الذي لم تتجاوز

سنه يوم ذاك الثالثة عشرة.وكان قوام هذا الميثاق امران:

(١) تعهد قطعه علي على نفسه للنبي بأن يكون وزيره في اداء مهمته الخطيره.

(٢) ووعد نبوي فاه به الرسول في اعلان وجهه الى حاضري المؤتمر، اذ قال ويده الشريفة على عنق علي: «هذا اخي ووصيي وخليفتي فيكم. فاسمعوا له واطيعوا.»

ومما يجدر ملاحظته ان النبي لم ينتظر في تحقيق وعده انجاز علي لما تعهد به، بل صاغ وعده بصورة مكافأة فعليَّة لوزيره اذ أعلن وهو لا يزال في مؤتمره ان اتخذ عليا اخا ووصيا وخليفة. وما ذلك الا لأنه يعرف ان الكلمة التي يفوه بها علي تحمل كل معناها وان قوله وعمله متحدان لا ينفصلان ولا يتناقضان.

تفوه علي بكلمته وهو يعلم ضخامة وخطورة المهمة التي تعهد للنبي بأن يؤازره عليها. لقد كان يعرف انها مهمة غير عادية، تبدو لضخامتها وكأنها ضرب من المستحيل. انها ترمي الى تغيير عقائد المجتمع واخلاقه وطرق حياته والى حمله على اعتناق مبادىء سماوية لا تتفق مع طبيعته. ولذلك، فإن عليا كان يعرف ان تلك المهمة سوف تعارض بكل ما لدى المجتمع من قوى، وانها تحتاج لكي يكتب لها النجاح الى التغلب على تلك القوى والى انشاء دولة على اسس المبادىء الجديدة التي نزل بها الوحي لتحمي الدولة تلك المبادىء وحرية معتنقيها.

هذه المهمة التي لا تتمكن ان تقوم بادائها امة بكاملها مهما اوتيت من قوة هي التي عزم الرسول على القيام بها وهي التي تعهد علي بمؤازرته عليها ومجابهة كل ما سوف يجابه النبي من اخطار في أدائها.

واذ أسفر المؤتمر عن عقد هذا الميثاق فقد كان من المنتظر ان يقوم علي بتنفيذ تعهده كما كان من المنتظر ان يعلن النبي لجميع المسلمين في المستقبل ما اعلنه لأقربائه في شأن علي يوم الدار.

وسنرى في الصفحات المقبلة كيف نفذ علي ما تعهد به للرسول وكيف اعلن الرسول للمسلمين بعد بدء نشوء الدولة ما كان اعلن لثلاثين رجلا من بني عبد المطلب.

لقد وضع علي نفسه تحت تصرف الرسول منذ ان فاه بتعهده. ولكن سنوات مضت بعد ذلك المؤتمر لم يحتج الرسول فيها الى مؤازرة علي الفعلية، اذ كان والد علي لا يزال حيا قويا يتولى السهر على حياة الرسول، ولم يكن قد اذن للمؤمنين بعد ان يقاتلوا مضطهديهم ولم يكن قد تفاقم الخطر على النبي.

ولكن ساعة الخطر قد آزفت بعد عشر سنوات من تاريخ مؤتمر الدار. وكان ابو طالب قد انتقل الى جوار ربه. لقد ائتمر اقطاب مشركي مكه في دار الندوة وقرروا ان ينهوا حياة الرسول بياتاً، ودعا النبي وزيره للبدء بتنفيذ تعهده، فكانت ليلة الفداء وكان علي فادي الرسول ومؤتمنه.

فادي
الرسول ومؤتمنه

الفصل السادس

- ١ -

بدأ الأسلام ينتشر في يثرب (المدينة). وتكاثر عدد المسلمين فيها الى درجة جرأتهم على دعوة الرسول للأنتقال اليهم ومعاهدتهم اياه على الدفاع عنه دفاعهم عن اطفالهم ونسائهم، وتقبل الرسول دعوتهم.

عرفت ذلك قبائل الشرك فتفاقم الخطر على حياة الرسول، إذ رأوا ان قتل محمد هو الوسيلة الوحيدة لا يقاف انتشار الأسلام. وقراء التاريخ الأسلامي يعرفون كيف أتمر زعماء الوثنية في مكة واتفقوا سرا على خطة ايقنوا انها ستوصلهم الى هدفهم: من كل قبيلة شاب جلد. وجميعهم يهجمون على الرسول في ليلة عينوها ليشتركوا جميعاً في قتله. وبذلك تتوزع المسؤولية في قتله على جميع القبائل المكية المعادية للنبي، فلا تتمكن هاشم من ان تثأر لقتلة وترضى بالدية.

أوحي الى الرسول سر المؤامرة وامر بالخروج من مكة والهجرة الى المدينة. ولكن خروجه وهم يحصون عليه حركاته كان يعني ملاقاة الخطر وجها لوجه. انهم يرقبونه في ليله كما يراقبونه في نهاره. وبيوت مكة كانت لا تستر من فيها. النبي يتوقع ان يحيط بداره المتآمرون في تلك الليلة. وإذا رأوا فراشة خلواً منه فسيعرفون انه خرج لينجوَ بنفسه ويقطعون الطريق عليه. يجب ان يبقى فراش الرسول مشغولا ليطمئنوا الى بقائه في بيته. ولكن من يشغل فراش النبي تلك الليلة ينبغي ان يكون على استعداد للموت لأن الهجوم آت عليه لا محالة. ومن ذا يقدم على المبيت على فراش النبي في ليلة التهلكه سوى من وعده بالمؤازرة؟

انبأ الرسول علياً بن ابي طالب بالمؤامرة وامره ان يضطجع على فراشه، فلم يعتذر ولم يتردد لحظة واحدة، بل ولم يفكر بمصيره. بلى فكر في شيء واحد: مصير الرسول. فقال: أو تسلمن يا رسول الله؟ وحينما اجابه الرسول بالأيجاب أهوى الى الأرض ساجدا، شاكرا لله على سلامة رسوله. وامره رسول الله بمهمة اخرى: هي ان ينوب عنه بأداء الأمانات التي كانت عنده للمكيين.

مهمة ثالثة

ويروي المحدثون ان الرسول امر عليا بالقيام بمهمة ثالثة اصطحبه فيها في تلك

الليلة قبل خروجه من مكة: فقد روى الحاكم بسند صحيح ان عليا قال: ان الرسول انطلق به الى الكعبة (ليلة المبيت على الفراش) ليكسر صنم قريش الأكبر. وان الرسول صعد على منكبي علي ليرقى الى سطح الكعبة ولكنه رأى في علي ضعفا فنزل عن منكبيه ثم امر عليا ان يرقى على منكبيه ففعل. ونهض به الرسول فخيل الى علي ان لو شاء ان ينال السماء لفعل. ارتقى علي الى سطح الكعبة فعالج الصنم الأكبر وكان من نحاس وموتدا بأوتاد. وحينما استمكن منه قال له النبي: دقة فدقه وكسره ثم نزل.[1]

ومن المعقول ان هذه المهمة انجزت قبل ان يحيط المتآمرون بدار الرسول وان النبي وعليا عادا الى الدار بعد اداء هذه المهمة، وان النبي خرج بعد ذلك والأعداء يحيطون بمنزله. وبقي علي ليقوم بالمهمتين الكبيرتين: المبيت على فراش الرسول واداء الودائع التي كانت عند الرسول للمكيين.

روى ابن الأثير في تاريخه الكامل أنَّ جبرئيل أتى النبي فقال له: لا تبت الليلة على فراشك، وان النبي امر عليا ان ينام على فراشه، وامره ان يؤدي عنه ما كان عنده من وديعة وامانة وانه اخبره بانهم لن يصلوا اليه بمكروه.

ثم اخذ حفنة من تراب فجعله على رؤوسهم. وخرج وهو يتلو اوائل سورة يس. فلم يروه.

وجعلوا ينظرون فيرون عليا نائما وعليه برد النبي فيقولون ان محمدا نائم. وانتظروا الى الصباح، فقام علي عن الفراش فعرفوه. وسألوا: اين محمد؟ فقال: لا ادري. امرتموه بالخروج فخرج. فضربوه واخرجوه الى المسجد وحبسوه ساعة ثم تركوه. ونجى الله رسوله من مكرهم وامره بالهجرة وقام علي يؤدي امانة النبي ويفعل ما امره[2]

ومضى رسول الله يصحبه ابو بكر الى ان وصلا الى غار ثور فاختبأ فيه ثم كانت الهجرة التي نقلت الأسلام والمسلمين الى عهد جديد.

---

(١) المستدرك ج ٣ ص ٥

(٢) ج ٢ ص ٧٢ دار الكتاب العربي بيروت.

-٢-

لنقف قليلا ولنتأمل في موقف علي وخطورة المهمة الموكولة اليه.

لقد بلغ عدد المسلمين في مكة، والى زمن هذا الحادث الذي انهى مدة اقامة الرسول في مكة، المئات. وفيهم اكابر الصحابة المعروفون. وقد هاجر معظمهم الى المدينة باذن من الرسول بعد ان صمم هو على الهجرة. وكان الرسول يعرف تفاقم الخطر ضده منذ علمت مكة بحلفه مع اهل يثرب. وكان بامكانه ان يستبقي اي عدد منهم في مكة للدفاع عنه او لفدائه. لم يختر ذلك ولم يستبق منهم الرسول احداً لمواجهة الخطر.

لماذا انتقى الرسول عليا للفداء

لقد اختار للمهمة عليا دون سواه لأن من يقوم بهذه المهمة ينبغي ان تتوفر فيه الصفات التالية:

(١) ان يكون حبه لله ولرسوله ولدينه اشد من حبه لنفسه.

(٢) ان يحمل بين جنبيه نفسا تقدم على الموت في سبيل الله راضيه.

(٣) ان يكون ذلك الشجاع الذي لا تهو له الأعداء مهما كثرت بالرغم من وحدته وانفراده. ان من يبيت على فراش الرسول في تلك الليلة سوف يواجه بمفرده بادىء بدء على الأقل عشرة شبان من اشداء مكة. وان هو نجح في مقاومتهم فمن المعقول ان يتحول كل غضب مكة نحوه وان يجتمع المئات منهم بل كلهم عليه لأنه هو الذي أفشل عليهم خطتهم بمبيته على فراش الرسول.

٤ - ان يكون ذلك الرجل الذي لا يبوح بسر ولا يخبر عن مكان رسول الله مهما عرض للتعذيب. فقد يحاول مشركو قريش بعد ان فشلت مؤامرتهم ان ينكلوا بمن يجدونه في فراش الرسول ويذيقونه صنوف العذاب ليدلهم على مكانه.

ان من الصعب ان نتصور ان انسانا غير علي كان يتمكن ان يقوم بهذا الدور ويقوم به هادئا مطمئنا غير هياب ولا وجل. وهنا نفهم معنى الوزارة او المؤازرة التي قطع علي (قبل عشر سنوات من تاريخ هذا الحادث) على نفسه عهدا للرسول ان يقوم بها.

مغزى التكليف باداء الأمانات:

وانك لترى في تكليف رسول الله عليا باداء الأمانات والودائع لأصحابها المكيين بالنيابة عنه ما يشير بوضوح الى البدء بتنفيذ رسول الله لوعده لعلي بان يكون وصيه ونائبه. لقد كان بامكان الرسول ان يكلف شخصاً آخر كعمه العباس صاحب الثروة أو ان يستبقى احدا من الأصحاب (الذين هاجروا باذنه) من اجل مهمة القيام باداء الأمانات. وكان تكليف اي من هؤلاء متوقعا اكثر من تكليف علي، لأن عليا سيصبح بمبيته على الفراش في خطر شديد.. وبقاؤه بعد تلك المخاطره الكبرى اصبح مشكوكاً جدا. في حين ان البقية من الأصحاب لم يكونوا في خطر وتكليفهم بايصال الودائع الى اهلها اكثر منطقية لأن سلامة اي منهم كانت بمقتضى العادة متوقعة. ولكن الرسول لم يختر ايًّا منهم لهذه المهمة، واختار عليا بالرغم من الأخطار المحدقة به.

نبوءة معجزة

ان اختيار علي لأداء الودائع دليل على ان عليا هو وحده الذي ينوب عن الرسول ويمثله. كما ان الأختيار نفسه نبوءة معجزة. ان ما يظهر بوضوح هو ان الله اوحى الى محمد ان عليا سيجتاز الأزمة بسلام وانه سيكون بعد اجتيازها في مركز يمكنه من اداء الأمانات الى اهلها. ولو لم يكن النبي موقنا بسلامة علي لوجب عليه ان يكلف سواه باداء تلك الأمانات. ان اداء الأمانة واجب. ووجوب الأداء يحتم على حامل الأمانة ان يختار اضمن الطرق لإيصالها. فكان على الرسول ان يختار لتلك المهمة من يتوقع سلامته لا من يتوقع قتله.

وقد يفكر القارىء ان عليا كان موقنا بسلامته. ويقينه آت من اخبار النبي إياه بذلك ومن تكليفه اياه باداء الودائع الذي يدل على اطمئنان الرسول الى ان عليا سوف لا يقتل في تلك الليلة. وإذا كان الأمر كذلك فان الحادثة تفقد اهميتها لأن المبيت على فراش الرسول لا يكون تضحية كبرى حينما يوقن المضطجع بانه محروس بعناية الله وانه سوف لا يصاب بأذى مهما كانت الأخطار كثيرة.

كان علي احرص على الشهادة منه على الحياة

والواقع ان رسول الله امره باداء الودائع بعد ان قبل هو بالمبيت على فراش الرسول دون تردد ودون مبالاة بما سوف يحدث له ليلة المبيت. فقد كان سيان عنده ابقي حيا ام قتل ما دام الهدف هو وقاية الرسول. وعلي هو الرجل الذي كان يطلب الشهادة اكثر مما يطلب الحياة، ويرى الشهادة في سبيل الله غنما وفوزا ما بعده فوز. ونعرف ذلك حين نقرأ ما سجل في نهج البلاغة اذ يتحدث عن استعلامه من الرسول عن قوله تعالى: «احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون؟» لقد ذكر في حديثه الكلمات التالية:

« فقلت: يا رسول الله او ليس قد قلت لي يوم أُحُد حيث استشهد من استشهد من المسلمين وحيزت عني الشهادة فشق علي ذلك: ابشر، فان الشهادة من ورائك؟ فقال لي: ان ذلك كذلك. فكيف صبرك إذن؟ فقلت يا رسول الله، ليس هذا من مواطن الصبر، ولكن من مواطن البشرى والشكر.» [٣]

ولقد اخبر الله رسوله بان سيعود الى مكة إذ نزل قوله تعالى: ﴿ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد...﴾ وكان ذلك والنبي يوم ذاك لا يزال في طريقه مهاجرا الى المدينة.

وكان هذا الوحي وعدا من الله لرسوله بانه سيعود الى مكة ظافرا ووعدا له بانه سوف لا يموت قبل العودة اليها. ولكن هذا الوعد الالهي لا ينقص من عظمة جهود الرسول وجهاده في اداء الرسالة. لأنه لو لم يتلق هذا الوعد من ربه لمضى في اداء الرسالة دون ان يحفل بما سيصيبه في سبيل ادائها. وهكذا كان الأمر بالنسبة الى علي فان اشعاره ببقائه الى ان يوصل الودائع لا ينقص من عظمة تضحيته فقد كان على استعداد للقيام بمهمة الفداء وان لم يبشر بالنجاة او بشر بالشهادة.

تاريخ علي مليء بالتضحيات

وسيرة علي في السنوات التي تلت هذا الحادث تثبت صحة هذا الاستنتاج

---

(٣) نهج البلاغة ج ٢ ص ٥.

فالتاريخ لا ينبئنا بان الرسول اخبر عليا قبل معركة احد بانه سيخرج منها سالما. ولكن ذلك لم يمنعه من ان يثبت مع الرسول، واقيا اياه بنفسه معترضا كتائب المشركين المهاجمة واحدة بعد الأخرى غائصاً في اوساطها ضاربا بسيفه رؤوس ابطالها بعدما فر جميع اصحاب الرسول.

لقد قام علي بالمهمتين الموكولتين اليه وقت الهجرة خير قيام. انه وفى لرسول الله بوعده بالمؤازرة ونجا رسول الله فمضى الى دار هجرته، وقام باداء رسالة الله كما اراد الله. فكانت مؤازرة علي لنبي الله تضحية فريدة في نوعها. واستنابه الرسول ليقوم بمهمة الوصي النائب المؤدي للودائع فأدى تلك الودائع الى اهلها كما لو كان رسول الله هو المؤدي لها.

وبعد ان قام بالمهمتين مضى نحو المدينة يسير على قدميه عدة ايام حتى ورمت قدماه. واخيراً وصل إلى قباء حيث كان الرسول ينتظره، بعيدا عن المدينة بضعة اميال، ليدخل اليها ومعه فاديه ونائبه المؤدي عنه.

لقد نجى الله رسوله من كيد الكائدين له من قريش ووصل الى المدينة سالما واصبح منيع الجانب عديد الأعوان. ولكن قريشا ما كانت لتجنح الى السلم ولا لتنام عن محمد، وهي ترى في وجوده الخطر على دينها ومركزها، وتخشى ان تتنامى قوته مع الزمن ليعود يوما الى مكة ومعه من الجند مالا قبل لها به.

اجل، إن نجاة الرسول جعل قريشاً اشد حرصا على قتله واكثر عنفا في محاربتها اياه. وهي اذ فشلت في الوصول الى هدفها هذه المرة فانها سوف تصليه حربا طويلة وتنازله واصحابه في معارك عديدة وتستعمل كل ما لديها من نفوذ في اثارة القبائل الوثنية وغير الوثنية ضده، فعساها تدرك من هدفها بالمواجهة ما أخطأته عن طريق الغيله.

وإذا كان الفداء العلوي ليلة الهجرة نموذجا عاليا لما تعهد به علي للنبي في مؤتمر الدار من مؤازرة، فان الأحداث التي تلت الهجرة كانت تفرض ان تزداد هذه المؤازرة حجماً واتساعا عاما بعد عام الى ان يكتب النصر لمبادىء السماء.

وما كان الأسلام لينتشر الا إذا تحرر معتنقو مبادئه من الخوف وتمتعوا بحرياتهم. وما كان ذلك ليحدث الا إذا قامت دولة قوية على اسس تلك المبادىء. وما كانت لترسو أسس الدولة المطلوبة الا إذا هزمت قوى الشر التي تتهددها

وسنرى في الصفحات المقبلة ان عليا كان في كل ذلك الوزير الفريد.

دوره في بناء الدولة الاسلامية

الفصل السابع

حق تقرير المصير

إذا كان لكل شعب حق تقرير مصيره فان له الحق في تأسيس دولة واقامة حكومة.

وللدولة الحق في أن تجعل من شعوب الأمة قوة موحدة إذا لم تكن الشعوب قد اقامت حكومات شرعية مستقلة. هذه الحقوق تقرها شرائع الأمم وهي حقوق طبيعية. لا يجوز لأي قوة ان تحول بين شعب او أمة وبين ممارستها.

وإذن فقد كان للأمَّة العربية في زمن الرسول ان تنشىء دولة وتقيم حكومة. ولم يكن ذلك للامة العربية حقا فقط، بل كان واجبا تمليه الأوضاع العربية الشاذة. فقد كانت الشعوب العربية في الحجاز ونجد وتهامة دون حكومة من اي نوع. فلم تكن هنالك قوة تردع العابث ويأمن في ظلها الناس على اموالهم ودمائهم واعراضهم. لقد كانت هنالك قبائل عديدة يعادي بعضها بعضا ويعتدى بعضها على بعض ويستحل كل فريق منها دماء الآخرين واموالهم واعراضهم. وكانوا يحسبون هذه الفوضى أمراً طبيعيا. فلا يفكر اي منهم بلزوم تغيير. وان فكر احد في ذلك فليس لديه اي وسيلة لتحقيقه.

اما الشعوب العربية الأخرى في اليمن وسوريا والعراق فكانت محكومة لقوى اجنبية ليس لها الحق ان تحكمها. فكان من الواجب تحريرها من حاكميها وتوحيدها مع سواها من بقية الشعوب العربية بصرف النظر عن اي مبدأ ديني. ولكنه لم يكن هنالك من يقوم بتحقيق هذا الواجب وممارسة هذا الحق.

ولقد شاءت العناية الألهية ان تنقذ الشعوب العربية، وشعوبا اخرى لها اهميتها، من فوضاها الأجتماعية والخلقية والسياسية واهم من ذلك فوضاها الدينية، فارسل الله محمدا خاتم الرسل هاديا للعالمين. وقد شاء الله ان تكون نقطة البداية في الأمة العربية ولعلها كانت احوج الأمم الى ذلك. ولعلها كانت اكثر الأمم اهلية لحمل الرسالة الى سواها ان هي اهتدت بنور تلك الرسالة.

الرسالة ونقيضها

وأراد الرسول ابلاغ رسالة وانشاء دولة ووقفت قوى الفوضى العربية من

وثنية وكتابية تحاول جهدها وتبذل كل ماأوتيت من حول لتمنعه من الوصول الى هدفه. وقد اعلنت عليه حربا لاهوادة فيها. ولم يكن من الممكن الوصول الى ذلك المقصد الأسمى الا بقبول تحدي قوى الشر والفوضى ولقائها في ميادين المعارك وانزال هزيمة ساحقة بها. لقد كان لمحمد الحق في ان يهزم هذه القوى المضادة سيما وهو يريد اقامة دولة من طرازجديد في تاريخ الأنسانية. أنه يريد أن يقيمها على اسس لم يحلم بها احد من قبل.

أنه لا يريد أن تكون حكومة هذه الدولة، كسائر الحكومات التي عرفتها الأنسانية من قبل، قوة مخضعة للأفراد تسودهم وتحكمهم وتستبد بهم وترى أنها فوقهم انما يريدها حكومة من الشعب وللشعب، حكومة يتساوى بل يتآخى فيها الحاكم والمحكوم، لا يراعى فيها قوي لقوته ولا يضام فيها ضعيف لضعفه. حكومة تريد أن توجه الناس الى خالق العالم ليعتبروه حاكمهم الحقيقي فيطيعون قوانينه ويسعدون بظلها.

وهي بعد كل ذلك ليست حكومة تفرض بقوة بل تنشأ نتيجة اشتراك شعبها بالأيمان بمجموعة من المبادىء العليا التي تسمو بالأفراد الى اعلى مستوى انسانيتهم.

ولكن قوى الفوضى والشر في مكة وسائر المناطق العربية من وثنية وكتابية لم تنكر عليه محاولة اقامة دولة وحكومة بل حاولت بأقسى اساليبها ان تمنعه واتباعه حتى من ممارسة شعائر دينهم. بل انكرت عليه وعليهم حق الحياة ما داموا يؤمنون بآله واحد.

لقد اخرجت قوى الشر محمد واتباعه من ديارهم واموالهم، وحاولت سفك دمه ودماءهم. وهي لو لم تفعل هذا كله وحصرت جهدها بمنعه من اقامة دولة تقيم الحق وتحمي الضعيف، لحل له جهادها وسحقها. إذ بقاؤها قوية قادرة يعني استمرار الظلم للضعفاء وفقد الأمن في المجتمع، وفوق ذلك كله، أن لا يعبد الله ولا يعترف بوحدانيته.

اجل كانت قوى الشر بكل عنفها وفوضاها النقيض الطبيعي لأقامة الدولة

المثالية التي يريد الرسول الأعظم انشاءها. وما كان من الممكن تحقيقها دون هدم نقيضها. ولذلك قدر لهذه الدولة السماوية ان تولد في ميادين الجهاد ايام كان مُنشئُها واتباعه يقبلون تحديات قوى الشر تباعا. ولو قدر لقوى الشر ان تنتصر في تلك المعارك لما قامت الدولة الأسلامية التي قدر لها أن تظل تحت لوائها شعوبا وامما.

الكمية والنوعية

لقد كان المسلمون في بدء الهجرة النبوية اقلية ضئيلة إذا قيست بالقوى العربية التي وقفت ضدها وتآزرت على الحيلولة بين الرسول وبين اهدافه.

وما كان بالأمكان ان ينتصر الأسلام وتقوم دولته الا باحد طريقين:

(١) ان تتدخل القوة الإلٓهية فتقضي على قوى الشر بمعجزة. والله قادر على كل شيء لا يعجزه احد. وإذا أراد أمراً فانما يقول له كن فيكون. ولكنه وكان من الواضح ان هذا لم يكن ليحدث. فهو عز اسمه يريد ان يجري الأمور باسبابها الطبيعية ويريد ان يمتحن قوى الخير ويمحصه ولن تمتحن الا إذا قامت بتنفيذ ما امرت به وجاهدت في سبيل الله ما اؤتيت من حول وقوة.

(٢) ان تكون النوعية في تلك الأقلية الضئيلة عالية جدا لتتغلب على ما يتمتع به خصومها من تفوق في الكمية. وهذا هو ما حدث.

وهنا يبدو على بن ابي طالب، بعد الرسول الأعظم، فريدا عملاقا لا تكاد تعثر الانسانية على نظير له في تاريخ الجهاد.. ونذكر ان رسول الله جمع عشيرته الأقربين (من بني عبد المطلب) في مكة بعد بدء الرسالة بثلاث سنين وسألهم أيهم يؤازره على مهمته على ان يكون اخاه ووصيه وخليفته فيهم فقال علي « يا رسول الله انا اكون وزيرك ».

لقد كان ابن ابي طالب يوم ذاك لا يزال في سن المراهقة وقد قضى بعد ذلك عشر سنوات في مكة تكاملت فيها رجولته وظهرت مزية تلك الرجولة ليلة الهجرة لدى مبيته على فراش الرسول، ضاربا للناس انصع مثل في تاريخ الفداء الأسلامي.

على ان هذه الرجولة المكتملة تفجرت بطولات وبطولات فريده حينما حزب الأمر ووقف الرسول والمسلمون يدافعون عن دين الله وعن حرياتهم المقدسة، محاولين انشاء دولة تحمل مشعل الهداية للإنسانية. وما اظن ان احدا سوى الرسول الأعظم توقع أن تكون كلمة الوزارة التي فاه بها علي يوم اجتماع العشيرة ممتلئة بمعناها ذلك الأمتلاء فياضة ببطولاتها ذلك الفيض. ان الرسول كان الأنسان الوحيد الذي توقع من علي كل سجله المستقبلي.

لقد كان الرسول الأعظم المهندس المبدع في تخطيطه لانشاء الدولة وكان وزيره ابن ابي طالب المنفذ لما ابدعه التخطيط النبوي. فقد كان حامل لواء الرسول في كل معركة شهدها معه.[١]

وقد امَّره رسول الله على كل سرية حضرها ولم يؤمر عليه احدا. ولم يحمل لواء الرسول يوما الا وعاد منصورا وما كانت قيادته الا طرازا فريدا. فلم يكن القائد الذي يدافع جنوده عنه بل القائد الذي يتقدم جنوده الى النزال، وما اكثر ما كانوا يحتمون ببطولته. وقد حدث اكثر من مده ان فرَّ معظم المشركين في المعركة فقام وحده امام الرسول يعوضه ببطولته عن كل ما فاته من دفاعهم.

لقد شهد مع الرسول في ثمانية عشر معركة وقاد السرايا التي بعثه فيها. وليس لي ان اتجاوز نطاق هذا الكتاب بالتحدث عن كل مساهماته الدفاعية. بل اكتفى بذكر مجمل لمساهماته في اربعة معارك: بدر واحد والخندق وخيبر. هذه المعارك هي التي تعتبر بحق المعارك المصيرية للاسلام في زمن الرسول. وكان مستقبل الاسلام موقوفا على نتائجها.

---

(١) ففي الطبقات لأبن سعدان قتاده روى ان علي بن ابي طالب كان صاحب لواء رسول الله يوم بدر وفي كل مشهد (ج ٣ - ص ٢٥).

وسأل مالك بن دينار سعيد بن جبير: من كان صاحب راية رسول الله فقال له سعيد انك رخو اللبب (كان سعيد في زمن الحجاج وكان يخشى منه) فقال له معبد الجنهمي: انا اخبرك كان يحملها في المسير ابن ميسرة العبسي. فإذا كان القتال اخذها علي بن ابي طالب كان حامل لواء الرسول في كل مشهد.

في بدر

الفصل الثامن

لقد كانت معركة بدر اعظم المعارك المصيرية للمسلمين، فهي المرة الأولى التي امتحنت فيها قوة اتباع الدين الجديد. ولو كتب للمشركين النصر، والقوة الأسلامية لا تزال في بدئها لكانت النهاية للأسلام ومبادئه. ولم يكن احد يقدر خطورة النتائج حق قدرها غير الرسول. وانك لتقرأ عمق احساسه في دعائه قبل بدء المعركة. فقد وقف يتضرع الى ربه قائلا:

« اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها وفخرها
تحاول ان تكذب رسولك. اللهم احنهم، الغداة.
اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم، لا تعبد »[١]

في هذه المعركة التي كانت فيها قوى الشرك تبلغ نحواً من تسعمأة وخمسين مقاتلا وقوى الأيمان لا تزيد على ثلاثمائة واربعة عشر مجاهدا (بمن فيهم الرسول) كان الدفاع الاسلامي يتركز على ثلاثة عناصر هي بمثابة ثلاثة خطوط دفاعية:

(١) **شخصية الرسول وقيادته** المثلى وثباته غير المضارع. لقد كان للأسلام والمسلمين الملجأ الأخير في بدر وفي كل معركة شهدها بنفسه.

(٢) **الهاشميون** (او عشيرة الرسول) وعلى رأسهم علي ابن ابي طالب الذي دخل في هذه المعركة مغموراً وخرج منها مشهوراً تتحدث ببطولته الركبان في طول شه الجزيرة العربية وعرضها.

(٣) **المئات من اصحاب الرسول** الذين كانت قلوبهم تفيض بالأيمان والتضحية وكان البعض منهم يرى الإستشهاد فوزاً يعدل الحياة مع الأنتصار.

هؤلاء الأصحاب الميامين كانوا جيش الاسلام وخط دفاعه الأول والجدار الكثيف الذي يقف وراءه الرسول الأعظم. فهم المدافعون وهم المهاجمون.

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦٢١ - ٦٢٧

اما عشيرة الرسول الآقربون فقد كانوا هم الذين ينتدبهم الرسول قبل جميع المسلمين الى التضحْية. فيقفون أمام الجيش (او الخط الأول) يفتحون له الطريق بما يحدثون من ثغرات في صفوف العدو وبما ينزلون به من ضربات مميته. وحينما يبدأ الهجوم العام ويساهم جميع المجاهدين في المعركة ترى آل الرسول اكثرهم جهادا وامضاهم عزماً واشدهم ايقاعا بالعدو. هكذا كانوا في بدر وفي بقية المعارك النبوية. وحينما كان الجيش الاسلامي يغلب على امره في بعض المعارك كان آل محمد يثبتون معه ويعوضون عليه ببطولتهم ما فقده من دفاع جيشه.

لقد بدأ القتال حينما برز عتبة بن ربيعة الأموي وابنه الوليد واخوه شيبه، يطلبون من الرسول ان يرسل اليهم اكفاءهم للمبارزة. لقد كـــان بين يـدي الرسول مئات من الأصحاب الذين لا يبخلون عليه بارواحهم. ولكنه رأى ان يبدأ اهله بالتضحية. ان الحمل في المعركة ثقيل، والحمل الثقيل ينبغي ان يبدأ بحمله اهله. لذلك انتدب عليا وحمزه وعبيده بن الحارث للمهمة. فما امهل علي الوليد،ولا حمزة عتبة ان قتلاهما. ثم اعانا عبيدة على خصمه شيبه فقتلاه. وكان عبيده الهاشمي اول شهيد في المعركة. اذ قطعت ساقه ونزف دمه.

وحينما بدأ الهجوم ساهم المئات، من الأصحاب في القتال وابلوا بلاء حسنا وارضوا الله ورسوله. وكان آل الرسول اكثرهم جهادا وامضاهم عزما واشدهم ايقاعا بالعدو.

لقد تفجرت بطولات علي في هذه المعركة. برز اليه حنظلة بن ابي سفيان فلما التقيا ضربه علي بسيفه فاسال عينيه وألزمه الأرض. واقبل العاص بن سعيد متحديا اباه فقتله ولقي طعيمه بن عدي فشجره بالرمح قائلا: «لا تخاصمنا في الله بعد اليوم!»

واخذ رسول الله كفًّا من الحصى وقد حمي الوطيس، ورمى بها في وجوه المشركين قائلا:

« شاهت الوجوه اللهم ارعب قلوبهم وزلزل اقدامهم! »

وانهزم المشركون لا يلوون على شيء.

ومضى المسلمون يقتلون منهم ويأسرون فكان اسرى المشركين سبعين وكانت ضحاياهم سبعين. لم تعرف جميع اسمائهم وانما عرف من اسمائهم نحو من خمسين.
ويذكر التاريخ ان الذين قتل علي من هؤلاء او شارك في قتلهم عشرون[٢] او اثنان وعشرون[٣].

في هذه المعركة التي ارست قواعد الدولة الاسلامية وجعلت من المسلمين قوة مرهوبة يحسب لها حسابها في شبه الجزيرة قام المئات من اصحاب الرسول رضوان الله عليهم بستين بالمئة من مجهود المعركة وقام علي بمفرده باربعين بالمئة من مجهودها. ومن الحق ان نقول ان لجهوده كان عاملا هاما في ايصال المعركة الى نتيجتها الرائعة. في حين انا لو اسقطنا في حسابنا مجهود اي صحابي آخر بمفرده لما تغير سير المعركة.

---

(٢) سيرة بن هشام ج ١ ص ٧٠٨ - ٧١٣
(٣) كتاب المغازي للواقدي، ج ١ ص ١٥٢ (مطبعة اكسفورد)

في أُحُــد

الفصل التاسع

خرجت قريش من معركة بدر بنتيجة مذهلة لم تتوقعها. لقد كانت تحسب ان بامكانها القضاء على المسلمين بسهولة. فهي اكثر عدداً وأوفر مددا واغنى عتاداً، فإذا بها تفقد في معركة يوم واحد سبعين قتيلا من اشرافها وسبعين اسيرا من اثريائها وذوي النفوذ فيها. وفوق كل ذلك ان هذه الهزيمة الكبرى كانت على ايدي جماعة ما كانت تحسب لهم حساباً.

ما كانت قريش لتقر بالهزيمة النهائية. لقد خسرت معركة ولكنها كانت تعتقد انها لن تخسر الحرب. وعليها ان تعد من الرجال والعتاد ما لا قبل للمسلمين به. ولديها من البغضاء المتأججة في صدور رجالها وحبها لغسل عار الهزيمة واندفاعها في الأخذ بالثأر لقتلاها ما يضم قوة نفسية كبرى الى قواها المادية المتفوقة. لقد اعدت العدة ومضت الى معركة الثأر.

وإذا كان عدد المقاتلين منهم في بدر يقل عن الف فان عدد المقاتلين في معركة الثأر بلغ ثلاثة آلاف مولتهم وأمنت لهم العتاد اموال القافلة التجارية التي افلتت من محمد قبل بدر والتي ارصد كل ما فيها لمعركة الثأر. وهكذا زحفت في العام التالي لمعركة بدر جموع مكة الغاضبة نحو المدينة لتستأصل المسلمين ودينهم ونبيهم.

وصل الجيش المكي الزاحف الى منطقة احد التي تبعد عن المدينة نحواً من خمسة اميال. وهنالك كانت المعركة المنتظرة.

وقف النبي يبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ووضع خمسين من الرماة على شعب الجبل آمراً اياهم ان يحموا ظهور المسلمين ضد خيل المشركين (التي كان يقودها خالد بن الوليد). وان لا يتركوا مواقفهم سواء هزم المسلمون المشركين حتى الحقوهم بمكة او هزم المشركون المسلمين حتى ادخلوهم الى المدينة.

عناصر الدفاع في المعركة

في هذه المعركة المصيرية الثانية كانت قوة الدفاع الأسلامي نفس العناصر الثلاثة الهامة التي لعبت دورها في معركة بدر: (١) قيادة الرسول المثلى وثباته. (٢) آل الرسول وبطولتهم. (٣) وجيش اسلامي قوامه نحو من سبعمائة صحابي يملأ قلوب الكثير منهم كثير من الايمان وحب التضحية.

وكما بدأت معركة بدر بدأت معركة احد. تحدى المسلمين طلحة بن ابي طلحة العبدري حامل لواء المشركين، قائلا هل من مبارز؟

وكان الجيب نفس الجيب في معركة بدر. لقد تقدم اليه علي بن ابي طالب. وحينما التقيا بين الصفين بدره علي بضربة فلقت هامته، فاغتبط النبي وكبر وكبر المسلمون لمصرعه. فهو كبش الكتيبة. وفي رواية ان ساق طلحة قطعت فوقع وانكشفت سوأته وناشد عليا الرحم فلم يجهز عليه بل تركه ولكن الضربة كانت مميته.

وخرج ابو سعد بن ابي طلحة حاملاً اللواء متحديا، قائلا:

« يا اصحاب محمد، تزعمون ان قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار. كذبتم واللات. ولو كنتم تؤمنون بذلك حقا لخرج الي بعضكم. فليتقدم منكم من يقاتلني ». ولبقيه علي فما كان ابو سعد افضل حظاً من اخيه طلحة.

وتعاقب بنو عبد الدار على اللواء فصرع علي منهم ارطاة بن شرحبيل وشريح بن قارض ومولاهم صواب.

علي وحملة اللواء

ويروي مؤرخون ان الحمزة صرع بسيفه عثمان بن طلحة وأصاب عاصم بن ثابت بسهامه مقاتل مانع والحارث ابني طلحة. وصرع الزبير بسيفه كلابا اخاهما، كما قتل طلحة بن عبيد الله اخاهما الآخر الجلاس.

على ان ابن جرير الطبري وابن الأثير والطبراني ومحب الدين الطبري رووا عن ابي رافع (من اصحاب الرسول) ما يدل على ان عليا قتل حملة اللواء جميعاً. ففي الرياض النضرة لمحب الدين ما يلي:

« لما قتل علي يوم احد اصحاب الألوية قال
جبريل: يا رسول الله ان هذه لهي المواساة
فقال النبي. انه مني وانا منه. فقال جبريل.
وانا منكما[1] ».

(١) كنز العمال ج ١٥ ص ١٢٦ حديث رقم ٣٦٤ وفي فضائل الخمسة من الصحاح الستة مثل ذلك ج ٢ ص ٢١٧.

وقد شد مصرع اصحاب الألوية عزيمة المسلمين وهز قلوب المشركين. شد المسلمون عليهم بعد مصرع القادة وفي مقدمتهم علي وحمزة وابو دجانه وآخرون فتضعضعت صفوفهم. غير ان المسلمين خسروا في اثناء هذه العملية بطلا عملاقا: هو حمزة اسد الله وعم رسول الله. رماه وحشي الحبشي بحربته وهو يهز الناس هزّاً، فقتله. ولكن المشركين هزموا هزيمة منكرة ودخل المسلمون معسكرهم يأخذون ما يجدون من عتاد ومواد دون ان يدافع عن المعسكر ومحتوياته أحد.

هذا المشهد اسال لعاب الرماة الخمسين الذين وضعهم الرسول في شعب الجبل ليحموا مؤخرة المسلمين ويدفعوا عنهم فرسان المشركين. لقد ترك اكثر هؤلاء مراكزهم وانضموا الى جامعي الغنائم، رغم تذكير قائدهم عبد الله بن جبير اياهم بأمر الرسول المؤكد ان لا يبرحوا من أماكنهم.ذهبوا لجمع الأسلاب، ولم يطع امر الرسول منهم الا نفر لا يبلغون اكثر من عشرة ورأى خالد قلة فيهم فكر عليهم بخيله فصرعوا جميعاً.

هزيمة بعد انتصار

ورأى المشركون المنهزمون خيلهم تقاتل وتهاجم فعادوا الى القتال، والمسلمون لاهون في جمع الغنائم فشدوا عليهم. ذهل المسلمون واختلط عليهم الأمر فعادوا يقاتلون ولا يعرفون من يقاتلون حتى قتل عدد منهم بسيوفهم ثم انهزموا لا يلوون على شيء والرسول من ورائهم يدعوهم للرجوع الى المعركة.

ويحدثنا القرآن عن وضع المسلمين في تلك الساعات الرهيبة:

«وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوْنَهُمْ بِإِذْنِهِ، حَتّى إِذا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِيْ الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم ما تُحِبُّوْنَ. مِنْكُم مَنْ يُرِيْدُ الدُنْيَا، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَة. ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُم لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ. وَاللهُ ذُوْ فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ. إِذْ تَصْعَدُوْنَ وَلاَ تَلْوُوْنَ عَلَى أَحَدٍ، وَالرَّسُوْلُ يَدْعُوكُمْ فِيْ أُخْرَاكُم. فَأَثَابَكُم غَمَّاً بِغَمٍ، لِكَيْلاَ تَحْزَنُوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ. وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُوْنْ[٢]».

(٢) آل عمران (السورة الثالثة) الآية رقم ١٥١ - ١٥٢)

من ثبت مع الرسول؟

لقد اصبح همّ كل منهم ان ينجو بنفسه الاّ من عصمة الله وما عصم الله الاّ قليلا منهم. المكثرون يقولون انهم كانوا سبعة من المهاجرين هم: علي وابو بكر وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص وطلحة بن عبيد الله والزبير وابو عبيدة بن الجراح، وسبعة من الأنصار هم: الحباب بن المنذر وابو دجانه وعاصم بن ثابت والحارث بن الصمّة وسهل بن حنيف وسعد بن معاذ واسعد بن حضير (وسعيد بن عباده) ومحمد بن مسلمة.[٣]

ثبات علي مع النبي

ويستفاد مما رواه الحاكم في صحيحة المستدرك ان علي بن ابي طالب كان المجاهد الوحيد الذي ثبت مع النبي طول المعركة. وان الآخرين الذين ذكروا في سجل الثابتين كانوا أول من عاد الى رسول الله بعد ان جالوا عنه.

فقد روى ان ابن عباس قال:

«لعلي اربع خصال ليست لأحد: هو اول عربي واعجمي صلى مع رسول الله. وهو الذي كان لواؤه معه في كل زحف والذي صبر معه يوم المهراس. وهو الذي غسله وادخله الى قبره»[٤]

وقد روى الحاكم ان سعداً بن ابي وقاص قال:

«لما جال الناس عن رسول الله تلك الجولة يوم احد تنحيت فقلت اذود عن نفسي... ثم ان المقداد قال له: يا سعد، هذا الرسول...»[٥] وان ابا بكر (رض) قـــال: لما جال الناس عن رسول الله يوم احد كنت اول من فاء (رجع) الى

---

(٣) الواقدي في كتاب المغازي (نقل ذلك ابن ابي الحديد في الجلد الثالث من شرح النهج ص ٣٨٨).

(٤) يوم المهراس هو يوم احد حيث يوجد غدير يسمى المهراس. روى هذا الحديث الحاكم في المستدرك ج ٣، ص ١١١

رسول الله... وذكر في الحديث ان ابا عبيدة بن الجراح تبعه.»[٦]

وان الزبير قال عن معركة احد:

« وخلوا ظهرنا للخيل فأتينا من ادبارنا وصرخ صارخ: الا، ان محمدا قد قتل فانكفأنا وانكفأ (علينا) القوم...»[٧]

لقد بقي الرسول ثابتاً بعد ان خلص اليه المشركون. وقد قاتل بنفسه قتالا شديداً. فقد روى عن سعد بن أبي وقاص انه رأى رجلا مخمر وجهه فلم يدر من هو فاقبل المشركون حتى ظن سعد انهم قد ركبوه فملأ ذلك الرجل يده من الحصى ثم رمى بها في وجوههم فنكصوا على اعقابهم... فإذا به رسول الله. وقد رمى حتى فنيت سهامه وانقطعت سية قوسه.

وكان ابي بن خلف قال للرسول من قبل انه سوف يقتله فقال له رسول الله: بل انا اقتلك إن شاء الله. وقد حضر هذا معركة احد فلما انكشف المسلمون عن النبي قصده وحاول بعض اصحابه ان يصده. فنهاهم النبي ثم استقبله بطعنة لم تبد مؤثرة. ولكن ابيا قال:

« قتلني والله محمد... انه قد كان قال لي بمكه: انا اقتلك. فوالله لو بصق علي لقتلني.» فمات بسرف، وهم عائدون الى مكه.»

روى الطبري عن ابي رافع انه قال: ان رسول الله ابصر جماعة من المشركين فقال لعلي: احمل عليهم فحمل عليهم ففرق جمعهم وقتل عمرو بن عبد الله الجمجي ثم أبصر جماعة اخرى تقصده فقال لعلي: احمل عليهم فحمل عليهم وفرق جماعتهم وقتل شيبة بن مالك احد بني عامر بن لؤي[٨] وقصدته كتيبة من كنانه فيها بنو سفيان بن عويف الأربعة: خالد وابو الشعثاء وابو الحمراء وغراب. فقال رسول

(٥،٦،٧) هذه الأحاديث في [illegible] الثالث من المستدرك ص ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - وقد روى بن هشام في الجزء الثاني من سيرته ص [illegible] حديث الزبير.

(٨) اعيان الشيعة للامام [illegible] الأمين ج ٢ ص ١٩٥ و نقل العلامة السيد الفيروزا بادي في الجزء الثاني من فضائل الخمسة، ص ٣١٧ ذلك عن تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٩٧

الله لعلي: اكفني هذه الكتيبة فحمل عليها وانها لتقارب خمسين فارساً وهو راجل فما زال يضربها بالسيف حتى تفرقت عنه. ثم تجتمع عليه ثم يحمل عليها. فعل ذلك مرارا حتى قتل بني سفيان بن عويف الأربعة وتمام العشرة منها...[10]

وذكر ابن هشام ان الرسول وقع في حفرة من الحفر التي حفرها ابو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون فشجت ركبة الرسول. فاخذ علي بيده ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائما.[11]

وفي صحيح مسلم ان سهل بن سعد قال:

« جرح وجه رسول الله وكسرت رباعيته (احدى اسنانه) وهشمت البيضة على رأسه. فكانت فاطمة بنت رسول الله تغسل الدم. وكان علي بن ابي طالب يسكب بالمجن (من ماء المهراس). فلما رأت فاطمة ان الماء لا يزيد الدم الا كثرة اخذت قطعة من حصير فاحرقته حتى صار رمادا ثم الصقته بالجرح فاستمسك الدم.»[12]

حصيلة المعركة

وليس يعسر على القارىء ان يخرج بالنتائج التالية:

(١) ان معركة احد كانت من اعظم المعارك المصيرية في تاريخ المسلمين. لقد كانت معركة موت او حياة للأسلام. وقد كادت تتحول الى معركة موت.

(٢) انه كان لمصرع حملة اللواء في بدء المعركة تأثير قوي في رفع معنويات المسلمين وتحطيم اعصاب المشركين بالرغم من انهم كانوا أربعة اضعاف المسلمين. فاصحاب الألوية بنظر المحاربين في ذلك الزمن هم قادة المعركة. ولمصرع القادة تأثير بليغ على الجيش. والتاريخ يذكر ان ابا

---

(١٠) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد المجلد الثالث ص ٣٧٢ نقل ذلك عن ابي عمرو الزاهد النحوي غلام ثعلب وعن محمد بن حبيب في اماليه.

(١١) ج ٢ ص ٨٠ - ٨٥

(١٢) ج ١٢ ص ١٤٨

سفيان قال لبني عبد الدار:

« يا بني عبد الدار، اننا نعرف انكم احق باللواء منا (لأن تقاليد مكة كانت تقضي بأن يحمل اللواء واحد من بني عبد الدار). وانما أُتينا يوم بدر من اللواء. وانما يؤتي القوم من قبل لوائهم. فالزموا لواءكم وحافظوا عليه او خلوا بيننا وبينه.»

فغضبت بنو عبد الدار وقالوا: نحن نخلي لواءنا؟ فقال: ليكن لواء آخر معه. فقالوا: نعم ولا يحمله الا رجل من بني عبد الدار. لا كان غير ذلك ابداً[١٣]

لقد رأى اهل مكة في بدء المعركة لواءهم يسقط عشر مرات وهوت قلوبهم بسقوطه عشر مرات. ورأوا بذلك انهم امام قوة قاهرة. وعلي هو الذي قضى على حملة الألوية او كان له القسط الأكبر في ذلك. وكان ذلك ايذاناً بهزيمة الجيش المكي في الجولة الاولى.

(٣) وانه حينما هزم المسلمون في الجولة الأخيرة لم يبق للدفاع عن النبي سوى علي وثلاثة عشر آخرين من اصحاب الرسول. وهم الذين كانوا اول من فاء الى رسول الله. وان من الواضح ان دفاع علي في تلك الساعات الرهيبة كان يربو على دفاع هؤلاء اضعافاً مضاعفة.

لقد اصبح رسول الله بعد هزيمة اصحابه هدفا لهجمات المشركين. فكان كلما رأى كتيبة تقصده يقول لعلي: احمل عليهم.

وما كان من الممكن لأربعة عشر رجلا ان يقوموا بالدفاع عن النبي ضد الجيش الوثني كله لو لم يكن علي بينهم. ولذلك لا نكون مخطئين إذا قلنا ان عليا نال في هذه المعركة المصيرية شرف معظم الدفاع عن الرسول والرسالة ضد قوى لا يقابلها اي فرد آخر. وإذا كانت معركة بدر أرست قواعد الدولة الأسلامية فان معركة احد كادت تعصفْ بتلك القواعد لولا حفنة من الأبطال على رأسهم علي.

---

(١٣) سيرة ابن هشام ج ٢ - ص ٦٧

لقد رأى المشركون ان معركة احد انتهت لمصلحتهم فقد هزموا جيش النبوة وخسر المسلمون فيها سبعين قتيلا بينهم عملاق هو الحمزة عم الرسول واسد الله. ولكن انتصارهم لم يكن مبينا. ان هدفهم هو محمد. ومحمد لا يزال حيا وهو الخطر الأكبر عليهم. ولذلك كان لا بد لهم من معركة مصيرية اخرى يجربون ان يحققوا فيها ما لم يتحقق في أحدٍ من اهدافهم.

لقد كانت معركة احدٍ في السنة الثالثة بعد الهجرة. وبعد سنتين من هذا التاريخ كانت المعركة المصيرية الثالثة التي حشد فيها المشركون اكبر قوة مستطاعة ليحققوا هدفهم الأكبر فكانت معركة الخندق او معركة الأحزاب.

في معركة الأحزاب

الفصل العاشر

كان لقبائل مكة « وعلى رأسها ابو سفيان » امنية واحدة هي القضاء على محمد ودينه، وكانت قبائل اخرى خارج مكة تشاركها هذه الأمنية لأنها وثنية مثلها ترى في محمد خطراً على دينها. وقد وقعت بينها وبين المسلمين اصطدامات متفرقة خلال السنوات الخمس التي انصرمت بعد الهجرة وكان للمسلمين في تلك الأصطدامات الغلبة. فهي كقبائل مكة، حاقدة وموتورة. وكان بين المسلمين واليهود المجاورين للمدينة اصطدامات كان منشؤها نقض اليهود لعهدهم مع النبي واظهارهم العداء للمسلمين بعد ان كانوا في سلم توجيه تلك العهود. وقد اجلى الرسول منهم بني النظير وآخرين في اماكنهم.

في السنة الخامسة من الهجرة ذهب وفد من اليهود يبشرون بالحرب ويحاولون جمع العرب على قتال النبي فكان لهم ما ارادوا. لم تكن قريش بحاجة الى من يثيرها للحرب. فوافقت دون تردد وحشدت اربعة آلاف مقاتل وانضم اليهم بتحريض من الوفد اليهودي قبائل غطغان وسواها فبلغ عدد الجيش الوثني نحوا من عشرة آلاف.

بلغ الرسول نبأ الحشد قبل وصولهم الى المدينة بايام. استشار النبي اصحابه، فأشار سلمان الفارسي بحفر خندق حول المدينة يحول بين المهاجين وبين وصولهم اليها. امر الرسول المسلمين (وكانوا نحوا من ثلاثة آلاف) بتنفيذ الفكرة فحفر الخندق خلال ستة ايام. وقد فوجىء الزاحفون حينما شاهدوا الخندق. لقد ايقنوا بتعذر دخولهم الى المدينة. فاضطروا الى ضرب حصار حولها بدلاً من اقتحامها.

بنو قريضه ينقضون الميثاق

وقد انضم اليهم بعد وصولهم الى منطقة المدينة يهود بني قريضة. لقد كان هؤلاء لا يزالون في معاهدة سلم مع الرسول فكان نقضهم للمعاهدة مفاجأة مخيفه للمسلمين. فبنقض هؤلاء لعهدهم اضافوا الى الأعداء عدداً ومدداً واصبح لزاماً على المسلمين ان يضيفوا الى خطوط دفاعهم خطا دفاعياً جديداً.

وكان بين المسلمين عدد من المنافقين أرجفوا بهم وبثوا الذعر اكثر واكثر في نفوسهم وخاف المسلمون خوفاً شديداً وبلغت قلوبهم الحناجر الا من عصمه الله منهم، وما كان هؤلاء كثيرين. والقرآن يتحدث عن الأزمة النفسية التي عاشها المسلمون في تلك الفترة:

﴿إذ جاؤوكم من فوقكم ومن اسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا★ هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا★ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الى غرورا★ وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم، فارجعوا يستأذن فريق منهم النبي ويقولون: ان بيوتنا عورة، وما هي بعورة ان يريدون إلاَّ فرارا.﴾[١]

وعلى العكس كانت الحالة النفسية لدى المشركين. لقد كانوا يرون النصر في متناول ايديهم. فهم يحاصرون المدينة ولا يجرؤ احد من اهلها على الخروج منها. وقد ازدادت ثقتهم بالنصر وارتفعت معنوياتهم بانضمام بني قريضة اليهم الى درجة جعلتهم يحاولون العدول عن الحصار الى الهجوم المباشر.

الوثنيون يعدلون عن الحصار الى الهجوم

لقد التمس عمرو بن عبد ود ومعه ضرار بن الخطاب وعكرمة بن ابي جهل وآخرون، مكاناً ضيقاً في الخندق اجتازته بهم خيولهم، فاصبحوا مع المسلمين على صعيد واحد. وكان من المتوقع لو نجحت بمغامرتهم ان يعبر الخندق سواهم من المشركين. وكان من الممكن ان يعبر الجيش المهاجم كله، لو اقاموا بين حافتي الخندق جسراً ولو بملء ذلك المكان الضيق تراباً. وإذا كان المسلمون قد ملئوا رعبا وبلغت قلوبهم الحناجر قبل اجتياز المشركين للخندق فمن السهل ان نتصور وضعهم النفسي بعد اجتيازهم الخنـدق. وهو خطر جديد جدي لم يكونوا يحسبون له حسابا.

---

(١) سورة الأحزاب (٣٣) آية ١٠ - ١٣

من المؤمنين من زادته الازمة ثقة بالله

على انه إذا كان الرعب قد ملأ قلوب الأكثرية الساحقة من المسلمين فقد كان بينهم من امتلأ قلبه ايماناً فما تزلزل ولا اهتز بل زاده تفاقم الخطر ايمانا بما وعد الله ورسوله من نصر لدينه ووطن نفسه على التضحية والعمل على ايقاف الخطر وإزالته. والقرآن يحدثنا عن نفسية هؤلاء المؤمنين.

﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب، قالوا هذا ما وعد الله ورسوله. وصدق الله ورسوله ما زادهم الاّ ايمانا وتسليما. من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا.﴾[٢]

لا يحدثنا القرآن عن عدد المؤمنين الذين زادهم تفاقم الخطر ايماناً. قد يكونون عشرات او آحاداً. على ان الأيمان منه ما يبقى حالة نفسية وحسب. فلا يتحول الى عمل بناء وتضحية فياضة. ومنه ما هو ايمان فعَّال يفيض حيوية ويدفع صاحبه الى مواجهة الأخطار والأرتفاع الى مستواها وفوق مستواها والتغلب عليها والبناء على انقاضها. مهما كان عدد هؤلاء المؤمنين بين الألوف الثلاثة من المسلمين مجهولا. فأن التاريخ لا يجهل واحداً منهم. لأنه كان في معركة الأحزاب على رأس اولئك الذين ارتفعوا الى ما فوق مستوى الأخطار التي كادت تعصف ريحها العاتية ببناء الدولة الاسلامية الجديدة. ولست اعني غير علي بن ابي طالب.

عمرو بن عبد ود

لقد اجتاز عمرو بن عبد ود وصحبه الخندق. وعمرو هذا كان من ابرز فرسان العرب. وقد حضر وقعة الخندق معلما ليري الناس مكانه. واجتيازه الخندق مصحوبا بعدد قليل من الفرسان يدل بذاته على جرأة نادرة المثال. فهو

---

(٢) سورة الاحزاب آية ٢٣

الوحيد (من بين الألوف الغازية) الذي حاول الهجوم على المسلمين مباشرة وتحداهم جميعاً وهو معهم على ارض واحدة. وهب ان مئات او الوفا من الجيش الوثني كان يؤمل ان تحذو حذوه وتجتاز الخندق. فان اجتراءه على ان يكون اول من يجتازه يدل على شجاعة متفوقة.

علي يطوق الخطر الجديد ثم يزيله

لقد كان اجتياز عمرو وصحبه للخندق يمثل خطراً جديداً على المسلمين ومفاجأة مخيفة ما كانوا يتوقعونها. فقد اوشك الباب ان يفتح على مصراعيه وان يلحق بعمرو مئات والوف. ولكن هذه المفاجأة لم تذهل عليا. فالتاريخ يحدثنا عن حضور ذهنه واستجابته السريعة اذ بادر لإيقاف الخطر عند حده ثم ازالته. ذهب على رأس عدد من المؤمنين فوراً الى الثغرة التي احدثها عمرو في خط الدفاع الأسلامي، فرابط فيها ليمنع اجتياز من تحدثهم نفوسهم باللحاق بعَمْرو.[٣] وإذ اوقف الخطر الجديد عند هذا الحد فإنه عمل بعد ذلك على ازالة هذا الخطر نهائياً.

في هذه المعركة التي واجه المسلمون فيها خطراً لم يواجهوا نظيرا له من قبل كانت عناصر الدفاع الإسلامية نفس العناصر الثلاثة التي لعبت دورها في معركتي بدر وأحد: الا وهي ثبات الرسول وقيادته المثلى وبطولة علي والجيش الإسلامي.

عناصر الدفاع الاسلامي

وقد اضيف الى هذه العناصر عنصر رابع في هذه المعركة. الا وهو دور سلمان الفارسي الذي اشار على النبي بحفر الخندق حول المدينة لحمايتها من هجمات العدو. ولقد كان دور الجيش الاسلامي في معركة أحد. كما يذكر القارىء، اقل من دوره في معركة بدر. اما دوره في معركة الخندق فربما كان اقل منه في معركة

(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٢٤ -

احد. ذلك ان المسلمين في معركة الخنـدق لم يواجهوا العدو ابداً ولكنهم حفروا الخندق حول المدينة قبل وصوله، ثم وقفوا وراء الخندق بعد وصول العدو.

اما العنصران الاولان فقد كان دورهما نفس الدور في المعركتين السابقتين واعظم. فثبات الرسول وقيادته وتدبيره الحربي واسراعه في انجاز حفر الخندق، كل ذلك كان عظيم الأهمية في اجتياز الأزمة الكبرى بسلام. اما دور علي في هذه المعركة فقد كان معلماً بارزاً في تاريخ الدفاع الأسلامي.

حوار ثم نـزال

جال عمرو بفرسه في سلع مواجها المسلمين ومتحديا اياهم، قائلاً: هل من مبارز؟ يكرر هذا النداء ولا من مجيب حتى قال:

«ولقد بححت من النداء بجمعهم هل من مبارز»

وإذ لم يجب احد من المسلمين نداء عمرو للبراز، فقد رأى علي لزاما عليه ان يترك مكانه موقتا، حيث كان يرابط، رادعا الجيش الوثني عن اللحاق بعمرو. لقد ترك ذلك المكان موكلا للذين كانوا معه ان يقوموا بتلك المهمة. وعليه هو ان يستأصل الخطر الجديد بعد ان تمكن من حصره وايقافه.

تقدم علي يدعوه الى النزال فقال عمرو في صلف:

«لم يا بن اخي؟ فوالله ما احب ان اقتلك.»

فقال علي: «ولكني احب والله ان اقتلك.»

فتنازلا فقتله علي وفرت خيل الأحزاب حتى اقتحمت الخندق مولية الأدبار لا تلوي على شيء[٤]

لقد كبر علي عندما قتل عمرو. وكبر المسلمون وكان قتله انهاء للخطر الجديد فالذين كانوا مع عمرو هربوا يطلبون النجاة بأنفسهم. واكثرهم لم تكتب لهم النجاة اذ صرعوا قبل وصولهم الى الجانب الآخر.

---

(٤) نفس المصدر

ويحق لنا ان نقف قليلاً لنرى موضوعياً المساهمة التي قام بها علي في الدفاع عن الأسلام والنبوة في هذه المعركة التي بلغ فيها الخطر على الأسلام قمته.

ليس من المنطق ان نقول ان المسلمين كانوا بمجموعهم عاجزين عن قتل عمرو. فعمرو مهما كان شجاعا لا يتمكن ان يصمد للمئات او الألوف من المسلمين، ولكن هذا لم يكن وارداً. فعمرو كان يدعو الى المبارزه والمبارزة لا تكون الاّ بين اثنين. ومن العار ان يبرز الى رجل واحد اكثر من واحد. لقد تحدى المسلمين جميعا ليبارزه اي واحد منهم فأحجم الجميع عنه ولم يبرز اليه سوى علي.

وليس من المنطق ان نقول ان عمراً كان كل قوة الجيش الوثني وأن قتله كان هزيمة للأحزاب كلهم. ولكن من المنطق ان نؤكد امرين:

(١) ان مبادرة علي لسد الثغرة التي احدثها اجتياز عمرو وصحبه ومنعه الآخرين من اللحاق بعمرو قد اوقفا الخطر وحصراه بعمرو واصحابه. ولنا ان نقدر أن الثغرة لو بقيت مفتوحة لاجتاز عدد كبير من فرسان المشركين الى المدينة ولساعد اجتيازهم على اقامة جسر بين حافتي الخندق يعبر عليه الجيش كله.

فغفلة ساعة كان من الممكن ان تتحول الى خطر ماحق. لم يحدث ذلك لأن عليا كان سريع الأستجابة للخطر الجديد هادىء الأعصاب حاضر الذهن غير هياب للمخاطر.

(٢) ان قتل عمرو أثبت للجيش الوثني انهم غير قادرين على اجتياز الخندق مرة ثانية. وان ما عجز عمرو عن تحقيقه لا يكون مستطاعا لسواه. وبذلك اصبح الجيش الوثني امام احد امرين: اما الأنسحاب او متابعة الحصار الى ان يستسلم المسلمون او يضطروا الى عبور الخندق لقتال المشركين. ومتابعة حصار من هذا النوع كانت غير ممكنة للجيش الوثني. فهو جيش غير نظامي. وليس لديه المواد الغذائية اللازمة للمقاتلين وخيولهم وابلهم. اضف الى ذلك ان ريحاً قوية غير عادية هبت عليهم تكفىء قدورهم وتهدم خيامهم

وقد سبق الريح جدال بين الوثنين وحلفائهم اليهود جعل تعاونهم على الحرب صعبا جدا.

اذن كان امام الجيش الوثني بعد فشل محاولة عمرو قتله وتعذر عبور فرسانهم الى الجانب الآخر من الخندق حل واحد. هو الانسحاب وهذا ما فعلوه.

ولا ينبغي ان ننسى امراً مهما: هو ان قتل عمرو وفرار صحبه وهلاك اكثرهم قبل وصولهم الى الجانب الآخر قوى معنويات المسلمين كثيراً بعد ان كانت الأكثرية منهم منهارة نفسيّاً.

لقد عاد اليهم الأمل بالأستمرار والحياة بل والأنتصار. إذا عرفنا ان كل هذا كان من نتائج جهاد علي عرفنا معنى الحديث الذي رواه الحاكم في المستدرك: وهو أن النبي قال: «لمبارزة علي بن ابي طالب لعمرو بن عبد ود يوم الخندق افضل من اعمال امتي الى يوم القيامة.»[٥]

معركة الخندق ومعركة القنال الحديثة

ان عبور بن عبد ود الخندق يوم معركة الأحزاب يماثل عبور الاسرائيلين قنال السويس في منطقة البحيرات المرة في معركة تشرين الاول سنة ١٩٧٣. ولو نجح عمرو وصحبه في تثبيت اقدامهم على جانب الخندق الداخلي كما نجح الاسرائيليون في تثبيت اقدامهم على ضفة القنال الغربية لعبر الجيش الوثني كله الى المدينة ولكان الخطر الذي احدثه عبور عمرو اعظم من الخطر الذي احدثه العبور الاسرائيلي. فالمسلمون في الأحزاب لم يكن لديهم مثل ما كان لدى الجيش المصري من امدادات واحلاف عربية وغير عربية.

ومع هذا التشابه بين المعركتين القديمة والحديثة نجد ان بينهما فارقاً كبيراً. إذ

(٥) ج ٣ - ص ٣٢

كان زوال الخطر الوثني في معركة الأحزاب نتيجة لبطولة شخص واحد ومبادرته وحضور ذهنه. بينما كان زوال الخطر الاسرائيلي نتيجة جهود الامة المصرية حكومة وجيشاً وشعباً وعديد من العوامل الداخلية والخارجية. حيث تظافرت جميعها لازالة ذلك الخطر.

وواقع ما حدث في معركة الاحزاب ان نواة الامة الاسلامية التي لم يكن لها بديل على وجه الارض احدق بها خطر ماحق نتيجة عبور عمرو. فأزال الخطر علي ببطولته الخارقة وحضور ذهنه ومبادرته السريعة.

١١
في خيبر

لم يكن هنالك من مبرر يحمل يهود الحجاز (وهم عرب من العرب) على مناصبة الرسول ودينه واتباعه العداء. فمنذ بزوغ فجر الدولة الأسلامية ببدء الهجرة النبوية نرى الرسول الأعظم يكتب وثيقة تنظم علاقات القبائل المقيمة بالمدينة وحولها وتعطى القبائل اليهودية مثل حقوق المسلمين. ففيها قوله:

«وان من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة (المساواة)، غير مظلومين ولا متناصر عليهم.... وان يهود بني عوف امة مع المؤمنين. لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وانفسهم الا من ظلم او أثم فانه لا يوتغ (يهلك) الا نفسه. وليهود بني الحارث ويهود بني ساعده ويهود بني جشم ويهود بني الاوس ويهود بني ثعلبه، ولجفنه ولبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف... وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم. وان بينهم النصر على من حارب اهل هذه الصحيفة وان بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الاثم...»[1]

وثيقة هي بحق الأولى من نوعها في تاريخ الحرية الدينية ومعلم في اعلان الحقوق الانسانية التي لبثت الانسانية عددا من القرون قبل ان تصل الى مثلها. وما اظن ان اليهود قد حصلوا طيلة تاريخهم على ضمانة، تماثلها في ظل اي حكومة عاشوا تحت ظلها الا في العصر الحديث.

وقد كان من المتوقع ان يقدروا هذه السماحة النبوية حق قدرها فينضووا تحت لواء محمد ويخلصوا لمثله العليا، سيما والدين الذي يبشر به دين يحترم الرسالة

---

(١) حياة محمد لمحمد حسين هيكل، ص ٢٢٢

الموسويه ويقدسها ويعتبرها رسالة سماوية ولا ينتقص منها، بل يؤيدها كل التأبيد ويكملها اعظم الأكمال.

وقد كان اليهود يستفتحون على جيرانيهم الوثنيين بالنبي المنتظر الذي تبشر به التوراة[٢]، ويهددونهم بقرب ظهوره ويعدون انفسهم ليكونوا من أتباعه. ولكن حينا ظهر النبي الموعود واراهم الله فيه ما يحبون نبذوا اليه وبادلوا سماحته وعدله بالعداء ونقضوا كل ما عقدوه معه من عهود.

ويظهر أنهم كانوا يتوقعون منه ان يقف موقفهم العدائي من السيد المسيح وأتباعه. فلما رأوا القرآن يعلن فضل السيد المسيح وصدقه وطهارة أمه قلبوا للرسول ظهر المجن. ولعلهم كرهوا من الأسلام شيئا آخر. فالاسلام يحرم الربا ويمنع الأستغلال المالي وسيطرة المرابين على سوق الاسلام.

وفي هذا ما يفزعهم. فهم الذين كانوا يأكلون الربا، اضعافا مضاعفة. ولعلهم كانوا يرون في فوضوية الحياة في شبه الجزيرة مرتعا خصبا لهم. فهم يتمكنون ان يتقلبوا بين العصبيات القبلية 'ويثيروا' فريقا ضد فريق آخر. وبناء دولة قوية ذات نظام يحول بينهم وبين ذلك.

على اي حال، لقد اختار يهود شبه الجزيرة ان ينضموا بكل قواهم الى المعسكر الوثني ليبقى الشعب العربي غارقا في طوفان جهله وفقره وبؤسه وفوضاه حيث يأكل القوي الضعيف ولا يأمن فيه ساكن من سكان البلاد على ماله ودمه وعرضه. انهم والوثنيين لا يريدون ان تمارس الأمة حقها الطبيعي في اقامة دولة توحد شعوبها المتفرقة وتنشر العدالة في اركانها وتوجهها واما اخرى الى خالق العالم الذي لا شريك له ولا يستحق العبادة سواه.

(٢) ففي سفر التثنية فصل ١٨: «أقيم لهم (الاسرائيليين) نبيا من وسط اخوتهم (العرب لأن اسماعيل أبا العرب اخ لإسحاق أبي الأسرائيليين) مثلك (مثل موسى في أنه صاحب شريعة جديدة) واجعل كلامي في فمه (فلا يتكلم باسم نفسه بل ينطق بكلمات الله نفسها. وهذه هي ميزة القرآن) فيكلمهم بكل ما اوصيه به ويكون الانسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم (النبي) به باسمي انا اطالبه.

ومن الحق ان نقول ان خطر يهود شبه الجزيرة على الدولة الاسلامية لم يكن اقل من خطر القبائل الوثنية على كثرتها. ويذكر القارىء ان دعاة الحرب من اليهود هم الذين استنفروا وثني مكة وغطفان لغزو المدينة وحشدوا في السنة الخامسة بعد الهجرة اكبر قوة ضاربة واجهها المسلمون حتى ذلك الحين فكانت معركة الأحزاب. وحينما رأى يهود بني قريضه في تلك المعركة ان الخطر الوثني قد استفحل واستحكمت حلقاته حول حاضره الاسلام اهتبلوا الفرصة المؤاتية فنقضوا معاهدتهم مع الرسول وانضموا الى اعدائه في احرج ازمة واجهها ليضموا الى اعدائه عددا ومدداً وليجعلوا الخطر مدمرا ماحقا.

لقد انزل الرسول عقابا صارما ببني قريضة بعد انفضاض جمع الأحزاب وزوال خطره وجعلهم يدفعون ثمن جريمتهم النكراء من دمائهم واموالهم. ولكن المجموعة اليهودية الرئيسية المقيمة في خيبر وحصونها العديدة التي تبعد عن المدينة نحوا من ثمانين ميلا بقيت تمثل خطراً على سلامة الدولة. وقد جاء الوقت المناسب بمحاولة خضد شوكة الخيبريين بعد أن أمن الرسول شر وثني مكة بعقد ميثاق هدنة بينه وبينهم لعشر سنوات.

عاد الرسول من الحديبية (التي عقد فيها ميثاق السلم (الموقت) فأقام في المدينة نحوا من خمسة عشر يوما، ثم مضى نحو حصون خيبر يصحبه الف وستائة متطوع هم الذين كانوا معه يوم الحديبية وبعد مسيرة ثلاثة ايام نزل حول حصون خيبر ليلا.

خرج سكان الحصون صباحا كعادتهم يريدون الذهاب الى مزارعهم ولكنهم ريعوا حينا رأوا الجيش الأسلامي فقالوا: «محمد والخمس»، ثم رجعوا الى حصونهم.

معركة خيبر لم تكن حربا دينيه:

ومن الجدير بالذكر ان هذه الحرب لم تكن دينيه قصد فيها اجبار اهل خيبر على اعتناق الدين الاسلامي. فما كان النبي ليجبر أي كتابي على تغيير دينه. وقد

رأيت ان الوثيقة النبوية التي كتبت في السنة الهجرية الأولى ضمنت لليهود حريتهم الدينية وحقوقهم المدنية إن هم التزموا بمضمون تلك الوثيقة العادلة. ولكن اليهود لم يلتزموا بأي شرط من شروطها واصبحوا خطرا على سلامة الدولة وعلى حريات المسلمين دينية ومدنية. فكان لزاما على الرسول محاولة اخضاعهم.

عناصر الدفاع الاسلامي

يذكر القاريء ان عناصر الدفاع الرئيسية الاسلامية في المعارك الثلاثة السالفة الذكر كانت ثلاثة:

١ - قيادة النبي المثلى، بكل ما فيها من ثبات غير مضارع وحكمه تنفذ الى صميم الحقائق وشخصيـة تفرض قداستها الطاعة على كل متطوع.

٢ - وبطولة آل الرسول.

٣ - والمئات من المؤمنين المخلصين الذين كان يزداد عددهم باطراد.

ويذكر القارىء أن الرسول فقد من اعضاء عشيرته عبيده بن الحارث في بدر ثم فقد عمه الحمزة في معركة احد.

وقد روي ان الرسول دعا ربه يوم الخندق ان يحفظ له عليا بعد ان اخذ منذ عبيده يوم بدر وحمزة يوم احد.

لقد شهد علي المعارك الثلاث السالفة الذكر وأبلى فيها جميعا البلاء الذي يتحدث عنه التاريخ. فكان في كل من تلك المعارك المصيرية اول المهاجمين واثبت المجاهدين. فهو اول المعركة ووسطها ونهايتها. وكان لصولاته الأولى في كل معركة تأثير واضح على سيرها ولأستمراره واندفاعه نحو نيرانها اثر ملموس في تعجيل نهايتها واخماد لهبها.

ولكن عليّاً لم يتمكن ان يكون اول الصائلين في معركة خيبر فقد تغيب عنها في البدء، وكان ذلك لسبب صحي. وقد كان لغيبته اثر محسوس. فقد ضرب الرسول حصارا على اهل خيبر وطال الحصار دون ان يأتي بنتيجة. مناوشات بين الفريقين يوماً بعد يوم لم يكن للمسلمين فيها اليد العليا. ومؤن المسلمين تتناقص

حتى لتكاد تنفد. وقد اضطر المسلمون الى ان يأكلوا لحوم الحمر الأهلية.

واخيرا أعطى الرسول الراية لأبي بكر (رض) فقاد الجيش نحو حصن ناعم. وخرج اليهود اليهم فقاتلوهم فلم يفتح للمسلمين بل كانت الكفة اليهودية تميل الى الرجحان.واعطى الرسول القيادة لعمر (رض) في اليوم الثاني فما كان أوفر حظا من أبي بكر. وقد رأى النبي انه أمام معضلة كبرى: الحصار قد طال والإمدادات الغذائية اصبحت عسيرة المنال والجيش الاسلامي لم يفتح.

أيستمر النبي في الحصار دون جدوى؟ ام يرفع الحصار عن الحصون ويعود الى المدينة، وذلك هو الفشل؟

ذو الدور الأصيل

إذا كان للقارىء ان يتردد في تقرير أثر جهاد علي في المعارك السابقة فإن ما حدث في معركة خيبر يضعه امام الحقيقة الملموسة التي لا تحتاج الى تفسير.

لقد ساء النبي ان تُردَّ رايته مرتين في يومين متتابعين فقرر ان يحل المعضلة حلا جذريا. ولندع الشيخين البخاري ومسلمايتحدثآن في صحيحيهما عما جرى. فقد رويا ان سهل بن سعد (الصحابي الجليل) قال:

شهادة الرسول في علي

«ان رسول الله (ص) قال يوم خيبر: لأُعْطيِنَّ هذه الراية رجلا يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. فبات الناس يدوكون (يتحدثون ويتساءلون) ليلتهم ايهم يعطاها؟

«فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله (ص)، كلهم يرجو ان يعطاها. فقال: أين علي بن ابي طالب؟ فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه. فقال: فأرسلوا اليه. فاتي به فبصق رسول الله في عينيه، ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع (مرض).

«فاعطاه الراية، فقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم. ثم ادعهم الى الاسلام وأخبرهم بما يجب عليهم

من حق الله فيه. فوالله، لأن يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك من ان يكون لك حمر النعم[٣]».

مضى علي بالراية يقود الجيش. وعلى عكس ما تقضي به الأصول المرعية في الحروب. مضى يتقدم الجيش. ويقول سلمة بن الأكوع: فخرج والله بها (بالراية) يأنح (يلهث) يهرول هرولة. وانا لخلفه نتبع اثره، حتى ركز رايته في رضم (مجموعة) من حجارة تحت الحصن فاطلع اليه يهودي من رأس الحصن، فقال: من انت؟ قال: انا علي بن ابي طالب فقال اليهودي: علوتم وما انزل على موسى. قال فما رجع حتى فتح الله على يديه[٤]».

وقال سلمة ان مرحبا اليهودي برز اليه مرتجزا متحديا فضربه علي ففلق رأسه فقتله، وكان الفتح[٥]. وعن ابي رافع مولى رسول الله انه قال:

خرجنا مع علي بن أبي طالب حين بعثه رسول الله برايته. فلما دنا من الحصن خرج اليه اهله فقاتلهم فضربه رجل من يهود فطاح ترسه من يده فتناول علي بيده بابا كان عند الحصن فترّس بـــه عن نفسه. فلم يزل في يده حتى فرغ. فلقد رأيتني في نفر سبعة معي أنا ثامنهم. نجهد على ان نقلب ذلك الباب. فما نقلبه[٦]».

لقد كان هجوم علي على يهود الحصن اشبه شيء بالعاصفة فقد لجأ اليهود الى حصنهم وأغلقوا بابه الضخم بعد معركة حامية لم يطل وقتها بعد ان صرع فيها بطلهم مرحبا.

ومن الطبيعي ان يحاولوا الدفاع عن انفسهم بالدخول الى الحصن واغلاق رتاجه بعد ان خسروا معركة المواجهة. ولكن ذلك لم يحمهم. فقد تمكن علي وجيشه من اقتحام الحصن عليهم وفتح بابه. كيف تمكن علي من فتح ذلك الرتاج

---

(٣) صحيح البخاري ج ٥ ص ١٧١ وصحيح مسلم ج ١٥، ص ١٧٨ - ١٧٩
(٤) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٥
(٥) المستدرك للحاكم ج ٣ ص ٢٨ - ٢٩
(٦) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٥

الضخم؟ هل تسلق هو او تسلق جنوده معه الى داخل الحصن وفتحوا الباب من داخله؟ ذلك ممكن ولكن المؤرخين والمحدثين لم يذكروا فيما اعلم ان احدا من المسلمين في تلك المعركة دخل الى الحصن تسلقا.

ام ان عليا تمكن بمقدرة غير عادية ان يقتلع باب الحصن كما تتحدث عنه بعض الرويات؟ ذلك ايضا ممكن جدا. ففي ذلك اليوم اجترحت معجزة بشفاء عيني علي بريق الرسول المبارك. ولعل اقتلاع الباب كان معجزة اخرى حدثت في ذلك اليوم. وربما يكون الباب الذي تحدث أبو رافع عن ان عليا ترّس به عن نفسه لما سقطت ترسه من يده كان هو باب الحصن.

وإذ اقتحم علي على اليهود حصنهم فقد انتهت مقدرتهم الدفاعية. فما كانوا ليربحوا معركة مواجهة ثانية بعد ان خسروا الأولى.

لقد سقط الحصن في ايدي المسلمين وآخر جيشهم بعد لما يلحق بأوله.

وتتابعت بعد هذا الحصن حصون خيبريه اخرى، متساقطةً بعد حصن ناعم، حتى دانت منطقة خيبر كلها للدولة الأسلامية.

ومن اليسير للقارىء ان يستنتج من احداث هذه المعركة ما يلي:

(١) ان معركة خيبر كانت للمسلمين معركة مصيرية فقد سبق هذه المعركة معركتان لم يكن المسلمون فيها باحسن حال. لقد هزم المسلمون في معركة احد وفروا جميعا من ساحة القتال الا قليلا منهم. وفي معركة الأحزاب كانوا مدافعين. وكان الرعب يملأ قلوبهم جميعا (الا من عصم الله منهم) حينما جاءهم الأعداء من فوقهم ومن اسفل منهم وبلغت قلوبهم الحناجر. وقد انتهت المعركة دون أن يجرؤ المسلمون على مواجهتهم او العبور اليهم من وراء خنادقهم.

وفي هذه المعركة الثالثة يواجه المسلمون فيها عدوا دونهم عددا وإذا لم يتمكنوا من التغلب عليه فإن القبائل العربية الكثيرة التي كانت لا تزال على وثنيتها سوف تجرؤ على مهاجمتهم مرة بعد اخرى. وسيكون اهل خيبر نواة لهجمات المستقبل وعونا قويا لكل من يحاول القيام بها. ولو عجز المسلمون عن خضد شوكة الخيبريين لفقدوا ثقتهم بانفسهم ولرأوا ان النصر الذي يبتغونه على اعدائهم

الكثيرين في شبه الجزيرة هو بمنأى عنهم. وعلى العكس تكون النتيجة لو انتصر المسلمون وتغلبوا على حصون خصومهم. فانتصارهم يرفع معنوياتهم ويريحهم من عدو خطر ويجعل بقية القبائل العربية تتهيب مهاجمتهم.

(٢) ان الرسول لم يكن مسرورا من سير المعركة. فالحصار قد طال،وامداداتهم الغذائية اصبحت عزيزة. ويدل على ذلك انهم في تلك المعركة اكلوا لحوم الحمر الاهلية. وإذا طالت المدة اكثر، ولم يتمكنوا من التغلب على الأعداء سيضطر المسلمون الى الانسحاب ورفع الحصار. ولذلك قام المسلمون في يومين متتابعين تحت قيادة ابي بكر ثم عمر بمهاجمة الحصون الخيبرية. وإذ عجز المسلمون عن فتح أي منها في الهجومين، فان الرسول رأى ان المسلمين يواجهون معضلة كبرى اراد لها حلا جذريا.

الحل الجذري الوحيد

(٣) ان قيادة علي للجيش الأسلامي في تلك المعركة كانت الحل الجذري الوحيد. ولأن عليا كان يمثل في نظر الرسول الحل الجذري الوحيد اضطر الرسول الى اجتراح معجزة ليتمكن علي من القيام بالمهمة. ان عليا ارمد ولن يتمكن من القيام بالمهمة الكبرى الأ إذا برأت عيناه. ولذلك عالجه رسول الله بريقه المبارك فبرأت عيناه. ولو كان بين المسلمين من يقوم مقام علي لما كلفه بالمهمة. فعلي في وضع غير عادي ولا حرج عليه ان هو لم يجاهد في تلك المعركة. ولكن الأمر كان خطيرا وليس هناك من احد سوى علي يقوى على مجابهة الخطر والتغلب عليه.

معجزتان اجترحتا

(٤) ان شفاء عيني علي بريق رسول الله كان واحدا من معجزتين.والمعجزة الثانية هي نبوءة الرسول واخباره المسلمين بان الرجل الذي سيقود المعركة في اليوم الثالث لا يرجع حتى يفتح الله على يديه. وكيف يتمكن محمد كبشر ان يعلم ان الله سيفتح الحصن على يدي علي. ومن المحتمل ان يقتل علي او يصاب بجرح خطير يمنعه عن متابعة القتال. ولكن الرسول الأعظم لم ينطق بتلك الكلمات

اعتمادا على نفسه. انه كان ينطق عن وحي الله. والله عليم بما سيحدث لعلي وانه لا يرجع حتى يفتح الله على يديه.

وهكذا عجز الجيش الاسلامي كله عن فتح خيبر حينما غاب علي. وكان حضور علي (الرجل الوحيد) مفتاح النصر والظفر. ان هذا يثبت بوضوح ما تحدثنا عنه سابقا بان عليا كان المنفذ للمخطط النبوي والبناء للدولة الاسلامية. وقد صدق عمر (رض) حينما قال لمن اتهم عليا بالتيه: ان من كان مثل علي حق له ان يتيه. «والله لولا سيفه لما قام عمود الاسلام. هو بعدُ اقضى هذه الأمة وذو سابقتها وذو شرفها...»[٧]

لقد شد الله ازر رسوله الاعظم بابن عمه علي الذي وعده بالمؤازرة في مهمته العظمى قبل عشر سنوات سبقت الهجرة، فكانت مؤازرته للرسول نموذجا فريدا في التاريخ.

ولو لم يفه علي بذلك الوعد (يوم مؤتمر الدار) لما فعل غير ما فعل. فارتباط علي بالرسول كان طبيعا لا يحتاج الى وعد او ميثاق. وقد مر (في الفصل الثالث) قول الرسول لعلي: «يا علي الناس من شجر شتى، وانا وانت من شجرة واحدة...».

ولم يفه علي بوعده لينال الرتب التي وعد الرسول بها من يؤازره، بالرغم من عظمتها، بل فاه بوعده لأنه يرى ان مؤازرته للرسول هي المهمة التي خلق من اجلها. لقد ملأ قلبه حب الله ورسوله. ومن كان كذلك اعطى كل وجوده لمرضاتهما، وكان منتهى سعادته وملذاته ان يفعل ذلك.

وحينما منح الرسول عليا رتب الاخاء والوصية والخلافة كان يصدر عن امرالله. ولن يختار الله لتلك الرتب الامن كان جديراً بها.

ولو لم تكن مهمة الرسالة العظمى بحاجة الى جهاد علي وتضحياته لما اختار

---

(٧) شرح نهج البلاغة مجلد ٣ ص ١٧٩

الرسول له اخا ولا وصيا ولا خليفة سواه. ذلك ان عليا كان اشبه الناس بالرسول خلقا وهديا واوفر المسلمين علما واقدمهم اسلاما واطوعهم لله. ولذلك كان أحبهم الى الله ورسوله.

الله ورسوله يحبان عليا

وكفى برهانا على حب علي لله ورسوله وحب الله ورسوله لعلي قول الرسول يوم خيبر: لأُعطينَّ هذه الراية رجلا يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله...»

حديث الطائر المشوي

وقد روى الترمذي في صحيحة[٨] والحاكم في مستدركه[٩] انه جيىء للرسول بطائر (مشوي) ليأكله فقال: «اللهم ائتني بأحب خلقك اليك يأكل معي هذا الطائر.» فجاء علي فأكل معه.

ولأن عليا كان المؤهل الوحيد لتلك الرتب، بصرف النظر عن حاجة الرسالة الى مؤازرته وجهاده نرى الرسول منحه اياها قبل ان يبدأ علي عهد تضحياته وجهاده.

على ان الرسول حين منحه تلك الرتب لم يكن شهود الحادث يزيدون على ثلاثين او أربعين رجلا كلهم من اعضاء العشيرة النبوية. وكان من الطبيعي ان يعلن الرسول ذلك لسائر المسلمين حينما يجد الفرصة لاعلانه.

وقد اختار الرسول ان يتدرج في اعلانه. فبدأ باعلان اخائه لعلي بعد الهجرة بقليل.

وهذا ما سنتحدث عنه في الصفحات التالية.

---

(٨) ج ٥ ص ٣٠٠ (رقم الحديث ٣٨٠٥

(٩) ج ٣ ص ١٣٠ - ١٣١

الرسول يعلن للمسلمين اخاءه لعليّ

الفصل الثاني عشر

بدأت نواة الدولة الإسلامية ببدء الهجرة النبوية. وكان نشوء هذه الدولة نموذجاً فريداً في تاريخ الإنسان. فما نعرف قبل الإسلام دولة قامت على اساس اخاء ينبع من الايمان بوحدانية الخالق وعدله والايمان باليوم الآخر وان الناس جميعاً متساوون امام الله لا يفضل احدهم على آخر الا بالتقوى وان كل تمييز عائلي او قومي او عنصري باطل لا تقره العدالة الالّهية. ولا نعرف قبل الإسلام دولة كان قيامها نتيجة تلقائية لإشتراك مجموعة من الناس بالإيمان بهذه المبادىء العليا.

على ان هذا الأخاء الشامل يبقى فكرة مجرّدة إذا لم يوجد له مثال محسوس. ويبدو ان الرسول اراد ان يعطي المسلمين عامة مثالا للإخاء محسوساً في أخاءات خاصة قوام كل منها اثنان من اتباعه. يمارس فيها المتآخيان في الله اخاءهما بشكل عملي. فيعامل كل منهما الآخر معاملته لأخ ولده ابواه. هذه الأخاءات الخاصة انشأها واعلنها النبي للمسلمين بعد الهجرة.

وكان من بين تلك الاخاءات اخاء يعود تاريخ انشائه الى عشر سنوات سبقت الهجرة شاء الرسول ان يعلنه للمسلمين جميعاً بعد ان كان اعلنه في مكة للهاشميين. ذلك هو الاخاء الذي انشأه الرسول بين نفسه وعلي يوم مؤتمر الدار.

في السيرة الحلبية «انه آخى بعد الهجرة بين ابي بكر وعمر وبين ابي بكر وخارجة بن زيد؛ وبين عمر وعتبان بن مالك؛ وبين ابي رويم الخثعمي وبلال؛ وبين اسيد بن حضير وزيد بن حارثة؛ وبين ابي عبيدة وسعد بن معاذ؛ وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع... ثم اخذ بيد علي بن ابي طالب: هذا اخي. فكان رسول الله وعلي اخوين...»[1]

وقد ذكر ابن هشام في السيرة النبوية ما يلي:

وآخى رسول الله (ص) بين اصحابه من المهاجرين والأنصار، فقال: تآخوا في الله اخوين اخوين. ثم اخذ بيد علي بن ابي طالب فقال: هذا اخي. فكان رسول

---

(١) ج ٢ ص ٩٧.

الله سيد المرسلين وامام المتقين ورسول رب العالمين الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد وعلي بن ابي طالب اخوين. وكان حمزة بن عبد المطلب اسد الله واسد رسوله وعم رسول الله وزيد بن حارثة مولى رسول الله اخوين. وكان ابو بكر الصديق ابن ابي قحافة وخارجه بن زهير اخو بلحارث من الخزرج اخوين، وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك احو بني سالم بن عوف بن عمر بن عوف من الخزرج اخوين...»[٢]

ان اخاء من هذا النوع يمكن ان يخدم غايتين:

(١) انه احلال لقرابة المبدأ محل قرابة الدم. فحيث لا تكون قرابة دموية كأن يكون اثنان من قبيلتين او من بلدين وقبيلتين تكون قرابة المبدإ والإيمان بدين الإسلام بمثابة القرابة الدموية. وفي هذا ما يجعل أخوين في مبدإ مستعدين للتعاون في سبيل خدمة ذلك المبدإ. كما ان حدوث هذا النوع من القرابة الروحية والأدبية، يجعل كلاً من الاخوين بعيداً عن الحقد على الآخر لو حدث بين احدهما وبين احد اقارب الآخر ما يؤدي الى سوء تفاهم أو بغضاء.

اضف الى ذلك ان الأخاء بين شخصين من قبيلتين يجعل كلاً منهما صديقاً لأعضاء قبيلة الآخر. ان كل واحد منهما يحب الآخر بدافع الأخوة الإسلامية الجديدة. ولكل منهما اقارب بالنسب يحبهم ويحبونه ويتأثر بهم ويتأثرون به. هؤلاء الأقارب سوف يصبحون على صلة وثيقة بمن اتصل روحياً بنسيبهم. وبذلك يكون الاخاء الروحي امتداداً للقرابة الدموية. كما تصبح القرابة الدموية امتداداً للقرابة الروحية.

(٢) وان في اخاء خاص بين شخصين ما يشير الى تشابههما روحيا إذا كان ذلك الأخاء انتقاء من الرسول الذي كان اعرف الناس باصحابه. فقد لا يعرف اثنان من اصحاب الرسول تشابههما الروحي بقدر ما يعرف الرسول من ذلك التشابه. وبذلك يكون الأخاء وسيلة لتعاونهما لخير الإسلام والمسلمين بمقدار اخلاصهما للمبادىء الإسلامية.

---

(٢) ج ١ ص ٥٠٥

(٢)

ماذا يعني الإخاء بين الرسول وعلي؟

وإذا نظرنا الى الإخاء بين رسول الله وعلي قبل الهجرة وبعد الهجرة نرى ان اخاءهما لا يحقق الغاية الأولى وهي تقارب قبيلتين من بلد واحد او من بلدين. ان الرسول وعليا لم يكونا من بلدين ولا من قبيلتين بل كانا ابني عم من الدرجة الأولى.

ولذلك نستنتج ان الدافع للإخاء بين الرسول وعلي هو تشابههما الروحي. وهو في الوقت نفسه تحقيق وتأكيد لوعد قطعه رسول الله لعلي قبل عشر سنوات من الهجرة ذلك يوم جمع رسول الله عشيرته الأقربين وسألهم المؤازرة ووعد المؤازر منهم ان يكون اخاه ووصيه وخليفته فيهم. وكان علي الوحيد الذي قال للرسول: «يا رسول الله، انا اكون وزيرك.»

واود ان اقول ان اخا ينتقيه الرسول لنفسه يتوقع ان يكون اشبه الناس به خلقا وهديا وعلما واخلاصا. ان اخاك الذي ولده ابواك هو اخ لم تختره ولم تنتخبه لأُخوّتك. انه اخوك بالولادة. وقد لا يكون بينك وبينه اخاء روحي بل ولا صداقة. ولو خيرت في امره فلربما لم تختره اخاً لك.

وكم من عاقل حكيم الزمته القرابة بأخ جاهل. وكم من تقي صالح الزمته القرابة بأخ شقي شرير. وقد يسعد الحظ اخوين بالولادة ان يكونا متشابهين روحياً ومتقاربين عقلياً وخلقياً.

أما الأخ الذي تختاره لنفسك وانت في دور العقل والرجولة فهو في الغالب اشبه بك روحياً واقرب من سواه اليك ذوقاً. وإذا كان من يختار الأخ لنفسه رسولا نبيا فما من شك بأن التشابه بينه وبين اخيه امر أكيد. واخوه لا شك اشبه الناس به خلقاً وعلماً واخلاصاً.

ان اخاء الرسول لعلي امر معلوم في التاريخ وخبره متواتر. وقد كان لهذا الإخاء معناه واهميته في نفس الرسول. فقد اخرج الحاكم في مستدركه بطريقين

صحيحين ان رسول الله قال لعلي: «انت اخي في الدنيا والآخره.»[٣]

وخرج رسول الله يوماً ووجهه مشرق، فسأله عبد الرحمن بن عوف فقال الرسول:

«بشارة اتتني من ربي في أخي وابن عمي وابنتي بأن الله زوج علياً من فطمة.»

وقال الرسول لعلي: «انت اخي وصاحبي ورفيقي في الجنة.»[٤]

وخاطبه يوما في امر كان بينه وبين اخيه جعفر وزيد بن حارثه فقال له «... واما انت يا علي فاخي وصاحبي...»[٥]

وعهد الرسول الى علي يوماً فقال:«انت اخي ووزيري، تقضي ديني وتنجز موعدي وتبرىء ذمتي...»[٦]

ولما زفّت فاطمة الى علي، قال رسول الله لأم أيمن: «ادعي لي اخي» فقالت (مداعبة): هو اخوك وتنكحه (ابنتك)؟ فقال نعم يا أم ايمن. فدعت له عليا فجاء...»[٧]

-٣-

زوج سيدة النساء

لم يقف الرسول في تشريف علي عند اعلان اخائه اياه، بل اضاف الى ذلك شرفاً مزيداً آخر لقد اختاره ليكون صهره فزوجه ابنته فاطمة الزهراء التي شهد

---

(٣) ج ٣، ص ١٤ ورواه الترمذي في صحيحه ج ٥ ص

(٤) تاريخ بغداد ج ١٢، ص ٢٦٨ والاستيعاب لإبن عبد البر ج ٢ ص ٤٦٠ (نقل ذلك الفيروز بادي في كتابه فضائل الخمسة ج ١ - ص ٢٣١).

(٥) طبقات ابن سعد ج ٨ ص ١١٤.

(٦) كنز العمال ج ٦ - ص ١٥٥.

(٧) مستدرك الصحيحين للحاكم ج ٣، ص ١٥٩

لها ابوها بانها سيدة نساء اهل الجنة (او سيدة نساء المؤمنين)[٨] وقال فيها: «فاطمة بضعة مني فمن اغضبها اغضبني»[٩] وقالت فيها عائشة ام المؤمنين (رض): «ما رأيت احدا كان اشبه كلاماً وحديثاً من فاطمة برسول الله وكانت إذا دخلت عليه رحب بها وقام اليها فاخذ بيدها وقبلها واجلسها في محله.»[١٠] وكانت عائشه إذا ذكرت فاطمة بنت النبي تقول: «ما رأيت احدا كان اصدق لهجة منها الا ان يكون الذي ولدها.»[١١]

لقد طلب سيدة النساء بارزون من الأصحاب فردهم رسول الله قائلا: «انتظر بها القضاء» وهو يعني بذلك انه ينتظر في زواجها امراً من الله.

وحينما طلب يدها علي قال له النبي: «مرحباً واهلاً» فزوجه اياها في السنة الأولى من الهجرة وزفت اليه في السنة الثانية بعد معركة بدر.

وقد قدر لهذا الزواج ان يكون فريداً في نتائجه. فقد كان من ثماره دُرَّتا هذه الأمة اللذين قال رسول الله فيهما وفي امهما ان ملكاً جاء من السماء يبشره بأن فاطمة سيدة نساء اهل الجنة وان الحسن والحسين سيدا شباب اهل الجنة[١٢]

وبميلادهما تكونت اشرف اسرة في تاريخ الإسلام واصبحت هذه الأسرة باعضائها الأربعة آل الرسول وعترته التي امر الرسول المسلمين ان يصلوا عليها كلما صلوا عليه. هذه الأسرة هي التي حث النبي المسلمين على اتباع اعضائها لأنهم احد ثقليه اللذين يكون اتباعهما امانا من الضلال.

اسرة اشاد الله بفضلها.

ولم يكن النبي في كل ما تحدث به عن علي واسرته يصدر الاَّ عن امر الله

---

(٨) رواه البخاري في صحيحه بسنده عن عائشة في كتاب بدء الخلق في باب علامات النبوة.
(٩) نفس المصدر. في باب مناقب قرابة الرسول ومنقبة فاطمة.
(١٠) رواه الحاكم في المستدرك، ج ٣ - ص ١٥٤
(١١) نفس المصدر ص ١٦٠
(١٢) رواه الترمذي في صحيحه ج ٢ - ص ٣٠٦

ووحيه. وكفى دليلا على عظمة هذه الأسرة ومكانها البارز في الإسلام ان ينزل الله فيها ثمانية عشرة آية متتابعة تتحدث عن تضحية هذه الأسرة وحبها لله ومكانها في الجنة.

روى الواحدي في البسيط والأمام الرازي في تفسيره الكبير والزمخشري في كشافه ونظام الدين النيسابوري في غرائب القرآن[١٣] والشبلنجي في نور الأبصار[١٤] عن ابن عباس ان الحسن والحسين مرضا فنذر علي وفاطمة صيام ثلاثة ايام شكراً لله ان عوفي ابناهما. فتابعهما على ذلك الحسنان وجاريتهم فضة.

عوفي الولدان وصامت العائلة كلها ثلاثة ايام متوالية. ولم يكن لدى العائلة في كل من الأيام الثلاثة الا قليل من خبز الشعير. وحين جاء وقت الأفطار في اليوم الأول جاء مسكين فطلب طعاماً، فاعطاه علي طعامه. وكذلك فعلت زوجته وابناهما وفضة. وفي اليوم الثاني جاء يتيم عند الأفطار يطلب طعاماً فاعطوه كل ما لديهم. وفي اليوم الثالث جاء اسير يطلب طعاماً وفعلت العائلة ما فعلت في اليومين الأولين فانزل الله فيهم سورة « هل اتى » التي فيها قوله تعالى:

﴿ان الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا★ عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا★ يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا★ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا★ انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا★ انا نخاف من ربنا يوماً عبوسا قمطريرا★ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا★ وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا...﴾[١٥]

ومما يجدر ذكره انه لم يرد في اي رواية ان اعضاء هذه الأسرة قالوا لمن اعطوهم طعامهم: انما نطعمكم لوجه الله، لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. انهم اسروا ذلك في نفوسهم الطاهرة ولم تنطق به السنتهم فأعلن الله في كتابه ما اسروه.

---

(١٣) على هامش تفسير الطبري ج ٢٩ ص ١١٢ - ١١٣
(١٤) ص ١٠٢
(١٥) سورة الدهر (٧٦) آيات ٥ - ١٣

شهادة قرآنية فريدة، لم ينزل الوحي بمثلها في احد من المسلمين. ولم يكن ذلك لا لأن تضحية هذه الأسرة الكريمة كانت فريدة في التاريخ. فلسنا نعرف ان اسرة بكاملها آثرت على نفسها هذه الايثار. وأعطت على حب الله اقواتها الضرورية ثلاثة ايام متواصلة للمحتاجين. ولم لا؟ فعلي اخو الرسول، وزوجته بضعة من الرسول، وابناؤهما بشهادة آية المباهلة ابناء الرسول.

ان اعضاء هذه الأسرة الكريمة هم الذين احضرهم رسول الله معه يوم امره الله في آية كريمة ان يباهل نصارى نجران. فكان احضارهم بينة على انهم اعلى المسلمين درجة بعد الرسول، وكان احضار علي بصورة خاصة بينه على ان العلاقة بين الرسول وعلي تجاوزت حدود الإخاء ووصلت الى درجة الإتحاد. اذ ترى في الصفحات التالية ان عليا كان من الرسول بمنزلة نفسه.

مَنزلتهِ مِن الرسُول في القرآن

الفصل الثالث عشر

في السنة التاسعة بعد هجرة الرسول قدم الى المدينة وفد من نصارى نجران، اليمن،ليسألوا رسول الله عن الأسلام ويحاجوه في الدين. وقد جرى بينهم وبين الرسول حوار اوضح فيه الرسول موقف الاسلام الايجابي من السيد المسيح وتعاليمه. ولكنهم اضروا على موقفهم السلبي من تعاليم الأسلام. فنزل الوحي يأمر النبي بمباهلتهم. والمباهلة دعاء فريقين مختصمين بان ينزل الله العذاب على المبطل منهما:

«فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل: تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين[1]».

وقد صدع الرسول بما امر به فدعا الوفد المسيحي الى المباهلة. وقد ذكر النيسابوري في تفسيره: غرائب القرآن وعجائب الفرقان ما يلي:

ان رسول الله قال لهم: ان الله امرني ان لم تقبلوا الحجة أن اباهلكم. فقالوا: يا ابا القاسم بل نرجع وننظر في امرنا، ثم نأتيك. فلما رجعوا قالوا للعاقب، وكان ذا رأيهم: يا عبد المسيح ما ترى؟ قال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى ان محمدا نبي مرسل. ولقد جاءكم بالكلام الفصل في امر صاحبكم المسيح. والله ما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم. ولئن فعلتم لكان الأستئصال. فان ابيتم الا الاصرار على دينكم والإقامة على ما انتم عليه فوادعوا الرجل وانصرفوا الى بلادكم.

جاء الوفد المسيحي الى الرسول فوجدوه قد خرج الى المباهلة وعليه مرط من شعر اسود. وكان قد احتضن الحسين واخذ بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه. وعلي عليه السلام خلفها، وهو يقول: إذا دعوت فأمنوا. فقال أسقف نجران: ي معشر النصارى اني لأرى وجوها لو دعت الله ان يزيل جبلا من مكانه لأزاله بها. فلا

---

(١) سورة آل عمران (رقم ٣) آية ٦٢.

تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني الى يوم القيامة. ثم قالوا: يا ابا القاسم رأينا.ان لا نباهلك...[٢] ».

وقد روى الطبري (في تفسيره) من عدة طرق اصطحاب رسول الله (ص) لعلي وفاطمة والحسن والحسين في حادث المباهلة[٣].

وفي صحيح مسلم عن سعد بن ابي وقاص انه لما نزلت هذه الآية: فقل:« تعالوا ندع أبناءنا وابناءكم »،دعا رسول الله (ص) عليا وفاطمة، وحسنا وحسينا فقال: اللهم هؤلاء اهلي[٤] ».

لقد امر الله رسوله ان يقول لوفد نجران:« تعالواندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم... » وامتثالا لهذا الأمر احضر النبي الحسنين لأنهما ابنا ابنته فهما لذلك ابناه. واحضر فاطمة وهي تمثل النساء من اهل بيته. ولكن لماذا احضر معهم علياً وهو ليس من الابناء ولا من النساء؟

ليس لعلي مكان في الآية الا ان يكون داخلاً في قوله تعالى: « وانفسنا ».

ان احضار علي يدل على ان رسول الله كان يعده بمنزلة نفسه وإذا كان رسول الله يعده كذلك فقد ميزه عن المسلمين جميعا. وقد صرح رسول الله في مقامات مختلفة قائلاً: علي مني وانا منه. فقد روى حبشي بن جناده، أنه سمع رسول الله يقول: « علي مني وانا منه ولا يؤدي عني الا علي[٥] ».

محاورة بين الامام الرضا والمأمون

وما اجمل محاورة وقعت بين الامام علي الرضا والمأمون.. لقد قال المأمون للرضا: ما الدليل على امامة جدك؟ فاجابه الامام ان الدليل على امامته قوله تعالى: « وانفسنا وانفسكم ».

---

(٢) نجد ذلك في تفسير النيسابوري المطبوع على هامش تفسير الطبري ج ٣ - ص ١٩٢ - ١٩٣

(٣) ج ٣ ص ١٩٢ - ١٩٣ ومثله في تفسير الجلالين.

(٤) ج - ١٥ - ص ١٧٦

(٥) ابن ماجه في سننه، حديث رقم ١٤٣

يريد بذلك ان الرسول باحضاره عليا في حادث المباهلة جعله بمنزلة نفسه ومن كان بمنزلة نفس الرسول فهو امام المسلمين.

فقال المأمون: لولا قوله: « ونساءنا ونساءكم » واجابه الأمام قائلاً لولا قوله: « وابناءنا وابناءكم ».

وقد عنى المأمون ان من الممكن أن يكون بين المسلمين من يساوي عليا في الفضل ومن يمكن أن يكون لدى الرسول بمنزلة نفسه. ولكن الرسول لم يرد ان يحضر كل شخص من هؤلاء الذين يراهم كنفسه. بل احضر واحدا منهم فقط وهو علي. والدليل على ذلك ان كلمة« نساءنا »ينبغي ان تشمل كل النساء المنتسبات للنبي نسبا او زواجا ولكن الرسول احضر منهن واحدة تنتمي اليه نسبا وهي فاطمة كنموذج لمن ينتسب اليه من النساء.

وقد اجابه الرضا بانه لو كان النساء الأخريات يساوين فاطمة لأحضرهن مع فاطمة. فها هو احضر الحسن والحسين معاً لأنهما متساويان. ولم يحضر منهما واحداً فقط على سبيل النموذجية للأبناء. ولذلك يكون احضاره لعلي دليلا على ان عليا هو الرجل الوحيد الذي يعده الرسول كنفسه.

وقد روي ان عمرو بن العاص سأل الرسول عن احب الناس اليه من الرجال. فقال: ابو بكر. فسأله ثم من؟ « فقال: عمر. فقال ابن العاص: اين مكان علي؟ فالتفت الرسول الى الحاضرين وقال: « ان هذا يسأل عن النفس[٦] ».

لقد اوضحت الصفحات الماضية ان الرسول الأعظم اعلن للأمة اخاءه لعلي. وما كان اعلان ذلك بعد الهجرة انجازاً لوعد فاه به النبي قبل الهجرة. فالنبي انجز وعده لعلي قبل ذلك اذا آخاه يوم الدار: ولم يعده بان يعلن ذلك الاخاء للمسلمين في المستقبل.

لقد فعل النبي ذلك تلقائيا لأنه يرى ان عليا يستحق ذلك التشريف الفريد

(٦) ذكره ابن النجار (كنز العمال، ج ١٥، ص ١٢٥، رقم الحديث ٣٦١)

ولأن الاعلان يعد الامة نفسيا لقيادة علي في المستقبل ويدلها على منارة هداية تحتاج اليها بعد النبي.

وإذا كان من المستحسن ان يعلن الرسول للأمة انه منح عليا رتبة اخائه فقد كان من الضروري ان يعلن لها منحه اياه رتبتي الوصية والخلافة اللتين اعلنهما ايضا امام اعضاء العشيرة يوم الدار. ان اعظم ما تحتاج اليه الأمة بعد ايمانها بالرسالة هو ان تجد لها مفزعاً تلجأ اليه بعد الرسول. فالقيادة الصالحة هي التي تضمن استمرار الرسالة وصفائها وتجعل الامة بمأمن من الضلال في مستقبلها الطويل.

وقد اختار الرسول ان يعلن ذلك للأمة في السنة العاشرة بعد الهجرة يوم كان (ص) في حجة الوداع. فاعلن امام الوف الحجاج ولاية علي. والولاية لأمور المسلمين بعد الرسول بعهد من الرسول تعني استخلافا وتتضمن وصية. فمن عهد اليه الرسول ان يلي امور المسلمين فهو وصيه.

وَليّ المسلمين بَعد الرسول

الفصل الرابع عشر

حفلت السنة الاخيرة من حياة الرسول الاعظم باحداث كثيرة ولكن حدثين بديا بارزين يشيران الى شعور الرسول بدنو اجله وانه كان يوشك ان يدعى فيجيب.

لقد اعلن الرسول لاهل شبه الجزيرة العربية انه سيؤدي فريضة الحج ورغب اليهم ان يوافوه في ايام الحج ليعلمهم مناسكه وليوصيهم بما يوصي به اتباعه نبي يخشى ان لا يراهم ولا يروه في عام قابل. ووافى رسول الله عشرات الالوف من الحجاج ومضى يقودهم في احرامهم وفي طوافهم وصلواتهم وسعيهم ومواقفهم ونحرهم وهم يتبعونه ويفعلون ما يؤمرون. وقد خطبهم وهم في عرفات فابلغ واعلن لهم في مستهل خطابه دنو اجله اذ قال بعد ان حمد الله واثنى عليه:

«ايها الناس اسمعوا قولي، فاني لا ادري لعلي لا القاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف ابدا...»

ثم تحدث اليهم عن حرمة الدماء والاموال. فقال: «ايها الناس ان دماءكم واموالكم عليكم حرام الى ان تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا. وانكم ستلقون ربكم فيسألكم عن اعمالكم. وقد بلغت[1]».

ومضى رسول الله في خطبته حاثا على اداء الامانة معلنا ان كل ربا موضوع وان كل دم في الجاهلية موضوع ومذكرا بحقوق النساء والاخاء الاسلامي.

امان للامة من الضلال وحديث الثقلين

ولم يكن الرسول الاعظم وهو احرص الناس على مستقبل امته واعلم الناس بما سوف تتعرض له من فتن ومحن واخطار على دينها واخائها ووحدتها، ليترك الامة دون منار ينصبه لها ليهديها سواء السبيل فيما يعرض لها بعد انقطاع الوحي بموته لذلك اعلن لها ما يمثل ضمانة لها ضد الضلال ان تمسكت به.

روى الترمذي في صحيحة بسنده الى جابر بن عبد الله الانصاري (وقال

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٦

الترمذي انه قد روي عن ابي ذر وابي سعيد وزيد بن ارقم وحذيفة بن اسيد ما يتفق مع رواية جابر) انه قال: «رأيت رسول الله (ص) في حجته يوم عرفه وهو على ناقته القصواء يخطب، فسمعته يقول:

« يا ايها الناس، اني تركت فيكم من (أو ما) ان اخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي اهل بيتي ».

لهذه الكلمات اعلن الرسول لأمته انه ترك لها ما تأمن به من الضلال ان اخذت به وان هذه الضمانة - تتألف من عنصرين متفقين احدهما وحي الله المسجل في القرآن وثانيهما عترة الرسول المصطفون الذين لديهم علم تأويل القرآن والاحاطة بسنن الرسول الاعظم.

ما رواه ابن هشام

ومن الجدير بالذكر ان العامة من جمهور المسلمين لا يعرفون هذه الكلمات النبوية التي رواها نحو من عشرين من الصحابة. والشائع بينهم ما رواه ابن هشام في السيرة النبوية. وهو ان النبي قال في خطبته في عرفة:

«اني تركت فيكم ما ان اعتصمتم به لن تضلوا: كتاب الله امرا بيناً وسنة رسوله».

والكثير من العامة يستغربون الحديث الاول ويحسبون ان بين الحديثين تنافيا.

والواقع ان حديث الاعتصام بالكتاب والسنة مرسل لم يذكر ابن هشام سنده فيه الى الرسول. ولذلك لا ينبغي الاعتماد عليه، سيما وان البخاري ومسلما لم يذكرا في روايتهما لخطبة الرسول يوم عرفه كلمة «وسنة نبيه» بل اقتصرا على ذكر كتاب الله.

يضاف الى ذلك ان هنالك فارقا بين السنن وكتاب الله. فكتاب الله معروف لدى المسلمين متفق عليه بينهم وقد سجل في ايام الرسول. في حين السنن لم تكتب

في حياة الرسول. وما كتب منها بعده لم يتفق عليه المسلمون بل اختلفت فيه الاحاديث اختلافا شديدا واضطر علماء المسلمين ان يسقطوا الكثير منها ويختاروا ما تراءى لهم صحته. وما تراءى لهم صحته لم يصبح موضع اتفاق عند جميع المسلمين.

وحتى ما يوجد في الصحاح نرى في كثير منه تعارضا بينا. وعلى سبيل المثال نذكر انه سجل في بعض الصحاح عن عبد الرحمن بن ابي عميرة ان النبي قال لمعاوية: «اللهم اجعله هاديا مهديا واهد به».

وروي في الصحاح قوله الرسول لعمار بن ياسر: «ابشر يا عمار. تقتلك الفئة الباغية». وكانت الفئة التي قتلت عمار فئة معاوية. واذا كان معاوية رأس الفئة الباغية فكيف يكون هاديا مهديا وكيف يهتدي الناس به؟

وهل يكون في مثل هذه السنة المروية في فضل معاوية للمسلمين امان من الضلال لو تمسكوا بها؟ أم تكون هذه الرواية وامثالها سببا لالتباس الامر على المسلمين؟ وكيف يكون من خاض ضد امام الهدى حربا سفك فيها دماء عشرات الالوف من المسلمين هاديا مهديا يهتدى به؟

ولكي تكون رواية ابن هشام صحيحة المعنى يجب ان نفهم من قوله: «وسنة نبيه» اقوال الرسول وافعاله التي صدرت عنه وعلم بصدورها عنه (ص) فهي التي تمثل لنا ضمانة ضد الضلال لو اخذنا بها. ولكن المتواتر المعلوم من هذه السنن قليل. ومعظم الحديث اخبار آحاد لم يعلم علم اليقين صدورها عنه. وكثير من هذه الاحاديث قد اتت متعارضة. فلسنا نتمكن بواسطتها من العلم بما صدر من الرسول من اقوال وافعال.

ان هنالك طريقا واحدا معقولا: وهو ان يعرفنا الرسول عن مصدر يعتمد عليه لنعرف منه حقيقة ما قاله الرسول وما فعله. والحديث الاول الذي رواه الترمذي ورواه ما يزيد على عشرين من الصحابة يعرفنا عن ذلك المصدر: وهو عترة الرسول الذين عرفوا الكتاب وسنن الرسول كل المعرفة وبذلك يكون حديث العترة وحديث السنة متوافقين متطابقين. وليس لدينا شك في ان ما كان لدى

علي باب مدينة العلم من علوم القرآن وسنن الرسول كان كفيلا بتجنيب المسلمين كل ضلالة لو اخذوا به وساعدوه على نشر ما اختزن منه.

على ان الحادث الثاني البارز من احداث تلك السنة في حياة الرسول يوضح لنا بجلاء ان الرسول اراد ان يزيل كل التباس في شأن تلك الضمانة. وان عترته وبصورة خاصة علي بن ابي طالب جزء من تلك الضمانة.

اما الحادث الثاني البارز فهو وقفة الرسول الاعظم في غدير خم وهو عائد من حجة الوداع ليعلن امام الوف الحجاج العائدين معه ان عليا بن ابي طالب مولى كل مؤمن ومؤمنة.

روى الحاكم بسنده عن ابي الطفيل عن زيد بن أرقم انه قال: «لما رجع رسول الله (ص) من حجة الوداع ونزل غدير خم أمر بدوحات فأقمن، فقال: **كأني دعيت فاجبت**. اني تارك فيكم الثقلين احدهما اكبر من الآخر: كتاب الله وعترتي: فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض. ثم قال: ان الله عز وجل مولاي وانا مولى كل مؤمن. ثم اخذ بيد علي فقال: من كنت مولاه فهذا وليه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه[٣]».

لقد اراد الرسول (ص) ان يعلن في هذا الموقف للمسلمين امورا ثلاثة كلها تبدو مهمة جدا كما تبدو متلاحمة مترابطة:

(١) **انه يترقب انتقاله من هذا العالم بسرعة.** فهو يتحدث اليهم وكأنه حال حديثه معهم قد أتاه نداء ربه. «كأني دعيت فاجبت».

(٢) انه كنبي ارسل رحمة للعالمين وكان كل همه في هذه الحياة هداية الناس لا بُدَّ له وهو ذاهب الى ربه من ان يترك لاتباعه وسيلة للهداية من بعده تنير لهم الطريق وتهديهم سواء السبيل بعد ان ينقطع عنهم وحي السماء بمغيبه. لذلك اعلن لهم انه ترك لهم كتاب الله وعترته من اهل بيته وانهم ان تمسكوا بهما ضمنوا لانفسهم الاستمرار على المحجة الواضحة في مستقبلهم القريب والبعيد.

---

(٣) المستدرك ج ٣ ص ١٠٩

(٣) واذا كان اقرباء الرسول الادنون غير متساوين في معرفتهم بالكتاب وسنن الرسول والتزامهم بهما واهليتهم لقيادة الامة، فان الرسول اعلن للأمة ان الرجل الذي يحمل كل المؤهلات لتلك القيادة من بين اقربائه الادنين هو علي بن ابي طالب. لذلك احله محله وجعله بديلا له. فالله مولى الرسول والرسول مولى كل مؤمن واولى بكل مؤمن من نفسه وعلي ولي لكل من كان الرسول مولاه.

لماذا لم يسجل الرسول كتابةً ما صرح به لفظا؟

واذ أعلن الرسول ذلك للناس في غدير خم وكان (ص) يعرف اكثر من كل انسان آخر ان الناس يختلفون في حفظ ما يسمعون وفي فهم ما يسمعون فقد كان من المتوقع ان يسجل الرسول كتابه في عهد خاص ما اعلنه للناس لفظا ليقيم الحجة عليهم ولا يبقي لأي معتذر عذرا ولكنه لم يفعل ذلك. فالتاريخ لا يحدثنا عن عهد املاه الرسول وختمه بخاتمه الشريف يعلن به انه اختار عليا (أو سواه) لقيادة الامة من بعده. فما هو السبب في ذلك؟

سنجد الجواب على هذا السؤال المهم في الصفحات التالية.

إرادة نبوية لم تنفذ

الفصل الخامس عشر

لم يترك الرسول وصية مكتوبة بالرغم من ان القرآن يأمر كل مسلم بالوصية ففي سورة البقرة نقرأ الآية التالية:

﴿كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت ان ترك خيرا الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقا على المتقين.﴾ [(١)]

ان الآية تنص بوضوح على ان الله اوجب الوصية وفرضها على كل من يترك مالاً بعد موته وان الوصية حق واجب على المتقين.

وبالرغم من انه روي عن النبي ما يفهم منه ان الأمر بالوصية للوالدين والأقربين كان قبل نزول فروض الأرث، فان الوصية لدى حضور الموت او قبله لم تزل مفروضة. على ان الآية تتحدث عن الألزام بالوصية ولكنها لا تتحدث عن لزوم الوصية كتابة أو الإكتفاء بها لفظا. ولكن الرسول (ص) طلب من المسلمين الوصية كتابة. ففي صحيح مسلم ما يلي:

روى سالم عن ابيه انه سمع رسول الله قال:

«ما حق امرىء مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ثلاث ليال إلاّ ووصيته عنده مكتوبة.» [(٢)] وفي صحيح مسلم ايضا ان ابن عمر روى ان رسول الله قال: «ما حق امرىء مسلم له شيء يوصى فيه يبيت ليلتين إلاّ ووصيته مكتوبة عنده.» [(٣)]

وروى مسلم ايضا ان عبد الله بن عمر قال ما مرت علي ليلة منذ سمعت رسول الله قال ذلك إلاّ وعندي وصيتي. [(٤)]

ربما كان للرسول ان يؤخر وصيته ليالي وشهورا وسنين لأنه كان على موعد مع ربه. فمن المرجح ان يكون الرسول علم بواسطة الوحي انه لن يموت قبل ان

---

(١) آية رقم ١٨٠

(٢) ج ١١ (كتاب الوصية) صفحة ٧٤ - ٧٥

(٣) المصدر نفسه. وقد رواه البخاري في صحيحه ج ٤ صفحة ٣

(٤) المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

يكمل الله له دينه. ولذلك نراه حينما تلقى وهو في حجة الوداع الآية التالية:

﴿اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً.﴾ شعر بدنو أجله. ورأى ان الوقت قد حان لأن يوصي لفظاً ثم كتابة. ولذلك نراه وهو في طريق عودته من مكة الى المدينة يوقف الحجيج عند غدير خم ويخاطبهم فكان مما قال:

«كأني قد دعيت الى لقاء الله فأجبت. إني قد تركت فيكم الثقيلين كتاب الله وعترتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما فانهما لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض. ثم قال: ان الله مولاي وأنا مولى كل مؤمن. ثم أخذ بيد علي، فقال: من كنت مولاه فهذا وليه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه.» [٥]

الوصية المكتوبة ضرورية في الامور المهمه

إن الوصية الملفوظة لها قيمتها. ولكن الوصية المكتوبة ضرورية. وبصورة خاصة في أمر هام كالعهد لشخص معين ليكون خليفة للرسول وقائدا للأمة من بعده. ان الاعلان الملفوظ في امر مهم كهذا لا يجزي عن الوصية المكتوبة. فما يلفظ يمكن ان يزاد عليه أو ينقص منه او يحرف او ينكر أو ينسى. وما يصعب تبديله هو الوصية المكتوبة. ولذلك كان من المتوقع ان يترك النبي لأمته وصية مكتوبة ومختومة بخاتمة الشريف.

ان كثيرا من العلماء يقولون ان النبي اوصى لفظا باتباع كتاب الله وسنة النبي. وذلك حسبه وصية. ولكن هذا رأي خاطىء. ان القرآن يأمر المؤمنين باطاعة الله واطاعة الرسول:

﴿يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول...﴾ [٦]

﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا...﴾ [٧]

---

(٥) المستدرك للحاكم ج ٣ ص ١٠٩

(٦) سورة النساء (رقم ٤) آية ٥٩

(٧) سورة الحشر (رقم ٥٩) آية ٧

واذا كان القرآن نفسه صريحا في لزوم اتباع تعاليمه واتباع سنن الرسول. فلن تكون الوصية باتباعهما وصية خاصة ولن تكون كلمة الرسول أبلغ من القرآن واشد تأثيراً. اضف الى ذلك ان محتوى وصية الرسول ينبغي ان يكون امرا لا يعلم اتباعه لزوم فعله الا بواسطة الوصية. ولزوم طاعة الله ورسوله امر معلوم لكل مسلم بل هو اساس الاسلام وغايته.

ان الرسول اولى من اي واحد من امته بان يمتثل امر القرآن بالوصية وان يعمل ما امر هو أمته بعمله.

معرفة الرسول باخطار المستقبل تحتم الوصية المكتوبة

واذا كان من واجب عبد الله بن عمر وواجب كل مسلم صغير أو كبير ان يكتب وصية لأنه مسؤول عن مال قليل أو عائلة صغيرة. فان رسول الله اولى من امته كلها بأن يوصي. لأنه مسؤول عن مصير الأمة الإسلامية باجيالها كلها.

واذا تصورنا خطورة المسؤولية الملقاة على عاتقه تجاه الملايين من المسلمين الذين كانوا في زمنه والبلايين من المسلمين الذين ولدوا بعده (من عديد الأجيال) نجزم ان امرا غير عادي منع رسول الله من أن يكتب وصية يرشد فيها امته الى قائد يقودها من بعده. لقد كان الاسلام لا يزال طري العود لم تتعمق عروق شجرته في تربة المجتمع العربي وكانت الأخطار التي تتهدد الاسلام كثيرة. والكل يعرف ردة معظم قبائل الجزيرة العربية وحروب الردة التي كلفت المسلمين غاليا. والنبي نفسه كان يعرف تلك الأخطار اكثر من اي انسان.

ففي صحيح المستدرك ان ابا مويهبة خادم رسول الله روى ان رسول الله قال له:

«اني قد امرت ان استغفر لأهل هذا البقيع، فانطلق معي فانطلقت معه. فلما وقف حين اظهرهم، قال: السلام عليكم يا اهل المقابر. ليهنىء لكم ما اصبحتم فيه.

لو تعلمون ما انجاكم الله فيه. اقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع اولها آخرها...»[٦]

ابو بكر يترك وصية مكتوبة

وليس من المعقول ان يكون النبي اقل حرصا على مصلحة الأمة واهتماما بمصيرها من صاحبه ابي بكر «رض» الذي لم يخرج من هذا العالم إلاّ بعد ان استخلف على المسلمين رجلا ارتضاه للقيادة الإسلامية.

فقد استخلف عليهم عمر بالرغم من ان المسلمين كانوا قد اجتازوا تحت قيادته اخطار الردة ووصلوا الى شيء كثير من الاستقرار الداخلي. لقد فعل ذلك لعلمه بان ترك المسلمين دون قيادة اهمال لشؤون الأمة وتعريض لها الى اخطار كثيرة.

حوار بين عبد الله بن عمر وابيه

وما احكم ما قاله عبد الله بن عمر لأبيه حين طعن. فقد روي انه نصح اباه ان يستخلف احدا من بعده، وكانت بينهما المحاورة التالية:

عبد الله: لو استخلفت.

عمر: من؟

عبد الله: تجتهد فانك لست لهم برب. أرأيت لو انك بعثت الى قيم ارضك الم تكن تحب ان يستخلف مكانه (احدا) حتى يرجع الى الارض؟

عمر: بلى.

عبد الله: ارأيت لو بعثت الى راعي غنمك الم تكن تحب ان يستخلف رجلا حتى يرجع ؟[٧]

ومع انه رفض ان يستخلف احدا بعينه، فانه اوصى بما يشبه الاستخلاف فقد اختار ستة اعطاهم حق اختيار خليفة منهم وامرهم باتباع رأي اكثريتهم اذا كان

---

(٦) ج (٣) ص ٥٦. وروى ما يقرب من هذا اللفظ ابن هشام في سيرته ج ٢ ص ٦٤٢. وقد ذكر هذا الحديث محمد بن سعد في كتابه الطبقات ج ٢ ص ٢٠٤.

(٧) طبقات بن سعد ج ٣ ص ٣٤٣. وروى ما يقرب منه مسلم في صحيحه ج ١٢ ص ٢٠٦

هنالك من اكثرية، وامرهم باتباع فريق عبد الرحمن بن عوف ان لم تكن اكثرية. فهو لم يهمل امر المسلمين، بل حدد لهم طريقا فيها كثير من الوضوح تقودهم الى اختيار الخليفة.

كان الرسول يستخلف كلما ترك المدينة

ان الرسول كان اذا ترك المدينة اسابيع أو اياما استخلف عليها رجلا من اصحابه. فقد استخلف ابا لبابة حينما ذهب الى بدر وابن عرفطة يوم دومة الجندل وابن ام مكتوم ايام غزوات بني قريضة وبني لحيان وذي قرد. واستخلف ابا ذَر يوم بني المصطلق ونميلة يوم خيبر وابن الأضبط يوم عمرة القضاءوابا رهم يوم فتح مكة وعلي بن ابي طالب يوم غزوة تبوك وابا دجانة الانصاري يوم حجة الوداع.[٨]

واذا كانت عادة الرسول الاستخلاف على عاصمته كلما غاب عنها اسابيع أو اياما، فان من العجيب المدهش ان يفارق الرسول امته الى الابد وهو يعلم ما يهددها من الاخطار دون ان يترك عهدا مكتوبا يستخلف فيه احدا عليها.

اجل ان عدم وجود وصية نبوية مكتوبة يثير في النفس حيرة وعجبا.

-٢-

اراد النبي ان يكتب وصية فمنع

على ان نظرة الى احداث الايام الأخيرة من حياة النبي «ص» توضح لنا ان الرسول اراد ان يوصي كتابة فلم يتمكن. اننا نجد في صحيح البخاري ان ابن عباس روى ما يلي:

لما اشتد بالنبي «ص» وجعه «مرضه» قال أئتوني بكتاب اكتب لكم كتابا لا تضلون بعده. قال عمر إن النبي غلبه الوجع. وعندنا كتاب الله حسبنا. فاختلفوا

---

(٨) سيرة ابن هشام (حيث ذكر في كل غزاة اسم من خلفه رسول الله على المدينة اثناء مغيبه عنها).

وكثر اللغط. قال: قوموا عني، ولا ينبغي عندي التنازع. فخرج ابن عباس يقول: ان الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين كتابه.»[٩]

وذكر مسلم في صحيحه ان سعيد بن جبير قال: ان ابن عباس قال:

« يوم الخميس وما يوم الخميس!!»

ثم بكى حتى بل دمعه الحصى. فقلت يا بن عباس، وما يوم الخميس؟ قال:

اشتد برسول الله وجعه فقال ائتوني اكتب لكم كتابا لا تضلوا بعدي. فتنازعوا وما ينبغي عند بني تنازع وقالوا: ما شأنه؟ أهَجَر؟ استفهموه.

قال:

دعوني فالذي انا فيه خير (مما انتم فيه). اوصيكم بثلاث: اخرجوا المشركين من جزيرة العرب، واجيزوا الوفد بنحو ما كنت اجيزهم. قال سعيد بن جبير: وسكت (ابن عباس) عن الثالثة أو قالها فأنسيتها.»[١٠]

وروى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس انه قال:

« لما حُضر رسول الله وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب فقال النبي (ص): هلم اكتب لكم كتابا لا تضلون بعده. فقال: ان رسول الله قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن. حسبنا كتاب الله. فاختلف اهل البيت فاختصموا. فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم رسول الله كتابا لن تضلوا بعده. ومنهم من يقول ما قال عمر.

فلما اكثروا اللغو والاختلاف عند رسول الله قال رسول الله: قوموا. فكان ابن عباس يقول:« انالرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين ان يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم.»[١١]

---

(٩) ج ١ ص ٣٩ (في باب كتابة العلم) ورواه في باب قول المريض: قوموا عني.

(١٠) ج ١١ (في اواخر كتاب الوصية) ص ٨٩. وروى مثله في الطبقات ج ٢ ص ٢٤٢. وروى مثله الامام احمد في مسنده ج ١ صفحة ٢٢٢.

(١١) صحيح مسلم ج ١١ ص ٩٥. وبمثل ذلك في الطبقات ج ٢ - ص ٢٤٢ وفي مسند الامام احمد ج ١ ص ٣٣٦ مثله.

وذكر ابن سعد في الطبقات ان جابر بن عبد الله الانصاري قال:

« لما مرض رسول الله مرضه الذي توفي فيه، دعا بصحيفة ليكتب فيها لأمته كتابا لا يضلون ولا يُضلون (بعده). فكان في البيت لغط وكلام وتكلم عمر بن الخطاب قال: فرفضه النبي.» (١٢)

وعن زيد بن اسلم عن ابيه عن عمر بن الخطاب أنه قال:

« كنا عند النبي وبيننا وبين النساء حجاب. فقال رسول الله: اغسلوني بسبع قرب وأتوني بصحيفة ودواة اكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده ابدا. فقال النسوة: ائتوا رسول الله بحاجته. قال عمر: فقلت: اسكتن فانكن صواحبه. اذا مرض عصرتن اعينكن، واذا صح اخذتن بعنقه. فقال رسول الله: هنَّ خير منكم.» (١٣)

-٣-

هذه الحادثة العجيبة تثير اسئلة:

(١) لماذا عارض عمر (رض) النبي في كتابة وصيته؟

(٢) بماذا كان النبي يريد ان يوصي؟

(٣) لماذا لم ينفذ رسول الله ما اراد بالرغم من معارضة عمر؟

(٤) كيف تكون وصية الرسول امانا للأمة من الضلال؟

يجيب بعض علماء الحديث عن السؤال الاول بان ما دعى عمر للمعارضة هو انه اشفق على النبي لأنه كان يحتضر. وقد كانت الوصية في تلك الساعة تزيد في تعب الرسول. واراد عمر ان لا يزيد الرسول في اتعاب نفسه.

ومن الصعب جدا قبول هذا التفسير.

---

(١٢) ج ٢ ص ٢٤٣ وفي صفحة ٢٤٤ من الجزء نفسه مثل ذلك عن جابر الا انه قال: فلغطوا عنده حتى رفضها النبي.

(١٣) ج ٢ ص ٢٤٣ - ٢٤٤. وفي رواية عن ابن عباس (ذكرها في الطبقات ج ٢ ص ٢٤٤ - ٢٤٥) ان زينب زوجة الرسول هي التي قالت: « الا تسمعون النبي يعهد اليكم وتلغطوا فقال: قوموا...»

لم تكن المعارضة بداعي التخفيف عن النبي

فمتى كان يجوز لمسلم ان يمنع مسلما آخر، مهما كان مركزه صغيرا أو عظيما، من كتابة وصيته وهو في مرض الموت؟ والوصية كما عرفت احدى الواجبات الدينية التي يطلب من المسلم ان يتمها المرء قبل موته. وقد مر عليك ما روى عبد الله ابنه من ان الرسول قال:

« ما حق امرىء مسلم له شيء يوصي فيه ان يبيت ليلتين الا ووصيته مكتوبة عنده. »

ان من واجب المسلم، سيما اذا كان من اكابر المسلمين كعمر، ان يساعد اخاه المسلم في اداء واجبه الديني، لا أن يحاول منعه من القيام به. وهنا كان واجب عمر مضاعفا تجاه وصية الرسول:

فالرسول ليس مسلما فقط، بل هو سيد المسلمين ونبيهم. فعليه ان يقدم له العون، كل العون، للقيام بواجبه.

وواجب على عمر ان يساعد الرسول في القيام بكتابة وصيته لأن الرسول يقول، ان وصيته تكون امانا للأمة من الضلال. والرسول صادق فيما يقول دائما، واذا كانت وصيته ضمانة ضد الضلال، فمن واجب عمر كمسلم بارز حريص على مصلحة الأمة ان يرحب بما يريده الرسول وان يستبشر كل الاستبشار بالحصول على تلك الضمانة التي هي ضرورية لمستقبل المسلمين. وماذا يكون اعظم اهمية للأمة، والرسول على اهبة فراقها الذي ينقطع به وحي السماء، من ان تحصل الامة على كتاب ينير لها طريقها ويؤمنها من الضلال والفتنة في مستقبلها الطويل؟!

ومن واجب عمر وجميع من حضر ذلك المجلس ان يطيعوا امر الرسول في تلك الساعة. انه امرهم بان يأتوه بصحيفة يكتب عليها وصيته. وأمر رسول يجب ان يطاع. والقرآن ينطق بذلك:

« يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول... »

وكيف يعارض عمر نبيه شفقة عليه وخوفا من زيادة تعبه، ومعارضته له سببت له تعبا اكبر بكثير مما لو قدم له ما اراد؟. لقد كان الرسول يأمر اصحابه

وهو في ايام قوته ونشاطه فيتبادرون الى تلبية امره حتى ولو كلفهم امره اموالهم وانفسهم. وها هو الآن يطلب منهم صحيفة ودواة (وذلك ارخص الأشياء) فلا يطاع امره!!! ما من شك بان ذلك اتعبه شديدا واحزنه عميقا ولا ادل على انزعاجه من قوله لهم:

« قوموا عني » وقوله لعمر: « انهن (النساء) خير منكم. »

ولو بادروا الى ما اراد لخففوا عنه ألمه. فما كان شيء يسر النبي في تلك الساعة اكثر من قيامه بواجبه وتأمينه امته ضد الضلال.

ان ابا بكر (رض) لم يحجم عن كتابة وصيته حينما كان يجود بنفسه. وقد اغمي عليه وهو يملي على عثمان عهده باستخلاف عمر. وكم يكون من الخطأ والقسوة لو حال احد المسلمين يومئذ بين ابي بكر وبين وصيته بحجة ان ذلك يزيد في تعبه وهو في سكرات الموت؟ وما اظن ان عمر (رض) لام عثمان حينما ساعد الخليفة الاول في كتابة عهده عند الموت.

وعمر نفسه لما طعن واصيب بجرح مميت لم يحجم عن ان يعهد الى المسلمين بما يريد. بالرغم من آلامه الشديدة ونزيف دمه واغمائه ساعة بعد اخرى. لقد عهد وهو في هذا الحال المحزن الى ستة من الصحابة ان يختاروا من بينهم خليفة وان يتبعوا رأي اكثريتهم اذا كان هنالك من اكثرية وان يتبعوا فريق عبد الرحمن بن عوف ان تساوت اصواتهم عددا. وقد اطاع المسلمون عهده ونفذوا وصيته جملة وتفصيلا بالرغم من انها لم تكن امانا للأمة من الضلال. بل قادتهم الى اختيار خليفة طيب القلب ضعيف العزيمة جرّ ضعفه الى قتله، وجرقتله على المسلمين مالا يحصى من المصائب والفتن.

لذلك كله استبعد ان تكون معارضة عمر بدافع محاولة التخفيف عن الرسول وحبًا بأن لا يرهق نفسه بوصيته.

على ان تلك المعارضة يمكن ان تفسر بواحد من التفسيرين التاليين:

من الممكن ان يكون هذا الصحابي الجليل كان يعنى ما يقول. فربما يكون قد ظن وباخلاص ان النبي كان يتكلم تحت تاثير الحمى وانه لا يعني ما يقول ومعنى

ذلك ان عمر كان قد نسي ان الرسول منزّه عن الهذيان وأنه لا ينطق عن الهوى وان الله لن يسلب نبيه قوة التفكير الصحيح.

اجل يمكن ان يكون عمر قد نسي كل ذلك لأنه هو نفسه على ما يظهر كان يجتاز في تلك الايام ازمة نفسية حادة. ويدل على ذلك انه كان في تلك الفترة يتأرجح في مواقفه بين طرفين متطرفين يتناقضان غاية التناقض. فكان ينتقل من اقصى اليسار الى اقصى اليمين. فبينما هو يظن في ايام مرض الرسول ان الرسول يهذي هذيان المحموم ويجيز في تفكيره ان يسلم الله خاتم انبيائه الى حال لا تليق بنبي واذا به بعد موت الرسول يقف ليعلن للناس ان محمدا لم يمت ثم يحلف قائلاً:

« والله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى فليقطعن ايدي وارجل رجال زعموا ان رسول الله مات. » (١٤)

فهو في خلال خمسة ايام قد انتقل من رأي يجيز على رسول الله فقد قوة التفكير الى رأي لا يجيز فيه على رسول الله ان يموت. وبعد يومين أو ثلاثة نراه ينتقل الى نقيض آخر فيحاول بجمعه اقتحام بيت علي وفيه فاطمة ابنة الرسول وبضعته الزهراء ليجبر زوجها على بيعة ابي بكر (رض). (١٥) وهذا ما يظهر ان هذا الصحابي العظيم كان في تلك الايام في وضع غير طبيعي. ولم يكن عمر الذي نعرفه بصورته الوضاءة.

اما التفسير الآخر لموقفه فهو ان من المعقول ان يكون قد عرف ماذا سيكون محتوى الوصية التي اراد الرسول ان يكتبها، ورأى باجتهاده ان ذلك المحتوى سيكون في غير مصلحة الأمة، فعارض في كتابتها. وإذن فقد نجد تفسير موقف عمر في محاولتنا الاجابة على السؤال الثاني: بماذا كان الرسول يريد ان يوصي؟

---

(١٤) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦٥٥

(١٥) الامام علي بن ابي طالب للاستاذ عبد الفتاح عبد المقصود. ج ١ (ص ١٩٠) وج ٤ (ص ١٧١)

بماذا كان الرسول يريد ان يوصي؟

لست اتصور ان الرسول كان يريد في تلك الساعة ان يؤلف كتابا يضع فيه سننه وتفاصيل احكام الشريعة ولا كان يحاول ان يكتب للمسلمين الخطوط العامة للشريعة الاسلامية. ان الرسول كان على علم بقصر ساعاته على وجه هذه الارض وانه مقبوض قبضا سريعا. ولو كتب رسول الله في تلك الساعة الخطوط العامة للشريعة لما كانت اماناً للمسلمين من الضلال. ان الخطوط العامة موجودة في كتاب الله ولا يزال المسلمون يختلفون ويتجادلون في تفاصيل تلك الخطوط العامة.

لقد عاش رسول الله بعد بدء نبوته ثلاثا وعشرين سنة فلم يكتب سننه ولا الخطوط العامة للشريعة ولا أمر بكتابتها بالرغم من ان تلك السنين العديدة كانت سني التبليغ والتعليم، وكان وهو في اوج صحته ونشاطه. انه لحكمة اختار ان لا يفعل ذلك فليس من المعقول ان يعمل في تلك الساعة القصيرة ما لم يعمل خلال ثلاث وعشرين سنة.

ولم تكن غايته ان يوصي المسلمين باتباع القرآن والسنة. فقد أمر القرآن بذلك، ومع ذلك لم يأمن المسلمون من الضلال. وكيف يكون اتباع سنة النبي امانا من الضلال وهي غير مكتوبة ويختلف الناس فيها، والنبي لم يعين (على رأي جمهور المسلمين) مرجعاً تؤخذ منه السنة.؟ واضيف:

انه لم يكن الرسول يريد ان يوصي (في وثيقة مكتوبة) باخراج المشركين من الجزيرة العربية ولا باجازة الوفود بمثل ما كان يجيزهم (الأمرين اللذين ذكرهما سعيد بن جبير في حديثه عن ابن عباس). فان هذين الامرين لا يمثلان امانا من الضلال. ولعل الأمر الثالث الذي سكت عنه ابن عباس أو نسيه سعيد هو الذي كان يريد الرسول كتابته.

اراد الرسول ان يعين للامة اماما

ان ما اراده الرسول هو ان يرشد المسلمين الى قائد هو خيرته يعرف انه اعلم اتباعه بشرائع الله واخلصهم لله ولدينه واقواهم على تحمل اعباء المهمة الاسلامية

الكبرى. وبذلك يكون مرجعا للامة وقائدا لها يحملها على المحجة الواضحة ويكون امانا لها من الضلال والفتنة.

من كان القائد المنوي ؟

ويظهر ان القائد المنوي لم يكن ابا بكر ولا عمر. ولو كان ايًّا منهما لما عارض عمر في كتابة وصية يعهد الرسول فيها اليه فقد كان ذلك احب الاشياء اليه. وانا نراه بعد وفاة الرسول يدلل على أحقية ابي بكر بالخلافة بانه صاحب رسول الله في الغار أو بأن الرسول امره بالصلاة حينما لم يتمكن الرسول ان يؤم المسلمين. ولو عهد الرسول الى ابي بكر لما احتاج عمر الى هذا النوع من التدليل ولما احتاج الى ان يجادل الأنصار في احقية ابي بكر، بل كان كفي مؤونة الجِدال.

هل كان المقصود عليا؟

ان موقف الرسول يوم غدير خم حين اعلن للمسلمين ان عليا مولى للمسلمين كان لا يزال ماثلاً في ذهن عمر. وحينما قال الرسول انه يريد ان يكتب للمسلمين كتابا لا يضلون بعده تذكر عمر جيدا ان هذه الكلمات هي نفس الكلمات التي كان يقولها الرسول في عترته عامة وفي علي بصورة خاصة.

فقد قال الرسول (ورواه زيد بن ارقم) ما يلي:

«اني تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي:

كتاب الله، حبل ممدود ما بين السماء والأرض، وعترتي اهل بيتي. وانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما.» [١٦]

وعن علي ان النبي قال في يوم غدير خم:

« فمن كان الله ورسوله مولاه فان هذا (عليا) مولاه. وقد تركت فيكم ما ان اخذتم به لن تضلوا بعده: كتاب الله سببه بيده وسببه بأيديكم وأهل بيتي.» [١٧]

---

(١٦) اخرجه الترمذي (كنز العمال ج ١ حديث رقم ٨٧٤ (الطبعة الاولى).

(١٧) ذكره ابن راهويه وابن جرير وابن عاصم والحاملي في اماليه (كنز العمال ج ١٥ ص ١٢٣ حديث رقم ٣٥٦ الطبعة الثانية).

وعن زيد بن ثابت ان رسول الله قال:

«اني تارك فيكم خليفتين: كتاب الله تعالى وعترتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض.» (١٨)

وعن جابر بن عبد الله ان رسول الله قال:

« يا ايها الناس اني تركت فيكم ما ان اخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتى اهل بيتي.» (١٩)

هذه الكلمات النبوية وامثالها الكثيرة كانت لا تزال ترن في اذني عمر. وحينما نطق النبي في حال مرضه آمراً باحضار دواة وصحيفة ليكتب لهم كتابا لا يضلون بعده، عرف عمر بذكائه مقصد الرسول: انه يريد ان يعهد لعلي. فهب للمعارضة.

عمر (رض) يوضح سبب معارضته

اما السبب في معارضته لعهد الرسول لعلي فقد ذكره هو في محاورة روي انها وقعت بينه وبين ابن عباس في ايام خلافته وهي ما يلي:

عمر: كيف خلفت ابن عمك؟

ابن عباس: خلفته يلعب مع اترابه (ظانا انه يعني عبد الله بن جعفر).

عمر: لم اعن ذلك. انما عنيت عظيمكم اهل البيت (علي بن ابي طالب).

ابن عباس: خلفته يمتح بالدلو على نخيلات... ويقرأ القرآن.

عمر: عليك دماء البدن ان كتمتنيها. هل بقي في نفسه شي من الخلافة؟

ابن عباس: نعم.

عمر: أيزعم ان رسول الله نص عليه؟

ابن عباس: نعم وأزيدك: سألت ابي عمّا يدعي (علي من نص رسول الله عليه بالخلافة) فقال: صدق.

---

(١٨) اخرجه الامام احمد في مسنده بطريقين صححهما ج ٥ ص ١٨١

(١٩) اخرجه الترمذي في صحيحه ج ٥ ص ٣٢٨

عمر: كان من رسول الله ذرو من قول (ثناء عالي) في امره (في امر علي) لا يثبت حجة ولا يقطع عذراً. لقد كان يربع في امره وقتاً ما (يجرب اذا كان يتمكن من نصبه خليفة). ولقد اراد في مرضه ان يصرح باسمه فمنعته من ذلك اشفاقا وحيطة على الاسلام. لا ورب هذه البنية لا تجتمع عليه قريش ابدا. ولو وليها، لانتقضت عليه العرب من اقطارها. فعلم رسول الله انني علمت ما في نفسه فأمسك. وأبى الله الاّ امضاء ما حتم.»[٢٠]

اذن كان ما دفع عمر (رض) الى معارضتهِ لكتابة العهد لعلي هو اشفاقه وحيطته على الاسلام واعتقاده بان قريشا لا تجتمع على علي وان العرب سوف تنتقض عليه من اقطارها لو ولي الخلافة.

الاسباب لا تبرر المعارضة

وبالرغم من اكبارنا لشخصية عمر وسيرته وعدله وانجازاته التاريخية فانا نبيح لأنفسنا مناقشة رأيه لأنه أباح لنفسه ان يعارض رغبة الرسول وارادته. ومن المستحسن ان نبين خطأه في اجتهاده وان كان من الاجتهاد ما يؤجر عليه صاحبه وان كان مخطئا.

لقد ذكر انه كان يتوقع ان تنتقض العرب من اقطارها على علي لو ولي الخلافة. وكان عليه ان يتذكر ان الانصار هم من العرب وانهم كانوا يحبون عليا ويعطفون عليه. ولو عرضت عليهم فكرة استخلاف علي قبل ان يبايعوا ابا بكر لما عدلوا بعلي احدا. والتاريخ يحدثنا انهم كادوا يعدلون الى علي حتى بعد ان تمت البيعة لابي بكر. هذا ولم يترك النبي لعلي عهدا مكتوبا. فماذا يكون موقفهم لو كتب الرسول ذلك العهد؟ وحينما بويع علي بعد ذلك وكان قد مضى نحو من خمسة وعشرين بعد وفاة الرسول وكان الكثير من الناس نسوا مميزات علي وتصريحات

---

(٢٠) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد، مجلد ٣ ص ٩٧ ورواه احمد بن ابي طاهر في كتابه تاريخ بغداد (المراجعات لشرف الدين ص ٢٧٨).

الرسول في حقه رأينا الأنصار جميعا يقفون وراءه. والذين خالفوه منهم لا يكادون يبلغون عدد اصابع اليد الواحدة.

اما بقية العرب خارج المدينة ومكة فقد إنتقضوا جميعا على ابي بكر بالرغم من ان قريشا كانت تؤيده كل التأييد.

وبالرغم من ان العرب انتقضت على ابي بكر من اقطارها وذهب ضحية حروب الردة الوف والوف فإن ذلك لم يغير رأي عمر في ان بيعة ابي بكر كانت صوابا. فلماذا تكون كتابة العهد لعلي خطأ في نظر عمر لأنه توقع انتقاض العرب عليه. وهو رجم بالغيب. فربما كانت القبائل العربية ادنى الى التسليم لعلي (وهو ابن عم الرسول ووصيه) منها الى التسليم لأبي بكر.

وحينما ولي علي الخلافة بعد الخلفاء الثلاثة بايعته كل البلاد الاسلامية طوعا سوى الشام. وما كانت البصرة لتنتقض على علي بعد ان بايعته وما كانت الشام لتمتنع عن البيعة له لولا تحريض قادة قريش.

اما قول عمر ان قريشا لا تجتمع على علي فقد يكون صحيحا. ولكن ما الضرر في ذلك؟ ان قريشا لم تجتمع على النبي نفسه بل اجتمعت ضده وحاربته احدى وعشرين سنة ولم تدخل في الاسلام الا بعد ان هزمت هزيمة ساحقة. فهل كان من اللازم الغاء النبوة لأن قريشا كانت تقف ضدها؟!! واذا كان هذا موقف قريش من النبي نفسه فكيف يسوغ ان تعتبر موافقتها على امر علامة على صلاحه ومعارضتها دليلا على خطإه؟

ولعله كان من الصواب بالنظر الى ماضي قريش القاتم ان تؤخذ معارضتها لأمر دليلا على صلاحه لا على عدم صلاحه.

اضف الى ذلك اننا حينما نتحدث عن قريش في الفترة التي مضى فيها الرسول الى ربه لا ينبغي ان ننسى ان عليا وابا بكر وعمر وابا عبيدة وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص وسواهم من البدريين المكيين كانوا هم البارزين في قريش وذوي نفوذها، بعد ان زال أو تضاءل نفوذ ابي سفيان واضرابه ممن غلبهم الاسلام على امرهم. امثال معاوية لم يكونوا قد عرفوا

بعد ولم تكن شهواتهم للحكم قد تفتحت.

واذا كان البدريون من المكيين هم اصحاب النفوذ بين القرشيين في تلك الفترة وهم اعلام الصحابة والمعروفون باخلاصهم للاسلام فقد كان من المتوقع ان يجتمعوا على علي لو اوصى له الرسول بعهد مكتوب: فكيف اعتقد عمر ان قريشا لا تجتمع عليه لو عهد اليه النبي؟

من المعقول جدا ان عديدا من قبائل مكة كانوا يحملون في طوياتهم حقدا على علي لأنه وترهم بكثرة من قتل منهم ايام عدائهم للرسول وحربهم للاسلام، ولكن اجتماع اعلام الصحابة من القرشيين عليه كان من المتوقع لو حدث ان يخفف من غلواء الموتورين وحقدهم ويجمعهم جميعا تحت لوائه. ويظهر ان هذا كان ما يتوقعه النبي.

على اننا ينبغي ان لا ننسى ان ابا سفيان كان من الذين وترهم علي بشدة. فقد قتل ابنه حنظلة وابن عمه ووالد زوجته عتبه وولده الوليد. ومع ذلك فان التاريخ يحدثنا ان ابا سفيان جاء يعرض البيعة على علي ويحرضه على القيام بالامر حتى بعد ان تمت البيعة لابي بكر. وقد وقف نفس الموقف خالد بن سعيد بن العاص وهو اموي كابي سفيان. وسواء كان هذا أو ذاك فانه كان على عمر ان يتذكر ان رسول الله كان اعرف بقريش والعرب منه. فهو الذي عانى ما عانى من قريش ومن العرب. وما كانت حروب قريش والعرب موجهة ضد عمر بل كانت موجهة ضد الرسول فاحرى بعمر أن يتذكر ذلك وان يتذكر ان الرسول كان اعرف بالعرب وبقريش من انفسهم واعرف من عمر بنفسه. وكان عليه ان يتذكر انه مهما كان حريصا على مصلحة الاسلام والمسلمين فان الرسول كان احرص من عمر ومن كل مسلم على ذلك. واذا كان الرسول اراد ان يعهد الى علي مع كل ما علمه من قريش ومن العرب فمعنى ذلك ان عليا كان الدواء الوحيد للمشكلة وان قيادته هي القيادة التي توحد العرب والمسلمين وتمضي بالاسلام قدما وتؤمن انتصاره على الاديان كلها.

-٥-

لماذا سوغ هذا الصحابي الجليل لنفسه ان يعارض النبي؟

ومن الطبيعي ان يجول في ذهن القارىء سؤال وجيه: هب ان عمراً كان على يقين من صحة رأيه، فكيف اجاز لنفسه وهو المعروف بطاعته لله ولرسوله ان يعارض النبي ويحاول منعه عن كتابة عهده؟

ربما يكون هذا الصحابي الجليل قد اجاز لنفسه ان يعارض في كتابه الوصية اعتقادا منه بان الكلمة النبوية المكتوبة ملزمة له وللمسلمين بالموافقة والطاعة. امّا اذا لم تكتب فانها لا تكون ملزمة. ولذلك حاول الممانعة في الكتابة حتى لا تصل الى حد الالزام.

ولو صح هذا الرأي لما كان أي من السنن النبوية ملزما لأن السنن كلها لم تكتب في زمن الرسول.

ومن المعقول ان الاصحاب كانوا يرون ان لهم الحق في ان يجتهدوا في امور دنياهم. وكان فريق منهم (ومنهم عمر) يرون ان الخلافة من امور دنيا المسلمين لا من امور دينهم. ولذلك اجاز عمر لنفسه ان يقف موقفا مخالفا لرغبة النبي وارادته.

ولم تكن هذه المرة الاولى التي خالف فيها عمر رأي الرسول. بل كانت له مواقف اخرى راجعه فيها واظهر عدم موافقته على ما قرره. والمؤرخون يجمعون على انه جادل في شروط الهدنة التي وقعها الرسول يوم الحديبيه.

لقد كان من شروط الهدنة يوم الحديبية (بين رسول الله ومشركي مكة) ان يعيد رسول الله الى اهل مكة كل من جاء منهم مسلما بغير إذن ذويه. وليس على اهل مكة ان يعيدوا للنبي من ترك الأسلام وعاد الى اهل مكة. وكان هذا في ظاهره مجحفا بحق المسلمين. ولكن الرسول كان ابعد نظرا. فمن ترك الاسلام ورجع الى الكفر لا يفيد المسلمين ارجاعه اليهم بالقوة. والاسلام بغنى عن اناس من هذا النوع.

لقد ذكر ابن هشام في سيرته ما يلي:

« فلما التأم الامر ولم يبق الا الكتاب وثب عمر بن الخطاب....

ثم اتى الرسول فقال:

- يا رسول الله، الست بزسول الله؟

النبي: بلى.

عمر: او لسنا بالمسلمين؟

النبي: بلى.

عمر: أو ليسوا بالمشركين؟

النبي: بلى.

عمر: فعلام نعطي الدينة في ديننا؟

النبي: «انا عبد الله ورسوله. لن اخالف امره ولن يضيعني.»

فكان عمر يقول: ما زلت اتصدق واصوم واصلي واعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت ان يكون خيرا. (٢١)

ولما أمَّر رسول الله اسامة بن زيد بن حارثة على المهاجرين والأنصار وفيهم ابو بكر وعمر وامره ان يذهب بجيشه الى ارض الروم طعن الأصحاب في امارته واستصغروه. فخرج رسول الله وهو مريض وصعد المنبر وقال فيما قال:

«ايها الناس، انفذوا بعث اسامه.

فلعمري لئن قلتم في امارته فلقد قلتم في امارة ابيه من قبل. وانه لخليق بالامارة. وان كان ابوه لخليقا بها.» (٢٢)

وفي حادثة بعث اسامة امر رسول انفاذ البعث فتثاقل اصحاب الرسول الذين كانوا تحت امرة اسامة وخرج رسول الله وهو مريض عاصبا رأسه، فقال:

---

(٢١) ج ٢ ص ٢١٦ - ٢١٧. وروى مسلم في صحيحه ج ١٢ - ص ١٤١ ما يشبهه.

(٢٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٢ - ص ٢٤٩.

«ايها الناس انفذوا بعث اسامة»! (يعيدها) ثلاث مرات (ولكن الاصحاب لم ينبعثوا). واقام اسامة والناس ينتظرون ما الله قاض في رسول الله.» [٢٣]

وقد حاول الاصحاب حتى بعد وفاة الرسول عزل اسامة بالرغم من ان الرسول امَّره على الجيش وعقد له اللواء بيده الشريفة. فقد جاء عمر بن الخطاب يلتمس من ابي بكر، بلسان الانصار، ان يعزل اسامة ويولي غيره. ولكن ابا بكر وثب فاخذ بلحية عمر قائلاً:

« ثكلتك أمك وعدمتك يابن الخطاب. استعمله رسول الله. وتأمرني ان انزعه!» [٢٤]

اجل لقد كان في ذهن الكثير منهم ان اماره المسلمين بعد رسول الله امر من امور دنياهم وان بوسعهم ان يختاروا لانفسهم وان كان ذلك مخالفا لما ينصح به النبي. فلهم ان يجتهدوا وانهم ان اصابوا أو اخطأوا فلهم اجرهم.

واذ كانوا يرون ان قريشا لا ترغب في قيادة علي لأنه وتر قبائلها فليكن سواه قائدا ممن يحظى بتأييد المكيين، وان كان الرسول يريد عليا.

ويظهر ان المكيين كانوا يرون ان الرسول لو عهد الى علي لبقيت الخلافة في اهل بيت الرسول ولم تتجاوزهم الى سواهم من بطون قريش. فلو كان علي الخليفة لرسول الله لكان ولداه الحسنان (وهما سيدا شباب اهل الجنة بشهادة الرسول) خليفتين من بعده. فلا يكون هنالك مجال لاحد من الصحابة مهما كانت جلالة قدره ان يصل الى منصب الخلافة.

ان الصحابة اناس كالناس لهم طموحهم وحبهم للرئاسة والشهرة فلا يريدون ان يوصد باب الخلافة في وجوههم، بل يريدون أن يبقى مفتوحا. وإذا بقي

---

(٢٣) نفس المصدر.

(٢٤) نقله الحلبي في سيرته ج ٣ ص ٣٣٦ والدَّحلاني في سيرته وابن جرير في احداث سنة ١٢ من تاريخه (المراجعات لشرف الدين ص ٢٥٥).

مفتوحاً ولم يوصده النبي بعهده الى علي كان من السهل ان يتداولوا مركز الخلافة لأن بطون قريش في مكة تعاضدهم ولا تعاضد عليا.

واذا كان اول خليفة بعد الرسول من قبيلة سوى اهل بيت الرسول كان للقبائل الأخرى أمل بالوصول الى الخلافة لأن تلك القبائل متساوية لا يفضل اي منها بقية القبائل. فليست تيم خيرا من عدي، ولا عدي خير من امية. وقد ذكر ابن الأثير حوارا جرى بين عمر في ايام خلافته وبين ابن عباس يدل على ان عمر وقريشا بمجموعها كانت تحمل هذه الفكرة:

عمر: يا ابن عباس اتدري ما منع قومكم (قريشا) منكم بعد محمد (ص)؟

ابن عباس: ان لم اكن ادري فإن امير المؤمنين يدريني.

عمر: كرهوا ان يجمعوا لكم النبوة والخلافة فتبجحوا على قومكم بجحا. فاختارت قريش لأنفسها فاصابت ووفقت.

ابن عباس: يا امير المؤمنين ان تأذن لي بالكلام وتمط عني الغضب تكلمت.

عمر: تكلم.

ابن عباس: اما قولك يا امير المؤمنين: اختارت لأنفسها فاصابت ووفقت، فلو أن قريشا اختارت لأنفسها حين اختار الله لها لكان الصواب بيدها غير مردود ولا محسود. واما قولك انهم ابوا ان تكون لنا النبوة والخلافة فان الله عز وجل وصف قوما بالكراهة فقال: «ذلك بأنهم كرهوا ما انزل الله فأحبط اعمالهم.»

عمر: هيهات. والله يا ابن عباس قد كانت تبلغني عنك اشياء كنت اكره ان اقرك عليها لتزيل منزلتك مني.

ابن عباس: ما هي يا امير المؤمنين؟ فان كانت حقا فما ينبغي ان تزيل منزلتي منك. وان كانت باطلا فمثلي من اماط الباطل عن نفسه.

عمر: بلغني انك تقول انما صرفوها عنا حسدا وبغيا وظلما.

ابن عباس: اما قولك يا امير المؤمنين ظلما، فقد تبين للجاهل والحليم. واما قولك حسدا، فإن آدم حسد. ونحن ولده المحسودون.

عمر: هيهات هيهات. أبت والله قلوبكم يا بني هاشم إلاّ حسدا لا يزول.

ابن عباس: مهلا يا امير المؤمنين، لا تصف قلوب قوم اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا عن الحسد والغش. فان قلب رسول الله (ص) من قلوب بني هاشم.

عمر: اليك عني يا ابن عباس.

ابن عباس: افعل (فلما ذهبت اقوم استحيا مني فقال:)

عمر: يا ابن عباس مكانك. فوالله اني لراع لحقك محب لما سرك.

ابن عباس: يا امير المؤمنين ان لي عليك حقا وعلى كل مسلم. فمن حفظه فحظه اصاب. ومن اضاعه فحظه اخطأ...» (٢٥)

ان من العجيب ان قريشا التي حاربت النبوة والاسلام منذ ولادتها واستمرت في حربها لهما حتى اثخنتها الجراح وخرت لقىً تحت قدمي النبوة والاسلام اصبحت هي التي تقرر مصير الامة الأسلامية واصبح تأييدها يرجح كفة اي مرشح للقيادة حتى ولو كان ضد مرشح رسول الله. انه عجيب ولكنه منطق الحوادث.

لقد رأى عمر مجتهدا ان من الاصح للامة أو لكبار الصحابة أو لقريش ان لا يكتب النبي عهده الى من يختاره. فعارض وقاد المعارضة.

وهنا يأتي السؤال الثالث: لماذا لم يكتب الرسول عهده بالرغم من معارضة عمر؟

— ٦ —

لماذا لم يكتب الرسول عهده بالرغم من المعارضة؟

ان الجواب على هذا السؤال واضح. ان الغاية من العهد الذي اراد الرسول كتابته ان يكون ذلك العهد امانا للامة من الضلال. ولن يكون كذلك الاّ اذا كان من يكتب العهد صاحيا يقظا يعرف ما يقول ويعني ما يقول. ولكن اسلوب المعارضة كان صريحا في الشك في وعي الرسول وصحة عقله.

---

(٢٥) الكامل ج ٣ ص ٣١

لقد قال عمر:

«ان النبي غلبه الوجع.» «ماذا شأنه هل هجر؟ استفهموه.»

وكلها كلمات تصور الرسول في انه لم يكن يعني ما يقول وعلى الاقل تلقي الشك في اذهان الآخرين في يقظة الرسول وصحة تفكيره. وقد شارك عمر آخرون من الحاضرين في معارضة كتابة الوصية. ومتى حام الشك حول صحة كلمات الرسول وما يمليه بطل مفعول الوصية. واذا امكن الطعن في صحة تفكير الرسول وهو حي كان الطعن في صحة ذلك بعد موته اسهل. وبذلك تفقد الوصية معناها ولا تؤدي الغرض التي تكتب من اجله.

وقد روى سعيد بن جبير عن ابن عباس انه قال:

«... اشتد بالنبي وجعه فقال أئتوني بدواة وصحيفة اكتب لكم كتابا لا تضلون بعده ابدا. فقال بعض من كان عنده ان نبي الله ليهجر! قال فقيل له: الا نأتيك بما طلبت؟ قال: او بعد ماذا؟...» (٢٦) وهو يعني بذلك ان وصيته لن تفيد بعد ان قيل ما قيل.

كيف تكون وصية النبي امانا من الضلال؟

وللاجابة على السؤال الرابع والأخير: كيف تكون وصية الرسول امانا للامة من الضلال؟

اقول ان الرسول اعلم بما اراد وليس لأحد ان يدعي معرفة ما يعرفه الرسول في طريقة تأمين امته من الضلال. على ان ما يظهر بوضوح هو ما يلي:

ضمانة ضد الانشقاقات السياسية والطائفية

(١) لو ان الرسول سمى شخصا بعينه في وثيقة مكتوبة دون ان يثار شك حول وعي الرسول وصحة تفكيره حين كتابتها لجنب الأمة انفصاما في وحدتها.

---

(٢٦) كتاب الطبقات لابن سعد ج ٢ ص ٢٤٢

فلو انه سمى عليا او ابا بكر او سواهما في وثيقة مكتوبة لسلّم المسلمون بقيادة من سمّاه. ولما كان في المسلمين سنة وشيعة. ذلك ان التشيع والتسنن في اصلهما وليدا خلاف المسلمين على من هو الخليفة الشرعي بعد رسول الله. أهو ابو بكر ام هو علي؟

فلو ان الرسول سمى أيّاً من هذين الرجلين او سواهما لما كان هنالك متسع لهذا الخلاف.

ولو سمى الرسول في تلك الوثيقة من يخلفه لما ولدت فكرة الخوارج ولما حدثت حرب صفين التي انتجت فكرة الخوارج.

ان حرب صفين وحرب البصرة قبلها كانتا نتيجة لدعوى المطالبة بدم عثمان. ولو كان علي المعهود اليه من الرسول خطيا لتوفي عثمان قبل ان تصل اليه الخلافة. فعلي عاش الى ما بعد موته. ولو كان علي هو المعهود اليه لما وصل معاوية الى الحكم، ولما كان ولده الفاسق يزيد خليفة له يستحل اراقة دماء ولد الرسول في كربلاء ولما كانت حرب بين ابن الزبير والأمويين ولا سواها من الفتن والحروب بين المسلمين.

كل هذه الاحداث كانت نتيجة عدم وجود عهد نبوي مكتوب. ولو وجد ذلك العهد، لتبدل وجه التاريخ الاسلامي وكنّا نقرأ تاريخا اسلاميا لا يشبه ما نقرأه اليوم.

وابادر لأقول: انني لا اعتبر الخليفة الثاني (رض) بمعارضته للرسول في كتابة عهده، مسؤولا عن انفصام وحدة الأمة وكل ما حدث نتيجة لذلك. كلا! وحاشا. فإن عمراً كان بشرا وانسانا لا يعلم الغيب. ولم يكن بامكانه ولا بامكان اي انسان آخر ان يستشف كنه المستقبل وما يحمل في طياته.

وكل ما فكر فيه عمر ان الخلافة بعد رسول الله امر من امور دنيا المسلمين لا من امور آخرتهم: فلهم ان يقرروا فيها كما تملي عليهم مصلحتهم ورأى ان لا يقضى في الامر على لسان الرسول ليبقى الباب مفتوحا للأصحاب كي يقرروا. فلو قضى الرسول في الامر لأوصد الباب. هكذا ينطق القرآن:

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله امرا ان يكون لهم الخيرة في امرهم. ومن يعصى الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا.» [٢٧]

ان الرجل الوحيد الذي كان بامكانه ان يرى المستقبل كان هو الرسول، وبواسطة الوحي، لا عن طريق نفسه. وكأن الرسول رأى بنور الله مستقبل الأمة، وانها لو بقيت دون عهد مكتوب لأقبلت عليها الفتن كقطع الليل المظلم، (وذلك ما رواه مولاه ابو مويهبة).

فاراد ان يجنبها تلك الفتن التي تقضي على وحدتها، فقال:

« ائتوني بدواة وصحيفة لأكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده.»

ضمانة ضد تعدد المذاهب

(٢)لو ان الرسول سمى شخصا بعينه في وثيقة مكتوبة ليقود الأمة من بعده لكان ذلك لا ضمانة للامة ضد الإنشقاقات السياسية والطائفية فقط، بل كان ذلك ضمانة ضد تعدد المذاهب الإسلامية ايضا.

وقد عرضنا على القارىء عديداً من الأحاديث أعلن فيها النبي أن أتباع القرآن وعترة النبي أمان من الضلال وأن القرآن والعترة لا يختلفان الى يوم القيامة.

ان عليا رئيس العترة الطاهرة، كان يمثل هذه الضمانة لو كان هو المرجع الأول في تفسير القرآن ورواية سنن الرسول. وهو أعلم الصحابة بهما، غير منازع في ذلك.

وقد كان الخليفتان الأولان على سموهما في العلم يرجعان اليه فيما لم يصل اليه علمهما. وكم من مرة قال فيها عمر (ص): «لولا علي لهلك عمر.»

وقد روى ابن سعد ان عليا قال:

---

(٢٧) سورة الاحزاب (رقم ٣٣) آية ٣٦.

« والله ما نزلت آية إلا وعلمت فيما نزلت واين نزلت (وفي من). ان ربي وهب لي قلبا عقولا ولسانا طلقا سؤولا.» [٢٨]

وقيل لعلي ما لك اكثر اصحاب رسول الله حديثا؟ فقال: اني كنت إذا سألته انبأني وإذا سكت ابتدأني» [٢٩]

وروى الحاكم ان عليا قال:

« كنت اذا سألت رسول الله اعطاني واذا سكت ابتدأني» . [٣٠]

وعن سعيد ابن المسيب انه قال:

« ما كان احد يقول: سلوني قبل ان تفقدوني غير علي بن ابي طالب.» [٣١]

وهو الذي قال فيه رسول الله:

«انا مدينة العلم وعلي بابها فمن اراد المدينة فليأت من الباب». [٣٢]

وعن ام سلمة ان رسول الله قال:

« علي مع القرآن، والقرآن مع علي لن يفترقا حتى يردا على الحوض.» [٣٣]

فلو كان علي وليا للأمر بعد الرسول لعرفت سنن النبي واتفق الناس عليها في جميع ابواب الفقه.

ان الرسول حينما اراد ان يعهد الى علي كان يرى بنور الله انه يمثل الضمانة للمسلمين ضد الضلال وإن عليا وبقية العترة قوة موحدة للمسلمين لو أعطوا القيادة.

---

(٢٨) كنز العمال ج ١٥، ص ١١٣.
(٢٩) نفس المصدر.
(٣٠) المستدرك ج ٣، ص ١٢٥.
(٣١) كنز العمال ج ١٥، ص ١١٣.
(٣٢) المستدرك للحاكم، ج ٣ ص ١٦٢.
(٣٣) نفس المصدر ص ١٢٤.

خِلافة أبي بَكر

(رض)

الفصل السادس عشر

قضي الأمر ومات النبي محمد (ص) فكان موته أفدح خسارة لحقت ببني الانسان.

لقد انقطع بموته ما لم ينقطع بموت احد من الأنبياء قبله.

لقد انقطع وحي السماء عن اهل الأرض. فهو خاتم الأنبياء ولن يأتي نبي بعده.

كان لموت رسول الله وقع الصاعقة على المسلمين وقد صعب على بعض بارزي الصحابة ان يصدقوا بموته. فلقذ وقف عمر (رض) في المسجد قائلا:

«ان رجالاً من المنافقين، يزعمون ان رسول الله توفي. وان رسول الله ما مات. ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران. فقد غاب عن قومه اربعين ليلة ثم رجع اليهم بعد ان قيل قد مات. ووالله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى فليقطعن ايدي رجال وارجلهم (ان) زعموا ان رسول الله مات[1]».

ولكن ابا بكر (رض) كان اوعى واحضر ذهنا. فقد وقف، قائلا:

«ايها الناس، انه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات. ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت. ثم تلا قوله تعالى:

وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل. أفإن مات او قتل انقلبتم على اعقابكم؟

ومن ينقلب على عقبية فلن يضر الله شيئا. وسيجزى الله الشاكرين[2]».

فأيقن عمر عند ذلك بموت الرسول ووقع الى الأرض.

على ان فاجعة موت رسول الله ما كانت لتقع على احد وقوعها على علي وبقية اهل بيت الرسول. لقد شغلهم موت الرسول عن كل شيء في الوجود. وحسبنا لنقدر وقع المصيبة على اهل البيت ان نتذكر ان النبي سارَّ الزهراء مرتين وهو في مرضه فاخبرها مرة بموته فبكت. ثم اخبرها بانها اول اهل بيته لحاقاً به فضحكت

---

(١) السيرة النبوية لأبن هشام ج ٢ ص ٦٥٥

(٢) نفس المصدر، ص ٦٥٦

لأنها عرفت بانها ستلحق به سريعا. وان زوجها عليا قضى السنين الطوال مع النبي مسترخصا بذل حياته الشريفة ثمنا لحياة الرسول مستعذباً الموت في سبيل وقايته.

وها هو يرى تلك الحياة التي كانت اعز عليه من حياته قد انتهت، وانتهت دون ان يتمكن من ان يقدم نفسه فداء لها. لقد كان موت الرسول اصعب عليه بكثير مما لو لقي هو الموت.

على ان الحادث الجلل لم يمنع بقية الأصحاب من المهاجرين والأنصار من التفكير السياسي والعمل السياسي، والنبي بعد لم يدفن.

لقد ذكرت في الصفحات التي مرت ان الرسول لم يتمكن من كتابة وصية يعهد فيها بالخلافة الى رجل تكون قيادته امانا للأمة من الضلال. لقد عورض رسول الله في ذلك وهو على فراش الموت، وكانت المعارضة باسلوبها كفيلة بازالة فائدة الوثيقة النبوية المقترحة.

اما تصريح الغدير وتصريحات الرسول الأخرى في مناسبات شتى في شأن علي فافضل ما يقال في موقف الأصحاب منها انهم لم يروا فيها ما يقطع جدلا او يوضح حجة. وإذا كان هذا هو اتجاه جمهور المهاجرين. فان الأنصار والمهاجرين بدأوا وأنهوا منافستهم على قيادة المسلمين قبل ان يدفن الرسول. وقد تحدث عمر (رض) في أواخر سني خلافته عما حدث يوم ذاك. فقد ذكر انه كان من خبرهم يوم توفي الرسول ان الأنصار بقيادة سعد بن عبادة خالفوا المهاجرين فاجتمعوا بأشرافهم في سقيفة بني ساعدة يريدون اختيار خليفة منهم. وتخلف علي بن ابي طالب والزبير بن العوام ومن معهما، واجتمع المهاجرون الى ابي بكر.

وان ابا بكر وعمر وابا عبيدة بن الجراح ذهبوا الى مؤتمر السقيفة واحبطوا محاولة الأنصار. فقد قال ابو بكر للأنصار: ان العرب لن تعرف هذا الأمر الاَّ لهذا الحي من قريش وهم اوسط العرب نسبا ودارا. فقد رضيت لكم احد هذين الرجلين (عمر وابي عبيدة). فبايعوا ايهما شئتم. واقترح بعض الأنصار ان يكون منهم امير ومن المهاجرين امير. وكثر اللغط وارتفعت الأصوات. وقال عمر لأبي بكر متخوفا الأختلاف: ابسط يدك يا ابا بكر. فبسط يده فبايعه. ثم بايعه من حضر من المهاجرين ثم من حضر من الأنصار عدا سعداً بن عبادة. ثم بويع بيعة

عامة في المسجد في اليوم الثاني بعد ان خطب عمر امام ابي بكر قائلا لمن حضر في المسجد:

«... وان الله قد جمع امركم على خيركم صاحب رسول الله (ص) ثاني اثنين إذ هما في الغار فقوموا فبايعوه[٣]»..

ويروى ان ابا بكر روى يوم السقيفة ان رسول الله قال:
«الأئمة من قريش[٤]».

ان ما حدث يثير عدة اسئلة:

(١) هل ادعى ابو بكر ان رسول الله استخلفه؟
(٢) هل كان الرسول يرغب في استخلاف أبي بكر؟
(٣) هل كانت البيعة قانونية بنظر الأسلام؟
(٤) هل قال الرسول ان الأئمة من قريش؟ وما عنى بذلك؟

والتاريخ يجيب على السؤال الأول بالنفي. فأبو بكر لم يدَّع ان الرسول استخلفه. ولم يدَّع احد من الأصحاب الذين مهدوا لبيعة ابي بكر وعملوا على انجاحها ان الرسول عهد الى ابي بكر. فقد كانت حجة ابي بكر على الأنصار في مؤتمرهم، كما اسلفنا ان العرب لا تعرف هذا الأمر الا لهذا الحي من قريش. لأنهم هم اوسط العرب نسبا ودارا. ولو كان النبي اعرب عن رغبته في استخلاف ابي بكر لذكر ذلك ابو بكر في احتجاجة على الأنصار بدلا من ان يحتج بعلو نسب القرشيين.

وعلماء السنة مجمعون على ان النبي (ص) لم يستخلف احدا. ومعنى ذلك انهم متفقون على أنه لم يستخلف ابا بكر.

بلى نقل عن احد علماء المدينة الوهابيين المعاصرين الأدعاء بان الرسول استخلف ابا بكر وانه احتج لهذا الأدعاء بما روي من انه (ص) قال: «ويأبى الله

---

(٣) نفس المصدر ٦٥٩ - ٦٦٠
(٤) الفتنة الكبرى للدكتور طه حسين ج ١ ص ٣٥

والمؤمنون الا ابا بكر» وانه ادعى ان هذا الحديث متواتر[٥].

والحديث المشار اليه هو ما رواه مسلم في صحيحة عن عروة ان عائشة (رض) قالت:

« قال لي رسول الله ادعي لي ابا بكر اباك واخاك حتى اكتب كتابا فإني اخاف ان يتمنى متمنٍ ويقول قائل: انا اولى. ويأبى الله المؤمنون الا ابا بكر[٦] ».

ووقع في رواية البخاري: لقد هممت ان اوجه الى ابي بكر وابنه واعهد...[٧] »

احاديث لا تتفق مع هذا الحديث

والأحتجاج بهذا الحديث يدل على عدم سعة الأطلاع على الأحاديث. فالحديث المذكور معارض بثلاثة احاديث روتها الصحاح عن عائشة نفسها.

روى مسلم بطريقه الى مسروق عن عائشة انها قالت: « ما ترك رسول الله (ص) دينارا ولا درهما ولا شاة ولا بعيرا ولا اوصى بشيء[٨] ».

ولو كان النبي عهد الى ابي بكر واستخلفه لما صح ان تقول عائشة، وهي ابنته: « ولا أوصى بشيء » لأنه لو عهد اليه لكان قد اوصى بشيء مهم جدا.

وروى مسلم ايضا عن الأسود بن يزيد انه قال: ذكروا عند عائشة ان عليا كان وصيا، فقالت: متى اوصى اليه؟ فقد كنت مسندته الى صدري او قالت: حجري فدعا بالطست. فلقد انخنث (مال) في حجري وما شعرت انه مات. فمتى اوصى اليه[٩] »؟

---

(٦) ج ١٥. ص ١٥٥

(٧) نقله النووي في شرح صحيح مسلم، ج ١٥، ص ١٥٥

(٨) صحيح مسلم. ج ١١ (كتاب الوصية) ص ٨٩

(٩) نفس المصدر

والحديث هذا يفسر الحديث الذي قبله (الذي قالت فيه: ولا اوصى بشيء). فهي في الحديثين تحاول ان تنفي ان يكون الرسول اوصى الى علي. وهذا يدل على ان الوصية لأبي بكر لم تكن واردة على ألسن الناس وأن ما كان يتداول على الألسن هو ان الرسول اوصى الى علي. ولذلك كانت هي تنفي ذلك بشدة.

ولو كانت تعرف ان الرسول عهد الى ابي بكر لقالت للذين ذكروا ان عليا كان وصيا: ان الوصية كانت لأبيها لا لعلي.

وروى مسلم ايضا بطريقة عن ابي مليكة انه قال:

«سمعت عائشة وسئلت: من كان رسول الله مستخلفا لو استخلفه (لو استخلف)؟ قالت: ابو بكر. فقيل لها: ثم من بعد ابي بكر؟ قالت: عمر. ثم قيل لها: من بعد عمر؟ قالت: ابو عبيدة بن الجراح. ثم انتهت الى هذا[١٠]».

ولو كان رسول الله قال: ويأبى الله والمؤمنون الاَّ أبا بكر، لأنكرت على السائل قوله: من كان رسول الله مستخلفا لو استخلف ولأجابته بانه استخلف ابا بكر وان استخلافه قد حدث وليس مجرد افتراض.

ومن الجدير بالذكر ان تحامل ام المؤمنين على علي واضح في كل الأحاديث الثلاثة الأخيرة. ففي الأخير منها ارادت ان تقول ان أبا عبيدة كان افضل واولى بالخلافة من علي وانه كان مقدما عند الرسول على علي. وهذا ما لا يقول به احد من المسلمين. فالمسلمون يجمعون على ان عليا كان افضل من ابي عبيدة واحب الى رسول الله واولى بالخلافة.

وفي الحديث الذي قبله احتجت على عدم الوصية لعلي بما لا حجة فيه. فلو صح ان الرسول مات وهو مستند الى صدرها وأنه لم يوص لعلي في تلك الساعة لما نفى ان يكون اوصى اليه قبل تلك الساعة. مع ان ام سلمة روت ما يناقض دعوى عائشة. فقد روى الحاكم بسند صححه (وصححه الذهبي) ان ام سلمة (رض) قالت: «والذي احلف به ان كان علي لأقرب الناس عهدا برسول الله

---

(١٠) نفس المصدر ج ١٢، ص ١٥٤

(ص). عدنا رسول الله غداة وهو يقول: جاء علي؟ مرارا. فقالت فاطمة: كأنك بعثته في حاجة؟ قالت: فجاء بعد. قالت أم مسلمة: فظننت ان له اليه حاجة فخرجنا من البيت فقعدنا عند الباب، وكنت انا من ادناهم الى الباب. فاكب عليه رسول الله وجعل يُسَارُّه ويناجيه ثم قبض رسول الله من يومه ذلك فكان علي اقرب الناس عهدا[11]».

وقد كانت ام المؤمنين (رض) تجيز لنفسها مجتهدة ان تحدث بما لم يحدث إذا كان الحديث يخدم المصلحة التي تراها. وقصة المغافير معروف في التاريخ الاسلامي ومذكورة في القرآن (في سورة التحريم) اذ تظاهرت هي وأم المؤمنين حفصة ابنة الخليفة الثاني على الرسول وقالتا له انهما تشمان منه رائحة المغافير (صمغ شجر) وما كان ذلك صدقا.

روى البخاري في صحيحه عن عبيد بن عمير عن عائشة انها قالت: «كان رسول الله يشرب عسلاً عند زينب ابنة جحش (احدى زوجاته) ويمكث عندها. فواطيت، انا وحفصة عن أيتنا دخل عليها فلتقل له: اكلت مغافير. اني اجد منك ريح مغافير. قال: لا. ولكني كنت اشرب عسلاً عند زينب ابنة جحش فلن اعود له. وقد حلفت لا تخبري بذلك احداً[12]»؟

ويظهر انها اخبرت بما أمرها بكتمانه ونبأه الله بذلك وأغضبه ذلك فنزلت سورة التحريم وفيها ما يلي:

﴿وإذ أسرَّ النبيُّ الى بعض ازواجه حديثا. فلما نبَّأت به واظهره الله عليه عرَّف عن بعض وأعرض عن بعض. فلما نبأها به قالت: من أنبأك هذا؟ قال: نبأني العليم الخبير. ان تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما. وان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير[13]».

---

(١١) المستدرك ج ٣، ص ١٣٩

(١٢) ج ٦ كتاب التفسير (في تفسير سورة التحريم) ص ١٩٤

(١٣) سورة التحريم (٦٦) آية ٣ - ٤

وروى البخاري ايضا عن عبيد بن حنين انه قال: سمعت ابن عباس يقول: « مكثت سنة اريد ان اسأل عمر بن الخطاب عن آية فمااستطيع ان أسأله هيبة له حتى خرج حاجا فخرجت معه. فلما رجعت وكنا ببعض الطريق عدل الى الاراك لحاجة له. قال: فوقفت له حتى فرغ ثم سرت معه. فقلت يا امير المؤمنين من اللتان تظاهرتا على النبي من ازواجه؟ فقال: تلك حفصة وعائشة...[١٤] »

وإذا كان لأحد ان يتطلب مزيدا من البرهان على عدم استخلاف الرسول لأبي بكر فان في قولة عمر المشهورة - بان بيعة ابي بكر كانت فلتة وقى الله شرها ما يتكفل بايضاح الأمر كل الايضاح.

روى الشيخ البخاري في صحيحة[١٥] وابن هشام في سيرته[١٦] والامام احمد في مسنده[١٧] ان عمر قال في خطبته في آخر سني خلافته « .... ثم انه يلغني أن قائلا منكم يقول: والله لو مات عمر بايعت فلانا. فلا يغترن امرؤ ان يقول: انما كانت بيعة ابي بكر فلتة وتمت.

الا وانها قد كانت كذلك. ولكن الله وقى شرها. وليس فيكم من تقطع الأعناق اليه مثل ابي بكر... »

ان الفلتة هي الأمر الذي يقع من غير احكام والفجأة من غير تدبير. ولو كان الرسول عهد الى ابي بكر او اعرب عن رغبته في استخلافه لما كانت بيعته فلتة بل كانت طاعة لله ولرسوله وعن تدبير من الله ورسوله وهو خير انواع التدبير والأحكام.

---

(١٤) صحيح البخاري ج ٦، ص ١٩٥

(١٥) ج ٨ ص ٢١٠

(١٦) ج ٢ ص ٦٥٨

(١٧) ج ١ ص ٥٨

على ان الخليفة الثاني اوضح هذا الأمر كل الايضاح حينما طعن. فقد روى مسلم في صحيحة[١٨] وابن سعد في طبقاته[١٩] وابن هشام في سيرته[٢٠] ان عبد الله بن عمر روى إنه نصح اباه في ان يستخلف احدا من بعده فقال:

«ان لا استخلف فان رسول الله لم يستخلف
وان استخلف فان ابا بكر قد استخلف».

وروى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر انه قال: قيل لعمر: الا تستخلف؟ قال: ان استخلف فقد استخلف من هو خير مني، ابو بكر. وان اترك فقد ترك من خير مني، رسول الله(ص)...[٢١]»

- ٣ -

هل رغب النبي في ان يستخلف ابا بكر؟

اما الجواب عن السؤال الثاني: هل كان الرسول يرغب في استخلاف ابي‌بكر؟ فان في حوادث الأيام الأخيرة من حياة الرسول ما يدل بجلاء على ان خلافة ابي بكر لم تكن في ذهن رسول الله قطعيا. ولا أدل على ذلك من بعث اسامة.

لقد امر رسول الله اسامة بن زيد بن حارثة على جيش وامره ان يوطيء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين فتجهز الناس، واوعب مع اسامة المهاجرون الأولون (اي خرجوا جميعاً)[٢٢] وان من معلومات التاريخ عن بعث اسامة ما يلي:

---

(١٨) ج ١٢، ص ٢٠٦ قريب منه
(١٩) ج ٣، ص ٣٤٢
(٢٠) ج ٢ ص ٦٥٣
(٢١) ج ٩، ص ١٠٠
(٢٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦٤٢

(١) كان ابو بكر وعمر وسواهما من المهاجرين الأولين جميعاً في بعث اسامة[٢٣].

(٢) ان علي بن ابي طالب لم يكن في ذلك البعث.

ويظهر ان الرسول لم يعد يسمح لعلي بالذهاب الى الجهاد بعد ان استتب الإسلام في شبه الجزيرة نتيجة للمعارك الكبرى التي كان فيها علي اعظم المجاهدين بلاء وتأثيرا. لم يسمح له، أو على الأقل لم يأمره، بالذهاب الى معركة مؤته يوم ارسل المسلمين تحت قيادة زيد بن حارثة (والد أسامة) الى حدود ارض الروم. فقتل في تلك المعركة زيد وجعفر بن ابي طالب وعبد الله بن رواحة. ولم يسمح له ان يذهب معه الى تبوك بل استخلفه على المدينة.

لقد رست اسس الاسلام ولم يعد هناك من ضرورة تحوج الى تعريض حياته الى اخطار جديدة. ولذلك لم يرسله في بعث اسامة. ولو كان علي في ذلك البعث لكان البعث بقيادة علي لا بقيادة اسامة. فالنبي لم يؤمر على علي احدا في اي معركة حربية بل كان حامل اللواء في المعارك التي قادها الرسول بنفسه[٢٤] والقائد الاعلى لكل بعث ارسل النبي عليا فيه. وقراء التاريخ يعرفون انه ولى ابا بكر وعمر (رض) قيادة الجيش في حرب خيبر في يومين متتالين لما كان علي أرمد العينين لا يستطيع الاشتراك في معركة. فلما برئت عيناه في اليوم الثالث بمعجزة من رسول الله كان هو القائد وكان الشيخان وبقية الأصحاب تحت قيادته.

(٣) ان الرسول مرض بعد ان عقد اللواء لأسامة. وكان الجيش لا يزال قريباً من المدينة لم يتحرك. وقد رأى الرسول تباطؤ الجيش فخرج الى المسجد مرتين وهو مريض يأمرهم بانفاذ بعث اسامة وتعجيلهم. وقد كرر الأمر بانفاذ البعث

---

(٢٣) ذكر ذلك ابن الأثير في الكامل والطبري في تاريخه والسيرة الحلبية والسيرة الدحلانية (المراجعات لشرف الدين ص ٢٥١) وابن سعد في الطبقات ج ٢ ص ١٩٠.

(٢٤) الطبقات ج ٢٣ ص ٢٥. والمستدرك ج ٣ ص ١

ثلاث مرات في خطاب واحد[٢٥].

كل هذا وهو يعلم بدنو اجله. ففي الحديث المروي عن ابي مويهبه في استغفاره لأهل البقيع قبل مرضه بليلة ان رسول الله قال:

« ... يا ابا مويهبه، اني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة. قال ابو مويهبه: بأبي انت وامي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة قال: لا يا ابا مويهبه. لقد اخترت لقاء ربي والجنة[٢٦] »

وحينما جلس على المنبر، خطيبا وهو مريض ختم تحريضه على انفاذ بعث اسامة بقوله.

« ان عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده فاختار ما عند الله[٢٧] ».

وقد روى ابن سعد:

« ان رسول الله امرَّ اسامة... فلما كان يوم الأربعاء بدىء برسول الله فحُمَّ وصدع. فلما اصبح يوم الخميس عقد لأسامة لواء بيده فخرج بلوائه معقوداً فدفعه الى بريد الاسلمي وعسكر بالجرف. فلم يبق احد في وجوه المهاجرين الأولين والأنصار الا انتدب فيهم ابو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وابو عبيدة بن الجراح وسعد بن ابي وقاص[٢٨] ».

وقد قال لأبنته فاطمة وهو في مرضه الذي توفي فيه:

« ان جبريل كان يعارض في القرآن كل سنة مرة او مرتين وانه عارضه الآن

---

(٢٥) الطبقات ج ٢ ص ٢٤٩

(٢٦) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦٤٢

(٢٧) نفس المصدر ص ٦٤٩

(٢٨) نفس المصدر ص ٦٤٩

مرتين. ثم قال لها واني لا أرى الأجل الا قد اقترب فاتقي الله واصبري فاني نعم السلف انا لك....[٢٩] ».

وروى البخاري بسنده عن عائشة انها قالت:

« دعا النبي فاطمة عليها السلام في شكواه الذي قبض فيه (التي قبض فيها) فسارَّها بشيء فبكت، ثم دعاها فسارَّها. بشيء فضحكت. فسألنا عن ذلك فقالت: سارَّني النبي انه يقبض في وجعه الذي توفي فيه فبكيت ثم سارني فاخبرني اني اول اهله يتبعه فضحكت[٣٠].

ولو كان يريد ان يستخلف ابا بكر والحال هذه لما سمح له بالخروج في البعث ولا امره بالتعجيل بالخروج. فقد كان بعث اسامة يحتاج لكي يصل الى ارض فلسطين ويقاتل ويعود الى المدينة الى شهرين او اكثر وكان من الجائز ان يتوفى الرسول بعد تحرك الجيش بيوم او ايام والرسول كان يعرف انه سيقبض قبضا سريعاً.

فهو لم يعهد اليه قبل ذهاب البعث ولن يعهد اليه بعد عود ابي بكر مع البعث من فلسطين لأن ابا بكر سوف لا يدرك النبي حيا. ولن يعهد اليه وهو غائب لأن من غير المعقول ان يجيز الرسول بقاء المدينة بعد موته دون خليفة مدة تبلغ شهرين او تزيد وهو يعلم الأخطار التي تتهدد المدينة والاسلام. اضف الى ذلك، ان ابا بكر لو كان في البعث لخيف عليه ان يقتل في المعركة. وقتل خليفة في المعركة في مثل هذا الظرف العسير يؤدي الى اسوأ والنتائج على الاسلام والمسلمين.

فلو كان الرسول يريد ان يعهد اليه لما سمح له بالذهاب في البعث. ولكن الواقع ان بقاء ابي بكر وسواه من جند البعث في المدينة كان ضد ارادة الرسول التي اعلنها عدة مرات وهو في مرضه الشديد:

« انفذوا جيش اسامة »

---

(٢٩) صحيح مسلم ج ١٦ ص ٦

(٣٠) صحيح البخاري ج ٦ - ص ١٢

يقولها خطيبا على [illegible] من مرة ويكررها وهو على فراش الموت. ان هذا لدليل مادي قاطع على [illegible] بالرغم من جلالة قدرة وحب النبي له لم يكن مقصوداً من النبي بالخلافة.

هل كانت البيعة قانونية؟

وللاجابة عن السؤال الثالث: هل كانت البيعة قانونية بنظر الاسلام؟ اقول:

ما من شك بانه كان من حق المسلمين ان يبايعوا ابا بكر او سواه إذا لم يكن الرسول اعرب عن اختياره لشخص آخر كتابة او لفظا وإذا لم يكن المسلمون رأوا في تصريحات الرسول يوم الغدير وفي مناسبات أخرى ما يدل بوضوح على اختياره عليا للخلافة. لقد كان لهم الحق ان يبايعوا ابا بكر، والحال هذه وان كانت البيعة فلتة دون تدبير وإحكام. فللإنسان ان ينتخب من يشاء للحكم إذا رأى في المنتخب صلاحاً للقيادة وان كان الانتخاب بدافع امر طارىء مفاجىء. وانتخابه اياه يصنع عقدا بينه وبينه يوجب الوفاء على كل من المبايع والمبايع تجاه الآخر، على حسب الشروط التي تمت عليها البيعة اذا كانت الشروط كلها مشروعة. وإذا كانت البيعة على ان يعمل المنتخب بكتاب الله وسنة نبيه وان يطيع المبايع منتخبه فيما هو طاعة لله ولرسوله فان البيعة تكون صحيحة وملزمة للجانبين.

لكن هذه البيعة لو تمت من جانب اكثرية الصحابة او المقيمين منهم في المدينة فإن لها بالرغم من مشروعيتها جانبين سلبيين:

(١) إنها لا تلزم الأقلية بمتابعة الأكثرية. فلا يكون المتخلف من الصحابة عن البيعة آثما: ويبقى له الحق في ان لا يكون من المنتخبين. ان كل انسان له حقوقه الطبيعية التي منحه الله اياها كمسلم او كأنسان. ومنها حريته السياسية.

وليس لأحد ان يقيد حرية اي شخص الاّ باذنه وتفويضه الأختياري. ولا يجوز أن يجبر على ما لا يريده من الالتزام بقيود لم يلزمه الله بها، ولا يجوز ان يُقهر على بيعة شخص لا يريد هو ان يفوض امر الحكم اليه.

فليس للأكثرية (أو رئيسها) ان تلزم الأقلية بالأنضمام اليها في الانتخاب. كما انه لا يجوز للأقلية ان تقف في طريق الأكثرية وتمنعها من ممارسة حقها بتسيير شؤون الدولة ما دام هنالك اتفاق ملفوظ او ضمني على ان تكون الأكثرية هي التي تحكم البلاد. وحتى لو لم يكن هنالك اتفاق ضمني من هذا النوع فان للأكثرية الحق في ممارسة حكم البلاد تجنبا للفوضى وعملاً بالاحكام الاضطرارية لأن عدم ممارسة الأكثرية لحكم البلاد في حين ان الأقلية لا يجوز لها ان تحكم الأكثرية يؤدي الى خراب البلاد. وهذا ما لا يريده الاسلام.

وإذا كان للانسان الحق في ان يخالف رأي الأكثرية فاجبار الأكثرية اياه على موافقتها اعتداء على حقه. ولذلك نرى انه كان من الظلم اجبار الزبير بن العوام على بيعة ابي بكر وان كان ابو بكر اهلاً للخلافة. فلم تكن خلافته بعهد من الله ورسوله. وما كان الزبير مخالف لله ولرسوله حين امتنع عن البيعة اقتداء بعلي بن ابي طالب. فالبيعة عقد يحق للزبير ان لا يكون طرفا فيه. فاجباره على الدخول فيه افتئات على حقه واعتداء على حريته.

واظلم من ذلك ان تحول الحكومة الجديدة اجبار علي نفسه على الدخول في البيعة وهو بشهادة الرسول مولى كل مؤمن ومؤمنة.

فللأقلية إذن الحق ان تمتنع عن البيعة والأنضمام للاكثرية المبايعة ما دامت لا تمارس عرقلة الحكم. وهذا م يجري في كل البلاد الديمقراطية حيث يوجد في الأمة الواحدة ملايين وعشرات الملايين ممن انتخبوا المرشح المعارض للفائز باكثرية الأصوات. ولا يرى احد يؤمن بلعدالة ان يجبر منتخبو المرشح الخاسر على الأنضمام لمنتخبي المرشح الرابح. وحتى الأمم التي لا يوجد الاّ حزب واحد تجري انتخابها وتقترح على الناخبين ان يقترعوا على مرشحي الحزب الواحد الذي لا معارض له بان يجيبوا بنعم او بلا. ولا يجبرون من قال: لا ان يبدلها بنعم.

وهذا هو موقف الاسلام دين العدالة. فاكراه الناس على ما لم يجب عليهم ظلم لهم واعتداء على حرياتهم. والله لا يحب الظالمين ولا يحب المعتدين.

وإذن فقد كان يحق لمن عاصر هذه البيعة من الأصحاب ان لا يشترك فيها ولا

يرى صوابها بالرغم من انها عقد مشروع. واحرى ان يكون لمن لم يعاصروها مثل هذه الحقوق. فليس يأثم مسلم ولد بعد زمن هذه البيعة إذا رأى ان تلك البيعة المشروعة لم تكن في محلها. وانها لم تكن الطريقة المثلى في تدبير شؤون الأمة. كما انه ليس يأثم من ولد بعدها ان يقف منها موقفا ايجابيا وأن يرى صوابها وحكمتها.

وقد امتنع عبد الله بن عمر وسعد بن ابي وقاص واسامة بن زيد عن بيعة على وهو امام الهدى فلم يجبرهم الامام على البيعة ولم يعتبرهم فساقا بل احترم حريتهم وان اعتقد بخطئهم في موقفهم.

ومن ذلك يعرف ان تأثيم المسلمين بعضهم بعضا لموقفهم من هذه البيعة ايجابا او سلبا تزيُّدٌ على الشريعة وافراط او تفريط يمقته الله.

(٢) اما الجانب السلبي الآخر لهذه البيعة المشروعة فهو انها لا تجعل من عمل الخليفة وقوله قانونا اسلاميا. فما دام قيامه بالحكم نتيجة انتخاب شعبي، لا نتيجة عهد نبوي يبقى قوله وعمله كقول وعمل غيره من الأصحاب عرضة للصواب والخطأ.

لقد كان قبل انتخابه عرضة للخطأ والصواب مثل اي صحابي آخر، ويبقى بعد انتخابه كذلك فالانتخاب لا يغير من شخصيته ولا يزيد في علمه ولا يرفعه عند الله عن مستوى غيره من المؤمنين. ولن يجعل كل عمله وقوله صوابا. ان احسن ما يتوقع له ان يكون مجتهدا من المجتهدين يحق لسواه من المجتهدين ان يخالفه. ويحق للمؤمن من غير المجتهدين ان يتبع مجتهداً آخر سواه ولا يجوز لمن هو اعلم منه ان يتبع خطاه ان رأى خطأ في طريقته. وليس يحق لأحد من الناس ان يلزم المسلمين بالسير على سنة خليفة صالح من هذا النوع. فانه ايجاب لما لم يوجبه الله واقحام لما ليس من الدين في الدين.

ان هذين الجانبين السلبيين للبيعة المشروعه التي هي مجرد عقد بين المبايع والمبايع لا يوجدان في خلافة تكون بعهد من الرسول.

ان الخلافة حينما تكون بعهد نبوي تصبح ملزمة لكل مسلم ومسلمة. ولا يجوز لأحد ان يجادل فيها. ان الرسول اولى بالمؤمنين من أنفسهم بشهادة القرآن. وحكمه ماض فيهم ولهم وعليهم.

«وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله امراً أن يكون لهم الخيرة في امرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا[٣١]».

والذين يبايعون من عهد اليه الرسول يبايعون الرسول نفسه. ومن يبايع الرسول يبايع الله. والقرآن يعلن:

﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يُبَايِعُونَكَ تحت الشجرة انما يبايعون الله. يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيْهِمْ. فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىَ نَفْسِهِ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيْهِ أَجْراً عَظِيماً[٣٢]﴾.

ومعنى ذلك ان الخليفة بعهد من الرسول له قداسة تنبع من قداسة الرسول. وعلى المسلمين من معاصريه ومن الأجيال التي تولد بعده. ان يأتمروا بأمره وينتهوا بنهيه. فله صلاحية تشبه صلاحية النبي الى حد كبير سوى انه لن يكون نبيا ولا يُتوقع منه بان يزيد أو يُنقص أو يغير في احكام الشريعة لأنه لا نبي بعد محمد. وحلاله حلال الى يوم القيامة. ان هذا الخليفة يمثل الرسول والمفروض فيه ان يكون اعلم الناس بالقرآن وتأويله واعرف الناس بحلال محمد وحرامه، فما يعلنه حلالا فهو حلال وما يعلنه حراما فهو حرام. وما يعلنه واجبا فهو واجب. وليس لأحد من المسلمين ان يخالفه لأنه أعلم منهم وافضل ولأن طاعته مفروضة بعهد من الرسول.

قريش والامامة

وهل قال النبي ان الأئمة من قريش؟ وهل عنى ان الخلافة انتخابية او انها

---

(٣١) سورة الاحزاب (٣٣) آية ٣٦

(٣٢) سورة الفتح (٤٨) آية ١٠

وراثية أو أنها بعهد نبوي؟

لقد ورد في هذا الموضوع عديد من الأحاديث ذكرت في الصحاح وسواها. منها ما يلي:

روى مسلم عن ابي هريرة عن رسول الله (ص) انه قال:

« الناس تبع لقريش. مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم[٣٣]. وعن جابر بن عبد الله عن النبي: الناس تبع لقريش في الخير والشر[٣٤] ».

وعن عبد الله عن الرسول:« لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي في الناس اثنان[٣٥] ».

وعن جابر بن سمرة عن رسول الله: « لا يزال الدين قائمًا حتى تقوم الساعة او يكون عليكم اثنا عشر خليفة من قريش »[٣٦]

وروى البخاري عن ابن عمر ان رسول الله قال:« لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان[٣٧] ».

وروى بسنده عن جابر بن سمرة قال:

سمعت النبي يقول: « يكون اثنا عشر اميرا » فقال كلمة لم اسمعها فقال ابي: انه قال: « كلهم من قريش[٣٨] ».

وروى الترمذي مثله الا انه قال: « يكون من بعدي اثنا عشر اميرا وان ابا جابر قال إن الرسول قال: كلهم من قريش[٣٩] ».

وروى الحاكم بسنده عن مسروق انه قال: « كنا جلوسا عند عبد الله فسأله رجل فقال: يا ابا عبد الرحمن، هل سألتم رسولِ الله كم يملك هذه الأمة من خليفة؟

---

(٣٣) (٣٤) (٣٥) (٣٦) هذه الاحاديث الأربعة مذكورة في صحيح مسلم ج ١٢ (كتاب الامارة) ص ٢٠٠ - ٢٠٢

((٣٧) صحيح البخاري (كتاب الأحكام) ج ٩ ص ٧٨

(٣٨) نفس المصدر ص ١٠١

(٣٩) سنن الترمذي ج ٢ ص ٣٥ (نقله الفيزوزبادي في كتاب فضائل الخمسة ج ص ٢٣).

فقال عبد الله ما سألني عن هذا احد منذ قدمت العراق قبلك. قال: سألناه فقال: اثنا عشر، عدة نقباء بني اسرائيل[٤٠] ».

وروى الامام احمد عن ابي بكر (رض) انه قال: « ولقد علمت يا سعد ان رسول الله قال وانت قاعد: قريش ولاة هذا الأمر فبر الناس تبع لبرهم، وفاجرهم تبع لفاجرهم...[٤١] »

من الواضح ان الحديث الأول لا يعني الخلافة. فقريش لم تكن وقت الخلافة مقسومة الى مسلمين وكفار بل كانت كلها تقر بالاسلام. ويظهر ان الحديث صدر في ايام كانت قريش في اكثريتها مشركة وأنه يتحدث عن تأثر القبائل العربية بموقف قريش من الاسلام. وهذا امر واضح. فقد وقفت اكثرية القبائل العربية ضد الاسلام حينما كانت قريش تحاربه وحينما اسلمت قريش دخل العرب في دين الله افواجا.

فالنبي في هذا الحديث لم يكن في حالة إبلاغ حكم شرعي او اصدار امر الى المسلمين، بل كان يتحدث عن امر واقع هو نفوذ قريش وتأثر بقية القبائل بموقفها.

والحديث الثاني كالحديث الأول لا يتحدث عن الخلافة ولمن ينبغي ان تكون بل هو اخبار عن وضع قائم يوم ذاك، إذ كان لقريش تأثير كبير على بقية القبائل.

اما الأحاديث الستة الباقية فهي تتحدث عن الخلافة بوضوح وهي تتفاوت في مضامينها دون تناقض فمنها ما يذكر ان الخلافة في قريش ومنها ما يزيد على ذلك بأن الخلافة سوف تبقى في قريش الى الأبد ومنها ما يزيد على ذلك بان الخلفاء اثنا عشر ومنها ما يذكر ان عدد الخلفاء اثنا عشر دون ان يذكر انهم من قريش.

---

(٤٠) مستدرك الصحيحين ج ٤ ص ٥٠١

(٤١) المسند ج ١ ص ٥

وإذا جمعنا حديثي عبد الله (بن عمر) الذي يذكر في احدهما ان الخلافة سوف تبقى في قريش الى الأبد-ويذكر في الآخر ان عدة الخلفاء اثنا عشر عدة نقباء بني اسرائيل رأينا ان الحديثين يفسر احدهما الآخر، ويتطابقان مع حديث جابر بن سمرة الذي هو أخص الأحاديث واجمعها ويصلح لأن يقيد مطلقاتها.

وعلى ذلك، فان الأحاديث المذكورة تتحدث عن ان الخلافة لا تكون لغير قريش وان عدد الخلفاء اثنا عشر وان الخلافة في قريش سوف تبقى ما بقي في الناس اثنان (او ما بقي من قريش اثنان).

وإذا كان هذا ما تضمنته الأحاديث فان علينا ان نحاول تفهم ما اراده الرسول بهذه التصريحات.

يمكن تفسير هذه التصريحات النبوية بأحد الوجوه الأربعة التالية:

(١) ان النبي لم يكن في حال اصدار تعليم للمسلمين وتعريفهم بما يجب ان يفعلوا من بعده في امر الخلافة بل كان يتحدث عن المستقبل وان الخلافة سوف تكون دائما والى يوم القيامة في قريش. فهو يخبر عن ان الخلافة لن تنقطع ما دام الناس على وجه هذه الأرض وان كل خليفة سوف يكون قرشيا وان الخلفاء سوف يكونون اثني عشر.

بالطبع لا يصح هذا لأن الخلافة انقطعت ولم تدم ولأن عديدا من الخلفاء، كالعثمانيين، لم يكونوا قرشيين ولا عربا.

اضف الى هذا ان حصر عدد الخلفاء باثني عشر لا يصح إذا قصد من لفظ الخليفة من وصل الى الحكم وحكم باسم الاسلام سواء كان المقصود هو الخلفاء الراشدون او قصد ما يشمل سواهم. فالخلفاء الراشدون لم يبلغ عددهم اثني عشر وإذا ضم اليهم غير الراشدين، زاد عددهم عن الأثني عشر اضعافا مضاعفة.

(٢) ان يكون النبي في حال تعليم وابلاغ امر ديني. فهو يقول لأمته ان خلفاءه يجب ان يكونوا من قريش ولا يستحق تبوء منصب الخلافة الا القرشيون لأنهم من اقرباء الرسول الأدنين او غير الأدنين. إذ يتتهون مع الرسول الى جدهم الأعلى فهر بن مالك وبذلك يكون كل مسلم قرشي مؤهلا للخلافة ولا يؤهل لها

اي مسلم غير قرشي لأنه ليس من اقارب الرسول او لأن القرشيين اقرب الى الرسول منه درجة. وإذا اخذنا بهذا التفسير فقد اقررنا بان الحكم يورث وان وراثة الحكم لا تختص بعترة النبي الأقربين بل هي موسعة تشمل كل المنتمين الى بطون قريش المتحدرين من فهر بن مالك. وبذلك يكون جمهور المسلمين قد قالوا بأسوأ مما ينكرونه على اتباع اهل البيت. إذ ينفر جمهور المسلمين من القول بحصر الخلافة باهل بيت الرسول لأنهم يرون ان حصرها فيهم مبني على القول بوراثتهم الحكم من الرسول لقرابتهم منه نسبا. فإذا قال الجمهور ان كل قرشي مسلم مؤهل للخلافة لأنه من أقرباء الرسول القريبين او البعيدين فقد قالوا بوراثة الحكم بواسطة القرابة الدموية ولو كانت بعيدة وهو أسوأ من القول بوراثة الأقرباء القريبين. لأن وراثة القريب لها من المبررات في نظر العامة والخاصة ما ليس لوراثة بعداء الأقارب. ولأنه إذا كان الحكم يورث بواسطة القرابة فان الأقرب من الأقارب يحجب عن الأرث من كان ابعد منه قرابة.

ومع هذا فإن حصر عدد الخلفاء باثني عشر يصبح دون مبرر. فلو كان المقصود بالخليفة كل مؤهل للخلافة بواسطة القرابة بلغ عددهم الألوف. وإذا كان المقصود من وصل الى الحكم باسم الخلافة فالراشدون منهم لا يبلغون اثني عشر ومع غير الراشدين يربو عددهم عن هذا الرقم كثيرا.

(٣) ان يكون النبي حينما نطق بهذه التصريحات كان في حال اصدار تعليم وابلاغ امر ديني وانه اراد ان يبلغ الأمة ان القرشيين وحدهم لهم حق تبوء منصب الخلافة لا لأنهم اقرباء الرسول بل لأن الله فضل القرشيين على سواهم لأنهم قرشيون. ولذلك جعل هذا الحق لهم دون سواهم. وإذا أخذنا بهذا التفسير فقد أقررنا بامرين متناقضين:

(أ) ان الخلافة ليست باختيار المسلمين وانما هي بتعيين من الله فهو الذي امر ان يكون الخلفاء قرشيين سواء رضي الناس أم أبوا.

(ب) ان الاسلام يدعو الى الايمان بتفوق قبلي وارستقراطية قرشية يفضل اعضاؤها مهما كانوا من رقة التدين على الملايين من سواهم وان كانوا اشدَّ تديُّنا واكثر حكمة واوفر علما.

ونقول ان هذين الآمرين متناقضان لأن الخلافة إذا كانت بتعيين من الله فإن الله يختار لقيادة المؤمنين اصلحهم لا اقلهم صلاحا. فليس من المعقول ان يفضل الله ابا سفيان الذي حارب الاسلام احدى وعشرين سنة ثم اسلم كرها على رجل كعمار بن ياسر الذي عذب في الله وبشره رسول الله وأبويه بالجنة.

وان القرآن لم يعلن ان اكرم الناس عند الله القرشيون بل قال: «ان اكرمكم عند الله أتقاكم». والنبي هو الذي وقف يوم فتح مكة وَخَاطَب قريشا قبل أي مجموعة من ولد آدم فقال:

«يا معشر قريش، ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم، وآدم من تراب» ثم تلاهذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوْباً وَقَبَائِل لتعارفوا. ان اكرمكم عند الله اتقاكم[٤٠]﴾.

فتفضيل القرشيين على سواهم لا لشيء الا انهم قرشيون مخالف لكتاب الله ومخالف لما علم من سنة الرسول قولا وعملا.

وما ذكرناه في امر حصر عدد الخلفاء وارد في هذا التفسير تماماً.

(٤) ان النبي في تصريحاته هذه كان في حال اصدار تعليم وابلاغ امر شرعي وانه اراد ان يقول لأمته ان الله اختار للمسلمين من قريش افراداً ليكونوا خلفاء ولم يخترهم لأنهم من اقرباء الرسول ولا لأنهم من قريش بل اختارهم لأنهم أفضل المسلمين وان عدد هؤلاء الأفراد الذين اختارهم اثنا عشر. وان هؤلاء الأفراد الذين اختارهم هم الخلفاء الشرعيون سواء اختارهم الناس وأوصلوهم الى الحكم او لم يسمحوا لهم بالوصول الى الحكم.

والأحاديث المذكورة تدل بوضوح على ان الله لم يترك أمر الخلافة لأختيار المسلمين المطلق بل اوجب ان يكون خلفاؤهم من قريش. وإذا كان هذا هو ما أمر به فان من غير المعقول ان يكون امر بذلك لأن القرشيين اقرباء الرسول ولا لأن القرشيين افضل من سائر المسلمين لأنهم من قريش. فهو دعوة الى ارستقراطية

---

(٤٠) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤١٢

غريبة عن الاسلام الذي يدعو الى المساواة ويمجد التقوى واهلها ويحقر الفاسقين والعصاة. والتاريخ الأسلامي يشهد بأن معظم القرشيين كانوا أشد الناس حربا على الرسول ودينه قبل ان يسلموا وان معظمهم كانوا ارق من سواهم تديناً بعد ان اسلموا.

فلم يبق لنا الا ان نقول ان كون الخلفاء من قريش هو ككون النبي نفسه من قريش. فالله لم يختر محمدا لأنه من قريش ولا لأنه من بني هاشم او بني عبد المطلب او من مكة بل اختاره لأنه كان خير اهل الأرض. وقد صادف ان خير اهل الأرض كان قرشيا ومن ولد عبد المطلب. وكذلك الخلفاء الاثنا عشر الذين تحدث النبي عنهم اختارهم الله لأنهم خير اهل الأرض. وقد صادف انهم من قريش.

هذا التفسير المنطقي يتفق مع مذهب الأمامية الاثنا عشرية ولا يتفق مع أي مذهب اسلامي آخر. ومن المنطق ان نقول ان الله إذا اختار فرداً ليكون خليفة واماما للناس فهو خليفة وامام وان لم يسمح له المسلمون بالوصول الى الحكم بل وان لم يؤمنوا بامامته. كما انه إذا اختار نبياً فهو نبي وان لم يطعه الناس ولم يؤمنوا بنبوته.

واود ان اقول أني اجد تناقضاً بين ان يوجب الله ان يكون الخلفاء من قريش وبين ان يترك للمسلمين امر انتقائهم من قريش. فانتخاب الناس لشخص لا يكشف عن اهليته للخلافة لأن الناس لا يعلمون من الأشخاص الاَّ ظواهرهم.

وكثيراً ما يكون الانتخاب الاكثري بتأثير ذوى النفوذ والمآرب من اعوان المنتخب. وحتى الصالحون من الناس قد يظنون بشخص صلاحا وينتخبونه فيخلف ظنونهم.

فإذا كان الله قد امر بان يكون الخلفاء من قريش فإنه لم يأمر الا لأنه يريد ان يقود المسلمين خيرهم. وإذا ترك الأمر لهم ليختاروا قائداً من قريش فإنه يترك مصير الخلافة للصدف. إذ ليس انتخاب الناس ضمانة لصلاح المنتخب وأفضليته لأنهم لا يعلمون طوايا النفوس والله هو العالم بها.

فإذا كان الله لم يترك امر الخلافة لأختيار الناس المطلق بل اوجب لهم ان يكون خلفاؤهم من مجموعة خاصة فانه يتوقع ان يكون اختياره لهم تاما وان لا يقسم الاختيار بينه وبينهم فيختار القبيلة ويختارون الفرد. والمنطق يوحي بان الله يختار القبيلة من اجل الفرد ولا يختار الفرد من اجل القبيلة. وقد اختار الله هاشما وقريشا من اجل محمد ولم يختر محمداً من اجل هاشم او قريش. ومعنى ذلك ان الله اختار اثنا عشر رجلاً باعيانهم وعيَّنهم ليكونوا خلفاء ولم يترك خلافة هؤلاء الرجال لانتخاب الأمة ولو كان يريد ان يوكل انتقاء اولئك الرجال لانتخاب الأمة، لترك للأمة ايضاً انتخاب القبيلة لأن اختيار القبيلة اقل أهمية من اختيار الفرد فمن يقود الأمة الى خيرها هو الحاكم الذي يتحلى بالفضائل. وهو يقودها الى الصلاح بكفاءته وفضله لا بفضل قبيلته.

مَوقِف عَليّ
مِن البَيعَة

الفصل السابع عشر

هنالك نظرية (لست اثبتها او انفيها) تقول بان خروب الردة التي وقعت بعد بيعة ابي بكر (رض) لم تكن لتقع لو ان علي بن ابي طالب كان الخليفة بعد رسول الله وذلك لسببين:

اولهما ان موقف النبي يوم الغدير امام الوف الحجاج من اهل البوادي والحواضر جعل القبائل العربية (او بعضها على الأقل) تعتقد ان الرسول اعطى القيادة لعلي.

ولعلهم رأوا في اعطاء الرسول قيادة المسلمين لعلي ما يتفق مع تقاليدهم التي تقضي بان يرث الزعامة اقرب الناس قرابة للزعيم. وحينما رأوا ان القيادة قد تغيرت بعد وفاة الرسول تنكر بعضهم للحكومة الجديدة فرفضوا ان يدفعوا لها الزكاة وتنكر بعضهم للاسلام، مفكرين انه إذا كان اصحاب الرسول لم يطيعوه فمعنى ذلك ان الاصحاب لم يكونوا جديين في تدينهم فلهم هم ايضا ان يعودوا الى جاهليتهم.

ثانيهما انهلو ولي علي القيادة بعد الرسول لكانت سمعته الحربية كافية لتردع عن الردة من تحدثه نفسه بها. فقد كانت بطولات ابن ابي طالب حديث الركبان. وهي بطولات خبرها اهل الحواضر والبوادي وعرفوا طوال السنوات العشر التي مرت ان النصر حليف له في كل معركة. فلماذا يجازفون بمواجهته في حرب خاسرة.

وسواء صحت هذه النظرية او لم تصح فان حروب الردة كانت فاصلة في امر الخلافة بالنسبة الى علي. إذ الزمته بان يكف عن معارضته لأبي بكر وان يبايعه لئلا تضعف الجبهة الاسلامية في نضالها ضد المرتدين. وقد كان ابن ابي طالب اتقى واعظم من ان يسمح لنفسه بالأستمرار في خلافه مع ابي بكر في تلك الظروف الخطيرة التي كانت تهدد الاسلام من اسسه.

لقد امتنع علي عدة شهور عن البيعة وكان من الممكن ان يستمر في معارضته للبيعة طيلة حياة ابي بكر بل كان هذا هو المتوقع لولا ردة القبائل العربية. ويمكن تلخيص موقف الامام من بيعة ابي بكر بما يلي:

(١) انه كان يرى انه أولى من ابي بكر بالخلافة، بل ان الخلافة حقه ومنصبه. لا لأنه اقرب للناس من الرسول فحسب، بل لأنه خيرة الرسول ولأنه عيبة علم الرسول ومن يؤدي عن الرسول. وخليفة الرسول هو مرجع الأمة في تأويل القرآن وسنن الرسول.

ويروى ان ابا بكر طلب من علي ان يبايعه فقال له علي: «انا احق بهذا الأمر منكم فلا ابايعكم وانتم اولى بالبيعة لي».

ولما قال ابو بكر: فهل كانت بيعتي عن غير رضا من الناس اجابه قائلاً:
« ولكنكم زعمتم للأنصار انكم اولى بها منهم إذ كان محمد منكم فاعطوكم المقادة. ولست احتج عليكم إلا بمثل ما سلف لكم من الحجة على الأنصار».

واستطرد يقول:
« نحن اولى برسول الله حيا وميتا. إنَّا آله وموضع سره ولجأ امره وعيبة علمه علمه وموئل حكمه... لا يقاس بآل محمد من هذه الأمة احد ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه[1] ».

ومما قاله في ذلك الحوار:

«انا وصيه ووزيره ومستودع سره وعلمه. وانا الصديق الأكبر والفاروق الأعظم. اول من آمن به وصدقه واحسنكم بلاءً في جهاد المشركين واعرفكم بالكتاب والسنة واعلمكم بعواقب الأمور... فإلام تنازعوننا هذا الأمر؟ انصفونا.... واعرفوا لنا من الأمر ما عرفته لكم الأنصار[2] ».

وما كان يعوز عليا البرهان على دعواه هذه. فتصريحات الرسول التي ذكرنا الكثير منها تعضد كل ما ادعاه من حق واولوية بالخلافة. ويكفيه ان يقول الرسول فيه: « علي مني وانا منه. ولا يؤدي عني الا علي». وان يجعله منه بمنزلة هارون من موسى.

---

(١) الامام علي بن ابي طالب للاستاذ عبد الفتاح عبد المقصود ج ١ ص ١١٧
(٢) الأحتجاج للطبرسي ج ١ ص ٩٥

(٢) أنه كان يرى ان البيعة التي حدثت لم تكن ملزمة لمن اشترك فيها. فقد كان يعتقد ان الرسول اختاره للأمة وليا لأمورها من بعده، وان اختيار الرسول ملزم للأمة. فليس لها ان تختار شخصا آخر. ولو لم يكن الأمام يرى ذلك لما استحل لنفسه ان يستنصر الأنصار ويطلب منهم تغيير موقفهم بعد ان بايعوا

لأن البيعة إذا صحت كانت عقداً يجب الوفاء به. وما كان ابن ابي طالب بالذي يدعو الناس الى نقض عقد يراه صحيحا. وقد كان يصحب زوجته الزهراء ويذهب واياها الى بيوت الأنصار وكانت تطلب منهم بالحاح ان يعيدوا النظر في موقفهم.

وقد قال معاوية في احد كتبه الى الامام: «واعهدك امس تحمل قعيدة بيتك ليلا على حمار، ويداك في يدي ابنيك الحسن والحسين يوم بويع ابو بكر الصديق. فلم تدع احدا من اهل بدر والسوابق الا دعوتهم الى نفسك ومشيت اليهم بابنيك واستنصرتهم على صاحب رسول الله...[٣]»

(٣) انه لم يكن يريد ان يثير حربا في سبيل الخلافة.

فهو بالرغم من اعتقاده بانه قد أضيع حقه لم يكن يحاول استرداده بالقوة. ولو اراد ذلك لما وجد اليه سبيلا. فالمكيون الا القليل منهم كانوا البآ عليه يرون فيه واترا وترهم في الآباء والأخوان والأبناء والاقرباء. اما الانصار فهم اقرب اليه ولكن ليس لديهم العزيمة على التضحية في سبيل قيادته. ومع ذلك فانهم دخلوا في عقد مع ابي بكر ويرون ان عليهم الوفاء به.

بلى، لقد كان لعلي من اعلام الصحابة افراد منهم سلمان الفارسي وابوذر والمقدار وعمار والبراء بن عازب والزبير بن العوام وما كان لهؤلاء مادة تدعمهم فيما يريدون. فرأى ان الصبر علما ما لا يريد هو الطريق المفتوح أمامه.

لقد كان من المعقول ان يستمر علي في معارضته السلبية مدة حياة ابي بكر.

---

(٣) شرح نهج البلاغة لأبن ابي الحديد مجلد ١ ص ١٣١

وكان بامكانه ان يستمر في تلك المعارضة. وقد استمر سعد بن عبادة في معارضته فلم يتمكن احد من اجباره على البيعة. ولكن ارتداد القبائل العربية كان كما اسلفت امرا فاصلا في موقف علي. فعلي كان يعارض معارضة هي خلو من الأنانية. مبعثها حرصه على الاسلام لا على الخلافة. وحينما اصبح الاسلام كدين مهددا بالردة الطارئة اصبح علي يرى ان من العبث ان يهتم بالتفاصيل في حين ان الأخطار تحيط بالاسلام جملة وتفصيلا.

وقد روى البلاذري ما يلي:

«لما ارتدت العرب مشى عثمان الى علي. فقال: يا ابن عم. انه لا يخرج احد الى قتال هذا العدو، وأنت لم تبايع. فلم يزل به حتى مشى الى ابي بكر. فقام ابو بكر فاعتنقا وبكى كل واحد الى صاحبه. فبايعه، فسر المسلمون وجد الناس في القتال وقطعت البعوث[٤]».

وقد تحدث الامام عن موقفه في تلك الظروف في رسالة بعث بها الى اهل مصر حينما ارسل اليهم مالك الاشتر واليا. ومما قاله في كتابه هذا:

«.... فامسكت يدي (عن بيعة ابي بكر) حتى رأيت راجعة الناس عن الاسلام يدعون الى محق دين محمد صلى الله عليه وآله. فخشيت ان لم انصر الاسلام واهله ان ارى فيه ثلما او هدماً تكون المصيبة به علي اعظم من فوت ولايتكم التي انما هي متاع ايام قلائل يزول منها ما كان كما يزول السراب او كما يتقشع السحاب. فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق واطمأن الدين وتنهنه[٥]».

---

(٤) انساب الأشراف ج ١ ص ٥٨٧ (نقله السيد مرتضى العسكري في كتابه عبد الله بن سبا ص ٧٣ - ٧٤).

(٥) نهج البلاغة جزء ٣ ص ١٩٨ - ١١٩.

ابو بَكر
يَستخلِف عُمَر

الفصل الثامن عشر

مات ابو بكر (رض) فانتهت حياة حافلة بجلائل الأعمال.
وكفاه ان يحقق في خلافته اموراً ثلاثة:

(١) أخمد ثورة المرتدين ومانعي الزكاة. واعاد القبائل العربية الثائرة الى حظيرة الإسلام. فأصبحت جنداً له بعدما كانت إلبا عليه.

(٢) امر بجمع سور القرآن وآياته، فجمع القرآن كاملاً غير منقوص.

(٣) دفع الإسلام الى ما وراء حدود شبه الجزيرة العربية. فقد توفي رحمه الله والجيوش الإسلامية تواجه الجيوش الفارسية في العراق والجيوش الرومانية في سوريا.

وحينما اشرف الخليفة الأول على الموت شاء ان يعهد الى رجل بعده. وحق له ان يفعل ذلك. بل كان من واجبه ان يفعل ذلك. انه مسؤول عن مصير دولة جديدة. ولا ينبغي ان يترك مصير قيادتها للصدف. ولقد كان من المعقول بل كاد يكون من المتوقع ان يعهد ابو بكر الى علي. فقد قيل سابقاً ان الخلافة الأولى تجاوزت عليا لأن البيعة وقعت بسرعة دون سابق تصميم. وانها وقعت دون حضور علي واخذ رأيه او ترشيحه لأنها كانت نتيجة عقد مؤتمر الأنصار في سقيفه بني ساعدة. وما كان من الممكن حضور علي لأنه كان مشغولاً بجنازة الرسول.

اجل لقد كان من المنطق ان لا تتجاوز الخلافة عليا هذه المرة لما له من مميزات على سواه من سبق في الإسلام وجهاد في سبيل الله لا مثيل له وشرف لا يضاهى وعلم لا ينضب ولتصريحات الرسول العديدة التي تدل على اختيار النبي اياه لقيادة الأمة. والامر غير مفاجىء والخليفة يستطيع ان يعهد لمن يشاء. ولكن هذالم يحدث ولم يحدث لسببين على الأقل:

(١) موقف قريش السلبي من علي. وقريش كانت تشكل طبقة أو أرستقراطية ذات نفوذ. واننا نخطىء إذا فكرنا ان مفاجأة مؤتمر الأنصار في سقينه بني ساعدة كانت السبب الأكر الذي جعل الخلافة الأولى تتجاوز عليا. والواقع ان السبب الأكبر في تجاوزها اياه هو رغبة قريش عنه..

وقريش كانت تقف ضده لأسباب: منها ما له من مميزات وقرابه خصيصة من الرسول. فلو وليها لما خرجت من بيته ولأوصد باب الخلافة في وجوه بقية قريش.

وقريش كانت تقف ضده لأنها تأبى ان تجمع لبني هاشم النبوة والخلافة. وقد حاربت القبائل القرشية الرسول حسدا لبني هاشم ان كان منهم النبي، دون بقية القبائل المكية. واذن فقد كان من المتوقع ان تقاوم قريش فكرة استخلاف علي بكلما اوتيته من قوة لأن خلافته تعني جمع النبوة والخلافة للهاشميين.

وإذا كان هذا الشعور القرشي هو الذي ابعد عليا عن الخلافة الأولى فان من المتوقع ان يزداد علي بعدا عن الخلافة مع مرور الزمن. ذلك ان نفوذ قريش لم يتضاءل ايام خلافة ابي بكر بل تزايد كثيراً. فقد اصبح الخليفة من قريش وأبرز وزرائه من قريش وكبار قادة الجيوش من قريش. ومن لم ترضه منهم خلافة ابي بكر في بدئها كأبي سفيان (لأنها خرجت من بني عبد مناف) اصبح راضيا كل الرضا بالوضع القائم لأن نفوذه ونفوذ ولده بدأ ينمو في الحكومة الجديدة.

(٢) لم يكن ابو بكر يرى في تصريحات النبي في شأن علي ما يلزم المسلمين بتأميره. ولو كان يرى ذلك لما اجاز لنفسه ان يكون الخليفة الأول. وإذ لم يكن يرى ذلك فإنه رأى لنفسه الخيار في ان يختار عليا او سواه من بارزي الصحابة. ولماذا يختار عليا وهو المعارض لخلافته. ولا يختار عمر بن الخطاب وهو اعظم الساعين الى بيعته واشدهم تأثيراً؟ انه كان صاحب مشروع بيعته ويده اليمنى في ايام خلافته ولديه الكثير من مؤهلات القيادة.

ومما يجدر ذكره ان مما شكاه علي عندما صالح ابا بكر ان ابا بكر استبد عليه بالأمر. وقد فاضت عينا ابي بكر حينما سمع منه ذلك. ومما يجدر ذكره ايضا ان فاطمة الزهراء وجدت على ابي بكر وكانت تحرض الانصار على العدول عن ابي بكر الى علي (وقد مر ذكر ذلك في كتاب

ارسله معاوية الى الامام في ايام خلافته).

وقد كان من اسباب وجدها على ابي بكر (بالاضافة الى امر الخلافة) ان ابا بكر منعها من فدك (مزرعة في منطقة خيبر) بالرغم من ان الزهراء طلبتها باصرار لأنها ترثها من رسول الله. وقد رفض ان يبقيها في يدها لما رواه من ان الرسول قال ان الأنبياء لا يورثون. وادى ذلك الى ان غضبت الزهراء فلم تكلمه الى ان توفيت[1]. وكان ابو بكر يهمه جداً ان يرضي الزهراء لأن الرسول (ص) قال: «فاطمة بضعة مني، فمن اغضبها اغضبني.» (روى ذلك البخاري في باب مناقب قرابة الرسول ومنقبة فاطمة).

أمام كل ذلك كان من المتوقع ان يسعى الخليفة الصالح لتحقيق ما كان رضي فاطمة ولو بعد ان انتقلت الى الرفيق الاعلى، اذ أن ارضاءها ارضاء للرسول فهي كما صرح (ص) بضعة منه. وما من شك بأن ابا بكر كان قادراً على ارضاء الرسول وابنته باستخلاف علي.

ولكن الخليفة لم يصنع شيئاً من ذلك، بل لم يستشر عليا ولا الهاشميين ولا اعلام الصحابة الذين كانوا يميلون الى علي، امثال عمار وابي ذر وسواهم، في امر الخلافة. ولم يسأل الاصحاب ان يشيروا عليه بواحد من اثنين او اكثر من المؤهلين. وانما استشار افرادا فيما يرونه في اهلية عمر. وكل الذين استشيروا كانوا من مؤيدي عمر.

ولماذا لا نسمي الأشياء باسمائها؟ لقد كان ابو بكر مدينا لعمر في مشروع بيعته وفي تثبيت خلافته وكان يده اليمنى مدة تلك الخلافة. وقد اراد ابو بكر الوفي لأصدقائه ان يرد لصديقه الحميم يده البيضاء نقول ذلك غير منتقصين من اخلاص الخليفة الأول ولا من اهلية الخليفة الثاني.

---

(١) روى ذلك البخاري في صحيحه ج ٥ - ص ١٧٨ ورواه مسلم في صحيحه. ج ١٢ باب حكم الفيىء ٧٧

لقد امر الخليفة وهو يجود بنفسه عثمان بن عفان ان يكتب عهدا املاه عليه، فكتب ما شاء املاءه وحينما وصل الى قوله «اني قد استخلفت عليكم» اغمي على الخليفة قبل ان يذكر اسم المستخلَف وحينما افاق استقرأه ما كتب فإذا بعثمان قد اضاف الى كلمات الخليفة كلمة من عنده. لقد ذكر اسم عمر. وقد سر الخليفة بذلك. وبالطبع كان الخليفة الجديد (عمر) اشد سروراً بصنيع عثمان وقد حفظ لعثمان هذه اليد البيضاء. وجزاه عنها بما يشبهها لدى انتهاء خلافته.

في عهد عمر
(رض)

الفصل التاسع عشر

(١)

كان الخليفة الثاني (رض) اعظم الخلفاء تأثيراً في توجيه سياسة العالم الإسلامي واحداثه.

لقد كانت ايام خلافته مليئة بجلائل الأعمال والحوادث الجسام. ولو أردنا ان نكتب عن انجازاته لأحتجنا الى مجلد ضخم. وإذ نود ان نجمل بايجاز، فمن الممكن ان نقول انه إذا كانت سياسة رجل الدولةعادة تقسم الى داخلية وخارجية فان سياسة عمر كانت كل ذلك وكانت بالإضافة الى ذلك تنقسم الى ماض وحاضر ومستقبل. ذلك ان تأثيرها لم ينحصر في زمن خلافته بل امتد الى ما قبلها واثر في ما بعدها تأثيراً بعيداً.

في السياسة الخارجية

لقد نجح الخليفة الثاني في الحقل الخارجي الى حد بعيد وقد بهر نجاحه في هذا الحقل اعين المؤرخين من مسلمين وغير مسلمين. اصطدمت جحافل المسلمين في ايامه مع الفرس فافتتحت العراق كله سواده وجباله وافتتحت فارس بما فيها الأهواز وآذربيجان. واصطدمت جحافل مسلمة اخرى مع الروم فافتتحت سوريا ومصر. وهكذا تمكنت الجيوش الإسلامية تحت قيادة عمر من تحطيم اكبر امبراطوريتيين وجدتا في عصره.

وغني عن القول ان الفتح الروحي الذي رافق الفتح المادي كان اعظم منه.

وفي سياسته بالنسبة الى غير المسلمين من سكان الأرض المفتوحة وضع الخراج على الأرض وضريبة عادلة على الرؤوس. ولم يظلم في حكمة اي من اتباع الاديان الأخرى، بل خفظت حقوقهم وحرياتهم. والتاريخ يذكر قوله لعمرو بن العاص عاملة على مصر حين ضرب ابنه قبطيا: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احرارا.

في السياسة الداخلية

وفي السياسة الداخلية لم يكن الخليفة اقل نجاحا منه في السياسة الخارجية في كثير من المجالات. وإذا اردنا ان نلم بسياسته الداخلية باختصار فمن الجدير ان

نقول ان منها ما يتعلق بسياسته مع نفسه وعائلته الخاصة ومنها ما يتعلق بالمسلمين عامة ومنها ما يتعلق برفاقه من اصحاب الرسول. ومنها ما يتعلق بعلاقته مع اهل بيت الرسول.

مع عائلـته

اما سياسته في نفسه وعائلته فقد كانت مثالية الى حد بعيد. لقد كانت مئات الملايين من الدراهم تأتي الى خزانة الدولة وكان هو فيها آمراً مطلقاً ولكنه عاش وعائلته عيش الفقراء. وقد أثر عنه قوله:

«إني أنزلت نفسي من مال الله منزلة ولي مال اليتيم. إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت اكلت بالمعروف.»

مع عامـة المسلـمين

اما بالنسبة الى عامة المسلمين فقد كانت سياسته تتصف بالعدل والشدة والترفيه عن الناس، والأنفاق الكافي على الجنود وعائلاتهم وعلى سكان المدينة وسواهم.

مع الاصحـاب

وأما الأصحاب فانه انزلهم على منازلهم من سبق الى الإسلام وماضي جهاد. ومع ذلك فإنه حدَّ من حرية الأصحاب المهاجرين. فلم يسمح لهم بان يقيموا في غير المدينة، خوفاً عليهم من الفتنة بالمال او خوفاً من ان يستغلوا ماضيهم المجيد فيكثروا انصارهم ويقوى نفوذهم ويصبحوا خطراً على وحدة الدولة التي اصبحت مترامية الأطراف. ومما يؤثر عنه قوله:

« اني قائم دون شعب الحرة، آخذ بحلاقيم قريش وحجزها ان يتهافتوا في النار.»

وهكذا بقي الأصحاب الطامحون تحت مراقبته في المدينة مدة خلافته.

مع اهل البيت

اما سياسته بالنسبة الى اهل البيت فقد كانت مزيجاً من حب واعجاب

وحذر. فهو لم يول ايّاً من الهاشميين ولاية أو قيادة. ولكن الجفاء الذي بدأ بين علي وبينه بعد وفاة الرسول واستمر طيلة ايام ابي بكر قد تبدل الى صداقة توطدت اواصرها بتطاول سني عمر. فقد اصبح عمر يرجع الى علي في الملمات والمعضلات. وكان يجد لدى علي الرأي السديد وحلول المعضلات، لقد بلغ عمر ان الفرس قد حشدوا للمسلمين اضعاف اعدادهم، فرأى ان يذهب لقتال الفرس بنفسه تقوية لمعنويات الجيش الاسلامي وحينما استشار الامام في ذلك نهاه ومحضه خالص النصيحة في كلمات ننقلها بطولها لخلود محتواها وصدقها في كل زمن. قال له:

«إن هذا الأمر لم يكن نصرُه ولا خذلانه بكثرةٍ ولا قلة. وهو دين الله الذي اظهره وجُنْدُه الذي اعدّه وامدَّه، حتى بلغ ما بلغ وطلع حيث طلع. ونحن على موعود من الله. والله منجز وعده وناصرٌ جندَهُ. ومكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمه. فإن انقطع النظام تفرق وذهب. ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً. والعرب اليوم وإن كانوا قليلا منهم كثيرون بالإسلام وعزيزون بالإجتاع. فكن قطبا، واستدر الرحى بالعرب. وأصلهم دونك، نار الحرب. فإنك ان شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من اطرافها واقطارها. حتى يكون ما تدع وراءك من العورات اهمَّ إليك مما بين يديك.

«ان الأعاجمَ ان ينظرُوا إليك غدا يقولوا هذا اصلُ العربِ فإذا قطعتموه استرحتم. فيكون ذلك اشدَ لكلبهم عليك وطمعهم فيك. فاما ما ذكرت من مسير القوم الى قتال المسلمين، فان الله سبحانه هو اكرَهُ لمسيرهم منك. وهو اقدر على تغيير ما يكره. وأما ما ذكرت من عددهم فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة. وإنما كنا نقاتل بالنصر والمعونة.»[١]

---

(١) نهج البلاغة ج ٢ ص ٢٩ - ٣٠

اعجابه بفقه علي

وكان معجبا بفقه علي وعلمه ايّما اعجاب. وقد اثر عنه قوله: لا يُفتِيَنَّ احد في المسجد، وعلي حاضر.» وكان يقع في اخطاء فقهيه فيرده علي الى الصواب البين. فقال اكثر من مرَّة: «لولا علي لهلك عمر.». وقد اعرب عن حاجته الماسَّة الى علم علي فيما يطرأ من معضلات بقوله: «لا بقيت لمعضلة ليس فيها ابو حسن.»

ومما يروى انه جيء الى عمر بامرأة اتهمها اناس بالزنا وهي متزوجة لأنها ولدت ولدا لستة اشهر. فأمر عمر برجمها فقال له علي:

« يا أمير المؤمنين، لو خاصمتك المرأة بكتاب الله لخصمتك. ان الله تعالى يقول: وحمله وفصاله ثلاثون شهرا. ويقول جل قائلا: «والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين لمن أراد ان يتم الرضاعة... فإذا تمت المرأة الرضاعة وكان حمله وفصاله ثلاثين شهراً، كان الحمل ستة اشهر يا امير المؤمنين». فخلى عمر سبيل المرأة.

ومما يدل على شدة اعجابه بعلي ان عليا جلس معه مرة في المسجد وعنده اناس. فلما قام علي عرَّض واحد بذكره، ونسبه الى التيه والعجب. فقال عمر: « حق لمثله ان يتيه. والله لولا سيفه لما قام عمود الإسلام. وهو بعدُ أقضى هذه الأمة وذو سابقتها وذو شرفها »فقال له ذ لك القائل: فما منعكم يا امير المؤمنين عنه (عن استخلافه) قال عمر:« كرهناه على حداثة السن وحبه لبني عبد المطلب.»

وليس يعني ذلك ان عمر كان يستشيره في كل امر أو يتبع كل آرائه في الفقه. فقد كان عمر شديد الإستقلال في الراي. وقد بدا احيانا وهو يرى غير ما يراه الرسول الأعظم. فالرسول جعل من واجب من لم يسق الهدي في حجه ولم يكن اهله حاضري البيت الحرام ان يحج حج التمتع بأن يحل من احرامه بعد ان يطوف بالبيت ويسعى بين الصفا والمروة. ثم تحل له النساء الى ان يحرم بالحج ثانيا قبل الذهاب الى عرفات. واحل الرسول متعة النساء الى اجل. ولكن عمر ارتأى ان يمنع المتعتين وان يعاقب اشد العقوبة (بالرجم) من تمتع امرأة الى اجل. وقد روى مسلم في صحيحه عن ابي نضره ما يلي:

«كان ابن عباس يأمر بالمتعة وكان ابن الزبير ينهى عنها فذكرت ذلك لجابر بن عبد الله (الإنصاري) فقال: على يدي دار الحديث. تمتعنا مع رسول الله. فلما قام عمر قال: ان الله كان يحل لرسوله ما شاء بما شاء. وان القرآن قد نزل منازله. فاتموا الحج والعمرة لله كما امركم الله (بدون احلال من الإحرام قبل الذهاب الى عرفه). وَأَبِتُّوا (كفوا عن) نكاح هذه النساء. فلن أوتى برجل نكح امرأة الى أجل الا رجمته بالحجارة»[٢]

ان قوله: ان الله كان يحل لرسوله ما شاء بما شاء يدل على ان الرسول احل نكاح النساء الى اجل معين ولم يحرم ذلك فيما بعد. ولو حرم الرسول المتعة بعد تحليلها لذكَّر الخليفة الاصحاب بتحريمها. وقوله: وأبتُّوا نكاح هذه النساء يدل على ان الاصحاب والمسلمين كانوا لا يزالون يتمتعون ايام عمر؛ والا لما امرهم بأن يكفوا عن ذلك. ولو كان الرسول حرم ذلك بعد ان احله لما بقي الاصحاب يمارسونه بل كانوا كفُّوا عن ذلك في زمن الرسول ولم يكن عمر بحاجة ليأمرهم بالكف عنها في زمنه او ان يهدد ممارس المتعة بالرجم وهو القتل رمياً بالحجارة. وفي شأن حج التمتع اعلن رسول الله في حجة الوداع:

«لو اني استقبلت من امري ما استدبرت لم اسق الهدي وجعلتها عمره. فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل (من احرامه) وليجعلها عمرة. فقام سراقة بن مالك بن جشم، فقال يا رسول الله ألعامِنا هذا أم لأبد؟

فشبك رسول الله اصابعه واحدة في الاخرى وقال: دخلت العمرة في الحج (يكرر ذلك مرتين). لا بل لأبد الأبد».[٣]

وهكذا ادى استقلال الخليفة برأيه وشدة اجتهاده الى النهي عن حج التمتع وتجويز قتل ممارس متعة النساء الى اجل بالرغم من ان الرسول امر بحج التمتع ورخص بالزواج الى اجل. ومن كان له مثل هذا الاستقلال في الرأي لن ينتظر

---

(٢) ج ٨ ص ١٦٩

(٣) نفس المصدر ص ١٧٨ - ١٧٩

منه ان يستشير عليا في كل مشكلة أو ان يأخذ بكل آرائه. ولكنه على كل حال كان يرى عليا اعلم الصحابة واحراهم بان يكون المرجع في المعضلات.

وبالرغم من تحسن العلاقات بين الامام والخليفة الثاني الى درجة ادت الى مصاهرة بينهما (اذ تزوج عمر ام كلثوم ابنة علي) فأن التاريخ لا يحدثنا عن اي حوار جرى بين الرجلين في شأن ما شجر بينهما من خلاف في ايام خلافة ابي بكر. بلى ان عمر تحدث الى ابن عباس في هذا الشأن اكثر من مرة. وقد بدا الخليفة في اكثر تلك الحوارات مستصوباً ما جرى.

حواره مع ابن عباس

قال لابن عباس يوما (وقد ذكرنا هذا وما يليه في الفصل الخامس عشر): «كرهت قريش ان تجمع لكم النبوة والخلافة فتجحفوا بالناس جحفا. فنظرت قريش لأنفسها فاختارت. ووفقت، فاصابت.» واجابه ابن عباس قائلا: «اما قولك ان قريشا كرهت (ان تجمع النبوة والخلافة)، فأن الله وصف قوما بالكراهة فقال: ذلك بأنهم كرهوا ما انزل الله فاحبط اعمالهم. واما قولك ان قريشا اختارت لأنفسها فاصابت ووفقت. فلو أن قريشا اختارت لأنفسها حين اختار الله لها لكان الصواب بيدها غير مردود ولا محسود...»[٤]

الصواب بيدها غير مردود ولا محسود...»[٤]

وقال عمر لابن عباس في حوار آخر:

«لقد كان من رسول الله ذرو من قول (ثناء عال في شأن علي) لا يثبت حجة ولا يقطع عذرا... ولقد اراد في مرضه ان يصرح باسمه فمنعت من ذلك اشفاقا وحيطة على الاسلام. لا ورب هذه البنية (الكعبة) لا تجتمع عليه قريش ابدا. ولو وليها (الخلافة) لانتقضت عليه العرب من اقطارها...»[٥]

وعن ابي جعفر محمد بن حبيب ان ابن عباس روى ان عمر قال له:

(٤) الكامل لابن الأثير ج ٣، ص ٣١

« يا ابن العباس، لقد اجهد هذا الرجل نفسه في العبادة حتى خلته رياء. قال ابن عباس: فقلت من هو؟ فقال: هذا ابن عمك (يعني عليا). قلت وما يقصد بالرياء يا أمير المؤمنين؟ قال عمر: يرشح نفسه بين الناس للخلافة. قلت: وما يصنع بالترشيح؟ قد رشحه لها رسول الله (ص) فصرفت عنه. قال: انه كان شابا فاستصغرت العرب سنة وقد كمل الآن. الم تعلم ان الله لم يبعث نبيا الا بعد الأربعين؟قلت يا امير المؤمنين، اما اهل الحجى والنهى فانهم ما زالوا يعدونه كاملا منذ رفع الله منار الإسلام. ولكنهم يعدونه محروما مجدودا. فقال: أما انه سيليها بعد هياط ومياط ثم تزل فيها قدمه ولا يقضي منها اربه. ولتكونن شاهداً يا عبدالله. ثم يتبين الصبح لذي عينين، وتعلم صحة رأي المهاجرين الأولين الذين صرفوها عنه...»[٦]

ثم يبدو في حوار آخر وكأنه يشعر بوخز ضمير فقد قال لابن عباس وهو يماشيه في سكة من سكك المدينة: « ما ارى صاحبك (عليا)الاّ مظلوما. » فاجابه ابن عباس:

يا أمير المؤمنين فاردد اليه ظلامته. فانتزع يده من يده ومضى يهمهم ساعة ثم وقف. يقول ابن عباس: فلحقته فقال: يا ابن عباس، ما اظنهم منعهم عنه الا انه استصغره قومه. فقلت والله ما استصغره الله ورسوله حين امراه ان يأخذ (سورة) براءة من صاحبك (ابي بكر. حينما كان ذاهبا ومعه براءة لينادي بها في الحج) فاعرض عني واسرع، فرجعت.[٧]

وفي حديث آخر له مع ابن عباس بدا اكثر لينا في شأن الخلافة. فقد قال له:

« .... ولعلكم تقولون: ان ابا بكر أول من اخركم. اما انه لم يقصد ذلك. ولكن حضر امر لم يكن بحضرته احزم مما فعل. ولولا رأي ابي بكر فيَّ لجعل لكم من الأمر نصيبا. ولو فعل ما هنأكم مع قومكم (قريش). انهم ينظرون إليكم نظر الثور الى جازره.»[٨]

---

(٥) (٦) (٧) (٨) نقل هذه المحاورات ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة مجلد ٣ - صفحات ٩٧ - ١١٥ - ١٠٥ - ٩٤ (لاحظ ترتيب الارقام والصفحات).

في كل هذه المحاورات نجد الخليفة الثاني يقر ضمنا او صراحة بان عليا كان خيرة الرسول او مرشحه. فهو لم ينكر على ابن عباس قوله:

« لو ان قريشا اختارت لأنفسها حين اختار الله لها لكان الصواب بيدها غير مردود ولا محسود.» وقوله: « قد رشحه لها رسول الله فصرفت عنه.» وعمر نفسه قال له: « ما ارى صاحبك إلاَّ مظلوما.»

وفي كل هذه المحاورات نرى الخليفة يذكر ان ما منع الصحابة من اختيار علي للخلافة هو موقف قريش غير الودي من علي. وفي الوقت نفسه يبدو بوضوح ان عمر نفسه كان يشاطر قريشا رأيها في علي ويستصوبه. ويرى ان قريشا اختارت لأنفسها فوفقت واصابت.

(٣)
ابعاد السياسة العمرية

ان موقف الخليفة الثاني من قريش وتفكيرها كان بعيد المصائر والنتائج. وقد ذكرنا آنفا ان السياسة العمرية تمتاز عن سياسة كثير من رؤساء الدول بأن تأثيرها لا يقتصر على ايام حكم بل يمتد الى ما قبل عهده والى ما بعد عهده حيث وجهت سياسته مستقبل سياسة العالم الإسلامي الى امد بعيد.

نفوذه في عهد ابي بكر

لقد امتد تأثير سياسة عمر الى ما قبل عهده. فهو صاحب مشروع بيعة أبي بكر والساعي الأكبر لها والعامل الفعال في انجازها. والحادثة التالية ترينا مدى تأثير عمر في تسيير الأمور ايام خلافة ابي بكر.

جاء عيينةبن حصن والأقرع بن حابس الى ابي بكر فقالا:

« يا خليفة رسول الله، ان عندنا أرضا سبخة ليس فيها كلأ ولا منفعة. فإن

رأيت ان تقطعناها، لعلنا نحرثها ونزرعها ولعل الله ينفع بها بعد اليوم. فقال ابو بكر لمن حوله من المسلمين: ما ترون؟ قالوا: لا بأس. فكتب لهما بها كتابا وأشهد فيه شهودا.

ولم يكن عمر حاضرا فانطلقا اليه ليشهد في الكتاب. فوجداه يهنأ (يطلي بالقطران) بعيرا. فقالا: ان خليفة رسول الله كتب لنا هذا الكتاب، وجئناك لتشهد على ما فيه. أفتقرأه ام نقرأه عليك؟ قال: أعلى الحال التي تريان؟ ان شئتما فاقرآه وان شئتما فانتظرا حتى افرغ. قالا: بل نقرأه عليك فلما سمع ما فيه أخذه منهما ثم تفل فيه فمحاه. فتذمرا وقالا له مقالة سيئة. فقال: ان رسول الله (ص) كان يتألفكما، والإسلام يومئذٍ ذليل. وان الله اعز الاسلام، فاذهبا فاجهدا جهدكما. لا رعى الله عليكما ان رعيتما. فذهبا الى ابي بكر وهما يتذمران فقالا: والله ما ندري أنت أمير أم عمر. فقال: بل هو لو كان شاء.

« وجاء (عمر) وهو مغضب حتى وقف على ابي بكر. فقال: اخبرني عن هذه الأرض التي اقطعتها هذين. اهي لك خاصة أم بين المسلمين عامة؟ قال (ابو بكر): بل بين المسلمين عامة. قال: فما حملك على ان تخص بها هذين دون جماعة المسلمين؟ قال استشرت الذين حولي فاشاروا بذلك. قال (عمر): فكل المسلمين او سعتهم مشورة ورضى؟ فقال ابو بكر: قد كنت قلت لك: انك اقوى على هذا الأمر مني لكنك غلبتني.ومن الصعب ان نفهم لماذا طلب رحمه الله من ابي بكر ان يوسع المسلمين مشورة من اجل اقطاع ارض سبخة لا تنبت شيئاً ولم يطلب من ابي بكر ولا من نفسه ان يوسع المسلمين مشورة في البيعة لأبي بكر. والخلافة اهم الأمور للمسلمين.وعلى كل فان الحادثة تدل على نفوذه المدهش في ايام خلافة ابي بكر.[٩]

وفي ايام الرسول

ولم يمتد تأثير السياسة العمرية الى ايام خلافة ابي بكر فحسب. بل امتد الى

---

(٩) نقل هذه المحاورة ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة مجلد ٣ صفحة ١٠٨.

ايام الرسول (ص). وقارئو الصحاح يعرفون كيف ان النبي اراد ان يكتب في مرضه كتابا لن تضل امته بعده، فعارض عمر في ذلك اشد المعارضة، وقال ان النبي غلبه الوجع. وبذلك حرم المسلمون من وثيقة نبوية تنير لهم طريق مستقبلهم الطويل وتكون امانا لهم من الضلال.

تأثيره في مستقبل السياسة الإسلامية

أمَّا تأثير السياسة العمرية في توجيه مستقبل السياسة الإسلامية بعد خلافته فيمكن ان يرى بوضوح في اجراءات جريئة اتخذها وهو يرى في اتخاذها مصلحة للأمة فكان لها نتائج خطيرة جداً في مجرى الأحداث من بعده.

التفضيل في العطاء

(منها): ان ارتأى ان يفضل بعض المسلمين على بعض في العطاء بالرغم من ان الرسول قسم بين المسلمين بالسوية. وكذلك فعل ابو بكر. لقد جعل عمر الناس درجات في العطاء. وحينما سئل عن ذلك. قال كلمته المأثورة:

« لا اجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل مع رسول الله. » فبدأ بمن شهد بدراً من المهاجرين والأنصار ففرض لكل رجل منهم خمسة آلاف درهم في السنة. وفرض لمن شهد أُحُداً اربعة آلاف ولأبناء البدريين الفين الفين إلاَّ حسناً وحسينا فانه الحقهما في العطاء بابيهما لقرابتهما من الرسول. وكذلك فرض للعباس عم الرسول. وفرض لكل من ازواج الرسول اثني عشر الف درهم.

وفرض لمن هاجر الفتح ثلاثة آلاف ولمسلمة الفتح الفين الفين. ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم للقرآن وجهادهم. ثم جعل من بقي من الناس بابا واحدا فالحق من جاءهم من المسلمين بالمدينة في خمسة وعشرين ديناراً لكل رجل. وفرض لأهل اليمن وقيس بالشام والعراق اعطيات تتراوح بين الفين وثلاثمأة درهم. ولم ينقص احداً عن ثلاثمأة.[10]

(١٠) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٣ ص ٢٩٦ - ٢٩٧

لم يرد الخليفة بتفضيله اهل الجهاد والسبق في الإسلام الا خيرا. وكان له مبرر في اعطاء اقرباء الرسول زيادة عن سواهم وكان ينبغي ان يعطيهم اكثر مما اعطاهم لأنهم ذوو القربى الذين حرم الله عليهم اخذ الصدقات وفرض لهم في القرآن سدس خمس الغنائم على الاقل:

﴿وَاعْلَمُوْا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَه وَلِلرَّسُوْلِ وَلِذِيْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِيْنِ وَابْنِ السَّبِيْلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ. وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْر.﴾[11]

أما تفضيله البدريين على الأحديين والأحديين على من اسلم قبل الفتح ومن اسلم قبل الفتح على من اسلم يوم الفتح ومن اسلم يوم الفتح على من اسلم بعد الفتح فمن الصعب تبريره شرعيا بعد ان قسم رسول الله بين المسلمين بالسوية.

ان قول الخليفة: «لا اجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل مع رسول الله» جملة خطابية شعرية جذابة وصحيحة إذا قصد منها التفاضل في المكانة والرتبة. ولو كان ما فاضل الخليفة به بينهم ملكا له ومن ماله لصح التفضيل دون شك. أما حين يكون التفضيل بينهم في العطاء من مال يملكه المسلمون كلهم بالسوية (وهذا ما دل عليه التقسيم النبوي). فان التفضيل يكون في الحقيقة اعطاء للمجاهدين الأولين زيادة هي ملك لسواهم. ولو كانوا يستحقون الزيادة التي فضلوا بها لما حرمهم رسول الله منها. لأنها لو كانت حقاً لهم لكان على الرسول ان يعطيهم اياها لا ان يعطيها لسائر المسلمين. لأنه يكون بذلك قد قسم بين عامة المسلمين الزيادة التي كانت حقا من حقوق المجاهدين السابقين. وإذن فإما ان نقول بأن الرسول حرم المجاهدين الأولين من حقهم في الزيادة او نقول بأن عمر حرم عامة المسلمين من حقهم في المال الذي فضل به المجاهدين السابقين فأي القولين نختار؟!!

---

(١١) سورة الأنفال ٨١) آية ٤١

الطبقة المفضلة

وبصرف النظر عن مشروعية التفضيل في العطاء من الناحية القانونية فما من شك بأن التفضيل أدّى الى قيام طبقية مالية جديدة بين المسلمين.

ذلك ان اقلية من المسلمين استفادت من التفضيل فحصلت على اضعاف ما تحتاج من انفاق على عائلتها فاستثمرت الفائض من اموال اعطياتها في التجارة والأستملاك فأثْرت. ومع تطاول الزمن اصبحت ذات ثروات كبرى. اما الأكثرية من المسلمين فقد حصلوا على ما يسد حاجاتهم فحسب او على اقل من ذلك. فلم يتمكنوا من الأثراء.

وانقسم المجتمع الإسلامي نتيجة لهذا التفضيل الى طبقة اتخمها الثراء وطبقة اخرى تجد في متناولها ما يوصلها الى ما تحتاجه دون رفاهية وطبقة محرومة لا تكاد تصل الى الضروري من قوتها ولباسها. ومع ان نتائج هذا الإنقسام في المجتمع لم تظهر في ايام الخليفة الثاني فان الصراع الطبقي ظهر بكل عنفه في ايام خلافة عثمان.

وقد بدت لعيني الخليفة الثاني ملامح الشر في هذا الإنقسام الطبقي فقال في أواخر ايامه:

«لو استقبلت من امري ما استدبرت لأخذت من الأغنياء، فضول اموالهم فرددتها على الفقراء.»[١٢] ولم تمهل الأيام عمر ليفعل ذلك.

واهم من هذا كله ان المفضلين استمرأوا ما تمتعوا به من امتيازات وآمنوا بلزوم استمرار ما كانوا يتناولونه من زيادة في اعطياتهم. وحينما وصل علي الى الحكم واراد ان يعيد الى المحرومين حقوقهم ويرد الناس الى ما كانوا عليه ايام النبوة من قسمة بالسوية اعلن المفضلون الثورة عليه متذرعين بشتى الوسائل لقتاله محافظة على امتيازاتهم، ولم لا؟ لقد تمتعوا بتلك الإمتيازات ما يزيد على عشرين

---

(١٢) الفتنة الكبرى لطه حسين ج ١ - ص ١٠٨

عاما فاصبحوا يعتبرونها حقاً من حقوقهم الطبيعية. فلماذا يريد ابن ابي طالب ان يجردهم منها؟

- ٤ -

وضعه ذوي الطموح في مراكز القوة

ومن الاجراءات التي قام بها الخليفة الثاني وكان لها نتائجها الخطيرة بعد مضي عهده توليته رجالا من قريش كانوا قد عرفوا بطموحهم السياسي ورقة تدينهم.

ولى الخليفة عمراً بن العاص بلاد مصر. وعمرو هذا كان من اشد اهل مكة عداء وايذاء للنبي قبل اسلامه الذي جاء متأخرا. وما اسلم إلاَّ بعد ان رأى بدهائه ان كفة الرسول واتباعه هي الراجحة.

وقد هجا النبي قبل اسلامه بسبعين بيتا من الشعر. فاستنزل عليه النبي من ربه من اللعنات ما يساوي عدد حروف تلك الابيات.

وقد بدا كيد عمرو للاسلام فيما بعد، اذ كان من قادة الفتنة ايام عثمان ومن اشد المؤلبين عليه. ثم كان بعد قتل عثمان الرجل الثاني في الفئة الباغية التي قاتلت امام الهدى علياً في حرب صفين المبيدة.

توليته بني امية

وقد ولى الخليفة الثاني يزيد بن ابي سفيان على الشام ومنطقتها. ولما مات يزيد ولى الخليفة اخاه معاوية بن ابي سفيان مكانه. ومن بعد ذلك ضم الى معاوية منطقة الاردن. فاصبح معاوية واليا على الشام والأردن[١٣] وبذلك بدأ سلطان معاوية ينمو سياسيا وعسكريا. وقد بلغ معاوية من الخطورة في ايام عمر، انه لما طعن لأهل الشورى، فيما رواه ابن عباس:

---

(١٣) نفس المصدر ج ١ ص ١١٨

« .... وان تحاسدتم وتباعدتم وتدابرتم وتباغضتم غلبكم على هذا الأمر معاوية بن ابي سفيان.»(١٤)

لم يول الخليفة على اي من الاقطار الإسلامية أيّاً من الهاشميين مع ان فيهم من الأكفاء مثل ابن عباس. وقد سئل يوماً لماذا لم يوله مع علمه ومقدرته. فأعرب عن خشيته من ان يتأول ابن عباس. ويظهر انه كان يخشى من ان يبيح ابن عباس لنفسه أو لذويه ان يأخذوا من المال بعضا او كلاً مما فرضه الله في القرآن لذوي القربى من خمس الغنائم. ومن المعقول ان يكون قد خشي من ان يولي الهاشميين بعض الأمصار الإسلامية ما خشيه من اقامة المهاجرين الاولين خارج المدينة حيث منعهم من ذلك لئلا يكثر انصارهم ويقوى نفوذهم. وإذا عرف الناس في الأمصار بني هاشم كانوا اليهم اسرع لما لهم من الرسول من قربى.

لم يول عمر الهاشميين وكان يتوقع منه ان لا يولي الأمويين لأنه كان يعرف رقة تدينهم وماضيهم المظلم تجاه الرسول ورسالته.

بروز معاوية في عهده

لقد ولى معاوية ولم يعزله مع ما عرفه من طموحه ومطامعه وتعاظم قوته. ويظهر ان الخليفة اعجب بمقدرة معاوية على تصريف الأمور وضبطه للحدود المتاخمة لبلاد الروم. ولكن عمر كان في الوقت نفسه يعتقد بأن انتصار المسلمين وتقدمهم لا يعتمد على شخص او اشخاص مهما كان لهم من القوة. وان الله ينصر المسلمين بقوة الإسلام لا بقوة الأشخاص. ولذلك عزل خالداً بن الوليد عن القيادة في الجبهة السورية بعدما طار صيته. وولى مكانه ابا عبيدة بن الجراح ليعرف المسلمون ان الله ينصرهم دون حاجة الى قيادة ابن الوليد.

وكأن الخليفة اطمأن الى طواعية معاوية له فأراد ان يستفيد من ذكائه وتدبيره وهو في الوقت نفسه آمن من خطره لأنه ينصاع الى اوامره. وقد كان

(١٤) نقله ابن ابي الحديد في شرح النهج مجلد ١ ص ٦٢ عن كتاب العثمانية للجاحظ.

الخليفة مرهوب الشخصية، لايجرؤ اي من المسلمين على مخالفته. ولعل ما راه الخليفة من طواعية معاوية له انساه ما كان يعرفه عن خطر بني امية على مستقبل المسلمين. فقد سمع عمر من الرسول ما يوحشه منهم. قال يوما لأبن عباس انه سمع رسول الله يقول:

«ليصعدن بنو أمية على منبري. ولقد رأيتهم في منامي ينزون عليه نزو القردة. وفيهم أُنزل: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن...﴾[١٥]».

وقال عمر يوما للمغيرة بن شعبةً: يا مغيرة، هل ابصرت بهذه عينك العوراء منذ أصيبت؟ فاجابه المغيرة بالنفي. فقال له: اما والله ليعورن بنو أمية الإسلام كما اعورت عينك هذه، ثم ليعمينه حتى لا يدري اين يذهب ولا أين يجيء...»[١٦]

لم يكن حكم الامويين محتوما

ولعل ما سمعه الخليفة من الرسول في شأن بني امية جعله يؤمن بأن وصول الأمويين الى الحكم قضاء لا مرد له. فليسر في هذا الطريق وليولهم فإنهم على كل حال سيصلون الى ذلك. وهو في ذلك مستسلم الى القضاء.

ولعل ايمانه بأن وصول بني امية قضاء لا مرد له هو الذي حمله على قوله لابن عباس في حوار مر ذكره: «اما انه (عليا) سيليها بعد هياط ومياط. ثم تزل فيها قدمه ولا يقضي منها اربه. ولتكونن شاهدا يا عبدالله. ثم يتبين الصبح لذي عينين وتعلم صحة رأي المهاجرين الأولين الذين صرفوها عنه.»

---

(١٥) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد، ج ٢ – ص ٣٧٦ وفي الموضوع عدد من الروايات ذكرها الإمام الرازي في تفسيره الكبير في شرح معنى الشجرة الملعونة (في سورة بني اسرائيل).

اجل كان وصول بني امية الى الحكم معقولاً ومتوقعاً بعد ما اصبحوا جزء هاماً من جهاز الدولة واصبح اشدهم ذكاء اميراً على منطقة لها اهميتها الكبرى. وكان من المتوقع ان يكون وجود معاوية وامثاله احدى العقبات الكبرى التي كان يتوقع أن يواجهها علي لو وصل الى الحكم. والواقع ان العقبات كانت تتزايد والمصاعب تتراكم في طريقه. وقد استمرت تلك العقبات والمصاعب في تزايد مستمر بعد خلافة عمر رحمه الله حتى اصبح من المستحيل نجاح علي في الوصول الى حكم مستقر.

ولكن ذلك لم يكن سببه ضعف في علي بل كان سببه الأحداث التي مرت قبل وصوله الى الحكم وما كان من المحتم ان توجد تلك الأحداث. فهي احداث مردها الى اختيار الإنسان وارادته لا الى قضاء السماء المحتوم. فلو لم يول عمر معاوية ويستبقيه لما تمكن معاوية ان يكون عقبة في طريق علي.

معنى كلمات الرسول في بني امية

لقد أسيىء فهم ما قاله النبي في أمر الرؤيا التي رأى فيها بني أمية ينزون على منبره كالقردة. انه اراد ان ينذر الأمة ويحذرها من الوصول الى ذلك، لتأخذ الأمة طريقا لا توصل الأمويين الى منبر الرسول. ولكن الأمة اخذت الطريق الذي يوصلهم الى منبره.

وقد اخبر الرسول بأن ولده الحسين سوف يقتل. واخبر بأن علياً سوف يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين. واخبر عليا بأن الأمة سوف تغدر به. واخبر الزبير بأنه سوف يقاتل عليا وهو ظالم له. واخبر أم المؤمنين عائشة (رض) بأنها سوف تنبحها كلاب الحوأب وهي ناكبة عن الصراط وأنبأ المسلمين بأن الفئة الباغية من أمته سوف تقتل عمار بن ياسر.

وما اخبر الرسول بكل هذا ليقول للمسلمين ان هذا قضاء سماوي لا مرد له وانه ليس لإرادة الإنسان دخل في جلبه أو دفعه. وإلاّ لما كان اي من العصاة والقتلة والساعين الى الفتنة والناكثين والقاسطين والمارقين ملوما. ان ما اراد الرسول ان يقوله هو ان هذه الأحداث الخطيرة التي احزنه توقعها سوف تحدث

نتيجة لسوء اختيار اشخاص او فريق من امته.

لقد كان موقف النبي (ص) في اخباره الأمة عن تلك الأحداث الشريرة المتوقعة موقف الطبيب الذي يحذر شخصا ضعيف البنية بما سوف يصيبه من امراض ان لم يتخذ وسيلة وقائية يصفها له. فإذا رفض المريض ان يتخذ الوسيلة الوقائية ومرض من اجل ذلك لم يكن مرضه قضاء محتوما بل نتيجة لسوء تصرفه واختياره.

وهكذا، نجد أن الرسول انبأ امته بتلك الأحداث المريعة المتوقعة ووصف لهم الوسيلة الوقائية وهي اتباع كتاب الله وعترة الرسول. وقال لهم ان اتباع القرآن والعترة ليس امانا من تلك الأحداث والفتن فقط بل أمان للأمة من الضلال بكل انواعه.

ولكن الأمة لم تنتبه الى جدية تصريحات الرسول وابعادها. فتساهلت في الأمر. واخذت طريقا آخر ادى بها (وان لم يقصد قادة الطريق) الى معانقة تلك الأحداثِ وشرورها المستطيرة.

ولذلك فانا نرى ان الخليفة الثاني قد اخطأ حينما قال لابن عباس في حوار مر ذكره: «(ان عليا) سيليها بعد هياط ومياط. ثم تزل فيها قدمه ولا يقضي منها اربه... ثم يبين الصبح لذي عينين وتعلم صحة رأي المهاجرين الأولين الذين صرفوها عنه» فالواقع ان ما حدث لعلي لم يكشف عن صحة رأي المهاجرين الأولين بل كشف عن أخطائهم. فلو لم يصرفوها عن علي لما تلبدت كل تلك الغيوم في أفقه، ولا تكاثرت كل تلك الصعاب والعقبات في طريقه.

وقد كان من الممكن ان يصلح الأمر لعلي حتى بعد ان صرفت الخلافة عنه مرتين لو استعمل الخليفة الثاني نفوذه العظيم وهيبته الخارقة في ترويض قريش وتوجيههم نحو علي وتحبيبه اليهم.

وكان من الممكن ان يصلح الأمر لعلي لو لم توجد الطبقات الثلاث التي احدثها التفضيل في العطاء وادخال الأمويين في الحكم والمغالاة في تفضيل قريش.

وحتى بعد حدوث كل ذلك كان من الممكن ان يصلح الأمْر لعلي لو عهد اليه عمر بالخلافة عند موته ولم تكن الشورى او كانت الشورى ولم ترتب بالشكل الذي رتبت فيه. ولو صلح الأمر لعلي لصلح امر المسلمين. ولجنبوا كل الفتن التي قادهم اليها مقتل عثمان (رض).

الشورى[1]

الفصل العشرون

- ١ -

اغتيل الخليفة الثاني (رض) وهو يصلي لربه في مسجد الرسول الأعظم (ص). فانتهت بقتله حياة عملاق من عمالقة التاريخ حفلت ايام حكمه الذي لم يتجاوز عقدا من السنين بحوادث غيرت مجرى التاريخ. وانتهت حياته دون ان ينتهي نفوذه. ولم يمت دون ان يدفع الأمة التي حكمها الى مستقبل يحمل في طياته حوادث جساما كان مفتاحها الشورى التي اوصى بها وهو يجود بنفسه.

روى مسلم في صحيحه ان عبد الله بن عمر قال لأبيه « .... زعموا أنك غير مستخلف. وانه لو كان لك راعي ابل او راعي غنم ثم جاءك وتركها رأيت ان قد ضيع. فرعاية الناس اشد ». قال عبد الله: فوافقه قولي. فوضع رأسه ساعة ثم رفعه الي. فقال: « لئن لا أستخلف فان رسول الله لم يستخلف. وان أستخلف فان ابا بكر قد استخلف....[(١)]

لقد رفض الخليفة بادىء بدء ان يعهد الى شخص معين. وقد روى ابن الاثير في الكامل والطبري في تاريخه انه قيل لعمر: يا امير المؤمنين. لو استخلفت. فقال: « لو كان ابو عبيده حيا لا استخلفته وقلت لربي ان سألني: سمعت نبيك يقول انه امين هذه الأمة. ولو كان سالم مولى ابي حذيفة حيّاً لاستخلفته وقلت لربي ان سالني: سمعت نبيك يقول: ان سالما شديد الحب لله تعالى ». ورفض بشدة ان يستخلف ابنه عبد الله قائلا: كيف استخلف رجلا عُجز عن طلاق امرأته؟(او قال: لا يحسن طلاق امرأته؟...».

وقيل له مرة ثانية لو عهدت عهدا فقال: « قد كنت اجمعت بعد مقالتي ان انظر فأولي رجلا امركم هو أحراكم ان يحملكم على الحق (واشار الى علي). فرهقتني غشية فرأيت رجلا دخل جنة فجعل يقطف كل غضة ويانعة فيضمها اليه ويصيرها تحته. فعلمت ان الله غالب على امره. فما اردت ان اتحملها حياً وميتا. عليكم بهؤلاء الرهط الذين قال رسول الله انهم من اهل الجنة وهم: علي وعثمان وعبد

---

(١) ج ١٢ ص ٢٠٦

الرحمن وسعد والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله. فليختاروا منهم رجلا. فإذا ولوا واليا، فاحسنوا مؤازرته واعينوه». ولما خرجوا اشار العباس على علي ان لا يدخل معهم. فقال له علي: اني اكره الخلاف. فقال له العباس: إذن ترى ما تكره. هذا ولم يوضح لهم الخليفة الطريقة التي يختارون بها واحدا منهم للمنصب الذي سيشغر بموته.

وفي اليوم الثاني حدد الخليفة الطريقة التي يُنتَقى بها الخليفة بعده. فقال لمن حضر من الستة: «إذا مت فتشاوروا ثلاثة ايام وليصل بالناس صهيب. ولا يأتي اليوم الرابع الاَّ وعليكم امير. ويحضر عبد الله بن عمر مشيرا ولا شيء له من الأمر. وطلحة شريككم في الأمر (كان غائبا). فان قدم في الأيام الثلاثة فأحضروه امركم. وان مضت الثلاثة قبل قدومه فأمضوا امركم... وما اظن يلي إلاَّ احد هذين الرجلين: علي او عثمان. فان ولي عثمان فرجل فيه لين. وان ولي علي ففيه دعابة. واحرى به ان يحملهم على طريق الحق...»

وأمر أبا طلحة الأنصاري ان يختار خمسين رجلا من الأنصار ليقوموا باسلحتهم على اعضاء الشورى ليستحثوهم على انتقاء رجل منهم بعد دفن الخليفة. وقال له: «فان اجتمع خمسة وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف. وان اتفق اربعة وابى اثنان فاضرب رؤوسهما. وان رضى ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله بن عمر. فان لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع فيه الناس». وفي رواية إنه قال: «وان قَضَت ثلاثة ايام ولم يتفقوا على امر فاضرب اعناق الستة ودع المسلمين يختاروا لأنفسهم».

وقد اجتمع اعضاء الشورى بعد دفن الخليفة وتنازعوا. ويروى ان طلحة تنازل عن حقه لعثمان وان الزبير تنازل لعلي وتنازل سعد بن ابي وقاص لعبد الرحمن. وسواء صحت هذه الرواية او لم تصح فان من المعلوم ان عبد الرحمن اقترح ان يخرج نفسه من الأمر على ان يعطى حق اختيار احد الرجلين علي او عثمان ففوضه عثمان دون تردد. اما علي فلم يفوضه الا بعد ان اخذ عليه موثقا. ذلك ان عبد الرحمن كان صهرا لعثمان فهو زوج أخته لأمه ام كلثوم بنت عقبة بن

ابي معيط. وكان موثقه عليه: ان يؤثر الحق ولا يتبع الهوى ولا يخص ذا رحم ولا يألو الأمة نصحا.

وقد اشار سعد على عبد الرحمن (وكلاهما من بني زهرة) ان يأخذ البيعة لنفسه. فقال عبد الرحمن: «اني كرهتها وسأخلع نفسي منها لأني رأيت الليلة روضة خضراء كثيرة العشب فدخل فحل ما رأيت اكرم منه فمرَّ كأنه سهم لم يلتفت الى شيء منها حتى قطعها. لم يعرج ودخل بعير يتلوه. تابع اثره حتى خرج منها. ثم دخل فحل عبقري يجر خطامه ومضى قصد الأولين. ثم دخل بعير رابع فوقع في الروضة يرتع ويخضم. ولا والله لا اكون الرابع وإن احداً لا يقوم مقام ابي بكر وعمر فيرضى الناس».

واستشار عبد الرحمن اصدقاءه فيمن يولي. وبالطبع كان ميل عامة قريش الى عثمان وميل كبار الصحابة من غيرهم الى علي. واجتمع الى علي مرة والى عثمان اخرى. وحينما جاء اليوم الثالث كان بعد الرحمن قد عزم على الفصل في الأمر. فاجتمع الناس في المسجد صباحاً حتى التحم المسجد باهله. فقال: «ايها الناس، ان الناس قد اجمعوا ان يرجع اهل الأمصار الى أمصارهم فاشيروا علي». فقال عمار بن ياسر: ان اردت ان لا يختلف المسلمون فبايع عليا». وثنى على ذلك المقداد بن الأسود قائلا: صدق عمار: ان بايعت عليّاً قلنا: سمعنا واطعنا». وناقض هذين الصاحبين الجليلين اثنان من قريش. قال عبد الله بن ابي سرح: «إن اردت ان لا تختلف قريش فبايع عثمان». وثنى على ذلك عبد الله بن ابي ربيعة المخزومي قائلا: «صدقت. ان بايعت عثمان، قلنا سمعنا واطعنا». فتبسم ابن ابي سرح. فقال له عمار: «متى كنت تنصح للمسلمين»؟ وكان ابن ابي سرح قد اسلم في زمن الرسول ثم ارتد واهدر الرسول دمه. وتكلم بنو هاشم وبنو امية. وقال عمار يخاطب الجمع:

«ايها الناس، ان الله اكرمنا بنبيه واعزنا بدينه. فأنَّى تصرفون هذا الأمر عن اهل بيت نبيكم؟».

واجابه رجل من بني مخزوم، قائلا:

«لقد عدوت طورك يابن سمية. وما انت وتأمير قريش لا نفسها؟

وقال سعد بن ابي وقاص لابن عمه عبد الرحمن:

« يا عبد الرحمن، أفرغ قبل ان يفتتن الناس ».

وهنالك دعا عبد الرحمن عليا وقال له عارضا عليه الخلافة مشروطة بشرط جديد:

« عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين؟ »

واجابه علي بانه يعمل بكتاب الله وسنة رسوله. ورفض ان يعاهده على العمل بسيرة الشيخين، قائلا: « بل اجتهد برأيي ». وفي رواية: « ارجو أن اعمل بعلمي وطاقتي ».

وإذْ لم يوافق علي على شرط عبد الرحمن، دعا عبد الرحمن، عثمان وقال له ما قال لعلي. فقال عثمان: « نعم » وفي رواية ان عبد الرحمن عرضها على الرجلين ثلاثا وفي كل مرة كان علي يأبى وكان عثمان ينعم جوابا. فرفع عبد الرحمان رأسه الى سقف المسجد وقال: اللهم، اسمع واشهد اللهم اني جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان. فبايعه.

وعلق علي على ما حدث قائلا:

« ليس هذا باول يوم تظاهرتم فيه علينا (اهل البيت). فصبر جميل. والله المستعان على ما تصفون. والله ما وليته الأمر الا ليرده عليك. والله كل يوم في شأن » وقال علي لعبد الرحمن وعثمان: « دق الله بينكما عطر منشم ». فقال له عبد الرحمن: « لا تجعل على نفسك سبيلا » مذكرا اياه بان الخليفة الراحل امر بقتل المخالف. وخرج علي (بعد ان بايع) قائلا: « سيبلغ الكتاب اجله ».

اما عمار فقال لعبد الرحمن: « يا عبد الرحمن اما والله لقد تركته وانه من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون ». وتابعه المقداد قائلا:

« والله ما رأيت مثل ما أتي الى اهل هذا البيت بعد نبيهم. واعجباً لقريش. لقد تركت رجلا ما اقول ولا اعلم ان احدا اقضى بالعدل ولا اعلم ولا اتقى منه. أما لو أجد اعوانا. » فقال له عبد الرحمان:

«اتق الله يا مقداد. فأني خائف عليك الفتنة» ورد عليه المقداد بأن من يقحم الناس في الفتنة هو الذي يؤثر هواه على الحق[٢].

واذ عرفنا مجمل احداث الشورى، فان من الجدير ان نتدبر تلك الاحداث ونحاول ان نتفهم حناياها ومقاصدها وما ادت اليه من نتائج. وسيرى القارىء عددا من الملاحظات سجلت في الصفحات الآتية:

- ٢ -

اين ابو عبيده وسالم من علي؟

(١) لقد اعرب الخليفة عن انه لو كان ابو عبيده بن الجراح او سالم مولى ابي حذيفة حيّاً لما تردد في العهد الى احدهما لأنه سمع الرسول يقول: ابو عبيده امين هذه الأمة وسمعه ايضا يقول: سالم شديد الحب لله. ورفض ان يعهد الى علي بن ابي طالب وقد سمع من رسول الله في علي عشرات من التصريحات لم يسمع مثلها في اي صحابي آخر.

فإذا كان الرسول قال في ابي عبيده انه امين هذه الأمة فانه قال: «علي مني وانا من علي ولا يؤدي عني الا علي». ولم يكلف الرسول ابا عبيده ولا احدا من الأصحاب باداء الأمانات الى اهل مكة بعد هجرته ولكنه ائتمن عليها عليا وكلفه بأدائها وعلي يوم ذاك كان يجتاز اعظم الأخطار إذ بات على فراش الرسول يفديه بنفسه. ومع ذلك لم يرض عنه بديلا.

وإذا كان الرسول قال: «ان سالما شديد الحب لله». فانه لم يقل ان الله يحب سالما. ولكنه قال: ان الله اكرمني بحب أربعة واخبرني انه يحبهم. وذكر ان عليا منهم مكررا ذلك ثلاث مرات. وإذا كان الخليفة عمر لم يسمع ذلك من الرسول فانه سمع منه ما هو اعظم من ذلك إذ قال يوم خيبر، وقد عجز الجيش الاسلامي

---

(٢) اعتمدنا فيما نقلنا هنا من احداث الشورى على ما نقله ابن الأثير في الكامل ج ٣ ص ٣٢ - ٣٥ - وشرح النهج. مجلد ١ ص ٦٣ - ٦٥ - ناقلا عن الطبري

بقيادة ابي بكر ثم عمر عن فتح الحصون اليهودية:

«لأعطين الراية غدا الى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. يفتح الله على يديه» وقد قال عمر انه لم يتمن الأمارة الا ذلك اليوم لتكون كلمات الرسول فيه. فإذا بالرسول يعطي الراية صباحا الى علي بن ابي طالب ويشفي عينيه من الرمد بمعجزة وفي ذلك اليوم فتح الله على يديه.

وقد قال الرسول في علي ما هو اعظم من ذلك لقد قال له: «يا علي، اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاَّ انه لا نبي بعدي؟» وقال للألوف يوم الغدير: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه.» ومع كل هذه الشهادات النبوية فيه رفض الخليفة ان يعهد اليه وتمنى ان يكون ابو عبيده او سالم حيا ليعهد الى واحد منهما، من اجل انه سمع في كل واحد منهما كلمة واحدة من الرسول.

اضف الى ذلك ان المنطق يحملنا على الشك في صدور الشهادة لأبي عبيدة من الرسول على الوجه الذي يفهم منها. ان من الصعب ان نؤمن بان الرسول قال: ابو عبيده أمين هذه الأمة لأن ابا عبيدة لم يكن اكثر أمانة من علي أو ابي بكر او عمر. ربما يكون الرسول قال هذه الكلمة مازحاً. وربما يكون الرسول قال: ان ابا عبيده من أمناء هذه الأمة (وما اكثر الأمناء من اصحاب الرسول)، فاخطأ عمر (رض) السمع وقد اخطأ سمع عمر يوما فروى ان النبي قال الميت يعذب ببكاء اهله. فانكرت عائشة (رض) على ما رواه مسلم في صحيحة، ان النبي قال ذلك. وقالت ان الرسول قال: «الكافر يزيده الله عذابا ببكاء اهله». واستشهدت بالآية: «ولا تزر وازرة وزر اخرى». وحينما قيل لها ان عمر وابنه عبد الله رويا ذلك، قالت انكم تحدثوني عن غير كاذبين ولا مكذبين. ولكن السمع يخطىء.

(ج ٦- ص ٢٣٠- ٢٣٢)

الخلافة لغير قريش؟

(٢) وفي كلمات الخليفة امر آخر يدعونا الى العجب. فقد كان يرى ان الخلافة في قريش. وما اكثر ما تحدث عن ذلك في عهده وعهد أبي بكر. ومع ذلك اعرب عن استعداده لتولية سالم مولى ابي حذيفة وسالم ليس من قريش وليس له نسب في

العرب وانما جلب صبيا من اصطخر فاعتقته امرأة من الأنصار كانت تملكه وتولى هؤلاء ابي حذيفة. ولأنه لم يعرف اسم أبيه دعي سالما مولى ابي حذيفة[٣]. لقد اعرب الخليفة عن استعداده لتوليته بالرغم من كل ذلك ورفض ان يولي عليا وهو ابن عم الرسول ومن اتخذه الرسول من دون جميع المسلمين اخاً.

حرمه الانصار من حق الانتخاب

(٣) ان الخليفة اختار ستة من قريش اعطاهم وحدهم حق الترشح للخلافة واعطاهم وحدهم حق انتخاب الخليفة. والزم بقية الأمة بالسير وراءهم والأخذ بما يقررونه، فلم يكن للأمة ان تخالفهم. وقد ادخل معهم سابعا بصفة مستشار وكان ذلك المستشار قرشيا. وهو عبد الله بن عمر.

انه لم يدخل ايا من الأنصار بصفة منتخب او بصفة مستشار على الأقل. وإذا كان من اللازم ان يكون الخليفة قرشيا، فإنه خليفة لجميع المسلمين لا للقرشيين وحدهم. وإذا لم يكن للأنصار حق في الخلافة فان الاسلام أبقى لهم ولغيرهم من المسلمين حق الأشتراك في الانتخاب على الأقل. ولكن الأنصار على عكس قريش، كانوا يميلون الى علي فلو وجد منهم اعضاءلرجحواكفته. وهذا ما لم يرده الخليفة.

ميول الاعضاء

(٤) ان الكيفية التي اختارها الخليفة الراحل لأنتقاء اعضاء الشورى للخليفة الجديد كانت توحي باتجاه معاكس لعلي. فحصرها بالأعضاء الستة، وهم ذوو ميول يعرفها الخليفة، كان يوحي بان عليا لن يكون الخليفة. عثمان يريدها لنفسه وعبد الرحمن صهره وزوج اخته. وسعد ابن عم لعبد الرحمن وطلحة بن عبيد الله التيمي بعيد عن علي لما كان بين هاشم وتيم من علاقة غير ودية منذ بويع ابو بكر. فالأكثرية كانت ضد علي.

---

(٣) الفتنة الكبرى ج ١ ص ٣٧

وقد ادرك علي ذلك فوراً حينما سمع الخليفة الراحل يعطي الستة تعليماته بكيفية انتقاء الخليفة. لقد قال علي لمن معه من بني هاشم بعد خروجه من بيت عمر: «ان اطيع فيكم قومكم (قريش) لم تؤمَّروا ابدا». وقال لعمه العباس: «لقد عدلت عنا... قرن (عمر) بي عثمان، وقال: كونوا مع الأكثر. فان رضي رجلان رجلا ورجلان رجلا فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن. فسعد لا يخالف ابن عمه (عبد الرحمن). وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون فيوليها احدهما الآخر. فلو كان الآخران معي لم ينفعاني[4]».

وقد تحدث الامام عن ذلك بمرارة في أيام خلافته فقال في خطبته (المعروفة بالشقشقية):

«حتى اذا مضى لسبيله جعلها في جماعة زعم اني احدهم. فيالله وللشورى!!! متى اعترض فيَّ الريب مع الاول منهم حتى صرت اقرن بهذه النظائر؟ ولكني اسففت اذ أسفُّوا وطرت اذ طاروا. فصغى رجل منهم لضغنه ومال الآخر لصهره. مع هن وهن....» (نهج البلاغة، ج ١) ص ولو وسع الخليفة عضوية الشورى واضاف الى الستة اثنين او ثلاثة ممن يميلون الى علي لبقي طريق الخلافة مفتوحا لعلي.

هلاّ امرهم ان يكونوا مع فريق اخ الرسول؟

ولقد اعرب الخليفة اكثر من مرة وهو يجود بنفسه عن اعتقاده بان عليا احراهم ان يحملهم على الحق. فكان المنطق يقضي بان يأمر الأعضاء بان يكونوا مع الفريق الذي فيه علي ان اختلفوا. وعلي بشهادة الرسول مع الحق ولا يفارق القرآن وقد قال الرسول ان كتاب الله وعترته لن يتفرقا حتى يردا عليه الحوض. وعلي سيد العترة. ولكن الخليفة امر الأعضاء ان اختلفوا وتساوت الأصوات ان يكونوا مع الفريق الذي فيه عبد الرحمن ان لم يقبلوا بحكم عبد الله بن عمر.

---

(٤) الكامل لأبن الأثير ص ٣٣. (ج ٣)

عبد الله بن عمر

(٥) وعبد الله بن عمر هذا التقي الورع نرى في ادخاله في الشورى شيئاً من التناقض. لقد قال فيه ابوه كما اسلفنا: «كيف أستخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته او قال: لا يحسن طلاق امرأته» ومن كان فيه هذا العجز لا ينبغي ان يكون مستشارا في امر الخلافة التي يتوقف عليها مصير المسلمين. ولكن أباه ادخله في الشورى مستشارا وحكما.

وقد اتضح بعد سنين ضعف رأي عبد الله وبعده عن علي. لقد رفض ان يبايع عليا بعد ما قتل عثمان وبايع العالم الأسلامي كله عليا ما عدا اهل الشام. وبقي على موقفه مدة خلافة علي التي استمرت نحوا من خمس سنوات، وهو يعلم من هو علي ويعرف ما قاله الرسول فيه. ولكن هذا الرجل نفسه رضي ان يبايع يزيد بن معاوية. فقد روى مسلم في صحيحه ما يلي:

« جاء عبد الله بن عمر الى عبد الله بن مطيع حين كان من امر الحرة ما كان زمن يزيد بن معاوية (إذ استباح جيش يزيد مدينة الرسول). فقال (عبد الله بن مطيع): اطرحوا لأبي عبد الرحمن (عبد الله بن عمر) وسادة. فقال: اني لم آتك لأجلس اتيتك لأحدثك حديثا. سمعت رسول الله يقول: من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له. ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية[(٥)] ».

وهكذا كان يخشى عبد الله ان لا يكون في عنقه بيعة ليزيد (قاتل الحسين ومستبيح المدينة وهادم الكعبة). لئلا يموت ميتة جاهلية. ولم يخش ان يموت ميتة جاهلية وهو يرفض ان يبايع اخا الرسول وصفيه. وعجيب ان يكون هذا الصحابي حرفيا الى هذه الدرجة في فهمه لأقوال الرسول. فقد اخذ كلمة البيعة على اطلاقها. ونسي قول الله تعالى:

---

(٥) ج ١٢ ص ٢٤٠

«لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّوْنَ مَنْ حادَّ اللهَ وَرَسُوْلَه...[٦]»

وعلى كل حال فإن ادخال عبد الله بن عمر في الشورى قد خدم مصلحة عثمان وزاد في مصاعب علي.

تهديد المعارض بالقتل

(٦) واكاد لا اصدق ان الصحابي الجليل عمر الذي عرف بطاعته لله ورسوله قد امر بقتل المخالف او المخالفين للأكثرية، ثم امر بقتل من يخالف فريق عبد الرحمن عند تساوي الأصوات. ان هذا الأمر مدهش جداً. لقد قال عمر ان الرسول شهد بان الأعضاء الستة من اهل الجنة. ومع ذلك رأى انه يجوز قتل من خالف منهم برفضه البيعة لمن يختاره الفريق الآخر وان لم يكن المخالف داعياً الى ثورة او عرقلة للحكم. بل امر بقتلهم جميعاً ان لم يتفقوا على امر خلال ثلاثة ايام. هذا والقرآن ينطق:

«ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها، وغضب الله عليه ولعنه واعد له عذابا عظيما[٧]».

وتعليمات الشورى تقضي بانه لو خالف عليٌّ الأكثرية وامتنع عن البيعة لقتل، وان كان مولى كل مؤمن، وان قال الرسول فيه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. وإذا كان الرسول يقول ان من عادى عليا فهو عدو الله فكيف يكون حال من يقتله.

وكيف يستجيز عمر لنفسه ان يقتل اكابر الصحابة وكبير اهل بيت الرسول إذا خالفوه او خالفوا عبد الرحمن؟ وقد كان المسلمون يخالفون الرسول الأعظم فلم يقتلهم. وقد عارض عمر نفسه الرسول يوم أراد ان يكتب لأمته كتابا لا يضلّون بعده، فما امر الرسول بقتله ولا عاقبه. فهل امر عمر ورأي عبد الرحمن اعظم

---

(٦) سورة المجادلة (٥٨) آية ٢٢
(٧) سورة النساء (٤) آية ٩٣

واقدس من أمر الرسول؟

ولعل عمر كان يرى ان البيعة التي تلقاها من المسلمين في بدء خلافته قد اعطته تفويضا مطلقا ليفعل كل ما يراه صالحاً.

ولكن البيعة من المسلمين ان كانت تعطي للخليفة الحق في ان يختار لهم وان يجدد حرياتهم وان يحرمهم من بعض حقوقهم فانها لا تعطي الخليفة حقاً بقتل كبار الصحابة الذين بشروا بالجنة لمجرد مخالفتهم اياه في الرأي. وكيف يسوغ للمسلمين ان يفوضوا الخليفة في امر ليس من حقه ولا من حقوقهم؟

فليس يحق للمسلمين منفردين او مجتمعين ان يقتلوا من حرم الله قتله. والبيعة ليست مطلقة. بل هي مشروطة بالعمل على كتاب الله وسنة نبيه. وكتاب الله وسنة نبيه يحرمان قتل المؤمنين.

حلما الخليفة وعبد الرحمن

(٧) ان من عجيب المصادفات ان يرى عمر وهو في غشيته رجلا دخل جنة فجعل يقطف كل غضة ويانعة فيضمها اليه ويصيرها تحته وان يرى عبد الرحمن في منامه (وهو يحاول تقرير مصير الخلافة) روضة خضراء كثيرة العشب. دخل اليها فحل ما رأى اكرم منه. ومرَّ كأنه سهم، لم يعرج على شيء. وتبعه بعيران دون ان يأكلا من الروضة شيئاً وتبعهما بعير رابع فوقع في الروضة يرتع ويخضم.

كل من الرائيين فهم من رؤياه ان الخليفة المقبل سوف لا يكون متحرجا في اموال المسلمين وانه سوف يقطف كل غضة ويانعة وانه سيقع في الروضة (بيت المال) يرتع ويخضم. فكان ينبغي لكل من الرائيين ان يرى في رؤياه انذارا بما سيحدث ان تساهل في الأمر، وان عليه ان يتخذ الاحتياطات التي تمنع من يظن انه لا يتحرج في الأموال من الوصول الى الخلافة. وكان المنطق يقضي ان يحاول كل من الرائيين ان ينتقي للخلافة شخصا عرف بتحرجه في اموال المسلمين وزهده في المادة. فانتقاء شخص من هذا النوع هو أفضل الأحتياطات التي تمنع وصول القاطف للغضة واليانعة والخاضم للروضة من الوصول الى الخلافة. ولكن الرائيين اتخذا اجراءات ادت الى ابعاد الزاهد المتحرج وايصال من يتوقع منه ان يكون قاطفاً خاضما.

وقد ابدى عمر رأيه في علي فقد قال فيه اكثر من مرة انه لو ولي امر المسلمين لحملهم على الحق او لحملهم الحجة البيضاء. والتاريخ يروي انه قال لعثمان: «كأني بك قلدتك قريش هذا الأمر لحبها اياك فحملت بني امية وبني ابي معيط على رقاب العرب وآثرتهم بالفيء، فسارت اليك عصابه من ذئبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحاً....»

وكانت سيرة علي في زمن الرسول وفي ايام الشيخين تؤكد لمن عرفه انه ذلك الزاهد العابد الذي لا يقيم للمادة وزنا. فقد اتجر معظم الأصحاب وأثروا. وبعضهم وصلت ثرواتهم الى مئات الألوف أو الى الملايين. ومن هؤلاء عبد الرحمان ابن عوف. ولكن عليا عاش قبل الفتوح كما عاش بعد الفتوح عيشة هي الى الخشونة والشطف اقرب منها الى الرقة واللين فلم يتجر ولم يتسع. وانما اقتصر على عطائه يعيش منه ويرزق اهله ويستثمر فضوله في ارض اشتراها بينبع. ثم لم يزد عليها[٨].

وإذا كان هذا رأي الخليفة الراحل في الرجلين (وهما اللذان ظن صادقا انه لن يلي الخلافة بعده الاّ واحد منهما) فقد كان ينبغي ان تحمله رؤياه على اخذ الاحتياط بالعهد لعلي. او على الأقل تشكيل الشورى بصورة ترجح كفته قطعا للطريق على من يظن به التسامح في اموال المسلمين. وما كان عبد الرحمن بن عوف جاهلا بشدة علي على نفسه وتحرجه في اموال المسلمين ولكن صاحبي الحلمين لم يتفهما الانذار فاتخذا إجراءات ابعدت الخلافة عن المتحرج وضمنت الوصول للمتساهل. فكأن الانذار بالخطر حفز الرائيين على الوصول اليه بدلا من السعي لتجنبه.

— ٣ —

شرط عبد الرحمن

(٨) ان اشتراط عبد الرحمن في بيعته التي عرضها على علي وعثمان ان يعمل

---

(٨) الفتنة الكبرى ج ١ ص ١٥٤

الخليفة الجديد طبقا لسيرة الشيخين كان زيادة لا مبرر لها. ان واجب كل خليفة ان يعمل طبقا لكتاب الله وسنة نبيه. وليس يجب عليه ان يعمل طبق سيرة خليفة كان قبله. وإذا كان الخليفة الجديد اعلم بقوانين الاسلام ممن كان قبله ورأى خطأ في سيرة من كان قبله حرم عليه متابعته. ان وضع سيرة الشيخين في مستوى كتاب الله وسنة نبيه خطأ كبير. ان كتاب الله لا يخطىء ورسول الله لا يخطىء في التبليغ، ولذلك وجب متابعة الكتاب وتعاليم الرسول. اما الشيخان فهما معرضان للوقوع في الأخطاء كسائر المسلمين الاخيار. فوضع سيرتهما في مستوى الكتاب والسنة لا مبرر له بل لعله ابداع في الدين.

ولقد ذكرنا في الفصل السادس عشر ان الخلافة إذا لم تكن بعهد من رسول الله بناء على وحي نزل عليه وكانت بانتخاب شعبي او إنتخاب اقلية مفضلة كالصحابة قد تكون شرعية. وانها بالرغم من شرعيتها لا تخلو من بعض الجوانب السلبية التي منها:

ان اقوال الخليفة المنتخب واعماله لا تصبح قوانين شرعية مقدسة. لقد كان قبل ان ينتخب معرضا للأخطاء في اقواله واعماله كسائر المسلمين الطيبين. ويبقى كذلك بعد الانتخاب لأن الانتخاب لا يغير من شخصيته ولا يجعله عالما إذا كان جاهلا ولا يجعله مكتمل العلم إذا كان محدود المعرفة. واقصى ما يتوقع لمثل هذا الخليفة ان يكون مجتهدا كسائر المجتهدين. فلا يجب على مجتهد آخر موافقته. ويجوز لغير المجتهد ان يقلد مجتهدا سواه.

وذكرنا في ذلك الفصل ان الخلافة التي تكون بعهد من الله ورسوله تكون بريئة من هذا الجانب السلبي. ذلك انه حينما يعهد الرسول بالخلافة الى شخص معين مستندا على الوحي يجب على جميع المسلمين ان يتبعوا الشخص المعهود اليه عملا وقولا، لأن خلافهم عليه يكون خلافا على الرسول نفسه.

والشيخان (رض) لم يكونا خليفتين بعهد من الله ورسوله. وإذ كانت خلافة الخليفة الأول بانتخاب من الأصحاب وخلافة الثاني بتعيين من الخليفة الأول المنتخب وبيعة شعبية فان الخليفتين لا يعدوان ان يكونا مجتهدين، يصيبان

ويخطئان. ولا يجب على خليفة بعدهما ان يتبع سيرتهما سيما إذا كان، كعلي بن ابي طالب، اعلم منهما.

والخليفة الثاني نفسه لم يتفق مع الخليفة الأول في كل شيء ولم يسر بكل سيرته. فقد خالفه في امور منها نظام تقسيم الأموال بين المسلمين. إذ كان ابو بكر يقسمها بالسوية متابعا الرسول في ذلك، وكان عمر يفضل بين الناس طبقا لسابقتهم وجهادهم. وإذا كانت سيرتاهما تتناقضان فقد اصبح من المستحيل على خليفة يأتي بعدهما ان يسير بسيرتهما معا وان اراد ذلك.

ولذلك كان طلب عبد الرحمن من الخليفة الجديد أنْ يسير بسيرة الشيخين تزيدا في الشريعة وادخالا لما ليس من الدين في الدين. وفي الوقت نفسه كان طلبا لغير الممكن. **ومن العجيب ان يكون عبد الرحمن ملكيا اكثر من الملك.** فقد عهد الخليفة الأوّل للخليفة الثاني ولم يشر عليه ان يعمل بسيرته. ولم يشترط عليه اكثر من العمل على كتاب الله وسنة نبيه. **وحينما رتب الخليفة الثاني أمر الشورى لم يشترط على الخليفة الذي يأتي بعده أن يعمل على سيرته أو سيرة أبي بكر.**

كان الشرط وسيلة للتخلص من علي

على أني لا أعتقد ان ابن عوف وهو صحابي بارز كان من السذاجة الى درجة أنه لم يعرف ان شرطه لم يكن من الشروط السائغة. ولو كان من السذج لما اعطاه الخليفة الراحل هذه الصلاحية الكبرى. والواقع أنه اضاف هذا الشرط غير السائغ تخلصا من علي، لقد كان يصعب عليه ان يقدم عثمان على علي دون عذر. فعلي له من السابقة والعلم والجهاد والقرابة من الرسول ما ليس لعثمان ولا لأحد من الأصحاب فتقديمه لعثمان على علي سيجعله في نظر الأصحاب وفي نظر التاريخ متحيزا ضد علي دون أي مبرر. فرأى ان يبتكر هذا الشرط ويقدم لعلي عرضه المشروط قبل ان يقدمه الى عثمان، علما بان عليا سيرفض هذا الشرط وأن عثمان سيقبله. وبذلك يكون قد اوصل عثمان الى الخلافة وهو على حجة في ذلك وعذر يستر به هدفه. ولكن الستار كان رقيقا جدا، فقد اتهمه علي فوراً. قائلا: «والله ما وليته الأمر الا ليرده عليك...»

وما كان ابن ابي طالب بالذي يلقي الكلام جزافاً.

ما يحتج به لعبد الرحمن

وربما يحتج بما اشترطه عبد الرحمن بن عوف في البيعة بحدثين رويا عن الرسول:

(١) احدهما انه قال: «اقتدوا باللذين من بعدي ابي بكر وعمر». وبصرف النظر عن مناقشة سند هذا الحديث فاني لست اعتقد بصدقه لعديد من الأسباب منها:

ان الحديث يدل على استخلاف الرسول للشيخين ابي بكر وعمر وقد مر ما رواه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحهما عن عمر انه قال: ان لا أستخلف فإن رسول الله لم يستخلف». والمسلمون كلهم مجمعون منذ زمن ابي بكر وعمر على ان الرسول لم يستخلف ايّاً منهما.

ولو كان الرسول نطق بما في الحديث المذكور لاحتج به عمر يوم السقيفة حينما كان يدعو المسلمين لبيعة ابي بكر. فلو كان الرسول قد نطق بما في الحديث لما احتاج عمر في اثبات اهليه أبي بكر للخلافة الى ان يستدل بأن أبا بكر كان صاحب الرسول في الغار أو بأن الرسول امره بان يصلي بالمسلمين. فقد كان سالم مولى ابي حذيفة وأبو ذر وسواهما يصليان بالمسلمين لدى مغيب الرسول.

ولو كان الحديث صحيحاً لاحتج ابو بكر نفسه به على الأنصار بدلا من ان يحتج بأن العرب لا تقر إلاَّ لهذا الحي من قريش أو بأن النبي قال: قريش ولاة هذا الأمر.

ولو كان هذا الحديث صحيحا لما دعا ابو بكر يوم السقيفة الى بيعة ابي عبيدة او عمر بل كان عليه ان يدعو الى بيعته او بيعة عمر لأنهما وحدهما مذكوران في الحديث.

ولو كان النبي قال ما في هذا الحديث لاحتج به عبد الرحمن بن عوف، على صحة شرطه حينما عرض البيعة على علي مشروطة بالعمل على سيرة الشيخين.

ولو كان الحديث صحيحاً لما امتنع علي عن قبول ذلك الشرط. فالعمل بسيرة الشيخين يكون واجبا وبأمر من الرسول. وعلي اطوع الناس لله ولرسوله واعلمهم باقوال الرسول وسننه.

ولو كان الحديث صحيحا لما امتنع علي عن البيعة لأبي بكر ولما ادعى ان الخلافة حق له ولأهل بيت الرسول. ولو كان الحديث صحيحا لاحتج ابو بكر به على علي يوم امتنع عن بيعته، ولما كان بحاجة لأن يحاول وصاحبه عمر اجبار علي على البيعة. ولكن أبا بكر قال لعلي ان الناس اختاروه. ولو كان الرسول قال ما في الحديث لكان عليه أن يذكره بأن الرسول اختاره.

على ان الحديث يأمر المسلمين بعمل المتناقضات فالشيخان لم يتفقا في كل شيء حتى يمكن للمسلم الأقتداء بهما معا. فقد تابع ابو بكر الرسول في متعتي الحج والنساء ومنعهما عمر. وقد مضى في الفصل السابق ما رواه مسلم في صحيحة من ان عمر قال:

«ان الله كان يحل لرسوله ما شاء بما شاء. وان القرآن قد نزل منازلة. فاتموا الحج والعمرة لله كما امركم الله. وابتوا نكاح هذه النساء فلن أوتى برجل نكح أمرأة الى اجل الا رجمته بالحجارة». (ج ٨ ص ١٦٩).

اضف الى ذلك انه لو صح الحديث لدل على ان الشيخين معصومان من الخطأ قولا وعملا. ولكن من المعلوم انهما لم يكونا كذلك فقد كانا يخطئان كما يخطىء سائر الصالحين من الأصحاب.

اما الحديث الاخر فهو ما روي من ان الرسول قال: «ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه». وإذا كان الله قد جعل الحق على لسان عمر بشهادة من النبي فينبغي لمن بعده من الخلفاء ان يقتدوا به وفي هذا ما يبرر اشتراط عبد الرحمان بن عوف على الخليفة الثالث كائنا من كان ان يسير بسيرة الخليفة الثاني.

ربما يكون النبي فاه بهذه الكلمة في حادثة من الحوادث كان عمر قد أدلى فيها برأي صائب. فقال النبي ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه في اعطاء رأيه في تلك الحادثة. وليس من المنطق ان نقول بأن الرسول اراد أن يقول للمسلمين بان كل ما يقوله عمر فهو حق.

فلو فهمت هذه الكلمة المنسوبة الى الرسول كذلك، لكان ذلك شهادة من الرسول بعصمة عمر من الخطأ في كل كلمة يقولها وكل رأي يبديه سواء كان في امور الدين أو الدنيا. وجمهور المسلمين لا يقولون بذلك حتى في الرسول نفسه، فهم يرون ان النبي معصوم عن الخطأ في تبليغ امور الدين فقط.

وان من المعلوم في التاريخ ان عمر نطق بما لم يوافق الحق عديداً من المرات:

منها: ان عمر أنكر موت الرسول حين مات. وقد روي ابن هشام في سيرته أن عمر قال يوم ذاك: «إنَّ قوما من المنافقين يزعمون ان رسول الله قد مات. والله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى فليقطعن ايدي وارجل رجال يزعمون ان رسول الله مات». (ج ٢ ص ٦٥٥).

وذكر البخاري (في الجزء السادس من صحيحة ص ١٧) ان ابا بكر خرج (يوم ذاك) وعمر يكلم الناس فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس. فأقبل اليه الناس وتركوا عمر فقال ابو بكر: «اما بعد، من كان منكم يعبد محمدا فإن محمدا قد مات. ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت. قال الله: وما محمد إلاَّ رسول قد خلت من قبله الرسل. وان عمر قال بعد ذلك: والله ما هو إلاَّ ان سمعت ابا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي وحتى أهويت الى الأرض حين سمعته تلاها ان النبي قد مات».

ومنها: انه لم يوافق الحق حين عارض النبي وهو يريد ان يكتب كتابا لأمته فلا تضل بعد موته وأغضب النبي بذلك وحرمت الأمة بمعارضته من الحصول على تلك الوثيقة النبوية التي اراد النبي ان ينير بها للأمة طريقها في مستقبلها. وقد روى هذه المعارضة الشيخان في صحيحهما.

رواه البخاري عن ابن عباس ما يلي:

«لما اشتد بالنبي وجعه (مرضه) قال: أئتوني بكتاب اكتب لكم كتابا لا تضلون بعده. قال عمر: ان النبي غلب عليه الوجع (لا يعي ما يقول) وعندنا كتاب الله حسبنا. فاختلفوا وكثر اللغط. قال (النبي): قوموا عني، ولا ينبغي عندي التنازع. فخرج ابن عباس يقول: ان الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين كتابه». (ج ص ٣٩).

وما من شك بأن عمر كان مخطئا بعيداً عن الحق كل البعد في هذه الحادثة. فقد منع الرسول من كتابة وصيته وعارضه واتهم تفكيره. والله يقول: « يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الرسول... » ورفع صوته بحضور الرسول. والله يقول: يا ايها الذين آمنوا لا ترفعوا صوتكم فوق صوت النبي... » ويكفي وليلا على انه اغضب الرسول ان الرسول امره ومن معه ان يخرجوا من بيته.

ومنها: انه ابتعد عن الحق يوم صلح الحديبية فالمؤرخون يجمعون على ان عمر جادل الرسول واعترض على معاهدة الصلح بينه وبين مشركي قريش. وقد قال عمر بعد ذلك: « ما زلت اتصدق واصوم واصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذٍ مخافة كلامي ». (سيرة بن هشام ج ٢ ص ٢١٦).

ومنها: انه لم يكن الحق حليفه في احداث الشورى التي نبحثها الآن. فقد ادى رفضه لأن يعهد الى علي وتخطيطه للشورى الى وصول عثمان الى الخلافة. وكان عمر يعلم جيداً حب عثمان المفرط لبني امية وبني أبي معيط. وقد صرح قبل موته بأنه يخشى بل يتوقع ان يحمل عثمان هؤلاء على رقاب العرب. وقد جر وصول عثمان الى الخلافة الى احداث انتهت بالمسلمين الى كوارث لا تحصى.

وهكذا فانا لا نرى مبرراً لاشتراط عبد الرحمن بن عوف على علي ما اشترطه حينما عرض عليه البيعة. وما نرى الاّ انه جعل ذلك وسيلة للتخلص منه.

— ٤ —

مثالية علي في ازمة الشورى.

(٩) اما تصرف علي خلال أزمة الشورى فقد كان مثال المثالية. وكان من النبل وصحة العزيمة وصدق المبدأ ماعز نظيره في تاريخ الانسان. انه لم ير في سلطان العالم الاسلامي وهو يعرض عليه ما يصلح ثمنا لوعد لا يستسيغه يقطعه للمسلمين على نفسه. لم يقبل ذلك العرض المغري لأنه يقتضيه ان يحيد عن مبدئه قيد شعره.

ولماذا يحيد علي عن مبدئه حتى ذلك المقدار والخلافة في نظره ليست غاية وانما هي وسيلة لأقامة الحق وتطبيق المبادىء التي عاش من اجلها وأرخص حياته في

سبيلها عشرات السنين منذ وعت اذناه نداء محمد.

لقد آذاه ان يعدل به احد من اصحاب الشورى الذين ليس لهم مثل سبقه في الاسلام او جهاده في سبيل الله او علمه الذي لا ينضب. ولم يؤذه ذلك لأنه جرح لكبريائه بل آذاه لأن تسويته بهؤلاء الأصحاب الطيبين ستكون نقطة بدء لأحداث ليست في مصلحة العالم الأسلامي. وقد حذر الرسول الأعظم امته منها. والتاريخ يذكر لنا ان عليا تحدث مرتين في اثناء ازمة الشورى عن تلك الأحداث وكانه يقرأها من كتاب. فقد ذكرَ الطبري أن علياً قال لعمه العباس بعدما اوضح الخليفة الراحل الطريقة التي اراد ان يُنتقى بها الخليفة الجديد.:

«اما اني اعلم انهم سيولون عثمان وليحدثن البدع والاحداث. ولئن بقي لاذكرنك. ولئن قتل أو مات ليتداولنها بنو أمية بينهم. وان كنت حيا ليجدني حيث يكرهون وقال لأعضاء الشورى وهم يتشاورون:

«الحمد الله الذين اختار محمداً منا نبيا وابتعثه الينا رسولا فنحن اهل بيت النبوة ومعدن الحكم الحكمة وأمان لأهل الأرض ونجاة لمن طلب.

«ان لنا حقا ان نعطه نأخذه وان نمنعه نركب اعجاز الأبل وان طال بنا السرى. لو عهد الينا رسول الله عهدا لأنفذنا عهده، ولو قال لنا قولاً لجالدنا عليه حتى نموت. لن يسرع قبلي احد الى دعوة حق وصلة رحم. ولا حول ولا قوة الا بالله.

«اسمعو كلامي وعوا منطقي. عسى ان تروا هذا الأمر بعد هذا المجمع تنتضى فيه السيوف وتخان فيه العهود حتى لا يكون لكم جماعة، وحتى يكون بعضكم أئمة لأهل الضلالة وشيعة لأهل الجهالة».

وقد وقع فيما بعد كل ما تحدث به في هذين التصريحين. فقد احدث عثمان احداثاً نقمها المسلمون، وتداول بنو أمية سلطان الأسلام بينهم وهم الذين حذَّر الرسول امته منهم إذ رأى في منامه انهم ينزون على منبره نزو القردة. وما كان بنو أمية ليصلوا الى ذلك لولا وصول قريبهم الصالح عثمان الى الخلافة.

وقد تحقق ما قاله في تصريحه الثاني. لقد انتضيت السيوف فيما بعد وانتهى

عهد السلام الداخلي بين المسلمين. فقتل عثمان وجر قتله الى معارك طاحنة وخينت العهود، فنكثت بيعة علي وقبلها بيعة عثمان واصبح بعض الحاضرين لإجتماع الشورى قادة للفتنة واتباعا لأهل الجهالة.

ان ترقبه لتلك الشرور المستطيرة هو الذي حمله على القبول بالدخول في الشورى والجلوس مع اعضائها وعدم اخذه برأي عمه العباس الذي نصحه بان لا يدخل معهم وكان الحق مع علي. وكان الواجب يملي عليه ذلك بالرغم من أنه رأى في تسويته مع بقية الأعضاء غضا من قدره وانزالا لمكانته العليا. لقد رأى ان الدخول معهم تضحية في سبيل الله لا بد منها. فلو لم يدخل معهم لأعطاهم العذر في عدم اختياره للخلافة. فلهم ان امتنع عن الحضور معهم ان يؤولوا ذلك بانه لا يريد أن يستخلف ولكان للتاريخ ان يقول انه لو حضر علي لما حرم من الخلافة. وكان للتاريخ ان يقول ان عليا قصر في تحمل مسؤوليته. فلو حضر لاستخلف ولكفي المسلمون شر الأحداث التي اعقبت الشورى بعد سنين. واضيف أنه لو لم يحضر لأعان البقية من الأعضاء على ما صنعوه ولاشترك في تحمل مسؤولية ما صنعوا لأن عدم حضوره يكون بمثابة تشجيع لهم على اختيار سواه.

اجل لقد كان من واجبه الديني ان يحضر وأن يذكرهم بحقه في الخلافة وبأن اهل البيت معدن الحكمة وأمان لأهل الأرض ونجاة لمن طلب النجاة. فهذه مضامين كلمات الرسول الذي اعلن للمسلمين ان اتباع كتاب الله وعترة الرسول امان للأمة من الضلال وان اهل بيته كسفينة نوح. من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق. وقد كان من واجبه ان يذكرهم بان الخلافة حق لأهل البيت ان يجالدوا عليه ويحاربوا من أجله. فالرسول عهد الى الأمة بان تعطي القيادة لأهل بيته ولم يعهد الى اهل بيته ان يحاولوا إجبار الأمة على اعطائهم تلك القيادة.

والتاريخ يذكر ان عليا قال لأعضاء الشورى اكثر من ذلك. فقد ذكرهم قائلا:

« انشدكم الله أفيكم احد غيري آخى رسول الله بينه وبين نفسه؟ فقالوا: لا.
أفيكم احد غيري قال له رسول الله: من كنت مولاه فهذا مولاه؟ فقالوا: لا.

افيكم احد غيري قال له رسول الله: انت مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي؟

فقالوا: لا.

افيكم من أؤتمن على سورة براءة وقال رسول الله انه لا يؤدي عني الا انا أو رجل مني غيري؟

فقالوا: لا.

الا تعلمون ان اصحاب رسول الله فروا عنه في مأقط الحرب في غير موطن وما فررت قط؟... فقالوا: نعم[9].

لقد قال لهم كل ذلك واكثر من ذلك وكانوا يعرفونه كله ولكن عواطفهم لم تنسجم مع ما كانوا يعلمون.

(٩) جهد الامام بمنطقة، ان يمنع اهل الشورى من الاتجاه في طريق كان يرى ببصيرته (او بالأصح بما علمه عن طريق الرسول) انها ستقود المسلمين الى فتنة هوجاء تتحكم بمستقبل المسلمين الى امد بعيد. ولكن المستمعين لم يتمكنوا ان يرتفعوا الى المستوى الذي يتطلبه الموقف الخطير. وكان كل منهم يرى ان تسليم الخلافة الى علي لا يتفق مع رغبات قريش ولا مع رغباتهم الخاصة. لأن وصول علي اليها يعني ضياع املهم في الوصول اليها في المستقبل. إن عودة الخلافة الى اهل بيت الرسول تعني بقاءها فيهم لما لهم من شرف لا يضاهى وطهارة شهد لهم القرآن بها. وقد كان عبد الرحمن يرى ان اعطاءها الى عثمان يسهل وصوله اليها بعد موت عثمان. وهو يتوقع البقاء بعده لأن عثمان كان في سن الشيخوخة يوم ذاك. ولكن عبد الرحمن مات قبل عثمان. ولو بقي حيا لم يصل اليها. ان هذا الصحابي البارز غفل عن حقيقة غير مستورة، هي ان خلافة عثمان كانت حرية بان توصل معاوية اليها قبل اي انسان آخر.

والحقيقة ان اعضاء الشورى كانوا لا يتحرجون في الحيلولة بين علي والخلافة

---

(٩) شرح النهج لأبن ابي الحديد مجلد ٢ ص ٦١ وقد روى ذلك الطبرسي في الأحتجاج ج ١ ص ١٩٦ - ١٩٨

بالرغم من كل ما قاله الرسول في شأنه. ولماذا يتحرجون في ذلك وهم رأوا الشيخين مع جلالة قدرهما وعلو مقامهما في الدين والتقوى قد تقدما على علي وما تحرجا في ذلك. فكان من الطبيعي ان يسير بقية الصحابة من قريش على المنهاج نفسه. وإذا كان صرف الخلافة عن علي بعد موت الرسول امرا غير متوقع فقد اصبح صرفها اليه بعد الخليفتين غير متوقع. وما كان الصحابي الجليل عمر (رض) يرى في ايصال عثمان الى الخلافة امرا عجيبا. وربما رأى في ذلك وفاء ورداً لليد البيضاء التي كانت لعثمان عنده. وقد يذكر القارىء ان عثمان كان كاتب عهد ابي بكر باستخلاف عمر وانه لما أغمي على أبي بكر قبل ان يذكر اسم عمر وخشي عثمان ان لا يعود الخليفة من اغمائه اضاف عثمان اسم عمر احتياطا له.

طبقة جديدة

(١٠) إذا كانت احداث ما قبل الشورى قد ساعدت على نشوء طبقات جديدة، منها ارستقراطية قريش وارستقراطية الطبقة المفضلة في العطاء وبروز الأرستقراطية الأموية فان الشورى قد اضافت طبقة جديدة هي طبقة اعضاء الشورى. لقد اصبح هؤلاء الأعضاء ابرز الأصحاب واصبح كل منهم يرى في نفسه مؤهلات الخلافة متوفرة. ولم لا؟ لقد رشحهم اليها عمر اعظم الخلفاء نفوذا وتأثيراً. لقد تأججت في صدور بعض هؤلاء الأعضاء مطامع كان لها فيما بعد خطرها الكبير وتأثيرها العكسي على مستقبل العالم الاسلامي.

ضياع الفرصة الاخيرة

(١١) لقد اضاعت الشورى على المسلمين وعلى الخليفة الراحل فرصة الدهر التي كان يمكن بواسطتها تصحيح ما كان ينبغي تصحيحه من الأوضاع وتجنيب العالم الاسلامي ما لا يحصى من الكوارث والمحن وسد الباب على فتن كانت تهم بالأنطلاق ليذهب ضحيتها مئات الألوف من المسلمين.

لقد كتب الخليفة الراحل لامته ولنفسه ما يعد من امجد الصفحات في التاريخ وسارت الخلافة في عهده وعهد الخليفة الأول في طريقها الرشيد مستوحية في سيرها هدي القرآن وسنن الرسول الأعظم. ولكن لم يكن غرض الرسالة الاسلامية ان

تستمر الحكومة الرشيدة اثنتي عشر عاما فقط ثم تلتوي منحرفة ليودع المسلمون عهد العدل والاخاء الحق والديمقراطية الصحيحة التي لا تحابي قويا لقوته ولا تهمل ضعيفا لضعفه، ولا تفضل قريبا لقرابته.

لقد صرفت الخلافة عن علي مرة لابي بكر واخرى لعمر وكل من الخليفتين كان رشيد السيرة مكثراً من الأعمال الصالحة. ولو تسلمها علي بعد عمر لما كان مجيئها اليه متأخراً. فقد كانت الأمة لا تزال سليمة متآخية على دين الله وكان لا يزال دينها امام دنياها. فكان بامكان علي وهو ذو المؤهلات الكبرى ان يستمر بالأمة في طريقها الصحيح وان يضيف الى صفحاتها الجيدة صفحات اكثر تألقا. وكان بأمكانه ان يسد على الفتن ابوابها ويئدها وهو في مهدها.

لقد بدأ نفوذ الأمويين ينمو في ايام عمر. ولكنهم لم يكونوا قد اصبحوا من القوة والحول ما يجعلهم خطرا جديا على الخلافة. ولم يكن معاوية بعد قد اصبح دولة ضمن دولة. وما من شك بانه لو ولي علي بعد عمر لكان بامكانه اقتلاع النبتة الأموية في الشام قبل ان تتعمق وتنتشر جذورها لتطبق ارض سوريا باجمعها. وما كانت الطبقة التي نشأت في عهد الخليفة الثاني نتيجة التفضيل في العطاء بذات خطر مهدد. وما كان طموح طلحة والزبير الى الخلافة قد نما ذلك النمو فقد كانا قبل الشورى كبقية المهاجرين الأولين الذين كانوا يُعَدُّون بالعشرات. وقد تأجج طموحهما بعد ان ميّزهما عمر ورفعهما الى عضوية الشورى. فلو لم تكن الشورى لما تمكن هذان الصاحبان من تحدي عثمان في خلافته واصلاء علي بعده نار حرب ذهب ضحيتها الألوف من المسلمين.

اجل لو عهد عمر (رض) بالخلافة لعلي لرد لأهل بيت الرسول حقهم ولأدخل السرور على قلب الرسول ولضمن للخلافة الرشيدة عمرا مديدا وللمسلمين وحدة متينة واخاء شاملاً مستمرا ولأهل بيت الرسول حياة سليمة بعيدة عن التهديد. ولقد كانت حكمة عمر تحمل المسلمين على توقع ذلك منه. ومن المؤسف ان قرشية هذا الصحابي الجليل قد تغلبت على حكمته فكانت كارثة الشورى.

في عهد
عثمان (رض)

الفصل الحادي والعشرون

انتهت الشورى الى نتيجتها المتوقعة فكانت خلافة عثمان (رض). وما كان عثمان دون الشيخين صحبة ولا سابقة، فهو من المسلمين المبكرين، ويعد من العشرة الرابعة من المسلمين الأولين. ويظهر انه كان اقدم اسلاما من عمر. ولم يكن له عنف عمر ضد الرسالة قبل ان يسلم. وله مزية على الشيخين. فهو صهر الرسول مرتين. تزوج ابنة الرسول رقية. وولد له منها ولد يدعى عبد الله توفي وعمره ست سنين. وكانت امه توفيت قبل وفاته. وزوجه النبي ابنته الثانية ام كلثوم ولم تلبث ام كلثوم معه طويلا فقد توفيت في ايام ابيها.

لم يحضر عثمان بدرا فقد كان في المدينة مقيما على زوجته المريضة رقية التي توفيت قبل عود النبي من المعركة. وحضر عثمان احدا وبقية المعارك الاسلامية ولم يكن له غناء يذكر في اي معركة. وقد فر في معركة احد مع اكثرية الاصحاب فلم يعد الا بعد انتهاء المعركة. وكان من الذين عفا الله عنهم وكذلك ينطق القرآن: «ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا، ولقد عفا الله عنهم. ان الله غفور حليم[١]».

لم يكن عثمان من المحاربين الأشداء ولكن كان من الباذلين في سبيل الله الكثيري الصدقات. وقد اشترك اشتراكا فعالا في تجهيز جيش العسرة (جيش تبوك). ويروى انه اتى الى الرسول بالف دينار لينفقها في تجهيز الجيش. وله صدقات عديدة سوى هذه.

ولي عثمان الأمر في اواخر السنة الثالثة والعشرين بعد الهجرة (٦٤٤ م) بعد ان تجاوز السبعين. واستمرت مدته نحواً من اثني عشر عاما.

سارت الأمور خلال النصف الأول من خلافته سيرا سمحا. ومضى الجهاد الاسلامي على اشده، اذ كان المسلمون لا يزالون في حالة حرب مع امبراطوريتي فارس وبيزنطية. فانتهت البقية الباقية من امبراطورية فارس في ايام عثمان،

---

(١) سورة آل عمران (٣) آية ١٥٥

واتسعت المساحة الاسلامية غربا وخضع شمال افريقيا لسلطان التوحيد. وأنهى الخليفة الثالث الحظر الذي كان فرضه عمر ضد الحرب البحرية فأنشىء اسطول اسلامي في البحر المتوسط تغلب على الأسطول الروماني، واصبحت له السيادة في المتوسط.

اما النصف الثاني من عهده فقد كثرت فيه الأحداث واشتد فيه الصراع الطبقي بين المسلمين الى ان انفجر هائجا مدويا فكان الخليفة ضحيته الأولى. على ان احداث النصف الأخير من عهد الخليفة الثالث لم تكن وليدة وقتها فقد ولدت بذورها ببدء خلافته أو قبل بدئها.

لم يكن لعثمان مثل حكمه الشيخين أو عزيمتهما أو زهدهما. والواقع انه كان لشخصية عثمان جانبان متناقضان. فهو من ناحية كان ذا سابقة في الاسلام وطول صحبة للرسول وشرف مصاهرته وذا المبرات الكثيرة في سبيل الله. وهو من ناحية اخرى اموي النسب يحب اعضاء عشيرته حبا جما، بالرغم من ماضيهم القاتم تجاه الاسلام ونبيه.

ولإندماج هذين الجانبين في شخصيته رأى فيه ذوو البصيرة استعدادا كامنا لأن يكون جسراً تعبر عليه الخلافة من عهدها الراشد بقيادة الأولين من اصحاب محمد الى عهد مستبد جائر يقوده طلقاء بني امية وابناؤهم.

وقد يذكر القارىء قول الامام علي لعمه العباس حينا خرج من بيت عمر بعد ان اصدر الخليفة الراحل تعلياته في شأن الشورى:

«أما اني اعلم انهم سيولونها عثمان.... وان قتل أو مات ليتداولنها بنو امية بينهم. وان كنت حيا ليجدني حيث يكرهون».

ومن العجيب ان قريشا التي كانت تكره ان تكون الخلافة في اهل بيت الرسول المطهرين من الرجس خشية ان تستقر فيهم لما لهم من فضل وشرف لا يضاهى قد اندفعت في طريق قادها وهي غير شاعرة الى ارساء الخلافة في قبيلة من قريش عرفت بعدائها للرسول ودينه.

معارضة مبكرة

ولعل هذا كان بعض الاسباب التي حملت عماراً بن ياسر والمقداد بن الأسود وهما من اعلام الصحابة على التبكير في المعارضة لعثمان والجهر بالنفور من خلافته بالرغم مما كانا يعرفان من صلاحه وتقواه.

والتاريخ يروي انه لما بويع عثمان خرج عمار وهو ينادي: « يا ناعي الاسلام قم فانعه قد مات عرف وبدا نكر. اما والله لو ان لي اعوانا لقاتلتهم. والله لئن قاتلهم واحد لأكونن له ثانيا ». فقال له الامام: يا ابا اليقظان، والله لا اجد عليهم اعوانا. ولا أحب ان اعرضكم لما لا تطيقون.

وخرج المقداد من الغد فلقي عبد الرحمان بن عوف صاحب بيعة عثمان فقال له: ان كنت اردت بما صنعت وجه الله فاثابك الله ثواب الدنيا والآخرة. وان كنت انما اردت الدنيا فاكثر الله مالك. فقال له عبد الرحمان: اسمع ر لك الله. اسمع. فقال المقداد: لا اسمع والله. وجذب يده من يده ومضى.

وتحاورا مرة اخرى فقال المقداد:« والله ما رأيت مثل ما اتي الى اهل هذا البيت ». فقال له عبد الرحمان « وما انت وذاك يا مقداد؟ » قال المقداد: اني والله احبهم لحب رسول الله (ص). واني لأعجب من قريش وتطاولهم على الناس بفضل رسول الله ثم انتزاعهم سلطانه من اهله ». قال عبد الرحمان: اما والله لقد اجهدت نفسي لكم. فقال المقداد: « اما والله لقد تركت رجلا من الذين يأمرون بالحق وبه يعدلون. اما والله لو إن لي على قريش اعوانا لقاتلتهم قتالي اياهم ببدر وأحد ». واجابه عبد الرحمن قائلا: ثكلتك امك. لا يسمعن هذا الكلام الناس فاني اخاف ان تكون صاحب فتنة وفرقة. فقال المقداد: « ان من دعا الى الحق واهله وولاة الأمر لا يكون صاحب فتنة. ولكن من اقحم الناس في الباطل وآثر الهوى على الحق فذلك صاحب الفتنة والفرقة...[٢] »

---

(٢) روى ذلك عن الشعبي ابن ابي الحديد في شرح النهج. مجلد ٢ ص ٤١١ - ٤١٢

لم يكن اي من هذين الصاحبين الجليلين ذا طموح سياسي. ولا كان اي منهما يبغي في ما يقوله أو يعمله مغنا ماديا.

وقد زكاهما النبي أيما تزكية. فقد روى ابن ماجه في سننه ان الرسول قال: «ان الله امرني بحب اربعة واخبرني انه يحبهم. قيل يا رسول الله من هم؟ قال: «علي منهم (يقول ذلك ثلاثا) وابو ذر وسلمان والمقداد[٣]». وروى الترمذي في سننه عن النبي انه قال: ان كل نبي اعطي سبعة نجباء رفقاء واعطيت انا اربعة عشر. وعدَّ منهم عماراً والمقداد[٤]».

وان النبي قال حينما استأذن عليه عمار بن ياسر: «ائذنوا له. مرحبا بالطيب المطيب[٥]». وان عائشة روت ان الرسول قال: «ما خُيِّر عمار بين امرين الاَّ اختار ارشدهما[٦]».

وروى ان الرسول قال له: «ابشر يا عمار. تقتلك الفئة الباغية»[٧]. وروى البخاري ان ابا الدرداء قال لرجل من اهل الكوفة (وهو يعني عمارا): «اليس فيكم من اجارة الله على لسان نبيه من الشيطان[٨]»؟

لقد كان عمار بن ياسر والمقداد بن الاسود ينتميان الى اقلية قليلة العدد لها ماضيها الاسلامي الناصع ولا يحوم حول حبها للرسول واخلاصها لدين الاسلام اي شك. عرفت بعزوفها عن المطامع.

هذه الاقلية من الاصحاب كانت ترى ان قريشا تدعي ما ليس لها. فالخلافة في نظرهم حق لعترة الرسول لأن الرسول جعل الخلافة فيهم وجعل اتباعهم واتباع القرآن امانا من الضلال. وكانوا يرونها حقا لعلي بن ابي طالب لأنه خيرة الرسول من عترتة وامته. فالخلافة في قريش لأن عترة الرسول من قريش لا لفضل في قريش نفسها.

(٣) ج ١ ص ٥٣ (رقم الحديث ١٤٩).
(٤) ج ٥ ص ٣٢٩ (رقم الحديث ٣٨٧٧)
(٥) (٦) و (٧) المصدر نفسه ص ٣٣٢ - ٣٣٣
(٨) صحيح البخاري ج ٥ ص ٣٢

إن الخلافة مركز ديني قبل كل شيء والخليفة رجل يحل محل الرسول ويمثله. والقرشيون في اكثريتهم لم يكونوا اكثر المسلمين تدينا، بل لعلهم كانوا أضعف الناس ايمانا. وماضيهم مع الرسول يشهد بذلك. فادعاؤهم ان الخلافة حق لهم كان دعوة الى طبقية جديدة دخيلة على الاسلام ودعوة الى عصبية جاهلية يبرأ النبي منها وقد جهد في القضاء عليها. وهو الذي خاطب المكيين يوم فتح مكة قائلاً: « يا معشر قريش، ان الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء......»

لقد كان هؤلاء النجباء من الاصحاب يرون هذا الرأي، ولكنهم غلبوا على امرهم يوم استخلف ابو بكر. وفكروا ان الامر قد يعود بعده الى علي. وجاءت خلافة عمر فكانت محكمة الحلقات لم تدع لهم مجالا حتى لرفع اصواتهم أو ابداء رأيهم. ولكنهم مع ذلك املوا ان يليها علي من بعده، فإذا بالشورى ونتيجتها تقضيان على املهم.

لقد وقف عمار والمقداد يدعوان المسلمين الى اهل بيت الرسول قبل ان يحكم العقد للخليفة الثالث ولكن ضوضاء قريش اغرقت صوتيهما.

وراع هذين الصاحبين ان تنمو طبقية قريش هذا النمو المخيف وان لا تقف قريش عند ادعاء ان الخلافة حق لها بل تضيف الى ذلك ان انتخاب الخليفة حق من حقوقها لا يشاركها فيه احد. لقد اصبح لعبد الله بن ابي سرح الذي اهدر النبي دمه ما ليس لعمار بن ياسر حبيب الرسول من الحق في الاشتراك في تقرير مصير الخلافة. وهكذا يقول عبد الله بن ابي ربيعة المخزومي لعمار:
«لقد عدوت طورك يا بن سمية. وما انت وتأمير قريش لأنفسها؟» ولم ينقل التاريخ ان احدا من المهاجرين انكر على ابن ربيعة قوله هذا.

وقد راع هذين الصاحبين ان تسيىء قريش استعمال ما تدعيه من حقوق الى هذا الحد. فتراعي في استخلاف الخليفة مصالحها الخاصة على حساب مصلحة الاسلام والمسلمين. ولو راعت صالح الاسلام واتباعه لما عدلت في الخلافة عن اعظم المجاهدين واعلم المسلمين ومن كان من النبي بمنزلة هارون من موسى الى من لا يدانيه جهادا وحكمة وعزيمة وزهداً.

وراع الصاحبين النجيبين ان احداث الشورى اظهرت بجلاء ان قريشا تفضل

اي صحابي مكي على علي بالرغم من انه خيرة الرسول. وقدرا ان تحامل قريش على اهل بيت الرسول لم يكن برّاً بالرسول بل كان مناقضة لرغبته، ويكاد يكون تحاملا غير مباشر على الرسول نفسه. وقد تجلى لهما ان الطريق الجديد الذي اخذته الخلافة سيجعل وصول علي اليها سلميا بعيدا عن الامكان. وهذا ما بدا لعلي نفسه، فقد قال للهاشميين عندما خرج من بيت عمر يوم خطط منهاج الشورى: «ان اطيع قومكم فيكم لم تؤمروا ابدا......»

ولو ان عمارا والمقداد ومن يرى رأيهما حسبوا ان الخلافة التي رقى اليها عثمان سوف تستمر في امثاله صلاحاً من اصحاب الرسول والتابعين لهم باحسان لما ازعجوا ولما عارضوا او على الاقل لما اشتدوا في معارضتهم. ولكنهم ايقنوا ان الخلافة ستؤول الى ايدي طغمة جبارة من الامويين الذين عرفوا برقة تدينهم وسطحية اسلامهم.

والاسلام لم تنزل رسالته من السماء من اجل اقامة دولة قوية تبسط سلطانها على الناس من اجل السلطان والغلبة. وانما نزلت رسالته لهداية الانسانية ونشر العدالة واحقاق الحق. والدولة في نظره ليست غاية وانما هي وسيلة للوصول الى هذه الاهداف. فإذا اصبحت الدولة وسيلة الى نقائض هذه الاهداف كانت حربا على الاسلام ورسالته.

– ٢ –

تنفيذ المخطط الاموي

ولم يكذب هؤلاء النجباء من اصحاب محمد (ص) حدسهم فقد بدأت علامات المستقبل تظهر بسرعة.

اجتمع بنو امية في دار عثمان بعد بيعته، فقال ابو سفيان (وكان قد فقد بصره): اعندكم احد من غيركم؟ واجابوه بالنفي فقال: « يا بني امية، تلقفوها تلقف الكرة. فو الذي يحلف به ابو سفيان ما من عذاب ولا حساب ولا جنة ولا نار ولا بعث ولا قيامة[٩] ». فزجره الخليفة.

---

(٩) شرح النهج لابن ابي الحديد ج ٢ ص ٤١١.

ولكن زجر الخليفة لم ينه ابا سفيان، فقد استصحب رجلا ليقوده الى قبر حمزة، عم الرسول وسيد الشهداء لينفث ما في صدره. وحينما وقف على القبر، قال مخاطباً حمزة: « يا ابا عمارة، ان الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف امسى في ايدي غلماننا يتلعبون به ». ثم ركل القبر برجله[١٠] ».

وهو يعني ان الامويين اجتلدوا مع محمد واهله بالسيف على الملك (لا على الدين)، وها هو الملك اصبح في ايدي الامويين وحرم منه آل محمد.

ولم تكن هذه الكلمات لتعني الشيء الكثير لو لم تترجم الى حقائق. ولم يمض الاّ وقت قصير قبل ان تحولت الاقوال الى افعال. فقد استغل اعضاء العائلة الاموية طيبة قلب الخليفة الصالح وحبه المفرط لهم فاستولوا خلال السنوات الاولى من خلافته على عنصري القوة في الدولة وهما ولاية الامصار الاسلامية واموال خزانة الدولة.

لقد كان ثقل قوة الدولة الاسلامية وثروتها في ثلاثة اقطار هي: سوريا والعراق ومصر. هذه الأقطارُ المهمة تحولت الى امارات اموية خلال السنوات الاولى من عهد عثمان.

معاوية في سوريا

لقد ذكرنا (في الفصل التاسع عشر) ان عمر (رض) ولى معاوية الشام ثم ضم اليه الاردن. وكان عمر قد ولى عمر بن سعد الانصاري على حمص وقنسرين وعبد الرحمن بن علقمة على فلسطين. ومات عمروهذانالرجلان على عملهما. ولكن عبد الرحمن بن علقمة مات فضم عثمان فلسطين الى معاوية. ومرض عمر بن سعد فاستقال وعاد الى اهله، فضم الخليفة حمصا وقنسرين الى معاوية. وهكذا اصبح معاوية خلال سنتين من بدء خلافة ابن عمه عثمان، واليا على كل ما نسميه اليوم بسوريا الكبرى[١١].

---

(١٠) الامام علي بن ابي طالب لعبد الفتاح عبد المقصود. ج ١ ص ٢٨٧

(١١) الكامل لابن الاثير ج ٣ ص ٥٧

بدأ نفوذ معاوية بالنمو في ايام عمر ولكنه بقي محدود المساحة وتشرف عليه مراقبة عمر الشديدة. وقد تضاعفت مساحة نفوذه خلال سنتين من خلافة قريبة واصبح نفوذه مطلقا لا تهيمن عليه اي مراقبة. ولم تمض بضع سنوات حتى اصبحت سوريا دولة في ضمن الدولة الاسلامية واصبح معاوية اعظم الولاة خطرا. وفي خلال سنوات اصبح بامكانه ان يضع في اي ميدان قتال يختاره نحوا من مأة الف جندي. ومن الجدير بالذكر ان معاوية لم يكن أشد تدينا من ابيه ابي سفيان.

عبد الله بن ابي سرح في مصر

اما مصر فقد مات عمر وعمرو بن العاص وال عليها، وقد عزله عثمان قبل ان تمضي سنتان من حكمه وولى اخاه للرضاعة عبد الله بن سعد بن ابي سرح. واستمر ابن سعد في ولايته ما استمر عثمان في خلافته. هذا بالرغم من ان ابن سعد كان قد اسلم في زمن الرسول ثم ارتد. وكان يسخر بالقرآن ويقول سأنزل مثل ما انزل الله. وقد ذكر بن هشام ان عبد الله هذا كان قد اسلم وكان يكتب لرسول الله (ص) الوحي فارتد مشركا راجعا الى قريش. وحينما فتح الرسول مكة امر بأن يقتل عبد الله ولو وجد تحت استار الكعبة. ففر عبد الله الى عثمان بن عفان وكان اخاه للرضاعة فغيبه ثم اتى به الى رسول الله بعد ان اطمأن الناس واهل مكة فأستأمن له وصمت رسول الله طويلا ثم قال: «نعم». فلما انصرف عنه عثمان قال رسول الله لمن حوله من اصحابه: لقد صمت ليقوم اليه بعضكم فيضرب عنقه. فقال رجل من الانصار: فهلا اومأت اليَّ يا رسول الله؟ فقال الرسول: ان النبي لا يقتل بالاشارة[١٢]».

اما العراق فقد كان فيه مصران خطيران: الكوفة والبصرة. وكان المغيرة ابن شعبة الثقفي واليا على الكوفة حينما مات عمر. وكان من قبله عليها سعد بن ابي وقاص الذي جعله عمر عضوا في الشورى. وحينما ولي عثمان الخلافة عزل المغيرة

---

(١٢) السيرة النبوية ج ٢ ص ٤٠٩

واعاد سعدا استجابة الى توصية من عمر. ولم يلبث سعد الصحابي الجليل اكثر من سنة في ولايته. فقد عزله عثمان وعين مكانه اخاه من امه وابن عمه من ابيه الوليد بن عقبة بن ابي معيط الأموي.

الوليد بن عقبة في الكوفة

والوليد هذا اسلم بعد عام الحديبية وارسله الرسول الى بني المصطلق جابيا للصدقات فلما سمعوا بقدومه ركبوا اليه ليستقبلوه. فلما سمع بركوبهم خافهم وعاد الى النبي قبل ان يراهم واخبره انهم هموا بقتله. وتحدث المسلمون بقتالهم اعتمادا على ما انبأهم به الوليد. وجاء بنو المصطلق الى النبي فاخبروه انهم خرجوا لإكرام الوليد لا لقتله أو صده. ونزل الوحي في الوليد وبني المصطلق ناهيا المؤمنين عن الاعتماد على انباء الوليد (وامثاله) لأنه فاسق لا يعتمد على حديثه. ففي سورة الحجرات (٤٩) نقرأ قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّها الَّذِيْنَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَأٍ، فتبيَّنوا أَنْ تُصِيْبُوْا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوْا عَلَى مَافَعَلْتُمْ نَادِمِيْن. وَاعلَموْا أَنَّ فِيْكُمْ رَسُوْلَ اللهِ لَو يُطِيْعُكُمْ فِيْ كَثِيْرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ. وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ الَيْكُمْ الإِيْمَانَ وَزَيَّنَهُ فِيْ قُلُوْبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُم الكفر والْفُسُوْقَ وَالعِصْيَانَ. أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُوْنَ[١٣]».

ويظهر ان الوليد بقي على جاهليته بقية حياته. وقد لبث في ولايته على الكوفة خمس سنوات الى ان شهد عليه نفر من اهل الكوفة بأنه شرب الخمر. فضرب الحد واضطر الخليفة الى عزله. ولم تكن حال الوليد بخفية على المسلمين سيما وقد نزل القرآن بفسقه. وحينما جاء ليحل محل سعد بن ابي وقاص قال له سعد:
«اكست بعدنا ام حمقنا بعدك؟ فقال له الوليد: «لا تجز عنَّ يا ابا اسحاق. كل ذلك لم يكن. وانما هو الملك يتغداه قوم ويتعشاه آخرون. فقال سعد: أراكم

---

(١٣) نفس المصدر ص ٢٩٦

جعلتموها (الخلافة) ملكا. وقال له عبد الله بن مسعود: ما أدري اصلحت بعدنا ام فسد الناس[١٤]؟

على ان اضطرار الخليفة الى عزله بسبب ضربه الحد وافتضاح امره لم يحفز الخليفة على التفكير بأن توليه الوليد مكان سعد بن وقاص الصحابي الجليل كانت من اكبر الاخطاء وان من الصواب استبدال الوليد بسعد او بصحابي آخر له سمعته الدينية كعمار بن ياسر او عبد الله بن مسعود. لم يصنع الخليفة شيئا من ذلك. بل ارسل امويا آخر هو سعيد بن العاص. وبالرغم من ان سعيدا هذا لم يكن له مثل ماضي الوليد السيىء فإنه لم يكن إلاَّ فتى من فتيان بني امية. لا توحي ولايته الى اهل الكوفة بالثقة ولا تصلح ما فسد من حال المصر. وسنرى فيما بعد تفاقم الاحداث في ايام سعيد.

عبد الله بن عامر في البصرة

اما البصرة، المصر العراقي الآخر، فقد مات عمر وابو موسى الاشعري وال عليها. وبقي عليها في ايام عثمان ثلاث سنوات او خمسا. وأتى وفد من اهل البصرة يوما يشكون الى الخليفة سوء تصرف ابي موسى باموال المسلمين. وما كان ابو موسى يعد من خيرة الاصحاب فقد اتهمه عمر من قبل بالاثراء على حساب المسلمين. ورد فضول ماله الى بيت المال ثم رده الى عمله، لانه كان شديد الحب للخليفة الثاني. وقد كان ينتظر من الخليفة الثالث ان يحقق في الشكاية وان يبدل اهل البصرة بأبي موسى من هو خير منه من اصحاب الرسول. ولكن الخليفة الثالث لم يفعل شيئا من ذلك. بل اخذ بقول الشكاة فعزله وارسل اليهم واليا من شباب امية هو عبد الله بن عامر.

وبهذا اصبحت الاقطار الثلاثة الكبرى: سوريا والعراق ومصر خلال السنوات الاولى من عهد عثمان وليس على اي منها اي وال له صحبة أو سابقة في الاسلام جميع ولاتها امويون وجميعهم من الطلقاء أو أبناء الطلقاء. ومنهم من نزل القرآن

---

(١٤) الكامل لابن الاثير ج ٣ ص ٤٠

بفسقه، ومنهم من اهدر الرسول دمه.

وكل ذلك كان يمكن ان يكون متحملا لو كان الخليفة الجالس على منبر الرسول في المدينة يعمل بما يشير عليه اصحاب الرسول المخلصون أو بما تمليه عليه سابقته وصحبته وتقواه. ولكن شيئا من ذلك لم يكن. فقد اصبح مستشار الخليفة ووزيره امويا آخر هو مروان بن الحكم طريد رسول الله الذي حرم عليه النبي دخول المدينة لخبثه وايذائه اياه. وما كان مروان خيرا من ابيه الحكم. وقد اثبتت الاحداث فيما بعد ان عثمان كان خليفة بالاسم وأن مروان كان الخليفة الفعلي.

وهكذا اصبح سلطان الاسلام في قبضة شباب من بني امية مكيا فيلي الاخلاق والتفكير قبل ان تولد المكيا فيليه، لا يتحرجون في استعمال اي وسيلة في سبيل اهدافهم، لقد تحولت الخلافة الى مملكة اموية بكل معانيها.

وينبغي ان نذكر ان وصول الامويين الى هدفهم وهو الاستيلاء على سلطان الاسلام وابقاؤه في اسرتهم كان يقتضيهم ان ينشروا بين من يحكمونهم الدعاية لقريش وان يقولوا لهم ان الامويين سادة قريش وان يصمتوا ما امكنهم الصمت عن ذكر فضائل ذوي الفضل والسابقة من الاصحاب وان يبتعدوا كل الابتعاد عن ذكر اهل البيت وفضلهم وقرابتهم من الرسول وعن ذكر علي ومميزاته بصورة خاصة. وهكذا كانوا يفعلون. ولعلهم كانوا يحدثون الجهلة من عامة الناس، وهم الاكثرون، عن قرابة الامويين. من الرسول ويتجنبون ذكر عدائهم له ولأهل بيته.

وقد لقي معاوية عمارا بن ياسر يوما في المدينة فقال له: «ان بالشام مئة الف فارس. كل يأخذ العطاء مع مثلهم من ابنائهم وعبدانهم لا يعرفون عليا وقرابته ولا عمارا وسابقته ولا الزبير وصحبته[١٥]».

وحاول جندب بن عبد الله الازدي ان يحدث اهل الكوفة عن فضل علي

---

(١٥) الامام علي بن ابي طالب لعبد الفتاح عبد المقصود ج ٢ ص ١٢٠

فرفع حديثه الى الوليد بن عقبة والي الكوفة فحبسه. ولم يطلقه حتى توسط البعض في اخلاء سبيله(١٦).

لقد اصبحت قريش الطبقة العليا في المجتمع الاسلامي واصبح الامويون طبقة فوق تلك الطبقة. ولم لا؟ انهم اصبحوا امراء العالم الاسلامي وحكامه، وخليفة المسلمين منهم. وهو يحبهم حبا جما.

– ٣ –

عثمان وسيرة الشيخين

واذ تحدثنا عن تعاظم النفوذ الأموي في عهد الخليفة الثالث فقد يحسن ان نستعيد في ذاكرتنا خاتمة احداث الشورى، حين عرض عبد الرحمن بن عوف على علي بن ابي طالب وعثمان بن عفان البيعة. لقد عرضها على كل من الرجلين مشترطا فيها شرطين: (١) العمل على كتاب الله وسنة نبيه. (٢) العمل على سيرة الشيخين. وقد خسر علي الخلافة لأنه لم يقبل الشرط الثاني وحاز الخلافة عثمان لأنه قبل الشرطين. فكان العقد بينه وبين المسلمين على ان يعمل بالشرطين وعلى المسلمين ان يمنحوه الطاعة ان هو فعل ذلك. فلننظر هل نفذ عثمان ما وعد المسلمين به؟

لم يول اي من الشيخين احدا من اقربائه أي مصر من امصار المسلمين. وولى عثمان آل أمية اقرباءه جميع الامصار الكبرى. فهل كان ذلك مخالفة لسيرة الشيخين؟

لم يكن الخليفة الثالث يرى انه خالف. وكان يحتج لذلك بأن عمر ولى معاوية وامثال معاوية كعمرو بن العاص. والمغيرة بن شعبة ولم يختر عماله من خيرة الأصحاب وكان للخليفة ان يقول ايضا ان عمر ولى الوليد بن عقبة صدقات ارض الجزيرة. وربما ولي بن ابي سرح ايضا له عملا. وقد كان الخليفة الثالث على حق في

---

(١٦) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج ٢ ص ٤١٢

ذلك. غير ان الذين ولاهم عمر لم يكونوا من اقاربه. وعثمان ولى اقاربه وزاد على ما فعله عمر بأن بالغ في اعطائهم مقاليد الحكم فاصبح العالم الاسلامي تحت سلطانهم.

اجل يمكن القول بان عثمان لم يخالف سيرة الشيخين حين افرط في توليه اقاربه لأن النفوذ الاموي بدأ ونما الى حد ما في ايام عمر. وكان من الطبيعي ان يتطور ذلك النفوذ تطورا صعوديا في ايام عثمان بحكم امتداد الزمن وبحكم عضوية عثمان للأسرة الاموية. ولو اراد عمر (رض) ان لا ينمو النفوذ الاموي في الدولة الاسلامية لكان عليه ان يبعد الامويين عن مراكز السلطة وكان عليه ان لا يصوغ الشورى بشكل يؤدي الى خلافة عثمان الذي كان هو يعرف منه حبه الجم لآل ابي معيط وبني امية. اجل يمكن القول بانسجام سياسة عثمان في التولية مع سياسة سلفه. ولكن ما يتضح فيه عدم انسجام سيرة عثمان مع سيرة كل من الشيخين هو سياسته المالية.

من معلومات التاريخ الاسلامي ان الشيخين عاشا عيشة فيها كثير من الخشونة والشظف. وكذلك عاشت اسرتاهما في ظلهما. وكان عمر اذا طلب من الناس ان يصنعوا شيئا توقع من اهله ان يكونوا مثالاً لبقية الناس في الانصياع لأمره وكذلك كانوا يفعلون. اما الخليفة الثالث فكان يعيش عيش رخاء وكان يغدق على اقاربه من المال اكثر مما يغدق على نفسه وعائلته الخاصة. وكان يخص اقاربه بالهبات الضخمة دون المسلمين وهم دون بقية المسلمين تدينا واقل صحبة للرسول واقل رغبة في الاسلام.

يروي البلاذري (في كتابه انساب الاشراف ج ٤ ص ٢٨) ان عثمان اعطى عمه الحكم بن ابي العاص ثلاثمائة الف درهم (نحواً من ثلاثمائة الف دولار) بعد أن جاء به الى المدينة. وكان الحكم هذا شديد الايذاء لرسول الله في الجاهلية. وقد أقبل الى المدينة بعد فتح مكة مسلما. وما كان اسلامه الا رياء ونفاقاً وحفظاً لحياته. فقد ظل يؤذي رسول الله وكان يقلد حركاته ساخراً. ورآه الرسول يوما وهو يتطلع عليه والنبي في حجرة من حجراته فخرج مغضباً ولما عرفه قال: ألا من عذيرى من هذا الوزغ اللعين»؟ ثم اخرجه واهله من المدينة وقال: «لا يساكنني

ولا ولده» فنفاهم جميعا الى الطائف. وكان مجرد السماح للحكم بالاقامة في المدينة بعد أن نفاه الرسول مخالفة للرسول ولسيرة الشيخين اللذين لم يسمحا له بذلك بالرغم من توسط عثمان.

ونفل عثمان اخاه للرضاعة عبد الله بن سعد بن ابي سرح خمس غنائم الغزوة الاولى التي قادها عبد الله في شمال افريقيا. واشترى مروان بن الحكم خمس غنائم الغزوة الثانية بخمسمائة الف دينار (تبلغ نحوا من خمسة ملايين دولار) فوضع الخليفة عنه هذا المبلغ الضخم كله[١٧].

واعطى الخليفة خالد بن عبد الله بن أسيد الاموي ثلاثمائة الف درهم حينما جاء يرأس وفدا لزيارة عثمان. وامر لكل واحد من اعضاء الوفد بمائة الف درهم. ولما ابى خازن بيت المال عبد الله بن الارقم ان يدفع المبلغ الذي امر به استكثارا به قال الخليفة: «ما انت وذاك؟ انما انت خازن لنا». فقال له عبد الله: «ما كنت ارى اني خازن لك وانما خازنك احد مواليك. لقد كنت اراني خازناً للمسلمين». ثم اقبل بمفاتيح بيت المال فعلقها على منبر النبي، مستقيلا. وامر لعبد الله ابن الارقم هذا بثلاثمائة الف درهم بعد استقالته فلم يقبلها تورعا وزهدا. واعطى سعيد بن العاص مائة الف درهم. وزوج ثلاثا او اربعا من بناته لرجال من قريش فاعطى كل واحد منهم مائة الف دينار

واعطى الحارث ابن عمه الحكم ثلاثمائة الف درهم وارسله مصدقا لقضاعه، فلما جاء بالصدقات وهبها له[١٨]. ولا ينبغي ان ننسى ابا سفيان شيخ الامويين الذي سلم في مكة ثم شمت بالمسلمين لما هزموا في حنين فقال: «لا تنتهي هزيمتهم دون لبحر». والذي ركل قبر حمزة برجله بعد بيعة عثمان وقال له: «يا ابا عمارة ان لذي اجتلدنا عليه بالسيف قد صار في يد غلماننا يتلعبون به». هذا الشيخ ايضا ان له حظه من هبات عثمان. فقد اعطاه مائتي الف درهم. واقطع الخليفة بني مية اقطاعات ضخمة من الاملاك العامة. ومن الارض التي اقطعها لذويه فدك

---

(١٧) الكامل لابن الاثير ج ٣ ص ٤٤

(١٨) الفتنة الكبرى ج ١ ص ١٩٣

التي كانت ملكاً لرسول الله لأنها مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب. وكان من المفروض ان ترثها فاطمة الزهراء ابنة الرسول ولكن ابا بكر روى ان النبي قال: «نحن معاشر الانبياء لا نورث ما تركناه صدقة. انما يأكل آل محمد من هذا المال». فمنع ابو بكر فاطمة من ان ترث في فدك. وروي ان فاطمة ادعت ان رسول الله اعطاها فدكا نحلة. فلم يكتف الخليفة بمن قدمته من شهود. فكان ينفق منها ويعود منها على صغير بني هاشم ويزوج منها ايمهم. هكذا كان يفعل ابو بكر ثم عمر. ولما آلت الخلافة الى عثمان اقطع مروان فدكا.

ومن العجيب ان يعطي عثمان لمروان طريد رسول الله وابن طريده ما تركه رسول لابنته او لينفق ريعه على اهل بيته.

ولسنا نقصد من ذكر هذا ان نحاكم الخليفة او نحكم عليه أو له. فأمره الى الله. وما نود ان نقوله فقط هو ان عثمان لم يعمل بسيرة الشيخين في اموال المسلمين. بل كان يرى ان له الحق ان ينفق من اموال المسلمين ما شاء. فهو امام المسلمين وله ان يصنع كما يرغب في اموالهم. وهذا يختلف كل الاختلاف مع سيرة عمر الذي كان يحاسب عماله محاسبة عسيرة ويسأل من اثرى منهم: من اين لك هذا؟ ويرد فضول اموالهم على بيت المال.

استعمل ابا هريرة الصحابي المعروف على البحرين وبلغه عنه انه اصبح في يسر. فقال له: الا تعلم اني استعملتك على البحرين وأنت حاف لا نعل في رجلك؟ وقد بلغني انك بعت افراسا بألف وستأة دينار. قال ابو هريرة: كانت لنا افراس فتلاقحت. فقال عمر: قد حبست لك رزقك ومؤونتك أو هاتِ الفضل. وحينما قال له ابو هريرة: ليس ذلك لك، اجابه الخليفة: بلى والله، واوجع ظهرك. ثم قام اليه بالدرة فضرب ظهره حتى ادماه. ثم قال: أئت بها. فلما احضرها، قال ابو هريرة: احتسبها عند الله. فقال له عمر: ذاك لو أخذتها من حل واديتها طائعا. اما والله ما رجت منك أميمة ان تجبي اموال هجر واليامة واقصى البحرين لنفسك، لا لله ولا للمسلمين. ولم ترج فيك اكثر من رعية الحمر.» وعزله[١٩].

---

(١٩) شرح النهج مجلد ٣ ص ١٠٤

واين هذه السيرة المالية الدقيقة من سيرة عثمان الذي كان يهب لأقاربه مئات الالوف والملايين ولا يجد في ذلك حرجا؟ ولم تقف هبات الخليفة عند حدود اقاربه فقد وسعت آخرين كان يعطيهم لولائهم اياه كزيد بن ثابت الانصاري الذي نال منه مائة الف درهم او كان يهبهم تحببا لهم وليأمن شغبهم وغضبهم. فقد اعطى الزبير ستمائة الف درهم واعطى طلحة بن عبيد الله مائتي الف درهم. وكان كل منهما عضوا في الشورى التي اوصلت عثمان الى منصبه[٢٠].

وما كان اي من هذين الصاحبين بحاجة الى المال. فقد كانا من الاثرياء، كثيري الاملاك، كثيري التجارة، لديهما الكثير من جامد المال وسائله. ومن الملاحظ ان اهل بيت الرسول لم تصل اليهم هبات الخليفة مع أن القرآن فرض لهم سدس خمس الغنائم (على الأقل) لأنهم ذوو القربى من الرسول الاعظم.

وقد كان من الطبيعي ان يقتدي العمال بالخليفة فيتصرفوا في اموال المسلمين دون تحرج وقد روي أن الوليد بن عقبة اقترض وهو وال على الكوفة من بيت المال. فلما حل الأجل طلب منه عبد الله ابن مسعود الأداء وكان لا يزال على بيت المال فالتوى الوليد. وحينما الح عليه ابن مسعود شكاه الوليد الى الخليفة. فكتب الخليفة الى ابن مسعود:

«انما أنت خازن لنا، فلا تعرض للوليد فيما اخذ من بيت المال.....» وقد اغضب موقف الخليفة ابن مسعود والقى مفاتيح بيت المال مستقيلا[٢١].

واذا كان في الكوفة من يقف في وجه الوليد ويطالبه بالمال ويحوجه الى ان يرفع امره الى الخليفة ليأمر ابن مسعود بالكف عن مطالبته بما اقترض فان الامر في الشام كان يختلف عن هذا. فقد كان معاوية هناك آمرا مطلقا يعيش عيش القياصرة ويتصرف باموال سوريا كما يتصرف بماله الخاص، دون ان يكون عليه مهيمن. وقد استخدم ما تحت يديه من اموال المسلمين لشراء الضمائر واستكثار

---

(٢٠) الفتنة الكبرى ج ١ ص ٧٧

(٢١) انساب الاشراف للبلاذري ج ٤ ص ٣١ طبع القدس.

الانصار وارضاء رؤساء القبائل وذوي النفوذ. وما من شك بأنه كان يعد نفسه لتسلم سلطان الاسلام بعد عثمان. وقد امهلته الايام ليحكم العدة.

والواقع ان معاوية كان قد بدأ الإعداد لاهدافه في ايام عمر، وقد بدا بذخه واسرافه لعمر نفسه حينما ذهب الخليفة الى الجبهة السورية فأثار ذلك غضبه. ولكنه اقنع الخليفة بصحة طريقته. محتجا بمجاورته للمملكة الرومانية. ومن العجيب ان الخليفة حاسب ابا هريرة على الف وستمائة دينار ولم ينقل التاريخ ان عمر سأل معاوية يوما: من اين لك هذا؟

وما كان معاوية بالوالي الوحيد الذي استعمل اموال المسلمين لشراء الضمائر واستكثار الانصار. فقد كان بقية ولاة عثمان يتمشون على الطريقة نفسها بشكل يتناسب مع سلطانهم وقلة الرقباء عليهم والمنتقدين لهم. وجميعهم كانوا يسعون بما يستكثرون من صنائع وانصار الى هدف واحد هو تحويل الخلافة الى سلطان مستبد وتحويل العالم الاسلامي الى مملكة اموية يبقى لهم سلطانها جيلا بعد جيل.

وقد كان للسيرة المالية الرخوة التي سار عليها الخليفة وولاته نتائج عديدة. منها:

نمو طبقة الاثرياء في المجتمع الاسلامي: فقد كان من الطبيعي ان تتعاظم ثروات الافراد المحظوظين الذين تلقوا هبات الخليفة وولاته. وان يوظفوا هذه الاموال فيما يدر عليهم ارباحا طائلة من استملاك وتجارة. وقد كان عديد من الاصحاب الذين فضلوا في العطاء في ايام عمر قد اثروا بما وظفوا من فضول اعطياتهم. وكان من المنتظر ان تكبر هذه الثروات مع تطاول الزمن. وحينما رفع عثمان الحظر الذي كان فرضه عمر على اقامة الاصحاب خارج المدينة فتح لذوي الثروة منهم ابوابا جديدة ليزيدوا ثرواتهم. فقد اشتروا الدور والبساتين وسواها في العراق والاقطار الأخرى. وقد وهب الخليفة عديدا من الاقطاعات في الاملاك العامة في الحجاز وخارج الحجاز. ثم رأى الخليفة ان يسهل على المقيمين خارج العراق من الحجازيين العودة الى الحجاز بثرواتهم بان يبيعوا املاكهم في العراق

الاخرى ويشتروا بدلها املاكا في الحجاز واليمن[٢٢] وبذلك تكاثرت الصفقات وتزايدت الثروات. واصبح بين اصحاب الرسول وسواهم من يملك الملايين من الدراهم.

وقد بلغت ثروة الزبير نحوا من اربعين مليونا[٢٣] وثروة طلحة بن عبيد الله ما يزيد عن ثلاثين مليونا[٢٤] وكانت ثروة عبد الرحمن بن عوف تقدر بنحو من ثلاثة ملايين درهم[٢٥].

وقد ذكرنا ان مروان بن الحكم حصل في يوم واحد على ما يعادل خمسة ملايين درهم حين اشترى خمس افريقيا بنصف مليون دينار ثم وهبه الخليفة الثالث المبلغ كله.

ومن نتائج سياسة الخليفة المالية:

ازدياد الضغط الاقتصادي على الامم المغلوبة التي كانت تدفع الضرائب. فسخاء الخليفة وولاته في الاموال العامة وهباتهم للافراد تحتاج الى سيل من المال لا تأتي به ضرائب الخراج والرؤوس الا اذا زيدت. ولم يعرف الكثير عن هذه الناحية لأن الامم المغلوبة لم يكن لها في ذلك العهد تدخل سياسي او صوت مسموع. ولكن حواراً بين الخليفة وعمرو بن العاص يكشف عن شيء من ذلك. فقد قال له الخليفة: «قد درت اللقاح بعدك يا عمرو». واجابه عمرو قائلا: «نعم وهلكت فصالها».[٢٦] وقد عنى الخليفة ان الاموال التي اصبحت تأتي اليه من ضرائب مصر قد تكاثرت بعد عزل عمرو عن ولايتها. وعنى عمرو ان تكاثر

---

(٢٢) الكامل لابن الاثير ج ٣ ص ٥٢
(٢٣) الطبقات لابن سعد ج ٣ ص ١١٠
(٢٤) نفس المصدر ص ٢٢٢
(٢٥) نفس المصدر ص ١٣٦
(٢٦) الفتنة الكبرى ج ١ ص

ما يأتي اليه من الاموال من تلك البلاد انما هو نتيجة فرض مزيد من الضرائب على اهل البلاد. وفي ذلك خراب البلاد.

(٤)
نمو المعارضــة

لقد ذكرنا آنفا ان معارضة مبكرة كانت قد بدأت ببدء خلافة عثمان وكان بطلا المعارضة علمين من اعلام الصحابة اللذين لم يكن لهما اي مطمح سياسي او مطمع مادي. هما: عمار بن ياسر والمقداد بن الاسود. وقد هدأت معارضتهما في السنوات الاولى من عهد عثمان لأنهما لم يجدا انصارا ولأن بعض ما كانا يتوقعان حدوثه لم يكن قد حدث بعد. وقد ادى تتابع الاحداث الى ازدياد عدد المعارضين باطراد. وكان من هؤلاء من عارض بدافع ديني وآخرون بدافع سياسي وآخرون بكلا الدافعين.

معارضة عبد الرحمن

ولقد كان عبد الرحمن بن عوف صاحب بيعة الشورى من المعارضين المبكرين نسبياً. فقد ساءه ان يسير منتخبه عثمان بسيرة تتناقض مع سيرة الشيخين بعد ان عاهده والمسلمين على اتباع سيرتهما. وما من شك بان عديدين من الصحابة عاتبوا عبد الرحمن وحملوه مسؤولية سياسة الخليفة الثالث في اموال الدولة وفي حمله بني امية على رقاب المسلمين وفي ابعاد علي عن الخلافة، وهو الذي لو وليها لحمل المسلمين على المحجة الواضحة. وكان من الطبيعي ان ينكر عبد الرحمن على عثمان سيرته اداءً للواجب ومحاولة للتخلص من المسؤولية.

ويروى ان عثمان وهب من ابل الصدقة لبعض اهل الحكم عمه. ولما بلغ ذلك عبد الرحمن دعا بعض اصحاب النبي وارسلهم فاستردوا له تلك الابل وقسمها بين

الناس. وسكت عثمان فلم ينكر عليه. وكان هذا اول اجتراء على سلطان الخليفة.[٢٧]

وقد حاول عبد الرحمن ان يرد منتخبه الى سيرة الشيخين فلم يفلح فهجره وظل لا يكلمه حتى وافته المنية. وقد توفي قبل عثمان بثلاث سنوات. وروي انه كان يحرض اصحاب الرسول على معاجلته قبل ان يطغى ملكه. بل روي انه قال مرة للامام علي ان شئت فخذ سيفك وآخذ سيفي حتى نجاهده. ومن الطبيعي ان لا يستجيب الامام لمثل هذه الدعوة.

واذا كان عبد الرحمن بقي على ذكر من احداث الشورى فما من شك في ان الذكرى عادت به الى رؤياه خلال ايام الشورى إذ رأى روضة خضراء كثيرة العشب فدخل اليها فحل ما رأى اكرم منه. فمر كأنه سهم لم يعرج حتى قطعها. وتتابع على الروضة بعيران آخران تابعا اثر الاول فلم يعرجا على شيء. وجاء بعدهما بعير رابع فوقع في الروضة يرتع ويخضم. واوَّل عبد الرحمن رؤياه يوم ذاك بأن البعير الرابع هو الخليفة الثالث وانه سوف لا يقتفي اثر الرسول وصاحبيه. وقد قال عبد الرحمن يوم ذاك انه كره الخلافة لنفسه كيلا يكون ذلك الرابع. وكأني به اذا تذكر تلك الرؤيا عرف انه لم يصغ لما كان فيها من انذار وتحذير. وانه كان عليه ان يختار من ترك وان يترك من اختار للخلافة. فلو ولاها عليا لجنب المسلمين كل ما حدث.

ومن العجيب تشابه رؤيا عبد الرحمن ورؤيا عمر. فقد قال الخليفة الثاني وهو على فراش الموت انه رأى في غشيته رجلا دخل جنة فجعل يقطفُ كل غضة ويانعة فيضمها اليه ويصيرها تحته. وكما تشابهت رؤى الرجلين فقد تشابه صنيعهما، فكلاهما اختار القاطف الخاضم.

ولعل مهاجرة عبد الرحمن لعثمان تعود الى شعوره بأن الطريق التي سلكها عثمان ستؤول الى ارساء الخلافة في بني امية. بينما كان يأمل هو ان يعهد عثمان بها

---

(٢٧) الكامل لابن الاثير ج ٣ ص ٨٢

اليه بعد موته جزاء له على اختياره اياه للخلافة. وقد قال له علي: « والله ما وليت عثمان الا ليرد الأمر اليك...» دق الله بينكما عطر منشم (باعد الله بينكما). وقد استجيب دعاء علي.

وعضوا الشورى الآخـران

وقد انضم الى معارضة عثمان آخران من اصحاب الرسول البارزين هما: طلحة والزبير، وان كان الزبير اقل الرجلين عنفا في معارضته. وما اظن انهما عارضاه من اجل انفاقه اموال المسلمين على اقربائه. فقد نال كل منهما نصيبا وافرا من هبات الخليفة. فكان نصيب الزبير ستمائة الف ونصيب طلحة مائتي الف. وما كان لهما ان يحرما هبات الخليفة لأقاربه ويحلا مثل تلك الهبات لأنفسهما.

وافكر ان كلا من الرجلين كان يرجو ان يكون الخليفة بعد عثمان. وكانا قد اصبحا يعدان في اعلى طبقات الصحابة بعد ان جعلهما عمر (رض) عضوين في الشورى. وعضويتهما تعني ان الخليفة الثاني رشحهما للخلافة. وقد تزايدت اهميتهما لدى انفسهما ولدى كثير من المسلمين بما حصلا عليه من ثروات ضخمة. فقد كان كل منهما يملك ما يقدر بعشرات الملايين من الدراهم وكان لطلحة انصار في البصرة وللزبير انصار في الكوفة.

وكان بوسع كل منهما ان يكون صديقا مخلصا لعثمان مواليا له، آملاً أن يعهد اليه بالخلافة بعد موته فيصل اليها بطريقة هادئة سلمية. فما الذي حملهما على المعارضة لعثمان والتحريض عليه؟ وارى ان سبب ذلك يعود الى تضاؤل املهما بالوصول الى الخلافة عن طريق عثمان بعد ان اصبح لبني امية من قوة وطول وسلطان على الاقطار الاسلامية ما يجعلهم اقوى المزاحمين على الخلافة. وما كان معاوية ليترك الخلافة تخرج من بني امية. وكانت قوة معاوية تتزايد كلما طالت مدة عثمان. وقد بدا للصاحبين بوضوح ان الخليفة لا يخالف لمروان أو معاوية رأيا. وهذان لن يشيرا عليه الا باستخلاف اموي من بعده. واصبح السكوت عن مسلك الخليفة وولاته تأييدا لبقاء الخلافة في بني امية وانتقالها من عثمان الى معاوية فاعلنا معارضتهما له.

لقد جهدت قريش في ابعاد الخلافة عن اهل بيت الرسول لئلا تستقر فيهم فلا ينال سائر القبائل القرشية منها نصيب. وها هم بعد كل ذلك المجهود رأوا انهم سيقعون في اشد مما كانوا يفرون منه. لقد رأوا الخلافة وصلت إلى امية، وها هي توشك ان تستقر فيهم، وهم ليسوا اهل بيت الرسول بل خصومه.

وام المؤمنين

وقد انضمت الى المعارضة ام المؤمنين عائشة زوجة الرسول وحذت حذوها حفصة ام المؤمنين الأخرى. وكانت عائشة تنعى على عثمان انه خالف سنة رسول الله. وربما عرضت في بعض الاحيان ثوبا من ثياب الرسول قائلة: ان ثوب الرسول ما بلي بعد، ولكن عثمان ابلى سنة رسول الله. وكانت تسمي عثمان نعثلا. ويذكر المؤرخون انها كانت تقول: «اقتلوا نعثلا فقد كفر.»[٢٨]

واعتقد ان الدافع الى معارضتها للخليفة كان سياسيا ولم يكن دينيا. فقد عارضت فيما بعد عليا وهو أشد الناس اتباعا لسنن الرسول واعظم المسلمين حرصا على الاسلام. وكانت في معارضتها لأخ الرسول وصفية اشد عنفاً منها في معارضتها لعثمان. واذا كانت نقمت على عثمان انه ضرب بعض الاصحاب وانه تصرف في اموال المسلمين بما يخالف السنة فأنها قادت مع طلحة والزبير فيما بعد حملة عسكرية في البصرة ذهب ضحيتها الوف المسلمين. وقتل المسلمين اعظم عند الله من ضربهم أو سلب اموالهم.

وارى ان الدافع في معارضتها لعثمان هو نفس الدافع في معارضة طلحة والزبير. انها كانت تريد ان تنتقل الخلافة الى ابن عمها طلحة بن عبيد الله التيمي. وان اخطأت الخلافة طلحة فلتنتقل الى الزبير زوج اختها اسماء.

وكانت ام المؤمنين تسر كثيراً كلما تعاظم نفوذ طلحة في معارضته للخليفة. روى الطبري ان عائشة قالت لابن عباس: «انشدك الله فأنك قد أعطيت فهما

---

(٢٨) تاريخ الطبري في احداث سنة ٣٦ ص ٣١١٢وفي الكامل لابن الاثير ج ٣ ص ١٠٢.

ولساناً وعقلا ان لا تخذل الناس عن طلحة. فقد بانت لهم بصائرهم في عثمان وانهجت ورفعت لهم المناير وتجلبوا من البلدان لأمر عظيم قد حم. وان طلحة فيما بلغني قد اتخذ رجالا على بيوت الاموال واخذ مفاتيح الخزائن. واظنه يسير ان شاء الله بسيرة ابن عمه ابي بكر.» فقال لها ابن عباس: يا أماه لو حدث بالرجل حدث ما فزع الناس الا الى صاحبنا (علي). فقالت إيهاً عنك يا ابن عباس. اني لست اريد مكابرتك ولا مجادلتك.(٢٩)

وافكر انها كانت تنظر بعيني طلحة والزبير وترى ان الامل بوصول اي منهما الى الخلافة كان يتضاءل كلما اشتد نفوذ الامويين بتطاول عمر الخليفة. انها كانت ترى بوضوح ان الخليفة لا يقطع امراً دون مشورة مروان ومعاوية. وهذان لن يشيرا على عثمان باستخلاف غير اموي. ولذلك رأت كما رأى طلحة والزبير ان من الضروري معاجلة عثمان قبل ان يبرم الامر لخليفة اموي من بعده. وكانت ترى كما يرى الصاحبان ان في السكوت عن عثمان تأييدا للأمويين وعونا لهم في الاستمساك بالخلافة وتداولها بينهم.

وعمرو بن العاص

وهنالك معارض سياسي آخر لم يكن له طمع في الخلافة فهو لم يكن السابقين الى الاسلام ولا من اعضاء الشورى وما كان له من الطول والنفوذ ما يجعله من الطامحين الى المركز الاعلى: ذلك عمرو بن العاص. لقد كانت معارضته بدافع الثأر لنفسه. انه كان واليا على مصر في ايام عمر. وكان يطمع في البقاء في منصبه. ولو أبقاه عثمان في منصبه لكان شديد الولاء له. ولكن عثمان عزله وولى مكانه عبد الله بن سعد بن ابي سرح. فعاد الى المدينة ينتظر الفرصة ليثب على عثمان.

وحينما حانت الفرصة كان من كبار المحرضين على الخليفة. وقد استخدم كل ذكائه ودهائه في تأليب الناس عليه. حتى اذا قتل عثمان ووعده معاوية بولاية مصر انضم الى المطالبين بدمه.

---

(٢٩) نقله ابن ابي الحديد في شرح النهج مجلد ٢ ص ٥٠٦

(٥)
وغير الطامحين من الاصحاب

واذا كان الاصحاب من قريش قد عارضوا عثمان واشتدوا في معارضتهم بدافع سياسي فإن افرادا من خيرة الاصحاب لم يكونوا من قريش رفعوا أصواتهم في نقد سياسة عثمان دون ان يكون لهم أي مأرب دنيوي.

ابو ذر

منهم الصحابي المعروف ابو ذر الغفاري. فقد روي انه لما اعطى عثمان مروان ما اعطاه واعطى زيدا بن ثابت مائة الف درهم والحارث بن الحكم ثلاثمائة ألف درهم جعل ابو ذر يقول: بشر الكافرين بعذاب اليم ويتلوا قوله تعالى:
﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ثم لا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم.» فأرسل اليه عثمان ينهاه عن ذلك، فقال ابو ذر: أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله وعيب من ترك امر الله؟ فوالله لأن ارضي الله بسخط عثمان احب الي وخير لي من أن اسخط الله برضاه. فاغضب ذلك عثمان. ولقد كان من اليسير لعثمان معالجة مشكلة ابي ذر وسائر المنتقدين. وقد وصفها له ابو ذر نفسه، اذ قال له يوما: اتبع سنة صاحبيك لا يكن لأحد عليك كلام. ولكن الخليفة لم يكن يرى هذا الرأي. ولذلك اراد ان يعالج المشكلة بمعاقبة من يمكن عقابه من المنتقدين. ويظهر ان الخليفة لم يقدّر ان معالجة مشكلة النقد المخلص بالشدة ستجر عليه مشاكل اشد خطرا.

لقد كان من العسير على الخليفة ان يعاقب معارضيه من قريش لما كان لهم من طول. اما أبو ذر وامثاله فبالرغم من ماضيهم الإسلامي الناصع فأنهم لم يكونوا ذوي قوة أو انصار أو مال. وقد اختار لهم نوعا من العقوبة ما كان يتناسب مع عملهم. لقد اختار لأبي ذر عقوبة النفي من الارض وهي في القرآن جزاء الذين

يحاربون الله ورسوله ويفسدون في الارض. وما كان ابو ذر من هؤلاء بل كان من الصالحين المصلحين الذين لا ينتقدون حبا بالنقد بل حبا بالاصلاح وامراً بالمعروف ونهيا عن المنكر. وهو لم يخلع طاعة ولا دعا الى ثورة. وقد انتقد الرسول واحد من المنافقين فقال له: اعدل. فلم ينفه من الارض ولم يعاقبه بل قال له: ويحك ان لم اعدل فمن يعدل؟ وكان ابو بكر يقول: اطيعوني ما اطعت الله. فان عصيته فلا طاعة لي عليكم. وكان عمر يقول: اذا رأيتم في اعوجاجا فقوموني.

لم يشأ ان يتخذ عثمان مثل موقف هؤلاء بل شاء ان ينفي ابا ذر، فنفاه الى الشام ليكون تحت سيطرة اقوى الولاة الامويين معاوية الذي اصبحت ولايته دولة ضمن دولة. ولكن ابا ذر رأى في بذخ معاوية واسرافه وتبذيره لأموال المسلمين اعظم مما كان يرى في المدينة. فرفع صوته بانتقاد معاوية. وبنى معاوية قصره (الخضراء). فقال له ابو ذر: يا معاوية ان كانت هذه من مال الله فهي الخيانة. وان كانت من مالك فهو الاسراف. وكان يأتي الى باب معاوية فيصرخ قائلا: « ..... اللهم العن الآمرين بالمعروف التاركين له. اللهم العن الناهين عن المنكر المرتكبين له... »

وقد امر الخليفة برد أبي ذر الى المدينة استجابة لطلب معاوية. فحمل اليها بطريقة لم يكن فيها القليل من الرحمة. واذ رأى الخليفة اصرار ابي ذر على موقفه من سياسته امره بالخروج من المدينة. فاستأذنه بالعودة الى الشام او الذهاب الى العراق أو مصر (او الى مكة في احدى الروايات)، فلم يأذن له. وامره بالذهاب الى بادية نجد قائلا له: امض على وجهك هذا فلا تعدون الربذة. وامر الناس ان يكلموا ابا ذر ولا يودعوه. وحينما خرج ابو ذر خرج معه مروان ليمنع الناس من مكالمته. ولم يخرج لوداعه سوى الامام علي وولديه الحسنين واخيه عقيل وعمار بن ياسر. وما كان خرق هؤلاء الحصار الاجتماعي المضروب على ابي ذر ليحدث دون ان تعقبه مشادة بين علي وعثمان. وقد قال الامام لأبي ذر وهو يودعه:

« يا ابا ذر، انك غضبت لله فارج من غضبت له. ان القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك. فاترك في ايديهم ما خافوك عليه. واهرب منهم بما خفتهم عليه. فما احوجهم الى ما منعتهم. وما اغناك عما منعوك. وستعلم من

الرابح غدا والاكثر حسدا. ولو أن السماوات والارضين كانتا على عبد رتقا ثم اتقى الله لجعل الله له منهما مخرجا. لا يؤنسنك الا الحق ولا يوحشنك الا الباطل. فلو قبلت دنياهم لأحبوك. ولو قرضت منها لأمنوك.»[٢٨]

وفي بعض الروايات ان ابا ذر خرج من تلقاء نفسه الى الربذة. ولكن من غير المحتمل ان يختار ابو ذر التغرب بعد الهجرة على الاقامة في مصر من امصار المسلمين. وعلى كل حال فان مما لا ريب فيه انه نفي اولاً الى الشام ثم اعيد الى المدينة دون ان يستشار في الحالين.

لقد اقام ابو ذر في الربذة، فعاش في فقر وضيق غير محتملين حتى مات. وحينما مات لم يكن في الربذة عدد من الناس يكفي للقيام بمهمة دفنه لو لم يمر عبدالله بن مسعود في ركب من اهل الكوفة كان مالك الاشتر واحدا منهم.

وقد كان نفي ابي ذر خطأً سياسيا كبيرا من جانب عثمان. فقد اعظم المسلمون ان ينفى ذلك الصحابي الجليل الذي كان لا تأخذه في الله لومة لائم والذي احبه الرسول حبا شديدا وقال فيه: «ما اظلت الخضراء ولا اقلت الغبراء من ذي لهجة اصدق من ابي ذر.» وقد شعر المسلمون الصالحون تجاه ما حدث لابي ذر شعورهم تجاه كبير من شهداء الحق والصدق الذين امتلأت نفوسهم بالاخلاص للمثل العليا واسترخصوا افدح المصائب في سبيلها.

وعبد الله بن مسعود

ومن بارزي الاصحاب الذين رفعوا اصواتهم بنقد الخليفة ومعارضته عبد الله بن مسعود. الذي لم يكن قرشيا ولا كان له مطمع سياسي. وقد مر انه كان على بيت المال في الكوفة ثم استقال غاضبا حينما كتب اليه عثمان يقول له: « .... انما انت خازن لنا فلا تعرض للوليد فيما اخذ من بيت المال.» ويروى انه كان يقول في خطبه الاسبوعية جاهرا، معرضا بالخليفة: «ان اصدق القول كتاب الله

---

(٢٨) نهج البلاغة ج ٢

واحسن الهدى هدى محمد. وشر الامور محدثاتها. وكل محدث بدعة. وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.»

وقد استقدمه الخليفة الى المدينة بعد ان كتب اليه الوليد بما يقوله عبد الله. فلما دخل عبد الله مسجد الرسول قال عثمان: «الا انه قدم عليكم دويبة سوء من يمشي على طعامه يقيء ويسلح. فقال ابن مسعود: لست كذلك. ولكني صاحب رسول الله يوم بدر ويوم احد ويوم بيعة الرضوان ويوم الخندق ويوم حنين. فأمر عثمان خادما له ان يخرج عبد الله من المسجد اخراجاً عنيفا فحمله هذا في المسجد الى بابه وضرب به الارض فكسر ضلعا من اضلاعه. ثم قطع عنه عطاءه: وعاش عبد الله بعد ذلك سنتين أو ثلاثا استمر في معارضته لعثمان خلالها. وحينما مات اوصى ان لا يصلي عليه عثمان. وكان قد عهد في ذلك الى عمار بن ياسر فدفن عمار عبد الله دون ان يؤذن الخليفة.

وعمار بن ياسر

الذي بكر في معارضته لعثمان ودعا الى قتال قريش من اجل عدولها بالخلافة عن علي لعثمان. ذلك انه كان يرى في شخصية عثمان جسرا تعبر عليه الخلافة من قدماء اصحاب الرسول الى الطلقاء من بني امية. وما كانت الاحداث المتتابعة الاّ لتؤكد له ولأمثاله من الصالحين صدق حدسهم. وما من شك بأن ما فعل بابي ذر وعبدالله بن مسعود زاد معارضة عمار شدة. وما كان ابن ياسر بالذي يسكت حينما يرى ما يتناقض مع كتاب الله أو سنن الرسول وما كانت شدة معارضته (وهو اشد المعارضين واولهم) الا لتعرضه الى عقوبة شديدة.

وقد اراد عثمان يوما ان ينفيه كما نفى ابا ذر فعارضه علي فهدد عثمان عليا بالنفي ايضا فقال له علي متحديا: «رم ذلك ان شئت.» وكان في بيت المال من الجواهر ما عظمت قيمته فحلى به عثمان بعض نسائه فتكلم الناس في ذلك واكثروا حتى غضب الخليفة. فقال يوما وهو يخطب: «لنأخذن حاجتنا من هذا الفيء وان رغمت انوف اقوام.» فقال له علي: «إذن تمنع من ذلك ويحال بينك وبينه.» وقال عمار: «اشهد الله ان انفي اول راغم من ذلك.» فقال له عثمان: «اعلي يا بن

المتكاء تجترىء؟ خذوه.» فاخذ ودخل عثمان فضربه حتى غشي عليه وظل مغشيا عليه حتى فاتته صلوات الظهر والعصر والمغرب. ولما افاق توضأ وصلى وقال: «الحمد لله ليست هذه اول مرة أوذينا فيها في الله.»[٢٩]

وروي ان جماعة من الأصحاب (منهم طلحة والزبير والمقداد وعمار) كتبوا كتابا الى عثمان عددوا فيه احداث عثمان وخونوه واعلنوا انهم مواثبوه ان لم يقلع. فأخذ عمار الكتاب الى عثمان فلما قرأ صدرا من الكتاب قال لعمار: اعلي تقدم من بينهم؟ فقال عمار: اني انصحهم لك. فقال له: كذبت يا ابن سمية. فقال له عمار: انا والله ابن سمية وابن ياسر. فامر عثمان غلمانا له فمدوا يدي عمار ورجليه وضربه برجله وهي في الحذاء على مذاكيره فأصابه الفتق وكان ضعيفا كبير السن فغشي عليه.[٣٠]

وعلى كل حال فقد كان عمار أشد المعارضين لعثمان واعلاهم صوتا. وكان لمعارضته كبير وزن لماضيه الاسلامي الناصع ولما قال فيه الرسول من كلمات نقلنا بعضها في اوائل هذا الفصل.

وقد مر ذكر المقداد بن الاسود الصحابي الجليل الآخر ومعارضته. ولم يذكر التاريخ شيئاً كثيرا عنه ايام نمو عدد المعارضين.

- ٦ -

وخارج المدينـــة

كانت قريش في جاهليتها تدعي بحكم جوارها لبيت الله تفوقا على سائر العرب، واراد الرسول الاعظم ان يطهر العقلية القرشية خاصة والعربية عامة من

---

(٢٩) انساب الاشراف للبلاذري ص ٤٨

(٣٠) شرح النهج مجلد ١ ص ٢٣٩

خراقة الفكرة الطبقية لأنها تتصادم مع كل ما يدعو اليه الاسلام من مساواة واخاء. ووقف الرسول يوم فتح مكة، قائلا:« يامعشر قريش ان الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى...» ولكن الرسول لم يعمر طويلا ليقتلع الفكرة الطبقية من جذورها. فبقيت في حال ركود وسبات.

وجاءت خلافة ابي بكر (رض) ترتكز في جدالها مع الأنصار على اولوية قريش بالقيادة فاستيقظت الفكرة الطبقية من ركودها ببدء عهده. ونمت في عهد الخليفة الثاني وافرطت في نموها في عهد الخليفة الثالث فاصبحت قريش ترى العالم الاسلامي مملكة لها واستعلت على العرب علوا كبيرا. وما كان ذلك الا ليحدث ردة فعل معاكسة لدى اولئك الذين عرفوا ان الاسلام دين المساواة والاخاء. ودين يهدف الى اعزاز كل مسلم وتشريفه. لا اعزاز فئة قليلة على حساب الملايين من المسلمين. وقد ساء الاحرار من المسلمين غير القرشيين ان قريشا تدعي كل ما تدعيه من تفوق باسم الدين! في حين ان الامويين الذين اصبحوا في زمن الخليفة سادة قريش كانوا اضعف المسلمين تدينا.

بدء المعارضة في الكوفه

انطلقت اول شرارة المعارضة خارج المدينة في القبائل المقيمة في الكوفة وقد كان اكثر هؤلاء من اليمانيين.ويذكر المؤرخون ان بدء ذلك كان في ايام سعيد بن العاص (الذي خلف الوليد بن عقبه بن ابي معيط على ولاية الكوفة.) في حادث وقع في مقر الوالي ولدى حضوره. ويختلفون في تفاصيله.

ففي رواية ان جماعة من قراء اهل الكوفة وخيارهم تذاكروا سواد الكوفة (بساتينها) في مجلس سعيد بن العاص. فقال صاحب شرطته عبد الرحمن بن خنيس الاسدي: لوددت انه للامير وان لكم افضل منه. فقال له مالك الاشتر: تمن للامير افضل منه ولا تمن له اموالنا. فقال عبد الرحمن: ما يضرك من تمنيَّ حتى تزوي ما بين عينيك. فوالله لو شاء كان له. فقال الاشتر: والله لو رام ذلك ما قدر عليه. فغضب سعيد وقال: انما السواد بستان لقريش. فقال له الاشتر اتجعل

مراكز رماحنا وما افاءه الله علينا بستانا لك ولقومك؟ وتكلم سواه. فقال عبد الرحمن الاسدي: اتردون على الامير مقالته؟ واغلظ لهم. فقال الاشتر: من ها هنا؟ لا يفوتنكم الرجل. فوثبوا عليه ووطأوه وطأ شديدا حتى اغمي عليه، ثم جروا برجله. فنضح بماء فافاق وقال للأمير: قتلني من انتخبت. فقال سعيد لا يسمر عندي احد ابداً.[٣١]

وتقول رواية اخرى انهم ذكروا في مجلس سعيد سخاء طلحة بن عبيدالله، فقال سعيد: من كان له ثراء طلحة واملاكه خليق بان يكون جوادا. ولو كان لي مثل ما لطلحة لأعشتكم في رغد. فقال غلام اسدي: وددت ان هذا الملطاط (ما كان للاكاسره على جانب الفرات من بساتين) لك. فقالوا: فض الله فاك. والله لقد هممنا بك، فقال ابوه: انه غلام فلا تجازوه. فقالوا: يتمنى لسعيد سوادنا؟ فثاروا بالغلام وأراد ابوه ان يدافع عنه فضربوهما حتى اغمي عليهما. وعرف بنو اسد فاحاطوا بالقصر فردهم سعيد. وعلى كل فإن كلا الروايتين تذكران ان الاشتر والآخرين ممن كانوا معه ابتعدوا عن الامير واطلقوا السنتهم في سعيد والخليفة. وكان هذا بدء ظهور المعارضة في الكوفة.

وسواء صحت هذه الرواية أو تلك فان في الحادثة دليلا على ان الناس في تلك الفترة كانوا قد أتخموا من قريش وسادتها وادعاءاتهم العريضة واستئثارهم باموال المسلمين. على اني اعتقد بان هذه الحادثة ان كانت السبب المباشر لبروز المعارضة فإنها لم تكن السبب الوحيد أو الأول. فما من شك بان معارضة عبدالله بن مسعود وخطبه التي كان ينتقد فيها سياسة عثمان وولاته كانت من الاسباب في فتح عيون اهل الكوفة على عيوب الجهاز الحاكم. وما حدث لأبي ذر من نفي وتشريد ايضا كان من اسباب اختيار فكرة المعارضة. وقد مرَّ أن الاشتر وآخرين كانوا في ركب ابن مسعود الذي تولى دفن الصحابي المظلوم. وما حدث بعد ذلك لعبدالله بن

---

(٣١) انساب الاشراف ج ٤ ص ٤٢

مسعود لدى قدومه الى المدينة من ضرب وقذف الى خارج المسجد وهو ذلك الصحابي الجليل الذي عرفه اهل الكوفة حق المعرفة كان سببا آخر. وبطشة عثمان بعمار بن ياسر الذي ولي الكوفة في ايام عمر وعرف فيه اهلها مثال الصلاح والزهادة والصدق كانت سببا آخر. كل ذلك جعل انفجار المعارضة لدى الصالحين من اهل الكوفة نتيجة متوقعة كانت تنتظر مناسبة للبروز فوجدتها في حادثة سعيد.

المعارضون ينفـون

ولقد لقيت المعارضة في الكوفة ما لقيه ابو ذر في المدينة. فقد اصبح النفي من الارض الجزاء التقليدي لمنتقدي الجهاز الحاكم. والمنفيون السياسيون اصبحوا يُسيَّرون الى الشام ليتلقوا تأديبهم على يد معاوية. اقوى رجل في الدولة.

منطق معاويـة

انزل المنفيون في كنيسة مريم ورآهم معاوية وتحدث اليهم اكثر من مرة وحاضرهم، وكان موضوع محاضرته فضل قريش في التاريخ جاهلية واسلاما. واستدل على فضل قريش بان قوم اصيبوا في تاريخهم إلا قريشاً فقد حماهم الله، وان الله جعل الخلافة في اصحاب الرسول من قريش فلا تصلح الاَّ عليهم. وقال لهم: ان الله كان يحوط قريشاً في الجاهلية وهم على كفرهم. أفتراه لا يحوطهم وهم على دينه؟

وقال لهم مرة: ان قريشا عرفت ان ابا سفيان كان اكرمها وابن اكرمها الا ما جعل الله لنبيه فانه انتخبه واكرمه. واني لأظن ان ابا سفيان لو ولد الناس لم يلد الا حازما.

واجابه صعصعة بن صوحان قائلا: قد كذبت. قد ولدهم خير من ابي سفيان (آدم) من خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وامر الملائكة فسجدوا له. وكان فيهم البر والفاجر والاخرق والكيّس.

وهكذا كان منطق معاوية مليئا بالتضليل. فهو يقول ان اباه ابا سفيان خير الناس بعد رسول الله. فهو خير من اهل بيت الرسول وخير من اصحاب الرسول بمن فيهم ابو بكر وعمر!!

وقد نسي معاوية ان الحماية الالّهية لقريش لم تكن اكراما لأبي سفيان وولده وامثالهم من القرشيين، بل كانت اكراما للبيت المحرم وللرسول الاعظم خير ذرية ابراهيم واستجابة لدعوة نبي الله ابراهيم الذي يحدثنا القرآن الكريم عنها:

﴿وإذ قال ابراهيم: رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق اهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر. قال: ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير.﴾[٣٢]

ولم يعلم معاوية ان الامامة في ولد ابراهيم ومنهم قريش انما تكون بعهد من الله. وانها لاتنال الظالمين منهم، سواء في ذلك الظالم نفسه والظالم لغيره. وهكذا نقرأ في كتاب الله:

﴿وإذ ابتلى ابراهيم ربّه بكلمات فأتمّهن، قال: اني جاعلك للناس اماما. قال: ومن ذريتي. قال: لا ينال عهدي الظالمين.﴾[٣٣]

والتاريخ يروي ان معاوية اخلى سبيل هؤلاء المنفين فعادوا الى الكوفة. وعادوا الى معارضتهم فنفوا مرة ثانية الى حمص، فكانوا تحت سلطان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد. وكان هذا اشد عليهم واعنف من معاوية. فاظهروا التوبة. وذهب الاشتر الى الخليفة فأذن له في الذهاب الى حيث شاء فاختار الرجوع الى حمص، حتى إذا اشتدت المعارضة ذهب الى الكوفة فقاد مع يزيد بن قيس جمعا الى مكان يدعى الجرعى ليحولوا بين سعيد بن العاص وبين الدخول الى الكوفة. إذ كان عائدا من زيارته للخليفة. فعاد سعيد الى المدينة. وطلبوا من عثمان ان يولي على الكوفة ابا موسى الاشعري فولاه. ونتمكن ان نتصور شدة المرارة التي كان

---

(٣٢) سورة البقرة (٢) آية ١٢٦

(٣٣) نفس السورة آية ١٢١

يشعر بها هؤلاء المنفيون حين نقرأ كتاب مالك الاشتر ردّاً على كتاب كان ارسله الخليفة الى اهل الكوفة يؤنب فيه المعارضين:

«من مالك بن الحارث الى الخليفة المبتلى، الخاطىء الحائد عن سنة نبيه النابذ لحكم القرآن وراء ظهره:

اما بعد فقد قرأنا كتابك. فَانْهِ نفسك وعمالك عن الظلم والعدوان وتسيير الصالحين نسمح لك بطاعتنا. وزعمت اننا ظلمنا انفسنا. وذلك ظنك الذي ارداك فأراك الجور عدلا والباطل حقا. واما محبتنا فان تنزع وتتوب وتستغفر الله من تجنيك على خيارنا وتسييرك صلحائنا واخراجك ايانا من ديارنا وتوليتك الاحداث علينا وان تولي مصرنا عبدالله بن قيس ابا موسى الاشعري وحذيفة فقد رضيناهما. واحبس عنا وليدك وسعيدك ومن يدعوك اليه الهوى من اهل بيتك ان شاء الله. والسلام.»[٣٤]

وقد امتدت المعارضة الى البصرة فوجد فيها كثير من الناقمين على سياسة الخليفة. ولم تكن المعارضة في مصر اقل عنفا منها في الكوفة. ويذكرون ان محمداً بن ابي بكر ومحمداً بن ابي حذيفة ذهبا الى مصر والّبا فريقا من الناس على الخليفة. وما كانا يحتاجان الى برهان يأتيان به الى اهل مصر من خارجها، وعبدالله بن سعد بن ابي سرح فيها يحكم اهلها ويعسف بهم. وقد روي انه قتل احد شكاته للخليفة بعد عودة الشاكي من المدينة.

وروي ان جمعا من اهل المدينة من الصحابة وغيرهم كتبوا الى من بالآفاق منهم: «ان اردتم الجهاد فهلموا اليه. فان دين محمد (ص) قد افسده خليفتكم فاقيموه.» فاختلفت قلوب الناس عليه.[٣٥]

---

(٣٤) انساب الاشراف للبلاذري ج ٤ ص ٤٦

(٣٥) الكامل لابن الاثير ج ٣ ص ٧٣ وفي ص ٨٣

(٧)
وتذكـر الناس عليـا

وكان من الطبيعي امام هذه الاحداث ان يلهج الناس من غير قريش بذكر علي بن ابي طالب وان يتذكروا موقف قريش منه والخطأ الفادح الذي ارتكبه اصحاب الشورى حين صرفوا الخلافة عنه الى عثمان فزجوا الامة في اكبر معضلة واجهها المسلمون. وقد بان لذوي البصائر بوضوح ان الأمة ما كانت لتواجه تلك المعضلة لو ولي علي الامر بعد الخليفة الثاني. واصبحوا يفكرون ان خلافة علي هي الحل الوحيد لما تتخبط فيه الأمة من مشاكل.

كثر هتف الناس باسم علي، واصبح عثمان يرى في وجود علي وحضوره في المدينة ما يزيد في متاعبه. فكان يطلب منه ان يتغيب عن المدينة ليتناساه الناس. وحينما تشتد الازمة كان يطلب منه العودة ليكف عنه الناس. جاءه ابن عباس يوما برسالة من عثمان يسأله فيها الخروج الى ماله بينبع ليقل هتف الناس باسمه فقال له:

« يا بن عباس، ما يريد عثمان الا ان يجعلني جملا ناضحا بالغرب، اقبل وادبر. بعث الي ان اخرج، ثم بعث الي ان اقدم. ثم هو الآن يبعث الي ان اخرج، والله لقد دفعت عنه حتى خشيت ان اكون آثما. »[٣٦].

المشكلة التي يواجهها علي

وقد واجه علي في عثمان مشكلة تفوق ما واجه عثمان في حكمه من مشاكل. فقد كان باستطاعة عثمان ان يحل كل مشاكله بتغيير سياسته المالية المسرفة وعزل عماله

---

(٣٦) نهج البلاغة ج ٢ ص ٢٣٣

الامويين واقصاء مروان بن الحكم. وفي ذلك ما يعيد للناس ثقتهم به، ويرضيهم عنه. اما علي فلم يكن يملك اي حل لمعضلته ومعضلة الأمة في عثمان. لقد كان يرى بنافذ بصيرته ان مستقبل الأمة ومصيرها الى مدى بعيد سيتقرر بما سيحدث لعثمان. فعثمان قد تورط في سياسة ستؤدي الى امتلاك الامويين سلطان الاسلام. والامويون قوم لم يخلصوا لدين الله يوما ولم يدخلوا في الاسلام الا بعد ان ضربوا عليه. وعلي كان يعرفهم اشد المعرفة كبارا وصغارا. وهو الذي ضربهم على الدين واذل معاطسهم حتى دخلوا الى الدين وهم كارهون. وكان يعرف انهم إذا ملكوا جعلوا مال الله دولا وعباده خولا ودينه دخلا. فماذا سوف يحدث والبلاد تتمخض عن ثورة هوجاء، لم يواجه المسلمون بعد مثلها؟

لقد كان امام عثمان ثلاثة مسالك: التمسك بسياسته وخلافته أو استقالته أو اصلاح جذري. المسلكان الاولان شر والثالث غير مأمول. فهو ان اصر على سياسته سوف يقتل. وقتله سوف يكون حادثاً فظيعا بشعا. ولدى الأمويين من القوة والانصار ما يجعلهم قادرين على تحدي صالحي المسلمين باشعال حرب بحجة الطلب بدم عثمان قريبهم، متخذين ذلك سُلَّماً الى الاستيلاء على سلطان الاسلام.

ولو اجبر عثمان على الاستقالة من الخلافة واستقال واختار الناس بديلا له لما سكت الامويون، وهم يملكون المال و لديهم الرجال. وبامكانهم ان يعلنوا ان عثمان هو الخليفة الشرعي وان اجباره على الاستقالة لا يزيل شرعيته. ويصلون بذلك الى ما يريدون. بل يكون وصولهم الى ذلك ايسر مما لو قتل.

اما الاصلاح فلم يكن في سيرة عثمان ما يبعث على توقعه. فلو اراد الخليفة تغيير سياسته المالية وعزل الاشرار من اقاربه لثناه اقاربه عما يريد. وما كان لديه من قوة الارادة ما يجعله بمأمن من تأثيرهم على تفكيره.

لقد كان علي يعرف كل ذلك ولكنه سعى جهده للوصول الى الحل الثالث تجنبا لشرور الحلين الآخرين. ويذكر المؤرخون ان نفرا من اصحاب الرسول المقيمن في المدينة كتبوا الى الأصحاب المقيمين في الثغور ان اقدموا الى المدينة، فان الجهاد عندنا. وعظَّم الناس على عثمان ونالوا منه، وليس احد من الصحابة يذب عن الخليفة الا زيد بن ثابت وابو أسيد الساعدي وكعب بن مالك وحسان بن

ثابت (هؤلاء كانوا ينالون الكثير من هبات الخليفة). وقد اجتمع الاصحاب فكلموا عليا بن ابي طالب ليكون وسيطا بينهم وبين عثمان.

علي يحاول حل الأزمة

ذهب بسفارته. فكلم الخليفة وكان مما قاله له:

«الناس ورائي وقد كلموني فيك. والله ما ادري ما اقول لك. وما اعرف شيئا تجهله، ولا ادلك على امر لا تعرفه. ... وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله (ص) ونلت صهره. وما ابن ابي قحافة باولى بعمل الحق منك. ولا ابن الخطاب باولى بشيء من الخير منك. وانك لأقرب الى رسول الله رحما. ولقد نلت من صهر رسول الله ما لم ينالا، ولا سبقاك الى شيء. فالله الله في نفسك.. وانك والله ما تبصَّر من عمى ولا تعلَّم من جهل. وان الطريق لواضح بيّن. وان اعلام الدين لقائمة.

«تعلم يا عثمان ان افضل عباد الله عند الله امام عادل هُدي وهدى، فاقام سنَّة معلومة وامات بدعة متروكة. ... وان شر الناس امام جائر ضل وضل به. فأمات سنة معلومة واحيا بدعة متروكة. واني سمعت رسول الله يقول: يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر. فيلقى في جهنم فيدور في جهنم كما تدور الرحى ثم يرتطم في غمرة جهنم.»

«واني احذرك الله واحذرك سطواته ونقماته فان عذابه شديد أليم. واحذرك ان تكون امام هذه الامة المقتول. فانه يقال يقتل امام في هذه الامة فيفتح عليها القتل والقتال الى يوم القيامة. ويلبس امورها عليها ويتركهم شيعا فلا يبصرون الحق لعلو الباطل. يموجون فيها موجا ويمرجون فيها مرجا.»

ولم تسُر كلمات علي عثمان. وقال لعلي ان عمر استعمل امثال من استعملهم هو. واجابه علي: ان عمر كان اذا استعمل شخصا وطأ على صماخه. ان بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به اقصى الغاية. وانت ضعفت ورفقت على اقربائك. فقال عثمان: هم اقرباؤك ايضا. واجابه علي: لعمري ان رحمهم مني لقريب، ولكن الفضل في غيرهم. فقال عثمان: هل تعلم ان عمر ولى معاوية خلافته كلها؟ فقد

وليته. فقال علي: انشدك الله هل تعلم ان معاوية كان اخوف من عمر من يرفأ غلامه؟ قال عثمان: نعم فقال علي: «فان معاوية يقتطع الامور دونك وانت تعلمها. فيقول للناس هذا امر عثمان، فيبلغك ولا تغير على معاوية.»[٣٧]

وهكذا نرى الرجل الذي كان ينتظر ان يكون اشد الناس معارضة للخليفة لأنه كان يرى ان الخلافة حقه كان اكثر الناس محافظة عليه واشدهم سعيا لاستصلاحه. ولكن عثمان اعتبر ذلك استفزازا فصعد المنبر والقى خطبة نارية توعد فيها المعارضين بالعقوبة. وما كان ليفعل سوى ذلك، ومروان مستشاره. فازداد أوار المعارضة.

ويظهر ان كتب الاصحاب المعارضين من سكان المدينة التي ارسلت الى الآفاق اتت بنتائجها المنتظرة. فقد اتت وفود من مصر والكوفة والبصرة. وكلهم يطلبون من الخليفة عزل ولاته أو استقالته ويهددونه بالقتل ان رفض الحلين. وحينا رأى الخليفة ذلك اتى عليا وطلب منه ان يذهب اليهم ليردهم عنه. فقال له علي: على اي شيء اردهم؟ فقال له: على ان أصير الى ما أشرت اليه ورأيته لي. فذكره علي بانه كلمّة في الاصلاح اكثر من مرة وانه وعد بذلك اكثر من مرة. وانه كلما قطع على نفسه عهدا بالاصلاح ثناه عن تنفيذه مروان ومعاوية وابن عامر وعبد الله بن سعد. فقال له عثمان: سأعصيهم واطيعك.

علي يتوسط بين الثائرين والخليفة فينجح

ركب علي في ثلاثين رجلا من قريش والانصار. فكلم المصريين ووعدهم بالنيابة عن الخليفة بتنفيذ ما يريدون. فقبلوا منه. وحينا عاد الى الخليفة أشار عليه ان يذهب الى المسجد ويقطع على نفسه وعدا أمام الناس بالاصلاح. وفعل الخليفة ما أشار به علي فقال:

---

(٣٧) الكامل لابن الاثير ج ٣ ص ٧٣ - ٨٤

«انا أول من اتعظ. استغفر الله مما فعلت واتوب اليه. فمثلي من نزع وتاب. فإذا نزلت فليأتين اشرافكم فليروا فيَّ رأيهم. فو الله لئن ردني الحق عبدا لأستنن بسنة العبد ولأذلن ذل العبد. وما عن الله مذهب الا اليه. فو الله لأعطينكم الرضا ولأنحين مروان، وذويه ولا احتجب عنكم.» فرق الناس وبكوا حتى اخضلت لحاهم وبكى الخليفة ايضا وامل الناس خيرا.

مروان يثني الخليفة عن عزمه

ولكن مروان كان بالمرصاد. فلما ان عاد عثمان الى منزله حتى ثناه عن رأيه واعاده الى موقفه الاول. وخرج مروان الى الجموع التي كانت تنتظر الاصلاح فكلمهم باذن الخليفة ولسانه. فشتمهم وقال: «.... جئتم تريدون ان تنزعوا ملكنا من أيدينا؟ اخرجوا عنا. والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا امر لا يسركم....»

ولما بلغ عليا ذلك قال: «يا عباد الله، ان قعدت في بيتي قال لي: تركتني وقرابتي وحقي. واني إن تكلمت فجاء ما يريد يلعب به مروان. فصار سيِّقه طيعة له يسوقه حيث يشاء بعد كبر السن وصحبة رسول الله (ص). ثم ذهب الى عثمان مغضبا فقال له:

«اما رضيت من مروان ورضي منك الا بتحرفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الظعينة يقاد حيث يشاء ربه؟ والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا نفسه. وايم الله، إني لأراه يوردك ولا يصدرك. وما انا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك. اذهبت شرفك وغلبت على رأيك.»[٣٤]

وكفَّ علي بعد هذا الموقف عن التوسط بين عثمان وخصومه.

---

(٣٤) نفس المصدر ص ٨١ - ٨٢ (طبع دار الكتاب العربي)

طلحة يتآمر على عثمان وعليّ يحبط المؤامره

وجاءه عثمان يوما وهو محصور فقال له: ان لي حق الاخاء والاسلام والقرابة والصهر ولو لم يكن من ذلك شيء وكنا في الجاهلية لكان عارا على بني عبد مناف ان ينتزع اخو بني يتم (طلحة بن عبيد الله) امرهم. وكان طلحة قد ظاهر الثائرين وأيدهم في حصارهم الذي ضربوه على عثمان. ولعل مجيئهم الى المدينة كان نتيجة لمكاتبته وتحريضه.

وذهب علي الى دار طلحة فقال له: يا طلحة، ما هذا الامر الذي وقعت فيه؟ فقال له طلحة: يا ابا الحسن، أبَعْدَ ما بلغ الحَزام الطبيين؟ فانصرف علي حتى اتى بيت المال. فقال: افتحوه. فلم يجدوا المفاتيح فكسر الباب واعطى الناس

فانصرفوا من عند طلحه حتى بقي وحده. وسر بذلك عثمان. وجاء طلحة فدخل على عثمان وقال له: يا امير المؤمنين أردت أمرا فحال الله بيني وبينه. فقال عثمان: والله ما جئت تائبا، ولكن جئت مغلوبا. حسيبك الله.[٣٥]

وعن ابن عباس انه قال: « دخلت على عثمان وهو محصور، (وكان ذلك قبل ان يبعث ابن عباس أميراً على الحج في تلك السنة) فأخذ بيدي فأسمعني كلام من على بابه. فمنهم من يقول: ما تنتظرون به؟ ومنهم من يقول: انظروا عسى ان يراجع. فبينا نحن واقفون اذ مر طلحة فقال: اين ابن عديس (وكان من قادة الثائرين المصريين)؟ فقام اليه فناجاه، ثم رجع ابن عديس فقال لأصحابه: لا تتركوا احدا يدخل على عثمان ولا يخرج من عنده. فقال لي عثمان: هذا ما أمر به طلحة. اللهم اكفني طلحة فانه حمل علي هؤلاء وألّبهم علي. والله لأرجو ان يكون منها صفراً وأن يسفك دمه. قال ابن عباس: فأردت ان أخرج فمنعوني حتى

---

(٣٥) نفس المصدر ص ٨٤

أمرهم محمد بن أبي بكر، فتركوني أخرج.»[٣٦]

اما الزبير فقيل انه خرج من المدينة قبل ان يقتل عثمان وقيل أدرك قتله. واما عائشة فانها ذهبت الى الحج في تلك السنة فكانت تحرض على عثمان وهي في حجها وقد مر قولها لابن عباس يوم كان كلاهما في الحج: «انشدك الله، فانك اعطيت فهما ولسانا وعقلا، ان لا تخذل الناس عن طلحة....»

علي يوصل الماء الى الخليفة المحصور

وحينما منع الماء عن عثمان قال علي لطلحة: اريد ان تدخل عليه الروايا وغضب غضبا شديدا حتى دخلت الروايا على عثمان وحاول مرة أخرى ايصال الماء اليه. فكلم الثائرين قائلا: ان الذي تفعلون لا يشبه امر المؤمنين ولا امر الكافرين. فلا تقطعوا عن هذا الرجل الماء ولا المادة. فان الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقي. فقالوا: لا والله ولا نعمت عين.

لقد استمر الحصار المضروب على الخليفة نحوا من اربعين يوما والثائرون يحاولون ان يحملوه على تغيير سياسته أو الاستقالة. وقد رفض رفضا باتا ان يستقيل قائلا: «لا انزع قميصا البسنيه الله.» وكان من الخير ان لا يستقيل عثمان. ولكنه كان مخطئا في قوله ان الخلافة ثوب البسه الله اياه. فالله لم يلبسه ذلك الثوب ولم تكن خلافته بعهد من الله ورسوله. والذي البسه الثوب هو عبد الرحمن بن عوف ومن ورائه قريش، وان شئت فقل: الخليفة الثاني (رض). ويظهر ان الثائرين ما كانوا يريدون منه بادىء بدء ان يستقيل، ولا كانوا يريدون قتله. وكل ما كانوا يهدفون اليه ان يحملوه على تغيير سياسته المالية وعزل ولاته وابعاد مروان عنه. وقد وعدهم بذلك اكثر من مرة فلم ينفذ ما وعد به. فطلبوا منه ان يستقيل فامتنع. فلجأ الثائرون الى العنف.

---

(٣٦) نفس المصدر ص ٣٧

الامويون يخذلون قريبهم

ومن المدهش ان معاوية وسائر الولاة الامويين لم يسرعوا الى اغاثة قريبهم الخليفة بارسال الجنود لفك الحصار وصد المهاجمين، مع انه استغاث بهم. وقيل ان معاوية ارسل جيشا قارب المدينة، والخليفة محصور فلم يدخل الجيش المدينة لأن معاوية امر قائد الجيش ان لا يفعل شيئا حتى يأتيه امره. ويقال انه قال له: لا تقولن: يرى الحاضر ما لا يراه الغائب، فانت الغائب وانا الحاضر.

واهل المدينة لم يدفعوا عن الخليفة

وهنالك امر آخر يستدعي الانتباه: ذلك ان اهل المدينة لم يحركو ساكنا مع انهم كانوا اضعاف اعداد الثائرين ويظهر ان المهاجرين القرشيين منهم (عدا الامويين) كانوا قد ابتعدوا عن عثمان واستطالوا حياته وكرهوا استطالة الامويين على قريش وامتلاكهم ناصية العالم الاسلامي. وهكذا كانت أكثرية القرشيين في المدينة تتجاوب في شعورها مع الحزب الثلاثي المؤلف من عائشة وطلحة والزبير. واما الانصار فكانوا في اكثريتهم الساحقة ينطوون على كره لحكم عثمان، الذي بالغ في امر قريش وحمل ابعد قبائلها عن الاسلام على رقاب الناس. وما نال الانصار من عثمان ما ناله سواهم من اموال. والانصار كانوا بطبيعتهم اشد تدينا من القرشيين واكثر منهم حبا للسير على طبق كتاب الله وسنة نبيه. وهكذا خذل سكان المدينة عثمان ولم يدفعوا عنه شرا ولا مكروها.

دفاع علي وولده عن عثمان

والواقع ان الامام عليا كان اشد سكان المدينة كرها لقتل عثمان واحرصهم على استصلاحه. ولم يكتف في امره باظهار العاطفة أو الدفاع عنه بكلمة، بل حاول ان يدفع عنه بقوة السلاح وعرّض ولديه الحسنين اللذين كانا اعز عليه من عينيه الى الخطر في سبيل الدفاع عنه. لقد ارسلهما الى عثمان وامرهما ان يقفا على

باب الدار لحمايته. فكانا على باب الخليفة مع آخرين من ابناء الصحابة يمنعون الثائرين من الدخول اليه ولكن الثائرين اخبروا بان امدادات من الجنود آتية من الامصار وانها في طريقها الى المدينة للدفاع عن عثمان. فرأى بعضهم ان الحل الوحيد هو مقتل الخليفة. واذ لم يتمكنوا من الدخول عليه من باب الدار فانهم تسلقوا الى الدار فقتلوه، والذين على باب الدار لا يشعرون.

وهكذا وقع ما كان علي يسعى جاهدا ان لا يقع وفشلت كل مساعيه في منع حدوثه. لقد كان قتل الخليفة امرا بشعا، منكرا، وفاجعا خطير النتائج على مستقبل الاسلام والمسلمين. وما كان من الضروري ان يقع لو اصغى الخليفة المقتول لنصيحة ابن ابي طالب فأصلح ما فسد وعزل الأشرار من اقاربه وتبنى في اموال المسلمين سياسة تشبه سياسة سلفيه الصالحين. ولكن عثمان (رض) ما كان يملك من امره شيئا. فقد كان مروان بن الحكم طريد الرسول، الحاكم الحقيقي والمشير الذي لا يرد له الخليفة رأيا.

على اني اشك كل الشك انه كان باستطاعة عثمان (لو أراد) ان يعزل معاوية، بعد أن اصبح معاوية اقوى من الخليفة. فهب ان عثمان قال له اعتزل فلم يعتزل. هل كان يقدم الخليفة على اجباره؟ وهل كان لديه من القوة ما يكفي لاجباره؟

ماذا كشفت عنه النهاية المحزنة؟

ولا نستطيع ونحن نتحدث عن أحداث ايام عثمان ونهايته المحزنة الا ان نتذكر ما يلي:

لقد كشفت خلافة عثمان بكل مجرياتها عن صدق ما تحدثنا عنه في هذا الكتاب اكثر من مرة: وهو ان امر قيادة العالم الاسلامي بعد وفاة الرسول ما كان يصلح الا ان يكون بعهد من الرسول وانتقائه. فهو المؤيد بالوحي والالهام واعرف الناس بأهل بيته واصحابه واشد الناس حرصا على مصلحة امته. وما كان يجوز ان يترك امر تلك القيادة لصدف انتخاب يشترك فيه المسلمون أو أكثرهم أو يشترك فيه اعضاء طبقة مفضلة كاصحاب الرسول أو ارستقراطية كقريش ولا

لصدف انتقاء خليفة منتخب أو معين أو لانتقاء افراد كأعضاء الشورى.

ان انتخابا أو انتقاء يصيب مرة ويخطىء أخرى يكون خطرا على مستقبل امة تحمل الى نفسها والى العالم رسالة سماوية وهي لا تزال في مستهل نهوضها ونموها. وهو جدير بان يوصلها الى قيادة ضعيفة لا تصلح لحمل رسالتها او الى قيادة تنحرف بالأمة والرسالة عن طريقها الذي اختطه لها صاحب الرسالة.

ان نجاح صدفتي الانتخاب والتعيين اللتين أوصلتا ابا بكر وعمر (رض) الى الخلافة قد انسى المسلمين ومؤرخيهم وعلماءهم الفشل المدمر الذي انتجه انتخاب الخليفة الثالث. اجل لقد بهرت انجازات الخليفتين الحكيمين اعين المسلمين فلم يستطيعوا ان يروا ما اعطته احداث عهد عثمان من برهان صارخ على ان الانتخاب طريق غير سليم لا ينبغي لأمة ذات رسالة اصلاحية ان تسلكه وهي في بدء نهوضها لأنه يؤدي برسالتها الى الانحراف والفشل.

لقد نسي المسلمون امرا جليا كل الجلاء وهو أن هدف الرسالة الاسلامية لم يكن ان تسير الأمة على هداها وقوانينها اثنتي عشر سنة فقط هي مدة الخليفتين الاولين. بلى، لقد كان هدف الرسالة أعلى واسمى وأطول من ذلك بكثير.

ولو ان المسلمين اصغوا الى نداء الرسول الاعظم يوم غدير خم، لما عمرت الخلافة الراشدة اثنتي عشر عاما فقط، بل كانت امتدت بكل بركاتها ونورانيتها مئات السنين. ومن يدري؟ فلربما كان العالم كله قد تحول الى عالم اسلامي.

وإذا كان فريق من الاصحاب كانوا يرون ان تصريحات النبي شأن علي لم تكن واضحة في استخلافه على الامة، فما من شك بان تلك التصريحات كانت واضحة في ترشيح النبي اياه للخلافة ورغبته في أن يكون علي قائدا للامة بعده. وكان على الامة أن تستوحي في امر الخلافة تلك الرغبة النبوية المقدسة. ولو فعلت ذلك لجنبت نفسها مخاطر مهلكة.

ولقد كان طلحة وعائشة والزبير وهم أعظم المناوئين لعثمان نفوذا يخشون ان بقي عثمان في سلطانه ان يستخلف من بعده امويا ويرون ان قتله سيحل احد

الرجلين محله. وما كانوا يفكرون بأن عليا سيكون الخليفه من بعده لأنهم كانوا مطمئنين الى قوة قريش. وقريش سوف لا تختار عليا.

ولكنهم لم يقدروا ان قريشاً ستفقد سيطرتها على الموقف موقتا بعد قتل عثمان وان الكلمة الفاصلة في امر الخلافة في تلك الفترة ستكون لغير قريش.

القسم الثالث

الامام في عهد خلافته

الفصل الثاني والعشرون

ثم ارتدى المحروم فضل ردائها ففلت مراجل إحنة ونفار
وتأكلت تلك الجذى وتلمظت تلك الظبا ورقى اجيج النار.
ولو أنهم القو اليه زمامها لمشى بهم سمحا بغير مهار.
ولو أنها حلّت بساحة مجده بادي بدا سكنت بدار قرار.

لو ان قريشا كانت تملك امرها بعد قتل عثمان لما مكنت عليّا بن ابي طالب من الوصول الى الخلافة. ولو توقع طلحة والزبير وانصارهما ان يلي علي امر الامة بعد عثمان لما عارضوا عثمان ولا حرضوا على قتله. فقد كان كل من هذين يأمل ان يكون الأمر له لا لعلي لان قريشا تحرص على ابعاد الخلافة عنه. وقد قال علي للهاشميين يوم أصدر الخليفة الثاني تعلياته بشأن الشورى: «ان اطيع فيكم قومكم لم تؤمّروا ابدا[1].»

ولكن ما حدث هو ان الزمام افلت من ايدي قادة قريش اياما بعد قتل عثمان. فقد ذهلت قريش عن امرها ولم تدر ماذا تصنع.. وإذا كان قادتها من غير الأمويين قد حرضوا على الثورة، فان الذين قاموا بالثورة لم يكونوا من قريش. وكان لهم من النفوذ في تلك المدة القصيرة ما ليس للقرشيين. وما من شك بان سيرة الخليفة الثالث اظهرت للناس ان قريشا ارتكبت خطأ كبيرا حينما صدفت الخلافة عن علي الى عثمان. وما من شك بان الأنصار رأوا لهم متنفسا وفرصة للأنفلات من نفوذ قريش واستبدادها في توجيه الخلافة واعطائها لمن تشاء.

وهكذا حدث ان قريشا لم تطع في آل محمد هذه المرة. فأُمِّرَ آل محمد وبويع علي رئيس العترة الطاهرة. ومن عجيب المفارقات ان رغبة علي ورغبة قريش تصادمتا من قبل في شأن الخلافة ثلاث مرات. فقد كان علي يود ان تكون البيعة له ايام بويع ابو بكر ثم عمر ثم عثمان. وكانت قريش تقف في طريقه كل مرة وتصرف الخلافة عنه. ولكن رغبته ورغبة قريش لم تتصادما حينما عرضت عليه البيعة بعد

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٣ - ص ٣٣

قتل عثمان. كان قادة قريش يودون ان لا يصل علي الى الخلافة حسدا له. وكان علي يودُّ ان تصرف عنه الخلافة لأنه كان يتوقع ان يواجه فيها من المعضلات ما لا يتمكن مثالي مثله من التغلب عليه.

روى الطبري ان الأصحاب من المهاجرين والأنصار وفيهم طلحة والزبير اجتمعوا فأتوا عليا وقالوا له: انه لا بد لنا من امام. فقال لا حاجة لي في امركم. فمن اخترتم رضيت به. فقالوا: ما نختار غيرك. وترددوا اليه مرارا وقالوا له: انا لا نعلم أحدا أحق بهذا الأمر منك ولا اقدم سابقة ولا اقرب من رسول الله. فقال: لا تفعلوا فاني اكون وزيرا خير من اكون اميرا. فقالوا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك.

وروى الطبري ايضاً ان الناس لبثوا خمسة ايام بعد قتل عثمان وليس عليهم امام. فجمع الثائرون اهل المدينة وقالوا لهم: انتم اهل الشورى وانتم تعقدون الامامة وامركم جائز على الأمة. فانظروا رجلا تنصبونه ونحن لكم تبع. فقال الجمهور: علي بن ابي طالب نحن به راضون. وامهلهم الثائرون يومين ليفرغوا من امرهم. فغشى الناس علياً وقالوا: نبايعك، فقد ترى ما نزل بالاسلام وما ابتلينا به من بين القرى، فقال علي: «دعوني والتمسوا غيري، فإنَّا مستقبلون امرا له وجوه والوان. لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول». فقالوا: ننشدك الله. ألا ترى ما نحن فيه؟ الا ترى الاسلام؟ الا ترى الفتنة؟ الا تخاف الله؟ فقال «اجبتكم. واعلموا اني ان اجبتكم ركبت بكم ما اعلم وان تركتموني فانما انا احدكم. الا اني من اسمعكم واطوعكم لمن وليتموه امركم».

ثم افترقوا على ذلك واتعدوا الى الغد.... فلما اصبحوا يوم الجمعة حضر الناس الى المسجد وجاء علي حتى صعد المنبر فقال: «ايها الناس عن ملإ واذن. ان هذا الأمر امركم ليس لأحد فيه حق الا من أمَّرتم. وقد افترقنا بالأمس على امر فان شئتم قعدت لكم والا فلا أحد على احد». فقالوا: نحن على ما فارقناك عليه بالأمس. فبايعه الناس. وقيل ان طلحة كان اول من بايعه. واهل الكوفة يقولون

ان مالك الأشتر كان اول من بايعه[٢].

لقد قبل الامام البيعة كارها وكان في قرارة نفسه يتمنى ان تصرف عنه الى غيره. فالخلافة لم تكن في نظره غاية. وانما كان يراها وسيلة لنشر العدل بين الناس ونشر الاخاء بين اتباع الرسالة والوصول بالأمة الى حياة تقودها مبادىء القرآن وسنن الرسول. وكانت كل الأدلة تشير الى ان الوصول الى هذه الأهداف قد اصبح متعذرا.

لقد انفصمت وحدة الأمة في عهد الخليفة الثالث. وما كانت نهايته المحزنة الا لتزيد الأمة انقساما ونار الخلاف أوارا. وما كان منهاج علي الداعي الى المساواة والعدل والقضاء على الفساد والتمييز الطبقي الا ليلقى اشد المعارضة من عناصر كانت تتمتع بنفوذ قوي ولا تريد أن تتنازل عن امتيازاتها المكتسبة.

فقريش التي حالت بين علي والخلافة خمساً وعشرين سنة خوفا من ان تستقر الخلافة في اسرة النبي خير اسر قريش،سوف تستجمع قواها بعد ان افقدها مقتل عثمان توازنها لتكر على علي ابتغاء هدم خلافته.

والطبقة التي فضلت في العطاء منذ زمن الخليفة الثاني والتي طاب لها أن تثري بما نالته من فضول الأموال سوف تقاوم عليا الذي يرى ان يقسم المال بالسوية رجوعا الى عهد الرسول.

والذين نالوا من هبات عثمان وولاته الألوف وعشرات الألوف والذين نالوا من الأقطاعات في عهده ما اغناهم واعظم نفوذهم سوف يقاومون عليا الذي يرى استعادة ما نالوه الى بيت المال وملك الأمة

وطلحة والزبير عضوا الشورى اللذان يمثلان طبقة جديدة واللذان ألَّبا المسلمين على عثمان طمعا بالوصول الى الخلافة سوف يحاولان الكرة على علي بكل ما اوتياه من قوة. ولديهما الكثير من القوة. فثروة كل منهما كانت تقدر بعشرات الملايين من الدراهم ومعهما قبائل قريش ولديهما الكثير من الأنصار في البصرة

---

(٢) تاريخ الطبري في احداث سنة ٣٥ ص ٣٠٦٦ - ٣٠٧٧

والكوفة وتعضدهما فوق كل ذلك ام المؤمنين عائشة ذات النفوذ الواسع والصوت المسموع والتي ألّبت المسلمين على عثمان تمهيداً لخلافة ابن عمها طلحة او زوج اختها الزبير.

واخطر من ذلك كله الأمويون اسرة الخليفة المقتول الذين تعاظم نفوذهم في زمنه واصبح احدهم (معاوية) اقوى رجل في الدولة الاسلامية واصبح باستطاعته حشد مئة الف رجل في ميدان القتال كلهم يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه دون جدل او اعتراض.

وكانت تزيد في خطورة الأمويين وتمد نفوذهم وتؤكده الروح القبلية في المجتمع العربي التي تحمل اعضاء اي قبيلة مهما كثر عددهم ان يأتمروا بأمر رئيسهم وينتهوا بنهيه وان كان على ضلال. هذه الروح تنتج خيرا إذا كان سيد القبيلة من الأخيار الذين لا تغريهم المادة. وقليل هم الأخيار. ولكنها تنتج اعظم الشرور حينما يكون سيد القبيلة جشعا يرى دنياه امام دينه. ومن السهل على حاكم يتحكم بمقدرات شعب ان يشتري ولاء قبيلة مهما كثر عدد اعضائها بما يرضي رئيسها. وليس كالمال مفسد للضمائر. وقد اجاد الأمويون فن شراء الضمائر. وكانوا حكام الأمصار الاسلامية الكبرى فاستكثروا من الانصار واشتروا ولاء كثير من القبائل بما بذلوه في سبيل ارضاء رؤسائها.

لقد صرفت الخلافة عن اخ الرسول وصفيه حينما كان يتمكن من قيادة الأمة يوم كانت لا تزال في وحدتها، ودينها امام دنياها. وفرضت عليه الخلافة فرضا بعد ان انقسمت الأمة على نفسها واستفحلت فيها عناصر الشر واصبحت الخلافة تتحلب دما. وما كان لعلي ان يتهرب من مسؤوليته بالرغم من أنه كان يعلم في قرارة ضميره ان الأمر لن يتم له وان عناصر الشغب والشر التي ستقف ضده اقوى من عناصر الخير التي تدعمه، وان الأمويين سوف يستولون على سلطان الاسلام ويحولون الخلافة الى ملك عضوض ظالم. انه كان يعلم ذلك بحكم معرفته بما دبَّ في جسم الأمة من فساد وبما كان أنبأه به الرسول. وما كان علمه بما سيكون من فشل مجهوده ليبرر تقاعده بل كان يزيده مضاء وعزما في اداء واجبه الثقيل بعد ان وجد اعوانا على الحق يرغبون الوقوف في وجه الظلم وتطهير المجتمع الاسلامي من الفساد.

انه كان يتوقع استيلاء الامويين على سلطان الاسلام. ولكن استيلاءهم المتوقع ما كان قضاء محتوما من السماء لا دخل لارادة الانسان فيه، بل كان حدوثه نتيجة لتقاعس المسلمين عن اداء واجباتهم في اقامة الحق والوقوف في وجه الظلم. ولو تقاعد علي بعد ان بذل له خيره الأصحاب النصرة لكان عونا للأمويين على اهدافهم وشريكا لهم في آثامهم. فكان عليه ان ينهض بالأمر قياماً بالواجب والقاء للحجة على الأمة. فان هي ناصرته انتصر الحق ودفع عن المسلمين خطراً يتهدد دينهم ومستقبلهم كأمة ذات رسالة. وان خذلته الأمة فقد ادى واجبه وارضى ربه وضميره، وكان شأنه شأن الأنبياء الذين يخوضون معارك لا يأملون الانتصار فيها لأنهم يقاتلون قوى لا قبل لهم بها.

واذ وضعه المسلمون امام مسؤوليته وفرضوا عليه قبول البيعة فقد حاول هو ايضا ان يضعهم امام مسؤوليتهم. لقد انذر الراغبين في بيعته بانهم سيجابهون فتناً هَوْجَاء وان الامر سيتطلب تضحيات ثقيلة. فليس امامهم إلاّ الدماء والدموع. وعليهم ان يعرفوا ما هم قادمون عليه ولذلك قال لهم: انه وهم مستقبلون أمراً له وجوه والوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول.

واراد ايضا ان يعرف اصحاب الامتيازات المكتسبة والذين استمرأوا الاثراء على حساب الآخرين بانه سيرد الناس الى سنة الرسول وسيرته ولن يصغي للعاتبين واللائمين إذا لم يوافق الحق هواهم ولذلك قال لهم بعد ان وضعوه امام الأمر الواقع:

«اجبتكم. واعلموا اني ان اجبتكم ركبت بكم ما اعلم...»

لقد اقدم خيرة اصحاب الرسول والتابعين على بيعة الأمام ولديهم فكرة عما ينتظرهم واقدموا على بيعته بحماس منقطع النظير. فكانت بيعته بيعة شعبية اشترك فيها اولئك الذين ملأ الايمان قلوبهم وجرى في عروقهم ولم تفسد السياسة ولا مطامع الجاه والمال طبائعهم الخيرة. هؤلاء رأوا انهم يبايعون خير الناس بعد نبيهم واخاه وحبيبه واعلم الناس برسالته وخيرته من امته. وقد وقف في مسجد الرسول وامام منبره بعد البيعة خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين (الذي قبل رسول

الله شهادته بدلا من شهادتين عدلين) فعبر عن شعور المبايعين قائلا:

اذا نحن بايعنا عليا فحسبنا ابو حسن مما نخاف من الفتن.
وان قريشا ما تشق غباره إذا ما جرى يوما الضمر البدن.
وفيه الذي فيهم من الخير كله وما فيهم كل الذي فيه من حسن.

اما ذوو المطامع السياسية والمادية من اعضاء الطبقات المفضلة من قريش وسواها فقد جرفهم التيار الشعبي. لقد افلت من ايديهم الزمام في تلك الفترة القصيرة واذهلهم مقتل عثمان وذيوله عن التفكير في استجماع قواهم. فبايعوا كما بايع الناس وكان من المبايعين مروان بن الحكم (وهو من اشد الناس عداء للامام). وقد بايعه طلحة والزبير وقد كان كل منهما يطمع بالخلافة بعد عثمان.

٢
معارضة مبكرة

ولكن قرشية ذات نفوذ واسع وصوت مسموع هي ام المؤمنين عائشة (رض) لم تذهلها الأحداث عما تريد، بل بقيت حاضرة الذهن مستجمعة التفكير تعمل لما تريد. فاعلنت معارضتها للإمام في الدقيقة التي بلغها فيها نبأ بيعته.

لقد كانت عائشة اشد المحرضين على عثمان، وكان تحريضها من اسباب حصاره، وظلت تدعو الى قتله وهو محصور. وقد ذكر البلاذري في تاريخه انه لما اشتد الأمر على عثمان امر مروان بن الحكم وعبد الرحمن بن عتاب بن اسيد فأتيا عائشة وهي تريد الحج. فقالا: لو أقمت فلعل الله يدفع بك عن هذا الرجل. فقالت قد قرنت ركابي واوجبت الحج على نفسي، والله لا افعل. فنهض مروان وصاحبه. ومروان يقول:

وحرّق قيس علي البلاد حتى إذا اضطرمت أجذما.

فقالت عائشة: «يا مروان، وددت انه في غرارة من غرائري هذه واني طوقت حمله حتى القيه في البحر».

ومر عبد الله بن عباس بعائشة وقد ولاه عثمان الموسم وهي بمنزل من منازل طريقها. فقالت: يا ابن عباس، ان الله قد آتاك عقلا وفهما وبيانا فاياك ان ترد الناس عن هذا الطاغية.»[٣]

ولكن موقفها تغير فجأة حينما بلغها قتل عثمان وبيعة علي. لقيت في سرف، وهي عائدة من حجها، عبيد بن ابي سلمه وكان من اخوالها. فقالت له مهيم؟ فقال: قتل عثمان وبقوا ثمانيا. قالت: ثم صنعوا ماذا؟ فقال: اجتمعوا على بيعة علي. فقالت: «ليت هذه انطبقت على هذه ان تم الأمر لصاحبك. ردوني.» فانصرفت الى مكة. وهي تقول: قتل والله عثمان مظلوما. والله لأطلبن بدمه. فقال لها عبيد: ولم؟ والله ن اول من امال حرفه لأنت. ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلاً فقد كفر. قالت: انهم استتابوه ثم قتلوه. وقد قلت وقالوا. وقولي الأخير خير من قولي الأول.»[٤]

وهكذا انقلبت ام المؤمنين في ساعة واحدة من اشد الناس تحريضاً على قتل عثمان الى اول الناس مطالبة بدمه ولم تعوزها الحجة في الحالين.

مضت الى مكة فوقفت في البطحاء خطيبة تحرض الناس على المطالبة بدم عثمان. ونسيت وانست سامعيها بما لها من جاه وتأثير بحكم مركزها انها كانت اول شريكة في قتل عثمان.

ونسيت وانست الناس ان الإسلام ابطل تقاليد الجاهلية التي كانت تقضي بان تثار حروب دامية للأخذ بالثأر وان اقامة الحدود لم تكن منذ زمن الرسول شأنا من شؤون الشعب بل هي من شؤون الرسول والامام.

---

(٣) القسم الأول من الجزء الرابع ص ٧٥
(٤) تاريخ ابن الأثير ج ٣ ص ١٠٢

ونسيت وانست الناس ان الله أمرها وكل نساء الرسول ان يقرن في بيوتهن ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى.

انها بعد خديجة ابرز زوجات الرسول شهرة وابنة الخليفة الأول. وهي تتحدث الى اهل مكة، قبائل قريش التي كانت تشاطر ام المؤمنين كرهها لعلي منذ ايام النبوة. وما كان لعلي من ذنب عند عائشة وعندهم الا انه أصبح خليفة. وهم الذين بذلوا جهدهم طيلة خمس وعشرين سنة لإبعاده عن الخلافة. لقد اصبح خليفة حينما فقدت قريش زمام المبادرة بعد مصرع عثمان. وها هي ام المؤمنين تحاول استجماع قوى قريش من جديد لتهدم خلافة علي بعد أن بايعه المؤمنون. ومكة البلد الحرام الذي لا يستحل علي فيه العنف اسلم مكان للمتآمرين.

فليجتمعوا هنالك بعد ان سبقتهم عائشة واعلنت لواء العصيان والخلاف على امير المؤمنين.

وكان اول المجيبين لنداء ام المؤمنين عبد الله بن عامر الحضرمي الذي كان عامل عثمان على مكة فقال: انا اول طالب (بدم عثمان). وعرف بنو أمية بموقف ام المؤمنين فتسلل من كان منهم في المدينة الى مكة. ولبث طلحة والزبير برهة ثم عزما على اللحاق بام المؤمنين فخرجا بحجة انهما يريدان العمرة. ولماذا لا ينضمّان الى معسكر عائشة وكل هدفها ان تلغي خلافة علي ليكون احد الرجلين مكانه؟ وقد كانت من قبل تحرض على عثمان وهدفها نفس الهدف.

وتجمع المتآمرين وحوارهم في مكة يرينا ان قوة الأمويين كانت بعد عثمان لا تزال امرا يحسب له حساب. اهل مكة معهم وعاملها السابق عبدالله الحضرمي في طليعتهم. ولم يبد ان في مكة اي معارض لهم. ويعلى بن امية (وهو ابن منية) عامل عثمان السابق على اليمن نهب ما كان تحت يده في بيت المال قبل ان يصل عبيد الله بن العباس عامل الإمام الى اليمن. جاء ابن امية الى المتآمرين بستمأة الف درهم وستمأة بعير. وهو مبلغ يمول قسماً كبيراً من مشروع الثائرين. وقدم عبد الله بن عامر الذي كان عامل عثمان على البصرة بمال كثير. واخبرهم ان له في البصرة صنائع كثيرين. وما من شك بانه كان لكل واحد من عمال الخليفة المقتول صنائع كثيرون. وقد كان شراء ولاء القبائل بارضاء رؤسائها طريقة اتبعها وبرع فيها

هؤلاء تثبيتا لدعائم الملك الأموي.

وحينما تشاور القوم الى اي بلد يذهبون ليبدأوا بالمطالبة بدم عثمان بدا لهم بوضوح ان سوريا بمجموعها لا تزال تحت قبضة الحاكم الأموي معاوية. ولذلك لم يحتاجوا الى الذهاب اليها لأنها تقف ضد الخليفة الجديد دون حاجة الى مثير. واخيراً قرروا الذهاب الى البصرة بالرغم من وجود عامل الأمام عليها. وقد اختاروها لوجود عدد كبير من صنائع الأمويين. ورجوا ان يساعد منطق ام المؤمنين على اثارة معظم اهل البصرة ضد الإمام.

لقد اتفق الأمويون واعداؤهم بالأمس: عائشة وطلحة والزبير على الإمام عدوهم المشترك. وهدم خلافة الإمام كان هدفهم الأول. اما الهدف الثاني الذي يأتي بعد انتصارهم على خصمهم المشترك. فكانوا يختلفون فيه. وقد كادوا يتنازعون عليه قبل الوصول الى هدفهم الأول.

الأمويون يريدون عودة الخلافة اليهم وعائشة وطلحة والزبير يعارضونهم في ذلك. وكما كان الأمويون يحبون ان يتخلصوا من الإمام كانوا يحبون ان يتخلصوا من طلحة والزبير. فهما وعائشة في نظر الأمويين شركاء في قتل عثمان وخطر عليهم. والحادثة التالية ترينا مدى خلاف الفريقين في الأهداف.

جاء سعيد بن العاص (عامل عثمان الأسبق على الكوفة) الى مروان بن الحكم واصحابه والقوم لا يزالون في بدء مسيرتهم في اتجاه البصره، فقال لهم: الى اين تذهبون وتتركون ثاركم على اعجاز الإبل وراءكم (يعني عائشة وطلحة والزبير)؟ اقتلوهم وارجعوا الى منازلكم. فقالوا له نسير، فلعلنا نقتل قتلة عثمان جميعاً. فخلا سعيد بطلحة والزبير وقال لهما: ان ظفرتما لمن تجعلان الأمر؟ اصدقاني قالا: نجعله لأحدنا اينا اختاره الناس. قال: بل تجعلونه لولد عثمان، فانكم خرجتم تطلبون بدمه. فقالا: لا ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها للأيتام. قال: فلا اراني اسعى الا لأخراجها من بني عبد مناف. فرجع ورجع عبد الله بن خالد بن اسيد.

لقد تعجل سعيد الأمر ولكن مروان وصحبه كانوا يعرفون كيف يعملون لهدفهم. فقد كانوا يريدون الثورة على الإمام لإلغاء خلافته أو اضعافها. وكانوا يريدون قتل الرجلين غيلة سواء انتصر أو انهزم معسكرهم.

كان الأمويون اذكى من عائشة وطلحة والزبير. انهم ارادوا استعمال هؤلاء للوصول هدفهم وكانوا مستعدين لإنفاقهم كما ينفقون الدرهم. وكان هؤلاء لا يشعرون بما يبيت لهم. وسيرى القارىء فيما بعد أن مروان هو الذي قتل طلحة. ولو بقي الزبير في المعركة لما أفلت من ايدي الأمويين.

لم يكن لطلحة ولا الزبير اي حجة مشروعة في ثورتهما على الإمام فقد بايعا كما بايع الناس. بل كان طلحة اول المبايعين ولكن الرجلين اعلنا حينما انطلقا في طريق مجازفتهما انهما بايعا عليا مكرهين.

- ٣ -

هل أكْرِه طلحة والزبير؟

واعتقد ان الإمام لم يكره طلحة ولا الزبير على البيعة وما كان علي بالذي يجهل الحق ولا بالذي يحيد عن الحق. ومن حق المسلم ان يمارس حريته السياسية بان ينتخب من شاء للحكم او يمتنع عن الإنتخاب بشرط ان لا يحاول عرقلة الحكم والوقوف في وجه الحاكم الذي تنتخبه الأكثرية. وليس للحاكم ولا لأحد سواه ان يجبر من قال: لا،ان يبدل لاءه بنعم. وقد لقي الإمام نفسه عنتا وجهدا حينما حاولوا اكراهه على بيعة ابي بكر وحينما انذروه يوم بيعة عثمان بان لا يجعل على نفسه سبيلا. وكان يرى في كل ذلك اعتداء على حقه الطبيعي. وليس ينتظر من الإمام ان يفعل ما كان ينتقده. ولقد كان يرى ان الرسول عهد اليه بقيادة الأمة، وان من واجب الأمة ان لا تخالف عهد الرسول. ومع ذلك رفض ان يستعمل العنف كوسيلة للوصول الى الخلافة يوم عرض عليه ابو سفيان ان يملأ المدينة على ابي بكر خيلاً ورجلاً.

ان سعداً بن ابي وقاص (وهو من اعضاء الشورى) رفض ان يبايع وقال للإمام: والله ما عليك مني بأس. فلم يجبره الإمام على البيعة. ولم يكره عبد الله بن عمر على البيعة وهو لم يكن اقل مكانة من طلحة والزبير. وقد طلب منه كفيلا فرفض ان يقدم له كفيلا. فقال الإمام: دعوه. انا كفيله. انك ما علمت لسيء الخلق صغيرا وكبيرا. وما كان يقصد من طلب اقامة كفيل الاَّ الإستيثاق

بان رافض البيعة سوف لا يحاول عرقلة حق الخليفة في ممارسة الحكم. وقد رفض اسامة بن زيد بن حارثة ان يبايع الإمام فلم يحاول اجباره.

وقد امتنع عن بيعته من الأنصار نفر منهم زيد بن ثابت وحسان بن ثابت الشاعر ومسلمة بن مخلد ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير (الذي كان نصيرا لمعاوية فيما بعد) وكعب بن عجره وكعب بن مالك الذي ولاه عثمان على صدقات مزينة وترك له ما أخذ منهم. هؤلاء جميعاً كانوا عثمانيين ومعارضين للإمام، ومع ذلك لم يجبرهمْ على بيعته وما كان الامام ليعامل طلحة والزبير معاملة استثنائية لو رفضا أن يبايعا. واكثر ما كان ينتظر منه ان يصنع لو لم يبايعا ان يطلب منهما كفيلين على عدم محاولة القيام بثورة ضده. ولا استبعد ان يكون الثائرون او قادتهم قد مارسوا ضغطاً على الصاحبين المذكورين ليبايعا الإمام. ولكن ضغط هؤلاء مهما كان قويا ما كان ليمنع الصاحبين من ان يقولا للإمام: انا مكرهون على بيعتك. ولو قالا له ذلك: لما تقبل بيعتهما. وهو اعلم الناس بان لا بيعة لمستكره.

اضف الى ذلك ان اماما يكره الناس على انتخابه ينبغي ان يتوفر فيه عنصران: الرغبة الملحة للوصول الى الحكم وقوة عسكرية يحاول بواسطتها اجبار الناس على انتخابه او ثروة طائلة يحاول بها اغراء الجماهير لتضغط على المعارضين. وامامنا لم يكن راغباً في الحكم ولم يرشح نفسه للخلافة. بل حاول جديا ان يصرفها عن نفسه. ولم يتقبل البيعة الاّ بعد ان فرضت عليه فرضا. ولم يكن لديه قوة عسكرية او مالية تمكنه من الضغط على الجماهير او الأفراد المعارضين.

على انه إذا كان من المعقول لخليفة تمت له بيعة الأكثرية ان يكره معارضا تخلف عن البيعة، فان من غير المعقول ان مرشحا للخلافة لم تبايعه بعد اكثرية ولا اقلية يحاول اكراه أول المبايعين على بيعته. والرواية التي تحدثنا عن أن طلحة والزبير بايعا مكرهين،تذكر ان طلحة كان أول المبايعين للإمام وان رجلا يعتاف كان من حاضري البيعة فتطير من بيعة طلحة وقال ان هذا الأمر لا يتم لأن اول يد بايعت عليا يد شلاء (اذ كان طلحة مشلول الأصبع منذ معركة احد).

وقد فند الإمام مزاعم الصاحبين في كتاب وجهه اليهما بعد خروجهما الى البصره وخروجه من المدينة فلم يدع مكانا لمزيد من القول ولا عذراً لمعتذر. لقد قال فيه:

«اما بعد فقد علمتما وان كتمتما أني لم ارد الناس حتى ارادوني ولم ابايعهم حتى بايعوني. وانكما ممن ارادني وبايعني. وان العامة لم تبايعني لسلطان غالب ولا لعرض حاضر. فان كنتما بايعتماني طائعين فارجعا وتوبا الى الله من قريب وان كنتما بايعتماني كارهين فقد جعلتمالي عليكما السبيل باظهاركما الطاعة واسراركما المعصية.»

لقد كان على الصاحبين إذا كانا قد بايعا الإمام تحت ضغط من الثائرين او سواهم ان يعلما الناس، او الإمام على الأقل، وقت البيعة او بعدها وقبل ان يخرجا من المدينة بانهما بايعا غير مختارين. ولكنهما بقيا في المدينة شهورا بعد البيعة فلم يدعيا ذلك. وكان صمتهما عن ذلك طيلة تلك المدة دليلا على انهما بايعا طائعين. فلم يكن يحول بينهما وبين التحدث عن ذلك خوف ولا تقية. وان من معلوم التاريخ ان سعداً بن ابي وقاص وهو زميلهما في عضوية الشوري وعبد الله بن عمر وكلاهما من المهاجرين امتنعا عن بيعة الإمام وما واجها ارهابا ولا عقابا. وقد كان طلحة والزبير اكثر مالا واعز نفراً من سعد وعبدالله وهذا ما عناه الإمام في كتابه المذكور حين قال لهما:

«ولعمري ما كنتما بأحق المهاجرين بالتقية والكتمان. وان دفعكما هذا الأمر من قبل ان تدخلا فيه كان اوسع عليكما من خروجكما منه بعد اقراركما به.»

على ان الصاحبين لم يكتفيا بادعائهما الأكراه بل اضافا الى ذلك ان اتهما الإمام بقتل عثمان وكانا هما وام المؤمنين عائشة رؤوس المحرضين عليه والسعاة الى حصاره وقتله. وكان الإمام اشد المهاجرين دفاعاً عنه. واهل المدينة كانوا يعرفون ذلك حق المعرفة. لذلك ختم الإمام كتابه بالكلمات التالية:

«وقد زعمتما اني قتلت عثمان. فبيني وبينكما من تخلف عني وعنكما من اهل المدينة، ثم يلزم كل امرىء بقدر ما احتمل. فارجعا ايها الشيخان عن رأيكما، فان

الآن اعظم امركما العار من قبل ان يجتمع العار والنار والسلام.»[٥]

لذلك نرى عدم صدقَ رواية اكراه طلحة والزبير على البيعة. فما كان علي ليكره أي مبايع على بيعته، وهو بعد لم يصبح خليفة منتخبا. ونرى ان طلحة والزبير ابتكرا قصة الإكراه تبريرا لثورتهما التي أعلناها على الإمام. ومن يستحل قتال علي وقتل الوف المسلمين في سبيل مآربه لا يتوقع منه ان يتورع عن ابتكار قصة الإكراه.

(٥) نهج البلاغة ج ٣ ص ١١١ - ١١٢.

مَعركة البَصْرة

الفصل الثالث والعشرون

تصرمت الفترة التي ذهلت فيها قريش عن امرها ففقدت فيها زمام المبادرة وقيادة الدولة. واستيقظت بعد ان بويع اخو الرسول، فحزمت امرها، مستجمعة قواها، وكلها عزم وتصميم على ان لا تهنأ عليا في خلافته وان تهدمها مهما كلف ذلك المسلمين من دماء ومهما كانت الوسيلة.

حزبان من قريش لا يضمر اي منهما للآخر خيرا اتفقا على قتال علي امام الهدى. احد الحزبين يقوده ثلاثة لهم منزلتهم الدينية: عائشة، ابرز زوجات الرسول وطلحة والزبير اللذان لهما سابقة في الأسلام وماضي جهاد في ايام النبوة وصحبة للرسول الأعظم. وحزب اموي يقوده معاوية. وهو وسائر الأمويين عرفوا جميعاً، الا القليل منهم، برقة تدينهم وطول عدائهم للرسول الذي استمر معظم سني النبوة ولم تختف ظواهره الا في السنتين الأخيرتين من حياة الرسول. وبالرغم من ذلك كان هذا الحزب يتمتع بقوة مادية تجعله اخطر الحزبين.

كلا الحزبين اعلنا لواء العصيان على الخليفة، وكلا الحزبين اتخذا المطالبة بدم عثمان شعارا ليخدع بهذا الشعار الوف الأغرار من المسلمين.

وقد انضم الى هذين الحزبين، بطريقة مستورة ابو موسى الأشعري الذي شاءت الظروف ان يكون في تلك الفترة واليا على الكوفة من قبل الأمام. فتمكن ان يقدم بطريقته الخاصة مساعدة كبرى للحزبين المناوئين للأمام.

على ان قادة الحزب القرشي الأول كانوا اسرع الى الكفاح والعنف من سواهم. فقد اتخذوا خطة الهجوم في حين ان معاوية اتخذ خطة العصيان والدفاع.

لقد اخذ القادة الثلاثة القانون بايديهم واقاموا انفسهم ولاة على الأمة بدلاً من ولي الأمر علي، وذهبوا يخوضون في دماء المسلمين خوضا. وهم ليسوا اولياء الخليفة المقتول ولا ولاة امر الأمة. والتاريخ يذكر اسماء قتلة عثمان فلا يزيد عددهم عن اربعة او خمسة: سودان بن حمران والغافقي وقثيرة، وقيل ان كنانة بن بشر التجيبي هو الذي قتله. ويذكرون ان عمراً بن الحمق كان ممن طعنه. ويذكر التاريخ ان ثلاثة من هؤلاء قتلوا ساعة قتل عثمان وهم: كنانة بن بشر التجيبي وسودان بن حمران وقتيره. فلم يبق من قتلة الخليفة الا اثنان. ولكن القادة الثلاثة لم يذهبوا وراء الإثنين بل اعتبروا كل من حضر من البصرة والكوفة ومصر



لمطالبة الخليفة بالأصلاح شريكا في قتله. واكثر هؤلاء المطالبين بالأصلاح ما جاؤوا لقتل الخليفة بل جاؤوا لاستصلاحه. والذين قتلوه هم الذين تسللوا الى داره وهم نفر قليل. ولعل قتله كان مفاجأة لمعظم الذين حاصروه. ولكن القادة الثلاثة اعتبروا كل من حضر الحصار شريكا في قتله لأن حضوره كان عونا على قتله. وإذا صح هذا المنطق كان على القادة الثلاثة انفسهم ان يذهبوا الى الأمام ويطلبوا منه ان يقيم عليهم هم انفسهم الحد. لأن الثلاثة كانوا اعظم المحرضين على قتل عثمان.

ويا ليت القادة الثلاثة اكتفوا بالمطالبة بقتل الذين حاصروا عثمان، فما كان يزيد عدد هؤلاء على الف ومأتين ولكن الثلاثة على ما يظهر اعتبروا كل من بقي على طاعة الإمام شريكا في قتل عثمان. فقد ذهبوا الى البصره وألّبوا الألوف من سكانها على الأمام وقاتلوا بهم كل من وصلت اليه ايديهم ممن بقي على طاعة الأمام من اهل البصرة او الكوفة. والذين حضروا حصار عثمان، من اهل البصرة لا يزيد عددهم على مأتي شخص ليس منهم احد اشترك مباشرة في قتل الخليفة.

حرب جاهلية قرشية لم يكن هدفها قتل قتلة عثمان بل كان هدفها تحطيم خلافة الأمام فقط: والا فكيف يعقل ان يطالب هؤلاء القادة بدم عثمان وهم الذين حرضوا على قتله؟

سار القاده الثلاثة متوجهين الى البصرة يصحبهم نحو من ثلاثة آلاف. بينهم نحو الف من اهل مكة. وقد امدهم عمال عثمان المعزولون كيعلى بن أمية (منيه). وعبد الله بن عامر بما نهبوه من اموال المسلمين قبل ان تركوا مناصبهم.

وصل الموكب الى ماء فنبحتهم كلابه وسألت ام المؤمنين عن اسم المكان فقيل لها: ماء الحوأب. فعرفت انها ناكبة على الصراط وان نبوءة الرسول الأعظم قد تحققت. فقالت ردوني. ردوني. ولكن الزبير أو ابنه عبد الله شبّه عليها الأمر باحضار شهود زور زعموا انه ليس ماء الحوأب، أو بان قالوا لها النجاء النجاء قبل ان يدركم علي بن ابي طالب. فمضت في الطريق المخلط. وما كان لها ان تمضي. فهي تعرف عليا وقداسته وانه ليس ممن يقاتل من لم يقاتله. وهي اذكى من ان تصدق شهادة شهود اتى بهم اناس تعرف انهم لا يريدون لعلي ولا للأسلام

خيراً .وتعرف انهم قوم تبرر عندهم الغاية كل وسيلة. وصوت الرسول كان لا يزال يرن في اذنيها: «يا ليت شعري أيتكن صاحبة الجمل الأذنب، تنبحها كلاب الحوأب فتكون ناكبة عن الصراط؟... يا حميراء امَّا انا فقد انذرتك.»

وصل الموكب اخيراً الى البصرة وأثارت زوجة الرسول الوفا والوفاً من الناس بمنطقها ومكانها من رسول الله ومن ابيها الخليفة الأول. وانشقت البصرة على عثمان بن حنيف عامل الأمام واقتتل الفريقان ثم اتفقا على هدنة موقتة لم يلبث القادة ان نقضوها بهجومهم على المسجد الذي كان يصلي فيه ابن حنيف وتنحيته عن امامة الصلاة واخذهم عشرات من حرسه وذبحهم واحتلالهم مقره واستيلائهم على بيت المال واعمالهم السيف في معارضيهم يذبحونهم كما تذبح النعاج. وما كان معارضوهم قتلة عثمان، بل كانوا أوفياء لبيعة الأمام.

محتوى الاتفاق.

وقد ذكر الطبري في تاريخه [1] ان اتفاق الهدنة الذي عقد بين ابن حنيف من جهة. وطلحة والزبير من جهة اخرى قد تضمن النص على ارسال رسول من البصرة الى المدينة ليستعلم من اهلها هل كانت بيعة طلحة والزبير لعلي اختيارية ام كانت نتيجة اكراه وأنه اذا شهد اهل المدينة انهما بايعا مكرهين كان الأمر لهما في البصرة وتخلى لهما ابن حنيف عنها. وان كانا بايعا طائعين كان الامر لابن حنيف. فان شاء طلحة والزبير ان يبقيا في البصرة على طاعة علي فلهما ذلك وان شاءا خرجا حتى يلحقا بطيتهما. والمؤمنون اعوان الفالج منهما (الفريقين).

وقد كان رسول الفريقين لأهل المدينة كعب بن سور قاضي البصرة. وحينما سأل اهل المدينة عن بيعة الصاحبين لم يجبه احد منهم الا اسامة بن زيد بن حارثة فانه أجاب بانهما بايعا كارهين. فواثب سهل بن حنيف (اخو عثمان بن حنيف والي البصرة) والناس، اسامة بن زيد. وناصر اسامة نفر كانوا من المعارضين للأمام، وشهدوا معه واخذ اسامة الى منزله دون ان يصاب بسوء.

وذكر الطبري ان الأمام لما علم بما كان بالمدينة ارسل الى عثمان بن حنيف كتاباً

---

(١) احداث سنة ٣٦ ص ٣١٢٤ - ٣١٢٥

يعجزه فيه ويقول فيه. «والله ما اكرها على فرقة ولقد اكرها على جماعة وفضل. فان كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما وان كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا.» فقدم كتاب الأمام على عثمان بن حنيف وقدم ابن سور يخبر بما سمع في المدينة. فارسل طلحة والزبير الى عثمان ان اخرج عنا. ولكن عثمان احتج بكتاب الأمام وقال: هذا امر آخر غير ما كنا فيه. فاعقب ذلك ان هجم طلحة والزبير واتباعهما على المسجد ليلا ثم على عثمان، وغلباه على مقره والبصره وبيت المال وتبع ذلك مذبحة (قصد منها تصفية المعارضين لهم) واخرج ابن حنيف بعد ان اسر وارادوا قتله ثم عذبوه ونتفوا شعر لحيته.

وقد اعتمد الطبري في ما ذكره في هذا الشأن على رواية سيف بن عمر عن محمد وطلحة. ويحق لنا ان نستبعد ما نسبته هذه الرواية الى الأمام من انه قال: والله ما اكرها على فرقه. ولقد اكرها على جماعة.... فما كان الأمام ليأخذ بيعة من مكره. وقد أوضحنا في الفصل الماضي ان دعوى الأكراه على البيعة باطلة. ويكفي لطرح هذه الرواية ان يصدرها سيف بن عمر الذي ضعفه علماء الرجال واعتبروه من الوضاعين واتهمه بعضهم بالزندقة. وسنوضح ذلك في الفصل المقبل.

وهب ان الصاحبين كانا قد اكرها على بيعة الأمام فاقصى ما يحل لهما هو ان لا يطيعا الأمام ان ندبهما الى نصرته وليس في تعاليم الأسلام ما يحل لهما ان يعرقلا ممارسته للحكم بعد ان بايعته الأكثرية الساحقة من الصحابة. واكراه رجلين على البيعة لا يلغي البيعة العامة ولا شرعية خلافة الأمام.

وقد اكره الزبير على بيعة ابي بكر من قبل. وقد روى المؤرخون ان الزبير خرج من بيت علي يوم ذاك شاهرا سيفه في وجوه المهاجين الذين ارادوا اجبار علي على البيعة فأخذ السيف من يده وضرب به الحجر واقتيد الى ابي بكر فبايع وهو مكره. فما الغى اكراهه بيعة ابي بكر بالرغم من انها كانت فلتة دون مشورة وتدبير (بشهادة عمر بن الخطاب).فهل كان يحل يومئذ للزبير ان يذهب الى مكة مثلا ويحتلها ويطرد عامل ابي بكر عنها؟ لا اظن ان الزبير كان يدعي ان ذلك يحل له ولا كان يقره احد من الصحابة على ذلك لو فعله. ولو فعل ذلك لقوتل ولكان شاقا لعصا المسلمين. فلماذا يحل له ولطلحة إذا كانا مكرهين ان ينازعا الأمام ويخرجا عامله ويحتلا مصراً بايعه اهله على الطاعة؟

فإذا كان ابن حنيف قد اتفق معهما على ذلك باختياره فقد ارتكب خطأ كبيراً لأن اتفاقه معهما على ذلك تفريط بامانة الحكم الذي أتمنه عليه الأمام. ولأنه موافقة على فصم وحدة الأمة. وهو أمر يكرهه الله ورسوله.

وهب ان ابن حنيف وافق على ذلك. فما كان ذلك يجيز للصاحبين ولأم المؤمنين ان يعملوا على مضمون الأتفاق لأنه عقد فاسد يتضمن الموافقة على ارتكاب كبيره من الكبائر الموبقة. وإذا كان ابن حنيف قد نقض الأتفاق بعد ان وبخه الأمام فقد قام بواجبه لان مضمون الاتفاق لا تجيزه الشريعة الأسلامية. واصرار الصاحبين على تنفيذ الأتفاق لا مبرر له في الدين الأسلامي.

وان كان الصاحبان قد ارادا باحتلالهما البصرة ان يكون احدهما خليفة فما كان لهما ان يفعلا ذلك.

وقد روى مسلم في صحيحه عن ابي سعيد الخدري ان رسول الله قال:

«إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الأخير منهما.» [٢]

وقد روى مسلم قوله (ص): «من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة ثم مات مات ميتة جاهلية...» [٣]

– ٢ –

مسيرة الامام

لقد كان امير المؤمنين يجهز جيشا لإخضاع معاوية بعد ان أعلن هذا عصيانه ومطالبته للأمام بدم عثمان. ولكنه عزم على تأجيل محاولة إخضاع معاوية حين اتاه خبر ذهاب القادة الثلاثة واتباعهم نحو العراق. فقد رأى لزوم معالجة مشكلة هؤلاء قبل كل شي. ذلك ان العراق كان يعد في الرتبه الأولى بين الأقطار الأسلامية. ولو استولى القادة الثلاثة على ذلك القطر، في حين ان القطر السوري بمجموعه في

(٢) ج ١ ص ٢٤٢.

(٣) نفس المصدر.

قبضة معاوية. لخسر الأمام معظم القوى الروحية والمادية والعسكرية في العالم الأسلامي.

لم تنقص السنون شيئا من بمضاء علي وشجاعته ومبادرته الى مواجهة الأزمات الشديدة بما تتطلبها. لقد كان في ايام الرسول ساعده الأيمن ومفرج الكبربات عنه ومخضع اعدائه. وها هو بعد فترة استمرت خمساً وعشرين غاما كان فيها قعيد بيته يعود بكل ما عرف الناس فيه من قوى الى مواجهة الأزمات ولكن على نطاق اوسع. إذ تواجهه قوى تزيد عشرات الأضعاف عما واجهه من القوى في ايام الرسول.

امتحان لم يسبقه مثيل.

لقد كان الصراع بين الحق والباطل، ولا يزال، عسيرا على اتباع الحق لأنهم في اغلب الأحيان الأقلون. والباطل له مغرياته الحاضرة، وثمراته التي يجنيها اتباعه بسرعة. اما الحق فمغرياته قليلة. وقوة اتباعه تنبع من ايمانهم بالله واليوم الآخر وتوطين انفسهم على التضحيات.

ولكن الصعوبات التي يواجهها اهل الحق تزداد كثيرا حينما تشتبه الامور ويصبح التمييز بين الحق والباطل عسيراً على عامة الناس حتى ذوي النوايا الطيبة منهم. في مثل هذا الوضع يخسر الحق اناسا كان يمكن ان يكونوا له اعوانا لو اتضح الحق لهم ويربح الباطل اناسا كان يمكن ان يكونوا له اعداء لو عرفوا انه الباطل. ويقف على الحياد اناس طيبو النيه فينقص حيادهم عدد انصار الحق ويكفى الباطل مؤونة كفاحهم.

وهذا ما حدث لمعسكر الحق الذي كان يقوده الأمام. وقد حدث ذلك لأول مرة في تاريخ الجهاد الأسلامي حيث أنه لم يقع مثله ايام النبوة ولا في عهد اي من الخلفاء الثلاثة الذين سبقوا الأمام.

لقد واجه الرسول اعداء كثيرين، ولكن الفاصل بينه وبين اعدائه كان واضحا اشد الوضوح. فهو الرسول واتباعه المؤمنون برسالته. واعداؤه المشركون والكفار الذين يعلنون كفرهم برسالته. فما كان يمكن ان يلتبس الامر على اتباعه في التمييز بين الحق والباطل.

وواجه ابو بكر في اول خلافته قوى اعلنت ردتها عن الأسلام فلم يكن هنالك اي مجال لالتباس الحق بالباطل. وحينما انتهت حروب الردة واجه الخليفة الأول بجحافل الأسلام قوى اخرى لا تدين بالأسلام بل تعلن عداءها لرسالته. وهكذا كان الأمر في ايام عمر وعثمان. حق وباطل يمتازان كما يمتاز الليل والنهار.

اما علي فقد كان عليه ان يواجه قوى تدين بالأسلام وتعلن الايمان بنبيه وكتابه وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة. ويقود احد معسكراتها قادة ثلاثة عرفهم المسلمون بقربهم من الرسول وطول صحبتهم اياه وجهادهم في سبيل مبادئه.

وبذلك اصبح من الصعب على عامة المسلمين، بل على عدد يعتد به من خاصتهم. ان يميزوا بين معسكري الحق والباطل، وقد جذب ماضي القادة الثلاثة عشرات الألوف من الناس إليهم فوقفوا يناضلون امام الهدى وهم يفكرون انهم على الحق وانه على الباطل.

ولو كان علي صاحب الأمر بعد وفاة الرسول مباشرة لكانت مواجهته لمثل طلحة والزبير وام المؤمنين اسهل من مواجهته اياهم بعد وفاة الرسول بخمسة وعشرين سنة. لقد كان الناس في الفترة الأولى لا يزالون يذكرون مميزات علي وعظيم جهاده ومنزلته من رسول الله وبليغ اقوال الرسول فيه. اما وقد مضى عقدان ونيف من السنين بعد وفاة الرسول، وعلي قعيد بيته، فقد نسي الناس كل ذلك. واصبح من لا يدانيه في شيء من الفضل اكثر منه شهرة عند المسلمين.

ولعل اهل البصرة والكوفة كانوا يعرفون عن طلحة والزبير اكثر مما كانوا يعرفون عن الامام علي لما كان لطلحة والزبير من املاك وتجارة في المصرين. وحتى الزبير نفسه نسي ما قاله له الرسول في ما سوف يحدث بينه وبين علي. لقد نسي انه قال له انه سوف يقاتل عليا وهو ظالم له. كل هذا يفسر لنا قول الامام للناس قبل ان يبايعوه: « .... فانا مستقبلون امرا له وجوه والوان. لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول ».

وإذا كانت للمشكلة هذه الابعاد الخطيرة، فقد كان على الامام ان يواجهها بنفسه وبكل قواه. لذلك خرج بمن اطاعه ليدرك الموكب الزاحف على العراق. لعله يردهم او يحول بينهم وبين ما يبتغون.

وحينما وصل الى الربذة عرف انهم فاتوه وانهم توجهوا نحو البصرة. ومع ذلك رأى ان ذهابهم الى البصرة اقل ضررا من ذهابهم الى الكوفة التي يقيم فيها اعلام العرب.

ومضى الى ذي قار فتلبث فيها بعد ان ارسل الى اهل الكوفة كتابا يستحثهم فيه على لقائه طلبا للأصلاح ودفعاً للشر ونصرا للحق.

ولكن القادة الثلاثة كانوا قد استولوا على البصرة وطردوا عثمان بن حنيف. وقد لقي عثمان الأمام وهو بذي قار. فقال له: يا امير المؤمنين. بعثتني ذا لحية وجئتك امردا. فقال له الأمام: «أصبت اجراً وخيرا. ان الناس وليهم قبلي رجلان فعملا بالكتاب ثم وليهم ثالث فقالوا وفعلوا ثم بايعوني وبايعني طلحة والزبير ثم نكثا بيعتي والبّا الناس علي. ومن العجب انقيادهما لأبي بكر وعمر وخلافهما علي. والله انهما ليعلمان اني لست بدون رجل ممن قد مضى. اللهم، فاحلل ما عقدا. ولا تبرم ما احكما في انفسهما. وارهما المساءة فيما قد عملا.»

- ٣ -

ابو موسى الأشعري

وقد قامت ام المؤمنين بنشاط كبير بعد ان استولى معسكرها على البصره فكتبت الى وجوه اهل الكوفة تعلمهم باستيلاء حزبها على البصرة وتحرضهم على الطلب بدم عثمان وتخذلهم عن الأمام. ومن الطبيعي ان تكتب الى ابي موسى عامل الأمام على الكوفة، فتطلب منه ان يستعمل نفوذه في سبيل منع اهل الكوفة عن امداد امير المؤمنين بالجند. وما كان ابو موسى بحاجة الى من يحرضه على ذلك. فما كان من محبي الامام ولا من المستعدين للوقوف معه.

لقد كان لكتب ام المؤمنين الى اهل الكوفة تأثير واضح. فقد اختلفت آراؤهم: فمن داع الى اجابة امير المؤمنين ومن داع الى خذلانه. ووقف ابو موسى يخطب المرة بعد المرة يحذر الناس من الدخول في معركة لمساعدة للأمام. واخذ يروي لهم انه سمع رسول الله يقول: «انها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم. والقائم خير من الماشي. والماشي خير من الراكب.» ثم يقول لهم: فاغمدوا السيوف

وانصلوا الأسنة واقطعوا الأوتار وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الامر وتنجلي هذه الفتنة».

ولو اطيع ابو موسى لما تمكن الأمام من مواجهة الفتنة بقوة تذكر. فما كان معه حين وصل الى ذي قار الاّ جيش صغير. ومن العجيب انه لم يرو عن ابي موسى انه انتقد القادة الثلاثة بهجومهم على البصرة واقحام الناس في الفتنة التي كان يذكرها واخراج عامل الأمام من البصرة. فكأنه كان يرى ما يرون ويرى ان يقرهم المسلمون على اغتصاب الحكم من الأمام ونكث بيعته.

ومن العجيب انه كان يذكر حديث الفتنة وكأنه يحمل عنها علما لا يعرفه احد. مع ان القرآن اعلن عنها: ﴿الٓمٓ. أَحَسِبَ النَّاسُ اَنْ يُتْرَكُوْا اَنْ يَقُوْلُوْا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُوْنَ؟ وَلَقَد فَتَنَّا الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ. فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِيْنَ صَدَقُوْا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِيْن.﴾ (٤)

ويظهر ان ابا موسى نقل حديثا عن الرسول لم يتمكن هو ان يفهم معناه. فإذا كان الرسول قد فاه بما نقله ابو موسى فإن ما عناه الرسول انه ستظهر دعوة الى باطل وان على الناس ان يخذلوا اهل تلك الدعوة ولا يتعاونوا معهم ولم يعن الرسول ان لا يقاوم المؤمنون اصحاب تلك الدعوة حينما يصبح اهل الدعوة خطرا على وحدة الأمة ويقدمون على سفك دماء المسلمين. والاَّ لكان ذلك دعوة من الرسول الى اقرار اهل الفتنة على عملهم والسماح لهم بادارة شؤون المسلمين بعد ما يصبح لديهم من القوة ما يمكنهم من ذلك. ولو فهم ابو موسى كلمة الرسول كما ينبغي، لأدرك ان الذين دخلوا البصرة واغتصبوا من الأمام حكمها واخرجوا عامله منها هم اهل الفتنة الذين كان يجب ان لا يعاونوا. وانهم حينما تمكنوا من شق عصا المسلمين وجب على المسلمين ان يقاتلوهم. فهم اهل دعوة الى باطل وخارجون على الأمام الشرعي الذي كان ابو موسى يحكم الكوفة باسمه. وقد ذكر ابو موسى الحديث الذي سمعه ونسي ما ينطق به القرآن حيث ينص على لزوم قتال الفئة المسلمة التي تبغي على فئة مسلمة اخرى:

---

(٤) سورة العنكبوت (٢٩) آية ١ - ٣

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ اقْتَتَلُوْا فَأَصْلِحُوْا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوْا الَّتِيْ تَبْغِيْ حَتَّى تَفِيْءَ إِلَى أَمْرِ الله. فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوْا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوْا. إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُقْسِطِيْنْ.﴾[٥].

وقد نسي ابو موسى. آية اخرى توجب عليه طاعة الأمام وتلزمه بتأييده: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا أَطِيْعُوْا الرَّسُوْلَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ. فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِيْ شَيْءٍ فَرُدُّوْهُ إِلَى الله وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤمِنُوْنَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ. ذَالك خَيْرٌ واحسن تأوِيْلاً.﴾ (سورة النساء آية ٥٨)

فالآية تأمره وكل مسلم بطاعة ولي الأمر من المؤمنين ما لم يأمر ولي الأمر بمعصية الله. والآية تأمر برد ما فيه الخلاف الى كتاب الله والى سنة الرسول. وقد كان علي ولي الأمر ولم يأمر بمعصية بل امر بطاعة الله. وكان هدفه جمع المسلمين. وكان هدف خصومه اثارة الشغب عليه. وفي ذلك تمزيق لوحدة الأمة.

على ان فتنا عديدة وقعت في تاريخ الاسلام قبل بيعة الامام وبعد انتهاء خلافته. والنبي في مروي ابي موسى لم يسم الفتنة التي عناها والتي قال لسامعه أن لا يسهم بأي نشاط فيها. فكيف عرف ابو موسى ان ما عناه النبي هو الفتنة التي وقعت ايام خلافة الامام؟

هذا في حين انه صح عن النبي انه لم يأمر عليا بعدم القيام بأي نشاط ضد فتنة تقع في خلافته بل امره بالقتال. وامره بالقتال امر لأتباعه المؤمنين بالقتال. فقد روى الحاكم في المستدرك (ج ٣ ص ١٣٩) ان ابا ايوب الإنصاري روى في ايام خلافة عمر ان الرسول امر عليا بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، وان ابا ايوب سأل قائلا: مع من نقاتل هؤلاء الأقوام يا رسول الله؟ فقال النبي: « مع علي بن ابي طالب. » وعن ابي سعيد الخدري ان الرسول قال ان عليا سوف يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله.

---

(٥) سورة الحجرات (٤٩) آية ١٠

لقد نصب ابو موسى الاشعري نفسه ناصحا ومشيرا على الأمة وعلى الأمام. وكانت كلماته تدل بوضوح على اتهامه للأمام بانه شريك في الفتنة التي تحدث عنها، كما تدل على اتهامه اياه اما بعدم معرفة سنن الرسول او عدم اطاعته لها او بكليها. هذا والرسول يقول: انا مدينة العلم وعلي بابها.

وقد يقال ان ابا موسى تأثر بموقف عبد الله بن عمر الذي كان يحبه هو حبّا شديدا وكان يدعو الى بيعته فيما بعد. وكان عبد الله بن عمر قد وقف من النزاع موقف المحايد فلم ينصر الحق ولم يخذل الباطل. ولكن عبد الله ندم فيما بعد على موقفه ورأى انه لم يعمل بكتاب الله. فقد روى الحاكم بسنده عن الزهري عن حمزة بن عبد الله بن عمر ما يلي:

« بينما هو (حمزة) جالس مع عبد الله بن عمر (أبيه) إذ جاءه رجل من اهل العراق. فقال: يا ابا عبد الرحمن اني والله لقد حرصت على ان أتَسَمَّتَ بسمتك واقتدى بك في امر فرقة الناس واعتزل الشر ما استطعت. واني قرأت آية من كتاب الله محكمة قد اخذت بقلبي فاخبرني عنها. اريد قول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقتَتَلوْا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا. فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوْا الَّتِيْ تَبْغِيْ حَتَّى تَفِيْءَ إِلَى أَمْرِ الله. فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوْا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ واقْسِطُوا. إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُقْسِطِيْنَ.﴾ اخبرني عن هذه الآية. فقال عبد الله: ما لك ولذلك؟ انصرف عني. فانطلق حتى توارى عنه سواده، واقبل علينا عبد الله بن عمر، فقال: ما وجدت في نفسي من شيء في امر هذه الآية ما وجدت في نفسي اني لم اقاتل هذه الفئة الباغية كما امرني الله عز وجل.» (٦)

وقد قال الحاكم تعقيبا على هذه الرواية: « هذا باب كبير. وقد رواه عن عبد الله بن عمر جماعة من كبار التابعين. وانما قدمت حديث شعيب بن ابي حمزة عن الزهري واقتصرت عليه لانه صحيح على شرط الشيخين.» وهكذا فان عبد الله بن عمر ندم على موقفه ولكن ابا موسى لم يندم.

---

(٦) المستدرك ج ٣ - ص ١١٥

ابو موسى لا يميز بين القرآن والحديث

على اني لا اثق بان ابا موسى نقل حديث الرسول كما قاله الرسول. وقد رأينا ان ابا موسى قد روى لأهل البصرة يوم كان واليا عليها ما لا يتفق مع الواقع وما ينكره المسلمون جميعا. فقد روى مسلم في صحيحه ما يلي:

« بعث ابو موسى الأشعري الى قراء اهل البصرة. فدخل عليه ثلاثمأة رجل قرأوا القرآن. فقال: انتم خيار اهل البصرة وقراؤهم فاتلوه. ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم كما قست قلوب الذين من قبلكم. وانا كنا نقرأ سورة نشبهها في الطول والشدة ببراءة فانسيتها.. غير اني حفظت منها: لو كان لإبن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا. ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب. وكنا نقرأ سورة نشبهها بالمسبحات فانسيتها، غير اني حفظت منها: يا ايها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون فتكتب شهادة في اعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة.» (٧)

والكلمات التي رواها ابو موسى ليست من القرآن قطعاً ولا تشبه القرآن بشيء. واغلب الظن ان ابا موسى كان مضطرب التفكير لا يفرق احيانا بين القرآن والحديث وإذا روى حديثا لا يتقن روايته ولا يحسن فهمه.

واعتقد بأن موسى كان ضالعا في المؤامرة مع طلحة والزبير وام المؤمنين عائشة (رض) ومعاوية بن ابي سفيان. وكان يحاول جهده ان يهدم خلافة الأمام. ولو نجح في اقناع اهل الكوفة بالقعود عن نصره الأمام لانتهى حكم الأمام في السنة الأولى من بيعته. ويظهر ان الأمام كان لا يأتمن ابا موسى ويعرف بعده عن اهل بيت الرسول وعنه بصورة خاصة. وقد كان الأمام بعد ان بويع قد بعث عمارة بن شهاب. احد الصحابة واليا على الكوفة ليحل محل ابي موسى. ولكن عمارة عاد الى المدينة بعد ان هدده طليحة بن خويلد بالقتل قبل وصوله الى الكوفة. وكان حبل الأمن لا يزال مضطربا بعد قتل عثمان. ثم اقر الأمام ابا موسى على الكوفة استجابة لرجاء مالك الأشتر الذي احب ابقاءه في منصبه. وكان الأشتر يأمل به

---

(٧) ج ٧ - كتاب الزكاة في فضل القناعة والحث عليها ص ١٣٩ - ١٤٠

خيرا. وكان ابو موسى يمانيا ومعظم سكان الكوفة كانوا يمانيين.

ارسل الأمام محمداً بن ابي بكر ومحمداً بن جعفر الى اهل الكوفة، وكتب اليهم يستنفرهم ليكونوا معه لدين الله اعوانا وانصارا وان ما يريده هو الأصلاح لتعود الامة اخوانا. ولكن الرسولين لم ينجحا. وكان موقف ابي موسى العقبة الكبرى في طريق مهمتهما.

وحينا اغلظا له نفث بما في صدره فقال:« والله ان بيعة عثمان لفي عنقي وعنق صاحبكما. فان لم يكن بد من قتال. لا نقاتل احدا حتى يفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا.» (٨)

وهكذا كان يرى ابو موسى ان بيعة عثمان لا تزال في عنقه حتى بعد موته ولا يرى ان بيعة الامام الحي توجب عليه طاعته والاستجابه لندائه. وكان يرى لزوم القتال، إذا كان ولا بد، ضد قتلة عثمان. ولكن القادة الثلاثة الذين كانوا اول الدعاه الى قتل عثمان لا يجوز قتالهم بعد ان اغتصبوا حكم الامام في البصرة بل يجب السكوت عنهم.

وقد نفث ابو موسى بما في صدره مرة أخرى حينا خاطبه عبد خير الحيواني قائلا: هل كان هذان الرجلان (طلحة والزبير) ممن بايع عليا؟ قال: نعم. فسأله عبد خير: هل احدث (علي) حدثا يحل به نقض بيعته؟ فاجابه: لا ادري. فقال له عبد خير: لا دريت. فأنا تاركوك حتى تدري... (٩)

ما من شك بان ابا موسى كان يعلم ان الأمام لم ينحرف عن الشريعة الأسلامية طيلة حياته. ومع ذلك يقول ابو موسى انه لا يدري إذا كان قد احدث ما يحل نقض بيعته. كل ذلك ليحفظ للقادة الثلاثة مكاسبهم ضد الأمام. ولو قال الحق لاعترف بان الرجلين نقضا البيعة دون مبرر. ولكن ذلك كان يضر بهدفه وهدفهم.

عاد الرسولان الى الأمام وهو بذي قار فأخبراه بما كان. وقيل انهما بعثا إلى الأمام هاشم بن عتبة بن ابي وقاص ليخبره بما كان.

---

(٨) تاريخ الطبري احداث سنة ٣٦ - ص ١١٣٥

(٩) نفس المصدر.

مفتاح الحل

وقد اتضح للامام ان ابا موسى هو العقبة الأولى وان عزله هو مفتاح حل المعضلة. فلن يتمكن الأمام ان يقود جيشا يقوم باداء المهمة ما دام اهل الكوفة يصغون لأبي موسى. لذلك ارسل اليه كتابا مع هاشم بن عتبة يقول له فيه: «ارسل الناس، فاني لم اولك الا لتكون من اعواني على الحق.» فامتنع ابو موسى، وكتب هاشم الى الأمام: اني قدمت على رجل غال مشاقق ظاهر الشنآن. فبعث الأمام الحسن وعماراً بن ياسر يستنفران الناس وبعث قرظة بن كعب واليا على الكوفة. وكتب معه الى ابي موسى: «اني قد بعثت الحسن وعمارا يستنفران الناس، وبعثت قرظة بن كعب واليا على الكوفة. فاعتزل عملنا مذموماً مدحورا. وان لم تفعل فقد امرته ان ينابذك. فان نابذته فظفر بك ان يقطعك ارباارباً». فاعتزل ابو موسى ومضى الحسن وعمار بمهمتهما فاستجاب لهما اهل الكوفة.

وتذكر رواية ان ابا موسى لم يعتزل وبقي على موقفه حتى لحق الأشتر بالحسن وعمار بناء على طلب الأشتر الذي رأى انه هو المسؤول عن ابقاء أبي موسى في منصبه. قال الأشتر للامام: « .... فإن رأيت، اكرمك الله يا امير المؤمنين ان تبعثني في اثرهم فان اهل المصر احسن شيء لي طاعة. وان قدمت رجوت ان لا يخالفني منهم احد». فقال له الامام: الحق بهم. ولما دخل الأشتر الكوفة جعل لا يمرُّ بقبيلة يرى فيها جماعة في مجلس او مسجد الا دعاهم. ويقول: اتبعوني الى القصر.

فانتهى الى القصر في جماعة من الناس، فاقتحم القصر فدخله وابو موسى قائم في المسجد الأعظم يخطب الناس ويثبطهم راوياً لهم ما قال انه سمعه من النبي في امر الفتنة وان القاعد فيها خير من القائم. ويجيبه عمار بن ياسر قائلا: «انما قال لك رسول الله (ص) هذا خاصة انت فيها قاعدا خير منك قائما. ثم قال عمار: غلب الله من غالبه وجاحده.

وجاء غلمان ابي موسى الى المسجد يشتدون قائلين: يا ابا موسى، هذا الأشتر قد دخل القصر فضربنا واخرجنا. فنزل ابو موسى ودخل القصر فصاح به الأشتر: «اخرج من قصرنا لا أم لك. اخرج الله نفسك. فوالله انك لمن المنافقين

قديما» قال: اجلني هذه العشية. فقال الأشتر: هي لك ولا تبيتن في القصر الليلة. وجعل الناس ينتهبون متاع ابي موسى فمنعهم الأشتر، واخرجهم من القصر، وقال: اني أجرته، فكف الناس عنه.

لقد احتاج الأمام الى استعمال القوة لكي يتخلص من ابي موسى لأنه لم يكن واليا كسائر الولاة. كلا بل كان متآمراً على الأمام يتستر بلباس الولاية من قبله. ولوكان معارضا للأمام في رأيه متحرجا في امر القتال واراقة الدماء، لأكتفى بان يقدم للأمام استقالته لأنه لا يرى رأيه.

ولو كان متحرجا في امر القتال لكان عليه ان يقف مع الأمام لا ضده لأن الأمام كان لا يزال بعيدا عن القتال ساعيا للأصلاح ولم الشعث. في حين ان القادة الثلاثة كانوا قد غاصوا في الدماء الى آذانهم. وما يرويه التاريخ لنا هو ان الثلاثة دخلوا الى البصرة في جيش عدده ثلاثة آلاف فقتلوا قبل ان يلقوا الأمام في ميدان المعركة مثل اعداد جيشهم او اكثر. فلماذا يقر ابو موسى هؤلاء على ما فعلوا ويريد ان يحفظ لهم مكاسبهم التي جنوها باراقة دماء اهل البصرة ويحرض اهل الكوفة على عدم الأنضمام الى الأمام والأمام يناشدهم ان يحضروا ليكونوا معه ان كان مظلوما او ضده ان كان ظالما؟

وما نستنتجه من موقف هذا الرجل هو انه لم يكن ضد القتال والفتنة ولا نصيرا للسلام بل كان ضد الأمام ونصيرا لمحاربيه. فالأمام كان اكره الناس للقتال. والذين اعانهم ابو موسى بموقفه كانوا قد بدأوا معركتهم قبل ان يصل الأمام الى ذي قار. وقد كان مما قاله الأمام لأهل الكوفة حين لقوه في ذلك المكان:

«وقد دعوتكم لتشهدوا معنا اخواننا من اهل البصرة فان يرجعوا فذلك ما نريد. وان يلجوا داويناهم بالرفق وبايناهم حتى يبدأونا بظلم، ولن ندع امرا فيه صلاح الاّ آثرناه على ما فيه الفساد ان شاء الله. ولا قوة الا بالله.» (١٠)

لقد اطلنا الحديث عن ابي موسى لما كان لموقفه من تأثير في احداث تلك الأيام

---

(١٠) تاريخ الطبري احداث سنة ٣٦ ص ٣١٥٥

وقد لعب دورا بعد انتهاء معركة صفين كانت له نتائجه الخطيرة على العالم الأسلامي.

واخيرا خرج عدد من اهل الكوفة لموافاة الأمام. يبلغ عددهم نحواً من اثني عشر الفا. وقد روى الطبرى وابن الأثير وآخرون من المؤرخين وعدد من المحدثين ان الأمام قال: «يأتيكم من الكوفة اثنا عشر الف رجل ورجل، وان ابا الطفيل (الصحابي) راوي الحديث قال: فقمت على نجفة ذي قار فاحصيتهم فما زادوا رجلاً ولا نقصوا رجلاً.[11]

ما من شك بان الكوفة كانت تستطيع ان ترسل الى الأمام عشرات الألوف من رجالها. ولكن الموقف الذي وقفه ابو موسى وكتب ام المؤمنين ومكانتها ومكانة طلحة والزبير الدينية في نفوس المسلمين لم تكن دون تأثير بالغ في تثبيط عزائم اهل المصر عن الأنضمام الى معسكر الأمام.

وحينما تقدم الأمام بجيشه نحو البصرة انضم اليه عدد من عبد القيس. وما بلغ جيشه مع كل ذلك اكثر من عشرين الفاً اما جيش القادة الثلاثة فقد اختلفت الروايات في تقديره والمكثرون يبلغون به مأة الف والمقلون ينزلون به الى ثلاثين الفا. وقد كان الأزد وبنو ضبة اشد هؤلاء اندفاعا في قتال الأمام.

— ٤ —

مساعي السلم

لم يكن الامام ليبدأ خصومه في البصرة بالقتال. ولم يكن ليقاتلهم قبل ان يبذل كل ما يمكن من المساعي لإحلال السلم محل العداء بالرغم من انه كان يرى ان خصومه اراقوا من الدماء في البصرة ما يبرر قتالهم. لقد اراد ان يحاول حصر الفتنة وازالتها وان لا تضاف الى الدماء البريئة التي اريقت دماء اخرى. واذا كان الوف من المسلمين قد شبه عليهم الأمر لمكانة خصومه الدينية في نفوسهم فمن

---

(١١) المصدر نفسه ص ٣١٧٤.

الضروري ان يقيم على خصومه الحجة ويوضح لعامة المسلمين الحجة.

يروي مؤرخون ان الامام استسفر القعقاع بن عمرو الى القادة الثلاثة ليتحدث اليهم ويعرض عليهم السلم، وكان للقعقاع صحبة وحكمة وما كان من المتهمين في امر عثمان.

قام القعقاع بسفارته؛ وبدا له انه اقنع القادة بالعودة الى السلام واعطاء البيعة للامام والرجوع بالمسلمين الى الوحدة التي انفصمت بمقتل عثمان واحداث البصرة. وان ينظر بعد ذلك فيما يتحدث عنه القادة الثلاثة من امر قتلة عثمان.

وعاد السفير الى الامام واخبره بنتيجة محادثاته ورجا الامام خيراً ومضى الى البصرة.
ولكنه وجد ان خصومه اقرب الى الحرب منهم الى السلم.وان استعداداتهم العسكرية تفوق مالديه.

لقد اهتزت عزيمة الزبير على القتال حينما علم ان عماراً بن ياسر في جيش الامام: جاء اليه رجل فأخبره بأنه رأى عماراً بن ياسر في جيش علي وتحدث اليه. فقال له الزبير: انه ليس فيهم. واكد له الرجل مرة بعد اخرى انه فيهم. فأرسل الزبير بعض اهله ليرى ما اذا كان ذلك حق. وحينما عاد اليه الرسول يؤكد صدق الخبر قال الزبير: «يا جدع انفاه أو يا قطع ظهراه» واصابته رعدة فجعل سلاحه ينتفض. وكان الزبير يعرف ما يعرفه سائر الصحابة من ان الرسول قال يوماً لعمار: «ابشر يا عمار. تقتلك الفئة الباغية. وآخر شرابك من الدنيا ضياح من لبن.» وخشي الزبير ان يقتل عمار في تلك المعركة وان تكون فئة البصرة هي الفئة الباغية.

وبالرغم من ذلك بقي الزبير على موقفه. واراد الامام ان يلقي الحجة عليه وعلى صاحبه فلقيهما بين العسكرين وكل منهم على متن جواده والناس ينظرون اليهم. ولقيهما الامام وهو اعزل والزبير مدجج بالسلاح. واراد الامام بذلك ان يريهما والناس انه لا يريد قتالهما. واذ كانا قد اعلنا العصيان ورفعا لواء الثورة على الامام بحجة الطلب بدم عثمان اطاعة لله فقد فقد اراد الامام ان يذكرهما الله فقال مخاطبا اياهما: «لعمري لقد اعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً ان كنتما اعددتما عند الله عذرا. فاتقيا الله سبحانه ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة

انكاثاً. الم اكن اخاكما تحرمان دمي واحرم دماءكما؟ فهل من حدث احل لكما دمي؟»

وقال للزبير:ما جاء بك؟ فقال له:«انت. ولا اراك لهذا الامر اهلاً ولا اولى به منا». فقال له الامام:«لست لهذا الامر اهلاً بعد عثمان؟ قد كنا نعدك من بني عبد المطلب (لأن الزبير ابن صفية ابنة عبد المطلب). حتى بلغ ابنك (عبد الله) ولد السوء ففرق بيننا وبينك. يا زبير اتطلب مني دم عثمان وانت قتلته؟ سلط الله على اشدنا عليه اليوم ما يكره.»

واخيراً ذكره الامام بما قطع حجته ودك عزيمته:«يا زبير: اتذكر يوم مررت مع رسول الله في بني غنم فنظر الي فضحك وضحكت اليه. فقلت: لا يدع ابن ابي طالب زهوه. فقال لك رسول الله:«انه ليس به زهو. ولتقاتلنه وانت له ظالم؟» فقال الزبير:«اللهم نعم. ولو ذكرت ما سرت مسيري هذا. والله لا اقاتلك إبداً.»

وقد كان يتوقع ان يحذو طلحة حذو الزبير. ذلك انه اذا كان الرسول قد اخبر الزبير بأنه سيقاتل علياً وهو له ظالم فان ذلك شهادة من الرسول بان طلحة ايضاً ظالم في قتاله لعلي. لان موقف طلحة من علي كان كموقف الزبير بل اشد عنفاً وظلماً. ولكن طلحة لم يتأثر بكل ذلك وبقي على صلابته. فقد قال للامام: البت الناس على عثمان. فقال الامام: يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو الحق المبين. يا طلحة، اتطلب بدم عثمان؟ فلعن الله قتلة عثمان. يا طلحة جئت بعرس رسول الله تقاتل بها وخبأت عرسك في البيت؟ اما بايعتني؟ واجاب طلحة: بايعتك وعلى عنقي اللج. على ان الزبير بقي في معسكره واشترك في المعركة قليلاً ثم انصرف. وكان اشتراكه الرمزي فيها نتيجة تحريض ابنه واتهامه اياه بالجبن حينما اعلمه بعزمه على ترك المعركة.

واصدر الامام امره الى اصحابه ان لا يبدأوا القوم بقتال ولكن سهام معسكر البصرة بدأت تصيب من رجال الامام مقاتلاً. وبدأ اصحاب الامام يحملون قتلاهم اليه ويستأذنونه في القتال وهو لا يأذن حتى ضج اصحابه. واخيراً اخذ الامام مصحفاً فطاف به في اصحابه. وقال: من يأخذ هذا المصحف يدعوهم الى ما فيه وهو مقتول؟ فقام اليه فتى من اهل الكوفة فقال: انا. فأعرض عنه. واعاد

نداءه فلم يأخذه احد واعاد نداءه فلم يأخذه احد إلا ذلك الفتى. فاعطاه اياه وامره ان يعرضه عليهم وان يقول لهم: هذا كتاب الله بيننا وبينكم من اوله الى آخره. والله في دمائنا ودمائكم. وفعل الفتى ما امره الامام به فرموه رشقاً واحداً. فقال علي لاصحابه: الآن طاب لكم الضراب. أو قال: الآن حل قتالهم.

– ٥ –

المعركة

«والله ما انكروا علي منكرا ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً.» وانهم ليطلبون حقاً هم تركوه ودماً هم سفكوه. وانها للفئة الباغية فيها الحما والحمة والشبهة المغدفة. وايم الله لأفرطن لهم حوضاً انا ماتحه.لا يصدرون عنه بريٍ ولا يعبون بعده بحي.

«اللهم انهما (طلحة والزبير) قطعاني وظلماني ونكثا بيعتي وألّبا الناس علي. فاحلل ما عقدا ولا تحكم لهما ما ابرما. وأرهما المساءة فيا املا وعملا. ولقد استثبتهما قبل القتال واستأنيت امام الوقاع فغمطا النعمة وردا العافية.»

الامام علي

ما كان الامام بالذي تروعه المعارك ولا تخيفه كثرة الاعداد. وما كان ليهاب طلحة والزبير وما معهما من الالوف والصفوف المتراصة. انه لا يزال ذلك البطل الذي وضع بكلاكل العرب ايام الرسول وما زادته السنون الا قوة ومضاء. انه كان يعرف بعهد من الرسول ان هذه المعركة آتية وان خصومه هم الفئة الباغية التي وصفها له الرسول بأن فيها الحما والحمة (الزبير وعائشة) وكان يعرف ايضاً انه سيخرج من المعركة سالماً.

وقد قيل له بعد ان لقي الزبير: كيف لقيت الزبير وانت اعزل وهو مدجج بالسلاح وهو من عرفت (شجاعة)؟ فاجاب: «انه ليس بقاتلي. انما قاتلي رجل خامل الذكر ضئيل النسب يقتلني في غير مأقط حرب. ويل امه ليودن ان امه هبلت به. اما انه واحمر ثمود لمقر ونان في قرن».

وبالرغم من معرفته بان خصومه سيقاتلون على كل حال فقد رأى لزاما عليه ان يعرض الصلح عليهم وان يستتيبهم ويبذل كل ما في طاقته لمنع اراقة الدماء.

واذا ابوا الا المضي في عنادهم فليكن لهم ما ارادوا. فقد صمم ان يفرط لهم حوضاً من المنايا هو ماتحه .وما كانوا ليصدروا عن ذلك الحوض بري. ولقد دعا الله عليهما فسأله ان يحل ما عقدا وان يريهما المساءة فيا املا وعملا. وقد استجاب الله دعاءه.

يختلف المؤرخون في مدة استمرار المعركة «معركة البصرة»، اكانت يوماً واحداً ام كانت يومين؟ ومهما كانت مدتها فانها كانت من افظع المعارك واشدها عنفا. وقد كانت فريدة في شناعتها وشؤمها واثرها في تفريق المسلمين. فلأول مرة شهد التاريخ المسلمين يقفون في معسكرين يقاتل بعضهم بعضاً ويسقط منهم بسيوفهم الوف من القتلى.

بدأت المعركة فبدت قصيرة سريعة النهاية قليلة الخسائر في النفوس فالهجوم الذي شنه جيش الامام كان صاعقاً زلزل معسكر البصرة وقذف بالالوف منهم الى الفرار قبل انتصاف النهار. واصيب طلحة في المعركة بسهم قاتل اسال دمه حتى نزف.

روي عن حندب بن عبد الله انه قال: مررت بطلحة وان معه عصابة يقاتل بهم وقد فشت فيهم الجراح وكثرهم الناس. فرأيته جريحاً والسيف في يده واصحابه يتصدعون عنه رجلا فرجلا واثنين فاثنين وانا اسمعه وهو يقول: عباد الله الصبر الصبر. فان بعد الصبر النصر والاجر. فقلت له النجاء ثكلتك امك. فوالله ما اجرت ولا نصرت. ولكنك وزرت وخسرت. ثم صحت باصحابه فانذعروا عنه. ولو شئت ان اطعنه لطعنته. فقلت له: والله لو شئت لجدلتك في هذا الصعيد فقال: والله لهلكت هلاك الدنيا والآخرة. فقلت: والله لقد امسيت وان دمك حلال وانك من النادمين. فانصرف ومعه ثلاثة نفر. وما ادري كيف كان امره الا اني اعلم انه قد هلك.[١٢]

---

(١٢) شرح النهج لابن ابي الحديد ج ٢ ص ٤٣١

ورآه القعقاع بن عمرو وهو يحرض الناس على القتال ودمه يسيل فقال له: يا ابا محمد إنك لجريح وانك عن هذا الامر لعليل. فادخل هذه الابيات.

ويؤكدون ان مروان بن الحكم هو الذي رماه بالسهم القاتل بالرغم من انه كان من قادة جيشه. وقد كان مروان وسائر الامويين يعتقدون ان طلحة والزبير كانا من رؤوس قتلة عثمان، الا انهم كانوا يؤخرون الانتقام منهما الى ما بعد الانتصار على الامام. واذ رأى مروان في سير المعركة ما أيأسه من النصر رأى ان الوقت قد حان للانتقام من عدوه. وهكذا كانت تقضي الخطة الاموية باستعمال القادة الثلاثة كوسيلة للوصول الى غايتهم وهو الانتصار على الامام ليستعيدوا سلطانهم الذي خسروه بمقتل عثمان. وكانوا على استعداد لا نفاق هؤلاء القادة انفاق الدرهم. ولكن القادة الثلاثة ما كانوا يعرفون ما هم صانعون. ولو لم يقتل الزبير لما افلت من يد الأمويين.

اما الزبير فقد كان اعطى الامام عهداً ان لا يقاتله بعد ان ذكره الامام بقول الرسول له بانه سوف يقاتل علياً وهو ظالم له. وكانت قد ضعفت عزيمته على القتال لما علم بان عماراً بن ياسر في جيش الامام. وبالرغم من ذلك بقي في المعركة واشترك فيها بعض الوقت. ذلك حينما اتهمه ابنه عبد الله بانه جبن حينما رأى رايات ابن ابي طالب يحملها رجال انجاد. وحينما اخبر الزبير ابنه بانه حلف لعلي بالله ان لا يقاتله. اشار عليه ابنه بان يحنث بيمينه ويكفر عن ذلك باعتاق احد عبيده. ففعل وقاتل.

ومن المدهش ان يتحرج الزبير من ان يحنث بيمينه دون كفارة ثم لا يتحرج بعد الكفارة من خوض المعركة وقتل من تصل اليه يده من المسلمين. في حين ان قتل مؤمن واحدا عمداً سبب في الخلود بالنار.

واخيراً خرج الزبير من المعركة وما خرج حتى لقيه عمار بن ياسر وجعل يحوزه بالرمح. وجعل يقول له الزبير: اتقتلني يا ابا اليقظان؟ فيقول له عمار: لا، يا ابا عبد الله. ولكن اخرج. وكان الزبير يخشى ان يقتل عمارا او ان يقتله عمار لقول الرسول ان عمارا تقتله الفئة الباغية.

وكان يتوقع من الزبير ان يخشى من قتال علي اكثر مما يخشى من قتال عمار

لأن قتال علي قتال للرسول بشهادة الرسول.

وقد لقي الزبير مصرعه بعد خروجه من البصرة حيث قتله عمرو بن جرموز وهو في طريقه الى المدينة.

تحت قيادة ام المؤمنين

تضعضعت صفوف معسكر البصرة بسرعة وقتل طلحة وترك الزبير المعركة. ولكن ام المؤمنين تسلمت القيادة بنفسها فأثبتت انها اعظم خطراً واشد اجتذابا للناس منهما. كانت اشد من الرجلين عداء للامام وكان لها من مكانها من الرسول ومن ابيها ابي بكر ما يحيطها بهالة من القداسة في نظر عامة المسلمين.

وضعت في هودج مدرع على ظهر بعيرها الضخم، عسكر. واستنجدت الناس فثابوا اليها بحماس شديد. ولعل عامتهم شعروا بان خذلان زوجة الرسول خذلان للرسول فاستقتلوا امامها وشدوا على ميمنة الامام وميسرته فألجأوهما الى التراجع. والتصق جناحا الجيش بقلبه حيث كان يقف الامام. وهنالك ظهر الامام بشجاعته العجيبة التي تبدو فريدة في تاريخ الحروب.

زحف الامام نحو الجمل بنفسه في كتيبته الخضراء من المهاجرين والانصار. وحوله بنوه حسن وحسين ومحمد. ودفع الراية الى محمد وقال: اقدم بها حتى تركزها في عين الجمل ولا تقفن دونه.

تقدم محمد فرشقته السهام فقال لاصحابه: رويداً حتى تنفذ سهامهم فبعث اليه ابوه يستحثه ويأمره بالمناجزة: فلما ابطأ عليه جاء بنفسه من خلفه فوضع يده اليسرى على منكبه الأيمن وقال له: اقدم لا ام لك.

وادركت الامام رقة على ولده فتناول الراية منه بيده اليسرى وذو الفقار مشهور في يمنى يديه ثم حمل فغاص في عسكر الجمل ثم رجع وقد انحنى سيفه فاقامه بركبته. وقال له اصحابه وبنوه والاشتر وعمار: نحن نكفيك يا امير المؤمنين. فلم يجب احدا منهم ولا رد اليهم بصره وظل يزأر زئير الاسد. وتبادروه وانه طامح ببصره نحو عسكر عائشة ولا يرد حواراً ولا ينظر الى من حوله. ودفع الراية الى محمد ثم حمل حملة ثانية وحده فدخل وسطهم فضربهم بالسيف قدما قدماً

والرجال تفر من بين يديه وتنحاز عنه يمنة ويسرة حتى خضب الارض بدماء القتلى ثم رجع وقد انحنى سيفه فاقامه بركبته.

اعصوصب به اصحابه وناشدوه الله في نفسه والاسلام وقالوا له: انك ان تصب يذهب الدين فامسك ونحن نكفيك. فقال: والله ما اريد بما ترون الا وجه الله والدار الآخرة. ثم قال لمحمد: هكذا تصنع يا بن الحنيفة. فقال الناس: من الذي يستطيع ما تستطيعه يا أمير المؤمنين؟[١٣]

وتقدم اليه بعد احدى حملتيه رجل باناء فيه عسل (وماء) فشرب منه ثم قال لصاحب الاناء: « .... ان عسلك هذا لطائفي ». واجابه الرجل: « نعم. وعجبا منك والله يا امير المؤمنين ان تعرف الطائفي من غيره في هذا اليوم وقد بلغت القلوب الحناجر... »، ويجيبه الامام قائلاً: « يا ابن اخي، انه والله ما ملأ صدر عمك شيء قط ولا همه شيء.. »[١٤]

كان لحملتي الامام تأثيرهما المتوقع. لقد احدثت الحملتان ثغرة في صفوف العدو ورفعتا معنويات جيشه. بعث الامام الى الاشتر ان احمل على ميسرتهم فحمل عليها وفيها هلال بن وكيع. فاقتتلوا قتالا شديدا وقتل الاشتر هلالا. فمالت الميسرة الى عائشة فلاذوا بها ومعظمهم بنو ضبة وبنو عدي. ثم عطفت الازد وناجية وباهله الى الجمل فاحاطوا بالجمل. واخذ فرسان البصرة يأخذون بخطام الجمل واحدا بعد واحد. وكان الجمل لواء اهل البصرة. وام المؤمنين تحرض ابناءها على القتال، واملها في النصر بعد لم يذو.

وخرج عبد الله بن خلف الخزاعي وهو رئيس اهل البصرة واكثرهم مالا فطلب البراز وسأل ان لا يخرج اليه الا علي. وبرز اليه الامام فلم يمهله ان ضربه ففلق هامته. وتناول عبد الله بن ابزى خطام الجمل ثم شد على جيش الامام وهو يقول: اضربهم ولا ارى ابا حسن. ما ان هذا حزن من الحزن. فشد عليه الامام برمحه فقتله وترك الرمح فيه، قائلاً: قد رأيت ابا حسن فكيف رأيته؟

---

(١٣) رواه ابن ابي الحديد في شرح النهج ج ١ ص ٨٦

(١٤) الامام علي بن ابي طالب لعبد الفتاح عبد المقصود ج ٣ - ص ٢٢٠

قتل على خطام الجمل من قريش سبعون ومن سواهم الوف تقدم عبد الرحمن بن عتاب بن اسيد (من بني امية) وكان من اشراف قريش فحمل عليه الاشتر فقتله. وصمد الاشتر الى خباب بن عمرو الراسبي حين سمعه يتحدى برجزه الامام فقتله. وقاتل عمار بن ياسر وهو ابن تسعين سنة قتال الابطال. وقد روي انه بارز عمرو بن يثري اعظم فرسان البصرة، بعد ان قتل هذا عدداً من اصحاب الامام. قال عمار لعمرو: انك لذت بكهف حريز. فاترك مكانك وتقدم الي. واشفق الناس كلهم على عمار، ولكن عمارا. صرعه وسحبه برجله الى معسكر الامام.

وقام رجل الى الامام. فقال: يا امير المؤمنين، اي فتنة اعظم من هذه؟ البدريون يمشي بعضهم الى بعض بالسيف. فقال الامام له: « ويحك اتكون (هذه) فتنة وانا اميرها وقائدها؟ والذي بعث محمداً بالحق وكرم وجهه، ما كذبت ولا كذبت. ولا ضللت ولا ضل بي ولا زللت ولا زل بي.

« واني على بينة من ربي بينها الله لرسوله وبينها رسوله لي. وسأدعى يوم القيامة، ولا ذنب لي. ولو كان لي ذنب لكفر عني ذنوبي ما انا فيه من قتالهم. »

ولما رأى الامام ان الموت عند الجمل وان الحرب لن تنتهي ما دام ذلك الجمل قائما، وضع سيفه وعطف نحوه وامر اصحابه بذلك ومشى نحوه والخطام في ايدي بني ضبه. فاستحر القتل وقتل من هؤلاء عدد كبير. وخلص الامام الى الجمل في جماعة من النخع وهمدان وقال لرجل من اصحابه: يا بجير، دونك الجمل. فضرب عجز الجمل بسيفه فوقع لجنبه وضرب بجرانه الأرض وعج عجيجاً لم يسمع باشد منه. فما هو الا ان صرع حتى فرَّ جند البصرة كما يطير الجراد في الريح الشديدة الهبوب. واحتمل محمد بن ابي بكر وعمار بن ياسر عائشة بهودجها فوضعت الى جانب. تقدم الامام نحوها وهو مغضب فقرع الهودج برمحه وقال لها وهو يتمالك نفسه: كيف رأيت صنيع الله يا اخت ارم. استنفرت الناس وقد فروا، فالبت بينهم حتى قتل بعضهم بعضاً...». فقالت: يا ابن ابي طالب، ملكت فاسجح. لنعم ما ابليت قومك. وادخلت بعد ذلك دار عبد الله بن خلف الخزاعي اكبر دار في البصرة، فمكثت اياما ثم ارسلها الامام الى المدينة مكرمة يصحبها نساء

ورجال. وتقدم اليها عمار وهي تهم بالذهاب فقال لها: يا ام اين هذا المسير مما امرك الله به؟ فقالت له: اشهد انك ما علمت لقوال بالحق. فقال لها: الحمد لله الذي اجرى لي هذا على لسانك.

اقام الامام ثلاثة ايام في معسكره ثم دخل البصرة فسار فيهم سيرة النبي في اهل مكة. عفى عن مسيئهم ومنع اصحابه من اخذ شيء من اموالهم. وقسم ما وجده في بيت مال البصرة بين الغالبين والمغلوبين على السواء. وصلى على قتلى الفريقين وبايعه اهل البصرة على راياتهم الصحيح منهم والجريح.

وتحدث اليهم فقال: «كنتم جند المرأة واتباع البهيمة رغا فاجبتم وعقر فهربتم. اخلاقكم دقاق وعهدكم شقاق ودينكم نفاق وماؤكم زعاق. والمقيم بين اظهركم مرتهن بذنبه. والشاخص عنكم متدارك برحمة من ربه. وايم الله لتغرقن بلدتكم حتى كأني انظر الى مسجدها، كجؤجؤ سفينة او نعامة جاثمة». [١٥] وقد صدقت نبوءته. إذ غرقت البصرة وطغى الماء عليها حتى لم يبق من ابنيتها الا مسجدها.

وقال له بعض اصحابه بعد ان اظفره الله باصحاب الجمل: وددت اخي فلاناً كان شاهدنا ليرى ما نصرك الله له على اعدائك. فقال له الامام: اهوى اخيك معنا؟ فقال: نعم. فقال الامام: «فقد شهدنا. ولقد شهدنا في عسكرنا هذا اقوام في اصلاب الرجال وارحام النساء سيرعف بهم الزمان ويقوى بهم الايمان.» [١٦]

- ٦ -

مسؤولية القادة الثلاثة

وإذ ننتهي من ذكر مجمل احداث هذه المعركة ونلقي نظرة الى الوراء. نرى ان الوفا من اهل البصرة لقوا حتفهم وهم يعتقدون انهم على الحق. لقد شبه عليهم الأمر وصعب عليهم ان يصدقوا ان زوجة الرسول واثنين من اكابر اصحابه قد

---

(١٥) نهج البلاغة ج ١ ص ٤٤ - ٤٥.
(١٦) نفس المصدر.

فارقوا الحق. والناس كانوا ولم يزالوا يحاولون ان يعرفوا الحق بواسطة الأشخاص بالرغم من ان المنطق يقضي بأن يعرف الأشخاص بواسطة الحق. وبا اعتقد ان اهل البصرة كانوا يعرفون الشيء الكثير عن علي وماضيه الناصع واقوال الرسول فيه.

اما الثلاثة الذين قادوا أهل البصرة فقد كانوا يعرفون عليا كل المعرفة. ولكنهم أخفوا عن اتباعهم ما علموا. بل حاولوا بكل ما أوتوه من قوة ان يصغروا من عظيم حقه وان يتهموه بما اقترفوه هم انفسهم من قتل عثمان، في حين انهم كانوا يعلمون ان عليا كان بريئاً من كل ذلك. ثم اضافوا الى ما اقترفوه في حق عثمان الوف الضحايا التي سالت نفوسها في تلك المعركة من الجانبين.

لقد كانت مسؤولية القادة الثلاثة في قتال الأمام واتهامهم اياه بقتل عثمان اعظم من مسؤولية معاوية وسائر الأمويين.

ان مطالبة الأمويين بدم عثمان وسعيهم لقتل قتلته بالرغم من انه ليس لها مبرر اسلامي فان لها مبررا جاهليا. انهم كانوا من عشيرة الخليفة المقتول ولم يكونوا من قتلته ولا اعانوا عليه. وان كانت اعمالهم الشريرة وسوء تصرفهم في اموال المسلمين من اعظم الأسباب في اثارة الناس ضده.

اما أقطاب الحزب الأول فلا مبرر لهم في المطالبة بدم عثمان لأنهم كانوا اول السعاة لقتله وهم بعد ليسوا من عشيرته ويعلمون ان عليا كان اشد اصحاب الرسول محافظة على حياتهواكرههم لقتله. وقد عرض على عثمان نصره فاستكفه ومع ذلك بعث بولديه يحملان سيفيهما لحمايته.

وقد روى البلاذري ان طلحة لام عليا حينا ضرب الحسنين لفشلهما غير المتعمد في حماية عثمان فلعن علي طلحة لأنه ابى ان يفعل الا ما يكرهه علي. واجاب طلحة بان عثمان لو سلم مروان لما قتل. فقال له علي: لو اخرج اليكم مروان لقتل قبل ان يثبت عليه حكومة. [١٦]

---

(١٦) تاريخ البلاذري ج ٤ قسم ١ ص ٧٠

وقد روى الطبري في احداث سنة ٣٦ من تاريخه (ص ٣١٨٥) ان عليا قال للزبير وهما في البصرة: «اتطلب مني دم عثمان وانت قتلته؟ سلط الله على اشدنا عليه اليوم ما يكرهه.»

ان معاوية رأس الحزب الأموي لم يكن من الذين بايعوا الأمام بل امتنع عن البيعة. فهو وان كانت البيعة لزمته بعد ان بايع اهل المدينة الأمام، لا يكون متساويا في المسؤولية مع الزبير وطلحة اللذين بايعا الأمام. لقد كانت ثورتهما على الأمام نكثاً لبيعة شرعية الزمتهما بطاعة الأمام ما دام الأمام يعمل على كتاب الله وسنة نبيه. وعلي اشد الناس اتباعا للكتاب والسنة. وقد امر الله تعالى بالوفاء بالبيعة فقال: «ومن نكث فانما ينكث على نفسه. ومن اوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه اجراً عظيماً.» وقد امر رسول الله بقتل ناكثي البيعة فقد روى مسلم في صحيحه عن النبي انه قال:

«انه ستكون هنات وهنات. من اراد ان يفرق امر هذه الأمة وهي جميع فاضربوا رأسه بالسيف كائنا من كان.» (١٧)

وروى ايضا ان النبي قال: «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميته جاهلية ومن قاتل تحت راية عُمّيّةٍ فيغضب لعصبة او يدعو الى عصبة او ينصر عصبة فقتل فقتلة جاهلية. ومن خرج على امتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها ولا يفي لذي عهد بعهده فليس مني ولست منه.». (١٨)

وقد كان يتوقع من عائشة وطلحة والزبير بما لهم من منزلة دينية مالا يتوقع من معاوية الذي لم يكن له سابقة في الدين ولا عُدّ يوما من الأبرار. وقد سمع هؤلاء الثلاثة من رسول الله في علي ما لم يسمعه معاوية. ولو سمع معاوية والأمويون مثل ما سمع الثلاثة من الرسول لكان يتوقع من الثلاثة، لا من معاوية رجل المادية والإنتهازية، ان يصغوا الى قول الرسول ويطيعوه.

---

(١٧) ج ١٢ ص ٢٤١

(١٨) نفس المصدر ص ٢٣٩

لقد علم الأصحاب ومنهم عائشة والزبير ان الرسول قال يوم غدير خم في علي: « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. »

وقد قال الرسول لعلي وفاطمة والحسن والحسين « انا سلم لمن سالمتم وحرب لمن حاربتم. » (١٩)

والتصريحات هذه تدل بوضوح على ان من يحارب عليا يحارب رسول الله وان عدو علي عدو الله ورسوله. فاقدام هؤلاء الأبرار على عداء علي وقتاله حادث عجيب لا نتصور له مبررا.

ويلام الزبير بصورة خاصة فهو الرجل الذي وقف يوم بويع ابو بكر قابضا على قائم سيفه وهو يقول: لا احد احق بها من علي بن ابي طالب. وكان مستعدا لأن يقاتل ويقتل في سبيل بيعة علي لو شاء علي ان يقاتل يوم ذاك. فكيف اجاز لنفسه بعد ان بويع الأمام بيعة شرعية وبايعه هو ان يقف في وجهه ويعلن الحرب عليه ويريق دماء الوف المسلمين في سبيل احباط خلافته؟

ويلام الزبير لأنه سمع من رسول الله انه سوف يقاتل عليا وهو ظالم له. لقد روى ذلك ابن الأثير (٢٠) والطبري (٢١) وعدد من المؤرخين. وروى الحاكم في صحيحه المستدرك باسناده من اربع طرق ان عليا ذكّر الزبير يوم معركة البصرة ان النبي قال للزبير انه سيقاتل عليا وهو ظالم له. فاعترف الزبير بذلك وقال انه كان قد نسي ذلك. (٢٢)

وتلام عائشة ام المؤمنين اكثر من سواها لأنها زوجة الرسول وكانت تعلم مدى حب الرسول لعلي. وقد تلقت من الرسول توبيخا وزجرا وانذارا حينما اظهرت اشمئزازها من حضور علي مع الرسول ومناجاته له. وقد روى بن ابي الحديد في

---

(١٩) رواه ابن ماجه في صحيحه ج ١ (رقم الحديث ١٤٥) وروى الحاكم مثله في المستدرك بطريقين (ج ٣ ص ١٤٩)

(٢٠) الكامل ج ٣ ص ١٢٠

(٢١) احداث سنة ٣٦ ص ٣١٣٥

(٢٢) ج ١ ص ٣٦٦ - ٣٦٧

شرح نهج البلاغة عن ابي مخنف حواراً جرى بين ام سلمه زوجة الرسول الأخرى وعائشة حينما عزمت هذه على الذهاب للبصرة والتمست ام سلمة لترافقها. فقد ذكرتها ام سلمة بامور لم تنكرها:

منها انهما كانتا مع رسول الله وخلا بعلي فاطال. فأرادت عائشة ان تهجم عليهما فنهتها عن ذلك فعصتها ثم عادت باكية. وقالت عائشة لها: قلت لعلي: ليس لي من رسول الله الا يوم من تسعة ايام. فما تدعني يا ابن ابي طالب ويومي؟ فاقبل علي رسول الله وهو غضبان محمر الوجه، فقال: «ارجعي وراءك. والله لا يبغضه احد من اهل بيتي ولا من غيرهم من الناس الا وهو خارج من الأيمان.»

ومنها: انهما كانتا مع رسول الله وكانت عائشة تغسل رأس رسول الله وام سلمة تصنع له الحيس. وكان الحيس يعجبه فرفع رأسه وقال يا ليت شعري ايتكن صاحبه الجمل الأذنب، تنبحها كلاب الحوأب فتكون ناكبة عن الصراط؟ قالت ام سلمة فرفعت يدي من الحيس وقلت: اعوذ بالله ورسوله من ذلك.

ثم ضرب على ظهرك وقال: اياك ان تكونيها. ثم قال يا بنت ابي أمية اياك ان تكونيها (ثم توجه الى عائشة فقال:) «يا حميراء اما انا فقد انذرتك.»

والأمر الثالث الذي ذكَّرت به ام سلمة عائشة: انهما كانتا مع رسول الله في سفر. وكان علي يتعاهد نعلي رسول الله فيخصفهما ويتعاهد أثوابه فيغسلها. فنقبت له نعل، فأخذها يومئذٍ يخصفها وقعد في ظل سمرة. وجاء ابو بكر ومعه عمر فاستأذنا عليه. قالت ام سلمة: فقمنا الى الحجاب ودخلا يحادثانه فيما ارادا. ثم قالا: يا رسول الله انا لا ندري قد رما تصحبنا. فلو أعلمتنا من تستخلف علينا ليكون بعدك مفزعا. فقال لهما اني قد أرى مكانه. ولو فعلت لتفرقتم عنه كما تفرقت بنو اسرائيل عن هارون بن عمران. فسكتا. ثم خرجا. فلما خرجنا الى رسول الله قلت له وكنت اجرأ عليه منا: من كنت يا رسول مستخلفا عليهم؟ فقال: خاصف النعل فنزلنا فلم نر احدا إلاَّ عليا. فقلتِ: يا رسول الله ما أرى الا عليا فقال: هو ذاك.

وقد اقرت عائشة بكل ما ذكَّرتها به ام سلمه. وقالت لها ام سلمة: انا ام سلمه

انك بالأمس تحرضيني على عثمان وتقولين فيه اخبث القول. وما كان اسمه عندك الا نعثلا. وانك لتعرفين منزلة علي بن ابي طالب عند رسول الله. (٢٣)

وقد روى حديث انذار الرسول لعائشة بانها سوف تنبحها كلاب الحوأب عدد من المؤرخين منهم ابن الأثير(٢٤) والطبري(٢٥) وعدد من المحدثين منهم الحاكم. فقد روى الحاكم في المستدرك ما يلي:

«لما بلغت عائشة بعض ديار بني عامر فنبحت عليها الكلاب فقالت: اي ماء هذا؟ قالوا: الحوأب قالت ما اظنني الا راجعة. فقال الزبير لا. بعد تقدمي ويراك الناس ويصلح بينهم. قالت: ما اظنني الا راجعة. سمعت رسول الله يقول كيف باحداكن إذا نبحتها كلاب الحوأب (٢٦)

وروى الحاكم ايضا عن ام سلمة انها قالت ذكر النبي خروج بعض امهات المؤمنين فضحكت عائشة. فقال: انظري يا حميراء ان لا تكوني انت. ثم التفت الى علي فقال: ان وليت من امرها شيئاً فارفق بها. (٢٧)

وقد صورت لها ام سلمة ما هي صانعة فأجادت في التصوير حينا قالت لها: « ... ما كنت قائلة لو أن رسول الله (ص) عارضك بعد (في بعض) الفلوات ناصَّة قلوصا (راكبة جملا) من منهل الى آخر؟ ان بعين الله مهواك، وعلى رسوله تردين. لو سرت سيرك هذا ثم قيل لي: ادخلي الفردوس، لاستحييت ان القى محمدا، هاتكة حجابا قد ضربه علي. اجعلي حصنك بيتك ورقاعة الستر قبرك حتى تلقينه، وانت اطوع ما تكونين لله بالرقبة وانصر ما تكونين للدين ما حلت عنه. لو ذكرتك قولا تعرفينه لنهشت نهش الرقشاء (الحية) المطرقة. فقالت عائشة: ما

---

(٢٣) مجلد ٢ ص ٧٨

(٢٤) الكامل ج ٣ ص ١٠٤

(٢٥) في احداث سنة ٣٦ ص ٣٠١٩

(٢٦) ج ٣ - ص ١٢٠

(٢٧) نفس المصدر ص ١١٩

أقبلني لوعظك. وليس الأمر كما تظنين ولنعم المسير سير فزعت فيه الي فرقتان متناحرتان (او قالت متنافرتان). ان اقعدْ ففي غير حرج. وان أخرج فالى مالا بد لي من الإزدياد منه.» (٢٨)

ومن العجيب ان تجيب عائشة بانها تريد الخروج لأن فرقتين متناحرتين فزعتا اليها. واحدى الفرقتين (فرقة الأمام) لم تفزع اليها بل كانت اكره الناس لخروجها والفرقة الثانية لم تكن لتتناحر عليا لو لم تكن عائشة تقودها الى مناحرتها اياه. ولكن الأنسان إذا صمم على شيء.لم يعجزه ان يلتمس لنفسه عذرا يبرر به عمله.

لقد فعلت ام المؤمنين عائشة كل هذا في حين ان القرآن يأمر نساء النبي بلزوم بيوتهن «وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى(٢٩)

استنتاج

وبالرغم من كل ذلك فليس لنا ان نقول في القادة الثلاثة الاّ خيراً، وان نستغفر لهم ونقول: ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان، وان امرهم وما فعلوه يرجع الى الله فهو الذي له ان ان يحكم بامرهم. ولكنّ هنالك امور يحق لنا إن نستنتجها من هذه الاحداث منها:

(١) اذا كان هؤلاء القادة الكبار قد استحلوا اراقة تلك الدماء الغزار في سبيل تحقيق اهدافهم. فليس من المنطق ان نحتج بما رووه من السنن الا اذا كان ما رووه منها موافقاً لما روي عن الرسول بطرق اخرى يوثق بها. ذلك ان من يستحل نقض بيعه خيرة واشعال معركة بين المسلمين من هذا النوع لا يكون من العدول الذين تقبل رواياتهم. ومن لا يتحرج في الدماء لا يتحرج في رواية غير الحق.

(٢) اذا كان لا يجوز للمسلمين ان يقولوا في ام المؤمنين وطلحة والزبير الا

---

(٢٨) شرح النهج مجلد ٢ ص ٧٩

(٢٩) سورة الأحزاب (٣٣) آية ٣٤.

خيراً بالرغم من قتالهم لامير المؤمنين واخ الرسول فليس للمسلمين ان يقولوا الاّ خيراً فيمن ينتقد كبار الصحابة من الخلفاء وسواهم (رضي) او يقف منهم موقفاً غير ودي، فقتال الصحابي الكبير اعظم عند الله من انتقاده او الوقوف منه موقفا غير ودي.

ان المسلمين يرون لزاما عليهم ان يحترموا القادة الثلاثة وان يسألوا الله ان يرضى عنهم بالرغم من اقدامهم على قتال رئيس عترة الرسول واخيه (بل قتله لو اتيحت لهم الفرصة). فمن المنطق ايضاً ان يقفوا نفس الموقف ممن لا يقف من بقية كبار الصحابة موقفا وديا. فالقانون الاسلامي لا تمييز فيه. وما يطبق على هؤلاء القادة يجب ان يطبق على بقية المسلمين.

ولم يكن انتقاد الصحابي يوما من الايام بمحرم على الناس. والمسلمون الذين ينتقدون الخلفاء لا ينتقدونهم وهم يتعمدون الافتراء عليهم بل يفعلون ذلك بدافع رأي يعتقدونه مصيبين او مخطئين. في حين ان القادة الثلاثة قاتلوا علياً وهم يعرفون انهم مخطئون.فاذا كان علينا ان نقدر هؤلاء وان نقول فيهم خيراً. فليس من حقنا ان ننكر على فريق من المسلمين ما هو اقل من القتل والقتال ولا ان نحكم بضلالهم وفسقهم كما يفعل عامة المسلمين. وليس من المنطق ولا من الانصاف ان يفسق بعض المسلمين بعضاً من اجل ارائهم التي يكونونها حول احداث التاريخ الاسلامي واشخاصه ما دامت تلك الآراء لا تتناقض مع صريح القرآن او السنة النبوية المتواترة المجمع عليها. وليس في القرآن ولا في السنة المجمع عليها، ما يمنع من انتقاد كبار الصحابة او الوقوف منهم موقفاً لا يتفق مع رأي جمهور المسلمين.

ان المسلمين الذين تختلف آراؤهم في اصحاب الرسول هم اخوان بحكم القرآن بالرغم من اختلاف آرائهم في هذا الشأن، ويحرم عليهم ان يتباعدوا وان يضمر بعضهم لبعض عداء او ان يتهم بعضهم بعضاً في دينه وايمانه.

(٣) ان القادة الثلاثة هم الذين فتحوا على المجتمع الاسلامي ابواب الحروب الاهلية. لقد بدأوا اول معركة دامية سقط فيها الالوف من الجانبين. وتصدعت

بدعوتهم وحدة المسلمين ثم لم تعد. ومن الصعب على عقولنا ان تفهم كيف اجترأ هؤلاء البررة على اراقة هذه الدماء الغزيرة في حين انهم يعلمون ان قتل مؤمن واحد عمداً موجب للخلود في النار، بشهادة القرآن.

(٤) ان معركة صفين بكل هو لها وشدتها ما كانت الا ذيلاً من ذيول معركة البصرة. فلو ان ام المؤمنين وطلحة والزبير ساندوا الامام وذهبوا الى امصار العالم الاسلامي مجتمعين او منفردين وحرضوا الناس على طاعته والسير تحت لوائه لما اجترأ معاوية على قتاله. اجل لو فعل القادة الثلاثة ذلك لعرف معاوية بأنه لو قاتل الامام لخاض معركة خاسرة تنتهي بدماره ودمار معسكره. ولنزل على حكم علي صاغراً. ولكنه حينما رأى ان قسماً كبيراً من اهل العراق يشاطره رأيه ويقف موقفه وان قادة من اجلاء الاصحاب يسبقونه الى قتال الامام رأى ان امله في الانتصار امل معقول وغير بعيد المنال.

والواقع ان معركة البصرة كانت عاملاً قوياً في عدم استتباب الأمر للأمام واستتبابه لمعاوية في النهاية. فبالرغم من ان الامام انتصر على القادة انتصاراً ساحقاً في معركة البصرة فان الخسائر التي حلت بالمعسكرين اضعفت من قوة الامام الى درجة كبيرة. فقبائل المعسكر المهزوم بقيت تضمر له شراً وحقداً لما فقدته من الوف من رجالها. وقبائل من المعسكر الظافر ضعفت عزيمتها على خوض معركة اخرى (ضد معاوية) لما دفعته في معركة البصرة من دماء ابنائها. اما معاوية فقد بقي مع جيشه خارج المعركة متربصاً يزداد قوة واعوانا.

واذا كانت قريش قد تناست خلال سني خلافة الخلفاء الثلاثة شيئاً من احقادها على علي لما اصابها بسيفه أيام النبوة في معارك بدر واحد والاحزاب. فان معركة البصرة التي خسرت قريش فيها سبعين من زعمائها قد احيت تلك الضغائن واضافت اليها امثالها.

ويحق لنا ان نقول ان حركة القادة الثلاثة قد أدت الى تحول الخلافة الراشدة الى ملك اموي عضوض. ولو لم يخض هؤلاء القادة تلك المعركة المشؤومة لتمكن الامام من اقتلاع النبتة الاموية من سوريا ولبقيت الخلافة الرشيدة امداً بعيداً.

ولتمكن علي ان يتفرغ الى ما وراء حدود العالم الاسلامي ويواجه بشجاعته الخارقة اعداء الاسلام.

لقد بدأ القادة الثلاثة بحملتهم التحريضية على قتل عثمان لأنهم خشوا ان تنتقل الخلافة منه الى اقاربه بني امية وتستقر فيهم، فلا يأخذ طلحة والزبير نصيبهما منها. ثم اعقبوا حملتهم التحريضية على عثمان بثورتهم الدامية على علي فاوصلوا معاوية الى الخلافة وحققوا ما كانوا يجهدون في ان لا يكون.

اسطورة المؤامرة

الفصل الرابع والعشرون

- ١ -

روى الطبري عن سيف بن عمر عن محمد وطلحة ان عليًّا ارسل القعقاع بن عمرو (من قادة اهل الكوفة) الى عائشة وطلحة والزبير بعد ان استولوا على البصرة فحادثهم واقنعهم بالصلح وأن يتفق الفريقان على طلب قتلة عثمان وإقامة الحد عليهم بعد أن تستقر الامور ويستتب السلام. وتقول الرواية ان الامام وافق على ذلك وانه خرج من ذي قار بعد ان خطب وذكر انعام الله على الأمة بالجماعة بالخليفة بعد رسول الله ثم الذي يليه ثم الذي يليه وانه قال: «ثم حدث هذا الحدث (قتل عثمان) الذي جره على هذه الأمة اقوام طلبوا هذه الدنيا. حسدوا من افاءها الله عليه على الفضيلة وارادوا رد الأشياء على ادبارها. والله بالغ امره ومصيب من أراد. ألا واني راحل غدا فارتحلوا. الا فلا يرتحلن معنا غداً أحد أعان على عثمان بشيء من امور الناس وليغن عني السفهاء انفسهم.»

وتقول الرواية هذه ان نفراً من اعان على عثمان منهم الاشتر وعلباء بن الهيثم وعدي بن حاتم وسالم بن ثعلبة العبسي وشريح بن ضبيعة عقدوا بعد ذلك إجتماعاً سرياً ومعهم عبدالله بن سبأ الملقب بابن السوداء (ويقولون انه يماني من صنعاء يهودي الأب حبشي الأم اسلم في ايام عثمان نفاقا والَّب عليه الناس) ورأى المجتمعون أنهم سيدفعون ثمن الصلح من رؤوسهم وأن عليًّا سيكون اشد عليهم من طلحة والزبير وعائشة لأنه اعرف منهم بكتاب الله وأحرصه على اقامة الحدود.

وتمضي الرواية فتذكرنا (كما يقول الدكتور طه حسين) بصيغتها قصة وثني قريش يوم أتمروا على النبي وحضر معهم الشيطان بصورة شيخ من نجد. غير ان الشيطان في قصة هؤلاء كان ابن السوداء. وانهم بعد ان ابدوا آراء عديدة اشار عليهم ابن السوداء بان يضيعوا على الجانبين فرصة الاتفاق وان ينشبوا القتال ليلاً. وبذلك يتهم كل من الجانبين الآخر ببدء القتال. وتقول الرواية ان هؤلاء المؤتمرين نفذوا خطتهم بدقة ونجحوا في اشعال معركة البصرة.[١]

وقد علق كثير من المؤرخين الذين جاؤوا بعد الطبرى اهمية على هذه

---

(١) احداث سنة ٣٦ ص ٣١٦٣ - ٣١٦٥ - ٣١٨١ - ٣١٨٣

الرواية فاختاروها بالرغم من إن الطبري نفسه روى عدداً من الروايات تناقضها.

فقد روى عن عمار الدهني ان عليّاً اخذ مصحفاً يوم الجمل فطاف به في اصحابه وقال: من يأخذ هذا المصحف يدعوهم الى ما فيه وهو مقتول؟ فقام اليه فتى من اهل الكوفة فقال: انا فاعرض عنه واعاد نداءه فلم يأخذه أحد الا ذلك الفتى فاعطاء اياه فقتلوه فقال علي: «الآن حل قتالهم»[٢]

وروى الطبري ايضاً عن الزهري انه لما بلغ علياً مقتل السبعين من بني عبد القيس في البصرة اقبل حتى وصل اليها وجعل يقول: يا لهف نفسي على ربيعة، ربيعة السامعة المطيعة. قد سبقتني فيهم الوقيعة. فلما توقفوا خرج الزبير على فرسه، فدعا علي الزبير فتواقفا فقال علي: ما جاء بك؟ قال الزبير: انت. ولا اراك لهذا الأمر اهلاً ولا اولى به منا... وقال علي للزبير: اتطلب دم عثمان وانت قتلته؟سلّط الله على اشدنا عليه اليوم ما يكره. وذكّر علي الزبير بقول رسول الله انه سيقاتل علياً وهو ظالم له. فانصرف معاهداً الامام ان لا يقاتله.

وقال الإمام لطلحة: جئت بعرس رسول الله تقاتل بها وخبأت عرسك في البيت. اما بايعتني؟ قال طلحة: بايعتك وعلى عنقي اللج. فقال علي لاصحابه: ايكم يعرض هذا المصحف وما فيه وهو مقتول؟ فقال فتى من اهل الكوفة: انا... فقال الإمام اعرض عليهم هذا وقل: هو بيننا وبينكم من اوله الى آخره. والله في دمائنا ودمائكم. وفعل الفتى ما أمره به الامام فقتل. فقال علي قد طاب لكم الضراب، فقاتلوهم. فقتل يؤمئذٍ سبعون رجلاً كلهم يأخذ بخطام الجمل..[٣]

وهذه الرواية كسابقتها صريحة في ان القتال لم يبدأ الا بعد ان عرض الامام عليهم السلم والرجوع الى كتاب الله وقد كان هذا بعد ان تواقف الأمام وخصماه طلحة والزبير وخاجهما. وكل ذلك كان أمام الناس وبمشهد من المعسكرين نهاراً. فلم يكن هناك مؤامرة سرية ومعركة بدأها المتآمرون ليلاً.

---

(٢) نفس المصدر ص ٣١٨٨ - ٣١٨٩

(٣) المصدر نفسه ص ٣١٨٥ - ١١٨٧

ولكن هذه الروايات مع انها تتفق مع منطق الحوادث ومعقولها ومع انها تروي المحسوس المشاهد لم يخترها عدد من المؤرخين الذين جاؤوا بعد الطبري لأنها على ما يظهر تدين القادة الثلاثة وتضع مسؤولية المعركة عليهم. والمنطق وسير الحوادث يقضيان بذلك فالقادة الثلاثة لم يأتوا الى البصرة لنزهة ولا لنشر السلام. بل جاؤوا لاشعال الحرب ضد الامام وقد بدأوا المعركة قبل وصوله الى البصره وقتلوا مئات من الناس واستولوا على المدينة.

لقد اختار هؤلاء المؤرخون ما رواه الطبري عن سيف بن عمر في أمر المؤامرة التي تذكر الرواية انها عقدت سراً وحضرها عبدالله بن سبأ فكان من نتيجتها بدء المعركة ليلاً طبقاً لتصميمهم. وسرَّ هؤلاء المؤرخين ان يجدوا هذه الرواية لأنها تريحهم من التفكير في مسؤولية القادة الثلاثة عن بدء المعركة. ولأنها تلصق بعدد من قادة انصار الامام تهمة الأنقياد لدخيل على الاسلام منافق. لقد اختاروا هذه الرواية وعلقوا عليها اهمية كبرى بالرغم من ان محمداً وطلحة اللذين روياها (ورواها عنهما سيف) لم يدعيا انهما شهدا المؤامرة التي زعما انها عقدت سراً ولم يكونا من اعضائها. ولم يتساءل الذين اختاروا هذه الرواية عن الطريق التي علم الراويان بواسطتها امر هذه المؤامرة.

ان التاريخ يذكر ان مشركي قريش عقدوا اجتماعاً سرياً في دار الندوة ليأتمروا بالرسول وقد عرف النبي ما أتمروا به. ولكن النبي عرف ذلك بواسطة الوحي.

اما هذه المؤامرة فلم يكن من الممكن أن تعرف بواسطة الوحي لأن محمدا وطلحة اللذين روى عنهما سيف لم يتلقيا وحياً. ولم يذكر الراويان ان احدا من المتآمرين نقل لهما خبر المؤامرة. والظاهر ان المؤرخين اختاروا هذه الرواية لأنهم كانوا يحبون ان تكون مضامينها من حقائق التاريخ.

وإذ أعطيت هذه الرواية هذا المقدار من الأهمية فمن اللازم ان ننظر فيها بتأمل لنرى ما إذا كانت جديرة بهذا الإهتمام. واود تسجيل الملاحظات التالية:

(١) ان الرواية تفترض أن ام المؤمنين والزبير كانوا جديين في المطالبة بدم عثمان. مع ان تحريض هؤلاء الثلاثة على عثمان متواتر تاريخياً

واعترافهم بذلك ايضاً متواتر. وما كانت مطالبتهم بدمه الا ذريعة لمحاربة الامام. فهل يتصور أن يعدلوا عن حربه اذا وافقهم على اقامة الحد على قتلته مع ان هدفهم كان علياً لا قتلة عثمان؟

(٢) ان الرواية تقول ان الامام قال قبل رحيله من ذي قار: «الا وإني راحل غداً فارتحلوا. ألا، فلا يرتحلن غدا احد اعان على عثمان بشيء من امور الناس وليغن غي السفهاء انفسهم.» وإذا كان الإمام قد فاه بهذا فمن الظاهر انه لم يقصد بالذين اعانوا على عثمان الذين اشتركوا في قتله، فهؤلاء لم يكن احد منهم معه في جيشه.

ان الذين عناهم الامام بهذه الكلمات، ان كان فاه بها، هم الذين شغبوا على عثمان والبّوا الناس عليه، وبصورة خاصة الذين حرضوا على قتله او ساهموا في حصاره. هؤلاء كان منهم اناس في جيش الامام. وإذا كان الإمام قد اصدر هذا الامر فقد كان من اللازم ان يمنع المرتكبين لذلك من ان يرتحلوا معه.

ولكن الإمام لم يمنع محمداً بن ابي بكر من الارتحال معه مع انه كان يعلم علم اليقين ان محمدا هذاكان من كبار المحرضين على عثمان والمشتركين في حصاره بل ومن الذين تسلقوا عليه الدار بغية قتله. وان كان لم يشترك فعلا في قتله. والمؤرخون يجمعون على انه قبض على لحية عثمان واهانه ودعاه نعثلاً وقال له: ما اغنى عنك معاوية وابن ابي سرح...؟ ومع علم الامام بكل ذلك بقي ابن ابي بكر في صحبة الامام وكان من اقرب المقربين اليه، بل كان يعدّه واحداً من ولده. وقد قتل محمد وهو وال للإمام على مصر.

وقد كان واضحاً للإمام وضوح الشمس في رابعة النهار ان مالكا الإشتر كان ممن اعان على عثمان وألّب عليه وان لم يكن من الذين دعوا الى قتله. وقد نفاه عثمان من العراق الى سوريا مرتين، وقاد الاشتر بعد ذلك جماعة من اهل الكوفة لمنع سعيد بن العاص عامل عثمان من الرجوع الى الكوفة، ثم كان من قادة الكوفيين الذين اشتركوا في حصار عثمان.

وكان الاشتر من رؤوس الدعاة الى بيعة علي بعد ان قتل عثمان. وبقي الاشتر مع الامام وخرج معه الى ذي قار ومعه اهل الكوفة. وحينا ارتحل الامام الى البصرة كان الاشتر معه ومن قادة جيشه. فكيف قبل الامام ان يبقى معه الاشتر ويرتحل معه ويكون من قادة جيشه بعد أن امر الذين اعانوا على عثمان بان لا يرتحلوا معه؟

ومن متواترات التاريخ الاسلامي ان الاشتر كان من اقرب المقربين الى الامام مدة خلافته الى ان مات الاشتر: وكان ساعد الامام الأيمن في حربي الجمل وصفين. وقد مات الاشتر بسم دسه اليه معاوية. والاشتر في طريقه الى مصر اذ ارسله الامام والياً عليها.

وعدي بن حاتم الذي تذكر الرواية هذه انه كان من المؤتمرين مع ابن سبأ ايضاً كان من المقربين الى الامام وكبار انصاره في جميع المعارك التي خاضها الامام مدة خلافته.

وقد ارتحل مع الامام من ذي قار الى البصره ولم يمنعه من ذلك بعد ان اصدر امره بعدم ارتحال المعينين على عثمان كما تزعم الرواية.

ونذكر بصورة خاصة عماراً بن ياسر الذي كان من اعلام الصحابة. لقد كان من رؤوس المعارضين لعثمان والمؤلبين عليه واعلى الصحابة صوتاً في استنكار طريقته: ويروون انه كان يرى حل دمه مشاركاً في هذا الرأي عائشة وطلحة والزبير. ومع ذلك كان عمار ابرز قادة جيش الامام. وكان الذين حضروا معركة البصره ومعركة صفين يسيرون حيث سار عمار كأنه علم لهم. ومن المعلوم في التاريخ ان من اسباب ترك الزبير للمعركة هو حضور عمار المعركة الى جانب الامام، لأن الزبير كان يعلم ان الرسول قال لعمار: « يا عمار تقتلك الفئة الباغية... » ولو كان الامام امر الذين اعانوا على عثمان بشيء من الامر بأن لا يرتحلوا معه من ذي قار لمنع عمارا من الذهاب معه.

وهكذا فان رواية سيف المذكورة بالاضافة الى معارضتها برواية الزهري وروايات اخرى، نراها تتعارض مع متواتر التاريخ وهو

استصحاب الامام معه الى البصره عماراً بن ياسر ومحمداً بن ابي بكر ومالكاً الاشتر وعدياً بن حاتم. لقد كانوا معه ومن اشد المقربين اليه. وحينما تتعارض رواية مع معلومات التاريخ يجب طرحها واعتبارها من الموضوعات.

(٣) اضف الى هذا ان الإمام لم يكن بحاجة الى من ينبهه الى لزوم اقامة الحد على قاتل لمؤمن بغير حق. وما كان علي لينتظر اتفاقاً مع طلحة والزبير وام المؤمنين لكي يقيم الحد على قتلة عثمان لتكون اقامته للحد عليهم ثمناً للصلح مع القادة الثلاثة. ان من معلومات التاريخ ان الامام كان اكثر الناس شدة في المحافظة على اقامة حدود الله. وقد نقم على عثمان حينما رفض اقامة الحد على عبيدالله بن عمر بعد ان قتل عبيدالله الهرمزان دون برهان يثبت انه كان شريكاً في قتل ابيه عمر. وقد توعد علي عبيدالله بالقصاص من اجل ذلك يوم كان علي لا يزال خارج الحكم.

وقد كلفته شدة محافظته على المبادىء الاسلامية حرباً مع معاوية لم يسبق لها مثيل في تاريخ الاسلام. وكان بامكانه ان يجنب نفسه تلك الحرب الضروس لو رضي ببقاء معاوية والياً على سوريا. ولكنه قال: لا أدهن في ديني. واختار خوض تلك الحرب التي كلفته الخلافة نفسها واختار ذلك لأنه لا يريد ان يتنازل عن مبادئه قيد شعرة. ومن كان كذلك لا يتمهل في اقامة الحد على من يستحقون القصاص. ولا يحتاج الى اتفاق مع طلحة والزبير ليفعل ذلك. ولو كان يرى ان من اللازم اقامة الحد على محمد بن ابي بكر والاشتر وامثالهما ممن البوا الناس على عثمان لأقامه عليهم دون ابطاء. فالخلافة كانت في نظره وسيلة لتحقيق العدل وتنفيذ احكام الشريعة. واقل ما كان يفعله الامام لو كان يراهم مستحقين للقصاص ان يبعدهم عنه ولا يشركهم في امره. ولكننا نراه لم يفعل شيئاً من ذلك بل كانوا اقرب الناس اليه.

واذا كان لا يراهم مجرمين مستحقين للقصاص فليس من المتصور ان يتفق مع طلحة والزبير على اقامة الحد عليهم.

ولو كان علي يرى اقامة الحد على من اعان على عثمان. لكان عليه ان يقيم الحد على طلحة والزبير وام المؤمنين عائشة فهؤلاء كانوا من رؤساء المحرضين عليه بل كانوا السابقين الى ذلك والمستمرين في ذلك الى أن قتل. فكيف يتفق علي معهم على اقامة الحد على سواهم ويدعهم وهم شركاء في العمل نفسه؟

وما يظهر لنا هو ان الامام كان يرى اقامة الحد على الذين اشتركوا في قتل عثمان مباشرة فقط. وقد ذكرنا سابقاً ان ثلاثة من الذين قيل انهم اشتركوا في ذلك قتلوا في الساعة التي قتل فيها عثمان. وهم قتيرة وسودان بن حمران وكنافة بن بشير التجيبي. وقد قال الامام في كتاب له الى معاوية: «وما اعرف له (لعثمان) قاتلاً بعينه. وقد ضربت الأمر الى انفه وعينيه فلم أره يسعني دفع من قبلي ممن تتهمه... اليك.[٤]

(٤) وخطاب الامام الذي تنقله الرواية هذه صريح بأنه كان يرى صحة مسلك عثمان وادارته المالية وانه يوافقه على تولية من ولى من اقربائه. اذ تذكر الرواية ان الامام قال: «ان الله انعم على الأمة بالجماعة بواسطة الخلفاء الثلاثة واحدا بعد واحد ثم حدث هذا الحدث (قتل عثمان) الذي جره على هذه الأمة اقوام طلبوا الدنيا. حسدوا من افاءها الله عليه على الفضيلة وارادوا رد الاشياء على ادبارها.» فهو بذلك يصوب الخليفة الثالث في مسلكه كله ويتهم الذين ناوأوه بأنهم ارادوا رد الاشياء على ادبارها وعملوا ما عملوا طلباً للدنيا وحسدا لعثمان وولاته الذين افاء الله الدنيا عليهم.

وما من شك بأن هذا يتنافى مع ما علم من التاريخ بصورة قاطعة وهو أن الامام ما كان يرتضي سياسة عثمان المالية ولا يرتضي ولاته. وكم توسط الامام بين عثمان وخصومه. وكم وعد عثمان بالتغيير استجابة

---

(٤) الفتنة الكبرى ج ٢ للدكتور حسين طه ص ٧٥ نقلا عن البارودي.

لوساطته ثم كان يثنيه عن موقفه مروان بن الحكم.

ولو كان الإمام يرى صحة مسلك عثمان ومسلك ولاته لما اصرَّ على عزل معاوية وخاض من أجل ذلك معركة صِفِّين التي لم يسبق لها مثيل في التاريخ الاسلامي.

أن كل هذه الامور تثبت بجلاء أن رواية سيف بن عمر موضوعة قصد منها تغطية وتبرئة القادة الثلاثة من مسؤولية معركة البصرة وتشويه سمعة انصار الامام كالأشتر وسواه بانهم اشعلوا الحرب لأغراضهم الشخصيّة وعملاً بنصيحة دخيل منافق في حين أن الأشتر وامثاله كانوا من انبل المسلمين مقصدا واسماهم هدفاً وممن شروا انفسهم في سبيل مرضاة الله.

(٢)

وهل وجد عبدالله بن سبأ؟

على ان هنالك ما يدعونا الى الشك في وجود عبدالله بن سبأ، وما نراه الا اسطورة ادخلت على التاريخ تغطية للحقائق. فقد حاول المدافعون عن عثمان وسيرته ان ينسبوا الثورة التي قامت ضده الى يهودي دخيل على الاسلام. وقالوا انه هو الذي نظم بمؤامرات سرية محكمة، خلايا للثورة في البصرة والكوفة ومصر ضد الخليفة. وقالوا ان هذا اليهودي المزعوم قال برجعة الرسول محتجاً برجعة عيسى وان محمداً اولى من عيسى بالرجعة وبأن القرآن ينطق قائلاً: «ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد...» وذكروا ان هذا اليهودي هو الذي نشر مبدأ القول بان علياً وصي الرسول وخليفته. وقالوا ان هو الذي لقن ابا ذر. وهو في الشام. القول بتحريم اكتناز الذهب والفضة وان اموال الزكاة والخراج هي اموال المسلمين ولا ينبغي ان يقال انها مال الله. وقالوا ان عماراً بن ياسر ذهب الى مصر واجتمع مع ابن سبأ وحرضه هذا على عثمان.

ونحن نرى ان هذه المزاعم تتناقض مع متواتر التاريخ وما يعد من اثبت حقائقه.

فمن متواتر التاريخ ان عثمان (رض) لم يعمل طبقاً لسيرة الشيخين في حين ان عبد الرحمن بن عوف كان قد اشترط عليه حين بايعه ان يسير بسيرتهما، وقبل عثمان الشرط.

ومن متواتر التاريخ ان الرسول نفى الحكم بن ابي العاص وعائلته وقال: لا يساكنني في المدينة ابداً. وعثمان جلب الحكَم طريد الرسول وابناءه، واغدق عليهم من اموال المسلمين واعطاهم مئات الألوف من الدراهم. وكان مروان بن الحكم اقرب المقربين اليه. بل كان الخليفة الحقيقي.

ومن متواتر التاريخ ان عبدالله بن ابي سرح ارتد واهدر رسول الله دمه. وان الوليد بن عقبة بن ابي معيط كان من الفساق الشاربين للخمر وقد نزل القرآن بفسقه. ومن متواتر التاريخ ان عثمان ولى ابن ابي سرح على مصر واعطاه خمس غنائم افريقيا. وولى ابن ابي معيط على الكوفة ولم يعزله حتى شهد المسلمون عليه بشرب الخمر.

ومن ثابت التاريخ ان عثمان نفى ابا ذر وانه ضرب عماراً بن ياسر حتى اغمي عليه. وانه امر بقذف عبدالله بن مسعود من المسجد حتى كسرت اضلاعه لأن هؤلاء كانوا من منتقدي سياسته. وكل هؤلاء كانوا من خيرة اصحاب الرسول.

وقد نفى عدداً من خيرة التابعين المقيمين في الكوفة الى سوريا لأنهم انتقدوا سياسته المالية وولاته من بني امية. وليس في دين الاسلام اي عقاب لمنتقدي سياسة الحاكم ومطالبيه بالاصلاح. وما من شك بان عامة المسلمين كانوا يستفظعون عقاب هؤلاء بالنفي. فالنفي من الارض انما هو جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويفسدون في الارض. وما كان هؤلاء المنفيون من الذين يحاربون الله ورسوله، ولا من المفسدين في الارض بل كانوا من منتقدي الخليفة لانه كان يعطي الواحد من اقاربه عشرات ومئات الالوف من اموال الدولة ويقطعهم الاقطاعات الضخمة من املاك المسلمين العامة.

وكان من الطبيعي ان ينكر الصحابة وبقية المسلمين هذه الاعمال وهم الذين

شاهدوا سيرة الرسول وسيرة الشيخين. وكان من الطبيعي ان تتفاقم النقمة وان يطلب الناس من الخليفة ان يغير سيرته ويعزل ولاته، وان يصل الامر بهم الى ما وصل بعد ان رفض التغيير. وما كان الاصحاب والتابعون من المسلمين بحاجة الى يهودي مزعوم ليدعو الى الثورة. فوجوده بالنسبة الى اسباب الثورة عديم التأثير واشبه بوجود القائمة الخامسة للكرسي. فالقول بان عثمان سار سيرة رضيها الصحابة والمسلمون وان عبدالله بن سبأ هو الذي أثار الناس عليه انما هو دعوة الى انكار متواتر التاريخ ودعوة الى الغاء عقولنا.

ولن تصح نسبة الثورة الى عبدالله بن سبأ الا اذا قلنا بانه هو الذي اشار على الخليفة بجلب طريدي الرسول الى المدينة واشار عليه بتولية ابن ابي سرح والوليد بن عقبة وانه هو الذي اشار عليه باعطاء اقاربه اموال المسلمين وانه هو الذي اشار على عثمان باستيزار مروان بن الحكم وبنفي من نفى من الاصحاب كأبي ذر والتابعين كمالك الاشتر وسواه وضرب من ضرب من بارزي الاصحاب وباقطاع المقربين الى الخليفة الاقطاعات الضخمة. ان هذه هي اسباب الثورة. فما لم يكن ابن سبأ هو الذي اشار على عثمان بارتكاب هذه الاعمال والاصرار عليها ورفض اصلاحها لا يمكن ان يكون هو سبباً للثورة. وبالطبع لا يرضى اصحاب الرواية التي خلقت اسطورة ابن سبأ ان يفترضوا وجود صلة بين عثمان وابن سبأ.

وقد نسي اصحاب هذه الرواية ان التحريض على عثمان لم يبدأ في البصرة والكوفة ومصر، بل بدأ في المدينة. وكان في مقدمة المحرضين عليه عائشة وطلحة والزبير. فهل كان ابن سبأ هو الذي دعا هؤلاء الى التحريض على عثمان؟

وتقول الرواية هذه ان ابن سبأ اجتمع بأبي ذر في الشام وحرضه على عثمان ومعاوية. ولكن ابا ذر بدأ حملته الانتقادية على عثمان وهو في المدينة قبل ان يذهب الى الشام وكان نفيه الى الشام من اجل حملته على الخليفة. وتقول الرواية ان ابن سبأ لقن ابا ذر القول بأن اموال الخراج واموال الزكاة هي اموال المسلمين لا مال الله. ولكن التاريخ يحدثنا ان ابا ذر لما اعيد من الشام الى المدينة كان يقول بأن هذه الاموال مال الله. فقد روي انه حينما عاد الى المدينة واجه الخليفة

وروى بحضور الاصحاب انه سمع الرسول انه قال: «اذا بلغ بنو ابي العاص ثلاثين رجلاً جعلوا مال الله دولاً وعباد الله خولا ودين الله دخلاً.»[٥]

على ان القول بان ابا ذر تلقن من دخيل منافق شيئاً من امور دينه هو قول بمنتهى السماجة وعليه كل علامات الوضع والاختلاق. فابو ذر هو صاحب الرسول وهو رابع المسلمين. وقد صحب الرسول فاطال صحبته وحفظ القرآن فاجاد الحفظ وسمع من الرسول ففقه ما سمع واجاد الرواية. وكان في منتهى الصدق واحبه الرسول شديد الحب.

وقد روى الترمذي ان الرسول قال: «ما اظلت الخضراء ولا اقلت الغبراء اصدق من ابي ذر.» وانه قال: «ما اظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة اصدق ولا اوفى من ابي ذر. شبه عيسى بن مريم (او قال:) ابو ذر يمشي في الارض بزهد عيسى بن مريم.»[٦]

وروى ابن ماجه ان الرسول قال: «ان الله امرني بحب اربعة واخبرني انه يحبهم قيل: يا رسول الله من هم؟ فقال علي منهم (يكرر ذلك ثلاثاً) وابو ذر وسلمان والمقداد.»[٧]

وابو ذر بلغ في المحافظة على نقاء التعاليم الإسلامية الى درجة انه لم يسمح لكعب الاحبار ان يفتي في دين الله بالرغم من ان عمر بن الخطاب وعثمان كانا يحترمان كعباً شديد الاحترام ويسألانه ويصغيان الى ما يقول. فقد روي ان ابا ذر قال لعثمان بعدرجوعه من الشام الى المدينة: لا ينبغي لمن ادى الزكاة ان يكتفي بذلك حتى يعطي السائل ويطعم الجائع وينفق في سبيل الله. وكان كعب حاضر هذا الحديث، فقال: «من ادى الفريضة فحسبه.» فغضب ابو ذر وقال لكعب: «يا ابن اليهودية ما انت وهذا؟ اتعلمنا ديننا؟ ثم وجأه بمحجنه.[٨]

---

(٥) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج ١ ص ٢٤١

(٦) سنن الترمذي ج ٥ ص ٣٣٤ رقم الحديثين ٣٨٨٩ - ٣٨٩٠

(٧) سنن ابن ماجة ج ١ ص ٥٣ رقم الحديث ١٢٩

(٨) الفتنة الكبرى لطه حسين ج ١ ص ١٣٣

واذا كان ابو ذر لا يسمح لكعب ان يفتي في الدين، بالرغم من انه اسلم في زمن عمر ونال تقديراً وحظوة وقد عرف بسعة اطلاعه في الدين.. فكيف يأخذ بقول يهودي اسلم في زمن عثمان ولم ير اصحاب الرسول ولا عرف تعاليم الاسلام؟

واذا كان ابو ذر وعمار يوافقان ابن سبأ فينبغي ان يكون ابن سبأ على حق. فقد شهد الرسول لهذين الصاحبين بالصدق وقد مر ماروته عائشة عن رسول الله انه قال: ما خُير عمار بين امرين الا اختار ارشدهما. وما روي من انه قال: اهتدوا بهدي عمار وانه قال:«ابشر يا عمار، تقتلك الفئة الباغية.» وإنه قال: «ان الجنة تشتاق الى ثلاثة: علي وعمار وسلمان.»[9] ومن يشهد له رسول الله بكل هذا ينبغي ان يكون على حق. وإذا وافق هذان الصاحبان في امر من امور الدين احداً كان من وافقاه على حق. وإذا كان من وافقاه حديث الإسلام يكون هو الآخذ عنهما.

فإذا كان ابن سبأ قد وجد وإذا كان لقي ابا ذر أو عمار فإن من المنطق ان يكون هو الذي تعلم منهما وأخذ عنهما. وإذا كان ابن سبأ قال بان عليا وصي الرسول وكان ذلك رأي أي من هذين الرجلين فإن مقاله يكون مستفاداً مما كان هذان الرجلان يعتقدان به ويعرفانه فإن ابن سبأ لم يسمع من الرسول. بل ابو ذر وعمار اللذان سمعا الرسول يقول في علي يوم غدير.«من كنت مولاه فهذا علي مولاه...» وهما اللذان سمعاه يقول: اني تارك فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي اهل بيتي. فانظروا كيف تخلفوني فيهما...» وما من شك بان الصاحبين فهما من ذلك ان الرسول مستخلف عليا.

من قال بالرجعه؟

اما القول بالرجعة فلم ينقل عن ابي ذر ولا عمار، ولكن كتب التاريخ والحديث نقلت بتواتر ان عمر (رض) هو الذي قال برجعة النبي يوم مات النبي،

---

(٩) ذكر الأحاديث الثلاثة الترمذي في سننه ج ٥ - ص ٣٣٢ - ٣٣

إذ وقف عمر يوم ذلك، قائلا: «ان رجالاً من المنافقين يزعمون ان رسول الله قد توفي. وان رسول الله ما مات، ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران الى ربه. ووالله ليرجعن كما رجع موسى...» ولم يرجع عمر عن رأيه حتى خطب ابو بكر واعلن موت النبي وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ الاَّ رَسُوْلٌ قَدْ خَلَت من قبلِهِ الرُسُلْ. أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أعقابكم...﴾

وما اخذ عمر (رض) هذا الرأي عن ابن سبأ ولا عن سواه. ولم يكن ابن سبأ قد وجد بعد حتى في مُخَيِّلَة سيف بن عمر التميمي.

انني لا اعتقد ان ابن سبأ قد وجد بل اجزم بأنَّه اسطورة لفقت لتشويه سمعة اتباع اهل بيت الرسول. ولقد قال الناقد البصير الدكتور طه حسين: «وصاحبهم ابن السوداء انما كان متكلفاً منحولاً قد اخترع بآخرة حين كان الجدال بين الشيعة وغيرهم من الفرق الاسلامية. اراد خصوم الشيعة ان يدخلوا في اصول هذا المذهب عنصراً يهودياً امعانا في الكيد لهم والنيل منهم..» وقال: «ان ابن السوداء لم يكن إلا وهماً. وان وجد بالفعل فلم يكن ذا خطر كالذي صوره المؤرخون وصوروا نشاطه ايام عثمان وفي العام الأول من خلافة علي. وانما هو شخص ادخره خصوم الشيعة للشيعة وحدهم...»[١٠]

- ٣ -

مصدر الاسطورة السبئية

واود ان اقول ان المصدر الوحيد لقصة عبد الله بن سبأ أو ابن السودا، هو سيف بن عمر التميمي الذي عاش في القرن الثاني الهجري. وعن سيف هذا اخذ الطبري وابن عساكر وابن ابي بكر. وعن الطبري اخذ، مباشرة أو بواسطة، بقية المؤرخين كابن الاثير وابن كثير وابن خلدون وابي الفداء.

وسيف هذا كان من الوضاعين للروايات وقد نقل الناقد السيد مرتضى

---

(١٠) الفتنة الكبرى ج ٢ ص ٩٨ - ٩٩

العسكري في كتابه « عبد الله بن سبأ » اراء عدد من علماء الحديث في شأن سيف فذكر ما يلي:

« قال ابن معين (المتوفي ٢٣٣ هـ) فيه (سيف بن عمر): ضعيف الحديث.

وقال ابو حاتم (المتوفي ٢٧٧ هـ) ضعيف.

وقال النسائي (المتوفي ٣٠٣ هـ) ضعيف

وقال ابو داود (المتوفي ٣١٦ هـ) ليس بشيء

وقال ابن عدي (المتوفي ٣٦٥ هـ) بعض احاديثه مشهورة. وعامتها منكرة لم يتابع عليها.

وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الاثبات. وقد أتهم بالزندقة.

وقال: قالوا: كان يضع الحديث.

وقال الداقطني (المتوفي ٣٨٥ هـ) ضعيف. متروك.

وقال الحاكم (المتوفي ٤٠٥ هـ) متروك، اتهم بالزندقة.

وقال ابن عبد البر (المتوفي ٤٦٣ هـ) (في ترجمة القعقاع): سيف متروك.

وقال الفيرو زبادي (المتوفي ٨١٧ هـ) صاحب تواليف. ثم جمعه في الذكر مع آخرين وقال عنهم: ضعفاء.

وقال ابن حجر (المتوفي ٨٥٠ هـ) ضعيف.

وقال السيوطي (المتوفي ٩١١ هـ) بعد ايراد حديث عنه: فيه ضعفاء اشدهم سيف. »[١١]

لقد روى سيف هذا عديدا من الاحاديث التي تخالف معلوم التاريخ ومتواتره. وروى احاديث لا تعقل.

فمن متواتر التاريخ ان علي بن ابي طالب تخلف عن بيعة ابي بكر ولم يبايعه الا بعد أن توفيت زوجته الزهراء. وقد روى ذلك العديد من المؤرخين وكبار

---

(١١) الطبعة الثانية) ص ٢٦ . والكتاب المذكور هو افضل ما كتب في هذا الموضوع حتى الآن. بل ينبغي ان يعتبر بحثه من الاكتشافات العلمية في دراسة التاريخ الاسلامي.

المحدثين. فقد روى البخاري [١٢] ومسلم [١٣] بسندهما عن عائشة ما يلي:

« ..... ان فاطمة بنت رسول الله (ص) ارسلت الى ابي بكر تسأله ميراثها من رسول الله مما افاء الله عليه بالمدينة وفدك وما بقي من خمس خيبر....

فقال ابو بكر: ان رسول الله قال: لا نورث ما تركناه صدقة....، فابى ابو بكر ان يدفع الى فاطمة شيئا فوجدت فاطمة على ابي بكر في ذلك فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت وعاشت بعد رسول الله ستة اشهر. فلما توفيت دفنها زوجها علي بن ابي طالب ليلا ولم يؤذن بها ابا بكر. وصلى عليها علي. وكان لعلي من الناس وجه حياة فاطمة. فلما توفيت استنكر علي وجوه الناس، فالتمس مصالحة ابي بكر ومبايعته. ولم يكن بايع تلك الاشهر....»

إن ابطاء علي في بيعته لابي بكر هو ما يرويه اجلاء المحدثين وما يعرفه دارسو التاريخ. أما ما يرويه الطبري عن سيف بن عمر في بيعة علي لابي بكر فهو ما يلي:

«كان علي في بيته اذ اتى فقيل له: جلس ابو بكر للبيعة فخرج في قميص ما عليه إزار ولا رداء عجلا كراهية ان يبطىء عنها حتى بايعه، ثم جلس اليه وبعث الى ثوبه فتجلله ولزم مجلسه» [١٤] ومن احاديثه التي لا تعقل ما يلي:

روى الطبري عن سيف ان ابا بكر بعث العلاء بن الحضرمي على قتال اهل الردة في البحرين وانه وجيشه سلكوا الدهناء وان ابلهم نفرت منهم في الصحراء في جوف الليل وانهم عطشوا ثم بدا لهم ماء فشربوا واغتسلوا ثم جاءتهم ابلهم. وان ابا هريرة ملأ اداوته وتركها عند الماء فلما بعدوا عنه عادوا الى مكان الماء فلم يجدوا له اثرا ولكن ابا هريرة وجد أداوته. وذكر بعد ذلك ان العلاء وجيشه اجتازوا البحر بابلهم فلم يغمر اخفافها الماء وان بين الساحل ودارين التي كانت

---

(١٢) صحيح البخاري ج ٥ باب غزوة خيبر ص ١٧٧

(١٣) صحيح مسلم ج ١٢ باب اللقطة ص ٧٧

(١٤) حوادث سنة ١١ هـ ج ٣ ص ٢٠١

هدفهم مسيرة يوم وليلة لسفن البحر. وانهم تمكنوا بعد اجتياز البحر من الانتصار على اهل دارين.

ولكن البلاذري يروي غزو البحرين عن طريق غير سيف فيذكر أن العلاء غزا زاره ودارين في خلافة عمر (لا في خلافة ابي بكر). وان اهل زاره صالحوه على ان له ثلث المدينة وثلث ما فيها من ذهب وفضة وعلى ان يأخذ النصف مما كان لهم خارجها. وان الاخنس بن العامري قال للعلاء: انهم لم يصالحوك على ذراريهم وهم بدارين ودله كراز النكري على المخاضة اليهم فتقحم العلاء في جماعة من المسلمين البحر على اهل دارين.[١٥]

وروى الطبري عن سيف انه حينما نزل سعد بن ابي وقاص بجيشه عذيب الهجانات بعث عاصم بن عمرو الى اسفل الفرات فاتى ميسان فطلب غنما أو بقرا فلم يقدر عليها وتحصن منه الافدان ووغلوا في الآجام. فمضى عاصم حتى وجد رجلاً قرب اجمة فسأله عن البقر والغنم فحلف له انه لا يعلم مكانها. واذاهو راعي ما في تلك الاجمة. فصاح فيها ثور: «كذب والله. وها نحن اولاء.» فدخل فاستاق الثيران وأتى بها العسكر....»[١٦]

وترى ان سيف ينقل في القصتين ما لا يصدق وقوعه: ماء يظهر ويروى منه جيش ثم يختفي بعد الذهاب عنه بقليل: وجيش يخوض البحر يوما وليلة فلا يغمر الماء اخفاف ابله وثور يتكلم باللغة العربية الفصحى!.

هذا قليل من كثير من موضوعات سيف واكاذيبه. ومن العجيب ان الطبري وهو ابرز مؤرخي المسلمين. قد اعتمد على روايات سيف هذا بالرغم من ان احاديثه نفسها تشهد بكذبه. وما كان ابن سبا الا اكذوبة من اكاذيبه. لقد حاول سيف ان يطمس الحقائق زاعماً ان الثورة على عثمان لم يكن سببها تجاوز الخليفة سيرة الرسول والشيخين واسرافه في الانفاق على بني عمه وحاشيته وتوليته الفساق

---

(١٥) فتوح البلدان للبلاذري ص ٩٢ - ٩٣ (نقله السيد العسكري في كتابه عبد الله بن سبا، ص ١١٧).

(١٦) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٢

من اقربائه امور المسلمين بل كان سببها دسائس عبد الله بن سبأ الذي لم يذكر وجوده اي مؤرخ قبل سيف بن عمر. واراد سيف ان يبرىء ام المؤمنين وطلحة والزبير من مسؤولية معركة البصرة فاختلف قصةٍ مؤامرة ابن سبا وانصاره لاشعال المعركة.

عائشة لم تذكر ابن سبا

لقد كان على الطبري ومن تبعه من المؤرخين في تسجيل اسطورة سيف بن عمر ان يسألوا انفسهم السؤالين التاليين:

(١) اذا كان وجد بن سبأ وكان له هذا النشاط الثوري الهدام للاسلام فلماذا لم يجر ذكره على لسان ام المؤمنين يوم ذهبت الى البصره تحرض الناس على علي وعلى قتلة عثمان؟ ولماذا لم تذكر ان الذين حرضوا على عثمان والذين قتلوه كانوا اتباع يهودي دخيل على الاسلام، وان هؤلاء المتآمرين هم من اتباع علي والدعاة الى بيعته؟ انها لم تذكر ذلك بالرغم من انها جاءت الى البصرة لتثير اهلها وبقية سكان العراق على علي واتباعه. وقد استعملت كل ما اوتيته من بلاغة في تحريض الناس عليه. ولو كان لقصة عبد الله بن سبأ نصيب من الوجود لجعلتها عنوان خطبها المثيرة ولو ذكرت ذلك لأصابت من علي واصحابه مقتلا.

وقد يقول قائل بان ام المؤمنين لم تكن على علم بدسائس ابن سبأ لأنه كان يعمل في السر. ولكن الرواية التي تتحدث عنه تقول بأنه جاء الى البصرة والف خلية أو خلايا فيها وان عبد الله بن عامر الاموي عرف بنشاطه واخرجه من البصرة. وكان عبد الله بن عامر مع عائشة لدى خروجها من مكة وكان معها وهي في البصرة. فهلا زودها واتباعه بمعلوماته عن ابن سبأ. لو كان لابن سبأ حظ من الوجود؟ لقد كان عشرات من الامويين مع ام المؤمنين وكان هؤلاء اعرف الناس باوضاع الامصار الاسلامية وما يجري فيها. فقد كانوا حكام الامصار في عهد عثمان، وما كانوا من المغفلين.

لم تذكر ام المؤمنين شيئا من هذا الامر قبل معركة البصرة ولا يوم المعركة. ولم تذكر شيئا من ذلك بعد المعركة وقد عاشت عديدا من السنين بعد المعركة. ولم يذكر ذلك احد من الامويين الذين صحبوها. امثال عبد الله بن عامر ومروان بن

الحكم وهم من الد اعداء الامام. ولو كان لاسطورة ابن سبأ نصيب من الصحة لدوت اصوات هؤلاء في انحاء العالم الاسلامي.

ومعاوية لم يذكر ابن سبا

(٢) وهب ان ام المؤمنين لم تذكر ذلك لأنها كانت تجهل دسائس بن سبأ فلماذا لم يذكر ذلك معاوية؟ ان الرواية التي تتحدث عن ابن سبأ تذكر أنه ذهب الى الشام وحرض ابا ذر على معاوية وعثمان. وان ابن سبأ تحدث بآرائه الهدامة الى رجلين آخرين من اصحاب الرسول هما ابو الدرداء وعبادة بن الصامت وان عبادة هذا استنكر حديثه واخذه الى معاوية واخبره بان ابن سبأ هو الذي حرض ابا ذر عليه. وان معاوية اخرج ابن سبأ من الشام فمضى الى مصر وان عبد الله ابن ابي سرح والي مصر من قبل عثمان عرف بنشاط ابن سبأ.

لقد كان معاوية يبذل الاموال الطائلة لكل من يذم الامـام أو يختلق منقصة للامام واتباعه وهو الذي أمر بسب الامام على منابر المسلمين في صلوات الجمعات بعد قتل الامام ولو كان لاسطورة ابن سبأ نصيب من الوجود لوجد فيها ثمرة الغراب. ولكان احتضنها بكلتا يديه ولم يهمل ذكرها يوما واحداً.

ولكن التاريخ لا يذكر ان معاوية أو أي واحد من ولاته فاه بكلمة واحدة في امر ابن سبأ. وقد حفظ التاريخ العديد من كتب معاوية التي كان يوجه فيها الى علي امام الهدى ما يستطيع توجيهه من التهم الباطلة. وكان الموضوع الرئيسي في كتاباته للامام انه آوى قتلة عثمان والمجلبين على عثمان. ومع ذلك لم يذكر في اي من تلك الكتب ان قتلة عثمان كانوا على علاقة بأي دخيل على الاسلام. ولو كان للاسطورة السبئية أي واقع في الوجود لسال بها قلم معاوية ولجرت على لسانه وألسنة اتباعه طيلة ايام حكمه وحكم بني امية.

والواقع انه لم يكن ابن سبأ خطرا على وحدة المسلمين أو سبباً في تفريق كلمتهم لأن ابن سبأ لم يوجد. بلى كان من اكبر اسباب تفريق كلمة المسلمين ونشر العداء بينهم سيف بن عمر ذلك الرجل اختلق وجود عبد الله بن سبأ واسطورة نشاطه. اكذوبة صاغها سيف بن عمر وتقبلها الطبري فشاعت وذاعت بين المسلمين واحدثت من البغضاء والفرقة ما جعل المسلمين منذ زمن سيف الى يومنا هذا

فريقين متباعدين.

كلا لم تكن الثورة ضد عثمان ولا معركة البصرة نتيجة مؤامرة سبئية. بلى كانت الثورة ضد عثمان نتيجة تحريض ام المؤمنين وطلحة والزبير على الخليفة ونتيجة لتجاوز الخليفة سيرة الرسول وسيرتي الشيخين وتجاوز بني امية قوانين العدالة الاسلامية.

وكانت معركة البصرة نتيجة تصميم القادة الثلاثة أم المؤمنين وطلحة والزبير على اغتصاب السلطة من امام الهداة علي بن ابي طالب.

مَعركة صِفين

الفصل الخامس والعشرون

- ١ -

قدم الامام الى الكوفة بعد انتهاء معركة البصره. واتخذها عاصمة لخلافته. فأهل الكوفة هم الذين نصروه على اعدائه في البصره واصطلوا نار حربها. وما كان هنالك مصر آخر يعتمد عليه. فالاكثرون من أهل البصره كانوا إلباً عليه، وما كانوا ليخلصوا له بعد ان أكلت الحرب منهم ما أكلت. وما كان اهل الحجاز بالذين يعتمد عليهم فهم قلة من الناس بالنسبة الى بقية الاقطار الاسلاميه. وأهل الشام اتباع لعدوه معاوية. وما كان المقيمون بمصر من المسلمين من القوة بمركز يمكنهم من تجهيز ما يحتاج اليه من جند لخضد شوكة الانفصاليين الامويين.

لبث الامام نحوا من أربعة أشهر في عاصمته الجديده ليعد العده للقاء معاوية اخطر خصومه على وحدة الامه واقدرهم على تحدي سلطة الامام وأقلهم تحرجا في الدين. وكان معاوية قد اعلن رفضه لبيعة الامام وتحديه لسلطانه. وبذلك اقتطع سوريا من جسم الدولة الاسلاميه واعلن انفصالها عنها. ولم يكتف بذلك. بل اعلن عداءه للحكومة المركزية وانه في حرب معها متسترا بالمطالبة بدم عثمان. وقد بدأت حركته الأنفصالية قبل بدء أزمة البصره.

ارسل الامام، بعد ان بويع، كتابا الى معاوية حمله اليه سبرة الجهني ينبئه فيه عن بيعة الاصحاب له ويأمره بأن ينضم هو ومن لديه من الناس الى مبايعيه. فأرسل معاوية، بعد ابطاء، قبيصة العبسي ودفع اليه طومارا مختوما عنوانه من معاوية الى علي. وامره ان يدخل المدينة قابضا على اسفل الطومار وأوصاه بما يقول. فلما دخل قبيصة المدينة عرف الناس ان معاوية معترض. وحينما دفع قبيصة الطومار الى الامام فضه فلم يجد فيه شيئا. وسأله: ما وراءك؟ فقال قبيصة، بعد ان استأمن فأُمِّن: ورائي اني تركت قوما لا يرضون الا بالقود. قال الامام: ممن؟ فقال: من خيط رقبتك. وتركت ستين الف شيخ يبكون تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد البسوه منبر دمشق. فقال الامام: «أمنّي يطلبون دم عثمان؟ الست موتورا كترة عثمان؟ اللهم، اني ابرأ اليك من دم عثمان. نجا، والله، قتلة عثمان الا ان يشاء الله، فانه اذا اراد امرا اصابه.»

وكان جواب الامام على هذا التحدي السافر ان بدأ بحشد ما يمكن حشده من

جند لاخضاع هذا المتمرد الخطر. دفع اللواء لولده محمد بن الحنفية، وولى عبد الله بن عباس ميمنته وعمر بن ابي سلمة ميسرته وابا ليلى الجراح مقدمته. واستخلف قثم بن العباس على المدينه. وكتب الى قيس بن سعد واليه على مصر وعثمان بن حنيف واليه على البصره وابي موسى الاشعري واليه على الكوفه لينتدبوا الناس للنهوض الى اهل الشام. ودعا اهل المدينة الى مثل ذلك. وقد قال في خطابه لأهل المدينه: «ان في سلطان الله عصمة امركم. فاعطوه طاعتكم غير ملويه ولا مستكره بها. والله لتفعلن او لينقلن الله عنكم سلطان الاسلام، ثم لا ينقله اليكم ابدا حتى يأرز الامر اليها. انهضوا الى هؤلاء القوم الذين يريدون تفريق جماعتكم، لعل الله يصلح بكم ما افسده اهل الآفاق، وتقضون الذي عليكم.»

مضى الامام يعد العدة محاولا حشد امكاناته لمواجهة هذه الفئة الباغيه. ولكن انباء خروج ام المؤمنين عائشة وطلحة والزبير الى البصره وصلت الى الامام فاضطر الى ارجاء الزحف الى سوريا الى ما بعد انتهاء الازمة الطارئه.

لم يرجيء الامام زحفه الى سوريا لأن القادة الثلاثة كانوا أعظم خطرا على الخلافه من معاويه، بل لأن خروج القادة الثلاثة الى العراق اضاف الى خطر معاويه خطرا جديدا لو لم يعالج بسرعة لحرم الامام به من الامدادات العسكريه والماليه التي كان يحتاج اليها في محاولة اخضاع خصمه الاموي، الذي كان يمثل الخطر الرئيسي على وحدة الامه.

وما كان القادة الثلاثة بكل ما تجمع ما لديهم من قوة ليشكلوا خطرا على وحدة الامة لو كانوا وحدهم المناوئين لسلطة الامام. فقد كان من اليسير على الامام ان يخضد شوكتهم. فثورتهم كانت مرتجله، وما كان لديهم ما لدى معاوية من دهاء وجيش كثيف وقاعدة شعبيه. وقد اختلف الناس عليهم في البصره وقاتلهم فريق منهم حالما دخلوها، وقبل ان ينهض الامام الى لقائهم. اما معاوية فقد كان خطرا بنفسه ولو لم يقف القادة مثل موقفه. اذ كان واسع الحيله وحركته لم تكن مرتجله، بل اعد لها طيلة عقدين من السنين. وكان في شعب لا يخالف له رأيا وجيش كثيف منظم لا يعصي له امرا. فكان باستطاعته ان يتحدى سلطة الامام ولو لم يكن له نصير خارج سوريا. ولذلك كان اكبرهَمّ الامام بعد فراغه من معركة

البصره ان يعد العده للقاء هذا العدو الخطر على وحدة الامة ومستقبلها.

الامام يقيم الحجة على معاويه

ولكي يقيم الامام الحجة على معاوية ارسل اليه كتابا مع جرير بن عبد الله البجلي يدعوه فيه الى السلم والانضمام باتباعه الى جمهور المسلمين الذين دخلوا في بيعته. ويذكر له فيه ان الذين بايعوه هم الذين بايعوا ابا بكر وعمر وعثمان وان الشورى هي للمهاجرين والانصار. اذا بايعوا رجلا الزمت بيعتهم سائر المسلمين. فان خرج من امرهم خارج بطعن او بدعة ردوه الى ما خرج منه. فان أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين.

وقد قال الامام لمعاوية في كتابه هذا:

«ان طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيعتي وكان نقضهما كردتهما. فجاهدتهما بعدما اعذرت اليهما حتى جاء الحق وظهر امر الله وهم كارهون. فادخل فيما دخل فيه المسلمون. فان احب الامور الي فيك العافيه الا أن تتعرض للبلاء. فان تعرضت له قاتلتك واستعنت الله عليك...»

واذا كانت الحجة التي يستعملها معاوية في خداعه للناس من اجل الوصول الى الخلافة هي الطلب بدم عثمان وان الامام لم يقم الحد على قتلة عثمان بالرغم من انهم تحت سلطانه فان الامام ضمن في كتابه هذا ما يبطل حجته: «وقد اكثرت الكلام في قتلة عثمان. فادخل في الطاعة ثم حاكم القوم الي. احملك واياهم على كتاب الله. واما تلك التي تريد فخدعة الصبي اللبن في اول الفصال.

لعمري يا معاوية، لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني ابرأ الناس من دم عثمان. ولتعلمن اني كنت في عزلة عنه الا ان تتجنى. فتجن ما بدا لك. واعلم انك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ولا تعقد معهم الامامة ولا تعرض فيهم الشورى. وقد بعثت اليك جريراً بن عبد الله. وهو من اهل الايمان والهجرة والسابقة فبايع ولا قوة الا بالله...»[1]

---

(١) نهج البلاغة ج ص

حمل جرير الكتاب الى معاوية وشفع الكتاب بما كان لديه من قوة اقناع. ولكن معاوية أبى ان يجيبه بسلب أو إيجاب، مماطلاً في الجواب اكتسابا للوقت واستعدادا للمستقبل. واخيرا جاء رده السلبي المتوقع.

وما كان يتوقع لاي وساطة أو وسيلة اقناع ان تنجح في حمل معاوية على الحق. فهو يرى نفسه في مركز قوي يشجعه على ان يتحدى الامام. وما كان ليفعل سوى ذلك. ان لديه ما يزيد على مئة الف مقاتل. وهو بعد لا يزال موفور المال والرجال، لم يخض معركة ولم يصب بخسارة في مال أو رجال. في حين ان الامام قد اضطر الى خوض معركة دامية اضطر فيها انصاره ان يدفعوا الغزير من دمائهم والكثير من اموالهم. لقد كان اعداء الامام في ازدياد وانصار معاوية في ازدياد مستمر، وتحت تصرفه المطلق اموال خزانة سوريا يتصرف فيها كيف يشاء، يشتري بها ضمائر طلاب المنافع وما اكثرهم!!

عمرو بن العاص ينضم الى معاويه

وقد كان عمرو بن العاص، الداهية المعروف، ابرز البائعين لضمائرهم في هذه الحقبة. لقد كان انضمام عمرو الى معاوية معلما بارزاً في تاريخ الوصولية والانتهازية. فالتاريخ يعرف (ومعاوية المطالب بدم عثمان كان يعرف) ان عمراً بن العاص كان من كبار المحرضين على قتل عثمان. ولكن ذلك لم يمنع معاوية من ان يتعاقد مع الداهية عمرو على حرب الامام بحجة الطلب بدم عثمان. وكان ثمن تعاون عمرو مع معاوية في سبيل الشر الذي يبتغيانه ان يكون سلطان مصر لعمرو مادام حيا ان انتصر معاوية.

مضى الامام بجيشه الى ارض سوريا، ولقيه معاوية بجيش يفوق جيش الامام عددا، فالتقى الجيشان في صفين. ولكن جيش معاوية نزل على الفرات قبل جيش الامام فاضطر جيش الامام ان ينزل بعيداً عن الماء.

- ٢ -

مثالي ومكيافيلي

وما كان معاوية بالذي يتورع في سبيل غايته عن اتخاذ اي وسيلة اليها مهما كانت الوسيلة مجرمة. لقد رأى انه سبق الى الماء فلماذا لا يحاول التغلب على علي وجيشه بسلاح قاتل رهيب هو العطش. فليمنع خصومه من الماء وعلى خصومه ان يموتوا عطشاً أو يستسلموا. ان الظمأ سيجعلهم فريسة سهلة لجيش معاوية الذي سيحتفظ بقدرته التامة على القتال لما لديه من ماء وطعام. وتراءى لمعاوية النصر بهذه الوسيلة وما كان فناء عشرات الالوف من المسلمين بهذه الطريقة الاجرامية البشعة ليهز ضمير معاوية الميت. وما كان ليهز ضميره ان بين المهددين بالفناء اخو الرسول علي والحسن والحسين سيدا شباب اهل الجنة وسبطا رسول الله وجمهور اصحاب الرسول من بدريين واحديين. ولماذا يهتز ضمير معاوية في التصميم على ارتكاب هذه الجريمة؟ أليس هدفه ان ينتصر على الحق وعلىٰ امام الهدى وانصاره؟ وما الفارق بين قتلة وقتلة مهما تنوعت الاشكال والاساليب؟ ليس هنالك فرق لدى معاوية بين الوصول الى الانتصار بالسيف أو بإبادة سبعين الفا بسلاح العطش.

بلى ان إبادة الجيش عطشاً احب اليه لأن النصر لا يُضمن له ان اشتبك مع الامامْ في معركة ذات ظروف عادية. كلا، بل النصر سيكون حليف الامام في معركة مصيرية. أما الابادة عطشا فهي تكاد تكون مضمونة النتيجة لمصلحته.

على ان عمراً ابن العاص حليفه نهاه عن استعمال هذا السلاح، بالرغم من انه لم يكن اتقى منه. فقد ادرك ان هذه الطريقة بالرغم من بشاعتها لن تعود على معاوية بالنصر بل بالخزي والفشل. فعلي الذي هو مضرب الامثال في شجاعته لن يعطش وفي يده اعنة الخيل. ولكن معاوية رفض بشدة ان يأخذ بنصيحة حليفه ومستشاره.

بعث الامام الى معاوية انه لم يأت للقتال من اجل الماء بل جاء من اجل احقاق حق وازهاق باطل. جاء من اجل جمع كلمة المسلمين واعادتهم الى حظيرة

الوحدة التي مزقتها اهواء الطامحين من قادة الفتن. ولكن معاوية لم يعبأ بكل ذلك ولم يترك للامام مندوحة عن القتال في سبيل الماء. وخاض جيش الامام في سبيل الماء اولى معاركه المقدسة ضد معاوية وجنده وكان النصر حليفه. فقد نجح في احتلال شاطىء الفرات واجلاء الجيش الاموي عن مستقره الى حيث اصبح بمنأى عن الماء. وبذلك تبدل الوضع واصبح بامكان الامام وجيشه ان يفعلوا بخصومهم ما أراد خصومهم ان يفعلوا بهم. لقد اصبح بامكان الامام ان يبيد خصومه بمثل سلاحهم. ولكن هل يقدم الامام على ذلك؟

هنا ينحني تاريخ الحروب امام عظمة علي بن ابي طالب. هنا يقف علي بين قادة الامم شامخاً كالطود حيث يعطي اجيال الانسانية درسها البليغ. ان دين الاسلام يقف ضد حروب الابادة بكل انواعها. واذا كان قادة الامم في القرن العشرين قد احلوا لأنفسهم ابادة السكان بالقنابل النووية. ولم يقرروا الى الآن تحريم استعمالها بالرغم من ان خطر الحروب النووية يهدد النوع الانساني كله بالفناء، فان الاسلام (قبل ثلاثة عشر قرنا) قد حرم ما هو أقل من ذلك بكثير. فمن تعاليم الاسلام تحريم قتل الاطفال والنساء والشيوخ والمكفوفين من الاعداء وهدم دور الاعداء وقطع اشجارهم. اما حرب الإبادة التي تفني القوي والضعيف والكبير والصغير فهي اعظم الجرائم في نظر الاسلام.

على ان الاقرار بالمبادىء الاسلامية شيء وتنفيذها شيء آخر. وان التاريخ يشهد ان قادة الامم والحاكمين يسرعون الى تنفيذها حينما تكون في خدمة مصالحهم. اما ذا كان تنفيذها يحول بينهم وبين ما يريدون فانهم لا ينحنون امامها بل يتأولونها لتنحني امام رغباتهم ومطامعهم.

ولست اتصور احدا بعد الرسول يقف موقف الامام علي من عدوه بعد ما اعطاه عدوه باستعماله سلاح العطش الرهيب، كل مبرر لإبادته وجيشه بمثل سلاحه.

صاح قادة جيش الامام وجنودهم: امنعهم الماء كما منعونا منه. ويجيبهم الامام: «ايها الناس.... ان الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم. ان الخطب اعظم من منع الماء.»

ويرسل الى معاوية:

«انا لا نكافيك بصنعك. هلم الى الماء. نحن وانتم فيه سواء.»

- ٣ -

مساعي السلم تفشل

وعاد الامام بعد ذلك الى مساعيه السلمية محاولاً تجنيب الفريقين من المسلمين سفك الدماء والعودة بهم الى الوحدة. ومشى سفراؤه الى معاوية. ولكن المساعي باءت بالفشل فمعاوية يأمل الوصول الى سلطان الاسلام ولن يثنيه عن غايته شيء.

وبدأت المعارك بين الفريقين ولكنها بقيت محدودة. كتيبة تخرج الى كتيبة في يوم. وفي يوم آخر تخرج كتيبة سواها الى كتيبة أخرى. وهكذا استمر الوضع الى ان دخل شهر المحرم. فتوقف القتال الى نهايته رعاية لحرمته. وعاد الامام الى مساعيه السلمية اثناء المحرم وما كانت نتيجة هذه المساعي لتختلف عن سابقاتها.

وحين انتهى المحرم عاد الفريقان الى خوض معارك متقطعة غير شاملة يريد الامام بذلك ان يجنب الفريقين ما يتوقع من خسائر مبيدة لو اشتبك الجيشان في معركة فاصلة.

وما كانت تلك المعارك لتمنع رجال الفريقين من ان يلقى بعضهم بعضا في غير قتال ويتحادثوا ويتحاجوا فمعظم القبائل في المعسكرين كان منها من يقيم في العراق ومنها من يقيم في الشام فلديهم أواصر قربى متبادلة. وكان معاوية يكاتب بعض قادة الجيش العراقي ويرسل اليهم رسله محاولا اغراءهم وباذلا لهم الوعود ان هم تركوا معسكر الامام وانضموا اليه. ولا شك ان اصحاب الامام المخلصين كانوا يتصلون بأقربائهم في الشام محاولين اجتذابهم الى الحق ولكن الامام ما كان يجيز لنفسه ان يحاول شراء خصومه باموال المسلمين أو ان يعد بالمناصب اصحاب المطامع.

وكان في جيش علي كثيرون من طلاب الدنيا. ويكفي ان يكون في معسكر

الامام رجل كالاشعث بن قيس الذي قال فيه ابو بكر: «لا يرى شرا الا اعان عليه.»[٢]

والتاريخ ينقل ان معاوية ارسل اخاه عتبة الى الاشعث يحاول استمالته اليه. وما كان الاشعث عصيا لمقترحات عتبة.

واخيراً مل الامام وجيشه المطاولة فأزمع على لقاء معاوية في معركة فاصلة. والتقى الجيشان في اعظم معركة خاضها المسلمون الى ذلك اليوم. اقتتل الجيشان عامة نهارهم وجزءاً كبيرا من ليلهم. وعاد الفريقان في اليوم الثاني الى متابعة قتالهم المبيد. فتضعضعت ميمنة جيش الامام ولاذ من فيها بالفرار وتضعضع بذلك قلب الجيش فاضطر الامام الى الانتقال الى ميسرة جيشه حيث معظم القوة من ربيعة. واستبسل هؤلاء في القتال اذ رأوا الامام بينهم وخشوا العار أن اصيب الامام وهو فيهم. فتحالفوا على الموت.

ومضى مالك الاشتر ليرد المنهزمين وسمعوا نداءه وعادوا اليه فالتأم الجيش كله مرة ثانية ودارت رحى الحرب طاحنة، بأقسى شدتها وهولها بقية اليوم وطيلة الليل.

— ٤ —

مصرع عمار بن ياسر

في هذا اليوم حينما لاذ رجال ميمنة الامام بالفرار وقف صاحب رسول الله وحبيبه عمار بن ياسر بين الصفين وقد بلغ الثالثة والتسعين من عمره ينطق بأعلى صوته: «والله لو ضربونا حتى يبلغونا سعفات هجر لعلمنا انا على الحق وانهم على الباطل.» وقال مشيرا الى راية معاوية: «والله لقد قاتلت صاحب هذه الراية مع رسول الله (ص) ثلاث مرات. وهذه الرابعة كاحداهن.»[٣]

---

(٢) شرح النهج لابن ابي الحديد

(٣) طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٢٥٨

لقد كان عمار على موعد مع شهادته على أيدي الفئة الباغية. فقد قال له رسول الله يوماً على مسمع من صحابته: «ويحك يابن سميه، تقتلك الفئة الباغية.»[٤] وكان الصحابة يعرفون ذلك حق المعرفة. وكان عمرو بن العاص ممن روى هذا الحديث وكان اهل الشام سمعوا ذلك منه. وقد احدثت هذه الرواية ارتباكا في معسكر معاوية قبل ايام المعركة الفاصلة ولام معاوية عمرا من اجل روايته هذا الحديث.اذ لو عرف اهل الشام ان عماراً مع الامام وانه من اشد المتحمسين لقتال معاوية لتأكدوا انهم في معسكر الفئة الباغية التي يقف عمار ضدها.

استسقى عمار قبل ان يخوض المعركة التي نال فيها الشهادة في معركة صفين الفاصلة فأتي بلبن ممزوج بالماء فكبر وقال: «هذا ما وعدني فيه حبيبي رسول الله اذ قال: «يا عمار تقتلك الفئة الباغية: وآخر شرابك من الدنيا ضيح من لبن.» ثم شربه واندفع وهو ينادي: من رائح الى الجنة.؟ الجنة تحت البارقة والظمآن يرد الماء والماء مورود.اليوم القى الاحبة محمداً وحزبه.»

ومضى عمار يدفع الى القتال هاشماً بن عتبة بن ابي وقاص حامل راية الكتيبة التي يقودها عمار (وهاشم هذا من خيرة فرسان قريش واحبهم للامام وكانت احدى عينيه اصيبت في احدى المعارك). فكان مرة يقول له ملاطفا: تقدم يا اعور ومرة أخرى يقول له: تقدم فداك ابي وامي. ويهدىء هاشم عمارا ويقول له: مهلاً يا ابا اليقظان انك رجل تستخفك الحرب. ولكن تهدئة هاشم والثلاثة والتسعين عاماً لم يخففا من سرعة ابي اليقظان. انه يريد ان يسرع الى الجنة. انه على موعد مع حبيبه الرسول الاعظم ويريد ان يلقاه فكان له ما اراد.

وكان خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين مع الامام في المعركة ولكنه لم يقاتل. فلما قتل عمار تحقق خزيمة ان الفئة الباغية هي معسكر معاوية فدخل فسطاطه وطرح عليه سلاحه وشن عليه من الماء فاغتسل ثم قاتل حتى قتل.

---

(٤) نفس المصدر وقد رواه من عشرة طرق ص ٢٥١ - ٢٥٤

- ٥ -

المؤامرة الكبرى

واستمرت الحرب بكل عنفها في اليوم الثالث وظهر الضعف في جيش معاوية وكاد اصحاب الامام يبلغون فسطاط معاوية. وهم معاوية ان يفر ولكنه تصبر وبقي.

وارتفع الضحى والحرب على اشدها وحينما بدا النصر في متناول الامام وجيشه وهم آخذون بخناق الفئة الباغية اذا بالمصاحف ترفع في معسكر معاوية ويرتفع النداء من اهل الشام: هذا كتاب الله بيننا وبينكم من فاتحته الى خاتمته. الله الله في العرب. الله الله في الاسلام. من لثغور الشام اذا هلك اهل الشام؟ من لثغور العراق اذا تفانى اهل العراق؟

لقد يئس معاوية من الحصول على نصر عسكري وواجه هزيمة محققة في ميدان القتال فلجأ الى القرآن.

ولم تكن الدعوة الى حكم القرآن من مخترعات معاوية وابن العاص. فقد دعا الامام اهل البصرة قبل بدء معركتها الى الاحتكام الى القرآن. وانتدب فتى من فتيان الكوفة لحمل مصحف يواجه به اهل البصرة ويدعوهم الى الاحتكام اليه، فرفضت الدعوة وقتل الفتى.

كان معاوية وابن العاص قد قررا ان يلجآ الى الدعوة الى حكم القرآن اذا رأيا ان الهزيمة العسكرية لا مفر منها لأهل الشام. وكان معاوية على ما يظهر قد اعد العدة وهيأ الجو لذلك باتصالاته السرية مع القادة من جيش الامام. وبصورة خاصة مع الاشعث بن قيس زعيم قبيلة كندة اليمانية كثيرة العدد في اهل الكوفة.

لقد كان معاوية على ما يشبه اليقين بأن رفع المصاحف سيؤدي الى شقاق في معسكر الامام سواء قبل الامام الدعوة أو رفضها. وقد حدث ما توقعه معاوية. لقد ارتفعت الاصوات في معسكر الامام يطلبون وقف القتال والقبول بحكم القرآن.

وكان الطالبون لوقف القتال ثلاث فئات تصدر كل منها عن رأي يخالف رأي

الآخرين. فئة متحرجة في دينها ترى ان رفض الدعوة الى كتاب الله والاستمرار في القتال اثم كبير لا يجوز للمسلمين ارتكابه. وقد نسي هؤلاء ان امامهم هو اعلم الناس بالقرآن والحلال والحرام وانه اشد المسلمين تمسكا بمباديء القرآن.

هذه الفئة كانت تضم عددا كبيرا من القراء الذين يفكرون، لقصور مداركهم، انهم احاطوا علماً بالشريعة وينصبون انفسهم حماة لها. وما اكثر هذا النوع من المتدينين في كل عصر.

وفئة منافقة همها وقف القتال يقودها متآمرون على إلحق والشريعة. يريدون الباطل ويسعون اليه ويتعاونون مع العدو لأنهم يرون ان لهم في تعاونهم معه مكسبا ماديا.

وفئة جاهلة تريد الحياة والسلامة بأي ثمن. لقد رأى أهل هذه الفئة ان سيرهم وراء الامام في حربي البصرة والكوفة قد كلفهم غاليا وانهم دفعوا من دماء ابنائهم واخوانهم واقاربهم شيئاً كثيرا. فهم يريدون الابقاء على انفسهم ولا يهمهم ما سوف يحدث للاسلام واهله.

ووقف الامام يبصرهم بالامر قائلاً لهم ان رفع المصاحف مكيدة مدبرة من معاوية واصحابه يحاولون بها ان ينتزعوا النصر من ايديكم وانه يعرف معاوية ومن معه كبارا وصغارا. فهم ليسوا اهل قرآن ولا دين. وكل ما يريدونه ان يجنبوا انفسهم كارثة الهزيمة.

وقد كان في معسكر الامام فريق من ذوي البصيرة (وهم اقل من الآخرين عددا) رأوا رأي الامام بل الحوا عليه بمواصلة القتال وتجاهل الاصوات الكثيرة المنادية بوقفه. وكان يقود هؤلاء مالك الاشتر. ولكن الاصوات المنادية بوقف القتال اغرقت اصوات الداعين الى متابعته.

كان الاشتر لا يزال مندفعا بمن معه نحو معاوية وهو يرى النصر قد اصبح في متناوله ولكن طلاب وقف القتال احاطوا بالامام وهددوه بالتخلي عنه بل هددوه بأن يقاتلوه بكل ما لديهم من قوة وطلبوا منه ان يأمر الاشتر بايقاف زحفه. ورأى الامام نفسه بين امرين لا ثالث لهما. فاما ان يتابع القتال فيضطر الى قتال عدوه وفريق كبير من معسكره بالقلة المستبصرة التي لا تزال تؤمن

بطاعته واما ان يوقف القتال ويفلت النصر من يدي معسكر الحق. فاختار ايقاف القتال خشية على اتباعه المستبصرين من الاستئصال دون الوصول الى نتيجة تثبت اقدام الحق.

لقد رأى الامام نفسه امام انقلاب انتهت به سلطته. فقد قال للاشتر حين عاد اليه ونصحه بان يقاتل من عصاه بمن اطاعه: لا. يا مالك كنت اميراً فاصبحت مأموراً. على ان المؤامرة كانت ذات هدفين:

(١) ايقاف القتال عن طريق قبول الدعوة الى تحكيم القرآن.

(٢) ان يكون الحكم من جانب المعسكر العراقي ابا موسى الاشعري الذي كان واليا على الكوفة قبل معركة البصرة. وبذل اكبر جهده في منع اهل الكوفة من الانضمام للامام في مواجهته لجيش الناكثين في البصرة.

وما كان من الممكن ان يصل معاوية الى كل هذا لو لم يكن فريق من قادة جيش الامام مشتركين معه في المؤامرة.

وقد بدا الداعون الى وقف القتال وكأنهم يحملون الامام بدلا من معاوية مسؤولية المعركة. وكان تصرفهم يوحي بالندم على خوض المعركة، فقد انصب مجهودهم على تحدي سلطة الامام ومنعه من اختيار اي حكم يرى ما يراه الامام ويستصوب المضي في القتال أو العودة اليه.

لقد اختار معاوية عمرو ابن العاص ممثلاً له فما عارضه احد من اهل الشام. واختار الامام عبد الله بن عباس فقال الاشعث واتباعه: لا يحكم فينا مضريان. وما كانت مضرية ابن عباس هي السبب الحقيقي لرفضهم اياه. ولكن الاشعث اتخذ العصبية القبليه قناعا يستر بها قصده. ولو كان ابن عباس كالاشعث مشاقاً للامام لقبله الاشعث. وقد بان ذلك بجلاء حينما اقترح الامام اسم مالك الاشتر الذي هو يماني كالاشعث. فرفضه الاشعث وحزبه قائلين: «وهل نحن الا في حكم الاشتر؟» ان الاشتر يرى رأي الامام ويريد العودة الى القتال ليقضي على الفئة الباغية. وما كان الاشعث وحزبه الا اعوانا للفئة الباغية انضموا الى الامام وهم يكرهون حكمه وانتصاره وكل ما يجاهد من أجله. ولدى الحقيقه ان هؤلاء كانوا اضر للامام واخطر عليه من عدوه معاوية.

اجبر الامام على قبول التحكيم واجبر على قبول ابي موسى ممثلاً له ولمعسكره. وكتبت صحيفة التحكيم ووقعت من الجانبين وسر الاشعث اي سرور بالحصول عليها. ومضى يتنقل بين كتائب الجيش العراقي يقرأها عليهم.

- ٦ -

الحكمان

وكان اهم نقاط الميثاق الموقع ان يحيي الحكمان ما أحياه القرآن وان يميتا ما أماته. وان يتبعا ما يجدان فيه؛ وما لم يجداه في القرآن مما اختلفا فيه امضيا فيه السنة العادلة الحسنة الجامعة غير المفرقة؛ وان على الحكمين عهد الله وميثاقه ان يصلحا بين الامة ولا يرداها الى فرقة وحرب: وان اجل القضية الى شهر رمضان (وان شاء الحكمان عجلاها قبل ذلك وان احبا أن يؤخراها (عن غير ميل منهما) اخراها. وان يكون مكان قضيتهما مكان عدل بين الكوفة والشام والحجاز.

وبالرغم من ان القرآن والسنة الجامعة يحييان حق علي صاحب البيعة الشرعية وأخا الرسول ومولى كل مؤمن ومؤمنة ويميتان باطل معاوية مفرق الجماعة وسافك دماء المسلمين في سبيل مآربه الا ان الحكمين ما كان يتوقع منهما ان يحييا حقاً أو يميتا باطلا.

لم يكن اي من الحكمين حياديا في النزاع الذي جاءا ليصدر فيه حكما عادلاً. كان ابن العاص القائد الثاني للمعسكر المحارب للامام وكان الاشعري احد الخمسة المعارضين لحكم الامام وسياسته قبل معركة البصرة. ففي تلك الفترة يوم كان معاوية يمنع امتداد سلطة الامام الى منطقته ويعلن عصيانه المسلح وام المؤمنين وطلحة والزبير يجتازون البصرة ويطمعون بمد نفوذهم الى الكوفة كان ابو موسى يمنع اهل الكوفة عن مساعدة الامام في استعادة ما اجتازه هؤلاء من منطقة سلطانه.

كان ابو موسى يقف هذا الموقف بالرغم من ان الامام كان يوجه اليه وإلى اهل الكوفة النداء بعد النداء والرسول بعد الرسول. مستنهضاً اياهم لنصره في استعادة حقه. ومعنى ذلك ان ابا موسى كان موافقاً على ابقاء البصرة تحت

سلطان القادة الثلاثة ومتفقاً معهم ومعلنا على الامام عصيانه متسترا باسلوبه الديني الداعي الى تحريم القتال ومتناسيا ان القرآن يدعو بصراحة الى قتال اي فئة من المسلمين تبغي على الاخرى. ولو تحقق للاشعري ما اراد يوم ذاك واطاعه اهل الكوفة لانتهى حكم الامام في السنة الاولى من بيعته.

ولذلك فان ائتمان ابي موسى وعمرو بن العاص على حق الامام كان في الحقيقة ائتمان العدو على حق عدوه. وكان اختيار اهل العراق لأبي موسى في واقعه اتفاقا مع أهل الشام على خلع الامام.

وقد وقع ما كان متوقعاً. لقد استمر الحكمان في محادثاتهما مدة طويلة. وكانت نتيجة محادثاتهما ان اتفقا في ما بينهما على خلع الامام ومعاوية. قام ابو موسى فاعلن خلع الرجلين وقام بعده ابن العاص فاعلن خلع الامام واثبات معاوية. اتهم ابو موسى عمرا بالغدر ونقض الاتفاق. ولكن لو لم يغدر ابن العاص وخلع معاوية كما خلع الامام لما كان خلعهما لمعاوية ذا تأثير في القضية. فمعاوية كان يوم ذاك اميراً على الشام وما كان خليفة وما كان يدعي يوم ذاك انه خليفة فماذا يعني خلعه؟ انه خلع لرجل من منصب لا يملكه ولا يدعيه. فما كان حكمهما الجائر ليضير معاوية. وضرره كان موجها الى الامام فقط.

والواقع انه لو كان حكم الحكمين موافقاً لشروط وثيقة التحكيم في احياء ما احياه القرآن واماتة ما اماته القرآن لكان من الحق ان نعتبر غدر ابن العاص بابي موسى مساعدة للامام لا لمعاوية. فلو لم يغدر ابن العاص لكان الضرر على الامام من الناحية القانونية اشد لأن خلع الحكمين للامام يصبح ملزماً وخلعهما لمعاوية لا يضر معاوية ولا ينقص من مركزه شيئا. فخلع رجل من منصب لا يحتله ولا يدعيه يعتبر لغوا عديم الاثر.

فلو كان حكمهما موافقاً للقرآن والسنة لكان غدر ابن العاص المانع الوحيد من جعل حكمهما ملزماً. لأنه اثبت انهما مختلفان غير متفقين في حكمهما.

ولكن حكم الحكمين كان مخالفاً للقرآن والسنة حتى لو اتفقا، فالقرآن يعلن: «وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فان بغت احداهما على

الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله. فإن فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين »[٢]

وقد كانت طائفة معاوية هي الطائفة الباغية التي ابت ان تفيء الى امر الله. فعلي هو الخليفة الشرعي بنص من الرسول (على قول اتباع اهل البيت) وبالبيعه العامة التي تلقاها من جمهور اصحاب الرسول وعامة سكان المدينة ومكة والعراق ومصر واليمن وسائر الاقطار الاسلامية عدا من كان يحكمهم معاوية من السوريين. واذ كان هو الخليفة الشرعي فقد وجب على المسلمين اطاعته فالقرآن يأمر المسلمين باطاعة اولي الأمر منهم: « يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله والرسول واولي الامر منكم .... »[٣]

وقد اعلن الرسول ان عليا مولى لكل مؤمن وسأل الله ان يوالي من والاه وان يعادي من عاداه. وقد كان معاوية معاديا للامام ومقاتلا له ومستحلا لسفك دمه. واذا كان الله يجيب دعاء الرسول (وهو لا شك يجيبه) فمعاوية عدو لله بعدائه لعلي.

وقد روى مسلم في صحيحه ان النبي (ص) قال من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية. ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة أو يدعو الى عصبة أو ينصر عصبة فقتل. فقتلة جاهلية.» [٤] ومعاوية خارج من الطاعة دون شك.

واذا كان لأحد ان يتردد في ان معاوية هو رأس الفئة الباغية فما عليه الا ان يذكر الحديث المتواتر الذي اجمع المسلمون على روايته. اذ قال الرسول لعمار بن ياسر على مسمع من صحابته: « ويحك يا بن سمية. تقتلك الفئة الباغية.» وفئة معاوية هي التي قتلت هذا الصحابي الجليل حبيب الرسول.

---

(٢) سورة الحجرات آية ٩

(٣) سورة النساء آية ٥٩

(٤) ج ١٢ ص ٢٣٨

وقد بلغ من شهرة الحديث وتواتره ان الزبير ارتعد واخذته رجفة ارتجف بها حتى ما كان يحمل من من سلاح يوم معركة البصرة حينما علم ان عمارا في معسكر الامام لأنه خشي ان يقتل عمار في تلك المعركة فيكون الزبير في الفئة الباغية.

وحينما اخبر عمرو بن العاص في معركة صفين ان عمارا قد قتل ابى ان يصدق ولما رأى جثة الشهيد عمار امتقع لونه ثم قال: «انحن قتلناه»؟ انما قتله الذي جاء به، وكذلك قال معاوية. وحينما علم الامام بمقالتهم قال ساخراً: «اذن رسول الله هو الذي قتل عمه الحمزة لأنه هو الذي جاء به الى معركة احد».

ما من شك بأن ابا موسى سمع الحديث وعلم بمقتل عمار وعلم ان معاوية وحزبه هم الفئة الباغية وان عليا هو امام الهدى ولكن ذلك كله لم يمنعه من ان يعلن خلع الامام. وما ذلك الا لأن الرجل كان عدوا للامام. ولا اريد ان اقول انه كان لا يقيم لما يعلمه من كتاب الله واقوال الرسول وزناً، بل اقول ان بغضه للامام اعمى بصيرته.

مناضلي

الخوارج

الفصل السادس والعشرون

كان القراء الذين حضروا مع الامام في معركة صفين أول الدعاة الى وقف القتال واشد اهل المعسكر اصرارا على قبول التحكيم واكثر الناس عنفا ضد رأي الامام في متابعة القتال ورفض الدعوة الى التحكيم. وسرعان ما تبدل رأي القراء بعد ان وقعت وثيقة التحكيم. لقد رأوا انهم ارتكبوا خطأ كبيرا في ايقاف القتال وفي تحكيم الرجال في دين الله. ورأوا ان على الامام وعليهم ان يعودوا الى القتال فوراً دون انتظار ما يقوله الحكمان. ولعلهم رأوا بعد تفكير، ان حكم الله واضح. فمعاوية واصحابه هم الفئة الباغية التي رفضت السلم ولجأت الى الحرب لحماية باطلها. ولم تنزل هذه الفئة الباغية على حكم القرآن لأنها تخضع لحكمه بل لأنها رأت ان هزيمتها محتمة. وحكم الله هو ان تقاتل هذه الفئة الى ان تفيء امر الله. واذ كان حكم الله واضحاً في هذه القضية فليس هنالك مجال لتحكيم رجلين ليجتهدا ويصدرا حكما أو فتوى في امر لا لبس فيه ولا مجال للاجتهاد.

على ان هؤلاء المتشددين نسوا انهم هم الذين تحدوا سلطة الامام ودفعوه مكرها الى ايقاف القتال وقبول التحكيم والتوقيع على وثيقته. وهاهم الآن يحاولون حمله على نقض ميثاق وقعه واشهد الله والناس على قبوله.

لقد رفع هؤلاء المتشددون في الدين الجاهلون بحقائقه شعار «لا حكم الا لله» وعنوا بهذه الكلمة ان الاسلام يتناقض مع اختيار حكمين من اجل البت في نزاع بين فريقين من المسلمين. فالحكم لله وحده وليس للرجال ان يحكموا في امر ديني.

ومن العجيب ان يجتذب هذا الشعار الوفا من المسلمين الذين يدعون المحافظة على تعاليم القرآن والسنة النبوية. مع ان الحَكَم في امر يختلف فيه فريقان من المسلمين لا يعدو ان يكون قاضياً يطلب منه الفصل في الخصومة واعلان الحق فيما يتقاضى فيه الفريقان.

وكون الحكمين قاضيين هو الذي نطقت به وثيقة التحكيم الموقعة اذ تبدأ بما يلي: هذا ما تقاضى عليه علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان. قاضى علي على اهل العراق ومن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين وقاضى معاوية على اهل الشام ومن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين...»

ومتى كان الشرع الاسلامي يحرم التقاضي ونصب القضاة وممارسة القضاة

لمهماتهم في فصل الخصومات؟ وبماذا تفصل الخصومات اذا حرم القضاء؟وهل يفكر الخوارج ان الرسول والخلفاء ما كانوا يمارسون القضاء ويعينون القضاة؟ وهل مشروعية القضاء بل ولزومه الا امر من ضروريات الدين؟

ان الخوارج اطلقوا اشعار «لا حكم الا لله» وما اظنهم فهموا معناه ولعلهم اخذوا هذا الشعار من قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿ان الحكم الا لله. امر ان لا تعبدوا الا اياه....﴾

ولكن ما تنطق به الآية شيء وما فهموه منها شيء آخر. ان ما تعنيه الآية هو ان الله هو المنزل لمبادىء الدين واحكامه وانه هو الذي يجب على العباد ان يخضعوا لأمره ويعبدوه. وليس الحكم أو القاضي منزلا لشريعة أو معبودا. وانما هو رجل يعنى بتطبيق احكام الشريعة المنزلة. فان هو فعل ذلك وحكم بما انزل الله كان على المسلمين النزول على حكمه لأنه حكم بما انزل الله. وان حكم بغير ما انزل الله وجب على المسلمين عصيانه.

ومن العجيب ان تنسى هذه الفئة الخارجة المتطرفة ان الله قال لرسوله (ولأتباع الرسول ايضاً):

﴿وان احكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم...﴾ [1] وقال لأهل الانجيل: «وليحكم اهل الانجيل بما انزل الله فيه ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الفاسقون.» [2] وقال للمؤمنين: ﴿ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الى اهلها. واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل....﴾ [3]

ولو كان الميثاق الذي كتب بين الامام وخصمه يوجب على المسلمين الطاعة لحكم الحكمين وان ضلا وحكما ضد القرآن وتعاليم الرسول لكان لموقف الخوارج مبرر. ولكن الميثاق الذي كتب ينص على ان على الحكمين ان يحييا ما احياه

---

(١) سورة المائدة (رقم ٥) آية ٥٣
(٢) نفس المصدر. رقم الآية ٥١
(٣) سورة النساء (رقم ٤) آية ٥٨

القرآن ويميتا ما اماته وانهما ان لم يجدا فيما اختلفا فيه نصا من القرآن رجعا الى السنة النبوية الحسنة الجامعة غير المفرقة. واذا التزم الحكمان بذلك فانهما يحكمان بما انزل الله.

ولو ان الخوارج قالوا بأن الحكمين الذين اختيرا لا يصلحان للحكم لأن ابن العاص ضعيف التدين يبيع دينه بدنياه وخصم للامام ولأن ابا موسى محدود العلم والتفكير وماضيه في ايام عمر وعثمان يوحي بعدم تحرجه في الدين وماضيه في اوائل خلافة علي يدل على انه يتبع هواه ويعادى الامام ويثبط الناس عن الانتصار للحق، لكان لموقفهم مبرر.

اجل لو قالوا هذا القول بدلا من قولهم: لا حكم الا لله لكان لهم مبرر ضعيف. فالحكمان بحق لم يكونا مؤهلين للقضاء في امر تختلف فيه الامة. وبالرغم من ذلك فان الامام لا يتحمل مسؤولية الاختيار في التحكيم لأنه اقدم على التحكيم وقبول الحكمين مضطرا لا مختارا. وكان الخوارج انفسهم جزءاً من القوة التي اضطرت الامام الى ذلك.

على ان عدم اهلية الحكمين للقضاء لم تكن لتمنع من تعيينهما للمنصب ما دامت صلاحيتهما مشروطة باتباعهما الكتاب والسنة.

— ٢ —

والواقع ان الخوارج لم يعرفوا الاعتدال في اي موقف من مواقفهم. فقد كانوا بادىء بدء اشد الدعاة الى قبول التحكيم وهددوا الامام بالقتال ان هو أصر على استمرار المعركة واعتبروا استمراره في المعركة بعد ان دعي الى كتاب الله جريمة لا تغتفر وتحلل لهم جهاده. ثم تحولوا بعد يوم أو بعض يوم من اقصى اليمين الى اقصى اليسار فاعتبروا قبول التحكيم وايقاف القتال جريمة لا تغتفر، بل اعتبروا ذلك كفراً من الكفر.

ثم مضوا في غلوائهم ينتقلون من تطرف الى تطرف اشد. فنصبوا انفسهم حماة للشريعة وهم لا يعرفونها وحاسبوا المسلمين على آرائهم وعاقبوا مخالفيهم في الرأي بالقتل. وشهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله التي اعلن الرسول انها تعصم دم ومال من نطق بها اصبحت غير عاصمة لأي مسلم وان ادّى كل ما فرضه الله

واجتنب كل ما حرمه، اذا لم يتفق معهم في الرأي. لقد ابتدعوا قانونا جديدا يخولهم امتحان كل مسلم: وهو البراءة من علي وعثمان. فمن اجتاز الامتحان ببراءته منهما حقن دمه ومن لم يبرأ منهما حل للخوارج دمه. وهكذا اصبحت البراءة من علي اخي الرسول ومولى المؤمنين اصلاً من اعظم اصول الدين الاسلامي في نظر الخوارج.

عاد الامام من صفين وعاد هؤلاء منها ولكنهم عادوا منفصلين عن مجموعة جيشه، فعسكروا بحروراء واليها نسبوا بعد ذلك. وحاول الامام ان يقنعهم بالعودة الى الوحدة وكاد ينجح في ذلك. فقد دخلوا الكوفة، ولكن كانوا يأملون ان لا يتابع الامام فكرة التحكيم وان يعود الى قتال معاوية دون انتظار نتيجة الحكومة. ولكن الامام اعظم من ان ينقض عهدا وقعه. وحينما يئسوا مما كانوا يأملون خرجوا من الكوفة بعد ان كاتبوا من كان يرى رأيهم من البصرة. واتعدوا على اللقاء في ارض النهروان ووافاهم من البصرة نحو من خمسمئة.

واراد الامام ان يعودا الى قتال معاوية بعد ان انتهى ابو موسى وعمرو بن العاص من مهمتهما وبان ضلالهما في الحكم. فارسل الى الخوارج يدعوهم الى الانضمام اليه وقد كانوا هم الذين يطالبون بالعودة الى القتال. ولكنهم رفضوا دعوته. متهمين اياه انه انما يعود الى القتال ثأراً لنفسه لأن حكم الحكمين لم يأت لمصلحته. واراد الامام ان يتركهم وشأنهم وان يعود الى المعركة، فندب أهل الكوفة والبصرة للنهوض فاجتمع اليه من اهل الكوفة جيش يبلغ نحوا من خمس وستين الفا انضم اليهم من اهل البصرة ثلاثة آلاف ومئتان.

اما الخوارج فانهم بدأوا من هذه الفترة حملة ارهابية لم يسبقها مثيل في تاريخ المسلمين. لقد شرعوا يستعرضون الناس ويقتلون كل من لا يرى ضلال الامام. اعترضوا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله ومعه زوجته وسألوه عن علي قبل التحكيم وبعده: فقال لهم: انه اعلم بالله منكم واشد توقيا على دينه وانفذ بصيره. فقالوا له: انك تتبع الهوى وتوالي الرجال على اسمائها لا على افعالها. والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها احدا. فاخذوه وكتفوه ثم اقبلوا به وبامرأته وهي حبلى متم حتى نزلوا تحت نخل مواقير. ثم ذبحوه فسال دمه في المـاء واقبلوا الى امرأته. فقالت:

انا امرأة. الا تتقون الله؟ فبقروا بطنها. وقتلوا ثلاث نسوة من طي وام سنان الصيداوية [٤]

جاءت هذه الانباء المقلقة الى الامام واصحابه وهو يهم بالتوجيه الى ارض سوريا لمناجزة معاوية. فرأى ورأى اصحابه ان من الخطر على اهل الكوفة وسائر اهل العراق ان يمضي الامام في مهمته ويترك هؤلاء القساة وراءه يفعلون بالناس ما يفعلون. لقد رأى ان من الواجب معالجة خطر هؤلاء المارقين قبل ان يعود الى حرب القاسطين.

ذهب الامام بجيشه الى النهروان حيث كان يعسكر الخوارج فارسل اليهم ان ادفعوا الينا قتلة اخواننا منكم ليقام الحد عليهم. ثم انا تارككم وكاف عنكم حتى القى اهل المغرب، فلعل الله يقلب قلوبكم ويردكم الى خير مما انتم عليه من امركم. فقالوا كلنا قتلهم وكلنا مستحل لدمائكم ودمائهم.

وجاء اليهم الامام بنفسه فخاطبهم قائلاً: ايتها العصابة التي اخرجها عداوة المراء واللجاجة وصدها عن الحق الهوى وطمح بها النزق واصبحت في الخطب العظيم، اني نذير لكم ان تصبحوا تلعنكم الأمة غدا، صرعى باثناء هذا الوادي وبأهضام هذا الغائط بغير بينة من ربكم ولا برهان مبين. الم تعلموا اني نهيتكم عن الحكومة ونبأتكم انها مكيدة وان القوم ليسوا باصحاب دين فعصيتموني. فلما فعلت شرطت واستوثقت على الحكمين ان يحييا ما احيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنة. فنبذنا امرهما ونحن على الامر الاول فمن اين اتيتم؟

فقالوا انا حكمنا فلما حكمنا اثمنا وكنا بذلك كافرين وقد تبنا. فان تبت فنحن معك ومنك؛ وان ابيت فإنا نابذون اليك على سواء. فقال لهم: اصابكم حاصب ولا بقي منكم آبر. أبعد ايماني برسول الله وهجرتي معه وجهادي في سبيل

---

(٤) الكامل لابن الاثير ج ٣ ص ١٧٢ - ١٧٣

الله اشهد على نفسي بالكفر؟ لقد ضللت إذن وما انا من المهتدين. ثم انصرف عنهم.[٥]

ان منطق الخوارج منطق عجاب. يقولون انهم اثموا بقبول التحكيم فأصبحوا كافرين. وهل عنوا ان كل من ارتكب ذنبا هو كافر؟ اذا كان هذا هو ما قصدوا فقد اشترطوا للبقاء على الاسلام العصمة من الذنوب. ومعنى ذلك ان يكون المسلمون بجميع اجيالهم كفاراً.

وعلى كل فان ما ورد في كتب التاريخ عن معركة الخوارج وما حفلت به كتب الحديث يدل على ان الامام لم يفاجأ بشي مما حدث فيها بل كان يتوقعها ويعرف موقعها ونتيجتها وتفاصيلها قبل ان تحدث وكان يتحدث عن كل ذلك وكأنه يقرأ من كتاب.

قصد الخوارج جسر النهر والامام يصلي في مكان قصي منهم فاخبره اصحابه ان الخوارج قد عبروا النهر فقال: لن يعبروا. وذهب من يستطلع مكانهم فرآهم وتوهم انهم عبروا ولم يقترب منهم خوفاً. فعاد الى الامام يخبره بعبورهم. فقال الامام: والله ما عبروه وان مصارعهم لدون الجسر أو قال: دون النطفة (النهر).

وشك الناس في قوله وارتاب به بعضهم فذهبوا نحو الخوارج ليتحققوا مما يقوله فاذا بالخوارج لم يزالوا بعيدين عن النهر فكبر اصحاب الامام واخبروا عليا بما ساورهم من الريبة وما كشف لهم من الحق فقال الامام: والله ما كذبت ولا كذبت.[٦]

ولم يكن الامام يعرف بدقة مكان المعركة فحسب بل كان علِماً بدقائق تفاصيلها. فقد قال لاصحابه قبل بدء المعركة: «والله لا يقتل منكم عشرة ولا ينجو منهم عشرة.» وجاءت نتيجة المعركة تحقق ما انبأ به. اعطى ابا ايوب

---

(٥) نفس المصدر

(٦) نفس المصدر ١٧٤

الانصاري رايه الأمان ونادى ابو ايوب الخوارج قائلاً: من جاء تحت هذه الراية فهو آمن. ومن لم يقتل ولم يستعرض وانصرف منكم الى الكوفة أو المدائن، ومن خرج من هذه الجماعة فهو آمن. لا حاجة لنا في دمائكم بعد ان نصيب قتلة اخواننا منكم. فترك المعسكر كثير منهم وبقي ما يقرب من نصف مجموعهم مصرين على القتال.

امر الامام اصحابه ان لا يبدأوهم بالقتال، فتنادى الخوارج: الرواح الى الجنة. وحملوا على الناس، فافترقت خيل الامام فرقتين في ميمنة وميسرة واستقبلت الرماة وجوههم بالنبل وعطفت عليهم الخيل من الجانبين ونهض اليهم الرجال بالرماح والسيوف فاهلكوا في ساعة. فكأن الله قال لهم: موتوا، فماتوا.

لقد ظهر لأصحاب الامام صدق نبوءته اذ لم يقتل منهم الا سبعة ولم يسلم من الخوارج عشرة.

ولكن نبوءة اخرى بالغة الاهمية كان الامام فاه بها قبل المعركة لم يتمكن اصحابه بعد انتهاء المعركة من تحقق وقوعها. لقد كان الامام. يحدث اصحابه قبل ظهور الخوارج ان قوما يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. علامتهم رجل مخدج اليد. فلما فرغ من معركة الخوارج امر اصحابه ان يلتمسوا المخدج فالتمسوه فلم يجدوه. وقال بعضهم: ما هو منهم. والامام يكرر قوله: والله انه لفيهم. والله ما كذبت ولا كذبت. ثم مضى بنفسه ومعه بعض اصحابه يبحثون عن الرجل الموصوف فوجدوه في حفرة على شاطىء النهر في خمسين قتيلا. فلما استخرجه نظر الى عضده فاذا لحمه مجتمع كثدي المرأة وحلمة عليها شعرات اذا مد اللحم امتد حتى يحاذي يده الطولى واذا ترك تقلص وعاد الى هيئته. فلما رأى الامام طلبته كرَّ وقال: « ما كذبت ولا كذبت. لولا ان تنكلوا عن العمل لأخبرتكم بما قص الله على لسان نبيه لمن قاتلهم مستبصرا في قتالهم، عارفا للحق الذي نحن عليه. ».

وقد روى المؤرخون والمحدثون ان الرسول (ص) انبأ اصحابه بخروج هذه الخارجة ووصفها باوصافها. فمما جاء في شأنهم ما رواه البخاري في صحيحه عن ابي سعيد الخدري: « بينما نحن عند رسول الله وهو يقسم قسما اتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم. فقال: يا رسول الله، اعدل. فقال: ويلك. ان لم اعدل فمن

يعدل؟ قد خبت وخسرت ان لم اعدل. فستأذن عمر الرسول في قتله فقل: دعه. فان له اصحابا يحقر احدكم صلاته مع صلاتهم وصيمه مع صيمهم. يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم. يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. آيتهم رجل اسود احدى عضديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة. ويخرجون على خير فرقة من الناس. فاشهد اني سمعت هذا الحديث من رسول الله واشهد أن علي بن ابي طالب قاتلهم وانا معه، فامر بذلك الرجل فالتمس فاتي به حتى نظرت اليه على نعت النبي الذي نعت » (٧)

وقد روى مسلم في صحيحه عن زيد الجهني انه كان في جيش الامام الذي سار الى الخوارج فقال علي: « ايها الناس، اني سمعت رسول الله يقول يخرج قوم من امتي يقرأون القرآن ليس قراءتكم الى قراءتهم بشيء ولا صلاتكم الى صلاتهم بشيء ولا صيامكم الى صيامهم بشيء يقرأون القرآن يحسبون انه لهم وهو عليهم. لا تجاوز صلاتهم تراقيهم يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية. لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم بما قضي لهم على لسان نبيهم لا تكلوا على (لنكلو عن) العمل: وآية ذلك ان فيهم رجلا له عضد وليس له ذراع. على رأس عضده مثل حلمة الثدي عليه شعرات...» وقال علي التمسوا فيهم المخدج فالتمسوه فلم يجدوه فقام علي بنفسه حتى اتى ناسا قد قتل بعضهم على بعض فقال: اخرجوهم فوجدوه مما يلي الارض، فكبر ثم قال: « صدق الله وبلغ رسوله.....» (٨)

---

(٧) كتاب بدء الخلق

(٨) كتاب الزكاة

الشهادة

الفصل السابع والعشرون

- ١ -

قيل للامام لما ابيد الخوارج في معركة النهروان: يا امير المؤمنين، هلك القوم باجمعهم. فقال: «كلا والله انهم نطف في اصلاب الرجال وقرارات النساء. كلما نجم منهم قرن قطع، حتى يكون آخرهم لصوصا سلابين» [١]

لم يخدع الامام انتصاره على الخوارج، ولم يعتقد بأن مصرعهم كان مصرعاً لمبدئهم وحلاً جذريا لمشكلتهم. لقد كان عليماً بان المبادىء والافكار لا تموت بموت مبتدعيها. وما كان قتاله اياهم سوى علاج موقت قصد منه ايقاف نمو حركتهم السريع والتخفيف من خطرهم المتعاظم. وكان قتاله اياهم مهمة عهد الرسول اليه بها وبين له تفاصيلها واوضح له اوصافها ومعالمها قبل حلول وقتها بتسع وعشرين سنة.

لماذا عهد الرسول الى الامام بقتال الخوارج؟

وما كان الرسول ليعهد اليه بهذه المهمة الا لأنها واجب مقدس تجسد فيه الدفاع عن حرية العقيدة وعن الدماء البريئة التي مضى الخوارج يريقونها لا لسبب سوى ان ضحاياهم لم يؤمنوا بباطلهم. وما كان الامام يرى، وهو الذي شهد له الرسول بأنه مع الحق وان الحق معه، ان له ان يجبر المسلمين على ان يشاطروه رأيه، ويتبعوا رشيد طريقه. بل وكان يعذر مخالفيه ويقر لهم حرية التفكير. وهو الذي قال: «... لا تقتلوا (لاتقاتلوا) الخوارج بعدي. فليس من طلب الحق فاخطأه كمن طلب الباطل فادركه.»

ولو آمن الخوارج بمبدئهم السقيم ولم يحاولوا أن يفرضوه بالقوة على بقية المسلمين لتركهم الامام وشأنهم وهذه كانت امنيته. ولكن القوم حظروا على المسلمين ان ينطقوا بالحق أو يؤمنوا به وفرضوا عليهم ان يؤمنوا بالباطل ويتخذوه دينا، ومضوا يقتلون كل من وصلت اليه ايديهم ممن لا يؤمنون ببدعتهم.

---

(١) نهج البلاغة ج ١ ص ١٠٧

ماذا كانت نتائج المعركة؟

لقد نجحت معركة النهروان في ايقاف نمو الحركة الخارجية السريع وخطرها المتعاظم على المسلمين، ولكنها، كما توقع الامام، لم تنجح في استئصال ذلك الخطر. ولا هي نجحت في اعادة عزيمة الجيش العلوي على قتال المحلين القاسطين. لقد اراد الامام بعد معركة النهروان ان يمضي بجيشه توّاً الى لقاء معاوية في معركة فاصلة، ولكن الجيش وقادته اعربوا عن رغبتهم في ان يعسكروا بالنخيلة قريباً من الكوفة لاستراحة قصيرة يستعيدون فيها قوتهم ويجددون اسلحتهم ويريحون دوابهم. ولكنهم بعد أن عسكروا فيها تسللوا الى الكوفة، جماعات وافراداً ثم لم يعودوا. واضطر الامام نفسه ان يدخل الكوفة محرضاً اياهم يوما بعد يوم على النهوض الى عدوهم، ولكن القوم كرهوا الانبعاث وظلوا قاعدين

وليس من العسير التعرف على اسباب تقاعس القوم عن واجبهم. فالرجال الصالحون الذين كانوا ادمغة الثورة امثال عمار بن ياسر ومالك الاشتر وخزيمة بن ثابت ذي الشهادتين وعبد الله بن بديل وهاشم المرقال كانوا قد لقوا حتفهم في معركة صفين أو خارجها. وهؤلاء كانوا هم المستبصرين الذين يحرصون على مستقبل الاسلام ويبذلون في سبيل اعلاء الحق اموالهم وانفسهم. وكانوا هم الحلقات التي تربط الجماهير بالامام، ويعرفونهم على حقه ويحرضونهم على طاعته ويعطونهم من اعمالهم الامثلة الحية لطاعته والاخلاص لمبادئه. وقد كانوا دائماً أول الملبين لندائه يرون فيه ممثلاً حقيقيا للرسول الاعظم في قوله وفعله.

هؤلاء الابرار مضوا الى ربهم وحل محلهم في قيادة الجماهير رجال كالاشعث ممن لم يخالط الايمان قلوبهم ورجال آخرون كحجر بن عدي وعدي بن حاتم ممن لم يعوزهم ايمان ولا اخلاص ولكن اعوزهم النفوذ الواسع وقوة التأثير على الجماهير.

والجماهير الشعبية التي قاتلت مع الامام في حروب ثلاثة كانت قد دفعت من دماء ابنائها الشيء الكثير فسئمت القتال ومالت الى الخفض والدعة دون ان يكون لديها بصيرة ذوي البصائر الذين يهتمون بالمصائر ولا يحفلون بالخسائر.

وفتنة الخوارج الهوجاء احدثت انشقاقاً في الصفوف وقضت على الوحدة في

معسكر الامام. لقد صرع الخوارج في معركة النهروان ولكن مصرعهم لم يكن ليرفع معنويات الجيش الذي ابادهم فهم الابناء والاخوان والاصدقاء الذين كانوا بالامس رفاق السلاح والانصار على العدو. وما كان قتل الكوفي اخاه الكوفي والبصري اخاه البصري ليحدث في نفسه شعورا بالنصر وانما كان يحدث حزنا وشعورا بالخسارة.

على ان معركة النهروان لم تضع نهاية لنشاط الخوارج الدعائي ولا لأعمالهم الدامية. فقد انبثوا بين الناس يؤلبونهم على الامام. وكلما آنس فريق منهم شيئا من قوة خرجوا حاملين سيوفهم على عواتقهم ينشرون الرعب والموت بين السكان الابرياء. خرج اشرس بن عوف الشيباني في جماعة ثم تلاه هلال بن علقمة بن تيم الرباب ثم الاشهب بن بشر ثم سعيد بن نفيل التيمي. وخرج الخريت بن راشد في بني ناجية، وآخرون. وفي كل مرة كان الامام يضطر الى ارسال كتيبة أو كتائب لقتالهم.

كل ذلك قضى على معنويات المعسكر العلوي ووحدته وحطم عزيمته على القتال. وبذلك انتقل زمام المبادرة عسكريا وسياسياً من يد الامام الى يد معاوية.

عرف معاوية تصدع الوحدة في جبهة الامام فعزم على غزو مصر واحتلالها، عالما بان أهل العراق سوف لا يلبون نداء الامام ان هو دعا هم الى ارسال جند للدفاع عنها، وتم لمعاوية ما اراد. وتلقى اهل العراق نبأ احتلال مصر وقتل واليها محمد بن ابي بكر واحراق جثته وكأن الامر لا يعنيهم.

والنجاح يجر النجاح والفشل يجر الفشل. وقد اطمع النجاح في مصر معاوية ان يحاول احتياز البصرة من الامام لعلمه بان الاكثرية من اهلها حاقدون عليه لما اصابهم منه في معركة الجمل. ارسل معاوية عبد الله الحضرمي الى البصرة ليثير اهلها على الامام، فلم ينجح عبد الله في مهمته بل قتل ولكنه احدث شقاقاً بين اهل البصرة قبل ان لقي حتفه.

وارسل معاوية النعمان بن بشير في الف. ثم سفيان بن عوف في ستة آلاف ثم الضحاك بن قيس في ثلاثة آلاف الى مناطق من العراق مختلفة في غارات ينشرون

فيها الدمار والموت. ثم يعودون دون ان يلقوا من اهل العراق في اكثر الأحيان الا مقاومة رمزية. وارسل معاوية كتائب اخرى الى اليمن والحجاز فكانوا يفعلون بالمسلمين ما يتحرج من فعلة الكافرون. وعادت تلك الكتائب من غاراتها موفورة لم تصب بأذى.

كان الامام يجمع الناس المرة بعد المرة محرضاً اياهم على الجهاد مرة في لين واخرى في عنف، ولكن القوم استكانوا ووهنوا. وقد قال لهم مرة:

«اي دار بعد داركم تمنعون؟ ومع اي امام بعدي تقاتلون؟ المغرور والله من غررتموه. ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب. اصبحت لا اطمع في نصركم ولا أصدق قولكم. فرق الله بيني وبينكم. ابدلني بكم من هو خير لي منكم.

«اما انكم ستلقون بعدي ذلاً شاملاً وسيفاً قاطعاً واثرة يتخذها الظالم فيكم سنة، فيفرق جماعتكم ويبكي عيونكم ويدخل الفقر بيوتكم وتتمنون عن قليل انكم رأيتموني فنصرتموني. فستعلمون حق ما اقول. ولا يبعد الله الامن ظلم.» [٢]

وما كان الامام ليلوم معاوية على اعماله الهدامة للاسلام وتعاليمه ونشر الفساد والشقاق والظلم وشراء الضمائر. فهو يعرف ان معاوية واهل بيته كانوا وظلوا اعداء للحق ورسالته. ومعاوية واهل بيته كانوا وظلوا اعداء للحق ورسالته. ومعاوية طالب دنيا وباطل يجري وراءهما بكل امكاناته وهو مدرك ما يرمي اليه. لم يكن يلومه بالرغم من انه رأس الداء فهو لا يترقب منه ان يصنع غير ما هو صانع.

بلى ان اتباعه كانوا هم الملومين في نظره لانهم هم الذين توقع الامام منهم ان يكونوا الدواء لذلك الداء وان يكونوا وسيلة لإقامة أود الامة واعادة توجيهها نحو مستقبل يعلو فيه نور الاسلام ويطبق آفاق المعمور وتهدى به جميع الامم.

ولكنهم بدلاً من ان يكونوا دواء للامة اصبحوا داء اضيف الى ادوائها.

وقد صارحهم بذلك قائلاً: «اريد ان اداوي بكم وانتم دائي كناقش الشوكة

---

(٢) الفتنة الكبرى ج ٢ ص ١٢٢

بالشوكة وهو يعلم ان ضلعها معها. اللهم قد ملت اطباء هذا الداء الدوي وكلت النَّزعة باشطان هذا الركي...» (٣)

اجل لقد انتصر الباطل بتخاذلهم وعصيانهم وتفرقهم واستشرى. ولم يخسروا بذلك دينهم فقط بل خسروا دنياهم وكل مستقبل لهم كريم على وجه هذه الارض. فعدوهم الذي حاربوه بكل شدة بادىء بدء واخذوا بكظمه وعملوا على ابادته ثم نكصوا بعد ذلك عن قتاله سوف لا يكون بهم رحيماً وترى الامام يقول لهم:

«اما انكم سترون بعدي ذلاً شاملاً وسيفاً قاطعا وأثرة يتخذها الظالم فيكم سنه، فيفرق جماعتكم ويبكي عيونكم ويدخل الفقر بيوتكم...»

ولكن هذه الكلمات التي تنهض الجبناء وتوقظ اغفل الغافلين لم تحرك القوم ولا نجحت في ايقاظكم وقال لهم مرة اخرى:

« يا عجباً كل العجب: عجب يميت القلب ويشغل الفهم ويكثر الاحزان من تظافر هؤلاء القوم على باطلهم وفشلكم عن حقكم، حتى اصبحتم غرضا. تُرمون ولا تَرمُون ويغار عليكم ولا تغيرون ويعصى الله فيكم وترضون. اذا قلت لكم: اغزوهم في الشتاء قلتم هذا اوان قر وصر. ان قلت لكم اغزوهم في الصيف، قلتم هذه حمّارة القيظ انظرنا ينصرم الحرّ عنا. فاذا كنتم من الحر والقر تفرون فانتم والله من السيف أفر.

« يا اشباه الرجال ولا رجال ويا طغام الاحلام ويا عقول ربات الحجال. والله لقد افسدتم علي رأيي بالعصيان ولقد ملأتم جوفي غيظا حتى قالت قريش: ان ابن ابي طالب رجل شجاع ولكن لا رأي له في الحرب. لله درهم. ومن ذا اعلم بها مني أو اشدّ لها مراسا؟ فوالله لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ولقد نيفت اليوم على الستين. ولكن لا رأي لمن لا يطاع، لا رأي لمن لا يطاع، لا رأي لمن لا يطاع.» (٤)

---

(٣) نهج البلاغة ص ٢٣٤ : ج ١

(٤) الفتنة الكبرى ج ٢ ص ١٤٩

وبالرغم من كل النكبات والمحن التي توالت على الامام وبالرغم من ان اتباعه الزموه بخطة الدفاع والدفاع غير الناجح وسلبوه بعصيانهم زمام المبادرة فانه ظل يؤمن بأنه لا يزال بامكانه ان يسترد زمام المبادرة ويقضي على كل مكاسب خصمه وينزل به ضربة قاضية لو اطاعه اتباعه مرة اخرى ولقي معاوية وجيشه في معركة فاصلة. ولن ينفع معاوية بعد ذلك ان استولى جيشه على مصر أو إن انتصر في عدد من المناوشات قبل تلك المعركة الفاصلة.

الامام يضع اتباعه امام مسؤوليتهم

وعزم الامام اخيرا ان يحمل اولئك الاتباع المراوغين حملاً على تلك الخطة الحازمة بعد أن يئس من تعاونهم معه اختيارا. وما كان بامكانه ان يفعل ذلك الا بأن يحرجهم اشد الاحراج ويضع كل ما لديهم من حمية واحساب وشرف ودين في كفة الميزان. فإما أن يدافعوا عن كل ذلك أو أن يلحق بهم عارا لا تمحوه الايام.

وما كان الامام ليتمكن ان يفتح عيونهم على الواقع الا بان يعلن لهم قرارا خطيرا يملك تنفيذه لأنه يتعلق بشخصه وهم يعرفون معرفة اليقين انه ان قال فعل. فهو بطل الابطال الذي لا تروعه التضحية مهما عظمت. لقد جمعهم فقال لهم:

«اما بعد أيها الناس فانكم دعوتموني الى هذه البيعة فلم اردكم عنها، ثم بايعتموني على الامارة ولم اسألكم اياها. فتوثب علي متوثبون كفى الله مؤونتهم وصرعهم لخدودهم واتعس جدودهم وجعل عليهم دائرة السوء. وبقيت طائفة في الاسلام تحدث حدثا. تعمل بالهوى وتحكم بغير الحق، ليست بأهل لما ادعت. وهم اذا قيل لهم تقدموا قدماً تقدموا. واذا أقبلوا لا يعرفون الحق كمعرفتهم الباطل ولا يبطلون الباطل كإبطالهم الحق.

«اما اني قد سئمت من عتابكم وخطابكم. فبينوا لي ما انتم فاعلون. فان كنتم شاخصين الى عدوي فهو ما اطلب واحب. وان كنتم غير فاعلين، فاكشفوا لي عن امركم، أرى رأيي. فوالله لئن لم تخرجوا معي باجمعكم الى عدوكم فتقاتلوهم حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين، لأدعون الله عليكم ثم لأسيرن الى عدوكم ولو لم

يكن معي الاَّ عشرة. أأجلاف اهل الشام·واغرارها اصبر على نصرة الضلال واشد اجتماعا على الباطل منكم على هداكم.وحقكم؟ ما بالكم وما دواؤكم؟ ان القوم مثلكم لا ينشرون ان قتلوا قبل يوم القيامة.» (٥)

بهذا الاعلان الخطير وضعهم الامام وجها لوجه امام مسؤوليتهم وايقنوا بأنه سينفذ قراره ويسير الى عدوه ولو لم يكن معه سوى عشرة اشخاص وهم يعرفون انه سيجد اكثر من هذا العدد، وعرفوا انه ان فعل ذلك فانه سيلقى مصرعه ويلحق بهم خزي لم يكونوا على استعداد لتحمله. ولعل فريقا كبيرا منهم كانوا يخشون ان دعا الأمام عليهم ان يصيبهم الله بقارعة مهلكة.

وقف السامعون فاحسنوا الكلام وخرجوا من عنده فاظهروا انهم قد عزموا على نصره. ومضوا الى قبائلهم يحرضونهم على الجهاد فاجتمعت كلمتهم واستعدوا للمسير بعد ان هيأوا العدة والعدد الوفير للقاء جيش الباطل في معركة فاصلة.

ولكن هل كان الجيش سليماً كما بدا؟ وهل اجتمعت قلوب قادة الجيش على الحق؟ وهل برىء الاشعث وامثاله من مرض النفاق؟ وهل كان يؤمن ان لا يتآمر فريق من هؤلاء مع العدو لقاء اموال يرسلها اليهم أو وعود يمنيهم بها فيتعمدون الهزيمة في المعركة ويلجئون امير المؤمنين الى خوض معركة يائسة يلقى فيها مصرعه؟ وهل كان امير المؤمنين مؤمنا بصدقهم؟

لا يعطينا التاريخ جوابا واضحا على هذه الاسئلة لأن الجيش لم يمر بتلك التجربة. فالامام لقي ربه قبل ان يتحرك الجيش من معسكره. ولكن التاريخ يتهم الاشعث، وهو من رؤوس قادة ذلك الجيش العتيد باشتراكه في المؤامرة التي دبرت لاغتيال الامام.

والمنطق يدعونا الى الاعتقاد بأن الاحداث التي مرت قبل تجمع هذا الجيش قد افقدت الامام كل ثقته باتباعه. وقد صرح بذلك حين قال: « .... والله لكأني اخال ان لو حمس الوغى وحمي الضراب وقد انفرجتم عن ابن ابي طالب

---

(٥) نفس المصدر ص ١٥٦ نقلا عن البلاذري

انفراج المرأة عن قبلها....» [٦]

وما كان الامام يلقي الكلام جزافا فهو ذلك الرجل الذي كانت كلماته دائما تعبر عن حقائق كان يراها بنور الله واضحة كفلق الصبح. وما كان الامام بالذي يخدع باجتماع ابدان اهل الكوفة وهو يعرف ان فيهم من يشاطرون الخوارج رأيهم وفيهم من اعتقد لقصر بصيرته ان الانتصار على معاوية اصبح مستحيلا وان دولة الامام في طريقها الى الافول. ولذلك فانهم كانوا على استعداد للتعاون مع عدوه. وبالطبع كان يوجد بين اتباعه رجال مخلصون كل الاخلاص. ولكن وجود هؤلاء وهم قلة ما كان ليوصل الامام الى هدفه. وما كان ليمنع الانهزاميين بينهم من ايصال جيشه الى كارثة.

واعظم بمحنة الامام ورزيته في هذه الأمة. لقد كان يرى الحق ابلج واضحا امامه ويرى ان البيعة التي تلقاها وهو كاره، قد وضعت على اكتافه الضخمة مسؤولية اعادة العالم الاسلامي الى طريق الرشاد واحياء ما احياه القرآن واماته ما اماته.

وكان يرى، وهو على حق فيما يرى، انه اولى الناس بعد الرسول بان يطاع، لأنه اولى الناس بالرسول ولأنه منه بمنزلة هارون من موسى.

ثم يرى ان الامة جهلت حقه وانقسمت عليه بالرغم من انها سارت قبل خلافته طائفة تحت راية من كان لا يدانيه جهادا ولا علما ولا قربى من رسول الله.

ثم يرى ان الذين تابعوه ونهضوا معه قد انقلب عليه فريق منهم مستحلا قتاله وباذلا كل ما يملك من قوة في احباط مجهوده. والفريق الآخر الذي بقي معه اصبح لا يعطيه من الطاعة الا وعودا كاذبة واعذارا رخيصة.

والعدو الذي كان الامام قد اخذ بخناقة في معركة صفين وكانت الهزيمة منه

---

(٦) نهج البلاغة ج ١ ص ١٨٩

قاب قوسين أو ادنى وكان باطله على مقربة من نهايته الى ان لجأ الى رفع المصاحف ليتقي خطر الابادة قد اصبح الآن سيد الموقف يهاجم ولا يهاجم ويحتاز منه بلادا كانت تحت سلطانه ويفعل كل ذلك لا لأن اتباع عدوه اكثر عددا أو اعظم عدة بل لأن اتباعه الكثيرين قد تحطمت عزيمتهم وتفرقت كلمتهم.

وحق له ان يرى ان اتباعه اشد عليه من عدوه لأنهم هم الذين مكنوا لباطل عدوه بتخاذلهم ان يعلو ويصبح الفريق الظافر. فليس بعجيب ان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل وان يقول لهم: فرق الله بيني وبينكم. ابدلني بكم من هو لي خير منكم. وهو يعرف ان الله لن يبدله منهم بمن هو خير له منهم. وهو حي يمشي على وجه الارض وانه لن يكون مع من هو خير له منهم الا اذا انتقل من هذا العالم الى عالم يجمع الله فيه بينه وبين احبائه رسول الله والمصطفين من اهله وصحبه.

لقد تمنى الامام فراقهم وسأل الله ان يبدله خيرا منهم اكثر من مرة. ومن العجيب انه سأل الله ذلك حينا رأى رسول الله في منامه قبل ان اغتيل بقليل وبعد أن اجتمع له ما اجتمع من جيش لخوض المعركة. ولا أرى في ذلك الا دليلا على ان الامام عرف ان الجيش لن يؤدي مهمته. ان فريقا من ذلك الجيش وقادته لا يضمرون خيرا، وانهم مع عدوه وليسوا معه.

روى ابن سعد في طبقاته [٧] وابن عبد البر في استيعابه [٨] عن الامام الحسن وابن الاثير في اسد الغابة [٩] عن الحسن والحسين ان امير المؤمنين قال لهما انه شكا لرسول الله في منامه فقال: يا رسول الله، ما لقيت من امتك من الأود واللدد!!! فقال له الرسول: ادع عليهم. فدعا الامام قائلاً: «اللهم ابدلني بهم خيرا منهم وابدلهم بي شرا مني.»

وقد اجيبت دعوته.

---

(٧) ج ٣ ص ٢٤
(٨) ج ٢ ص ٤٧٠
(٩) ج ٤ ص ٣٦ (نقله الفيروزبادي في كتابه فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ٣ ص ٥٦)

- ٢ -

ولو كان الامام يأمل خيراً في الحملة العسكرية التي اعدها للقاء معاوية وكان واثقا من صلابة الجيش الذي تجمع وصحة نية قادته لما سأل الله ان يبدله بهم خيراً منهم وان ينقله من هذا العالم ابتعادا عنهم.

فما كان للامام شيء احب واشهى من ان يصلح ما فسد من امور المسلمين وينقذ العالم الاسلامي مما كان يتهدده على ايدي الامويين ومن بعدهم وينير السبيل للاجيال المقبلة.

اجل لو كان الامام واثقا بما تجمع لديه من قوة لوجد في ذلك امنيته ولدعا الله ان يمد في عمره لكي يحقق هدفه. ولكنه، على ما يظهر، ايقن بأن من حوله قوم فقدوا عزيمتهم على التضحية ووهنوا فهم كانما يساقون الى الموت وهم ينظرون. وكانه احس بأن عددا من قادة الجيش كانوا على استعداد ان يتخلوا عنه في الساعة الحاسمة ويتركوه في الميدان امام الالوف المتراصة من جند معاوية، ليستشهد وقد تفرق عنه جنده، وقد فعلوا ما هو اشنع من ذلك في حرب صفين يوم كانوا افضل واصح عزيمة.

ولو حدث ذلك لانتهت حياة الامام في معركة يعتبر فيها مهزوماً مخذولاً. ولكن الله اراد لوليه علي بن ابي طالب ان لا يذوق مرارة الهزيمة وذلها. فهو سيف الله الذي لم يهزم في معركة قط. لقد اراد الله ان ينقله من هذا العالم عزيزا مكرما بادي القوة كثير الاعوان. فتجمع لديه قبل شهادته جيش كثيف يظهر له الطاعة. ووافته الشهادة وهو يبدو في قوة ومنعة.

لقد اتضح للامام بعد ممارسته اقسى التجارب ان الذين يريدون بالامة شرا جادون كل الجد في سبيل باطلهم وان الذين كانوا يبتغون الخير والعدل وسيادة الحق والقانون الالهي قد وهنوا وفتنوا. فليس هنالك بارقة امل توحي بالوصول الى هدف صحيح. بلى ان جميع الادلة كانت تنذر بأن الباطل سيعلو وان الحق سيلقى مصرعه. فتمنى ان يلقى هو مصرعه قبل ان يشهد مصرع الحق.

ولطالما توقع الامام شهادته وتاق اليها، كافضل امنية له في الحياة. وقد شق عليه ان تحاز عنه في معركة احد، فاعلم النبي بما يجد في نفسه من حرمانها. فقال له النبي: «ابشر فان الشهادة من ورائك.»

وحينما نزل قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوْا أَنْ يَقُوْلُوْا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُوْنَ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الَّذِيْنَ صَدَقُوْا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِيْنَ.﴾ ذكر الامام النبي بتلك البشارة فقال له: يا رسول الله أوَ ليس قد قلت لي يوم احد حيث استشهد من استشهد من المسلمين وحيزت عني الشهادة، فشق علي ذلك: ابشر فان الشهادة من ورائك؟» فقال له النبي: «ان ذلك لكذلك. فكيف صبرك اذاً؟» فاجابه قائلاً: يا رسول الله ليس هذا من مواطن الصبر، ولكن من مواطن البشرى والشكر.» [10]

وقال له النبي يوماً: «ان الامة ستغدر بك بعدي. وانت تعيش على سنتي. من احبك احبني ومن ابغضك ابغضني، وان هذه (مشيرا الى لحية الامام) ستخضب من هذا (مشيرا الى رأسه).» [11]

وقال النبي يوماً للامام ولعمار بن ياسر: «الا احدثكما باشقى الناس؟ فقالا: بلى يا رسول الله. فقال: احيمر ثمود الذي عقر الناقة والذي يضربك يا علي على هذا (رأسك) حتى تبتل هذه (لحيتك) من الدم.» [12]

وقد تحققت النبوّة في صبيحة من شهر رمضان سنة اربعين بعد الهجرة. لقد دفع الشقاء الذي لا يعرف حدوداً رجلاً خارجياً (يدعى عبد الرحمن بن ملجم) خامل الذكر ضئيل النسب ينطق بشهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله الى اغتيال الامام علي اخي محمد رسول الله ووزيره ووصيه، وان يغتاله وهو يصلي لربه في بيت من بيوت الله. ولا يستطيع امرؤ تشتعل في قلبه جذوة الإيمان ان

---

(١٠) نهج البلاغة ج ٢ ص ٥٠

(١١) المستدرك للحاكم ج ٣ ص ١٤٢

(١٢) نفس المصدر ص ١٤١

يتجاوز هذه النقطة من التاريخ دون ان يذرف دمعة على شهيد حاز من كل فضيلة اقصى درجاتها وبذل في سبيل دينه وامته من التضحيات مالم يبذله احد بعد الرسول الاعظم ثم وقفت منه الامة التي بذل في سبيلها كل تلك التضحيات موقفا تخجل ان تقفه من اشد اعدائها.

ومن الصعب على مسلم يهتم بمصائر الامور ان يتجاوز هذه النقطة من تاريخنا دون ان يذرف دمعة اخرى لما حل بالاسلام واهله من خسارة بمصرع هذا القائد الفريد قبل ان يتمكن من انجاز اهدافه واكمال رسالته الى عالم كان وما زال في اشد الحاجة اليها.

فاعظم بها من خسارة اصيب بها المسلمون اذ فقدوا امامهم وخليفة نبيهم. انها خسارة فريدة في فداحتها لم يصب المسلمون بمثلها بعد فقد الرسول. خسارة لم يتمكن المسلمون الذين وجدوا يوم حدوثها من تصور ابعادها وعظيم نتائجها وبعد مصايرها. ومن الجدير بنا ان نذكر نتيجتين معجلتين حدثتا ساعة مقتل الامام:

(١) لقد انقطع بموت الامام معين المنهل الصافي الاصيل الذي كان المسلمون يستقون منه علوم القرآن وصادق سنن الرسول. كان الرسول مدينة العلم وكان علي باب تلك المدينة. وحينما قبض الله اليه رسوله بقي علي باب علمه ومستودع سره ووارث حكمته يسمع المسلمين صوت الرسول ويعرفهم الحق فيما كانوا فيه يختلفون. وقد سد هذا الباب ساعة ارتحل الامام من هذا العالم.

واذا كان الائمة من ولد علي قد ورثوا علمه وكان بامكانهم ان يمدوا المسلمين بما يحتاجون اليه من علم بالكتاب والسنة، فان الاصحاب والتابعين الذين كانوا يقرون للامام بتفوقه لم يقروا لولده بما اقروا له به. واذا كان العالم الاسلامي قد نازع الامام حقه ولم يغترف من بحر علمه ما يكفيه مؤونة الخلاف والاختلاف ولم يعطه الوقت الكافي ولا الفرصة المريحة ليفيض عليه من معارفه فما كان ينتظر من ذلك العالم ان يمكن الائمة من ولد علي من تحقيق مالم يمكن عليا من تحقيقه. بلى ان الائمة من ولد علي قد أوسعوا قتلا وتشريدا.

وهكذا اضطر العالم الاسلامي الى اتخاذ مذاهب مختلفة في تفاصيل الفقه كأن بغنى عنها لو استتب الامر للامام مدة كافية ليدون لهم أو يملي عليهم ما يحتاجون اليه من معارف في كتاب الله وسنن الرسول.

(٢) اما النتيجة الثانية المعجلة التي حاقت بالاسلام واهله بفقد الامام فهو انتهاء عهد الخلافة الراشدة الى الابد. لقد مات ابو بكر وقتل عمر ثم عثمان (رض) وما انتهى بموت اي منهم عهد الخلافة الرشيدة. ولكن موت الامام نقل العالم الاسلامي فورا من حكم عادل نير يسير على منهاج الكتاب والسنة الى ملك عضوض مستبد غاشم يعبث بالحقوق المقدسةويستحل الدماءالمحرمه ويحبس على الظنة ويقتل على التهمة ويتحدى احكام كتاب الله وسنن رسوله وينشر الباطل ويخمد صوت الحق.

لقد كان وجود الامام الحائل الوحيد بين الطلقاء وابناء الطلقاء وبين نشر سلطانهم الجائر على رقاع العالم الاسلامي. فلما قتل اصبح وصولهم الى ما يبتغون امرا لا مفر منه.

ولو اعطى العالم الاسلامي الفرصة لامام الهدى لكي يثبت دعائم حكمه مدة كافية لاستمرت الخلافة الراشدة جيلا بعد جيل ولعاشت الاجيال المسلمة في ظل حكم عادل نير وسماحة لم تصل الى مثلها الاجيال الانسانية الى اليوم.

كان الامام، دون مرية، اعلم اتباع الرسول بكتاب الله وسنن النبي وانطقهم بالحكمة واقربهم الى الرسول واشبههم به هديا واشدهم لله ولرسوله طاعة واقضاهم واقولهم بالحق واعظمهم جهادا في سبيل الله واحرصهم على اقامة حدود الله وتطبيق شريعته.

ولكن الامة لم تسلس له القياد بالرغم من كل ما تجمع فيه من عظمة. فلم يتمكن من تثبيت دعائم خلافته والوصول الى اهدافه. والناس كانوا وما يزالون ينظرون الى النتائج، بصرف النظر عن الظروف التي ادت الى تلك النتائج. ولذلك كان عدم وصول الامام الى اهدافه مثارا لجدل مستمر حول سياسته. ويرى كثير من الناس ان الامام سار على سياسة مثالية لا يمكن نجاحها في مجتمع بعيد عن المثالية. وانه لو كان اقل مثالية واكثر واقعية لتمكن من الوصول الى حكم

هادىء مستقر.

ان البعض من هؤلاء يلومون الامام في سياسته المالية، اذ أصر على إرجاع المسلمين الى نظام المساواة في العطاء بعد ما الفوا سياسة التفضيل التي سار عليها الخليفتان عمر وعثمان (رض).

ويلومه آخرون في اصراره على عزل معاوية. ويرون انه كان يتمكن ان يكسب ولاء معاوية لو لم يعزله ولو فعل ذلك لما كانت حرب صفين ولما نازعه معاوية في سلطانه.

ويلومه لائمون في انه كان متساهلا مع معارضيه وانه لم يسرع الى الضرب على ايديهم حينما اعلنوا مخالفتهم اياه. ويتهمه هؤلاء بأنه اراد ان يحكم كواعظ لا كحاكم.

ولذلك يجدر بنا ان نبحث هذه النقاط، ثم نذكر ما نراه الاسباب الحقيقية التي ادت الى عدم وصول الامام الى اهدافه.

حول سياسته المالية

الفصل الثامن والعشرون

- ١ -

يرى البعض من باحثي التاريخ ان من اسباب عدم وصول الامام الى استقرار داخلي زمن حكمه سياسته المالية التي حاول فيها ان يجعل الرؤساء والاتباع سواء في العطاء. ولو انه فضل في العطاء رجالاً كانوا فضلوا في زمن عمر وعثمان كطلحة والزبير لكان من المرجح ان لا ينتقض عليه هذان الصاحبان ولكان من المعقول ان لا تحدث حرب البصرة. فقد كان من اسباب تلك المعركة ان الزبير وطلحة لم يوافقا على سياسة الامام في قسمة الاموال بالسوية. هذان الصاحبان وعدد آخر من الاصحاب كانوا قد استمرأوا سياسة التفضيل التي اختطها عمر ورأوا ان سياسة الامام تعني حرمانهم من امتيازاتهم المكتسبة بل خشي طلحة والزبير وسواهم من المفضلين ان يرد الامام الكثير من اموالهم الى بيت المال ان استتب له الامر. فكانت ثورة الصاحبين ضده حماية لثروتهما والاقطاعات التي تلقياها في زمن عمر وعثمان.

ولو ان الامام فضل رؤساء القبائل واغدق عليهم من الهبات كما كان يفعل معاوية لكسب ولاء الكثير منهم ولتمكن بواسطة ذلك من تمكين وحدة اتباعه والتغلب على خصومه.

ويقول هؤلاء الناقدون ان الامام لو فعل ذلك لما كان مخالفاً لتعاليم الاسلام بل كان موافقاً للقرآن والسنة النبوية. فالقرآن ينص على ان الزكاة توزع على اصناف ثمانية منها المؤلفة قلوبهم. وقد اعطى الرسول كلا من ابي سفيان والاقرع بن حابس وعيينة بن حصن الفزاري من غنائم هوازن اضعاف ما اعطاه للمسلمين الصالحين.

وللتحقيق في صواب هذا النقد وخطإه ينبغي ان ننظر في شأن قادة حرب البصرة ثم في شأن رؤساء القبائل المسلمة.

القادة الثلاثة

ان معلومات التاريخ في شأن ام المؤمنين عائشة وطلحة والزبير لا تؤيد بل تنقض ما يقوله هؤلاء الناقدون. فأم المؤمنين اعلنت معارضتها للامام حالما علمت ببيعته وهي في طريقها الى المدينة عائدة من الحج فقد قالت لمخبرها عن بيعة الامام: ليت هذه اطبقت على هذه ان تم الامر لصاحبك. ثم ثنت ركابها عائدة الى

مكة وبدأت مطالبتها بدم عثمان قبل ان تصل اليها. فعلت كل هذا وهي لا تعلم شيئا عن سياسة الامام في تقسيم الاموال.

ومن معلومات التاريخ ان عثمان فضل عائشة وطلحة والزبير في العطاء واغدق على الآخيرين الهبات فالتاريخ يذكر انه اعطى الزبير ستمائة الف درهم واعطى طلحة مائتي الف. ولكن تفضيله لهؤلاء واغداقه عليهم الهبات لم يمنعهم ان يكونوا اول المحرضين عليه والداعين الى قتله. فلماذا يترقب ان يكونوا سلما مع الامام لو فضلهم في العطاء في حين ان ام المؤمنين وطلحة كانا اشد كرها للإمام منهم الى عثمان. وما كان الزبير اقل بعداً منهما عن الامام في اخريات سنيه بعد ان اسلس القياد لولده عبد الله الذي كان يكن للامام شديد البغضاء.

لقد كان كل من طلحة والزبير يرى ان بيعة الامام حالت بينه وبين الوصول الى الخلافة التي كان كل منهما يراها منه قاب قوسين أو ادنى. وكانت ام المؤمنين بالإضافة الى موقفها غير الودي المتأصل تجاه الامام. ترى ان خلافة الامام لو استقرت لكانت سدا مانعاً من عودة الخلافة الى عشيرتها آل تيم، التي كان يرأسها ابوها أول الخلفاء. وقد اعربت اكثر من مرة في زمن عثمان عن املها في ان تعود الخلافة الى تيم في شخص نسيبها طلحة وكانت ترى في الزبير بديلا لطلحة لأنه زوج اختها اسماء ولأنها كانت تنزل ابنه عبد الله منها منزلة الولد.

اجل نقل عن طلحة والزبير انهما انتقدا قسمة الامام المال بالسوية وشكيا من انه ساوى بهما في العطاء من هو دونهما. ولكن انتقادهما للامام في ذلك لم يكن الا دعاية قصدا منها اثارة الطبقة المفضلة ضد الامام. لقد انتقدا قسمته المال بالسوية وهما يعلمان انه فعل ذلك اقتداء بالرسول. وقد اتهماه بدم عثمان وهما يعلمان ببراءته من دمه، وانهما مسؤولان عنه. وكان الدافع الى الانتقاد هو الدافع الى الاتهام. انهما كانا يطمعان بالخلافة. وقد تأجج طمعهما بالخلافة منذ جعلهما عمر عضوين في الشورى. ومن اجل ذلك حرضا على عثمان وسعيا لقتله. ومن اجل ذلك انتقدا الامام واتهماه بدم عثمان ونكثا بيعته وقاتلاه.

ورؤساء القبائل المسلمة

اما رؤساء القبائل المسلمة الذين يرى الناقدون انه كان بوسع الامام ان

يضمن ولاءهم بان يغدق عليهم من الهبات، فما أعتقد انه كان بوسع الامام (دينيا) ان يعاملهم معاملة المؤلفة قلوبهم. لقد كان هؤلاء الرؤساء قد اسلموا قبل خلافة الامام بعشرات السنين ومارسوا تطبيق قوانين الشريعة في حياتهم طيلة خمس وعشرين سنة بعد وفاة الرسول. وقد الغى عمر سهم المؤلفة قلوبهم في الزكاة بعد وفاة الرسول بعشر سنين او أقل.

ومما ينبغي ان يذكر، وان كان لا يؤثر في موضوع البحث، ان من المشكوك فيه ان يكون الرسول اعطى ابا سفيان والاقرع بن حابس وعيينة بن حصن الفزاري ثلاثمائة بعير من سهم المؤلفة في معركة حنين كما يذكر الناقدون. فسهم المؤلفة من الزكاة. والرسول اعطى هؤلاء من غنائم المعركة والغنائم ليس فيها زكاة بل فيها الخمس.

ويظهر ان النبي اعطى الرجال الثلاثة من خمس الغنائم الذي كان يحق له ان يتصرف بنصفه (الذي هو لله وللرسول ولذي القربى من الرسول) كما يراه متناسباً مع المصلحة العامة.

ونحن نرى ان للامام علي مثل ما للرسول من حق في التصرف بنصف الخمس. ولكن الخلفاء الثلاثة قد تجاهلوا هذا الحق طيلة ايامهم، وما أظن ان الامام كان يتمكن ان يمارس هذا الحق دون ان يثير مشكلة يضيفها الى كثير من الصعوبات التي كانت تقف في وجهه.

وحتى لو افترضنا ان للامام ان يعطي ذوي النفوذ من سهم المؤلفة وان يكون بامكانه ان يعطيهم من نصف خمس الغنائم دون صعوبة، فان من الصعب ان يفي سهم المؤلفة ونصف الخمس في ضمان ولاء رؤساء القبائل له. فزمن الامام لا يقاس بزمن الرسول.

ان الذين تألفهم الرسول كانوا قلة لم يبلغ ما ذكر في التاريخ من اسمائهم عدد اصابع اليدين. وكان من الممكن ان يكفي هؤلاء ما هو اقل من ثمن الزكاة أو نصف الخمس. ولم تكن اطماع الناس بالمال بعد قد تأججت. لقد اعطى الرسول ابا سفيان مائة بعير، فكان ذلك عطاء كبيرا بمقياس زمن الرسول. مائة بعير يبلغ ثمنها نحو من الفي دينار، وذلك مبلغ كان يعتبر كبيرا جداً.

اما في زمن خلافة الامام فقد كانت الدولة الاسلامية قد اصبحت واسعة الارجاء والمسلمون اصبحوا يعدون بالملايين. والرؤساء الذين ربما كان الامام يحتاج الى ان يشتري ولاءهم لو فتح على نفسه باب الارضاء بالمال اصبحوا يعدون بالمئات بل الالوف. واعطاء رئيس واحد يثير شهوة رؤساء. وثمن الولاء كان قد ارتفع اضعافاً مضاعفة. واصبحت جائزة الرئيس الواحد تبلغ مائة الف درهم. وفي بعض الاحيان مئات الالوف.

وقد ذكرنا (في الفصل الحادي والعشرين) ان خالد بن اسيد الاموي جاء يرأس وفدا لزيارة عثمان. فامر له الخليفة بثلاثمائة الف درهم وامر لكل عضو من اعضاء الوفد بمائة الف. هذا والخليفة الثالث كان يوم ذاك حاكما تمتد سلطته الى جميع انحاء العالم الاسلامي دون ان ينافسه احد على الحكم او يسابقه في العطاء وشراء الولاء. ولو كان الرؤساء الذين تصل اليهم هذه الهبات يبلغون الفا فقط لبلغ مجموعها مئة مليون.

فلو فتح الامام على نفسه باب الهبات هذا لما وفى بالهبات ثمن الزكاة ولا نصف الخمس، بل ولا الخمس كله وينبغي ان لا ننسى ان غنائم الحرب في زمن خلافة الامام كانت قليلة جداً حيث توقفت حملات الفتوح بسبب الحروب الاهلية التي اشتعلت في سني خلافته.

ولا ينبغي أن ننسى ايضا ان الامام لو فتح على نفسه باب الهبات لكان عليه ان يسابق معاوية الى شراء ولاء الزعماء ويزايده في ضخامة المبالغ. ومعنى ذلك انفاق معظم اموال الدولة على رشوة الرؤساء وحرمان عامة الشعب مما يستحقون من عطاء. وهو امر لا يجيزه الاسلام. وما كان ابن ابي طالب ليرتكب مثله.

- ٢ -

لماذا لم يقدم الاهم على المهم؟

وقد يقول قائل انه كان على الامام ان يفعل ذلك حتى ولو لم يكن لذلك مسوغ شرعي من القرآن أو السنة النبوية بحكم العناوين الأولية. لقد كان عليه ان يفعل ذلك بحكم الاضطرار فللإضطرار احكامه الثانوية. وبتعبير آخر: كان الامام امام واجبين متزاحمين احدهما اهم من الآخر، وما كان له من مندوحة ثالثة يلجأ

اليها. لقد كان عليه اما ان يحافظ على العدالة في قسمة الاموال فيخسر الخلافة ويخسر المسلمون الخلافة الرشيدة الى الأبد، واما ان يحافظ على خلافته ويضحي بالعدالة في قسمة الاموال بضع سنين ريثما يتغلب على خصومه ويستتب له الامر. وبذلك يحفظ للاسلام مستقبله المحمود وللمسلمين الخلافة الراشدة الى امد طويل. هذان الواجبان كانا متزاحمين واحدهما وهو المحافظة على مستقبل الاسلام اهم من الآخر وهو المحافظة على العدالة في القسمة. ولا يجوز تقديم المهم على الاهم بل العكس هو اللازم، فلماذا قدم الامام المهم على الأهم؟

ان من السهل على من لا ينظر بدقة الى احداث التاريخ وعواملها ان ينتقد سياسة الامام دون ان يأخذ بعين الاعتبار ما كانت تمليه عليه ظروفه ومبادئه. ولكن النقد الموضوعي يحتاج الى اكثر من هذه النظرة السطحية. ولكي نتفهم الاحداث التي حفلت بها حقبة خلافة الامام علينا ان نأخذ بعين الاعتبار المبادىء التي كان الامام يعيشها ويعيش من اجلها والتي كانت تحد الكثير من حرية تصرفه وان نأخذ بعين الاعتبار ايضا الظروف الصعبة التي سبقت بيعته ورافقت، في تطور تصاعدي، ايام خلافته. وعلينا بالاضافة الى كل ذلك ان ننظر الى حرية التصرف التي كان يتمتع بها خصمه نتيجة لا مبدئيته التي كان يعيشها والظروف المؤاتية التي كانت تؤكد له طلاقة حريته دون ان تخضع لقانون.

لقد بويع الامام اثر ثورة عارمة اودت بحياة الخليفة الثالث وكان مصدر النقمة الشعبية على الخليفة سياسته المالية غير الحازمة التي جرت على تفضيل الاقارب والانصار واعطائهم الاقطاعات الضخمة ومنحهم مئات الالوف وفي بعض الاحيان الملايين من الدراهم التي كانت تعطى لهم من بيوت مال المسلمين. وكان الثائرون يرمون من وراء ثورتهم الى تصحيح الاوضاع واعادة الحق الى نصابه ومنع اثراء القلة المحظوظة غير المتحرجة في الدين على حساب عامة المسلمين.

هؤلاء الثائرون ومن كان يرى رأيهم من المسلمين هم الذين بايعوا الامام. وكان هؤلاء الناقمون يتفقون مع الامام في نظرته الى العدالة الاسلامية والسياسة المالية. وعلى اساس العمل بكتاب الله وسنة الرسول كانت بيعتهم للامام وما كان الامام ليقبل بيعة على غير هذا الاساس.

هؤلاء كانوا المسلمين الصالحين. وهم الذين كانوا انصار الحق والممثلين للجبهة الاصلاحية في العالم الاسلامي. فلو اراد الامام ان يتحول عن مبدئه وما طبع عليه من حب للعدل ويتبع سياسة الارضاء وشراء الولاء بالمال - وحاشاه ان يفعل ذلك - لما استفاد سياسياً من ذلك. بل لو فعل ذلك لتصدعت جبهته لدى بدء خلافته ولوقف انصاره منه موقفهم من عثمان.

والتاريخ يروي لنا ان مالك الاشتر بالرغم من عظيم ايمانه بالامام واخلاصه غير المضارع قال للامام حينما ولى عبد الله بن العباس على البصرة واخاه عبيد الله على اليمن: «علام قتلنا الشيخ بالامس؟» يريد بذلك ان الثورة التي اودت بعثمان كانت بسبب تفضيله اقاربه. فماذا كان يكون موقف الاشتر وامثاله لو حاول الامام شراء ولاء الرؤساء باموال المسلمين؟

وما كان معظم الذين خالفوه من اصحابه بعد حرب صفين من طلاب المال والمنافع. فالخوارج الذين ناوأوه بعد صفين كانوا ابعد الناس عن طلب المال. بل كانوا مفرطين في ابتعادهم عن المادة، اعداء لسياسة التساهل والمساومة والارضاء، وكان افراطهم هذا هو الذي دفعهم الى جدال الامام وقتاله.

بالطبع كان يوجد بين اتباعه رجال منافقون امثال الاشعث. ولكنه لم يثبت ان نفور هؤلاء من الامام وتآمرهم مع عدوه عليه كان نتيجة حبهم للمال. ولم يثبت ايضا ان الامام كان يتمكن من شرائهم بالهبات. فالواقع ان فريقاً منهم كان يكره الامام ويعمل ضده لا من اجل مال او منصب بل لأن هواه كان مع خصومه. خذ اليك مثلا ابا موسى الاشعري الذي كان الامام قد ولاه على الكوفة، اعظم الامصار الاسلامية والذي كان باستطاعته الاحتفاظ بمنصبه طيلة خلافة الامام لو تعاون معه واطاعه. ولكنه اختار ان يكون مشاقا للامام مخذلا للناس عن نصرته مع علمه بان ذلك مخاطرة منه بمنصبه. لم يكن ذلك من اجل مال أو منصب بل كان ذلك لأن هواه كان مع خصوم الامام.

وما اعتقد ان موقف الاشعث وامثاله من الامام كان غير شبيه بموقف ابي موسى أو ان دوافعه لم تكن مثل دوافعه. وحتى لو كان الاشعث وامثاله من

طلاب المال فما كان باستطاعة الامام كمتمسك بمبدأ أو كسياسي مرن ان يشتري ولاءهم بالمال. ولو فعل ذلك لخسر ولاء عديد من الاصحاب والتابعين المخلصين للاسلام. ولتعجل خصومة المفرطين في تحرجهم امثال القراء الذين اصبحوا بعد ذلك من الخوارج لسبب طفيف لا يقاس بسوء استعمال المال. وما كان للاشعث تأثيره الكبير في الوصول الى نهاية حرب صفين المحزنة لو لم يتفق موقفه من الدعوة الى التحكيم مع موقف القراء (الخوارج فيما بعد) بالرغم من ان موقفه وموقف الخوارج كانا بدافعين مختلفين كل الاختلاف. فتحرج هؤلاء المتشددين بالدين جهلاً واستفظاعهم ان لا تجاب الدعوة الى القرآن هو الذي جعل لموقف الاشعث تلك الانياب الحادة والتأثير الخطير على سير المعركة.

وهكذا فإن نظرة عميقة في الظروف التي سبقت بيعة الامام والأسس التي قامت عليها البيعة والعناصر التي كانت تؤلف مجموعة انصاره تؤكد لنا أن السياسة التي سار عليها في توزيع الاموال العامة لم تكن رشيدة تتفق مع اصول الشريعة الاسلامية فحسب بل كانت حكيمة تمليها الظروف التي احاطت بالامام بمقدار ما كانت تمليها مبادئه التي عاشها وجاهد من اجلها.

ولو فعل الامام ما يقترحه الناقدون - وحاشاه ان يفعل ذلك - لخسر سياسيا وعسكريا ولخسر التاريخ الاسلامي المثال الوحيد للمثالية الرائعة التي تجسدت في شخصية الامام.

هل كانت
معركة صِفين حتمية؟

الفصل التاسع والعشرون

- ١ -

«وانا من رسول الله كالصنو من الصنو والذراع من العضد. والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها... وساجهد في ان اطهر الارض من هذا الشخص المعكوس والجسم المركوس حتى تخرج المدرة من حب الحصيد.» (١)

«والله لو لقيتهم وهم طلاع الارض كلها ما باليت ولا استوحشت. واني من ضلالهم الذي هم فيه والهدى الذي انا عليه لعلى بصيرة من نفسي ويقين من ربي. واني الى لقاء الله وحسن ثوابه لمنتظر راج. ولكني اسى ان يلي امر هذه الامة سفهاؤها وفجارها فيتخذوا مال الله دولا وعباده خولا والصالحين حربا والفاسقين حزبا....» (٢)

الامام علي

لو كان علي بن ابي طالب سياسيا محترما اكبر همه الوصول الى الحكم والاستمتاع بالسلطان، غير عابىء بما سوف يحدث للاجيال المقبلة لهان عليه ان يرضي معاوية بابقائه حاكما على سوريا وان يعده بالخلافة من بعده. وفي ذلك ما كان يغني عليا عن منازلته وقتاله ويكفل له منه الولاء والعون.

ومن المنطق ان يكون المفتونون بالسلطان على استعداد لدفع ما يتطلبه الوصول اليه من ثمن مهما غلا لأن السلطة في نظرهم اغلى من اي ثمن يبذلونه. ولكن امامنا كان من هؤلاء. فالسلطة في نفسها لم تكن في نظره ذات قيمة ولذلك لم يكن مستعدا لبذل ما يراه اثمن منها في سبيل الحصول عليها. وما سبق من مواقفه يعطينا ساطع البرهان على ذلك. وقد شهد التاريخ عليا والخلافة تعرض عليه يوم الشورى فيرفض ان يدفع ثمنها. وما كان ثمنها يوم ذاك الا كلمة واحدة يعد فيها عبد الرحمن بن عوف بأن يسير بسيرة الشيخين، فيما لا نص فيه من قرآن أو سنة نبوية. لقد رفض ان يبذل لنيل الخلافة ذلك الثمن اليسير لأنه كان يرى

---

(١) نهج البلاغة ج ٣ ص ٧٣

(٢) نفس المصدر ص ١٢٠

انه اعلم بالشريعة من هذين الصحابيين البارزين ولأنه كان يرى في سيرتهما، بالرغم من علو مقامهما الديني، اخطاء لا يستسيغ اتباعها. ومن كان يمتنع عن ان يبذل في سبيل الحصول على الخلافة وعداً بالسير على سيرة صحابيين لهما تلك السابقة النيرة في الدين لا يتوقع منه ان يبذل في سبيلها ما يتطلبه معاوية وهو ذو الماضي الديني المظلم.

لم يكن علي سياسيا محترفا همه الوصول الى السلطان بل كان رجل دولة من طراز فريد. ولو لم يوجد علي بن ابي طالب لبقيت المثالية الاسلامية، بعد الرسول ذهنية دون ان تتجسد بكامل نواحيها في بشر سوي.

كان صلاح امته وصلاح اجيالها المقبلة الهدف الذي يرمي الى تحقيقه عن طريق الوصول الى الحكم. ومعنى ذلك ان تحقق الخلافة:

١ - اشاعة العدل بين الناس مسلمين وغير مسلمين والقضاء على الظلم والاثرة والاستغلال.
٢ - سيطرة القوانين الاسلامية في المجتمع والوصول بذلك المجتمع الى حياة تنسجم مع تلك القوانين بحيث يصبح السير على منهاج الرسالة الاسلامية طبيعة للافراد والشعوب.
٣ -تيسير فهم القرآن والسنن لأتباع الرسالة.
٤ - تأمين استمرار الحياة الاسلامية الصحيحة في الاجيال المقبلة.

وبتعبير آخر ان الامام كان يريد ما اراده الرسول يوم حاول ان يكتب لأمته كتابا لن تضل من بعده. واذا كانت ظروف الامة السياسية قد أدت الى الانحراف بها عن مأمون الطريق فها هو الامام الذي كان يمثل في نظر الرسول ضمانة للأمة ضد الضلال قد وصل الى الحكم. وعليه ان يحقق تلك الضمانة. وباستطاعته لو انقادت له الامة ان يفعل ذلك. فهو اعلم الناس بكتاب الله وسنن رسوله وهو احرص الناس على نشر تعاليم الاسلام والعمل بها. وهو بشهادة الرسول واكابر الصحابة احرى المسلمين ان يحملهم على المحجة الواضحة. وهو بعد الرسول اشجع من وطأ الارض بقدم، وانفذ الناس بصيرة واقواهم عزيمة.

وكان الامام يرى ان استبقاء معاوية وامثاله في الحكم يتناقض مع كل ما يهدف الى تحقيقه. فمعاوية بطبيعته انتهازي استغلالي مفتون بالمادة والسلطة. وهو بذكائه وبما وصل اليه من قوة اشد الانتهازيين خطرا. وكان الامام يرى ان استبقاءه في حكم سوريا سيؤدي الى وصوله الى حكم العالم الاسلامي كله. وليس هذا كل الخطر فهناك ما هو اشد من هذا وهو استقرار الحكم الأموي وتداول الأمويين السلطة فيا بينهم.

وقد اوضحت الحقبة الاموية فيا بعد ان الامام كان مصيباً في تفكيره كل الاصابة. فاذا كان هدف الإمام اشاعة العدل بين الناس وسيطرة القوانين الاسلامية في المجتمع وتيسير فهم القرآن والسنن النبوية وتأمين استمرار الحياة الاسلامية.الصحيحة في الأجيال المقبلة فان سلطان معاوية وسائر الأمويين كان يمثل الاثرة والاستغلال والظلم وسفك الدماء البريئة وتجاهل القوانين الاسلامية ونشر التعاليم المضللة والابتعاد بالاجيال المتعاقبة عن الروح الاسلامية. وما مذابح صفين وقتل حجر بن عدي واصحابه الصالحين لأنهم لم يتبرأوا من دين علي ومذبحة كربلاء وسب علي على منابر المسلمين طيلة سبعين سنة الا بعض مظاهر طابع الحكم الاموي وافراطه في الظلم والاثرة والابتعاد عن الشريعة الاسلامية.

— ٢ —

المغيرة وابن عباس يشيران على الامام

يذكر التاريخ ان المغيرة بن شعبة الثقفي جاء الى الامام بعد ان بويع فاشار عليه باستبقاء معاوية ولو موقتا فلم يقبل الامام رأيه. وعاد المغيرة الى الإمام معترفا بأنه اخطأ في رأيه واشار بعزل معاوية. ورآه ابن عباس خارجا من بيت الامام وهو نفسه يهم بالدخول. وحينا لقي ابن عباس الامام سأله عما دار بينه وبين المغيرة من حديث ولما اخبره الامام برأيي المغيرة المتناقضين قال ابن عباس للامام ان المغيرة نصحه في رأيه الأول وغشه في رأيه الثاني. واكد ابن عباس ان الرأي استبقاء معاوية في منصبه موقتا. وانه سيكون من السهل على الإمام بعد ان يبايع معاوية ان يعزله. ولكن الإمام أصر على موقفه لأنه لا يريد ان يداهن في دينه ولن يسمح لمعاوية بالبقاء في منصبه يوما واحدا.

وقد بدا لكثير من المؤرخين من قدماء ومعاصرين ان ما اشار به ابن عباس والمغيرة كان هو الصواب. وانه لو عمل الامام برأيهما لما احتاج الامام الى خوض محرب صفين ولكان بامكانه ان يعزل معاوية فيما بعد ولساد عهد علي الاستقرار بدلا من ان يكون مليئا بالحروب والدماء الغزار.

واری ان الذين يرون هذا الرأي لم يتمكنوا ان يقدروا نفوذ بصيرة علي ومعرفته بمعاوية والخطط الأموي حق التقدير. وفي الوقت نفسه لم يقدروا دهاء معاوية وطموحه وحذره. وابن عباس نفسه وقع في الخطأين.

لقد ادرك الامام بنافذ بصيرته وقوة استنتاجه قبل ان يصل الى الحكم بسنين عديدة ان الأمويين سيصلون الى الحكم وانهم سوف يتداولونه فيما بينهم. وقد تكلم الامام بذلك ايام الشورى وقبل ان يبايع عثمان. فقد قال يومئذ لعمه العباس: «اما اني أعلم انهم سيولون عثمان.... ولئن قتل او مات ليتداولنها بنو أمية بينهم....»[٣]

وقد كان سير الاحداث يوحي لذوي البصائر النافذة بذلك. فقد ولي معاوية في عهد عمر منطقتي الشام والاردن ووصل في زمن عمر الى قوة جعلت الخليفة الثاني يحذر اصحاب الشورى من الاختلاف والتحاسد لئلا يغلبهم معاوية على الخلافة.[٤] واذا كان عمر قد فاه بذلك قبل وفاته فما من شك بان هذه الكلمة وصلت الى مسامع معاوية. وكان وصولها الى مسامعه كفيلا بأن يثير طموحه الى الخلافة كل الاثارة. وان يتطلع الى اليوم الذي يتمكن فيه من انتزاعها من ايدي كبار الصحابة.

كان معاوية يعرف انه لا يتمكن من الوصول الى الخلافة بطريق طبيعي. فالخلافة كانت في نظر المسلمين وقفا على كبار الصحابة الذين بكروا في اعتناق الاسلام واخلصوا له وجاهدوا طويلا في سبيله ايام النبوة حين كان الاسلام

---

(٣) الكامل لابن الزبير ج ٣ ص ٣٣ ونقله عن الطبري ابن ابي الحديد في شرح المنهج ج ١ ص ٦٤
(٤) شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٦٢

ودولته في اول دوري الانتشار والتأسيس. وما كان معاوية من هؤلاء. فقد كان ابو سفيان والد معاوية ومعاوية وجمهور الامويين خلا عثمان وابا حذيفة يشكلون الطليعة في اعداء الرسول ودينه ويشنون عليه حربا بعد اخرى بغية استئصال الاسلام ورسوله. ولم يسلموا الا بعد ان فتح الرسول مكة عنوة وبعد ان اصبح اسلامهم الوسيلة الوحيدة لنجاتهم من الموت.

ولكي ينقل المسلمون الخلافة من قدماء اصحاب الرسول وخيارهم الى اعداء الرسول كان عليهم ان ينحرفوا انحرافا جنونيا في تفكيرهم أو ان يستولي اعداء الرسالة على مقدرات الاسلام بالقوة. وما كان معاوية في نظر المسلمين اقرب الى الخلافة من ابيه ابي سفيان.

على ان الايام لم تبخل على ابن ابي سفيان بالفرص. فقد وصل عثمان الى الخلافة وانعش وصوله اليها آمال الامويين وجعلهم على مقربة من حلمهم. فعثمان (كما ذكرنا في الفصل الحادي والعشرين) كان بحكم شخصيته المزدوجة يمثل جسرا يمكن ان تعبر عليه الخلافة من قدماء الاصحاب الطيبين الى ذوي الماضي المظلم من الأمويين. فعثمان من قدماء الاصحاب وخيريهم وهو في الوقت نفسه اموي يحب بني عمه حبا يتجاوز كل حدود. ومن المعقول ان يقوده حبه لهم الى نقل الخلافة اليهم أو ان يتخذه بنو عمه الوصوليون وسيلة الى وصولهم اليها.

وقد ادرك الداهية ابو سفيان ذلك حالما بويع عثمان. فقد قال في مجلس ضم بني امية. « يا بني امية، تلقفوها تلقف الكرة. فوالذي يحلف به ابو سفيان ما من جنة ولا نار.... » ومن المعقول ان لا يكون الخليفة الجديد حاضرا حينما أنطلقت هذه الكلمات من فم ابي سفيان. أو ان يكون الخليفة قد زجره ولكن الكلمات كانت تعبر عن التفكير السائد بين الامويين وما كانوا يسعون جاهدين للوصول اليه.

لقد مكنت خلافة عثمان معاوية من اضافة قوة مضاعفة الى ما كان لديه من قوة ايام الخليفة الثاني. اذ اتسعت دائرة حكمه فشملت فلسطين وحمص وقنسرين. فأصبح واليا على كل ما يسمونه اليوم بسوريا الكبرى. واذا كانت سلطة معاوية الآخذة بالنمو ايام عمر لا تزال تحت مراقبة عمرية شديدة فان هذه السلطة قد

اتسعت في ايام عثمان وتحررت من كل مراقبة. وقد برز معاوية في ايام عثمان بروزا مخيفا. فاصبح أقوى من الخليفة واصبح الخليفة يلجأ اليه في تأديب المعارضين والناقدين ويسير هؤلاء من الحجاز والعراق الى سوريا ليكونوا تحت اشراف رجل الدولة القوي.

ولم يكن معاوية بالذي يتهاون بالفرص بل كان يهتبلها ويبلغ منها اقصى ما تعطيه من الفوائد. لقد بدأ باحكام امره وتثبيت قدميه منذ العهد العمري ومضى يجتذب رؤساء القبائل بعطاياه السخية ويجند من يستطيع تجنيده عسكريا ونفسيا حتى اصبح في اواخر ايام عثمان يملك اكبر قوة ضاربة في العالم الاسلامي. مأة الف ومعهم ابناؤهم وعبدانهم كانوا يقبضون اعطياتهم السنوية باستمرار من بيت مال المسلمين في سوريا.

كان معاوية يرى في عثمان وسيلته الى الخلافة. انه ابن عمه وحبيبه ومن المعقول جدا ان يعهد اليه من بعده ان ساد السلام عهد عثمان. وحينما تأزمت الامور واصبح الجو السياسي ينذر بشر مستطير. وبدت الكارثة تقترب من الخليفة، اراد معاوية ان يتخذ من مصاعب الخليفة وسيلة تسرع به الى مبتغاه.

لقد حاول ان يدفع الخليفة الى سلوك طريق يقوده الى استخلاف معاوية. وحينما رفض الخليفة ان يستجيب لمعاوية رفض معاوية ان يدفع الكارثة عنه، بل تعجلها ليتخذ من مطالبته بدم الخليفة وسيلة الى الوصول الى الخلافة.

دعا معاوية عثمان، حينما اصبح الخطر يتهدده، الى الانتقال الى الشام بحجة المحافظة على سلامته.

وكان غرض معاوية من محاولة نقل الخليفة الى الشام ان يضع الخليفة تحت حمايته ويكون لعثمان من الخلافة اسمها ولمعاوية حقيقتها وان ينتهي الامر بان يعهد عثمان الى معاوية.

ولكن الخليفة لم يستجب الى نداء معاوية. وكان من الممكن لمعاوية ان يمنع حلول الكارثة بالخليفة بأن يضع على مقربة من المدينة جيشا قادرا على الدفاع عن الخليفة لدى طلبه.

ولكنه لم يفعل ذلك بالرغم من استنجاد الخليفة به. ويقال انه ارسل جيشا وامر قائده ان يبقي الجند خارج المدينة وان لا يتحرك حتى يأتيه الامر من معاوية بدلا من عثمان. لقد اختار ان يسلم عثمان الى شفار الثورة ليطالب هو بدمه ويعلن للناس انه انما ينهض ثأرا لقتل الخليفة المظلوم. وفي ذلك ما يثير الجماهير ويخرجها عن طريقة تفكيرها الطبيعية وينحرف بها الانحراف الجنوني المطلوب ليتم له ما يبتغي. وكان له ما اراد.

انذارات نبوية لها دلالتها

وما كانت الفرص المؤاتية والاستعداد المتواصل بالأمر الوحيد الذي كان يؤكد لمعاوية اقترابه من امنيته. فقد وصل الى مسامع معاوية عديد من التنبؤات التي دعمت تفكيره واججت طموحه وجعلت امله في الوصول الى الخلافة قويا نابضا بالحياة.

روى ابن الاثير انه بينما كان عثمان عائدا من الحج ومعه معاوية، ممتطياً بغلة شهباء رجز به الحادي قائلا:

قـــد علمـــت ضوامر المطي وضمرات عوج القسي
ان الامـــير بعـــده عـــلي وفي الزبـــير خلـــف رضي.

فقال كعب الاحبار للحادي كذبت. بل يلي بعده صاحب البغلة الشهباء. فطمع بها معاوية من يومئذ.[٦] والواقع ان طمعه، لم يبدأ منذ ذلك اليوم فقد سمع معاوية ما يشبه ذلك ممن هو اصدق من كعب الاحبار، وما اعتقد ان كعب الاحبار وجد ملك معاوية في كتب اليهود كما كان يتظاهر بل تبين ذلك في روايات نقلها الأصحاب عن الرسول وكان فيهم من شهد له الرسول بصدق الحديث. فقد روى ابو عثمان الجاحظ في كتاب السفيانية عن جلام بن جندل الغفاري انه شهد حوارا بين معاوية وابي ذر (بعدما نفى عثمان ابا ذر الى الشام) جاء فيه ما يلي:

« .... قال معاوية لأبي ذر: يا عدو الله وعدو رسوله تأتينا في كل يوم

(٦) الكامل ج ٣ ص ٧٦

فتصنع ما تصنع. اما اني لو كنت قاتلا رجلا من اصحاب محمد من غير اذن أمير المؤمنين عثمان لقتلتك.

.... فاقبل (ابو ذر) على معاوية وقال: ما انا بعدو لله ولا لرسوله، بل انت وابوك عدوان لله ولرسوله. اظهرتما الاسلام وابطنتما الكفر. وقد لعنك رسول الله (ص) ودعا عليك ان لا تشبع. سمعت رسول الله يقول: **اذا ولي الامة الأعين الواسع البلعوم الذي يأكل ولا يشبع فلتأخذ الأمة حذرها منه.** فقال معاوية: ما انا ذاك الرجل، قال أبو ذر: بل انت ذلك الرجل. اخبرني بذلك رسول الله. وسمعته يقول وقد مررت به: اللهم العنه ولا تشبعه الا بالتراب...» [(٧)]

وروى ابو ذر في حضرة عثمان ان رسول الله قال: «اذا بلغ بنو ابي العاص (آل مروان من الأمويين) ثلاثين رجلا جعلوا مال الله دولا وعباده خَولا ودينه دخلاً.» [(٨)]

وقال عمر يوما للمغيرة بن شعبة (وكان هذا اعورا): « .... اما والله ليعورن بنو اميه الاسلام كما اعورت عينك، ثم ليعمينه حتى لا يدري اين يذهب ولا اين يجيء.» وروى عمر (رض) انه سمع رسول الله يقول: «ليصعدن بنو امية على منبري. ولقد أريتهم في منامي ينزون عليه نزو القردة. وفيهم انزل: وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِيْ اَرَيْنَاكَ الاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُوْنَةَ فِيْ الْقُرآن.» [(٩)]

وقد ذكر فخر الدين الرازي في تفسير قوله تعالى: «وما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِيْ اَرَيْنَاكَ اِلاَّ فِتْنَةً لِلناس والشَّجرة المَلْعُونَةِ في القرآن...» ان سعيد بن المسيب قال: رأى رسول الله بني امية ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك. وقال الرازي ان هذا قول ابن عباس في رواية عطاء. وروي ايضا عن ابن عباس انه قال الشجرة الملعونة بنو امية يعني (بني) الحكم بن ابي العاص. قال (ابن عباس) ورأى رسول الله في المنام ان ولد مروان يتداولون منبره فقص رؤياه علي ابي بكر وعمر

---

(٧) شرح المنهج ج ٢ ص ٣٧٦
(٨) نفس المصدر ص ٣٧٧
(٩) المصدر نفسه ج ٣ ص ١١٥

وقد خلا في بيته معهما. فلما تفرقوا سمع رسول الله الحكم يخبر برؤيا رسول الله فاشتد ذلك عليه واتهم عمر في افشاء سره ثم ظهر ان الحكم كان يستمع اليهم فنفاه رسول الله...» [١٠]

ويؤيد ذلك ما رواه الحاكم عن الامام الحسين بن علي انه قال لرجل من أصحابه: لا تؤنبني رحمك الله. فإن رسول الله (ص) قد رأى بني اميه يخطبون على منبره رجلا رجلا فساءه ذلك فنزل قوله تعالى: ﴿انا أَنْزَلْنَاهُ فِيْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ. وَمَا اَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، ليلة القدر خير من الف شهر. ﴾ تملكها بنو امية. فحسبنا ذلك فاذا هو لا يزيد ولا ينقص. [١١]

ومن كل ذلك نفهم معنى قول الامام لعمه العباس يوم الشورى اما اني اعلم انهم سيولونها عثمان... ولئن مات او قتل ليتداولنها بنو أمية بينهم....» فما من شك بان الامام سمع من الرسول في شأن عثمان وبقية بني امية، وبصورة خاصة معاوية، اكثر مما سمعه عمر وابو ذر وسواهما.

وقد قال بعد معركة البصرة وقد أتي اليه بمروان بن الحكم ليبايعه: «ما اصنع ببيعته؟ الم يبايعني في المدينة؟ لو بايعني بيده لغدر بسبته.» ولما ولى مروان قال الامام: «اما ان له امرة كلعقة الكلب انفه. وهو ابو الاكبش الاربعة. وستلقى الامة منه ومن ولده يوما احمر.» [١٢]

واذا كان معاوية يعد نفسه ذلك الاعداد طيلة ثمانية عشر سنة ويبلغ من كل فرصة اتيحت له منتهى فوائدها. وقد سمع ما سمع من كلمات عمر في امره وما نقل له عن الرسول من نبوءات في امر بني اميه وامره فمن السذاجة ان يظن ابن عباس وسواه بان ابقاء معاوية موقتا في ولايته سيتيح الفرصة للامام بان يعزله بسهولة ودون حرب دامية.

---

(١٠) تفسير القران للامام الرازي ج ٥ ص ٤١٣ - ٤١٤

(١١) المستدرك ج ٣ ص ١٧١

(١٢) نهج البلاغة ج ١ ص ١٢٤

وما كان علي ليحاول ان يخدع معاوية. ولو اراد ان يخدعه لما استطاع لأن معاوية كان اذكى من ان يخدع عن مقصده ولو عمل الامام برأي ابن عباس والمغيرة مع كل ما يعلمه من امر معاوية لخدع الامام نفسه. ولذلك أرى ان هذين المشيرين بالرغم من كل ما بلغاه من الذكاء والدهاء لم يقدرا علم الامام وحكمته ونفوذ بصيرته ودهاء معاوية وتصميمه حق التقدير. وقد وقع المؤرخون الذين رأوا رأيهما في الخطأ نفسه.

بلى كان بامكان الامام ان يكسب سلما مع معاوية باستبقائه في ولايته مدة حياته والاتفاق معه على ان يكون ولي عهده والخليفة من بعده. ولكن الامام لو فعل ذلك لكان فعله كسبا شخصيا على حساب كل ما يؤمن به من مبادىء. فقد كان عليا كل العلم ان معاوية ليس ممن يؤتمن على دين الله والامة الاسلامية. وقد قال الامام: «لقد قلبت هذا الامر ظهراً لبطن فلم اجد الا القتال أو الكفر بما أنزل على محمد (ص).»

- ٣ -

هل كان الحكم الاموي قضاء لا مرد له؟

وقد يقول قائل: اذا كان النبي قد اخبر أمته بأن بني امية سيملكون فلماذا قاتل علي معاوية مع علمه بأن معاوية سوف ينتصر؟ وما الفائدة من اهراق الدماء اذا كانت النتيجة التي كان الإمام يريد ان يتجنبها هي التي كان يعلم ان من المقدر ان يصل اليها؟

ولكن الواقع ان النبي لم يخبر عليا ولا بقية الاصحاب ان حكم بني امية قضاء محتوم من السماء لا دخل لإرادة الانسان فيه. بل العكس هو الصحيح. فما اراده الرسول هو ان يخبر امته بان تهاونها في المحافظة على الاسلام هو الذي سيقودها الى تسلط بني امية عليها. وكان ذلك انذارا من الرسول للامة لتتخذ الاحتياطات الواقية التي تمنع من حدوث ذلك. وقد وصف الرسول للامة العلاج الواقي من هذا الخطر وجميع اخطار الضلال. وكان العلاج الذي وصفه الرسول هو الاستمساك

بالقرآن وعترة الرسول. وقال للامة ان ذلك يمثل للامة ضمانة من الضلال. ولو عملت الامة بذلك لما وصل الامويون الى الحكم ولأمنت الامة كل فتنة.

ولكن المؤسف ان الأمة لم تصغ الى تحذير الرسول ولم تأخذ بالعلاج الذي وصفه، بل أعرضت عن الجزء الثاني من العلاج اعراضا تاما. والواقع ان الأمة اخذت بالطريق المضاد الذي يقودها الى ما حذر منه الرسول.

ان الإمام هو الشخص الوحيد الذي اراد دفع خطر الامويين عن الأمة. ولو صنع عمر (رض) أقل القليل في هذا المجال لدفع الخطر عنها. فاذا كان علي احتاج الى خوض حرب ضروس ضد معاوية ليدرأ خطره فما كان الخليفة الثاني بحاجة الى اكثر من عدم تولية معاوية أو عزله عندما رأى نمو قوته أو استخلاف علي بدلا من عثمان الذي ادت عملية الشورى الى استخلافه واطلاق يد الامويين في امور المسلمين.

وحتى بعد حدوث كل هذا كان من الممكن التخلص من معاوية واخضاعه وعزله لو لم تقم ام المؤمنين عائشة ومعها الصاحبان الجليلان طلحة والزبير باشعال نار الثورة على علي امام الهدى. فلو أن هؤلاء القادة الثلاثة تعاونوا مع الامام وحرضوا المسلمين على نصره بدلا من الثورة عليه لنزل معاوية على حكم الامام صاغرا ولتبدل وجه التاريخ ولاستقر حكم الامام وجنب المسلمون جميع الحروب الاهلية التي اشتعلت في القرنين الهجريين الأولين ولكن قادة الامة ساروا في الطريق المعاكسة واوصلوا الامة الى ما حذرها الرسول منه.

وما من شك بان معركة البصرة جعلت الوصول الى حل سلمي مع معاوية ممتنع المنال على الامام وجعلت الحرب معه حتمية الا ان يتنكر الامام لكل مبادئه. فمعركة البصرة اوضحت لمعاوية بجلاء انه لم يكن الوحيد في معارضة الامام وان من الناس خارج سوريا من يشاطرونه رأيه ويستحلون قتال علي، ولا يتحرجون من سفك الدماء في سبيل معارضته. والمعركة نفسها اوجدت لعلي اعداء ارغمهم انتصاره على السكوت موقتا. وكانوا على استعداد للانضمام الى اعدائه حالما تسنح لهم الفرصة. وقد اتيحت لهم الفرصة بعد ذلك فأسرعوا اليها.

واود ان اضيف بانه بالرغم من حتمية المعركة بين الامام ومعاوية فقد كان بالامكان ان تكون المعركة باهرة النتائج لصالح الامة لو أصغى اهل العراق الى الامام وتابعوه الى آخر الطريق. ولو فعلواْ ذلك لما تحتم على الامة ان تخضع لسلطان الامويين ولجنبوا الاجيال التي بعدهم شرورا مستطيرة. ولذلك فان سلطان الامويين بالرغم من من اخبار النبي به لم يكن قضاء محتوما من السماء بل كان نتيجة لعدم اخذ العلاج الواقي الذي وصفه الرسول للامة واهماله اولاً وآخرا.

واضيف الى هذا ان واجب الامام كان يقضي عليه بالسير في طريقه التي اختارها ولو كان سلطان الامويين قدرا مقدورا. فشأن الامام شأن سائر الانبياء الذين جاهدوا في سبيل الله وقتلوا ولم يصلوا الى ما ارادوا من اعلاء كلمة الله. وما نتصور أن الرسول الاعظم كان ليقف عن الجهاد في سبيل الله لو علم انه سوف لا ينتصر في معاركه ضد خصوم دينه. بل نؤمن بانه كان يخوض معركة الحق الى نهايتها. وهذا هو ما اعلنه لعمه ابي طالب وهو في مكة: « يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على ان اترك هذا الامر ما تركته حتى يظهر الله أو اهلك فيه.»

فخوض الامام للمعركة ضد الخطر الاموي كان واجبا مهمّاً القي على عاتقه بعد ما وجد لرسالته انصارا مستعدين للتضحية. ولو لم يفعل ذلك لكان متساهلا في اداء الامانة التي اوكلت اليه تجاه دينه وامته ومستقبل اجيالها، **ولكان شريكا للامويين في ظلمهم** وضلالهم وآثامهم.

هل مارس الامام الحكم كحاكم؟

الفصل الثلاثون

يرى البعض من دارسي التاريخ الاسلامي ان من اسباب عدم وصول الامام الى اهدافه في خلافته انه لم يمارس الحكم كحاكم، بل مارسه كواعظ. فهو لم يشتد على مخالفيه بل سمح لهم بمخالفته وتساهل معهم حتى أمنوا بطشه واجترأوا على عصيانه.

لقد ابى عبد الله بن عمر وسعد بن ابي وقاص وآخرون من الاصحاب في المدينة ان يبايعوه فلم يجبرهم على بيعته كما فعل الخلفاء من قبله اذ لم يسمحوا لاي صحابي ان يمتنع عن البيعة. فقد اجبر الزبير على بيعة ابي بكر وشدد ابو بكر ووزيره عمر الضغط على علي نفسه ليبايع.

وحينما غادر الزبير وطلحة المدينة الى مكة متظاهرين بالعمرة عرف الامام انهما ذاهبان لاعلان الثورة عليه فلم يمنعهما من الذهاب. وكان من الحكمة ان يفعل ذلك. بل كان من الحكمة ان يلقيهما في السجن الى ان تنجلي الامور. ولو فعل ذلك لجنب نفسه والمسلمين كثيرا من العناء والتضحيات.

وحينما رفعت المصاحف كان من الحكمة ان يتابع القتال وان عارض في ذلك فريق من معسكره. ولو فعل ما أشار به الاشتر من متابعة القتال لأنزل بمعاوية ما كان ينتظره من هزيمة، وازال خطره ولتمكن بعد ذلك من اقناع معارضيه بصحة موقفه وجمعهم على ولائه.

وحينما عاد الى الكوفة بجيشه كان عليه ان يعاقب الأشعث بعدما رأى كل ما يدل على غشه وتعاونه مع عدوه. ولكنه لم يفعل ذلك وخضع لضغطه مرة بعد اخرى في تأجيل الرجوع الى المعركة قبل معركة الخوارج وبعدها. بل كان من الحكمة ان يبقي الاشعث بعيدا عن المعركة منذ البدء فقد كان الاشعث من عمال عثمان في فارس يوم بويع الامام فلما هم الامام بالنهوض الى الشام عزل الاشعث عن ولايته ويقال انه طالبه بشيء من مال المسلمين ثم استصحبه بعد أن استصلحه. ولو ان الاشعث بقي في ولايته لما كان للدعاة الى قبول التحكيم تلك القوة التي كان حضور الاشعث اكبر مصادرها.

ولكن من السخافة ان يقال ان الامام لم يمارس الحكم كحاكم. بل مارسه

كواعظ، وانه لم يحاول جدياً الاحتفاظ بالسلطة بعد أن وصل اليها. ان من السخف ان يقال ذلك بعد أن خاض الامام مع خصومه ثلاث معارك طاحنة انزل في واحدة منها هزيمة ساحقة بخصومه في البصرة وقضى على اهل النهروان في اخرى واصلى في ثالثة معاوية وجنده اعظم معركة شهدها التاريخ الاسلامي الى ذلك اليوم. ومن عامل خصومه بمثل هذه الشدة لا يجوز ان يقال فيه انه مارس الحكم كواعظ.

لماذا لم يجبر اصحاباً على بيعته؟

أما انه لم يجبر ابن عمر وسعداً وعددا آخر من الاصحاب على بيعته بل سمح لهم باتخاذ موقف محايد فهذا ما تقتضيه العدالة. ومتى كان يجوز لأي حكومة منتخبة ان تجبر الافراد على انتخابها؟ وكيف يكون الانتخاب حرا اذا كان المنتخب مجبرا؟ والاسلام يرى انه لا بيعة لمستكره. والبيعة التي تأتي نتيجة لاجبار لا تعتبر بيعة. وان من الحقوق الطبيعية التي اقرها الاسلام واقرتها المبادىء الديمقراطية ان لكل انسان حريته السياسية التي من اظهرها حرية الانتخاب. وهذا ما تمارسه ارقى حكومات العالم في هذا العصر.

واذا كان ابو بكر وعمر قد اجبرا الزبير وسواه على البيعة فان عليا كان لا يرى رأيهما بل كان يعتبر ذلك مناقضا لمبدأ العدالة. فللافراد وللاقلية ان تخالف الاكثرية وليس للاكثرية ان تضغط على الاقلية الا اذا كانت هذه تحاول منع الأكثرية من ممارسة الحكم فان ذلك يعتبر بمثابة ثورة يجوز للحكومة الشرعية، بل يجب عليها. ان تخضعها. ولم يكن موقف سعد وابن عمر واشباههما يشكل خطرا على الامام في ممارسة حكمه.

لماذا لم يمنع طلحة والزبير من الذهاب الى مكة؟

اما عدم منعه الزبير وطلحة من الذهاب الى العمرة، مع علمه بانهما يريدان الغدرة أو الثورة فلم يكن غير مصيب. وما اعتقد انه كان في مصلحة الامام ان يقال للمسلمين ان امام المسلمين منع صحابيين معروفين من القيام بإداء العمرة أو انه القاهما في السجن من اجل ذلك. وما اعتقد ان ام المؤمنين كانت غير مستعدة لاعلان ذلك للعالم الاسلامي لو فعل الامام ذلك. بل كانت تتخذ منه حجة

نسيفها الى المطالبة بدم عثمان.

اضف الى ذلك ان الثورة ضد الامام ما كانت لتعدم محركاً ولو لم يشترك فيها طلحة والزبير. فقد كانت ام المؤمنين على استعداد للقيام بتلك الثورة مع صاحبين وبدونهما. وقد بدأت مشروعها حالما علمت بخبر بيعة الامام ودون ان تلم بموقف الصاحبين منه. وقد كان لديها المال والرجال للقيام به. فالامويون اتباعهم كانوا في ركابها ورهن اشارتها.

لماذا لم يتابع القتال في صفين؟

اما تخطئة الامام في عدم متابعة القتال بعد رفع المصاحف فما اجد لها مبررا. قد كان يمكن تبريرها لو بقيت اكثرية جيشه سليمة الموقف تدين له بالطاعة أو ان هو من الذين خدعوا برفع المصاحف. ولكن الامام هو الذي قال لدعاة وقف القتال: امضوا على حقكم وصدقكم وقتال عدوكم. واعلن لهم ان رفع المصاحف خديعة ومكيدة يريد معاوية واعوانه منها ان يجنبوا أنفسهم ما كان ينتظرهم من هزيمة ساحقة وانه عرفهم اطفالا ورجالاً فكانوا شر اطفال وشر رجال. وانهم ليسوا أهل دين ولا قرآن.

لقد قال لهم كل ذلك ولكن القوم فتنوا وشبه عليهم الامر وتمردوا عليه وهددوه بان يفعلوا به ما فعل بعثمان أو أن يسلموه برمته الى معاوية. وحينما فعلوا ذلك لم يرتفع من الجماهير المحيطة به صوت واحد ضدهم. فاضطر الى سحب الاشتر وفرقته من المعركة.

ولو أراد الامام الاستمرار في القتال لبدأت المعركة بين اصحابه بدلا من ان تكون بينهم وبين اعدائه. وقد كادت المعركة تبدأ فعلا بين الاشتر ودعاة وقف القتال فقد سبهم وسبوه وضربوا بسياطهم وجه دابته وضرب بسوطه وجوه دوابهم. ولكن الامام اوقف شجارهم.

وليس من شك في ان المعركة لو دارت رحاها بين اصحاب الامام لانتهت الى كارثة معجلة يهلك فيها الالوف منهم ويتأجج في اعقابها العداء بين من يبقى منهم الى درجة لا يبقى فيها مجال لاجتماعهم على حرب عدو.

بل لو اصر الامام على الاستمرار بالقتال ورفض ان يسحب الاشتر وفرقته من المعركة فإن كل الدلائل تدل على ان الذين احاطوا بالامام يوم ذاك كانوا جادين في تهديدهم اياه بالقتل أو بتسليمه الى معاوية. وكان من الممكن ان يحدث ذلك دون ان يعلم الاشتر ومن معه من انصار الاستمرار. ولو قتل الامام آن ذاك او في معركة تبدأ بعد ذلك بين الفريقين من اصحابه لكانت الكارثة اعظم من كل ما نتصوره.

ولماذا لم يعاقب الاشعث؟

ولا اجد مبرراً منطقيا لتخطئه الامام من اجل انه استصحب الاشعث معه الى صفين أو لأنه لم يعاقبه حينما بان له غشه وتآمره عليه مع عدوه. ان الامام بشر لا يعلم المستقبل فهو لا يتمكن ان يعرف ان الاشعث سوف يتآمر عليه اذا كان في جيشه. وما كان استبعاده للاشعث وابقاؤه بعيدا عن المعركة ليمنع حدوث الفتنة عند رفع المصاحف. فالخوارج الذين كانوا في بادىء الامر اشد الناس اصرارا على وقف القتال وقبول التحكيم لم يكونوا من اتباع الاشعث. وقد شاركهم الوف في رأيهم معتقدين ان رفض الاجابة الى دعوة التحكيم اثم كبير. وما كان الاشعث بالمنافق الوحيد بين اتباع الامام.

أما عدم عقاب الامام للاشعث بعد ما بان غشه وتآمره فهو يعود الى سببين:

(١) ان الاشعث كان منافقا ذكيا تمكن ان يستر نفاقه وان لا يبدي ما يشكل بينة على تآمره وقد كان في زمن الرسول عديد من المنافقين الذين اظهروا الاسلام وصلوا وصاموا وسمعوا من الرسول (في سورتي الاحزاب وبراءه اعظم البينات على ذلك) وقد عرف الرسول منهم عددا ولم يعرفهم جميعاً.

ولم ينزل النبي عقابا بمن عرف منهم لأنه لم يجد بينة تدينهم أو لأنه رجا ان يصلحوا ويحسن اسلامهم.
أو لأنه لو عاقبهم لحدث شقاق بين اتباعه فآثر تركهم محافظة على الوحدة بين اصحابه.

وما كان الاشعث بالمنافق الوحيد في معسكر الامام.ولعل مئات والوفا من

المنافقين كانوا يتظاهرون بولائهم للامام ويبطنون العداء له. وفي زياد بن ابيه و شبث بن ربعي والمئات من الذين حاربوا مع الامام ثم اشتركوا بعد ذلك في قتال ولده الحسين ادلة مادية على ذلك.

(٢) ان سلطة الامام بعد معركة صفين كانت قد تقلصت الى حد كبير فقد كان تمرد الاكثرية عليه بعد رفع المصاحف انقلابا عسكريا ابقى له من السلطة اسمها. ولو اراد الامام ان يعاقب الاشعث من اجل معارضته في استمرار القتال بعد رفع المصاحف لعارضه في ذلك شطر كبير من اهل الكوفة الذين رأوا لسبب أو لآخر ما رآه الاشعث ووقفوا مثل موقفه، ولأغضب الامام بذلك كندة والوفها التي كانت ترى في الاشعث زعيماً لها. بل كان عقاب الاشعث (اليماني) يؤدي الى اغضاب جمهور اليمانيين الذين كانوا اكثرية اهل الكوفة. وما كان الامام بحاجة الى مزيد من الاعداء والمصاعب.

- ٢ -

لماذا التزم الامام بوثيقة اكره عليها؟

وهنالك سؤالان آخران يتطلبان جوابا.

(١) ان كل الدلائل تثبت ان الامام لم يقدم على ايقاف القتال وتوقيع وثيقة التحكيم مختارا، بل كان مكرها على كل ذلك. ومن المعلوم في دين الاسلام ان عمل المكره لاغ لا أثر له. فطلاق المكره لا يعتبر طلاقاً، وبيعة المكره لا تعتبر بيعة. وكذلك الحكم في سائر العقود ومنها ميثاق التحكيم. ومعنى ذلك ان وثيقة التحكيم لم تكن ملزمة للامام وكان له ان ينقضها بل كان عليه ان ينقضها اذا رأى ان نقضها يعود على الحق بفائدة. واذا كان الخوارج قد ندموا على ما فعلوا ورأوا الرجوع الى القتال فقد كان عليه ان يعود الى القتال وان لا ينتظر حكم الحكمين.

وللاجابة على هذا السؤال نقول ان العقد الذي يوقعه مكره يكون لاغيا اذا وقعه بصفة شخصية. اما اذا كان الموقع المكره رئيس دولة يمضي عقدا بالنيابة عمن يمثلهم. فان العقد لا يكون لاغياً الا اذا كان الممثَّلون مكرهين على قبول العقد. اما اذا كانوا هم المطالبين بالموافقة على العقد. فان العقد يكون ملزما بعد

ابرامه ولا يجوز نقضه، ولو تراجع عنه بعد ابرامه فريق من الممثّلين. ومن المعلوم ان الاكثرية في معسكر الامام ومنهم الخوارج لم يستكرهوا على وقف القتال وقبول التحكيم بل كانوا هم الدعاة الى كليهما. وتراجع الخوارج عن الاتفاق بعد ابرامه لا يريح الامام من مسؤولية الالتزام به.

على ان انتقاض الخوارج على محتويات الميثاق لا يحتم ان يصبح نقض الميثاق في مصلحة الامام. فالاكثرية من الذين دعوا إلى عقده استمروا على موقفهم يرون ان الالتزام به واجب وان عليهم ان ينتظروا نتيجة التحكيم. فلو اراد الامام نقض الميثاق وحاشاه ان يفعل ذلك، لوجد من انصار الميثاق معارضة دونها في العنف معارضة الخوارج ولأصبح موقفه اشد حرجاً مما كان قبل توقيع الميثاق. وما كان تراجع الامام عن ميثاق وقعه إلا ليزيد المسلمين في جميع انحاء العالم الاسلامي يوم ذاك بلبلة وهرجاً. وما كان الا ليغطي معاوية حجة على الامام لا تدفع. بل كان للتاريخ الذي يحكم اليوم بشكل قاطع للامام علي على معاوية ان يتردد أو يضل في حكمه لو فعل الامام ذلك.

لماذا اطال الامام مدة التحكيم؟

(٢) اما السؤال الآخر الذي يلح علينا بالاجابة فهو:

اننا نسلم ان الامام كان مضطرا الى قبول الدعوة الى وقف القتال والتحكيم وقبول ابي موسى وابن العاص حكمين. ولكن ما الذي حمل الامام على مدّ هدنة التحكيم عدة شهور؟ لقد كان من الممكن ان يجتمع الحكمان وان يصدرا حكمهما خلال اسبوع أو شهر واحد. وكان بامكان الامام ان يبقى وجيشه في صفين ريثما يصدر الحكمان حكمهما ولو فعل الامام ذلك لمنع تطور الخلاف واتساع الشقة بينه وبين الخوارج الذين ندموا على ايقافهم القتال. اذ كان بامكانه لو قصَّر مدة الهدنة ان يعود، ويعود الخوارج معه، الى القتال فور اصدار الحكمين حكمهما. وقد كان هو على ما يشبه اليقين بان حكمهما لن يكون في مصلحته، فقد كان كل منهما عدوا مشاقا له.

لقد سأل الخوارج الامام عن سبب اطالته امد الهدنة فأجاب قائلاً: ليعلم الجاهل ويثبت العالم ولعل الله يصلح امر هذه الامة (فلا يحتاج الى عودة الى القتال).

اجل كان من الممكن ان يصلح امر الامة فلا تعود الى القتال لو كان يرجى من الحكمين ان يحييا ما احياه القرآن وان يميتا ما اماته وكان معاوية من الذين يذعنون لحكم القرآن: ولكن معاوية قاتل الامام وهو يعرف ان قتاله اياه قتال للقرآن ولمن انزل عليه القرآن. واحد الحكمين كان شبيهاً له في عدائه للامام وشريكاً له في عمله. والآخر كان من ابعد الناس عن الامام. وما كان يرجى منهما ان يقولا حقاً.

أما ان طول الهدنة قد يساعد على تثبيت العالم وتعريف الجاهل فقد يبدو صحيحاً اذ يعطي الناس مجالا اطول للتفكير دون ان يكونوا تحت ضغط الاحداث وتأثير العاطفة. ولكن طول الهدنة ايضا يطيل الجدل بين الناس ويساعد على تصعيد الخلاف بين المتجادلين من معسكر الامام ويريح العدو مدة اطول ويمكن له من تعبئة جديدة لمعركة جديدة.

والجواب على ذلك ان السؤال يبدو وكأنه يفترض ان الامام كان حين توقيعه ميثاق الهدنة على علم بأن الخوارج سيندمون فورا على ايقافهم القتال وانهم سيغيرون موقفهم ويدعون الى العودة الى قتال معاوية بعد ان تكتب وثيقة التحكيم بقليل. ولو كان الامر كذلك لم يحتج الامام الى قبول التحكيم ولما حدث التحكيم. ولكن الامر لم يكن كذلك. فالخوارج كانوا اشد الدعاة الى وقف القتال وقبول التحكيم واستمروا كذلك الى ان وقعت وثيقته. وهم وسواهم من المتحرجين الجهلة كانوا القوة التي فرضت على الامام ايقاف القتال. ولم يغيروا موقفهم الا بعد ان وقعت الوثيقة من الجانبين واصبحت معاهدة مبرمة.

وما كان من المتوقع ان يغير هؤلاء موقفهم بتلك السرعة العجيبة وينتقلون خلال ثلاثة ايام من اقصى الشمال الى اقصى اليمين، فيرون في اليومين الاولين ان الاستمرار في القتال وعدم قبول التحكيم كفر ثم ينقلبون في اليوم الثالث فيرون ان ترك القتال وقبول التحكيم كفر.

لقد استجاب الامام الى موقفهم الاول الذي بدا انه موقف جمهور معسكره. فوقع الوثيقة. وكان على حق في ان يعطي هؤلاء وبقية الامة مهلة تستمر بضعة شهور ليتبين لهم الامر بجلاء بعد ان خدعوا وشبه عليهم.

وكان المنطق يقضي بأن يستبين طريق الرشاد للخوارج ولسواهم خلال شهور الهدنة وبصورة خاصة عندما اصدر الحكمان حكمهما الظالم المتناقض. ولكن الخوارج لم يكونوا منطقيين أولا وآخرا. وما كان لأي عقل بشري ان يتنبأ بتحولهم المتطرف العجيب. وما كان الامام ملوما في ان لا يكتشف غيب مستقبلهم وان لا يقرأ سلفاً قفزات تفكيرهم المدهشة.

وهب ان الامام قصد مدة الهدنة الى شهر واحد وبقي وجيشه في صفين الى ان اصدر الحكمان حكمهما ثم دعا جيشه الى العودة الى القتال. فهل كان ذلك يرضي الخوارج ويعيدهم الى الوحدة؟

ان من الاسباب ما يحملنا على عدم توقع ذلك بل نتوقع ان يرفضوا العودة الى القتال معه وان يكون موقفهم لو بقوا في صفين شبيها بموقفهم الذي وقفوه في العراق حينما دعاهم الامام للعودة الى القتال بعد ان اصدر الحكمان حكمهما. فقد كان ردهم عليه انهم يرفضون القتال معه لأنه انما يريد العودة الى القتال ثأراً لنفسه لأن حكم الحكمين جاء في غير مصلحته.

ومن المعقول انه لو قصر مدة الهدنة وبقي في صفين واراد العودة الى القتال بعد حكم الحكمين ان يذهب الخوارج الى العراق ويحاولوا قطع طريق الامدادات عن جيشه وينشروا الذعر في الكوفة وسواها ويستعرضوا الناس بسيوفهم ويقتلوا من لا يرى رأيهم. وهذا ما فعلوه بعد أن عاد وعادوا من صفين. وما من شك بان خطرهم على سكان العراق في مغيبه يكون اشد منه في حضوره.

ومعنى ذلك ان اطالة امد الهدنة والعودة الى العراق كان اقل خطراً من تقصيرها والبقاء في صفين ثم العودة الى القتال دون ان تكون في العراق قوة تحمي السكان الابرياء وطرق الامدادات من هجمات الخوارج.

لقد كان من الطبيعي ان يتوقع الامام من دعاة وقف القتال والتحكيم وهم الأكثرون من معسكره أن يستمروا على موقفهم وان ينتظروا حكم الحكمين وان تنقشع غشاوة الخديعة عن ابصارهم حينما يضل الحكمان ويحييان ما امات القرآن ويميتان ما احياه، وان يكون ذلك لهم حافزا جديدا على تجديد القتال بعزيمة اقوى وبصيرة انفذ ومدد اكبر. ولو فعلوا ذلك لما كان من الصعب عليهم، وهم

تحت قيادة اشجع قائد ان يطيحوا بمعاوية ويحرروا سوريا من حكمه ويضمنوا لانفسهم وللأمة واجيالها مستقبلا رشيدا يشيع فيه العدل وتعلو كلمة الحق.

ان كل ذلك كان مستطاعاً ولكن انقلاب الخوارج في موقفهم وما اثاره من جدال وقتال قضى على جميع تلك الآمال وحول ايقاف القتال الى هزيمة للحق وكارثة كانت بعيدة المصائر.

لماذا لم يَطُل حُكم الامام ؟

الفصل الحادي والثلاثون

ان الذين ينتقدون سياسة الامام ويعتبرونها سياسة مثالية غير عملية وفي الوقت نفسه يبدون اعجابهم بذكاء معاوية ودهائه ويرون انه كان رجل دولة من الطراز الاول انما ينساقون الى هذا النوع من الحكم لأنهم ينظرون الى النتائج بدلاً من ان ينظروا الى الظروف التي ادت الى تلك النتائج.

ولكي يكون حكمنا موضوعيا في المقابلة بين الرجلين فان افضل الطرق للوصول الى ذلك هو ان نفترض انهما تبادلا ظروفهما مكانا وزمانا وتبادلا منصبيهما وصفاتهما عدا الحكمة والذكاء والشجاعة. فلنفترض ان عليا:

١ - كان قرشياً غير هاشمي ولم يكن واتراً لقريش.
٢ - وانه كان واليا على سوريا منذ اوائل خلافة عمر.
٣ -وانه استقر في ولايته نحوا من عشرين سنة، فتعمقت جذور سلطته وسياسته فيها.
٤ -وان أهل الشام هم أهل الشام يوم ذاك في انقيادهم ووحدتهم وطاعتهم.
٥ -وانه كان وصوليا لا تهمه المبادىء بل تهمه المنافع المادية ويستحل الوصول اليها. بأي وسيلة، بما فيها شراء الضمائر باموال المسلمين والاغتيال والغدر والكذب وقتل الصالحين والابرياء.
٦ -وان قريشا التي كانت تمثل الأرستقراطية ذات النفوذ في العالم الاسلامي، كانت تحبه وتعاضده.

ولنفرض ان معاوية
١ - كان هاشمياً واتراً لقريش.
٢ - وانه بويع بالخلافة بعد قتل عثمان وتصدع وحدة العالم الاسلامي.
٣ - وان قريشا تكرهه وتضمر له عداء لأنه وترها.
٤ -وان عائشة وطلحة والزبير اتهموه بدم عثمان واثاروا عليه فريقاً من اهل العراق واصلوه حربا حامية ذهب فيها عشرات الالوف.
٥ - وانه استقر في الكوفة برهة قصيرة بعد تلك الحرب الدامية.

٦ -وان اهل العراق هم اهل العراق يوم ذاك في جدلهم وشقاقهم وآرائهم وتطرفهم وعصيانهم.
٧ -وان معاوية رجل مبادىء تهمه الآخرة قبل الدنيا فلا يضحي بمبادئه من اجل منافعه ولا يحل لنفسه ان يتخذ اي وسيلة لا تتفق مع الشريعة.

ثم لنفرض ان هذين الرجلين التقيا في معركة كمعركة صفين ولدى كل منهما ما لديه من الذكاء والحكمة والشجاعة. علي بشجاعته الخارقة ومعاوية بضعفه وجبنه.

ماذا تكون النتيجة؟

الجواب غير عسير.

علي المنتصر، ومعاوية الخاسر سياسياً وعسكريا. وحتى لو اسقطنا لمعاوية الشرط الخامس وافترضنا ان الرجلين يتساويان في الوصولية والتحرر من المبادىء، فان معاوية سيكون هو الخاسر سياسياً وعسكريا لأن جذور سلطته لم تتعمق نظرا لقصر المده ولأن الشعب العراقي كان بعيدا عن الوحدة ميالا بطبيعته الى الجدل والشقاق والعصيان.

ويتضح لنا ذلك حينما نتذكر ان معاوية اشرف على هزيمة ساحقة في صفين وهو يقود اهل الشام. فكيف لو كان يقود اهل العراق المجادلين ضد اهل الشام المطيعين؟

والواقع انا نرى معاوية، بعد أن اغتيل الامام وامتلك هو العراق لم يتمكن ان يضبط العراق الا بواسطة جند الشام. ولو لم تكن له تلك القاعدة الشعبية الراسخة في سوريا وجيشها المطيع، لما تمكن من الاستمرار في حكم العراق بالرغم من كل ما لديه من وصولية ولا مبدئية. فماذا نتصور مصيره لو كان من ذوي المبادىء المتحرجين في دينهم ولم يكن له تلك القاعدة الشعبية الثابتة وذلك الجيش المطيع؟

وقد اثبتت الاحداث التاريخية في العهد الاموي ان حاكم العراق في تلك البرهة مهما كان وصولياً متحررا من كل مبدأ لا يتمكن من الأستمرار في حكم العراق الا بضمانة قوة غير عراقية يلجأ اليها عند تأزم الامور. فالحجاج بن يوسف

الثقفي، بالرغم من كل بطشه وطغيانه واسرافه في سفك الدماء لم يتمكن من الاحتفاظ بحكمه الا بواسطة جند الشام. ولولاً الامدادات السورية العسكرية لخر صريعاً تحت ضربات شبيب الخارجي وجنده.

ومن ذلك نصل الى استنتاج منطقي تناساه ناقدو سياسة الامام المعجبون بذكاء معاوية ودهائه وهو انه:

لكي يتمكن اي حاكم من الاحتفاظ بالسلطة يجب ان يتوفر لديه امران: قاعدة شعبية ثابته وقوة عسكرية كافية تنقاد لأوامره. والا كان سلطانه في مهب الريح.

واذا عرفنا ذلك تمكنا ان نضع ايدينا على اسباب اهتزاز حكم الامام وانتهائه. فالقاعدة الشعبية الثابتة والقوة العسكرية الكافية المنقادة لأوامر رئيس الدولة اللتان يحتاج اليهما الحكم في استقراره ونجاحه كانتا ممتنعتين على الامام وتتابع الاحداث التي حفلت بها الحقبة التي عقبت وفاة الرسول الى ان تسلم الامام الحكم جعل حصول الامام على هذين الشرطين ضربا من المستحيل.

(٢)

لقد كان من المنطق ان يكون علي بن ابي طالب اقرب الناس بعد الرسول الى قلوب اتباع الرسول لأنه ابن عم الرسول وصهره واخوه وصفيه واعظم المجاهدين في سبيل رسالته واعلم اصحابه واشدهم اتباعا لتعاليمه. واذا كان المسلمون حقا اتباع الرسول واحباؤه فقد كان من المنطق ان يكونوا احباء لعلي واسرع الى طاعته من طاعة سواه. وكان من الطبيعي ان يتوفر له الشرطان اللازمان بيسر وسهولة.

ولكن احداث التاريخ لم تتخذ طريقها الطبيعي ولا تسلسلها المنطقي بل اتجهت بدافع من العواطف والعصبية في طريق مضاد لما كان يتوقع.

حسد قريش

لقد أبت قريش بادىء بدء، ومحمد في مكة، ان تتقبل دعوته او تقر بنبوته بالرغم من معرفتها اياه وعلمها بأمانته وصدقه. وكان السبب الرئيسي في موقفها

السلبي منه حسدها لهاشم اسرة الرسول، مفكرة ان الاقرار بنبوة محمد اقرار لهاشم بالسيادة المطلقة وتشريف لها على كل بطون قريش وسائر القبائل العربية بل والناس اجمعين. ابت قريش ان تقر بنبوة الرسول وحاصرته واهله واستعملت كل ما لديها من وسائل الضغط والتهديد ثم تآمرت على حياته فالجأته الى ان يهجر دار قومه. وحينما انتقل الى دار هجرته استبدلت اساليب الضغط والتخويف باسلوب المواجهات العسكرية، ووقف الرسول واهل بيته واصحابه يذبون عن مقدساتهم وحرياتهم ضد القوى الوثنية الكثيرة. وكانت قبائل قريش العدو الوثني الرئيسي في كل تلك المعارك يحفزها حسدها على الاستمرار في محاولة استئصال الرسول واتباعه.

وكان علي بن ابي طالب في كل تلك المعارك ساعد الرسول الأيمن وقائد المجاهدين واعظمهم بلاء في مواجهة عدوه. فكان لعلي في قبائل قريش صرعى كثيرون تحطمت رؤوسهم تحت ضربات سيفه.

وقد اعتبرته قريش لذلك مسؤولاً عن دماء ابناء واخوان وشيوخ يكاد عددهم يبلغ نصف من فقدته في تلك المعارك. وبذلك اضافت الى حسدها المتزايد ضد الهاشميين بصورة عامة ضغائن ثأر متأججة ضد علي بصورة خاصة.

قريش تحتفظ بنفوذها وضغنها.

وفتحت مكة في السنة الثامنة من الهجرة فاسلمت قريش بعد ان فقدت كل امل بالانتصار على النبي أو الصمود في وجـــهه. وانتهى بذلك صراع قريش الدامي ضد الرسول ورسالته. ولكن ضغن قريش على علي لم ينته، ولا انتهى نفوذ قريش في المجتمع العربي.

وحاول الرسول ان يضمن للامة مستقبلا تتمتع فيه بالوحدة وتأمن فيه الضلال بتأمين قيادة حكيمة عليمة تسير على المنهاج النبوي. ورأى ان عليا والبقية من اهل بيته المطهرين هم الذين تتجمع فيهم مؤهلات تلك القيادة، فاعلن للمسلمين ان عليا منه بمنزلة هارون من موسى وانه مولى كلَ مؤمن ومؤمنة وانه تارك فيهم ما إن تمسكوا به لن يضلوا بعده: كتاب الله وعترته اهل بيته وان الله

اخبره ان القرآن واهل بيته لن يفترقا الى يوم القيامة وقال لهم: فانظروا كيف تخلفوني فيهما. وهو بذلك لا يريد فقط اعلان قيادة علي وبقية العترة بل يحاول ايضا غسل صدور قريش وقبائل اخرى من ضغائن الثأر المتأججة.

جيش أسامة

ولكن القوم كانوا حديثي عهد بالاسلام. ولم يعمر النبي طويلا بعد فتح مكة ليتمكن من ترويض نفوس قريش وتطهير قلوبهم من ضغائن الجاهلية واحلال الشعور بالاخاء الاسلامي محلها. وشعر بدنو اجله وخشي ان تحول العصبية القبلية بين علي وتسلمه قيادة الامة من بعده فأمَّر اسامة على جيش حشد فيه كبار المهاجرين والانصار ليتوجه الى ارض فلسطين.

ولم يكن هنالك من الخطر ما يدعو النبي الى ارسال ذلك الجيش. ولكنه قصد الى ابعاد الطامحين عن المدينة ليتسلم علي القيادة بسهولة.

غير أن شيوخ المهاجرين كرهوا ان يتركوا المدينة سيما بعد ان عرفوا أن النبي حُمَّ ومرض. وحاول النبي اكثر من مرة ان يدفعهم للذهاب قائلاً مرة بعد مرة «انفذوا جيش اسامة» ولكن الاصحاب لم ينبعثوا وانتظروا.

وصية لم تكتب

وشاهد النبي تثاقلهم فرأى ان يفصل بالامر ويقطع العذر بأن يملي وهو في مرضه كتاباً تأمن به امته الضلال من بعده. وشعر الحاضرون في بيته من اصحابه انه يريد ان يسجل كتابه ما كان اعلنه في شأن علي لفظاً فمانع نافذون منهم والقوا الشك في وعي الرسول وابوا ان يعطوه دواة وبياضاً وقالوا حسبنا كتاب الله.

تداول الخلافة

ويتراءى لنا ان المهاجرين المكيين تأثروا بمشاعر قريش ورأوا قبل وفاة الرسول ان استمرار الحكم في اهل بيته بعد وفاته سيجعل وصول اي قرشي غير هاشمي الى الخلافة ممتنع المنال. فاذا الف المجتمع العربي حكم آل الرسول وقد اضفى عليهم شرف القرابة هالة من القداسة واكد استحقاقهم لتلك القداسة ما

تحلوا به من فضل فإنه يصبح من المستحيل لأي صحابي ان يحتل محلهم في قلوب المسلمين. فلعلي بالاضافة الى قرابته القريبة من رسول الله ومنزلته الخصيصة منه انصع سجل في الجهاد مع علم لا ينضب وتقوى بلغت منتهى الدرجات. وهذان ولداه الحسنان يشهد لهما جدهما انهما سيدا شباب أهل الجنة ولن يكونا كذلك الا اذا اشبها جدهما واباهما. فلو انتقل الحكم بعد الرسول الى علي لما تمكن احد من قريش أو سواها ان يزاحم عليا على قلوب المسلمين فيدلي اليهم بقرابة كقرابته وسجل كسجله أو ان يطاول ولديه الحسنين فيأتي بجد كجدهما واب كأبيهما وام كامهما وفضل كفضلهما.

اضف الى ذلك ان مجرد وصول علي الى الخلافة بعد الرسول كان كفيلا بأن يمنع اجلاء الاصحاب من الوصول اليها لشبابه وشيخوختهم. فلو عاش بعد الرسول، ثلاثين سنة فقط لمات كبار المهاجرين قبل انتهاء حكمه.

وعلى العكس يكون الامر لو وصل الى الخلافة رجل من غير أهل البيت فان لغيره من المؤهلات مثل ما له منها. وبذلك تتمكن بطون قريش ان تتداول الخلافة فيما بينها. وفي شرف الخلافة ما يعوض تلك البطون القرشية عما فاتها من شرف النبوه.

وقد قال عمر في ايام خلافته لابن عباس: «ان قريشا كرهت ان تجمع لكم النبوة والخلافة فتجحفوا بقومكم جحفا. وقد اختارت قريش لانفسها فأصابت ووفقت».

ولو لم يكن اي شيء من ذلك فإن ضغائن قريش على علي واستمرار نفوذها في المجتمع العربي كانا كفيلين بابعاد علي عن الخلافة بعد الرسول.

ورأى النبي بنور الله ما سوف يحدث بعده فاحزنه ما رأى واعتنق عليا يوماً فبكى، فقال له علي: «يا رسول الله ما يبكيك»؟ فقال: «ضغائن في صدور رجال لن يبدوها لك إلا من بعدي.» [1]

---

(١) رواه في كنز العمال في كتاب الفضائل ج ٦ ص ٤٠٨ ونقله عن البزار وابي يعلى وآخرين.

موقف الخليفتين من علي

وتوفي الرسول فتجاذب المهاجرون القرشيون والانصار الخلافة فكان للمهاجرين الحد وكانت حجتهم على الانصار ان رسول الله منهم. وان الخلافة فيهم. واجمعت جمهرتهم على ابي بكر (رض) دون ان يذكر علي أو يستشار. وامتنع علي عن البيعة فحاولوا اكراهه عليها لولا ان وقفت ابنة الرسول في وجوههم. ولم يبايع علي ابا بكر الا بعد ان مضت الزهراء الى ربها. وكان من الطبيعي ان يجد ابو بكر في نفسه تجاه علي ما يجد كل بشر تجاه منافسه الوحيد وان يجد في نفسه تجاه عمر ما يجده كل بشر تجاه صديقه الحميم ونصيره القوي. وكان من الطبيعي ان يكافئه على جميله برد الخلافة اليه بعد موته.

- ٣ -

تعاظم نفوذ قريش وخفوت نجم الامام

وما كانت خلافة الخليفتين الراشدين الا لتزيد قريشاً علوا ونفوذها اتساعا ونموا. وفي كل ذلك ما يضمن ازديادها عن علي بعدا.

خفوت ذكر الامام

حفلت ايام الخليفتين باحداث الفتوح الكبرى فشغل الناس بها وعلا شأن الخليفتين الراشدين علوا بلغ درجة التقديس وطار صيت قادة الفتوح عامة والقرشيين منهم خاصة. وتناسى الناس عليا وجهاده ومساهمته الكبرى في ارساء قواعد الدولة الاسلامية وما قاله رسول الله فيه. ودخلت شعوب عديدة من قوميات شتى في حظيرة الاسلام. فعرفت هذه الشعوب اسمي الخليفتين والقادة العسكريين الذين تولوا اخضاعها والحكام الذين تولوا ادارتها، ولم يعرفوا شيئا عن علي وماضيه.

لقد بقي علي في المدينة طيلة حكم الخلفاء في معزل عن الاحداث والسلطان. فلم يوله الخليفتان ولا احدا من اهل بيته ادارة مدنية أو قيادة عسكرية في أي بقعة من البقاع الاسلامية ليعرفه الناس عن كثب. ولم تتح الفرصة لأي من اهل

بيته ان يتولى مركزا يمكنه من ان يعرف المسلمين على اهل البيت ورئيسهم.

لقد عرف المسلمون في ايام الخليفتين سعداً بن ابي وقاص فاتح العراق وفارس وخالداً بن الوليد وابا عبيدة فاتحي سوريا وعمراً بن العاص فاتح مصر وواليها ومعاوية بن ابي سفيان والي الشام والمغيرة بن شعبه والي البصرة وابا موسى الاشعري واليها الآخر. وعمار ابن ياسر والي الكوفة حينا وعبد الله بن مسعود خازن بيت المال فيها اكثر مما عرفوا عليّاً بن ابي طالب. وما اعتقد ان احدا من هؤلاء سوى عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود (على احتمال) كان يود ان يعرف الناس على فضل علي ومكانته.

ولست اقول ان الخليفتين كانا ينكران فضل علي ولا يعرفان له حقا، فقد كانا اتقى من ذلك. وقد اثر عمر قوله: لا يفتين احد في المسجد وعلي حاضر. وقوله اكثر من مرة: لولا علي لهلك عمر. وقوله في علي: والله لولا سيفه لما قام عمود الاسلام.

بلى لقد كان عمر يقول ذلك واكثر. ولكنها كلمات كانت تأتي في مناسبات ومجالس لم تتخذ شكل تعريف عام ولا هي تجاوزت جدران المدينة.

وقد كان بوسع الخليفة الثاني، بما له من نفوذ في العالم الاسلامي غير محدود ان يعرف العالم الاسلامي كله على ما يعرفه من فضل علي وتقدمه على سواه وان يهيء المسلمين عامة وقريشاً بصورة خاصة لقبول قيادته للامة من بعده. ولكنه لم يفعل ذلك.

الامويون في جهاز الدولة

وما كان هذا كله بالذي يحول بين علي والوصول في المستقبل الى حكم مستقر. فتعاظم نفوذ قريش في المجتمع الاسلامي بالرغم من انه لم يكن في مصلحة الهاشميين بصورة عامة وعلي بصورة خاصة لم يكن يمثل صعوبة لا يمكن لعلي ان يتغلب عليها لو بقي الامويون خارج الحكم. ولكن الاسرة الاموية التي كانت اشد القرشيين والعرب عداء للنبي واشدهم ضغينة على علي قد تسربت الى جهاز الدولة وتطور نفوذها بسرعة واصبحت اعظم الاسر القرشية قوة.

استمرار معاوية في ولايته

ولد النفوذ الاموي في الدولة الاسلامية يوم ولى عمر بن الخطاب يزيد بن ابي سفيان على الشام بعد فتحها بقليل. ولم يعش يزيد طويلاً فولى الخليفة اخاه معاوية مكانه. وبعد قليل ضم اليه الاردن. واستمر معاوية في منصبه مدة خلافة عمر فلم يعزله مع انه كان لا يرى استبقاء عماله في مناصبهم. لقد عزل سعدا بن ابي وقاص عن ولاية الكوفة بالرغم من سابقته وجهاده. وعزل عماراً بن ياسر بالرغم من انه كتب الى اهل الكوفة يوم ولاه عليها يخبرهم بأنه من نجباء اصحاب محمد (ص)، ولكنه استبقى معاوية، ويظهر ان الخليفة اعجب بذكاء معاوية وادارته واطمأن الى طواعيته له.

لقد بقي معاوية في منصبه الى ان انتقل الخليفة الى ربه بالرغم من ان اسرافه وبذخه كانا يبدوان بجلاء. وقد تمكن معاوية ببقائه في تلك المنطقة الهامة من ان يحشد الانصار ويشتري ولاء رؤساء القبائل الى ان اصبح من القوة بمكان جعل الخليفة قبل موته ينذر اعضاء الشورى بانهم ان اختلفوا وتحاسدوا غلبهم معاوية على الخلافة.

وان من نافلة القول ان نذكر ان استمكان معاوية في منطقتي الشام والاردن تلك المدة الطويلة كان متوقعاً ان يحول دون حصول علي على شعبية في تلك المنطقة. وما كان ينتظر من معاوية الا ان يقفل في منطقته كل نافذة يمكن ان يتسرب بواسطتها معلومات الى عامة الشعب عن ماضي الامام وحاضره.

– ٤ –

الشورى تضع الخلافة في قبضة الامويين

على ان ذلك لم يكن صعوبة يستحيل على علي التغلب عليها لو استخلف عمر عليا. فقد كان بامكان الامام لو وصل الى الحكم بعد الخليفة الثاني ان يقتلع النبتة الاموية من ارض الشام دون عناء كبير لأنها لم تكن بعد قد بلغت منتهى قوتها.

ولكن الخليفة الثاني دفع بحسن نية، الخلافة في اتجاه جديد كان بعيد المصائر. وقد كان من نتائجه القريبة امـران جعلا وصول الامام الى الخلافة سلمياً

واستقرارها في قبضته ضرباً من المستحيل.

اما النتيجة الاولى **فهي تصعيد القوة الاموية** بصورة دفعية. فبعد ان كان الامويون يتطاولون الى الخلافة من بعيد اصبحت الخلافة بين عشية وضحاها في ايديهم.

لقد رفض الخليفة ان يستخلف عليا بالرغم من انه كان يـرى انه لو ولي الخلافة لَحمل المسلمين على المحجة الواضحة. وكان رفضه ذلك بدافع انه لا يريد ان يتحمل مسؤولية الخلافة حياً وميتاً. فابتكر فكرة الشورى اذ جعل امر الخلافة الى ستة من المهاجرين القرشيين كان علي واحدا منهم. وكان الآخرون عثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وسعد بن ابي وقاص. فمن هؤلاء وحدهم يكون الخليفة المنتخب وهؤلاء وحدهم ينتخبونه. واذ كان الخليفة الراحل يرى ان علياً اولاهم بأن يحمل الامة على الحق لو ولي الخلافة فقد كان من المتوقع ان يرجح كفته بأن يأمر باتباع الفريق الذي فيه علي اذا اختلف الاعضاء. ولكنه فعل ما لم يتوقع. فقد امر باتباع فريق عبد الرحمن بن عوف، وما كان يتوقع من عبد الرحمن إلا ان يختار عثمان الذي كانت تربطه به قرابة لصيقة. وما وقع الا ما كان متوقعاً. وهكذا فان الخليفة الثاني، بحسن نيته، اوصل الامويين الى ما كانوا يحلمون به. لقد اختار للخلافة عثمان صالح الاسرة الاموية الذي هيأه صلاحه وافراطه في حب اعضاء اسرته ليكون جسرا تعبر الخلافة بواسطته من المهاجرين الاولين الذين جاهدوا في سبيل نصر الرسول الى اعداء اسرة الرسول التقليديين. وقد ضمنت خلافة الخليفة الثالث (رض) لمعاوية استمرار الحكم واتساع السلطة والشهرة الواسعة ونمو القوة. لقد ضم اليه الخليفة الجديد لدى بدء خلافته فلسطين وبقية المقاطعات السورية، واصبح يحكم تلك المنطقة الواسعة الغنية حراً طليقا يتصرف كيف يشاء دون ان تراقبه سلطة عليا. وبذلك اصبح اقوى رجل في العالم الاسلامي. واصبح بامكانه، قبل ان يمضي الخليفة الثالث الى ربه، ان يحشد في ميدان القتال متى شاء جيشاً يبلغ نحوا من مأة الف مقاتل يتناولون مع ابنائهم وعبدانهم الاعطيات من بيت المال السوري الذي كان يتصرف به معاوية تصرفه بماله.

ولم يكن معاوية الاموي الوحيد الذي تولى منطقة هامة واشترى الضمائر وحشد الانصار بما كان تحت تصرفه من مال كثير. فقد ولى الخليفة الثالث الوليد بن عقبة ثم سعيد ابن العاص الامويين على الكوفة وعبد الله بن عامر الاموي على البصرة وعبد الله بن سعد بن ابي سرح (وهو اخو الخليفة من الرضاعة) على مصر. واصبح ابن عم الخليفة مروان بن الحكم طريد الرسول وزير الخليفة النافذ بل الخليفة الحقيقي. وتمكن مروان بماله من نفوذ ان يحجب عن عيني الخليفة الصالح وسمعه كل مساوىء هؤلاء الولاة ويقنعه بصلاحهم ولزوم استمرارهم في سلطانهم. وبذلك اصبح العالم الاسلامي مملكة اموية يحكمها اناس عرفوا برقة تدينهم وضعف ايمانهم ووصوليتهم وبغضهم لاهل بيت الرسول وضغنهم على علي بن ابي طالب.

الستار الحديدي

هؤلاء اصبحوا خطباء المنابر الذين يعلمون الشعوب الاسلامية. وللقارىء ان يتصور الستار الحديدي الذي اقامه هؤلاء ليحجبوا عن الشعوب التي حكموها كل الوسائل للتعرف على علي وبقية اهل بيت الرسول ومنزلتهم في الاسلام. وهكذا كانت شعوب بلاد الشام تجهل كل شيء عن اهل بيت الرسول وتكاد لا تعرف للرسول قرابة الا الامويين. وهذا ما نطق به معاوية في ايام خلافة قريبه عثمان اذ قال لعمار: «ان بالشام مأة الف يتلقون مع ابنائهم وعبدانهم الاعطيات لا يعرفون عليا وقرابته.....»

وكان سكان البصرة في جهلهم باهل البيت يأتون في الدرجة الثانية بعد اهل الشام، اذ لم يتول طيلة ايام عمر وعثمان اي وال عرف بحبه لأهل البيت. اما اهل الكوفة فيبدو وأنهم عرفوا القليل عن اسرة الرسول. ويظهر ان اقامة عمار بن ياسر مدة قصيرة وعبد الله بن مسعود مدة اطول كانت ذات تأثير ولكنه محدود

ولكي نعرف قوة تأثير الستار الحديدي، الذي اقيم بين الشعوب الاسلامية ومعرفة ما لعلي من فضل، يكفي ان نتذكر ان المسلمين المعادين للامام كانوا بعد أن بويع الامام يتخوفون من وجود عمار بن ياسر في معسكره لأنهم سمعوا من الرسول أو عن الرسول انه قال لعمار: تقتلك الفئة الباغية. ولم يتحرجوا من قتال

الامام بالرغم من أن الرسول قال فيه اضعاف ما قاله في عمار والصحابة اجمعين. لم يتذكروا ولم يذكروا شيئا من ذلك ولم يتذكروا على الأقل ما قاله فيه امام الالوف من المسلمين يوم غدير خم: اذ قال بعد ما أعلن للمسلمين ان عليا مولاهم: «اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» وقوله هذا يعني ان من عادى عليا فهو عدو الله فكيف بمن قاتله؟

وحينما اراد الامام ان يتحدث مع اهل الكوفة عما قاله النبي فيه يوم غدير خم وجد ملامح الشك على وجوهم فاضطر الى الاستشهاد بمن كان حوله من اصحاب الرسول. فشهد له اصحاب كان بينهم اثنا عشر بدريا.

ويدلنا على جهل اهل العراق بما لأهل البيت من منزلة في الاسلام ان هوى عامة اهل البصرة في اواخر ايام عثمان كان مع طلحة وهوى عامة اهل الكوفة مع الزبير ومعنى ذلك انه لم يكن للامام اكثرية حتى في الكوفة.

واما اهل مصر فيظهر انهم كانوا قبل قتل عثمان بقليل يعرفون شيئا عن الامام. واظن ان ذلك كان نتيجة لاقامة محمد بن ابي بكر ومحمد بن ابي حذيفة في مصر في اخريات عهد عثمان حيث كانا يهيئان الرأي العام المصري للثورة على الخليفة.

ومن كل ذلك نتمكن ان نبصر بوضوح ان الامويين خلال ايام عثمان حققوا ثلاث انتصارات:

(١) لقد تمكنوا من ان يسدوا على علي النوافذ الاعلامية في معظم انحاء العالم الاسلامي.

(٢) وحصلوا على شعبية مطلقة في سوريا ونفوذ كبير في بقية انحاء العالم الاسلامي بما اشتروا من ضمائر ذوي النفوذ في كل مكان حكموه وحيثما وجدوا من يبيع دينه بديناه. وما اكثر هؤلاء في كل عصر. وكان لديهم اموال الدولة يتصرفون بها كيف يشاؤون.

(٣) واهم من كل ذلك انهم لم يعودوا يحتاجون الى طلب السلطة والخلافة. فالخلافة وسلطانها اصبحا في ايديهم. وعلى من يطلب الخلافة ان يخرجهم منها.

وكيف يسهل ذلك وقد اصبح لديهم من المال والرجال ما يمكنهم من الاحتفاظ بها وهم دهاة العرب ووصوليوها الذين لا يتحرجون في استعمال اي وسيلة مهما كانت منكرة في سبيل اغراضهم.

قبلية المجتمع

ومن الحق ان لا نهمل ذكر قبلية المجتمع العربي المتأصلة التي قدمت للأمويين اكبر العون في انماء قوتهم سياسياً وعسكريا. ان من الصعب في زمن لا توجد فيه الوسائل الحديثة الدعائية ان يتمكن سياسي من كسب ولاء الملايين أو مئات الالوف من الناس حين يكون هؤلاء غير مرتبطين نسبيا بقيادات ينقادون اليها انقيادا عاطفيا. حيث يصبح الفرد مستقل الرأي يصدر في اعماله عن طريق مصلحته الخاصة أو تفكيره المنطقي.

اما حين يوجد قادة قبليون ينقاد اليهم اقرباؤهم الكثيرون دون جدال يصبح الحصول على ولاء الالوف سهلا هينا على الوصوليين من الطراز الاموي حينما يكون القادة القبليون ماديي التفكير. وما من شك بأن الفترة التي عاشها المسلمون في ايام الخليفة الثالث وبعده قد ساعدت على نمو عدد هذا النوع من القادة اذ اصبحت دنيا الكثيرين من ذوي النفوذ امام دينهم.

— ٥ —

مزاحمون جدد

اما النتيجة الثانية التي تمخضت عنها الشورى فهي انها خلقت لعلي مزاحمين على الخلافة ما كان اي منهم يحلم بها لولا عضويته في الشورى. فكما اوصل ابتكار الشورى وتخطيطها الحكم الى تنحية علي وفوز عثمان بالخلافة فان مجرد اعطاء الاربعة الآخرين عضوية الشورى قد رفعهم الى رتبة علي ومساواته سياسيا بالرغم من انه لم يكن يدانيه احد منهم أو من سواهم في علم ولا عمل ولا قرابة. لقد خلقت هذه العضوية في نفوس الاربعة عقدة الشعور بالامتياز على بقية المسلمين والاعتقاد بالاهلية لقيادة الامة.

وقد استحكمت هذه العقدة في نفسي طلحة والزبير واذكى فيهما حب المنافسة على القيادة ما وصلا اليه من ثراء فاحش.

والمال كان وما زال قوة وعوناً للانسان على بلوغ اهدافه. وقد فتحت عضويتهما لمجلس الشورى عيني ام المؤمنين عائشة على امكانية وصول احدهما الى الخلافة. ووصول اي منهما اليها يسر قلب ام المؤمنين لأن طلحة من اعضاء اسرتها التيمية والزبير زوج اختها اسماء.

وقد تفاعلت افكار الصاحبين وام المؤمنين فكانت حملة التحريض على عثمان بغية انهاء حكمه لاحلال احد الصاحبين محله. وانتهت الحملة بقتله. وحينما بويع الامام بعد قتل عثمان دفعت الصاحبين وام المؤمنين خيبة الامل وشدة الطموح الى معارضتهم للامام معارضة نكراء لم يسبق لها مثيل في تاريخ الاسلام. وما كان الصاحبان ليقوما بذلك لو لم يمنحهما الخليفة الثاني عضوية الشورى التي جعلت كل واحد منهما يشعر بأنه ند للامام.

الفرصة الاخيرة

لقد ابدى الامام منذ وفاة الرسول الى ان بويع عثمان حرصه الشديد على الوصول الى الخلافة يوم كان المسلمون رحماء فيما بينهم يداً واحدة على اعداء الاسلام. وقد بذل جهودا كبيرة يوم الشورى لصرف الخلافة اليه. حيث كان يرى بنور الله ان ايام الشورى الثلاثة كانت الفرصة الاخيرة التي يمكن ان يصل هو فيها الى قيادة الامة الى اهدافها الكبرى مع الاحتفاظ بوحدتها وسلامها الداخلي وان صرف الخلافة عنه الى سواه سيؤدي الى انتهاء الوحدة الاسلامية. وقد يذكر القارىء ان الامام قال يوم ذاك لبقية اعضاء الشورى.

«اسمعوا كلامي وعوا منطقي عسى ان تروا هذا الامر بعد هذا المجمع تنتضى فيه السيوف وتخان فيه العهود حتى لا تكونوا جماعة ويكون بعضكم ائمة لاهل الضلالة وشيعة لاهل الجهاله....» (٢)

---

(٢) الكامل لابن الاثير ج ٣ ص ٣٩

ولكن القوم سمعوا كلامه ولم يعوا منطقه. انهم مشايخ قريش الحاقدة على علي والتي تبذل كل ما في وسعها ان تصرف الخلافة عنه.

بويع عثمان وانتهى تطلع الامام للخلافة ليقينه ان الوحدة الاسلامية قد قاربت الانتهاء. وجاءت الاحداث تتوالى في عهد الخليفة الثالث وجاءت الثورة خاتمة احداث عهده. فأنهت حياة الخليفة وانتهى بانتهائه عهد الوحدة.

الزم بالخلافة

افلت زمام المبادرة السياسية من يد قريش بضعة ايام بعد قتل عثمان فلم تتمكن ان تدفع الخلافة عن علي هذه المرة. وتجمع الثائرون ومعظم سكان المدينة من الانصار على الامام يلحون عليه بقبول البيعة فامتنع عليهم. لأنه يرى الامة قادمة على فتن هوجاء يصعب على غير المؤمنين المستبصرين الصابرين ان يثبتوا فيها. فقال لهم:

« دعوني والتمسوا غيري فانا مستقبلون امرا له وجوه وله الوان لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول. »

ولكنهم ناشدوه الله في الاسلام ولجأوا اليه ووعدوه النصر والطاعة فلم يتمكن ان يرفع الخلافة عنه لانهم وضعوه امام مسؤوليته. فقبل البيعة منهم وهو يرى انهم القوا على اكتافه الضخمة عبئاً تنوء به الجبال. انه علي الذي لم يتهرب يوما في حياته من واجب مهما كان ثقيلا.

– ٦ –

استيقاظ الاحقاد

بويع الامام فاستيقظت قريش من ذهولها واستيقظت ضغائنها عليه. فكانت قريش وقادتها القليل منهم البا عليه. وقد وصف الامام في كتاب لاخيه عقيل موقف قريش منه يقول فيه:

« .... فدع عنك قريشاً وتر كاضهم في الضلال وتجوالهم في الشقاق وجماحهم في التيه. فانهم قد اجمعوا على حربي كاجماعهم على حرب رسول الله (ص) قبلي.

فجزت قريشا عني الجوازي، فقد قطعوا رحمي وسلبوني سلطان ابن امي....»[٣]

الاتقياء الخاذلون

اما غير الطامحين من قادتهم الاتقياء فقد وقفوا منه موقف الخاذل ورفض فريق من هؤلاء ان يبايعه مع ما يعلمون من عظيم شأنه.

فهذا اسعد بن ابي وقاص احد اعضاء الشورى الذي روى عن رسول الله انه قال لعلي: «اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير انه لا نبي بعدي؟»[٤] رفض ان ينصر عليا او ان يبايعه. مع ان نصر علي ومتابعته بمقتضى روايته نصر لرسول الله ومتابعة له وخذلان علي خذلان لرسول الله كما كانت متابعة هارون ونصره متابعة لموسى ونصرا له وخذلانه خذلانا لموسى.

وعبد الله بن عمر التقي الورع رفض ان ينصر عليا او أن يبايعه مع انه روى ان الرسول قال: «..... من مات وليس في عنقه بيعه مات ميته جاهلية»[٥]. وقد بايع يزيد بن معاوية الفاجر لأنه خشي ان يموت ميتة جاهلية ان لم يكن بيعة في عنقه. وللسبب نفسه بايع عبد الملك بن مروان فيما بعد. ولكنه رفض طيلة نحو من خمس سنوات ان يبايع الامام ولم يخف ان يموت ميتة جاهلية.

بغاة قريش

اما الطامحون من قادة قريش فقد تسابق الفجار والاتقياء منهم في قتال الامام. وبذلوا من التضحيات في سبيل ذلك ما لم يبذلوه في قتال المشركين.

لقد رأى الامويون وعلى رأسهم معاوية، في قتل عثمان ثمرة الغراب وفرصة الدهر. فما كان مقتل عثمان اقل فائدة للامويين من حياته. واذا كانت خلافته اعطت معاوية من القوة ما جعله اقوى رجل في الدولة الاسلامية، فان مصرعه

---

(٣) نهج البلاغة ج ٣ ص ٦١

(٤) صحيح مسلم ج ١٥ ص ١٧٥. وقد رواه البخاري في صحيحه.

(٥) نفس المصدر ج ١٢ ص ٢٤٠

اعطاه الذريعة لاستعمال تلك القوة في سبيل الغاية التي كان يعد لها منذ ان رسخت قدماه في ارض الشام.

لقد استنصره عثمان وهو محصور فلم ينصره، بل تثاقل عن تلبية ندائه ليقتل. ارسل جيشا الى الحجاز، مظهرا انه يريد الدفاع عنه. ولكنه امر قائد الجيش ان يعسكر قريبا من المدينة ولا يدخلها مهما تطورت الأزمة الى أن يأتيه امره ولكي يسد على قائد الجيش كل منفذ للتفكير بحرية التصرف قال له لا تقل ان الحاضر يرى ما لا يراه الغائب، فأنت الغائب وانا الحاضر.

لقد حصل معاوية على كل فائدة يمكن أن يجنيها من حياة عثمان واصبح قتله خيرا له من حياته. ان الدفاع عن الخليفة قد يؤدي الى اطالة عمره الى ان يموت حتف انفه. وقد يدفع الخليفة الثالث صلاحه، لو اجتاز الأزمة بسلام الى ان يعهد بالخلافة الى واحد من أعلام المهاجرين فتفوت معاوية الفرصة ويحرم من مبرر للانتزاء على الامة بالسيف. ولكن قتل الخليفة يعطيه ذلك.

ومن ذلك تعرف ان الخليفة الثالث لم يكن يملك من القوة السياسية والعسكرية ما كان يملكه معاوية. لقد كان عاجزاً عن الدفاع عن نفسه بينما كان معاوية يملك من القوة ما يمكنه من الدفاع عن نفسه والهجوم على خصومه والمحافظة على حياة الخليفة الثالث لو اراد. ومعنى ذلك ان عثمان لم يكن يملك من الخلافة الا اسمها وكان لمعاوية سلطانها.

وحينما قتل الخليفة لم يخسر الامويون من الخلافة الا اسمها والى امد قصير. وما كان يحتاج معاوية في الحصول على اسمها الا أن يستعمل ما كان لديه من القوة في سبيل المطالبة بدم الخليفة المقتول. وقد فعل ذلك فأصلى الامام حربا لم يشهد المسلمون قبلها مثلها.

الاتقياء الطامحون

وكما منحه قتل الخليفة مبررا قبليا للمطالبة بدمه فانه اضاف الى قوته قوة جديدة. فطلحة والزبير وام المؤمنين خصوم الخليفة المقتول قد انضموا الى معاوية واصبحوا حلفاءه في المطالبة بدم كانوا بالامس الدعاة الى اراقته، والقوا بكل

ثقلهم في كفته، وسبقوه الى قتال الامام.

وقد برهنت معركة البصرة ان امكانات هؤلاء القادة الثلاثة كانت ضخمة جدا. اذ تمكنوا ان يحشدوا لقتال الامام في تلك المعركة جيشا يقدره المقلون بثلاثين الفا في حين ان الامام خرج من المدينة بجيش لا يتجاوز بضع مئات. وقد اضطر وهو في طريقه الى البصرة الى ان يقيم بذي قاربرهة ارسل فيها رسله الى الكوفة يطلب من اهلها النجدة التي كان ابو موسى واليه على الكوفة يمانع في ارسالها. واخيرا، وبعد لأي ولأي انضم اليه من الكوفة ما اوصل عدد جيشه الى اثني عشر الفا.

لقد احل القادة الثلاثة لانفسهم بالرغم مما كان لهم من تقوى وسابقة ان يمزقوا وحدة المسلمين ويسلّوا السيوف على الامام ويضعوا اتباع الرسول لأول مرة بعد وفاة الرسول في معسكري معركة فاضت بالدماء انهارا.

ومع انهم هزموا فانهم فتحوا بعملهم على الامة فتقاً لم يتمكن الامام من رتقه بالر. ، من انتصاره عليهم. بلى لقد ازداد الفتق اتساعا بعد هزيمتهم. فقريش ما كانت لتزداد الا بعداً عن علي وحقداً عليه بعد ان ابيد في معركة البصرة سبعون من قادتها. واهل البصرة ما كانوا لينسوا الالوف من قتلاهم الذين سقطوا في المعركة.

واهل الكوفة ما كانوا الا ليشعروا بفداحة الخسارة فيما فقدوه في تلك المعركة من ابناء واخوان. والامام فقد بمصرع هؤلاء الكثير من انصاره المستبصرين الذين كان بامكانهم ان يقدموا له الكثير من العون على عدوه لو بقوا على قيد الحياة. وما من شك في ان معركة البصرة مع باهر انتصاره فيها، لم تزده قوة. بلى لقد تناقص سببها عدد انصاره.

والمتعاطفون مع خصوم الامام الذين كانوا يترددون في خوض حرب ضده وجدوا في موقف الصاحبين التقيين وام المؤمنين مشجعا على قتاله. فاذا كان يحل لهؤلاء الابرار ان يقاتلوا عليا فلماذا لا يحل ذلك لسواهم؟

ومن ذلك نعرف ان القادة الثلاثة قد قدموا لمعاوية وحزبه خدمات جلى زادته قوة الى قوته المتعاظمة.

ومن المؤكد انه كان بإمكان الاقطاب الثلاثة ان يحققوا ضد هذه النتائج ويحفظوا للأمة وحدتها لو انسجموا مع انفسهم وماضيهم وتقواهم. لقد كانوا ينادون بالاصلاح وينعون على الخليفة الثالث اعماله ويحرضون الناس على انهاء حكمه بأي وسيلة من اجل ما افسده اقارب الخليفة من امور المسلمين. فكان عليهم اذ جاءت خلافة علي هادفة الى تحقيق ما كانوا ينادون به امام الناس ان يمشوا في ركاب الامام ويعينوه على تحقيق اهدافه. واذ احسوا بأن معاوية ومن معه يريدون بالامة شرا ويسعون لاغتصاب الخلافة من اجدر الناس بها كان عليهم ان يذهبوا الى العراق ومصر وسائر أماكن القوة في العالم الاسلامي ويثيروا المسلمين على الامويين ويحذروهم من شرهم ويندبوهم الى نصر امام المسلمين. ولو فعلوا ذلك لأبصر معاوية طريقة ولتحقق ان ما يريده ممتنع المنال بالرغم من مكانه المكين في بلاد الشام ولنزل على حكم الامام صاغرا. وبذلك تبقى للأمة وحدتها وتسير بيسر الى ما اراده الله منها، مهدية بقيادة اهدى قائد بعد الرسول.

وكان اقل ما ينبغي ان يفعله القادة الثلاثة ان يحاسبوا انفسهم على تسبيبهم لمصرع الخليفة الثالث، بدلا من ان يطالبوا الامام بدم هم سفكوه وحق هم تركوه.

ولكن المصل الذي ادخلته عضوية الشورى في عروق الصاحبين وضغن ام المؤمنين المتأصل على الامام وتفتح ابواب آمالها في ايصال احد قريبيها الى الخلافة حمل القادة الثلاثة على ان لا يكتفوا بانهاء حياة الخليفة الثالث فارادوا ان يلحقوا به خليفة آخر بغية الوصول الى الحكم، غير عابئين بما يصير اليه امر الامة.

— ٧ —

ما كان الامام ملوما بل كان جديرا بالاعجاب

واذ عرضنا بايجاز بعض الاوضاع والاحداث التي كان لها تأثيرها في شؤون الامام مما سبق بيعته أو رافق خلافته فاننا نصل الى الاستنتاجات التالية:

(١) ان تلك الاحداث والاوضاع التي هيأت لاضطراب شؤون خلافة الامام والتي حالت بينه وبين حصوله على قاعدة شعبية ثابتة وقوة عسكرية مطيعة لم تكن من صنع يده وما كان باستطاعته ان يزيلها أو يبقيها.

لم يكن باستطاعة علي ان يزيل الحسد من نفوس قريش تجاه الهاشميين من اجل النبوة وما كان بامكانه ان يتجنب ضغائن قريش عليه لمن اصاب منها في جهاده ودفاعه عن الاسلام الا ان يتجنب الجهاد ويمتنع عن الدفاع عن الرسول ودينه. وما كان بامكانه ان يغير تصميم قريش على تداول الخلافة فيما بينهم وتخوفهم من استقرارها في اهل بيت الرسول ان وصل علي اليها.

وما كان بمستطاعة ان يحمل ايّاً من الخليفتين على ان لا ينظر اليه نظرة الى منافسة أو ان يمنع تعاظم شأن القرشيين في عهديهما.

وما كان بامكانه ان يحول بين الخليفة الثاني وبين ادخال الامويين في جهاز الدولة وابقاء معاوية في ولايته لتتنامى قوته.

وما كان بمستطاع علي ان يحمل عمر على استخلافه أو ان يمنعه عن تشكيل الشورى، ولا كان بامكانه ان يمنعه عن تخطيطها بالشكل الذي ادى الى صرفها عنه وايصالها الى عثمان.

وما كان بامكان الامام ان يمنع الخليفة الثاني من ادخال طلحة والزبير في الشورى ولا ان يكسب ولاء ام المؤمنين عائشة ومحبتها او ان يمنعها عن العمل في سبيل ايصال احد الصاحبين الى الخلافة.

وما كان باستطاعته ان يباعد بين عثمان واقاربه الوصوليين أو ان يمنعه من توليتهم الامصار الكبرى في العالم الاسلامي واعطاء معاوية من القوة ما جعله دولة في ضمن دولة.

وما كان بمستطاع علي ان يمنع الولاة الامويين من سد نوافذ الاعلام في وجهه والحيلولة بين الشعوب التي حكموها وبين معرفة ما لعلي من سابقة وجهاد وفضل.

وما كان بامكان الامام ان يمنع الثورة التي عصفت بخلافة عثمان وحياته. ولا كان بمستطاعه ان يمنع طلحة والزبير وام المؤمنين من التظاهر بالمطالبة بدم عثمان بغية اغتصاب الحكم منه. وما كان بامكانه ان يحول بينهم وبين اشعال حرب البصرة.

وما كان بامكان الامام ان يغير قبلية المجتمع العربي او ان يمنع فساد ضمائر الكثيرين من رؤساء القبائل واقبالهم على المادة واستعدادهم لبذل دينهم من اجل

دنياهم. وما كان باستطاعته ان يمنع معاوية عن استغلال مقتل الخليفة الثالث ولا ان يمنع سكان ولايته من الانقياد له على الباطل.

لم يكن الامام ملوما في كل ذلك أو بعضه. وما كان الامام ليلام لأنه لم يجعل اهل العراق كأهل الشام في طواعيتهم لأميرهم. وما كان باستطاعته ان يغير تركيب الشعب العراقي من ثلة من الصالحين وطبقة القراء الجاهلين المتطرفين والمتدينين من الجهلة المدعين والقبائل التي تنقاد لرؤسائها مبطلين أو محقين.

وما كان عدم وجود طبقة القراء المتعصبين والجهلة المتدينين المدعين وندرة الصالحين وكثرة السذج الاغرار بين اهل الشام في تلك البرهة ليعزى الى ذكاء معاوية ودهائه.

(٢) انا اذا نظرنا الى ظروف الامام وما تراكم امامه قبل خلافته وبعد بيعته من المصاعب واردنا ان ننصفه كرجل دولة لا نجده جديرا باللوم بل جديرا بالاعجاب اذ حقق ما يكاد يستحيل تحقيقه. ولكي نقدر ذلك فاننا لن نحتاج الى اكثر من ان نتذكر انه خرج من المدينة وما لديه سوى بضع مئين من المتطوعين ليلقى القادة الثلاثة الذين حشدوا لقتاله في البصرة ما يزيد على ثلاثين الفا. وفي الوقت نفسه كان معاوية يملك جيشا يبلغ اضعاف جيش القادة الثلاثة ويتمكن ان يهدد به اي منطقة اخرى من مناطق سلطة الامام. وفي الوقت نفسه كان ابو موسى واليه على الكوفة يحرض سكانها على خذلانه ويقودهم الى ما نسميه اليوم بالعصيان المدني. ولم يتمكن الامام بعد كل ما بذل من جهود أن يحشد من اهل الكوفة الا عدداً محدوداً من الانصار لم يزد بهم مجموع جيشه على اثني عشر الفا.

ومع كل ذلك فقد تمكن من أن ينزل بالقادة الثلاثة وما حشدوه من جند هزيمة ساحقة. ثم مضى الى عدوه الاكبر فاخذ بخناقه وانزل به هزيمة عسكرية لم ينجه منها الا لجوؤه الى خديعة رفع المصاحف واستعداد اهل العراق لتقبل الخديعة.

ان استمرار حكم الامام خمس سنوات بالرغم من كل ما كان يحيط به من المصاعب والقيود التي كانت تفرضها عليه مثاليته يعود الى عظيم كفاءته.

ولو وضع معاوية في مثل وضعه لانتهى حكمه في الاشهر الاولى من خلافته ولما امكنه حتى ان يواجه جيش البصرة، فضلا عن ان يظهر عليه.

(٣) ان معاوية لم يحسن استعمال ما لديه من طاقات عسكرية. ولو كان بالمستوى الذي يحسبه المعجبون به لاستغل تفوقه العسكري في بدء خلافة الامام يوم احتل القادة الثلاثة مدينة البصرة وتجمع لديهم ما تجمع من القوى ولم يكن لدى الامام سوى بضع مئات من الانصار.

فلو كان معاوية ذلك القائد الذكي الجريء لاستغل فرصة ضعف الامام عسكريا وارسل جيشا لاحتلال الكوفة يوم احتل حلفاؤه البصرة وبذلك كان يتمكن ان يحرم الامام من نجده اهل الكوفة وان ينهي حكمه في تلك البرهة. بل كان بامكان معاوية ان يرسل قسما من جيشه الى المدينة ليحتـلها والامام في طريقه الى البصرة.

ولو وضع الامام في مثل وضع معاوية ومعاوية في مثل وضع الامام (بالشكل الذي افترضناه في مستهل هذا الفصل) لفعل الامام ذلك وانهى حكم معاوية في اسابيع.

ولكنا نرى معاوية مع كل امكاناته العسكرية اعوزته الجرأة والفطنة وقبع في الشام منتظرا الى ان سقط طلحة والزبير وجيشهما تحت ضربات الامام والى ان تمكن الامام من حشد قوة ضاربة قادها لقتاله في منطقة سلطانه واخذ بكظم ودفعه الى مقربة من نهايته.

وبالرغم من جميع الصعوبات التي تراكمت امامه منذ ان قبض الرسول وتضاعفت بعد بيعته فانه بدا كالجبل لا تهزه العواصف ولا تزعزعه القواصف. ولو سار معه اهل الكوفة وحدهم الى نهاية الطريق لقضى على قوى الشر في العالم الاسلامي ولقاد الامة الى مستقبل زاخر بالخير مضيىء الجوانب ولهدي المجتمع الانساني كله وظهر الاسلام على الدين كله ولو كره الكافرون.

ولكن اهل الكوفة اصابهم ما اصاب سواهم، ففقدوا عزيمتهم وفتنوا ونقضوا غزلهم من بعد قوة انكاثاً، وخذلوا الامام في اللحظة الحاسمة وضاعت عليهم وعلى الامة فرصة الدهر.

وما كان اهل العراق وحدهم الملومين فيما حدث فالتبعة وقعت على الامة كلها

اذ رفضت ان تنصر الحق فوقفت منه موقف الخاذل أو موقف المعادي، وكان المعادون للحق اكثر من الخاذلين له.

ويحق لدارسي التاريخ الاسلامي في تلك الحقبة ان يدهشوا لما حدث فيها، اذ عزبت عن المسلمين عقولهم وتنكبوا عن الصراط المستقيم وهم يبصرونه وعصي الله واتقياؤهم ينظرون. وبعض هؤلاء مضى جاهدا يشد ازر المبطلين. كل هذا ولم تفصلهم عن ايام سيد الرسل الا خمس وعشرون من السنين.

لقد اصيبت الامة بمس من الجنون فتحالف ذوو السابقة في الاسلام الذين سجلوا في ايام الرسول صفحات ناصعة مع اشرار الامة الذين كادوا للرسول وبالغوا في الكيد له ولرسالته. ومضى الفريقان يتسابقان الى قتال اخي الرسول وخيرته في حماس لم يظهروا مثله في جهاد المشركين. ودفع الفريقان المتحالفان الناس الى معارك سبحت الامة فيها بالدماء.

ولقد دفعت الامة باجيالها ثمن جنون ذلك الجيل. وكان ما دفعته من ثمن اغلى ما لديها وانفس ما اعطاها الاسلام. لقد انهت حكم الامام فانهت الخلافة الراشدة الى الابد.

على ان ما حدث ينبغي ان يحملنا على ان نتساءل: هل كانت غاية الاسلام ان تستمر الخلافة الراشدة ثلاثين سنة فقط؟ وهل كانت الغاية ان يستظل الناس بحكم عادل يخضع للقانون الاسلامي تلك المدة القصيرة؟ ام كانت الغاية ان تعيش الامة باجيالها في وحدة واخاء وعدل؟

ما من شك بأن الغاية لم تكن ثلاثة عقود من السنين. ولكن اذا كانت الغاية طويلة الامد تأخذ بعين الاعتبار والاهتمام وضع الاجيال الاسلامية المتعاقبة لا وضع الجيل الاول فقط فلماذا عمرت الخلافة هذا العمر القصير؟ ولماذا انتهت حياتها بهذه السرعة العجيبة؟

ان انتهاء حياة الخلافة بهذه السرعة ينبغي ان يحملنا على ان نتساءل: هل كان هذا الموت المفاجىء نتيجة طبيعية لسير المسلمين على منهاج وضعه الرسول اذ ترك الرسول (كما يعتقد جمهور المسلمين) امر قيادة الأمة الى اصحابه لينتقوا بعد

موته من يقودهم حسبما يمليه عليهم تفكيرهم واخلاصهم حينا أو تمليه عليه مصالحهم واطماعهم حينا آخر؟

ام ان موت الخلافة المفاجيء كان نتيجة طبيعية لاهمال المسلمين منهاجاً وضعه الرسول اذ اختار لأمته قائدا من بعده فلم يرض اصحابه بقيادة من اختاره؟

واذا اردنا ان نبحث عن الجواب لهذا التساءل عن هذه النقطة المهمة من التاريخ الاسلامي في تلك الحقبة فمن المناسب ان نضع سؤالين:

(١) هل كان ينبغي ان تكون الخلافة بالوراثة أو بانتخاب شعبي أو بعهد نبوي؟

(٢) واذا كان ينبغي ان تكون بعهد نبوي فهل كان ما ينبغي ان يكون؟ وهل عهد النبي الى احد؟

وسنحاول في الصفحات الآتية ان نجيب على هذين السؤالين.

القسم الرابع

الخلافة في القانون الاسلامي

الفصل الثاني والثلاثون

(١)

لكي نعرف شرعية الحكومة من وجهة النظر الإسلامية ينبغي ان نعرف موقف الإسلام من حرية الفرد وشرعية تحديدها ومدى حرية الشعب في انتخاب حكامه ومدى حرية الحاكم في تشريعه الأحكام وسن القوانين.

كما ينبغي ان نعرف هل ان طبيعة المبادىء الإسلامية تتناسب مع اقامة حكومة انتخابية او وراثية او تعيينية.

ما من شك بان الإسلام يحترم حرية الفرد ويعترف بها ما دامت لا تتجاوز اوامره ونواهيه. فما دام الإنسان يتصرف في حدود ما اباحه الله فان حريته مقدسة لا يجوز لأي احد حرمانه منها. انها حق طبيعي وحرمانه منها اعتداء على حقه وظلم له. والظلم قبيح والله لا يحب الظالمين.

لقد اقر الإسلام حق الإنسان في التملك والتصرف فيما يملك كما اقر له حقه في الإنتفاع بالمتلكات العامة كاستعمال الطرق براً وبحراً وجواً.

وكما ان للفرد حرية التصرف في ملكه فله بطريق اولى حرية التصرف في نفسه ووقته. فله ان يتحرك متى يشاء ويسكن كما يشاء وان يجهد نفسه ويريحها. وله حرية الإجتماع والإنفراد، وللفرد فوق ذلك حرية التفكير وابداء الرأي. وله حرية الإنتخاب والتوكيل لمن شاء في تدبير شؤونه.

وإذا كانت هذه الحريات الفردية محترمة ومقدسة في نظر الإسلام فليس لأي فرد حق طبيعي في ان يقيد حريات الآخرين. . ولذلك فانه ليس لأحد حق طبيعي في أن يحكم الآخرين. ذلك ان الحكم يعني تقييد حرية المحكومين.

ان من شؤون الحكومة انشاء الجيوش وقوى الأمن الداخلي وتدريبها وتنظيمها وتسييرها واستعمالها في الدفاع والهجوم. كما ان من شؤون الحكومة شق الطرقات واستملاك اماكنها وتنظيم السير، ووضع الضرائب وجبايتها وتنظيم التجارة وتحديد الإستيراد والتصدير واطلاقها وتنظيم العلاقات الداخلية والخارجية.

وكل هذه وسواها من الشؤون الداخلية والخارجية تتدخل في حرية الفرد

وتقيدها وتحرمه مما يبيحه لنفسه مما هو حق طبيعي له. وليس لأي فرد حق طبيعي في أن يتدخل في شؤون الآخرين وحرياتهم اكثر مما للأخرين من الحق في ان يتدخلوا في حريته وشؤونه. وحتى المرافق العامة التي هي ملك لعامة الشعب ليس لأي فرد او افراد حق طبيعي في ان.يستبد او يستبدوا بأدارتها لأن الناس فيها سواء.

وحيث ان الحكم يقيد حرية الأفراد فان الحكومة لا تكون في نظر الإسلام شرعية (في الأحوال الطبيعية) الاّ بأحد طريقين: الإنتخاب الشعبي والانتقاء الالٓهي.

لا مكان للحكم الوراثي في الاسلام

اما الحكم الوراثي فليس له مكان في الاسلام، لأن وارث الحكم يكون مفروضا على الشعب بدون ارادته. فتصرفه في الشؤون العامة داخليا وخارجيا يكون من غير تفويض اختياري صادر عمن يحكمهم.

وحتى لو كان حكم المورث صادرا عن تفويض شعبي من الجيل المعاصر له، وحتى لو فوضه ذلك الجيل بتسليم الحكم الى وارثه ليحكم جيلا مقبلا فان حكم وارثه لا يتمتع بشرعية اسلامية. ذلك ان الجيل المقبل له مثل حقوق الجيل الاول، وليس للجيل الاول حتى في ان يقيد حرية ابنائه واحفاده. فكل ما يتمكن منه الجيل المعاصر للحاكم المورث هو ان يفوضه في تدبير شؤونه. وليس له ان يفوضه او يفوض وارثه في تدبير شؤون جيل يأتي بعده.

فللجيل المقبل ان ينقض ما اقره الجيل السابق وان يمتنع عن تفويض الحاكم الوارث بتمثيله وادارة شؤونه. بل له ان يمتنع عن تفويض الحاكم المورث لو استمر حكمه الى زمن الجيل الجديد.

ولو رضي الجيل الجديد بحكم وارث الحاكم الاول فان حكومة الوارث تصبح شرعية لا لأن له حق الحكم بالوراثة. بل لأن الجيل الجديد رضي بحكمه وفوضه

بارادته بان ينوب عنه في تدبير شؤونه. وبذلك تكون حكومة الحاكم الجديد انتخابية لا وراثية.

هذا موقف الاسلام وعلمائه من الحكم الوراثي. **ولا تحسبن ان علماء الشيعة يقولون بوراثة اهل بيت الرسول للحكم. كلا فعلماء الشيعة ابعد المسلمين عن القول بالوراثة. انهم يرون ان امامة اهل البيت بانتقاء من الله وعهد من الرسول، لا بوراثة منه.**

اجـــل ان شرعية الحكومة في نظر الاسلام في الاحوال الطبيعية لا تتحقق الا بانتخاب شعبي او انتقاء آلهي.

شرعية الحكومة الانتخابية

ان الشعب حينا ينتخب حكومة فان إنتخابه للحاكم تفويض منه للحاكم وتوكيل له في ان يمثله. فكل تنظيم يحدثه الحاكم يحدد حرية المحكوم برضاه وتفويضه، لا ضد ارادته واغتصابا لحقه. والحاكم بالحقيقة هو الشعب نفسه، لأن الحكومة تمثله وتعمل بارادته. ومعنى ذلك ان الأفراد الذين انتخبوا حكومتهم هم الذين قيدوا حرياتهم وتجاوزوا برضاهم عن بعض ما يحق لهم.

وحكومة بعهد نبوي

وكما ان للفرد الحق في ان يقيد حرية نفسه، فانِ لخالق الفرد ان يقيد حرية الفرد لأن الخالق هو معطي الحرية فله ان يقيدها ويحددها كما يشاء.

ولأن للخالق الحق في تقييد حرية مخلوقاته نراه ارسل رسلا يبلغون عباده اوامره ونواهيه وسائر قوانينه التي تحدد حرياتهم بالزامهم بعمل ما لا يريدون عمله وترك كثير مما لا يريدون تركه. كما تحدد لهم مدى اختيارهم.

وإذا كان لخالق الأفراد والشعوب الحق في ان يقيد حرياتهم فان له الحق في ان يختار لهم حاكما يقوم على تنفيذ قوانينه التي انزلها على رسله.

وإذا اختار الله لعباده حاكما فان اختياره ملزم لهم. ولا يحق لهم ان يختاروا

لأنفسهم غير ما اختاره الله لهم. واختياره لهم خير من اختيارهم لأنفسهم. ذلك انهم إذا اختاروا لأنفسهم فانهم يتجاوزون عن بعض حرياتهم برضاهم، ولكنهم لا يضمنون بذلك صلاحهم، لأنهم لا يعرفون على وجه اليقين ما هو خير لهم ولا يرون مستقبلهم. ولكن حينما يختار الله لهم فانه يعرف ما يصلحهم ويرى مستقبلهم كما يرى حاضرهم وماضيهم.

من الطبيعي ان يفكر القارىء ان فكرة انشاء حكومة آلهية يختارها الله هي فكرة افتراضية لا وجود لها. وليس في متناول الشعوب والأمم الاَّ حكومات انسانية. افضل انواعها حكومة تنشأ عن طريق الإنتخاب الشعبي.

ذلك حق حيث نحن الآن. ولكن وجود حكومة بانتخاب آلهي كان ممكنا في زمن الرسول الأعظم. وهو نفسه كان حاكماً بانتقاء الهي. ودليل ذلك ان الله امر المؤمنين بطاعة الرسول فقال:

﴿يَا أَيُّها الَّذِيْنَ آمَنُوْا أَطِيْعُوْا اللَّهَ وَأَطِيْعُوْا الرَّسُوْلَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ. فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِيْ شَيْءٍ فَرُدُّوْهُ إِلىٰ اللَّهِ وَالرَّسُوْلِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُوْنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ.. ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيْلاً.﴾[1]

وقد كان للرسول الحق في ان يقيم للمسلمين من بعده حكومة يختارها لهم. والقرآن يعطيه هذا الحق:

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِيْنَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ. وأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ...﴾[2]

وإذا كان له الحق في المؤمنين اكثر مما لهم الحق في انفسهم كان له الحق في ان يختار لهم حكومة من بعده. فهو ينظر بنور الله والوحي يسدده. انه يعرف ما هو الأَصْلَحُ لِأُمَّتِهِ. واذا اختار لها حكومة كان اختياره ملزماً لها. وليس لها ان تختار لنفسها بعد اختياره. والقرآن ينطق:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُوْلُهُ أَمراً أَنْ يَكُوْنَ لَهُمُ الْخِيرةُ

---

(١) سورة النساء رقم ٤ آية ٥٩

(٢) سورة الأحزاب (رقم ٣٣) آية ٦

فِيْ أَمْرِهِمْ. وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيْناً﴾[٣]

لقد كانت الحكومة النبوية حكومة آلهية وكان للنبي الحق في ان يعين حكومة آلهية تخلف حكومته بعد موته. ولو كانت الحكومة الخالفة بتعيين نبوي لكانت مضمونة السداد لأنه، وهو مؤيد بالوحي السماوي، اعرف بما يصلح امته واعرف بأصلح اتباعه لقيادة الأمة ونشر الدعوة الإسلامية في امم اخرى.

ولو وقع هذا لكان افضل للمسلمين واجدى لهم ولدينهم من ان تقوم بعد وفاة الرسول حكومة ينتخبونها او تنتخبها أكثريتهم وإن اجتهد المنتخبون في اختيار ما يرونه الاصلح. لأنهم لا يعرفون تطورات المستقبل فقد ينتخبون من يظنون صلاحه فيخلف ظنونهم وقد يكون صالحا واقعا ثم يقع في إخطاء يعذر عليها ولكنها تؤدي الى الأضرار بمستقبلهم ومستقبل اجيال تأتي.

ومما ذكرنا يظهر انه حينما لا يمكن اقامة حكومة بعهد من الرسول فان طريق اقامة حكومة شرعية بنظر الإسلام (في غير الأحوال الأضطرارية) هو الإنتخاب الشعبي لا غير. ذلك ان الإنتخاب يجعل الحكومة ممثلة لمن تحكمه ووكيلة عنه برضاه. وإذا حددت من حرية الشعب بقراراتها لم تكن معتدية عليه لأنه هو الذي رخص لها بتحديد حرياته حينما انتخبها. على ان شرعية الحكومة المنتخبة في نظر الإسلام ليست مطلقة. ذلك ان لا يجوز للمسلمين ان ينتخبوا الفساق الذين تتعارض اعمالهم ومناهجهم مع التعاليم الإسلامية والقرآن ينطق:

﴿وَلاَ تَرْكَنُوْا إِلَى الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وما لَكُمْ مِنْ دُون اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُوْن﴾[٤]

﴿وَتَعَاوَنُوْا عَلَى البِرْ وَالتَّقْوَى. وَلاَ تعَاوَنُوْا عَلَى الإِثْمِ وَالْعِدْوَانْ. وَاتَّقُوْا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيْدُ الْعِقَابْ﴾[٥]

وانتخاب الفساق للحكم وتفويض الأمر اليهم ركون الى الظلمة الذين يظلمون

---

(٣) سورة الأحزاب آية ٣٦

(٤) سورة هود (رقم ١١) آية ١١٣

(٥) سورة المائدة (رقم ٥) آية (٣)

انفسهم او سواهم او تعاون معهم على الإثم والعدوان.

أضف الى ذلك ان القرآن هو دستور المسلمين وحكوماتهم. فإذا خالفت الحكومة دستورها منهجا وتشريعا تكون غير شرعية في اعمالها. وحينما تكون الحكومة حكومة خلافة تعاهد المبايعين على العمل بكتاب الله وسنة نبيه ثم لا تفي بعهدها فإنها تفقد شرعيتها ولا يجب على الناس ان يفوا لها بالطاعة.

لذلك يجب ان يبذل المسلمون الناخبون جهدهم ليضعوا على كرسي الخلافة من يثقون بتقواه وعلمه وحرصه على تطبيق الشريعة وعلى مصالح الأمة ومقدرته على قيادتها والاّ فان انتخابهم لمن لا يرون فيه توفر هذه الكفاءات تهاون بمصالح الأمة وخيانة للإسلام.

بالطبع لا يتمكن المنتخبون ان يعلموا علم اليقين توفر الكفاءات اللازمة فيمن ينتخبونه. ولكنهم إذا بذلوا جهدهم في معرفة كفاءات من ينتخبونه فقد ادوا ما عليهم.

هذا كله إذا كان انشاء حكومة بعهد نبوي خاص غير ممكن. اما إذا كان ذلك في حيز الأمكان (وقد كان الأمر كذلك قبل ان يرحل النبي عن هذا العالم)، فان الحكومة الإنتخابية تكون غير وارده. بل يكون من وظيفة الرسول واحدى واجباته ان يختار لأمته قائدا من بعده. وذلك للأسباب التالية:

- ٢ -

طبيعة المباديء الأسلامية لا تتلاءم مع الأنتخاب

(١)ان ترك مصير اي رسالة اصلاحية الى الإنتخاب الشعبي يعرض الرسالة الى اخطار حقيقية ويؤدي في اكثر الأحيان الى هدم الرسالة وفشلها. فالمبادىء الإصلاحية سواء كانت سماوية او ارضيه تتعارض بطبيعتها مع الرغبات الشعبية ولذلك فانها لا تتلاءم مع الإنتخاب. ولإيضاح ذلك ينبغي ان نذكر ان المبادىء

التي تقوم على اسسها حكومة تكون من نوعين:

النوع الأول:المبادىء الشعبية. التي تتقبلها الجماهير لأنها تسير مع رغباتهم. وغايتها ان ترضي الأكثرية منهم. هذه المبادىء لا تفرض على الشعب فرضا بل تخضع لآرائه وتتغير كلما اراد تغييرها. ومن هذا النوع كل المبادىء التي تقوم على اسسها الحكومات الديمقراطية التي تأتي بانتخاب الشعب ويكون الشعب رقيبا عليها. هذا النوع من المبادىء يتناسب بطبيعته مع الإنتخاب الشعبي. فما دام المهم ارضاء رغبات الجماهير فان على الجماهير ان تنتخب من تراه اكثر ارضاء لرغباتها. ويكون واجب الحكومة المنتخبة سن القوانين وإصدار القرارات التي ترضي رغبات المنتخبين. وما دامت الحكومة تفعل ذلك فإنها تبقى شرعية بالنسبة لمنتخبيها. واذا صادمت قوانينها رغباتهم وسحبوا ثقتهم بها فان بقاءها يصبح غير مشروع. ومن المنطق ان يؤتمن الشعب على مثل هذه المبادىء وان يكون رقيبا على الحكومة اولاً وآخرا. فكل انحراف من الحكومة يكون بالطبع ضد رغباته التي هو اعرف بها ويحافظ بطبعه عليها ويزيل اي حكومة تنحرف عنها ويحاسبها على احطائها عندما يأتي مدة ثانية الى صناديق الإقتراع.

النوع الثاني: المبادىء الإصلاحية التي تتعارض مع رغبات الشعوب. هذا النوع من المبادىء غايته اصلاح الناس وتغيير عقائدهم وطرق حياتهم.

ان المبادىء التي يقصد منها تغيير افكار الناس وعاداتهم وطرق حياتهم هي مبادىء تولد عادة في ذهن مفكر ثم ينادي بها ويدعو الناس اليها فتعتنقها اقلية وتعارضها الأكثرية.

فلو ان صاحب المبادىء والأقلية التي آمنت بمبادئه وصلوا الى الحكم عن طريق انقلاب او ثورة او اي طريق آخر وقامت حكومة رئيسها صاحب تلك المبادىء فان واجب الرئيس المؤسس وحكومته تطبيق تلك المبادىء ونشرها والمحافظة عليها كما ان من واجب رئيس الدولة ان يختار وهو في الحكم، من يراه اخلص حزبه للمبادىء واقواهم على تحمل المسؤولية ليكون نائبا له وليقوم مقامه ان حدث به حادث. قد يختاره عند وصوله الى الحكم وقد يختاره بعد سنوات. ولكنه على كل حال يختاره وهو في الحكم.

وإذا كان رئيس الدولة يختار نائبه حتى في الحكومات الديمقراطية ولا يترك حتى لأعضاء حزبه ان يختاروا نائب رئيسهم. فاحر برئيس دولة تقوم على اسس مبادىء اصلاحية ان لا يترك اختيار نائبه لانتخاب شعبي او حزبي.

ان حكومة من هذا النوع هي حكومة اقلية. وهي في نظر نفسها حكومة لإصلاح الشعب. ولكنها في الوقت نفسه ليست حكومة بارادة الشعب لأن الشعب لا يرغب في مبادئها. ولذلك فان مصيرها ومصير الحكومة التي تخلفها لا يتركان لإنتخاب الشعب الذي فرضت عليه مبادئها. لأنه قد ينتخب اعداء تلك المبادىء بدلاً من المخلصين لها. فيكون الإنتخاب الشعبي وأداً لتلك المبادىء التي نادى بها رئيس الدولة وآمن بها حزبه.

وهكذا نرى ان الحكومات الثورية التي تعتبر نفسها ذات مبادىء اصلاحية لا تسمح بقيام انتخابات شعبية حرة. لأنها تعرف ان مبادئها غير مرغوبة للشعب. ولو ترك الأمر له لكان يخشى منه ان يزيل الأنظمة التي نادت بها تلك الحكومات.

ولإيضاح ذلك نفرض ان اقلية تؤمن بصحة نظام كالنظام الأميركي المناقض للمبادىء الشيوعية وصلت الى الحكم في روسيا الشيوعية ونجحت في فرض المبادىء اللاشيوعية على الشعب الروسي بعد ان نشّأ اجياله على الإيمان بالشيوعية.

انه يكون من غير المتوقع من حكومة كهذه ان تترك امر اختيار الحكومة المقبلة الى الشعب ليأتي بالحكومة التي يرغبها. لأن نتيجة الإنتخاب ستكون هدما للمبادىء التي قامت على اسسها الحكومة الأولى.

وكذلك يكون الأمر لو ان اقلية شيوعية وصلت الى الحكم في الولايات المتحدة الأميركية، حيث يكون من غير المتوقع ان تترك مصير الحكومة المقبلة لإنتخاب شعبي حر لأنّ اكثرية الشعب سوف تختار ممثلين يؤمنون بالنظام الرأسمالي بدلا من الشيوعية.

ولا يتوقع من مؤسس دولة من هذا النوع ان يترك اختيار نائبه لإنتخاب الحزب الذي آمن بمبادئه، لأن اعضاء الحزب قد يختارون جهلا بالرغم من اخلاصهم للمبادىء، من لا يراه رئيس الدولة اكثر الأعضاء جدارة بالقيادة.

واختيار غير الكفء خطر على اي نظام. ولكنه اشد خطراً على نظام ثوري جديد بالنظر الى ان الشعب لا يرغبه.

فاختيار غير الكفء يكون بالنتيجة عونا للشعب على التخلص من النظام الذي فرض عليه. ولذلك فان مؤسس الدولة يرى ان من اهم واجباته تجاه نظامه ان يختار نائبا له من يراه اشد الأعضاء اخلاصا للمبادىء واعلمهم بها واقدرهم على قيادة الحزب والأمة.

المبادىء الاسلامية مبادىء اصلاحية.

ومعنى ذلك ان المبادىء الاصلاحية اقل تلاؤمامع الانتخاب من اي مبادىء اخرى.

ما من شك في ان المبادىء السماوية عامة والمبادىء الاسلامية خاصة هي من المبادىء الإصلاحية التي جاءت لتغيير عقائد الشعوب وتفكيرها وطرق حياتها. لقد كانت الشعوب دائما ميالة الى عبادة الأصنام او انكار الألوهية فجاءت الأديان السماوية تحاول تغيير عقائد الناس وهدايتهم الى عبادة آله واحد. والناس بطبيعتهم ميالون الى المادية بكل انواعها والى ارضاء شهواتهم الجسدية الى غير حد والى اتيان الفواحش والاعتداء على حقوق الاخرين واخذ ما ليس لهم. والأديان السماوية تحاول ردعهم عن ذلك وتاريخ النبوات هو تاريخ نضال بين رسل الله ومن ارسلوا اليهم. وكل نبي لقي من قومه عنتا لأنه كان يحاول منعهم عما يرغبون.

والاسلام بصورة خاصة يقف ضد رغبات الناس لكثرة قوانينه ولكثرة ما يتطلب من الناس ضد رغباتهم. ويكفي ان نذكر الصلوات الخمس في كل يوم: والصوم شهراً كاملا في كل سنة حيث يمنع فيه الناس طيلة ايامه عن طعامهم وشرابهم: وتحريم نظر كل من الرجل والمرأة الى الآخر بشهوة الزنا. فضلا عن الزنا وتحريم قذف المؤمنين والمؤمنات والمسكرات والغيبة والنميمة والكذب والقمار. وفوق كل ذلك وقوف الاسلام ضد اي تعصب قبلي او عنصري وطلب الاسلام من المسلم وقوفه الى جانب الحق وان كان عدواً له وضد المبطل وان كان أخاه: الى

غير ذلك من التعاليم التي تتنافى مع شهوات الفرد وسلوك الجماعات وكلها صعبة على النفوس الاّ القليل من المؤمنين الذين سما بهم الايمان الى ما فوق طبائعهم.

واذا كان يتطلب من مؤسس دولة ذي مبادىء ثورية ان يختار بنفسه نائبا ليقوم مقامه عند الحاجة ويخلفه عند موته وان لا يترك اختيار نائبه لانتخاب حزبي فان رسول الله اولى بان يختار نائبه. (فما الخليفة الاّ نائب الرسول) وان لا يترك ذلك الى انتخاب اصحابه في حياته او بعد موته.

انه اولى من اي مؤسس دولة بان يفعل ذلك لأن مبادئه الاصلاحية سماوية مقدسة. فهي اولى بان يحافظ على مستقبلها من أي مبادىء اخرى.

ولان مبادئه السماوية لا يجوز لأصحابه ولا لجموع البشر أن يغيروها او يبدلوها بينما المبادىء الاصلاحية الزمنية يمكن للحزب ان يغيرها ويبدلها.

ولأن المبادىء السماوية المقدسة ثقيلة على الناس حتى المؤمنين بها، ولذلك ترى المنتمين اليها دائما اقرب الى المعصية منهم الى التقوى. لأن القوانين السماوية ضد الشهوات البشرية بينما المبادىء الزمنية الاصلاحية وان نفر منها الشعب بادىء بدء فانه يمكن ان يتقبلها وينجذب اليها إذا طال الزمن لأنها مادية وفي اغلب الأحيان اباحية لا تهتم بعلاقة بين المخلوق والخالق واباحيتها تجذب الناس اليها.

فإذا كانت اي مبادىء اصلاحية زمنية لا تتلاءم بطبيعتها مع الانتخاب والمحافظة على مستقبلها تتطلب من رئيس الدولة ان يختار بنفسه من يراه اصلح اعضاء حزبه نائبا له، فان المبادىء الاسلامية اقل تلاؤما مع الانتخاب. والمحافظة على مستقبلها ادعى لأن يختار الرسول بنفسه نائبه.

ان ترك الرسول اختيار نائبه الى صدف الانتخاب سيما إذا كان الانتخاب بعد موت الرسول تعريض للرسالة الى الأخطار ودفع لها الى مستقبل مظلم غير معروف المصاير. فقد يأتي الانتخاب بالأصلح وقد يأتي بغير الكفء علما او حزما او تقوى.

والقيادة الجاهلة او غير الحازمة او المتحللة خطر على الاسلام والمسلمين لأنها تؤدي الى الانحراف، والناس اتباع لقادتهم. والرسالة امانة في يد الرسول، وحاشا

للرسول ان يتهاون في امانته المقدسة.

اجل ان الانتخاب كثير الصدف: ولذلك فهو غير مأمون العواقب ولا يتوقع من الرسول اعظم الأمناء ان يترك امانته للصدق، فقد يسعد الحظ فيأتي الانتخاب بصالح القيادة. وكثيرا ما لا يسعد الحظ فتكون النتيجة معكوسة. وقد كان المسلمون محظوظين حينما اختاروا بعد موت الرسول ابا بكر (رض) الذي هو علم في اعلام الصحابة. ذلك الرجل الذي امتلأت ايام حكمه القصير بجلائل الأعمال. لقد وفق المسلمون باختيار هذا القائد. ووفق هو حينما اختار عمر خليفة من بعده فسجل هذا الخليفة من الانجازات المهمة ما حفلت به كتب التاريخ. ولكن وصول هذين الرجلين الكبيرين الى الحكم دون ان يكون ذلك بعهد من الرسول لا يعني ان الامة كانت بغنى عن عهد من الرسول. وسجلهما الناصع لا يبرر الرأي الشائع بين مفكري المسلمين من ان الامة لم تكن بحاجة الى ان يختار الرسول لها من يقودها.

ان مرد هذا الخطأ الشائع الى ان اضواء تاريخ الخليفتين بهرت اعين المفكرين المسلمين فنسوا امرين مهمين:

اولهما ان مدة حكم الشيخين امتدت نحوا من اثنتي عشر سنة فقط. وصلاح حكمهما مهما كان شديد التأثير يمكن ان يصلح امر الأمة مدة بقائه لا بعد زواله. وغاية الرسالة لم تكن ان يصلح امر الأمة ويستمر تطبيق التعاليم الاسلامية مدة اثنتي عشر سنة فقط.

ثانيهما انه إذا كان الحظ قد اسعد المسلمين بوصول خليفتين صالحين الى الحكم فان هذا الحظ السعيد لم يستمر طويلا. فقد اجرى المسلمون (او بالأصح ستة من كبارهم) بعد موت الخليفة الثاني انتخاباً بأمر ذلك الخليفة ففاز بالوصول الى الحكم صحابي بارز طيب القلب ضعيف العزم لم يحسن التصرف باموال المسلمين فجر ضعفه الى قتله. وجر قتله على المسلمين من الحروب والفتن والمحن ما لا يحصى وما لا يزال باقيا الى اليوم وسيبقى بعد اليوم الى ما شاء الله.

ثم انتخب المسلمون من بعده الامام علي بن ابي طالب وهو ابن عم الرسول واخوه واشبه المسلمين بالرسول هديا وقولا وعملا. ولو انهم أسلسوا لهذا الامام العظيم القياد لحملهم على الحجة الواضحة التي ارادها لهم الرسول. ولكنهم لم يفعلوا ذلك نتيجة لتطورات عكسية ولدت ايام حكم الخليفتين الثاني والثالث وتعاظمت، بقتل الأخير فخسر المسلمون صفقة كان يتوقع ان تعود عليهم باعظم الأرباح ثم توالى من بعد ذلك عشرات بل مئات من الحكام. جاء البعض منهم الى الحكم بواسطة بيعات تبدو اختيارية وجاء البعض الآخر الى الحكم مفروضا على الناس بقوة السلاح. والكثرة الساحقة من هؤلاء واولئك لم تكن ممن قال الله فيهم: ﴿الَّذِيْنَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِيْ الْأَرْضِ أَقَامُوْا الصَّلَاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوْا بِالْمَعْرُوْفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ..» بل كانوا قدوة للمسلمين غير صـــالحة. والناس اتباع لحكامهم إلاَّ من رحمه الله.

وهكذا غاص المسلمون الى ما فوق آذانهم في حروب وفتن ودماء وشقاء. وإذا قوبلت مدة حكم الخليفتين بالمدة التي حكم فيها المئات من هؤلاء الحكام من امويين وعباسيين وعثمانيين وسواهم. فان النسبة هي نسبة يومين مضيئين الى مجموع إيام سنة مظلمة. وليس من المنطق ان تنسينا اضواء يومين ظلمات كل ايام السنة. وهذا ما يظهر خطأ القول باستغناء الأمة عن اختيار الرسول لقائد يقودها من بعده.

ان غاية الرسالة الاسلامية استمرار حكم القرآن والسنة النبوية وتحقيق الهدف الذي اعلن القرآن:

﴿هُوَ الَّذِيْ أَرْسَلَ رَسُوْلَهُ بِالْهُدَى وَدِيْنِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّيْنِ كُلِّهِ وَلَوْكَرِهَ الْكَافِرُوْنْ﴾.

ولكي يمكن تحقيق ذلك فإن على الرسول ان يقدم ما يتمكن من تقديمه من ضمانات للرسالة واستمرارها وانتشارها وللأمة وصلاحها وصلاح اجيالها. وان اول هذه الضمانات اللازمة هو ان يختار نائبا له يقوم مقامه ويخلفه بعد موته وبالطبع ان فعل ذلك فانه يختار اعلم المسلمين بكتاب الله وسنن النبوة واخلصهم لله ولرسوله واحرصهم على مصالح الأمة واقواهم على تحمل المسؤولية.

وإذا وصل هذا النائب الى الحكم فانه ينتظر منه ان يفعل مثل ما فعل النبي ويختار لنفسه نائبا يتحلى بتلك المؤهلات. ونائبه بدوره يتبع نفس المنهاج. وهكذا الى ان يتحقق الهدف القرآني ويصبح تطبيق المبادىء الاسلامية طبيعة ثانية للمسلمين على اختلاف لغاتهم وقومياتهم واجناسهم.

– ٣ –

الاخطار التي تنتظر الامة

اما السبب الثاني الذي يحملنا على الأعتقاد بان اختيار قائد للأمة بعد وفاة الرسول كان من وظائف الرسول واحد واجباته الكبرى فهو ان الرسول كان على علم بان الأمة قادمة بعده على ازمات شديدة.. وقد بدأت الفتن تظهر في ايامه. فقد ظهر مسيلمة الكذاب والاسود العنسي في ايام الرسول يدعيان النبوة ووجد لهما اتباع وتفاقم خطرهما بعد ذلك.

وقد تحدث الرسول عن فتن قادمة كثيرة كبيرة توقع حدوثها بعد موته. فقد روى الحاكم في المستدرك[٦] والامام احمد في مسنده[٧] وابن هشام في سيرته[٨] وابن سعد في طبقاته[٩] عن ابي مويهبة مولى رسول الله ان الرسول قال له ذات ليلة قبل موته بقليل:

« يا ابا مويهبة، اني قد امرت ان استغفر لأهل البقيع فانطلق معي. فانطلقت معه. فلما وقف بين اظهرهم قال: السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهن لكم ما اصبحتم فيه مما اصبح فيه الناس. لو تعلمون ما نجاكم الله منه. اقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع اوّلها آخرها. الآخرة شر من الأولى ».

---

(٦) ج ٣ ص ٥٦
(٧) ج ٣ ص ٤٨٩
(٨) ج ٢ ص ٦٤٢
(٩) ج ٢ ص ٢٠٤

وقد اخبر (ص) ان عديداً من اصحابه سوف يفتنون بعد موته. واليك عديدا من الصحاح التي تصرح بذلك:

روى البخاري في الجزء الثامن من صحيحه (في كتاب الدعوات باب الحوض ص ١٤٩) عن انس، عن النبي (ص) انه قال: « ليرِدَن علي ناس من اصحابي الحوض حتى (إذا) عرفتهم اختلجوا دوني. فاقول: (يا رب) اصحابي فيقول: لا تدري ما احدثوا بعدك».

وفي المصدر نفسه ص ١٥٠ عن ابي حازم عن سهل بن سعد ان النبي قال: «اني فرطكم على الحوض. من مر علي شرب، ومن شرب لم يظمأ ابدا. ليرون علي اقوام اعرفهم ويعرفونني ثم يحال بيني وبينهم» قال ابو حازم فسمعني النعمان بن عياش فقال هكذا سمعت من سهل؟ فقلت نعم.

فقال: اشهد عن ابي سعيد الخدري لسمعته وهو يزيد فيها:

فاقول: انهم مني فيقال: انك لا تدري ما احدثوا بعدك. فاقول سحقاً سحقاً لمن غيَّر بعدي». وروى مثله مسلم في صحيحه. ج. ١٥ ص ٥٣ - ٥٤.

وروى البخاري (في باب الحوض) ايضا عن سعيد بن المسيب عن ابي هريرة انه كان يحدث ان رسول الله قال:

« يرد علي يوم القيامة رهط من اصحابي فيحلؤون عن الحوض. فاقول: يا رب. اصحابي. فيقول: انك لا علم لك بما احدثوا بعدك. انهم ارتدوا على ادبارهم القهقري».

وعن سعيد بن المسبب ايضا انه كان يحدث عن اصحاب النبي ان النبي قال ذلك.

وفي ص ١٥١ من عطاء بن يسار عن ابي هريرة عن النبي انه قال:

« بينا انا قائم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم، فقال (لهم): هلم. فقلت اين؟ قال: الى النار والله. قال: انهم ارتدوا بعدك على ادبارهم القهقرى. ثم إذا زمرة. حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم. فقال (لهم): هلمّ. قلت اين؟ قال: الى النار. قلت ما شأنهم؟ قال: انهم ارتدوا بعدك على

ادبارهم القهقرى. فلا اراه يخلص منهم الامثل همل النعم».

وروى البُخاري في الجزء الرابع من صحيحة في كتاب بدء الخلق في باب قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيْمَ خَلِيْلاً﴾ ص ١٦٩ عن سعيد بن حبير عن ابن عباس عن النبي انه قال:

«انكم محشورون حفاة عراة غرلا. ثم قرأ: كما بدأنا اول خلق نعيده، وعداً علينا انا كنا فاعلين. واول من يكسى يوم القيامة ابراهيم. وان أناسا من اصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال فاقول: اصحابي، اصحابي. فيقول (الله): انهم لم يزالوا مرتدين على اعقابهم منذ فارقتهم. فاقول كما قال العبد الصالح: وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم الى قوله: الحكيم».

وروى مسلم في صحيحه (ج ١٥ ص ٥٩) عن شقيق عن عبد الله قال: قال رسول الله (ص):

«انا فرطكم على الحوض ولأنازعن اقواما ثم لأُغلبن عليهم.

فاقول: يا رب اصحابي، اصحابي. فيقال: انك لا تدري ما احدثوا بعدك».

وروى مسلم في صحيحه (ج ١٥ ص ٦٤) عن انس بن مالك ان النبي قال:

«ليردن على الحوض رجال ممن صاَحبني حتى إذا رأيتهم ورفعوا الي اختجلوا دوني. فلأقولن: اي ربي اصحابي. فليقالن لي: انك لا تدري ما احدثوا بعدك».

لقد رأى الرسول بنور الله مستقبل امته القريب مشحونا بالفتن التي تمتحن ايمان المؤمنين وكان يخشى منها حتى على الموتى لو عاشوا الى أيام تلك الفتن. فليس من المعقول ان يدع الناس امام تلك الفتن دون ان يقيم لهم هاديا يستضيؤ ن بنور قيادته إذا شاءوا.

ولو تركهم دون ان يقدم لهم ما يؤمنهم من ضلال تلك الفتن المتوقعة لكان كوالد علم ان ولده محاطون باخطار مهلكه وهم لا يعلمونها. فتركهم دون ان يقدم لهم ما يدافعون به عن انفسهم بالرغم من انه يملك خير وسائل الدفاع. اننا نربأ برسول الله ان يكون ذلك الأب المهمل الذي لا يقوم بمسؤوليته. ومن المنطق أن نتوقع منه وهو الأب الحكيم الرؤوف ان يترك في ايديهم افضل ما لديه من

وسائل الدفاع التي تقيهم الأخطار اذا شاؤوا استعمالها. وافضل وسيلة دفاع ضد تلك الفتن المضلة هي قيادة حكيم تهدي من شاء ان يستنير بهداها. وقد كان بوسع الرسول ان ينصب لأمته قائدا ينوب عنه ويخلفه من بعده ليكون امانا للأمة من الضلال. وما كان الرسول الا ليفعل ذلك سيا وهو يعلم من اخطار مستقبل امته ما لا تعلمه أمته.

اجل حينا يعلم الرسول أنَّ امته في هذا الوضع الحرج يكون من أهم واجباته ان يختار ربانا يقود سفينة الامة ليجنبها اخطار لجج الفتن التي يتوقع ان تمر بها. ويكون ذلك من واجباته، بصرف النظر عن طبيعة مبادىء رسالته السماوية الأصلاحية وملاءمتهااو عدم ملاءمتهاللأنتخاب. فحتى لو كانت طبيعة المبادىء الاسلامية تتلاءم مع الأنتخاب وكان الانتخاب سليم العواقب في الأحوال العادية، فانه لا يكون مأمون العاقبة في الظروف الاستثنائية التي يتوقع النبي ان تمر بها امته بعد موته. ويكون ترك مصير الأمة الى صدف الانتخاب في تلك الظروف الخطيرة اهمالا للأمانة لا يتصور ان يقع من اعظم الأمناء وسيد الأنبياء الذي بعث للناس لينقذهم من الضلال ومهالك الفتن لا ليدعهم فيها دون عون.

— ٤ —

الحاجة الى مرجع في تأويل القران وابلاغ السنن

وهناك سبب ثالث يحملنا على ان نتوقع من الرسول اختيار نائب ينوب عنه في قيادة الأمة بعد مغيبه: وهو ان الرسالة النبوية كما تركها الرسول تحتاج الى من يعرف الأمة على تفاصيلها.

لقد ترك الرسول لأمته كتاب الله والسنن النبوية وامرهم باتباعهما. وكتاب الله حمال ذو وجوه لا يعرف تأويله حتى اكابر علماء المسلمين. ونراهم يختلفون في ارائهم وكل منهم يحتج بالقرآن. وعلى سبيل المثال نذكر:

ان من العلماء من يرى ان مجرد لمس الرجل للمرأة ينقض الوضوء ويحتج لرأيه بقوله تعالى: ﴿.... وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ

أَوْ لاَمَسْتُمُ النِسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوْا مَاءً فَتَيَمَّمُوْا صَعِيْداً طَيِّباً. فَامْسَحُوْا بِوُجُوْهِكُمْ وأَيْدِيْكُمْ. إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوْراً رَحِيْمَا﴾[11].

انه يحتج بهذه الآية. لأنه يفهم من كلمة «او لامستم النساء» انها تعني مجرد اللمس، اي لمس اي عضو من جسد المرأة. ولذلك يفتي بلزوم الوضوء لو لامس الرجل يد امرأته ولو عن غير قصد.

ومن العلماء من يقول بان مجرد اللمس لا ينقض الوضوء. وان ما ينقض الوضوء هو الجماع ويستند في رأيه الى الآية نفسها حيث يفهم من ملامسة النساء ما وراء مجرد اللمس.

ويختلف العلماء في الوضوء فيرى فريق وجوب غسل الرجلين لا مسحهما. ولهذا الفريق ان يحتج بقوله تعالى: « فاغسلوا وجوهكم وايديكم الى المرافق. وامسحوا برؤوسكم وارجلكم الى الكعبين...» حيث ان من القراء من قرأ قوله وارجلكم بالنصب. ومعنى ذلك عطف الأرجل على الوجوه فكما ان الوجوه تغسل فكذلك الأرجل.

ويرى فريق آخر لزوم مسح الرجلين في الوضوء بدلا من غسلهما ولهذا الفريق ان يحتج بالآية نفسها حيث ان من القراء من قرأ قوله « وارجلكم» بالكسر. ومعنى ذلك عطف الأرجل على الرؤوس. فكما ان الرؤوس تمسح فكذلك الأرجل[12].

وفي امور تتعلق بالعقيدة التي هي اكثر اهمية من تفاصيل الوضوء وسواها نرى علماء المسلمين ينقسمون الى فرقاء وكل فريق يحتج بالقرآن وعلى سبيل المثال:

---

(١٠) سورة النساء (رقم ٤) آية ٤٣

(١١) سورة المائدة (٥) آية ٨

(١٢) ذكر الفخر الرازي (في تفسيره) ان ابن كثير وحمزة وعاصما قرأوا بالجر وان نافعا وابن عامر وعاصماً وعلى رواية) قرأوا بالنصب. نقل ذلك عن الفخر الشيخ محمود شلتوت في كتابه « تفسير القرآن الكريم» في شرح سورة المائدة ص ٣١٨ (اخراج دار القلم).

القائلون بالجبر يحتجون بآيات قرآنية منها: « .... يضل من يشاء ويهدي من يشاء...»

ومنها: « ... انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء....» .

ومنها: « ... وما تشاؤون الا ان يشاء الله...»

والقائلون بالأختيار وان الانسان غير مجبر على عمله يحتجون بآيات من القرآن منها:

« .... لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم..»

ومنها: « ... وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى».

وفي علاقة الشعب بالحكام يرى فريق من العلماء لزوم الخضوع للحاكم وعدم الخروج عليه. ولهم ان يحتجوا بقوله تعالى:

« يا ايها الذين آمنو اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الأمر منكم...» فالآية يمكن ان يفهم منها لزوم اطاعة المسلمين لأئمتهم وان كانوا فساقا يعصون الله قولا وعملا.

وآخرون يرون الخروج على الامام الفاسق المهمل لمصالح الأمة العامل في ادارة شؤونها بغير ما امر الله. ولهم ان يحتجوا بالآية نفسها حيث انها تأمر بطاعة الله ورسوله وحينا يأمر الحاكم الفاسق بالباطل لا تجب طاعته بل تجب معصيته لأن عصيانه اطاعة لله ورسوله واطاعته عصيان لله ولرسوله.

هذا قليل من كثير من الموارد التي يمكن لأصحاب الآراء المتناقضة ان يستند كل منهم الى آية أو آيات قرآنية يستظهر دلالتها على ما يذهب اليه. والقرآن لا يناقض نفسه ولا يمكن في حقيقة ما قصد من آياته ان يتفق مع المتناقضات. فلا بد ان يكون احد الفرقاء المتناقضين مخطئاً. فمن ذا الذي يدلنا على حقيقة مقاصد القرآن بعد ان ذهب النبي؟ وهل يترك ذلك للإنتخاب؟!!

هذا هو حالنا مع القرآن وهو كتاب الله الذي تلاه الرسول وحفظه اصحابه في ذاكرتهم وتلوه ليلا ونهارا وكتبت كل آية من آياته في زمن الرسول ثم جمعت كل آياته وسوره في زمن ابي بكر، فماذا يكون حالنا مع السنن النبوية وهل نحن في غنى عن مرجع في شؤونها؟ كلا!!

ان السنن النبوية لم تكتب في زمن الرسول، ولم يأمر هو احدا بكتابتها. ولم

يسجل منها شيء في كتاب يعرفه الناس الا بعد مضي القرن الأول من الهجرة. وان كان قد سجل شيء من ذلك في القرن الأول فانه لم يصل الى ايدي الناس. وان ما سجل من الأحاديث النبوية في القرن الثاني من الهجرة، او بعده في اغلبه غير متواتر. بل اكثريته المطلقة اخبار آحاد ظنية روى كل واحد منها عن النبي صحابي او اكثر فلم يسجلها الصحابي الناقل ولا من نقلت اليه. ثم رواها من نقلت اليه الى آخر. وهكذا الى ان تكاثر عدد الرواة الذين نقلوها واحداً بعد واحد. وأخيرا وبعد ان مرت في عديد من الوسائط سجل الكثير منها فكانت النتيجة ان وجد كثير من الأحاديث التي تضارب بعضها مع بعض حتى بعد ان نخلت وصفيت وسجلت فيما يسمى بالصحاح.

وإذا صرفنا النظر عن وجود الأحاديث التي ينقض بعضها بعضا فالحقيقة التي نواجهها ان الأحاديث ليست سنن الرسول نفسها. فالسنن هي اقوال الرسول وافعاله وما اقره بسكوته عنه. والأحاديث هي مصادر الاعلام التي تعرفنا عن تلك السنن.

من هذه المصادر الاعلامية ما هو قطعي. وهو الحديث المتواتر الذي رواه عدد كبير من الأصحاب الذين سمعوا من الرسول تعليما في موضوع او شاهدوا عمله في حادثة من الحوادث ووصلت الينا رواية كل واحد من اولئك الأصحاب بسندها المستقل واتفقت رواياتهم لفظا أو مضمونا. هذا النوع من الحديث هو افضل انواع المصادر الاعلامية الشرعية بعد القرآن. لأن هذا النوع يوصلنا الى معرفة يقينية بسنة الرسول في الموضوع الذي ورد فيه الحديث. ولكن هذا النوع من الأحاديث قليل جدا. وما وجد منه في كتب الحديث لا يكفي في تعريفنا عن تفاصيل التعاليم الاسلامية والسنن النبوية.

اما الأكثرية المطلقة من تلك المصادر الاسلامية فهي احاديث الآحاد التي تأتي بسند يروي فيه راو عن راو آخر. وهكذا تتصل سلسلة الحديث الى صحابي واحد (او عدد قليل من الأصحاب) روى عن الرسول قولا او فعلا. هذا النوع من الحديث لا يمكن أن يوصلنا الى معرفة يقينية بان الرسول قال او فعل ما نقله الحديث حتى لو اعتبرنا جميع الأصحاب عدولا يوثق بصحة حديثهم. ذلك اننا لم

نسمع الحديث من الصحابي ولا هو سجله في كتاب. وانما رواه عنه راو، وروى عن راوية راو آخر. وهكذا حتى جاء الحديث الينا بواسطة سلسلة طويلة من الرواة. فلو وثق علماء الحديث كل من جاء اسمه من الرواة في تلك السلسلة لما كانت النتيجة اكثر من ظنية لأن توثيق الموثقين لأكثر الرواة لم يكن عن مشاهدة بل سماع ورواية.

هذا مع ان القول بعدالة جميع الصحابة غير منطقي. ذلك ان عددا كبيرا منهم (كمعاوية وعمرو بن العاص وسمرة بن جندب والنعمان بن بشير والمغيرة بن شعبة والوليد بن عقبة وعبد الله بن ابي سرح بل وطلحة والزبير وسواهم). خاض في دماء المسلمين خوضا من اجل الوصول الى كرسي الحكم او بدافع غايات دنيوية او عداوات شخصية او كان عونا لمن خاضوا في دماء المسلمين. وبعضهم (كأبي هريرة) اكثر من الرواية عن الرسول حتى رباعدد احاديثه على مجموع ما رواه الأصحاب بالرغم من قصر صحبته وطول صحبتهم.

وقد مر في هذا الفصل، قبل قليل ان الرسول اخبر في احاديث صحيحة مستفيضة رواها الشيخان ان عددا من اصحابه سوف يفتنون من بعده وانه سوف يؤمر بهم يوم القيامة الى النار وان النبي سوف يتبرأ منهم يوم القيامة.

اضف الى ذلك اختلاف علماء الحديث في توثيق الرواة الذين جاء اسمهم في سلاسل الأسنادات. فعالم يوثق راويا وآخر يضعف ذلك الراوي. على اننا يجب ان لا ننسى ان الثقة من الرواة معرض للخطأ والنسيان.

ان الصحابي الجليل يمكن ان يروي حديثا وهو معتقد بصحة ما رواه وبأنه فهم ما قاله الرسول ومع ذلك يكون مخطئا في فهمه لما سمع. فقد ذكر مسلم في صحيحة ان عمر بن الخطاب قال لصهيب ان النبي قال:

«ان الميت يعذب ببكاء الحي» وانه قال لإبنته حفصة ان الرسول قال: «ان الميت يعذب ببكاء اهله». (او ببعض بكاء اهله) وان ابنه عبد الله روى مثل ذلك. وان عائشة لما حدثت عن رواية عمر وابنه قالت: لا والله ما قال رسول الله ان الميت يعذب ببكاء احد. ولكنه قال «ان الكافر يزيد الله ببكاء اهله عذابا. وان الله لهو اضحك وابكى. ولا تزر وازره وزر اخرى».وانها لما حدثت

بقول عمر وابن عمر قالت انكم لتحدثوني عن غير كاذبين ولا مكذبين. ولكن السمع يخطىء[13] وفي رواية انها لما سمعت ان ابن عمر يحدث بهذا الحديث قالت: وهل! انما قال: انه ليعذب بخطيئته وذنبه وان اهله ليبكون عليه». وردت عائشة حديث رؤية النبي لربه ليلة الأسراء الذي رواه الشيخان عن عامر بن مسروق الذي قال لعائشة: يا امتاه، هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد وقف شعري مما قلت: اين انت من ثلاث من حدثكم (بها) فقد كذب؟ من حدثك ان محمداً رأى ربه فقد كذب. ثم قرأت: لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير.....» وفي مسلم: وكنت متكئا فجلست فقلت: «ألم يقل الله: ولقد رآه نزلة أخرى؟ فقالت: انا اول من سأل رسول الله عن هذا فقلت: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ فقال: لا. انما رأيت جبرئيل مهبطاً[14].

ومعنى ذلك اننا لا نعلم من السنن الا القليل وهو ما عرفناه عن طريق الأحاديث المتواترة. والأحاديث المتواترة قليلة جدا. اما بقية معظم السنن فليس لدينا فيها معرفة يقينية لأن مصادر الاعلام فيها اخبار الآحاد. وخبر الواحد لو صح ووثقت كل رواته لما اوصلنا الى اكثر من معرفة ظنية.

بالطبع ان من واجبنا ان نعمل بالأحاديث التي هي من هذا النوع لأنه يستفاد من ظواهر بعض الآيات القرآنية جواز العمل بها او وجوبه.

ولكن بالرغم من لزوم العمل بها واننا معذورون عند الله، ان كانت تلك الأحاديث غير متفقة مع الواقع، فان غاية الرسالة الاسلامية ان نعمل بالسنن الحقيقية لا بالسنن المظنونة. وغاية الرسالة ان نعمل طبقا لتعاليم القرآن وما قصد من كلماته. لا ان نعمل بما يظن انه المقصود. لأن السنة المظنونة المتعارضة رواية لا تؤمننا من الضلال. بل ربما تدفعنا الى الضلال. وما الضلال الا مخالفة الواقع. **وقد كان ما يهدف اليه الرسول هو ان يترك لأمته ما يؤمنها من الضلال.**

---

(١٣) ج ٦ صفحة ٢٣٠ - ٢٣٢

(١٤) اضواء على السنة المحمدية للأستاذ محمد ابو ريه ص ٧٤ - ٧٥ الطبعة الثالثة.

لقد روي ان رسول الله قال في حجة الوداع وروته الصحاح: « اني تركت فيكم من (او ما) ان اخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي اهل بيتي » وروي ايضا في مرسل نقل عن الموطأ ورواه ابن هشام انه قال (ص) في حجة الوداع:

« ... فاعقلوا ايها الناس قولي، فاني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به لن تضلو ابدا: امرا بينا كتاب الله وسنة نبيه...[14] ».

كلتا الروايتين تدلان على ان غاية الرسول تأمين امته من الضلال والرواية الأولى واضحة الدلالة ومن السهل تفهم مدلولها. فإذا كان اعضاء عترة الرسول قد احاطوا بتأويل القرآن وعرفوا سنن الرسول كما هي ورجع الناس اليهم في تفاصيل الشريعة وتأويل القرآن أمنت الأمة من الضلال لأنها ستعرف الحق بجلاء.

اما الرواية الثانية فانها لو صحت سندا فان تفهمها يحتاج الى شيء من التأمل والتأويل لكي يصبح مضمونها معقولا ذلك أنها تنطق بأمرين: احدهما لزوم اتباع كتاب الله وسنة نبيه. وثانيهما ان اتباعهما امان للمسلمين من الضلال. ولكن اتباع الكتاب والسنة يكون امانا من الضلال إذا علمت مقاصد الكتاب وعلمت السنة كما هي. اما اتباع ما ظن انه معنى الكتاب وما ظن انه السنة فانه لا يكون امانا من الضلال. ان معلوم الكتاب والسنن يوحد المسلمين دون شك لأن الواقع في كل حكم من احكام الله واحد. لا يتعدد ولا يختلف.

ولهذا يتفق المسلمون على اتباع كل آية واضحة المعنى، وكل سنة معلومة. ولكن حينما يتصادم الظاهر من آية مع ظاهر آية اخرى ويحتاج الى تأويل هذه او تلك فان التأويل يتعدد. وكل تلك التأويلات تكون ظنية. وكل فريق يأخذ بما اختاره من تأويل ولا يكون اي من التأويلات مضمون الأتفاق مع واقع ما قصد من الآيتين.

هذا والقرآن قطعي الصدور لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. اما

---

(١٤) السيرة النبوية لأبن هشام ج ٢ صفحة ٦٠٤

الحال في الاحاديث فهو اصعب بكثير، لأن القليل منها معلوم الصدور والأكثرية المطلقة منها ظنية. وحين تكون السنن مظنونة الصدور او مظنونة الدلالة، فليس هنالك اي ضمانة باصابة الواقع. وحينما لا تتفق السنن المظنونة تكون النتيجة تعدد الأراء والأجتهادات ولا يعرف الرأي الذي يتفق مع واقع السنة. ولا يكون هناك امان من الضلال حتى لو كنا مخلصين في محاولتنا الأعتصام بالسنة. فالضلال هو عدم موافقة الواقع وحينما تتعدد الآراء فان البعض منها على الأقل لا يكون موافقا للواقع لأن الواقع لا يتعدد ولا يختلف والصدق لا يناقض صدقا آخر. **واختلاف الآراء في الدين عادة يؤدي الى الانشقاق وتجزئة الأمة وتمزق وحدتها. وكل ذلك ضلال. وكثيرا ما ادى اختلاف الأراء في تأويل القرآن والأخذ بمتعارضات الأحاديث الى القتال واراقة الدماء والتاريخ شاهد على ذلك.** وحتى لو لم يكن هنالك حديثان مختلفان في ظاهرهما بل كان في الموضوع حديث واحد وكان ذلك الحديث غير معلوم الصدور فان الضمانة ضد الضلال تكون مفقودة وان كنا نحاول مخلصين ان نعتصم بالسنة.

اجل ان الرسول يخبرنا بمقتضى هذا الحديث اننا إذا اعتصمنا بالقرآن وبسنن النبي فاننا نكون بمأمن من الضلال. ولكنه ترك لنا القرآن مكتوب الآيات معلومها. أما سننه فانه لم يتركها لنا مدونة معلومة. وما دامت غير معلومة فهي لا تمثل ضمانة ضد الضلال.

والمذاهب الاسلامية المتعددة دليل مادي على ان القرآن والسنن المروية الظنية لم يكونا أمانا للأمة من الضلال. فاصحاب المذاهب بالرغم من إعتمادهم في فتاويهم على الكتاب والسنة لم يتفقوا. ولو اتفقوا لما تكونت مذاهب عديدة بل كان هنالك مذهب واحد. وبتعدد المذاهب وقع الاختلاف بين المسلمين وكثيرا ما ادى الخلاف الى الشقاق والعداء بل والقتال وان يستحل فريق دماء الفريق الآخر. فأين الأمان من الضلال؟

ولكن الرسول لا يقول الاّ صدقا. فلا بد ان يكون عنى بالسنن معلومها لا مظنونها دلالة او سندا. وإذ لم تكن السنن معلومة للمسلمين فلا بد ان يكون قد ترك لأمته وسيلة تتمكن بواسطتها (إذا أرادت) ان تعرف سنن الرسول معرفة

يقينية وتتمكن بواسطتها ايضا ان تعرف معاني القرآن كما قصدت.

ومن المنطق ان تكون هذه الوسيلة شخصا عارفاً بتأويل القرآن عالما بالسنن النبوية يقوم مقام الرسول في تعليم امته ما تحتاج الى معرفته منها ومن معاني كتاب الله.

وهل يمكن ان يكون الانتخاب وسيلة للحصول على العالم المطلوب؟

لن تتمكن الأمة ان تحصل على العالم المطلوب بواسطة الانتخاب ان الأمة تتمكن ان تعطي القيادة لمن تشاء ولكنها لا تتمكن ان تجعل ذلك القائد عالما بالكتاب والسن. فانتخاب الأمة لشخص لا يغير من شخصيته ولا يجعله عالما إذا كان جاهلا ولا يجعله مكتمل العلم بالكتاب والسنن إذا كان لا يعلم الاَّ البعض منهما. ومعنى ذلك ان المنطق يحتم ان يختار النبي لأمته ذلك العالم المعلم اذا كان يوجد معلم عالم من هذا النوع يؤتمن على اداء هذه المهمة، وان لا يترك الأمر لانتخاب الناخبين. ويحق لنا أن نجزم بذلك لأن الأمة لم تنتخب بعد وفاة الرسول اعلم تلامذته لقيادتها.

وهل كان مَا ينبغي
أن يكون ؟..

الفصل الثالث والثلاثون

لقد تحدثنا في الفصل السابق عما كان ينبغي ان يكون في امر الخلافة. وذكرنا انه بالرغم من شرعية الحكومة الأنتخابية الصالحة إذا لم يكن بالأمكان وجود حكومة بعهد نبوي فان هذا النوع من الحكومة لا ينبغي ان يوجد حينما يكون بالأمكان انشاء حكومة ترتكز على عهد نبوي. وقد ذكرنا ان ما يدعونا الى الأعتقاد بان ما كان ينبغي ان يحدث والرسول على قيد الحياة هو ان يختار لأمته من يقودها من بعده هو اسباب ثلاثة:

(١) ان طبيعة المبادىء الأسلامية لا تتناسب مع الأنتخاب لأنها مبادىء اصلاحية غير مرغوبة للشعب. ومؤسس الدولة صاحب المبادىء الأصلاحية لا ينبغي ان يترك اختيار نائبه الى انتخاب الشعب او الحزب بل ينبغي ان يختار هو من يراه خير اعضاء حزبه ليكون نائبا له.

(٢) ان الأمة كانت قادمة على اخطار وفتن تمتحن ايمان المؤمنين والنبي كان يعرف ذلك. ولذلك كان ينتظر منه ان يختار ربانا لسفينة الأمة ليقودها في لجج تلك الفتن وان لا يترك امر قيادتها للأنتخاب.

(٣) ان الأمة تحتاج الى مرجع بعد النبي في تأويل القرآن ومعرفة سنن الرسول لأن الرسول لم يترك تفسيرا للقرآن مكتوبا ولا سننا مدونة. والحصول على مرجع يعرف مقاصد القرآن كما هي وحقائق السنن النبوية لا يكون بالأنتخاب، لأن انتخاب الأصحاب لشخص لا يغير شخصية المنتخب ولا يجعله عالما كامل العلم إذا لم يكن كذلك. ولن تحصل الأمة على مرجع من هذا النوع الاّ بعهد نبوي، لأن النبي يعرف اعلم اصحابه.

ولقائل ان يقول ان كل ما توحي به الأسباب الثلاثة المذكورة هو انه كان يتوقع ان يعهد النبي الى شخص معين يحمل كل المؤهلات لقيادة الأمة ولكنها لا تثبت ان ما كان يتوقع قد حدث. فهل كان هنالك عهد نبوي؟

واننا نعقد هذا الفصل للأجابة على هذا السؤال الذي ينحل الى سؤالين مهمين:

(أ) هل كان بين اصحاب الرسول من كان يحمل كل المؤهلات بما فيها

المعرفة الكاملة بتعاليم الشريعة الأسلوبية؟

(ب) إذا كان وجد بين الأصحاب شخص من هذا النوع فهل عهد اليه الرسول؟

واننا نجد الجواب على هذين السؤالين في عديد من التصريحات النبوية التي ادلى بها الرسول في مواقف متفرقة.

علي باب مدينة علم الرسول

لقد اعلم الرسول امته عن وجود رجل هو اعلم الناس بعلم الرسول واعلن لهم انهم إذا ارادوا ان يصلوا الى علم رسول الله فعليهم ان يأخذوه عن ذلك العالم. فقال (ورواه ابن عباس): «انا مدينة العلم وعلي بابها. فمن اراد العلم فليأتها من بابها.» او قال: ألا فمن اراد المدينة فليأت الباب» وروى جابر بن عبد الله الأنصاري ان الرسول قال: «انا مدينة العلم وعلي بابها فمن اراد العلم فليأت الباب.» [1]

وفي هذا التصريح نرى الرسول قد اعلم المسلمين بأمرين:

اولهما: ان العالم الذي تحتاجه الأمة موجود وان علياً بن ابي طالب هو ذلك العالم.

ثانيهما: انهم إذا أرادوا معرفة ما يوجد من علم لدى رسول الله مدينة العلم فان هنالك طريقا واحدا يوصلهم اليه: وهو علي باب المدينة. وبالطبع ان واجب المسلمين ان يحاولوا الوصول الى ما في المدينة. فيكون التاسهم لعلم علي وهدايته من واجباتهم بل من اهمها. ذلك لان العلم يسبق العمل. ولكي يصح عمل المسلمين يجب ان يكون موافقاً لتعاليم الرسول. واستمرار موافقة العمل للتعاليم النبوية يتوقف على معرفتها.

---

(١) رواه الحاكم في مستدركه ج ٣ صفحة ١٢٧ ورواه ابن جرير وصححه (كنز العمال ج ١٥ صفحة ١٣ حديث رقم ٣٧٨ - ٣٧٩) والحديث مشهور بين المسلمين.

وليست الأحاديث الدالة على ان عليا باب مدينة العلم هي الأحاديث الوحيدة الدالة على تفوق علي في العلم على سواه من الصحابة. بل هنالك احاديث كثيرة سواها اوردنا بعضها سابقاً وكلها تشهد بذلك. ويكفيك منها حديث ام سلمة زوجة النبي إذ قالت: سمعت رسول الله يقول:

« علي مع القرآن والقرآن مع علي. لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض.»[٢]

وروى الحاكم بسنده عن الحس عن أنس بن مالك ان النبي قال لعلي: انت تبين لأمتي ما اختلفوا فيه بعدي.» وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.[٣]

وروى الترمذي في صحيحه ايضا عن علي حديثا ذكر فيه ان رسول الله قال: « رحم الله عليا. اللهم ادر الحق معه حيث دار »[٤]

وروى ابو نعيم بسنده عن ابن مسعود انه قال: « إن القرآن أنزل على سبعة احرف ما منها حرف الاوله ظهر وبطن. وان عليًّا بن طالب عنده علم الظاهر والباطن »[٥]

وروى الأمام احمد ان الرسول قال لابنته الزهراء: « او ما ترضين اني زوجتك اقدم امتي سلما واكثرهم علما واعظمهم حلما؟ »[٦]

وروى الحاكم بسند، عن قيس بن ابي حازم انه سمع سعداً بن ابي وقاص يقول لشامي سب عليا: « يا هذا علام . تشتم عليا؟ الم يكن اول من اسلم؟ الم يكن اول من صلى مع رسول الله؟ الم يكن اعلم الناس؟.... ثم قال سعد: اللهم ان هذا شتم وليًّا منه اوليائك، فلا تفرق هذا الجمع حتى تريهم قدرتك. فسقط الشامي عن

---

(٢) المستدرك للحاكم ج ٣ صفحة ١٢٤

(٣) نفس المصدر ج ٣ - ص ١٢٢

(٤) ج ٥ ص ٢٩٧

(٥) حلية الأولياء ج ١ ص ٦٥ (الفيروز بادي في فضائل الخمسة).

(٦) المسند ج ٥ ص ٢٦

ظهر دابته على احجار فانفلق دماغه فمات.» [٧]

بالطبع يمكن ان يقال ان هذه الأحاديث، انما تدل على امامة علي في الشريعة ومعرفة كتاب الله وسنن نبيه. ولا تدل على امامته في السياسة والحكم. فهي لا تدل على خلافته.

ولكن هذا الأعتراض يبدو وهنه حينما نتحقق ان غاية الرسول من هذه التصريحات هي هداية امته وتعريفها عن الطريق الذي يضمن سدادها واتباعها لمقاصد القرآن وحقائق السنن النبوية. فالأمة لن تسلك ذلك الطريق إذا كانت ولاية امور المسلمين بيد غير الأمام الذي أئتمنه الرسول على علمه وشريعته وجعله باب الهداية للمسلمين.

ان سلوك المسلمين لهذا الطريق يتوقف على اتجاههم الأيجابي نحو ذلك المؤتمن دون سواه. وما حدث في التاريخ يدل على ذلك. فما روى عن علي واهل بيت النبوة نزر قليل جدا إذا قوبل بما روي عن الصحابة ممن لا يقاربونهم علما. وسنعرض لذلك بتفصيل أوفى عند التكلم عن احاديث الثقلين.

على ان هنالك تصريحات اخرى اوضح دلالة على المطلوب فمنها ما وقع قبل الهجرة النبوية، ومنها ما وقع بعد الهجرة ومعظمها اتخذت طابع بلاغات عامة وجهت الى مجموعات من الناس.

---

(٧) المستدرك ج ٣ ص ٤٩٩

حديث يوم مؤتمر الدار

الفصل الرابع والثلاثون

لقد اعلن الرسول بعد بدء الدعوة الاسلامية بثلاث سنوات ان عليا اخوه ووزيره ووصيه وخليفته، سالكا في ذلك ما يتوقعه المنطق السليم. فالنبي يحتاج الى وزير قوي معوان يعضده في نشر الرسالة وبناء الدولة المنتظرة التي سترسو قواعدها على اسس تلك الرسالة. وقد سبق في تاريخ النبوات ان موسى طلب من ربه ان يجعل له وزيرا من اهله: هارون أخاه.

والوزير الذي يقوى على مجابهة الأخطار مع الرسول ينبغي ان يكون نائبا للرسول وخليفته يحل محله إذا حدث بحامل الرسالة حادث. وبذلك يكون النبي اتخذ ما يمكن اتخاذه في تلك الظروف العصيبة من ضمانة لإستمرار الرسالة وانتشارها حينما ينتقل من هذا العالم، بدلا من ان يترك مصير الرسالة الى الصدف.

ولعل القارىء يذكر اننا تحدثنا في الفصل الخامس عما فعله الرسول حينما امره ربه بعد ثلاث سنين من بدء الرسالة بان ينذر عشيرته الأقربين يوم نزل قوله تعالى:

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيْرَتَكَ الأَقْرَبِيْنَ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْن فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّيْ بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُوْنَ﴾ (١)

لقد دعا رسول الله يوم ذاك بني عبد المطلب اعضاء عشيرته الأقربين، وهم يومئذٍ ثلاثون او اربعون، لمأدبة كان فيها قليل من الطعام وقليل من اللبن. فأكلوا وشربوا من ذينك القليلين حتى شبعوا وارتووا. وحينما حانت الفرصة تكلم رسول الله (ص) فقال (ورواه الأمام علي): «يا بني عبد المطلب اني والله ما اعلم شابا في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به. اني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة. وقد امرني الله ان ادعوكم اليه. فايكم يؤازرني على هذا الأمر على ان يكون اخي ووصيي وخليفتي فيكم؟ قال: فاحجم القوم عنها جميعا. فقلت: .... انا يا نبي الله

---

(١) سورة الشعراء (رقم ٢٦) آية ٢١٤ - ٢١٦

أكون وزيرك عليه. فأخذ برقبتي، ثم قال: هذا اخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له واطيعوا. فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: « قد امرك ان تسمع لابنِك وتطيع.»

لقد اخرج الطبري هذا الحديث في تاريخه (ج ٢ ص ٢١٦). وذكره ابن الأثير في تاريخه الكامل (ج ٢ ص ٢١) وابو الفداء في تاريخه (ج ١ - ص ١١٦) والخازن علاء الدين البغدادي في تفسيره (ص ٣٩٠) والسيوطي في جمع الجوامع (ج ٦ - ص ٣٩٢) نقلا عن الطبري وفي صفحة ٣٩٧ نقله عن الحفاظ الستة: ابن اسحق وابن جرير وابن ابي هاشم وابن مردويه وابو نعيم والبيهقي. واخرجه ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة (مجلد ٣ ص ٢٥٤) ومحمد حسين هيكل في حياة محمد الطبعة الأولى ص ١٠٤) [٢]

لقد تحدثنا في الفصل الخامس باسهاب عن جلالة مضمون هذا التصريح. وما نريد ان نذكره الآن هو ان التصريح يدل على ان الرسول كان ينظر بنور الله الى المستقبل الذي ينتظر الدعوة المباركة من انتشار في اقطار الأرض ونشوء دولة على اسس مبادئها وانه لا بد لصاحب الدعوة الذي سيصبح قائد امة من نائب ينوب عنه ويخلفه وان ذلك النائب يجب ان يطاع كما يطاع صاحب الدعوة. ولذلك قال لهم: « فاسمعوا له واطيعوا » فله مثل سلطة رئيسه.

اما ما قد يذكر في الجدل حول مدلول التصريح بانه يدل على ان عليا خليفة للرسول في بني عبد المطلب ولا يدل على انه خليفة للرسول في غير بني عبد المطلب ولا يدل على انه خليفة للمسلمين جميعا، فهو ظاهر الوهن. ان الخلافة لا تتجزأ ليكون للرسول خليفتان احدهما لبني هاشم والآخر لبقية المسلمين. كلاّ فالخليفة يكون خليفة للمسلمين اجمعين. لأن الرسول رئيس لجميع المسلمين، وخليفته كذلك.

ان المسلمين في امر الخلافة فريقان: أكثرية تقول بان الرسول لم يستخلف احدا وأقلية تقول بانه استخلف عليا بن ابي طالب. وليس هنالك من فريق يقول بان

(٢) نقد ذلك الشيخ الأميني في كتابه الغدير ج ٢ - ص ٢٧٩ - ٢٨٠

الرسول اقام خليفة له في اهل بيته وترك بقية المسلمين دون ان يستخلف فيهم. فإذا كان قد استخلف احداً فهو خليفة له في جميع اتباعه.

وما كان النبي ليدعو الى تمييز قبلي فيجعل لأهل بيته خليفة ويدع المسلمين جميعاً دون قياده. والنبي بطبيعة رسالته مسؤول عن مصير الأمة كلها اكثر مما هو مسؤول عن مصير اهل بيته. فمن غير المعقول ان ينصب لأهل بيته مرجعا دينيا يمثله ويحل محله فيهم ويترك الملايين من اتباعه دون مرجع وقيادة.

وقبل ان انهي الحديث حول هذا التصريح اود ان اقف مع القارىء قليلا لنتدبر جلاله محتوى التصريح:

خاتم انبياء الله يتخذ طفلاً لا يتجاوز عمره ثلاثة عشر سنة اخاً ووصيا وخليفة بعد ان يعطيه ذلك الطفل وعداً بان يكون وزيره في مهمته الكبرى.

اولا: ما قيمة وعد طفل في مثل هذا السن بمؤازرة في امر عظيم كمهمة الرسول التي تعنى بمستقبل عظيم الخطر من هذا النوع؟

هب ان طفلا وعدك بالمؤازرة في مشروع كبير لمستقبل طويل، كيف يمكنك ان تعتمد على وعده؟ وما هي قيمة وعد طفل يمكن ان يتغير رأيه وموقفه في ايام بل في ساعات؟

ثانيا: كيف امكن للنبي ان يعرف صلاح علي وتقواه ومقدرته على القيادة في مستقبل حياته وهو لا يزال في الثالثة عشر من سنة؟ ان حياة الطفل تتطور من سنة الى سنة. ومن الممكن للطفل الذي يبدو صلاحه ان يتغير في ايام شبابه ورجولته (وتفسد طبيعته).

ومن الممكن لطفل يبدو فساد خلقه ان يتغير ويصبح في ايام رجولته من خير الناس واصلحهم. وليس بالأمكان لأي بشر ان يعرف بيقين مستقبل طفل. ان علم ذلك لعلام الغيوب وحده.

ومن اجل ذلك ارى ان قبول النبي لوعد علي الطفل بالعمل من اجل انجاح الرسالة واخذه ذلك الوعد باعظم انواع الأعتبار واعطاءه تلك الدرجات العليا: الأخاء والوصاية والخلافة يتضمن نبوءة واضحة في امر مستقبل علي الوضاء وتفوقه

علما وتقوى وشجاعة وحكمة على سائر المسلمين. وما كان بامكان الرسول كبشر ان يرى ذلك المستقبل. وانما رآه بوحي من الله. والدرجات العليا التي اعطيت له انما كانت بامر الله ومكافأة من الله لعلي على وعده بالمؤازرة الذي علم الله انه سينفّذ باخلاص منقطع النظير.

وكل ذلك يدل على ان عليا وهو في ايام طفولته كان متفوقا على الرجال. ولذلك اختاره علام الغيوب خليفة لرسوله.

ويدل على صحة هذا الحديث وجلالة مضمونه تطابقه مع حديث المنزلة الذي سنتحدث عنه في الصفحات التالية والذي يعتبر من اصح الاحاديث عند علماء المسلمين.

حديث المنزلة

الفصل الخامس والثلاثون

لقد ذكرنا في الصفحات السابقة ان الرسول اعلن يوم انذار عشيرته الأقربين امام ثلاثين او اربعين رجلا من بني عبد المطلب انه اتخذ عليا اخا له ووصيا وخليفة من بعده مكافأة له على وعده للرسول بان يكون وزيره في مهمته. وقد كان هذا الحادث بعد بدء النبوة بثلاث سنين وقبل الهجرة بعشر سنوات.

وقد اوضحنا في فصل سابق ان الرسول اراد في ما فعله يوم انذار العشيرة ان يحذو حذو موسى حينما دعا ربه قائلا (كما يحدثنا القرآن):

﴿ وَاجْعَلْ وَزِيْراً مِنْ اَهْلِيْ. هَارُوْنَ اَخِيْ اُشْدُدْ بِهِ اَزْرِيْ وَاَشْرِكْهُ فِيْ اَمْرِيْ...﴾.

وإذا كان النبي قد فاه بتصريحه يوم انذار العشيرة امام ثلاثين او اربعين من بني عبد المطلب فانه ادلى بعد تسعة عشر عاما من يوم الأنذار بتصريح مماثل امام الوف المسلمين في حملة تبوك.

ففي شهر رجب من السنة التاسعة بعد الهجرة غادر الرسول المدينة على رأس جيش يبلغ خمساً وعشرين الفا من اتباعه؛ قاصدا حدود سوريا مستخلفا عليا في المدينة. ولكن ذلك احزن عليا لأنه لم يحب ان يفارق الرسول. ويروى ان اناسا اشاعوا ان الرسول خلفه لأنه كره صحبته.

ومهما كان السبب فان عليا لحق بالرسول وهو لا يزال قريبا من المدينة وجرت بينهما محاورة. ادلى فيها الرسول بتصريح خطير. روته الصحاح والكتب المعتبره. وقد روى. البخاري عن سعد بن ابي وقاص ما يلي:

«ان رسول الله خرج الى تبوك واستخلف عليا. فقال (علي) اتخلفني في الصبيان والنساء؟

قال (الرسول): الا ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون موسى اِلاّ انه ليس نبي بعدي (جزء ٦ ص ٣)

وروى البخاري ايضا ان سعدا قال:

« قال النبي لعلي: « امَا ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ » (ج ٥ ص ٢٤)

وروى الأمام احمد في مسنده [١]

والحاكم في صحيحه المستدرك [٢] عن ابن عباس حديثا فيه ما يلي:

« خرج الرسول بالناس في غزوة تبوك. فقال له علي اخرج معك. قال له: لا فبكى علي. فقال (الرسول) له: اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى الا انك لست بنبي؟ انه لا ينبغي ان اذهب الاَّ وانت خليفتي. »

وروى محمد بن سعد في الطبقات عن زيد بن ارقم والبراء ابن عازب انهما قالا في شأن حملة تبوك:

ان الرسول قال لعلي: انه لا بد ان اقيم او تقيم فخلفه فلما فصل رسول رسول الله (ص) غازيا، قال أناس: ما خلف عليا الا لشيء كرهه منه. فبلغ ذلك عليا، فاتبع رسول الله حتى انتهى اليه (واخبر الرسول بما تحدث به الناس) فتضاحك رسول الله وقال: يا علي، اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير انك لست بنبي؟ قال: بلى يا رسول الله. قال (الرسول): فانه كذلك. (٣)

وروى ابن هشام في السيرة النبوية ان النبي قال لعلي يوم ذاك:

« افلا ترضى يا علي، ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي؟ » [٤]

وروى مسلم في صحيحه بعدة طرق عن سعد بن ابي وقاص ان رسول الله قال لعلي يوم ذاك:

اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبوة بعدي؟ » [٥]

---

(١) ج ١ - ص ١٣١

(٢) ج ٣ - ص ١٣٣

(٣) ج ٣ - ص ٢٥

(٤) ج ٢ - ص ١٧٦

(٥) ج ١٥ - ص ١٧٦

وقد روى الأمام احمد الحديث عن سعد بن ابي وقاص باربعة طرق [٦]
ورواه الحافظ محمد بن ماجة في سننه عن سعد [٧]
ورواه الترمذي عنه في سننه [٨]
ورواه الأمام احمد عن اسماء بنت عميس [٩]
ورواه الحاكم في المستدرك عن سعد. [١٠]
قال ابن عبد البر في كتابه الأستيعاب:

« وقال النبي له (لعلي): انت مني بمنزلة هارون من موسى الاَّ انه لا نبي بعدي. وروى قوله (ص) لعلي انت مني بمنزلة هارون من موسى جماعة من الصحابة وهو من اثبت الآثار واصحها. رواه سعد بن ابي وقاص..... ورواه ابن عباس وابو سعيد الخدري وام سلمه (زوجة الرسول) واسماء بنت عميس وجابر بن عبد الله وجماعة يطول ذكرهم. » [١١]

فإذا كان هنالك من يناقش في صحة حديث انذار العشيرة فما اعرف احدا من المسلمين يشك في صحة حديث المنزلة. وصحة هذا الحديث تؤيد صحة حديث الأنذار لأن الحديثين متطابقان معنى ويعبران عن مقصد واحد.

ان حديث المنزلة يعطي عليا كل رتب هارون عدا النبوة. وهارون كان اخا ووزيرا لموسى والقرآن ينطق بذلك: ﴿وَاجْعَلْ لِيْ وَزِيراً مِنْ اَهْلِيْ، هَارُوْنَ اَخِي. أُشْدُدْ بِهِ أَزْرِيْ.﴾ [١٢]

---

(٦) ج ١ - ص ١٧٥ - ١٧٧ - ١٧٩ - ١٨٢
(٧) ج ١ - ص ٤٥
(٨) ج ٥ - ص ٣٠٢ - (مطبعة الفجالة بمصر سنة ١٩٦٧).
(٩) المسند ج ٦ - ص ٣ - ٣٢
(١٠) ج ٣ - ص ١٠٩
(١١) ج ٣ - ص ١٠٩٧
(١٢) سورة طه (رقم ٢٠) آية ٢٩ - ٣١

وهارون نائب موسى والذي كان يقوم مقامه. والقرآن يشهد بذلك:

﴿وَوَاعَدْنَا مُوْسَىٰ ثَلَاثِيْنَ لَيْلَةً. وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيْقَاتُ رَبِّهِ اَرْبَعِيْنَ لَيْلَةً. وَقَالَ مُوْسَىٰ لِأَخِيْهِ هَارُوْنَ اخْلُفْنِيْ فِيْ قَوْمِيْ وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيْلَ الْمُفْسِدِيْنَ.﴾ (١٣)

وهارون كان، كموسى، قائدا لبني اسرائيل جميعهم واعطي من الله سلطانا كسلطان موسى. والقرآن ينطق بذلك:

﴿قال (الله لموسى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِاخِيْكَ (هارونْ) وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانَاً فَلَا يَصِلُوْنَ اِلَيْكُمَا. اَنْتُمَا وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُوْنَ.﴾ (١٤)

ان قوله تعالى وأنتما ومن اتبعكما الغالبون يدل بجلاء على ان جميع الذين آمنوا بموسى هم اتباع لهارون كما أنهم اتباع لموسى.

والآية ايضا تنطق بان الله اعطى كليهما سلطانا ومناعة فلن يصل الكفار اليهما بسوء وان الفوز لهما ولأتباعهما على خصومهم.

وعلي بمقتضى التصريح النبوي له مثل هذه الرتب. فهو اخ للرسول وقد شد الله عضد اخيه الرسول محمد (صَ) به مع الفارق بين الأخوين. فاخوة هارون لموسى كانت بالولادة غير مكسوبة بجهود. اما اخوة علي لمحمد فهي اعظم اهمية لأنها لم تأت الى علي بالولادة بل منحها مكافأة على عمله. وهو وزيره. وهو نائب للرسول يحل محله. وهو متبوع للمسلمين جميعاً كالرسول. وهل تعني الخلافة شيئاً اكثر من ذلك؟

اجل لقد اعلن الرسول بهذا التصريح المترامي الأطراف ان زيره ونائبه ومن يجب على المسلمين جميعاً ان يتبعوه ويطيعوه كما يتبعون الرسول ويطيعونه انما هو علي بن ابي طالب. وكل ذلك قد تضمنه حديث انذار العشيرة إذ قال الرسول لهم: هذا اخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له واطيعوا.»

---

(١٣) سورة الأعراف (رقم ٧) آية ١٤٢

(١٤) سورة القصص (رقم ٢٨) آية ٣٥

وأود ان اعود الى الآية السابقة في شأن موسى وهارون حيث تضمنت فيما تضمنت ان الله اعطاهما سلطانا وقوة ومناعة فلا يصل الكفار اليهما بسوء وانهما ومن اتبعهما الغالبون. ما اشد المشابهة في ذلك بين موسى وهارون وبين محمد وعلي! لقد شد الله عضد محمد بعلي. فكان علي اعجوبة الدهر في شجاعته. وقد كان لهما سلطان من الله ومناعة ضد اعداء الأسلام فلم يتمكن الكفار على كثرة اعدادهم وقلة عدد المسلمين يوم ذاك ان يصلوا الى الرسول ولا الى علي بسوء وكان الرسول وعلي ومن اتبعهما الغالبين. وكم من موقف عسير واجهه الرسول وكم من مرة كوثر فيها المسلمون وظن الكثير منهم ان الدائرة تكون على معسكر التوحيد. فإذا بثبات الرسول وشدة بأس اخيه علي يرجحان كفة الأسلام وينتصر فيها دين الله. وقد هزم المسلمون اكثر من مرة وبقي الرسول وعلي منفردين او شبه منفردين ولكن الله كتب لهما السلامة وتغلبا على الكتائب المهاجمة. لقد عاش الرسول ونائبه علي تحيط بهما الأخطار ثلاثا وعشرين سنة ولكن الأعداء لم يصلوا اليهما بسوء وكانا ومن اتبعهما الغالبين. وقد وصف ابو تمام الطائي عليا وجهاده في الله فاجاد حين قال:

أخوه إذا عُدَّ الفخار وصهره ... فلا مثله اخ ولا مثله صهرُ.
وشد به ازر النبي محمد ... كما شد من موسى بهارونه الأزرُ.
وما زال كشافا دياجير غمرة ... يمزقها عن وجهه الفتح والنصر.
هو السيف سيف الله في كل مشهد ... وسيف الرسول لا ردانٍ ولا دثر.
فأيٌّ يد للذم لم يبرزندها ... ووجه ضلال ليس فيه له اثر.
ثوى ولأهل الدين امن بحده ... وللواصمين الدين في حده ذعر.
يُسدُّ به الثغر المخوف من الردى ... ويعتاض من ارض العدو به الثغر.
بأحد وبدر حين ماج برجله ... وفرسانه احد وماج بهم بدر.
ويوم حنين والنضير وخيبر ... وبالخندق الثاوي بعقدته عمرو.
سما للمنايا الحمر حتى تكشفت ... وأسيافه حمر وارماحه حمر.
مشاهد كان الله كاشف كربها ... وَفَارِجه والأمر ملتبس إمرٌ.

وقد يقول قائل ان الحديث صدر في مورد خاص:هو نيابة عليّ عن الرسول

اثناء مغيبه في حملته الى تبوك. وكذلك كان هارون نائبا عن موسى اثناء ذهابه الى ميقات ربه. ومعنى ذلك ان الحديث لا يدل على نيابة علي عن النبي بصورة عامة.

اجل يمكن ان يقول ذلك مجادل يهمه دفع دلالة الحديث على اختيار الرسول لعلي. ولكن دلالة الحديث على ذلك واضحة لمن لا يريد ان يبتعد بالحديث عن معناه.

ولو كانت استنابة علي في مورد خاص هي المقصودة لكان شأن تلك الأستنابة شأن استنابة اي واحد من الأصحاب الذين استخلفهم النبي علي المدينة. ولما كان لأستخلاف علي اي تميز او مغزى خاص. ولكان كل من استخلفه النبي على المدينة من النبي منزلة هارون من موسى.

ان العلماء الذين يقولون هذا القول نسوا ان الرسول استخلف على المدينة ابا لبابة حينما ذهب الى بدر وابن عرفطة يوم دومة الجندل وابن ام مكتوم ايام غزوات بني قريضه وبني لحيان وذي قرد. واستخلف ابا ذر يوم بني المصطلق ونميله يوم خيبر وابن الأضبط يوم عمرة القضاء وابارهم يوم فتح مكة وابا دجانة يوم حجة الوداع.[١٥] فهل نقل عن النبي انه قال لأي واحد من هؤلاء النواب الموقتين (وهم من خيرة الأصحاب): انت مني بمنزلة هارون من موسى؟ انه لم يفعل ذلك.

والواقع ان الرسول اتخذ من تلك المناسبة وسيلة واستعملها منبرا ليعلن فضل علي وقيادته للأمة واستخلافه اياه وانه هو وحده نائب النبي. وكفى باستثناء النبوة دليلا على عموم المنزلة المعطاة لعلي. فالواقع ان الرسول يقول ان منزلة علي منه كمنزلة هارون من موسى اخوةً ووزارة ونيابة عامة وقيادة للأمة وكل رتبة اخرى كانت لهارون سوى رتبة النبوة. على ان الحديث يدل بوضوح على ان

---

(١٥) ذكر ذلك كله ابن هشام في سيرته حيث ذكر في كل غزوة من هذه الغزوات من استخلفه النبي على المدينة خلال قدمها.

حرمان علي من النبوة لم يكن لعدم اهليته لها بل لأن محمدا خاتم الأنبياء. ولو لم يكن خاتم الأنبياء لكان علي نبيا. وقد قال علي في احدى خطبه. ان النبي قال له في اوائل ايام النبوة: « يا علي انك تسمع ما اسمع وترى ما ارى. ولكنك لست بنبي وانك على خير.»[16].

وان نيابة هارون عن اخيه موسى يوم ذهب الى الميقات لم تكن في الحقيقة نيابة موقتة. بل جاءت لأنها مركزه الطبيعي بين الأسرائيلين حيث انه كان النائب العام لموسى ومتى غاب رئيس الأمة فان نائبه يحل محله بصورة طبيعية كجزء من وظيفته العامة. وقد قدمنا ان القرآن ينطق بان هارون كان كموسى قائداً لجميع بني اسرائيل:

« قال (الله لموسى): « سنشد عضدك باخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما. انتما ومن اتبعكما الغالبون.»

وإذا كان لعلي نفس المنزلة فانه، كالرسول محمد، قائد لجميع المسلمين. ونيابته عنه لدى مغيبه تكون امرا طبيعيا وجزءاً من نيابته العامة لأنه نائب رئيس الدولة. وهذا بعض ما عناه الرسول من تصريحه وقد مر عليك في حديث ابن عباس الذي رواه الحاكم والأمام احمد ان النبي قال له: « اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى الا انك لست بنبي؟ انه لا ينبغي ان أذهب الا وانت خليفتي.»

ومن الجدير بالذكر ان الرسول فاه بحديث المنزلة في غير حادثة تبوك. فقد روت ام سليم زوجة ابي ايوب الأنصاري التي كان يحترمها الرسول ويزورها ان الرسول قال لها:

« يا ام سليم ان عليا لحمه من لحمي ودمه من دمي وهو مني بمنزلة هارون من موسى.»[17]

---

(١٦) الخطبة القاصعة، نهج البلاغة.

(١٧) ورواه العقيلي (مختصر كنز العمال، هامش الجزء الخامس من مسند احمد ص ٣٣)

وروى الطبري عن ابن عباس ان الرسول قال لعلي يوم المؤاخاة (وقد كان هذا قبل حملة تبوك بثمان سنوات):

« .... أغضبت يا علي (ملاطفا لعلي ملاطفة الأخ لأخيه) حين آخيت بين المهاجرين والأنصار ولم أواخ بينك وبين احد منهم؟ اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى الاّ انه لا نبي بعدي؟ »[١٨]

وروت اسماء بنت عميس (زوجة جعفر الطيار) انها قالت:

« سمعت رسول الله يقول لعلي: انت مني بمنزلة هارون من موسى الا انه ليس بعدي نبي»[١٩] وبالطبع لم تكن اسماء في حملة تبوك. فهي سمعت ذلك من الرسول في غير حادثة تبوك.

وقد يعجب القارىء لأن علماء الجمهور لم يروا في حديث المنزلة دليلا على ان عليا نائب الرسول وخليفته بالرغم من وضوح صحة سند الحديث ودلالته.

واقول ان موقف الجمهور السلبي من دلالة الحديث على ما اراده الرسول لم يكن نتيجة عناد او ضعف في اخلاصهم لطلب الحقيقة. ولكن ما حدث هو أن علماء الجمهور عاشوا في مجتمع يؤمن بان رسول الله مات ولم يستخلف احدا من بعده. وقد اخذ هؤلاء العلماء هذا الرأي اخذ المسلمات التي لا ينبغي ان يجادل فيها. وإذ اتخذوا هذا الراي وآمنوا به فقد كان لزاما عليهم ان يتأولوا كل حديث يدل على خلافة علي ليسلم المبدأ القائل بان الرسول لم يستخلف احدا من بعده.

واعتقد ان التصريح النبوي الذي نقلته احاديث المنزلة لو كان موجها الى ابي بكر (رض) لما وقف علماء الجمهور موقفهم منه. فلو قال الرسول (ص): يا ابا بكر، الا ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي لما شك

---

(١٨) نفس المصدر.

(١٩) رواه ابن عبد البر في الاستيعاب ج ٣ - ص ١٩٨ وروى الامام احمد مثله في المسند ج ٦ - ص ٣٦٩

علماء الجمهور بان التصريح دليل واضح على ان الرسول استخلف ابا بكر من بعده.

وانا بدوري اقول لو ان الرسول قال ذلك لابي بكر لآمنت بان الرسول استخلف ابا بكر.

لقد تحدث الرسول الى المسلمين عن تشابه منزلة علي وهارون اكثر من مرة.

وروى الأمام النسائي في الخصائص العلوية انه لما اختصم جعفر بن ابي طالب وزيد بن حارثه والأمام علي على كفالة يتيمة حمزة سيد الشهداء قال الرسول فيما قال:

« يا علي انت مني بمنزلة هارون من موسى... »[20] واخرج الحسن بن بدر والحاكم في الكنى والشيرازي في الألقاب وابن النجار ان الرسول قال لعلي، وابو بكر وعمر وابو عبيدة بن الجراح عند النبي:

« يا علي انت اول المؤمنين ايمانا واولهم اسلاما وانت مني بمنزلة هارون من موسى... »[21] وعن زيد بن اوفى ان رسول الله قال لعلي يوم المؤاخاة (في السنة الأولى من الهجرة.): « والذي بعثني بالحق، ما اخرتك الا لنفسي. وانت مني بمنزلة هارون من موسى غير انه لا نبي بعدي. وانت اخي ووارثي... »[22]

ان هذه الأحاديث وسواها مما لم ننقله تدل دلالة واضحة على ان عليا كان من النبي بمنزلة هارون من موسى وان له كل مراتبه ما عدا النبوة. فهو نائبه العام (لا في مورد خاص). وهو كالنبي قائد للمسلمين اجمعين ومتبوع لهم. ولم تكن هذه القيادة المعطاة له الا بوحي من الله لرسوله الأعظم.

---

(٢٠) المراجعات لشرف الدين ص ١٧٦ - ٢٥

(٢١) كنز العمال رقم الحديث ٦٠٣ ج ١٦

(٢٢) كنز العمال ج ١ - ص ٤١ - (رقم الحديث ٩١٩)

لقد تحدث الرسول عن تشابه منزلة علي وهارون مرارا. وفي مواقف عديدة. وكان آخر موقف تحدث فيه الرسول عن ذلك يوم حملة تبوك في شهر رجب من السنة التاسعة بعد الهجرة. وبعد بضعة اشهر في تلك السنة نرى الرسول وقف موقفا يشبه هذا الموقف حينما بعث ابا بكر ليقرأ على الحجيج سورة براءة.

فلننظر ماذا كان؟

حديث الاداء والتبليغ

الفصل السادس والثلاثون

لا يؤدي عني الا رجل من اهل بيتي

روى الأمام احمد في المسند عن ابي بكر (رض):

«ان النبي (ص) بعثه (ابا بكر) ببراءة لأهل مكة: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة الاَّ نفس مسلمة. ومن كان بينه وبين رسول الله مدة فأجَلُه الى مدته. والله بريء من المشركين ورسوله. قال فسار بها ثلاثا، ثم قال (النبي) لعلي: الحقه فرد علي ابا بكر وبلغها انت. قال (ابو بكر): ففعل (علي). فلما قدم على النبي ابو بكر بكى. قال: يا رسول الله حدث فيَّ شيء؟ قال ما حدث فيك الا خير. ولكن امرت ان لا يبلغه الا انا او رجل مني.» (١)

وروى الحاكم في صحيحه المستدرك بسنده عن جميع بن عمير الليثي ان عبد الله بن عمر قال له:

«ان رسول الله بعث ابا بكر وعمر (رض) ببراءة الى اهل مكة فانطلقا فإذا براكب فقالا: من هذا؟ قال: انا علي. يا ابا بكر، هات الكتاب الذي معك. قال: ومالي؟ قال: والله ما علمت إلاَّ خيرا. فأخذ علي الكتاب فذهب به ورجع ابو بكر وعمر الى المدينة، فقالا: ما لنا يا رسول الله؟ قال: ما لكما الاَّ خير. ولكن قيل لي انه لا يبلغ عنك الا انت أو رجل منك.» (٢)

وروى النسائي في خصائصه عن علي ان رسول الله (ص) بعث ببراءة الى اهل مكة مع ابي بكر. ثم اتبعه بعلي فقال له: خذ الكتاب فامض به الى اهل مكة. قال: فلحقه فأخذ الكتاب منه فانصرف ابو بكر وهو كئيب فقال لرسول الله: أنزل فيَّ شيء؟ قال: لا. الا اني امرت ان ابلغه انا او رجل من اهل بيتي.» (٣)

وروى الترمذي بسنده عن انس بن مالك انه قال: بعث النبي ببراءة مع ابي

(١) ج ١ ص ٣.

(٢) ج ٣ – ص ٥١.

(٣) ص ٢٠

بكر، ثم دعاه فقال: لا ينبغي لأحد ان يبلغ هذا الا رجل من اهلي. فدعا عليا فأعطاه اياه.»[٤]

وروى ابن هشام في السيرة عن ابي جعفر محمد بن علي الباقر انه قال:

«لما نزلت براءة على رسول الله (ص) وقد كان بعث ابا بكر الصديق ليقيم للناس الحج، قيل له يا رسول الله، لو بعثت بها الى ابي بكر. فقال: لا يؤدي عني الا رجل من اهل بيتي، ثم دعا عليًّا بن ابي طالب، فقال له: اخرج بهذه القصة في صدر براءة... فخرج علي على ناقة رسول الله العضباء حتى ادرك ابا بكر في الطريق قال (ابو بكر): أأمير ام مامور؟ فقال بل مامور. ثم مضيا فاقام ابو بكر للناس الحج.... حتى اذا كان يوم عرفه قام علي فأذن بالناس بالذي امر به رسول الله...»[٥]

ويظهر ان هذا الحادث كان معروفا لأنه كان على ملإ من الناس. لم ينكره عمر حين ذكره به ابن عباس. فقد روى ابن عباس ما يلي:

«(قال لي عمر:) يابن عباس، ما ارى صاحبك (عليا) الا مظلوماً.... فقلت: يا امير المؤمنين، فاردد اليه ظلامته. فانتزع يده من يدي ومضى يهمهم ساعة، ثم وقف. فلحقته فقال: يا بن عباس، ما أظنهم منعهم عنه الا انه استصغره قومه (رأوه صغير السن)....

فقلت: والله ما استصغره الله ورسوله حين امراه ان ياخذ براءة من صاحبك. فاعرض عني واسرع فرجعت عنه.»[٦]

وروى الحافظ الكنجي الشافعي في كفاية الطالب ص ١٥١ بسنده عن الحرث بن مالك قال:

«اتيت مكة فلقيت سعداً بن ابي وقاص، فقلت هل سمعت لعلي منقبه؟ قال: قد شهدت له اربعا لأن تكون لي واحدة منهن احب الي من الدنيا اعمر فيها مثل

---

(٤) صحيح الترمذي ج ٢ – ص ١٨٣ (الفضائل الخمسة للفيروز بادي ج ٢ ص ٣٤٣).

(٥) ج ٢ – ص ٥٤٧

(٦) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد مجلد ٣ ص (١٠٥)

عمر نوح.ان رسول الله (ص) بعث ابا بكر ببراءة الى مشركي قريش فسار بها يوما وليلة. ثم قال (النبي) لعلي: اتبع ابا بكر فخذها وبلغها، فرد علي ابا بكر، فرجع يبكي، فقال: يا رسول الله أنزل في شيء؟ قال: لا إلا خيراً. انه ليس يبلغ عني الا انا او رجل مني او قال: من اهل بيتي...»[7]

وسواء كان رسول الله قد بعث ابا بكر بسورة براءة او كانت السورة قد نزلت بعد خروجه الى الحج؛وسواء ما اذا كان عاد ابو بكر من الطريق او استمر في امارته للحج فان ما اتفقت عليه هذه الأحاديث ان الرسول اعلن انه لا يبلغ عنه او لا يؤدي عنه الا رجل منه او من اهل بيته (وفي الحديثين الأولين وحديث ابن عباس ان هذا كان بامر من الله). وقد كان ذلك الرجل علي بن ابي طالب..

ولنحاول الآن ان نفهم ما قصده الرسول من قوله: لا يؤدي عني الاَّ رجل مني (او من اهل بيتي).

بالطبع لم يقصد الرسول انه لا ينبغي ان يروي احد عنه قولا او عملاً الا رجل من اهل بيته؛ والاَّ لحرم على غير اهل بيته من المسلمين ان يرووا عنه. وهو واضح البطلان. وقد كان الرسول يقول: فليبلغ الشاهد الغائب. ولم يقصد الرسول ايضا انه لا يكون له رسول الى الناس الا رجل من اهل بيته. فقد ارسل رسلا عديدين الى الملوك والأمراء والقبائل والأفراد ولم يكن اولئك الرسل من اهل بيته.

ان ما قصده الرسول انه لا يمثله في اداء تعاليم الشريعة ولا يقوم مقامه كمرجع المسلمين الا رجل من اهل بيته. فلبقية الناس ان يرووا عن النبي اقواله وافعاله. ولكن ما يروونه قد يكون صحيحا وقد يكون خطأً. وكثيرا ما يلتبس الامر على الرواة فيتناقضون في رواياتهم. ولذلك لا يكون اي منهم مرجعا عاما للمسلمين وممثلا للرسول، وقائما مقامه كمبلغ للشريعة. ومن يقوم مقام الرسول هو رجل من اهل بيته.

ان من يؤدي عن الرسول ويقوم مقامه. يجب أن يكون حاملا لعلم الرسول،

---

(٧) الغدير للعلامة الأميني ج ١ – ص ٤٠

عارفا بكل ما نزل على الرسول من وحي وما فاه به الرسول من سنن وعارفا بكل ما قصد من الوحي والسنن. لا تشتبه عليه المعاني والتصريحات النبوية.

وهذا هو نفس ما قصده الرسول حينما قال:

«انا مدينة العلم وعلي بابها فمن اراد العلم فليأت الباب.»

لقد اعلمنا الرسول ان أهل بيته في حياته كانوا اربعة: عليا وفاطمة وولديهما الحسنين وقدمنا في الفصل الثاني الى القارىء احاديث كثيرة تدل على ذلك منها ما رواه مسلم عن سعد بن ابي وقاص:

«ولما نزلت هذه الآية: فقل: «تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم...»دعا رسول الله عليا وفاطمة وحسنا وحسينا فقال: اللهم هؤلاء اهلي.» (٨)

وما كان بين هؤلاء الأربعة في زمن الرسول الا رجل واحد: هو علي بن ابي طالب. فقد كان الحسنان لا يزالان طفلين. وإذن فلم يكن يقصد الرسول بكلمة رجل في قوله: «لا يؤدي عني الا رجل من اهل بيتي.» الا عليا ولذلك بعثه بسورة براءة.

وما أراد الرسول حصر النيابة عنه بعلي لأنه من اقربائه فالنبي اعظم من ان يميز اقاربه على الناس لأنهم اقاربه فهو الذي دعا الناس جميعاً الى محو العصبيات القبلية واعلن هدم الطبقية. والحديثان الأولان ينطقان، وكذلك حديث ابن عباس، ان ذلك كان بامر من الله لا بهوى بشري. وما كان الله ليفضل عليا على بقية الناس الا لأنه طهره وبقية اهل البيت من الرجس تطهيرا. وسنتحدث عن ذلك عندما نتكلم عن حديث الثقلين.

اجل ان هذه الأحاديث تدل على ان عليا كان النائب الوحيد للرسول. وما كان احد من المسلمين يحق له ان يمثل رسول الله سواه. وقد روى حبشي بن جناده انه قال:

«سمعت رسول الله يقول: علي مني وانا منه ولا يؤدي عني الا علي.» روى

---

(٨) صحيح مسلم ج ١٥ - ص ١٧٦

هذا الحديث الترمذي في سننه [٩] وقال هذا حديث حسن غريب صحيح. ورواه محمد بن ماجه في سننه [١٠] ورواه الأمام احمد في مسنده بعدة طرق [١١]

ونيابة علي العامة وتمثيله للنبي يتضحان في الاحاديث الدالة على ان اطاعة علي اطاعة لله ولرسوله وعصيانه عصيان لله ولرسوله وان مفارقته مفارقة لله ولرسوله وسبه سب لله ولرسوله وان حب علي حب لله ولرسوله ومعاداته معاداة لله ولرسوله. فقد روى الحاكم في المستدرك عن ابي ذر أنه قال:

« قال رسول الله: من اطاعني فقد اطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله. ومن اطاع عليا فقد اطاعني، ومن عصى عليا فقد عصاني.» [١٢] قال الحاكم: هذا حديث صحيح الأسناد ولم يخرجاه (الشيخان) وصححه الذهبي في تعقيبه على المستدرك.

وقد روى الحاكم في مستدركه عديدا من الاحاديث في ان سب علي سب للرسول وحبه حب للرسول وعداءه عداء للرسول.

وقد يقول قائل: ان احاديث الأداء والتبليغ انما تدل على امامة علي في الفقه والدين لا على امامته في الحكم والسياسة. فهي قاصرة عن الدلالة على خلافته. ولكن الأحاديث الأخيرة الدالة على لزوم اطاعته كإطاعة رسول الله وتحريم عصيانه ومفارقته تتناول الأدارة والسياسة كما تتناول الفقه.. اضف الى ذلك ان الفصل بين الدين والدنيا غير وارد في الأسلام. وسنتحدث عن هذه الناحية بتفصيل او في بحثنا حديث الثقلين.

---

(٩) ج ٥ - ص ٣٠٠ (رقم الحديث ٣٨٠٣).

(١٠) ج ١ - ص ٤٤ رقم الحديث ١١٩

(١١) ج ٤ ص ١٦٤ - ١٦٥

(١٢) ج ٣ - ص ١٣١

لقد كان حادث سورة براءة في موسم الحج في السنة التاسعة بعد الهجرة. وسنرى ان الرسول أدلى في السنة العاشرة من الهجرة بعد اداء حجة الوداع بتصريحات اتخذت شكل بلاغات عامة بحضور الوف الحجاج وجهت الى المسلمين جميعاً من كلّ جيل وفي كل مكان. كان ذلك يوم « غدير خم ».

ولكي نتحقق مما اراده الرسول من تلك التصريحات سنحاول ان نجزئها الى قسمين بالرغم من ان الجزءين كثيرا ما اجتمعا في تصريح واحد. هذان الجزءان هما: حديث الثقلين وحديث الولاية.

حَديث الثقلَين

الفصل السابع والثلاثون

لقد اتضح مما ذكرنا حتى الآن ان ما كان ينبغي ان يحدث هو الذي حدث وان الرسول فعل ما كان يمليه منطق مهمته ومنطق مبادىء دينه ومنطق الظروف الخطيرة التي كانت تحيط بأمته ودولته ومنطق حاجة المسلمين الى مرجع ينصبه النبي للمسلمين ليعرفهم مقاصد القرآن العظيم وصحيح السنن النبوية. كل ذلك كان يضع على عاتق الرسول مسؤولية تعيين امام للأمة ليقودها من بعده. هذا ما كان يتوقع وما توقع هو ما حدث. لقد ابلغ الرسول المسلمين بطرق متعددة انه اختار لهم من يقودهم من بعده.

وقد ذكرنا الى الآن انواعا اربعة من التصريحات التي ابلغ الرسول فيها المسلمين ان عليا امامهم: لقد جعله مرجعهم حينما جعله باب مدينة العلم واعلن ان من اراد العلم فليأت الباب. واعلمهم يوم مؤتمر الدار ان عليا اخوه ووزيره ووصيه وخليفته. واعلمهم في مواقف شتى ان عليا منه بمنزلة هارون من موسى في كل شيء باستثناء النبوة. واعلمهم ان الله امره بان لا يمثله في اداء الشريعة الا نفسه او علي. وان اطاعة علي اطاعة لله ولرسوله وعصيان علي عصيان لله ولرسوله. وما كان الرسول ليفوه بمثل هذه التصريحات الخطيرة الا بوحي من الله: والاَّ فكيف يمكن للرسول ان يعلن ان اطاعة علي اطاعة لله وعصيانه عصيان لله إذا لم يكن الله اعلمه بوحي واضح ان عليا لن يخالف في مستقبل حياته امر الله وتعاليم نبيه. فالتصريح في نفسه يتضمن نبوءة واضحة. وواضح انها تحققت. فقد عاش علي بعد الرسول نحوا من ثلاثين سنة كان فيها صورة مصغرة للرسول الأعظم. إذ اقتفى اثره مئة في المئة ولم يخالف الله ورسوله لحظة في حياته.

اجل لقد تحدثنا الى الآن عن انواع اربعة من التصريحات النبوية وسنتحدث الآن عن تصريح نبوي من نوع آخر تضمنته احاديث الثقلين. وقد وضعنا امام القارىء عددا من تلك الأحاديث في الفصل الثاني من هذا الكتاب واعدنا ذكرها بعضا او كلا في فصول اخرى.

ولكي لا نشق على القارى فاننا نعيد ذكر ما وضعناه امامه من تلك الأحاديث في ماضي الفصول ونضيف اليها ما ينبغي اضافته مما لم نسجله سابقا من الأحاديث.

روى الأمام ابو عيسى بن عيسى الترمذي في صحيحه (سننه) عن جابر بن عبد الله (الأنصاري) انه قال:

« رأيت رسول الله في حجته (حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة) وهو على ناقته القصواء يخطب، فسمعته يقول: يا ايها الناس، اني تركت فيكم من (اوما) ان أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي اهل بيتي. »[1]

وروى ابن جرير وابن عاصم والحاملي في اماليه وابن راهويه ان عليا روى ان رسول الله قال:

« فمن كان الله ورسوله مولاه فإن هذا (عليا) مولاه. وقد تركت فيكم ما ان اخذتم لن تضلوا بعده: كتاب الله سببه بيده وسببه بايديكم واهل بيتي. »[2]

وروى الترمذي عن زيد بن ارقم ان رسول الله قال:

« اني تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي، احدهما اعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض، وعترتي اهل بيتي. ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض. فانظروا كيف تخلفوني فيهما. »[3]

قال الترمذي: « وفي الباب عن ابي ذر وابي سعيد وزيد بن ارقم وحذيفة بن اسيد.... »

وروى الحاكم عن زيد بن ارقم انه قال:

« لما رجع رسول الله من حجة الوداع ونزل بغدير خم امر بدوحات فقممن (كنس ما تحتها) فقال:

« كأني قد دعيت فأجبت. اني تارك فيكم الثقلين. احدهما اكبر من الآخر:

---

(١) ج ٥ ص ٣٢٨ حديث رقم ٣٨٧٤. وفي كنز العمال ان النسائي روى مثل ذلك عن جابر ج ١ ص ٤٤ (المراجعات لشرف الدين ص ١٤)

(٢) نقل ذلك المتقي الهندي في كنز العمال ج ٥ (ص ٢٣ حديث رقم ٣٥٦).

(٣) ج ٥ ص ٣٢٩، رقم الحديث ٣٨٧٦

كتاب الله تعالى وعترتي اهل بيتي. فانظروا كيف تخلفوني فيهما. فانهما لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض....» [٤]

وروى الحاكم عنه ايضا ان الرسول قال فيا قال يوم غدير خم:

«ايها الناس اني تارك فيكم امرين لن تضلوا ان اتبعتموها: وهما كتاب الله واهل بيتي عترتي.....» [٥]

وروى مسلم في صحيحه عن زيد بن ارقم انه قال «قام رسول الله (ص) فينا خطيبا بماء يدعى خماً بين مكة والمدينة. فحمد الله واثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال: اما بعد: الا ايها الناس، فانما انا بشر يوشك ان يأتي الي رسول ربي فأجيب. واني تارك فيكم ثقلين: اوَّلهما كتاب الله. فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به. فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال: واهل بيتي. اذكركم الله في اهل بيتي اذكركم الله في اهل بيتي. اذكركم الله في اهل بيتي.» [٦]

ومن تأمل في رواية مسلم لحديث زيد يرى ان فيها نقصا. فقد ذكر في صدرها ان الرسول ترك ثقلين فقال: اولهما كتاب الله. وحينما جاء الى ذكر اهل بيته كان ينبغي، ان يقول: وثانيهما او ان يقول والآخر. ولكنه لم يقل ذلك بل قال: واهل بيتي ثم ذكرهم الله ثلاثا في اهل بيته. وكان ينبغي ان يذكر السبب في تذكيرهم الله في اهل بيته بعد ان ذكر السبب في حثه على اتباع القرآن. إذ علل ذلك بان في القرآن الهدى والنور مع ان النبي ليس بحاجة الى ذكر اي سبب في لزوم اتباع القرآن. فكل مسلم يعرف ان فيه الهدى والنور. وما كان ينبغي ان يذكر سببه هو تذكيره الناس في اهل بيته. فماذا سبب التذكير المكرر المؤكد؟

هل ذلك لأنهم اقاربه وهو الذي يتبع القرآن بحقيقته؟ والقرآن لا يميز احدا على آخر الاَّ بالتقوى. فكيف يميزهم الرسول عن سواهم إذا لم يكونوا اتقى واعلم من سواهم؟

---

(٤) المستدرك ج ٣ ص ١٠٩

(٥) نفس المصدر ١١٠

(٦) ج ١٥ ص ١٨٠ وروى الامام احمد مثله عن زيد بن ارقم ج ٤ ص ٣٦٧

ام ان الرسول اراد من المسلمين ان يتمسكوا باهل بيته كما يتمسكون بالقرآن لأن اتباع اهل البيت امان من الضلال؟ وهذا ما رواه الترمذي والحاكم وعدد كبير من الرواة عن زيد انه ذكر ان الرسول اعلن في تصريحه ان اتباع الكتاب والعترة أمان من الضلال وان الكتاب والعترة لا يفترقان حتى يردا الحوض عليه.

والذي يبدو هو ان ما رواه مسلم والأمام احمد عن زيد بسندهما عن يزيد بن حيان كان في زمن عبيد الله بن زياد. وهو عدوّ لأهل بيت الرسول وقاتل الأمام الحسين. وكان زيد بن ارقم او يزيد بن حيان الذي روى عنه يخشى سطوة بن زياد ان هو روى حديث الثقلين بتمامه. فقد ذكر الأمام احمد في المسند، بعد رواية الحديث عن يزيد بن حيان عن زيد بالشكل الذي نقله مسلم في صحيحه، ان زيدا بن ارقم قال له:

« بعث الي عبيد الله بن زياد فأتيته فقال: ما احاديث تحدثها او ترويها عن رسول الله (ص) لانجدها في كتاب الله تحدث ان له حوضا في الجنة؟ قال (زيد): قد حدثناه رسول الله ووعدناه. قال (عبيد الله بن زياد): كذبت ولكنك شيخ قد خرفت. قال (زيد): اني قد سمعته اذناي ووعاه قلبي من رسول الله يقول: من كذب علي فليتبوأ مقعده من جهنم. وما كذبت على رسول الله ».

واستنكار عبيد الله بن زياد لوجود حوض لرسول الله في الجنة يشعر بان ما كان حدث به زيد كان يتضمن قول رسول الله في شأن كتاب الله ، العترة: « انهما لن يتفرقا حتى يردا على الحوض. » ولكن الأرهاب الأموي منع يزيد بن حيان من نقله.

وروى الأمام احمد في المسند عن زيد بن ثابت ان رسول قال:

« اني تارك فيكم خليفتين: كتاب الله وعترتي. فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فانهما لن يتفرقا حتى يردا على الحوض. » (٧)

---

(٧) ج ٥ ص ١٨١ وقد رواه عن زيد بن ثابت بطريقين.

وروى السمهودي الشافعي في جواهر العقدين كما في ينابيع المودة ص ٤٠ أن ام سلمة (زوجة الرسول) قالت: «اخذ رسول الله بيد علي بغدير خم فرفعها حتى بان بياض ابطيه. فقال من كنت مولاه فعلي مولاه. ثم قال: ايها الناس، اني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض.» (٨)

وروى الأمام احمد عن ابي سعيد الخدري ان رسول الله قال: «اني اوشك ان ادعى فأجيب. واني تارك فيكم الثقلين كتاب الله عز وجل وعترتي اهل بيتي. وان اللطيف الخبير اخبرني انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض. فانظروا كيف تخلفوني فيهما.» (٩)

وروى ابن كثير في كتاب البداية والنهاية (ج ٥ ص ٢٠٩ و ج ٧ ص ٣٤٨) عن حذيفة بن اسيد انه قال ان رسول الله قال:

« ... واني سائلكم حين تردون علي عن الثقلين. فانظروا كيف تخلفوني فيهما: الثقل الأكبر كتاب الله، سبب طرفه بيد الله وطرف بايديكم فاستمسكوا به. لا تضلوا ولا تبدلوا. والثقل الأصغر: عترتي اهل بيتي. فانه قد نبأني اللطيف الخبير انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض.» وقد روى ابن عساكر هذا الحديث عن حذيفة بن اسيد (١٠)

وقد ذكرنا أن الترمذي قال في صحيحه ان حُذيفة بن اسيد من رواة الحديث.

لقد روى حديث الثقلين عديد من الصحابة. ولذلك عد من الأحاديث المتواترة. أو على الأقل من الأحاديث المستفيضة المعلومة الصدور. ومن الأحاديث التي تشبه حديث الثقلين مضمونا حديث النجاة. فقد روى الحاكم بسنده عن ابي ذر (وصححه) وهو آخذ بباب الكعبة».

« من عرفني فانا من عرفني. ومن انكرني فانا ابو ذر: سمعت النبي (ص)

---

(٨) الغدير للأميني ج ١ ص ١٧.

(٩) المسند ج ٣ ص ١٧. وروى عنه ما يقرب من هذه الألفاظ في ص ٢٦.

(١٠) الغدير ج ١ - ص ٢٧

يقول: الا ان مثل اهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من قومه. من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق.»[١١]

وقد اخرج الخطيب في تاريخه ج ١٢ ص ٩١ مثل الحديث عن انس. واخرج البزاز مثله عن ابن عباس وابن الزبير واخرج مثله ايضا ابن جرير عن ابي ذر وابي سعيد الخدري. وكذلك اخرجه ابو نعيم وابن عبد البر ومحب الدين الطبري وكثيرون آخرون.[١٢]

والمقصود من التصريح النبوي المروي في هذا الحديث هو نفس المقصود من حديث الثقلين.

ان أحاديث الثقلين والنجاة تدل بوضوح على ان الرسول لم يترك امته دون قيادة من بعده. بل اعلن لهم ان قيادة الأمة في عترته الأطهار وان متابعة القرآن ومتابعتهم امان من الضلال. وما من شك بأن اتباع القرآن فرض على كل مسلم. كذلك اتباع اهل البيت والسير وراءهم. وان من اعظم واجبات الأمة ان تؤمن نفسها من الضلال. وإذا كان اتباع اهل البيت امانا من الضلال فمن واجب الأمة ان تنقاد لهم.

والأحاديث هذه تنطق بوضوح بان اختيار النبي عترته لقيادة الأمة لم يكن منه اختيارا بشريا بل اختيارا آلهيا، معتمدا على الوحي وبأمر من الله. فالرسول يقول ان الكتاب والعترة لن يفترقا. وان اللطيف اخبره انهما لن يتفرقا حتى يردا على الحوض.

ومن الجدير بالذكر ان الأحاديث تتضمن نبوءة واضحة. فما كان بامكان الرسول كبشر ان يعرف ان اهل بيته سوف لا يفارقون القرآن، سيما واثنان من اعضاء الأسرة (الحسن والحسين) كانا لا يزالان طفلين صغيرين والحديث يتناول كل اعضاء العترة المختارة، الذين ولدوا بعد وفاته امثال الأمام زين العابدين علي بن الحسين والأمام محمد الباقر والأمام جعفر الصادق والأئمة من نسل الصادق.

---

(١١) المستدرك ج ٣ - ص ١٥١

(١٢) الغدير للأميني ج ٢ ص ٣٠١

كل اعضاء العترة المختارة، الذين ولدوا بعد وفاته امثال الأمام زين العابدين علي بن الحسين والأمام محمد الباقر والأمام جعفر الصادق والأئمة من نسل الصادق.

وقد تحققت هذه النبوءة تماما. فكل من هؤلاء الأئمة كان عنوانا للطهارة والعلم والتقوى. لم يفارق احد منهم القرآن يوماً واحداً.

وقد توهم كثير من الناس ان حديث الثقلين يتصادم مع الحديث الآمر باتباع كتاب الله وسنة نبيه. وهو الحديث الذي قدمناه حيث ذكرنا ان ابن هشام روى في سيرته ومالكا في موطئه ان الرسول (ص) قال في خطبته في حجة الوداع:

« .... فاعقلوا ايها الناس، قولي فإني بلغت. وقد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا ابدا: امرا بينا: كتاب الله وسنة نبيه....»

ومن الجدير بالذكر ان هذه الرواية مرسلة لم يصح سندها وقد خلا حديث البخاري ومسلم من ذكر السنة إذ اقتصر حديثهما على ذكر كتاب الله (راجع حديث مسلم في كتاب الحج من الجزء الثامن من حجة الوداع ص ١٨٤ ولفظه: «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده ان اعتصمتم به: كتاب الله» وعلى كل حال فان من المناسب ان نعامل الرواية كما لو كانت صحيحة صادرة من الرسول لنبحث مفادها.

لقد توهم اناس ان امر الرسول بالأعتصام بالكتاب والسنة واعلانه ان الأعتصام بهما امان من الضلال بمقتضى هذا الحديث يتصادم مع امره باتباع الكتاب والعترة واعلانه ان اتباعهما أمان من الضلال بمقتضى حديث الثقلين. والواقع ان الحديثين غير متصادمين بل يكمل احدهما الآخر.

لقد ذكرنا في الفصل الثاني والثلاثين ان حديث الأعتصام بالكتاب والسنة يدل على ان الرسول اراد من المسلمين ان يتبعوا معلوم السنة لا مظنونها والمعلوم من مقاصد القرآن لا ما ظن انه مقصود القرآن، لأن اتباع المظنون من السنن ليس امانا من الضلال. ان الأحاديث كثيراً ما يتعارض بعضها مع بعض. وحينما يأخذ كل فريق من العلماء بما يظن انه الصحيح منها وتختلف الآراء فيها سنداً أو دلالة، لا يكون جميع الفرقاء مصيبين بل يكون بعضهم او جميعهم على خطأ. فأين الأمن

من الضلال؟ وحتى لو لم يكن هنالك احاديث متعارضه، بل كان هنالك حديث واحد من نوع خبر الواحد غير المتواتر المعلوم، فان اتباع ذلك الخبر المظنون الصحة لا يكون امانا من الضلال. لأن المظنون قد لا يوافق ما قاله الرسول. ومعظم السنن اخبار آحاد غير متواترة ولا مستفيضة.

وحتى الآيات القرآنية التي لا تتضح مقاصدها لا يكون اتباع تأويلاتها المختلفة التي قدمها المفسرون امانا من الضلال. لأنه لا يعلم اي التأويلات هو المقصود الألهي. وقد رأينا ان القائلين بالجبر يتمسكون بظواهر بعض الآيات والقائلين بالأختيار والحرية يتمسكون بظواهر آيات اخرى. والفرق الأسلامية المختلفة يجادل بعضها بعضا ويخالف كل منها الآخرين وكل من تلك الفرق يؤيد ما يدعيه بما يوافقه من ظاهر آية او رواية. وكل من الفرقاء مخلص فيما يراه انه حق. فأين الأمن من الضلال الذي يعدنا به رسول الله ان اعتصمنا بالكتاب والسنة؟ هذا إذا كان الرسول يأمرنا بالعمل بمظنون السنن والمظنون من مقاصد الكتاب.

اما إذا كان الرسول يأمرنا بالعمل بمعلوم السنن والمعلوم من مقاصد الكتاب (وهذا هو ما يمثل ضمانة حقيقية ضد الضلال) فانه يكون قد امرنا بغير المقدور لأنه لم يترك لنا سننا مدونة معلومة. وما علم منها بواسطة التواتر قليل جدا. ولم يترك لنا تفسيرا نبويا للقرآن الكريم.

وإذ نعرف ان الرسول لا يأمر بعمل غير المقدور، فمن المحتم ان يكون الرسول قد ترك لأمته وسيلة واضحة لمعرفة حقائق السنن ومقاصد كتاب الله.

هذه الوسيلة هي عترته، احد الثقلين اللذين تركهما الرسول للأمة. وهذا هو الذي اعلنه حديث الثقلين. وإذن فليس حديث الأعتصام بالكتاب والسنة متصادما مع حديث الثقلين. بل حديث الثقلين يكمل حديث الأعتصام ويفسره. وبدون حديث الثقلين يكون محتوى حديث الأعتصام امرا بغير المقدور. وبواسطة حديث الثقلين يكون محتوى حديث الأعتصام امرا بالمقدور. ذلك ان حديث الثقلين يعلن للأمة ان اعضاء العترة الطاهرة هم مصادر العلم بحقائق السنن ومقاصد الكتاب. فبإمكان الأمة ان تحصل بواسطتهم على ما تريده من علم بالشريعة إذا شاءت. وهو ما يؤمنها من الضلال.

وهذا هو ايضا مضمون ما اعلنه الرسول حينما قال: «انا مدينة العلم وعلي بابها. فمن اراد العلم فليأت الباب.».

فأقوال الرسول في هذا الباب متفقة جميعاً وتنصب على مقصد واحد وتشير الى غاية واحدة وهي: ان واجب الأمة اتباع اعضاء العترة الطاهرة الذين هم اعلم الناس بعد الرسول بمقاصد الكتاب وسنن النبوة

ان وجود من يعلم حقائق السنن لا يقل نفعا للمسلمين عن تدوين تلك السنن. بل هو انفع لهم من تدوينها، لأن السنن لو دونت في زمن الرسول حين لم تكن آلة الطباعة قد وجدت (حيث يمكن اصدار الوف النسخ المتشابهة تماما المعلومة التطابق)، لأمكن دخول التغيير عليها والزيادة فيها. ذلك ان السنن ليست كالقرآن الذي يعلو على كلام الناس ويعجزون عن الأتيان بمثله. ان سننْ النبي كلام بشر يمكن ان يأتي الآخرون بمثله. ويمكن في زمن تخط فيه الكتب باليد ان تتخالف النسخ المتعددة زمنا بعد زمن وان يدخل عليها كثير أو قليل من التغيير. ولذلك يكون وجود مصدر حي مضمون علما وصدقا انفع من سنن مدونة لأن المصدر الحي يتمكن من تصحيح ما ينقل الناس عنه خطأ وايضاح ما يلتبس على الناس فهمه من كلامه، بينما الكتاب المدون لا يقوم بمثل هذه الوظائف.

— ٣ —

ومن كل ذلك تعرف خطأ كثير من العلماء الذين يفكرون بان هنالك تصادما بين احاديث الثقلين الآمر باتباع الكتاب واهل بيت الرسول وحديث الأعتصام بالكتاب والسنة ومحاولة ترجيح احد الجانبين على الآخر.

لقد قال الشيخ محمد ابو زهرة في كتابة «الأمام الصادق» بعد ان ذكر احاديث الثقلين وحديث الأعتصام بالكتاب والسنة ما يلي:

«ولكنا نقول ان كتب السنة الذي ذكرته بلفظ «سنتي» اوثق من الكتب التي روته بلفظ «عترتي».[١٣]

(١٣) صفحة ١٩٩

يقول الشيخ ابو زهره ذلك بالرغم من ان حديث الأعتصام مرسل غير مكتمل الأسناد الى الرسول. في حين ان احاديث الثقلين متواترة معلومة الصدور. هذا وقد مر ان مسلما روى في الجزء الثامن من صحيحه ان الرسول قال في حجة الوداع:

«وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده ان اعتصمتم به: كتاب الله وانتم تسألون عني...» ولم يذكر السنة. وكذلك فعل الشيخ البخاري فذكر الكتاب ولم يذكر السنة.

ان الشيخ ابو زهره نموذج لغيره من علماء الجمهور الذين يصعب عليهم استساغة احاديث الثقلين مع انها متواترة والمتواتر قطعي يجب الاخذ به. ان صعوبة استساغة علماء الجمهور لأحاديث الثقلين تعود الى سببين:

اولهما: ان تلك الأحاديث تدل على ان الرسول اراد ان تكون الخلافة في اهل بيته. وهذا ما لا يريد علماء الجمهور القول به.

ثانيهما: انهم توهموا تصادما بين الأحاديث المذكورة وحديث الأعتصام بالكتاب والسنة وهنا كان معظم خطاهم.

انهم لم ينتبهوا الى ان امر الرسول المسلمين الأخذ بالسنة والسنة غير مدونة يكون امراً بغير المقدور ان اراد منهم ان ياخذوا بواقع السنة ومعلومها. اما إذا اراد الأخذ بمظنونها فانها لا تكون امانا من الضلال.

والنبي يقول، حسبما تنبىء به هذه الرواية، ان المسلمين لن يضلوا إذا تمسكوا بالكتاب والسنة.

وقد غفل الشيخ ابو زهره عن حال نفسه حينما كان يكتب في هذا الموضوع. فهو يرى ان حديث الأعتصام بالكتاب والسنة اصح من حديث الثقلين لأن الكتب التي روت «وسنتي» اوثق من الكتب التي روت «وعترتي». ومع ان دعواه هذه مردودة لأن حديث الثقلين قد احتوته كتب معتبرة كصحيح الترمذي والمستدرك للحاكم (الذي صححه ووافقه على تصحيحه الذهبي في تعقيبه) ومسند الأمام احمد فإنا نغضي عن ذلك ونود ان ننبهه الى تناقض اوقعته فيه غفلته:

ان حديث الأعتصام ينطق بان اتباع الكتاب والسنة امان من الضلال. فإذا

كان الشيخ ابو زهرة يفهم من كلمة، «سنتي» السنن المظنونة فانها لم تكن امانا من الضلال في موضوع جدله. فهو يقاتل سنة بسنة وحديثا بحديث. وكل من الحديثين اللذين يراهما متصادمين يصلح حجة لفريق من المسلمين على ما يذهب اليه. واحد الفريقين غير مصيب لا محالة إذا كان الحديثان متناقضين كما يراهما. وكلا الحديثين سنة. فاين الأمان من الضلال الذي وعد به حديث الأعتصام.

وقد اخطأ الشيخ حينا لم يفهم من كلمة« سنتي » معلوم السنن لأنها هي التي تؤمن من الضلال واخطأ حينا جعل حديث الثقلين مرجوحا في حين انه من معلوم السنن ومتواترها.

واخطأ ايضا حينا فكر في تصادم الحديثين. وكان عليه وعلى سائر علماء الجمهور ان يروا في حديث الثقلين تكملة ضرورية لحديث الأعتصام بالكتاب والسنة. إذا كان جديث الأعتصام صحيحاً.

فلكي يصح معنى هذا الحديث فان من الضروري ان يعين النبي مرجعاً لتعليم السنن وهذا ما تقوله احاديث الثقلين التي عرف فيها النبي المسلمين عن الطريق التي يصلون بواسطتها الى معرفة مقاصد الكتاب وحقائق السنن النبوية.

وقد اضاف الشيخ ابو زهره الى اعتراضه السابق اعتراضات اخرى فقال:
« وبعد التسليم بصحة اللفظ، نقول انه (حديث الثقلين) لا يقطع، بل لا يعين من ذكروهم (الشيعة) من الأئمة الستة المتفق عليهم عند الأمامية الفاطميين.

وهو لا يعين اولاد الحسين دون اولاد الحسن. كما لا يعين واحدا من هؤلاء بهذا الترتيب. كما انه لا يدل على ان الأمامة تكون بالتورات. بل لا يدل على امامة السياسة. وانه ادل على امامة الفقه والعلم، ولا يدل على امامة الحكم وشؤون الدولة. ولا تلازم بين امامة الفقه وامامة السياسة، فالنبي كان يولي بعض الأمور غير الأفقه لأن له مزايا ادارية اكثر من مزايا الفقيه فيه. وقد كان يولي النبي امرة المدينة في غيبته من لا قدم له في الفقه وانه إذا كانت الولاية ملازمة لفقه الدين

وفهمه لعم ذلك قيادة الجيوش وذلك منقوض بتولية اسامة بن زيد امرة جيش فيه ابو بكر وعمر. وليس له بلا ريب فقهها ولا علمها.»[١٤]

وترى ان ما ذكره يتلخص في امور ثلاثة:

اولاً: ان حديث الثقلين لا يعين الأئمة من اهل البيت ولا ترتيب امامتهم. وهذا مدفوع بان الكثير من احاديث الثقلين ينص على علي بن ابي طالب ويعلنه مرجعا بعد الرسول يمثل اتباعه ضمانة من الضلال. والنص على علي يعطي عليا صلاحية انتقاء مرجع للأمة من بعده. ومن بعده يتمكن ايضا ان ينتقي المرجع الصالح من بعده. وهكذا. اضف الى ذلك ان الرسول سمى اعضاء العترة الذين عاصروه. وقد مر في الفصل الثاني ان سعداً بن ابي وقاص روى ان النبي اخرج يوم المباهلة عليا وفاطمة والحسنين وقال: اللهم هؤلاء اهلي. وسترى في حديث ام سلمة ان الرسول تحدث بمثل ذلك.

ثانيا: ان حديث الثقلين لا يدل على ان الأمامة بالتوراث. ونحن معه. ولكن مذهب اتباع اهل البيت لا يقول بالتوارث. ويدل على ذلك ان قانون الوراثة يقضي بان لا يرث الأخ إذا وجد الولد. والشيعة يقولون بان الامام بعد الحسن لم يكن من اولاده بل كان الأمام بعده اخاه الحسين. ان كل ما يقوله اتباع اهل البيت هو ان الأمامة في اهل بيت الرسول. وان كل امام منهم ينتقي المرجع من بعده على اساس مؤهلاته التي تميزه عن بقية الناس. لا على اساس انه من ولده او أنه ولده الأكبر.

الشيعة لا يقولون بوراثة الامامة.

ويظهر انه صعب على الأستاذ ابي زهره (كما صعب على كثير من علماء

---

(١٤) نفس المصدر ص ١٩٩ - ٢٠٠

الجمهور) ان يتصور ان يكون اهل بيت الرسول اكثر مؤهلات للأمامة من بقية المسلمين. افكر ان اتباع اهل البيت يقولون بامامة اعضاء تلك الأسرة من اجل الوراثة. ولعل عدم استساغته لأحاديث الثقلين مع كثرتها تعود الى ذلك. حيث استبعد ان يكون اعضاء هذه الأسرة المكرمة اكثر اهلية من سواهم ففكر ان احاديث الثقلين تعني الوراثة للأمامة. وقد فاته ان ينتبه الى السبب الذي من اجله الزم النبي المسلمين باتباع اهله بيته وهو انهم لا يفارقون القرآن لا لأنهم اهل بيته.

ولو ان الشيخ ابا زهره انتبه الى عدد من آيات سورة آل عمران لما صعب عليه ان يتصور امتياز آل بيت الرسول على سواهم في مؤهلاتهم للقيادة ففي السورة المذكورة نقرأ قوله تعالى:

﴿إِنَّ الله اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوْحاً وَآلَ إِبْرَاهِيْمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العالمين. ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ. وَالله سَمِيْعٌ عَلِيْمْ.﴾ (١٥) وفي السورة نفسها نقرأ:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ: رَبِّ هَبْ لِيْ مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً. إِنَّكَ سَمِيْعُ الدُّعَاءْ فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّيْ فِيْ الْمِحْرَاب: إِنَّ الله يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ الله. وَسَيِّداً وَحَصُوْراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِيْنْ.﴾ (١٦) الى ما هنالك من آيات اخرى في هذه السورة وسور أخرى تدل على ان الله خلق من ذراري الأنبياء واقربائهم اناساً كانوا اعلى من بقية الناس علما وطاعة لله. ولذلك الانبياء واقربائهم اناساً كانوا اعلى من بقية الناس علما وطاعة الله. ولذلك اصطفاهم على سواهم. وقد كان ذلك مكافأة لأولئك الأنبياء على ما بذلوا من جهود في هداية الناس؛ او استجابة لدعاء اولئك الأنبياء كما يشعر في الآيات السابقة قوله تعالى « والله سميع عليم » وقوله: « انك سميع الدعاء. »

ومحمد خاتم الأنبياء وافضلهم واحقهم بالمكافأة الألهية وبأن يستجاب دعاؤه.

---

(١٥) آية ٣٣ - ٣٤

(١٦) آية ٣٨ - ٣٩

وقد دعا النبي لأهل بيته. فقد روت ام سلمة زوجة الرسول انه حينما نزل قوله تعالى:

«انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ويطهركم تطهيرا» وكان علي وفاطمة والحسن والحسين معه فأخذ فضل ردائه فغشاهم به ثم اخرج يده فالوى بها نحو السماء ثم قال:

اللهم هؤلاء اهل بيتي وخاصتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا (١٧).»

ودعا لهم في صلاته حيث علم المسلمين ان يقولوا في صلواتهم عليه: اللهم، صل على محمد وآل محمد كما صليت على آل ابراهيم انك حميد مجيد.

وقد روى الحاكم عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب عن ابيه انه قال: «لما نظر رسول الله (ص) الى الرحمة هابطة قال: ادعوا لي. ادعوا لي. فقالت صفية: من يا رسول الله؟ قال اهل بيتي: عليا وفاطمة والحسن والحسين. فجيء بهم، فالقى عليهم النبي (ص) كساءه، ثم رفع يديه. ثم قال: اللهم هؤلاء آلي فصل على محمد وعلى آل محمد. وانزل الله عز وجل: انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا.» وقد قال الحاكم: هذا حديث صحيح الأسناد(١٨).

السنة اقرب من الشيعة الى القول بوراثة الأمامة.

ومن كل ذلك تعرف ان اتباع اهل البيت لا يقولون بامامة اهل البيت بسبب الوراثة كما توهم الشيخ ابو زهره وسواه من علماء الجمهور، بل يقولون بامامتهم لأن الرسول اختارهم. وان اختيار الرسول لهم لقيادة المسلمين انما كان لأن الله طهرهم من الرجس تطهيرا او لأنهم لا يفارقون القرآن قولا ولا عملا.

---

(١٧) المستدرك ج ٣ - ص ١٢٨

(١٨) المستدرك ج ٣ (ص ١٢٨)

وقد قدمنا في الفصل السادس عشر ان السنة هم الذين يقولون بالوراثة (من حيث لا يشعرون) استنادا الى روايات تضمنتها الصحاح تدل على ان الخلفاء من قريش،ولا تجيز ان يكون الخليفة غير قرشي، وان عدد الخلفاء من قريش هو اثنا عشر، وأن هذه الخلافة ستبقى في قريش مادام في الناس اثنان.

وقد ذكرنا هنالك ان حصرها في قريش على لسان الرسول انما هو بأمر من الله. فان كان ذلك من اجل ان القرشيين اقرباء للرسول من بعيد أو قريب لأنهم يجمعهم مع الرسول جد واحد هو فهر بن كنانة فهو قول بالوراثة. ولكنه قول بوراثة موسعة لا يقرها قانون التوارث في الأسلام. اذ يجعل البعيد من الاقرباء مساويا في حق الوراثة لأقرب الناس الى النبي.

وان كان حصرها في قريش بأمر من الله، لا من اجل قرابة القرشيين الى النبي بل من اجل أنهم من قريش فقط كان ذلك دعوة الى الأيمان بتفوق قبلي وارستقراطية دخيلة على الأسلام. اذ تدعو مبادئه الى الأيمان بالمساواة بين المسلمين بصرف النظر عن القبيلة والقومية والجنس والموطن. وان اكرمهم عند الله اتقاهم.

واذ كان هذان التفسيران للاحاديث المشار اليها غير منطقيين فان من اللازم ان تفهم هذه الاحاديث النبوية على الوجه التالي:

ان الله جعل الخلافة في قريش لأنه وجد أو أنه سوف يوجد في قريش اثنا عشر رجلا متفوقين على سائر المسلمين بعلمهم وتقواهم ومؤهلاتهم للقيادة وان هؤلاء سيكونون الخلفاء الشرعيين سواء وصلوا الى الحكم او منعهم الناس من الوصول الحكم. وانهم خلفاء لا لقرابتهم للرسول ولا لأنهم من قريش بل صادف أنهم كانوا من قريش واقرباء للرسول. كما ان النبي (ص) لم يكن نبيا لأنه من قريش او من الهاشمين وان صادف انه منهم. بل هو نبي لمؤهلاته الشخصية. وهو نبي ولو لم يؤمن من الناس بنبوته.

إذا كان هذا هو ما أريد من حديث حصر الخلافة في قريش لم يكن قولا بالوراثة. ويتفق هذا التأويل المنطقي مع مذهب الأمامية الأثنا عشرية. ولكن علماء السنة لا يقولون بهذا التفسير بل يميلون الى التفسير الأول او الثاني والتفسير

الأول يعني قولا بوراثة الخلافة التي ينكرها السنة ويتهمون بها الشيعة وهم منها براء.

- ٤ -

الامامة في الفقه وحده لا تكون ضمانة ضد الضلال

اما اعتراضه الثالث القائل بان غاية ما تدل عليه احاديث الثقلين هو امامة اهل البيت في الفقه لا في السياسة والحكم فهو غير صحيح..

ان هدف الرسول الذي صرح به في احاديث الثقلين هو ان تكون امامة اهل البيت امانا من الضلال. وامامة الفقه لا تكون ضمانة للمسلمين ضد الضلال حينا تكون القوة في غير يدها. لأنها في الغالب لا تتمكن من ايصال تعاليمها الى ايدي المسلمين. ان وصول التعاليم الى ايدي المسلمين بشكل عام يحتاج الى الجو الإيجابي الملائم الذي يمكن الأمام من اعلان اقواله وابلاغها الى الملايين، كما يحتاج الى من يوجه الشعب باجمعه الى الأخذ بما يقوله ذلك الأمام والأعتقاد بصحته. وما دامت القوة في غير يد الأمام يكون ذلك الجو الأيجابي وذلك التوجيه للشعب مفقودين.

ان الخلفاء حينما يكونون غير الأئمة الذين ارشد الرسول الى الأخذ بقولهم يميلون بطبيعتهم الى عدم ابراز اولئك الأئمة. ولا يرغبون في نشر علمهم. وقد يحاولون نشر اقوال آخرين من اتباعهم ممن لا يتوقعون منهم مزاحمة على الحكم، مهما كانت منزلة هؤلاء ثانوية في العلم. وقد طلب المنصور العباسي من الأمام مالك ان يؤلف كتابا لينشر بين المسلمين لكي يكون مصدرهم الرئيسي في السنن ولم يكلف الأمام جعفر الصادق ليفعل ذلك مع ان الأمام الصادق استاذ مالك. وقد اخذ الناس عن عبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر وابن عباس اكثر مما اخذوا عن الأمام علي بن ابي طالب مع الفارق الكبير بين علي وبين هؤلاء في العلم.والأستاذ ابو زهره يذكر ما يلي:

«وانه يجب ان نقرر هنا ان فقه علي وفتاويه واقضيته لم ترو في كتب السنة بالقدر الذي يتفق مع مدة خلافته ولا مع المدة التي كان منصرفا فيها الى الدرس والإفتاء في مدة الراشدين قبله. وكانت حياته كلها للفقه وعلم الدين. وكان اكثر الصحابة اتصالا برسول الله (ص). فقد رافق الرسول وهو صبي قبل ان يبعث

عليه السلام واستمر معه الى ان قبض الله تعالى رسوله اليه. ولذا كان يجب ان يذكر له في كتب السنة اضعاف ما هو مذكور فيها.

« وإذا كان لنا ان نتعرف السبب الذي من اجله اختفى عن جمهور المسلمين بعض مرويات علي وفقهه، فانا نقول انه لا بد ان يكون للحكم الأموي أثر في اختفاء آثار علي في القضاء والأفتاء. لأنه ليس من المعقول ان يلعنوا عليا فوق المنابر وان يتركوا العلماء يتحدثون بعلمه وينقلون فتاويه واقواله للناس وخصوصا ما كان يتصل منها باساس الحكم الأسلامي.» [(١٩)]

ان اي قارىء لما كتبه علماء الحديث من اهل السنة يرى ان ما نقل في تلك الكتب من روايات ابي هريرة وعائشة يزيد عشرات الأضعاف عما نقل في تلك الكتب من روايات علي وبقية العترة الطاهرة. هذا بالرغم من انا ابا هريرة اسلم في السنة السادسة من الهجرة بينما كان علي مع الرسول قبل مبعثه الى ساعة وفاته، وبالرغم من ان الرسول اعلن ان عليا باب مدينة العلم (التي هي الرسول) وان من شاء العلم فليأت الباب.

وإذ اعترف الأستاذ ابو زهره بقلة ما روي عن علي في كتب السنة وان اسباب ذلك سياسية، فقد كان من المنطق ان يستنتج من حديث الثقلين انه يدل على ان الرسول اراد من امته ان تنقاد الى اهل بيته فقها وسياسة وحكما، لا فقها فقط. ان النبي اعلن للأمة ان اتباعها للقرآن وعترته امان من الضلال. فلو حصر وظيفة العترة في امامة الفقه واجاز للأمة ان تنتخب سواهم للخلافة، لهدم الغرض الذي تحدث عنه في حديث الثقلين وهو الضمانة ضد الضلال.

ان الناس حينما ينتخبون خليفة من خارج العترة سيرون في الخليفة رئيسهم الديني والزمني الذي يجب اطاعته وان كانت آراؤه واجتهاداته ضد منهاج العتره. والخليفة المنتخب نفسه سيرى ايضا من واجب الناس طاعته سيما وظاهر القرآن يؤيد ذلك: ﴿يَا أَيُّها الَّذيْنَ آمَنُوْا اَطيْعُوا الله وَاَطِيْعُوْا الرَّسُوْلَ وَأُولِيْ الأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾

---

(١٩) الامام الصادق صفحة - ١٦٢

بل سيرى الخليفة المنتخب والمسلمون ان من واجب الأمام من العتره ان يطيعه وبذلك يكون الرسول دفع الناس الى الحيرة والفوضى بدلاً من ان يؤمنهم ضد الضلال، حينما قال لهم ان يتبعوا اهل بيته ثم اجاز لهم ان يؤمروا ويطيعوا من لا يوافق قوله قولهم وامره امرهم. وقد شهد التاريخ الأسلامي خليفة راشدا يعمل برأي مروان بن الحكم او كعب الأحبار بدلا من رأي رئيس العترة الطاهره علي بن ابي طالب.

والواقع ان التأويل الذي قدمه الأستاذ ابو زهره يتنافى مع منطوق حديث الثقلين. فالرسول في حديث الثقلين صرح بوضوح ان هدفه وحدة القيادة اذ قال ان الثقلين اللذين تتمثل فيهما القيادة لا يفترقان. فهو لم يرد ان يتبع المسلمون اهل بيته لأنهم اهل بيته. بل لأنهم لا يفارقون القرآن.

ومعنى ذلك ان قيادة القرآن وقيادة العترة واحدة. ولأنهما لا يختلفان واحدهما (العترة) يفسر الآخر (القرآن) ويكشف للمسلمين عن حقيقة معانية ومقاصده كان اتباعهما امانا من الضلال. ولو كانت العتره تخالف القرآن احيانا لما كان اتباعها اماناً من الضلال. ولكن اللطيف الخبير اخبر الرسول بأن القرآن والعترة لن يتفرقا. فالضمانه ضد الضلال تتمثل في نظر الرسول في وحدة القيادة دون ازدواجية.

وحينما يجيز الرسول للمسلمين ان يختاروا قيادة اخرى قد لا تتفق مع العترة زالت وحدة القيادة وزال معها الأمن من الضلال. لأن الأزدواجيه حلت محل الوحده.

فلكي يتحقق هدف الرسول وهو الأمن من الضلال يجب ان يكون مقصود الرسول قيادة العتره للأمة فقها وسياسة وادارة تجنباً للأزدواجيه في القيادة التي تؤدي الى الضلال بدلا من ان تكون امانا منه.

وقبل ان ننهي مناقشة الشيخ ابي زهره ينبغي ان نبحث ما ذكره من ان من الممكن ان يولى الحكم غير الأفقه لأن له من المزايا الأدارية ما ليس للأفقه وان النبي كان يولي على المدينة في غيبته من لا قدم له في الفقه وانه لو كانت الولاية تلازم الفقه لعم ذلك قيادة الجيوش، مع ان النبي ولى اسامة قيادة جيش فيه ابو

بكر وعمر في حين ان اسامة لم يكن له مثل فقههما.

ان ما اوقع الشيخ ابا زهره في هذا هو انه نسي الهدف الأساسي الذي اعلنه الرسول في احاديث الثقلين هو تأمين الأمة من الضلال. ولو انتبه الى ذلك الهدف النبوي لكان عليه ان يفرق بين ولاية محدودة كولاية على المدينة اثناء غيبه الرسول او امرة على جيش وبين ولاية عامة كالخلافة. ان تأمير غير الأفقه على جيش وتولية صحابي على المدينة اثناء غيبة الرسول لا يضران بضمانة الأمة ضد الضلال ما دام القائد الأعلى للأمة وللجيش هو النبي الذي باستطاعته ان يصلح اخطاء من ولاهم ويردهم الى الصواب ان ضلوا.

اما القيادة العامة للأمة التي يريد النبي ان تكون مأمنا من الضلال فانها لن تحقق الهدف إذا اعطيت لذي علم محدود بتأويل القرآن والسنن. فلو ضل قائد من هذا النوع لم يكن هنالك فوقه قيادة تهيمن عليه وترده الى الصواب. لأنه القائد الأعلى. فإذا ضل في اجتهاده ضلت الأمة معه. ولو اراد من هو افقه منه من رعيته ان يرشده الى الصواب وشاء هو أن لا يأخذ بارشاده فليس للأفقه من سلطان عليه. وقد حدث في خلافة عثمان (رض) ان ارتكب الخليفة عديدا من الأخطاء وحاول الأمام علي وسواه من الأصحاب الصالحين ان يردوه الى الصواب وشاء الخليفة ان لا يأخذ بارشاداتهم فلم يفلحوا ووقعت الأمة في فتنة هوجاء لم تنته آثارها الى يومنا هذا.

على ان ابا زهره كان جديرا يتدبر حديث الثقلين باعمق مما فعل. فاذا كان الرسول ينبىء عن الله ان اعضاء العترة الطاهرة لا يفارقون القرآن وانهم والقرآن امان للأمة من الضلال فانهم لا يكونون كذلك الاَّ إذا كانوا موهوبين اكثر من سواهم علما وحكمة وفهما. واحرى بهم، إذا كانوا كذلك ان يكون لديهم مزايا الادارة وحسن السياسة وحكمة الحكم.

وقد يقول قائل انه لا فارق في النتيجة بين ان يكون الرسول قصد امامة اهل بيته في الفقه فقط او في الأدارة ايضا ما دام المسلمون لم يأخذوا عنهم ولم يؤمروهم كما شاء الرسول.

وجوابنا على ذلك ان على الرسول ان يبين للأمة وان لا يبقي حجة لمحتج. فلو جعل للعتره الأمامة في الفقه فقط واجاز للأمة ان تنتخب قيادة دينية زمنية من غيرهم لكان لمن لم يأخذ عن العترة حجته. ولكانت الحيرة والفوضى بسبب ترخيص الرسول بالأزدواجية في القيادة. اما حين يعلن الرسول وحدة القيادة دينيا وزمنيا ثم لا يتمسك المسلمون بالعترة كما اراد فان المسؤولية تكون عليهم لا عليه. وهذا نظير مالو أرسل الله رسولا فلم يؤمن الناس به. اذ تكون الحجة لله عليهم ولا حجة لهم عليه.

وعلى كل فان دلالة حديث الثقلين على قيادة العترة للأمة في جميع الشؤزن لا تحتاج الى توضيح. وما ورد من الأستاذ ابي زهره انما هو تأويل وصرف للحديث عن معناه. فما عناه الرسول هو ان لزوم اتباع الثقلين جاء بأمر من الله وان الوحي اخبره بانهما لن يتفرقا. ومعنى ذلك ان قيادة عترته كقيادته هو في انها عامة وشاملة بريئة من الأزدواجية التي يسببها اختلاف منهاج القائد مع القرآن.

والأسلام هو الدين الذي لا يفصل الدين عن الدنيا. وما كانت قيادة الرسول دينية لا زمنية. وما كان سواه من حاكم للمسلمين بل كان النبي هو الذي يقود الأمة في كل شؤونها وكان اولى بالمؤمنين من انفسهم. وهذا ما اراده ان يكون لعترته من بعده.

هذا ما اردنا ذكره عن حديث الثقلين. وهو احد جزأي الأعلان النبوي في غدير خم.

وقد حان الوقت لنتحدث عن الجزء الثاني من الاعلان: الا وهو حديث الولاية.

حَديث الولايَة

الفصل الثامن والثلاثون

(١)

من متواتر احداث التاريخ ان الرسول أدَّى في السنة العاشرة من الهجرة (٦٣٢) حجة الاسلام التي تعرف في التاريخ بحجة الوداع. وقد ادى فريضة الحج بقيادة الرسول عشرات الألوف من المسلمين.

ومن معلوم احداث هذه الحجة ان الرسول وهو في طريق عودته من الحج وقف واوقف الألوف من الحجاج على ماء يدعى غدير خم (بين مكة والمدينة) ليبلغهم ان عليهم ان يتبعوا الثقلين اللذين سيخلفهما لهم. وهما: كتاب الله وعترة الرسول: وان الثقلين لن يتفرقا حتى يردا عليه الحوض (يوم القيامة): وان عليا (رئيس العترة) اولى بالمؤمنين من انفسهم كما ان الرسول اولى بالمؤمنين من انفسهم وان عليا مولى للمؤمنين كما ان الرسول مولى للمؤمنين.

لقد خطب الرسول يوم غدير خم خطبة طويلة حفظ منها الأصحاب القليل مما قاله. وكانت هذه النقاط او بعضها مما بقى في ذاكرة عديد من الأصحاب. وقد حدث ان ناشد الامام علي، وهو في الكوفة، من حضر مجلسه من الاصحاب ان يشهدوا بما سمعوا من رسول الله يوم الغدير (وكان ذلك بعد نحو من سبع وعشرين سنة من حادث الغدير). وبالرغم من قلة الأصحاب الذين بقوا الى ذلك الوقت وقلة من كان منهم في الكوفة فقد شهد عديد منهم بأن الرسول اعلن يوم الغدير ولاية علي.

فقد روي عن ابي الطفيل (وهو صحابي) انه قال:

«ان عليا قال: أنشد الله من شهد يوم غدير خم الاّ قام. ولا يقوم رجل يقول: اني نبئت او بلغني، الارجل سمعت اذناه ووعاه قلبه. فقام سبعة عشر رجلا منهم خزيمة بن ثابت، وسهل بن سعد وعدي بن حاتم وعقبة بن عامر وابو ايوب الأنصاري وابو سعيد الخدري وابو شريح الخزاعي وابو قدامة الأنصاري وابو ليلى (او ابو يعلى) وابو الهيثم بن التيهان ورجال من قريش فقال علي: هاتوا ما سمعتم فقالوا:

« نشهد انا اقبلنا مع رسول الله (ص) من حجة الوداع حتى إذا كان الظهر خرج رسول الله فامر بشجرات فشذبن والقي عليهن ثوب. ثم نادى بالصلاة

فخرجنا. فقال: ما انتم قائلون؟ قالوا: قد بلغت: قال: اللهم اشهد (ثلاث مرات). قال: اني اوشك ان ادعى فأجيب. واني مسؤول وانتم مسؤولون. ثم قال: ايها الناس، اني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي اهل بيتي. ان تمسكتم بهما لن تضلوا. فانظروا كيف تخلفوني فيهما. وانهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض.. نبأني بذلك اللطيف الخبير. ثم قال: ان الله مولاي وانا مولى المؤمنين. الستم تعلمون اني اولى بكم من انفسكم؟ قالوا بلى (قال ذلك ثلاثا). ثم اخذ بيدك يا امير المؤمنين فرفعها وقال: من كنت مولاه فهذا علي مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. فقال علي: صدقتم وانا على ذلك من الشاهدين[1]».

وروى الحافظ محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم النيسابوري في صحيحه المستدرك بسنده عن زيد بن ارقم انه قال:

«لما رجع رسول الله (ص) من حجة الوداع ونزل غدير خم امر بدوحات فقممن. فقال: كأني قد دعيت فأجبت. اني قد تركت فيكم الثقلين، احدهما اكبر من الآخر: كتاب الله تعالى وعترتي. فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فانهما لن يتفرقا حتى يردا على الحوض. ثم قال: ان الله عز وجل مولاي وانا مولى كل مؤمن. ثم اخذ بيد علي فقال: من كنت مولاه فهذا وليه،اللهم وال من والاه وعاد من عاداه[2]». وروى بطريق آخر أن الرسول قال: «... ايها الناس اني تارك فيكم امرين لن تضلوا ان اتبعتموهما. وهما كتاب الله واهل بيتي، عترتي. ثم قال اتعلمون اني اولى بالمؤمنين من انفسهم (ثلاث مرات)؟ قالوا: نعم، فقال رسول الله (ص): من كنت مولاه فهذا علي مولاه[3]».

وترى ان هذه الأحاديث تحتوي ثلاثة امور:

(١) ان الرسول ترك لأمته ثقلين او امرين لا يفترق احدهما عن الآخر وان

---

(١) ينابيع المودة للقندوزي ص ٤٢. روى ذلك عن الامام السمهودي نور الدين علي بن عبد الله الشافعي عن ابي نعيم في حلية الأولياء.
(٢) ج ٣ ص ١٠٩
(٣) نفس المصدر ص ١١٠

اتباعهما امان من الضلال. إهذانّ إ الثقلان هما: كتاب الله وعترة الرسول.

(٢) ان النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم وان الله مولى الرسول، والرسول مولى المؤمنين.

(٣) ان عليا كالنبي في انه مولى للمؤمنين.

وقد روى المحتويات الثلاث كل من جابر بن عبد الله الأنصاري وعامر بن ضمرة وحذيفة بن اسيد. والامام امير المؤمنين علي وآخرون.

وروى المحتويين الأول والأخير الامام علي وام سلمة زوجة الرسول، إذ قالت:

«اخذ رسول الله بيد علي بغدير خم فرفعها حتى رأينا بياض ابطيه فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه. ثم قال ايها الناس اني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي. ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض».

وقد مر في حديث الثقلين ان الامام عليا روى مثل هذا المعنى.

وقد روى المحتويين الآخرين عدد كبير من الأصحاب منهم ابو سعيد الخدري وابو قدامة العرني وحذيفة بن اسيداوعامر بن ضمرة وزيد بن ارقم. ومنهم البراء بن عازب روى ذلك عنه الامام احمد وابن ماجة في سننه بسندهما عن عدي ابن ثابت عن البراء انه قال:

«أقبلنا مع رسول الله في حجة الوداع فنزل في بعض الطريق. فأمر بالصلاة جامعة فاخذ بيد علي فقال:

«الست اولى بالمؤمنين من انفسهم؟ قالوا: بلى. قال: الست اولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا: بلى. فقال: هذا ولي من انا مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه[٤] »

وممن روى هذين المحتويين سعد بن ابي وقاص. فقد روى عنه الحاكم في المستدرك انه قال:

« .... لقد قال له (لعلي) رسول الله يوم غدير خم بعد حمد الله والثناء عليه:

---

(٤) ذكره الامام احمد في المسند ج ٤ ص ٢٨١ وابن ماجة في سننه ج ١ ص ٤٥.

هل تعلمون اني اولى بالمؤمنين من انفسهم؟ قلنا: بلى. قال: اللهم من كنت مولاه فعلي مولاه. وال من والاه وعاد من عاداه...[٥]».

واخرج الامام احمد في مسنده عن عبد الرحمن بن ابي ليلى انه قال:

«شهدت عليا في الرحبة ينشد الناس، فقال: انشد الله من سمع رسول الله يقول يوم غدير خم: «من كنت مولاه فعلي مولاه». الا قام فشهد: قال عبد الرحمن: فقام اثنا عشر بدريا كأني انظر الى احدهم». فقالوا: نشهد إنا سمعنا رسول الله يقول يوم غدير خم: الست اولى بالمؤمنين من انفسهم وازواجي امهاتهم؟ فقلنا: بلى يا رسول الله. قال (رسول الله): «من كنت مولاه فعلي مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه[٦]».

اما المحتوى الأخير، وهو قول الرسول (ص) يوم غدير خم: «من كنت مولاه فعلي مولاه» فقد رواه عشرات من الأصحاب[٧].

وقد روى الترمذي في صحيحه عن زيد بن ارقم ان النبي قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه[٨]».

وقد روى الحافظ محمد بن ماجه في سننه (صحيحه) عن سعد بن ابي وقاص انه قال:

«قدم معاوية في بعض حجاته». فدخل عليه سعد فذكروا عليا فنال (معاوية) منه. فغضب سعد وقال: اتقول هذا لرجل سمعت رسول الله يقول

---

(٥) ج ٣ ص ١١٦.

(٦) ج ١ ص ١١٩.

(٧) منهم ابو ليلى الأنصاري وحبشي بن جناده وابو ايوب خالد بن زيد الأنصاري وسهل بن سعد وطلحة بن عبيد الله وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود والخليفة الثالث عثمان بن عفان وعدي بن حاتم وعطبة بن بشر المازني وعقبة بن عمر الجهني وعمار بن ياسر وأبو الهيثم التبهان وحبيب بن بديل بن ورقاء الخزاعي وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين وعبد الله بن بديل الخزاعي وقيس بن ثابت وقيس بن سعد بن عباده وهاشم المدقال الزهرى واخرون كثيرون.

(٨) ج ٥ ص ٢٩٧ (رقم الحديث ٣٧٩٧).

(فيه): مَنْ كنت مولاه فعلي مولاه؟...[٩]»

وبالطبع كل من روى المحتويات الثلاثة او المحتويين الآخرين او المحتوى الأول والأخير فهو من رواة المحتوى الأخير. وليس هنالك اي تناقض في هذه الروايات. فقد يختار الراوي في موقف ان يروي بعض ما سمع من الرسول او اي شخص آخر ثم يختار في موقف آخر ان يروي معظم ما سمع، ويختار في موقف ثالث ان يروي ما سمعه بتمامه. وليس في اي من ذلك ما يناقض الآخر.

وهكذا نرى ان ابا الطفيل عامر بن واثله روى ان سبعة عشر صحابيا، استجابوا لمناشدة الامام علي في الكوفة فشهدوا انهم سمعوا من الرسول يوم غدير خم كلمات تضمنت كل المحتويات الثلاثة كما اسلفنا في صدر هذا البحث. ونرى رواية اخرى في احاديث المناشدة رواها الامام احمد في مسنده عن ابي الطفيل تضمنت المحتويين الاخيرين فقط. فقد قال:

«جمع علي الناس في الرحبة ثم قال لهم: انشد الله كل امرئٍ مسلم سمع رسول الله يقول يوم غدير خم ما سمع، لما قام. فقام ثلاثون من الناس وقال ابو نعيم: فقام ناس كثير فشهدوا حين اخذ (رسول الله) بيده (بيد علي) فقال للناس: اتعلمون اني اولى بالمؤمنين من انفسهم؟ قالوا: نعم يا رسول الله. قال: من كنت مولاه فهذا مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. قال (ابو الطفيل): فخرجت وكأن في نفسي شيئاً. فلقيت زيد بن ارقم فقلت له: اني سمعت عليا يقول كذا وكذا. قال (زيد): فما تنكر؟ قد سمعت رسول الله (ص) يقول ذلك له[١٠].

وقد تكلم الرسول عن ولاية علي في غير موقف غدير خم. فقد روى الترمذي في صحيحه عن عمران بن حصين ان اربعة شكوا عليا لرسول الله، فغضب النبي وقال لمن شكوا عليا:

«ما تريدون من علي؟ ما تريدون من علي؟ ما تريدون من علي؟ ان عليا مني

---

(٩) ج ١ ص ٤٥ (رقم الحديث ١٢١).

(١٠) ج ٤ - ص ٣٧٠

وانا منه. وهو ولي كل مؤمن من بعدي[١١]».

وروى الامام احمد في مسنده (ج ٤ ص ٤٣٧) هذا الحديث باختلاف يسير في اللفظ وقال فيه ان النبي (ص) قال: «دعوا عليا، دعوا عليا، دعوا عليا. ان عليا مني وانا منه. وهو ولي كل مؤمن». وروى الامام احمد عن سعيد بن خيبر عن ابن عباس عن بريدة الأسلمي انه قال:

«غزوت مع علي اليمن فرأيت منه جفوة فلما قدمت على رسول الله (ص) ذكرت عليا فتنقصته. فرأيت وجه رسول الله يتغير. فقال: يا بريدة، الست اولى بالمؤمنين من انفسهم؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال من كنت مولاه فعلي مولاه[١٢]».

وروى الامام احمد ايضا في مسنده (ج ٥ ص ٣٥٦) «لا تقع في علي فانه مني وانا منه. وهو وليكم بعدي».

ان حديث الغدير ثابت لا ريب فيه فقد رواه ما يزيد على مأة صحابي وما يزيد على اربعة وعشرين من أئمة المؤرخين وسبعة وعشرين من أئمة الحديث واحد عشر من مفسري القرآن. ومثل هذا العدد من علماء الكلام وقد رواه عديد من المؤلفين في كل قرن[١٣].

(٢)

معنى حديث الغدير

وإذا علمنا صدور بلاغ الغدير عن الرسول فقد حان الوقت لنتكلم عما يدل عليه البلاغ. ولكي نفهم ذلك علينا ان نعرف:

(١) هل هنالك فارق بين كلمة ولي ومولى، فقد ورد في بعض الأحاديث كلمة ولي وفي اكثرها كلمة مولى؟

---

(١١) ج ٥ ص ٢٩٦ (رقم الحديث ٣٧٩٦)

(١٢) ج ٥ ص ٣٤٧ وروى مثله الحاكم في المستدرك ج ٣ ص ١١٠.

(١٣) من شاء الاطلاع على تفاصيل الروايات واسماء الرواة والمؤلفين فعليه بقراءة كتاب الغدير للأميني فهو كتاب فريد في الموضوع والأرقام المذكورة هنا مأخوذة من كتابه هذا ج ١ ص ٦ - ٨

(٢) وإذا كانت الكلمتان تدلان على شيء واحد فماذا تعنى كلمة مولى؟
(٣) ماذا عنى الرسول بكلمة اولى في قوله: «الست اولى بالمؤمنين من انفسهم؟»

ولي ومولى

ان كلمتي ولي ومولى تتساويان في معانيهما تقريبا سوى ان كلمة ولي يمكن ان تضاف الى الأشياء والعقلاء فيقال ولي الوقف كما يقال الله ولي المؤمنين. اما كلمة مولى فلا تضاف الا الى العقلاء فيقال مولى المؤمنين ولا يقال مولى الوقف.

امّا ما تعنيه كلمة مولى فقد ذكر اهل اللغة عديدا من المعاني: (١)المحب (٢)الجار (٣)النزيل (٤)الشريك (٥)الإبن (٦)ابن العم (٧)ابن الأخت (٨)الصهر (٩)القريب (١٠)العم (١١)الصاحب (١٢)المنعم (١٣)المنعم عليه (١٤)الفقيد (١٥)المعتق (١٦)الرب (١٧)المالك (١٨)السيد غير المعتق او المالك (١٩)العبد (٢٠)التابع (٢١)الحليف (٢٢)الناصر (٢٣)الأولى بالشيء (٢٤)المتصرف بالأمر (٢٥)المتولي الأمر (٢٦) الولي.

وبالرغم من ان كلمة مولى قد تستعمل في كل هذه المعاني فان الخمسة عشر الأولى من المعاني بعيدة عما يتبادر الى الذهن حين اطلاقها. ولا يصار اليها الا بقرينة واضحة. ومعنى ذلك انه لو استعملت كلمة مولى دون اي قرينه فان السامع يتردد فهمه بين المعاني الأحد عشر الأخيرة فقط. واظهر ما يكون من المعاني الأحد عشر معنيان: هما السيد والعبد.

وعلى كل حال فان كلمة مولى في حديث الغدير لم يقصد منها اي من المعاني الخمسة عشر الأولى. فالجار والنزيل والشريك والابن وابن الأخت والعم والصهر والصاحب لم يُرَد اي منها. فعلي لم يكن جاراً او نزيلا او شريكاً او ابنا او ابن اخت او صهراً او صاحباً لكل من كان رسول الله جاره او نزيله او شريكاً له او ابنه او ابن اخته او صهره او صاحبه ولم يكن النبي عمًّا لأحد لأنه لم يكن له اي اخ بالولادة.

ولم يقصد من كلمة مولى القريب لان الآخبار يذلك تافه لا يليق بالرسول ان يجمع الناس ليعلنه. فكل مسلم يعرف ان عليا ابن عم الرسول والقريب الى اي منهما قريب للآخر.

ولم يقصد المحب لأنه ايضا لا يتناسب مع الموقف فليس امراً ذا خطر ليجمع الرسول الألوف من الناس ليعلمهم ان عليا يحب كل من يحبه رسول الله وليس ذلك شيئا ينفرد به علي. فكل الصحابة الطيبون امثال ابي بكر وعمر وعثمان وابي ذر وسلمان وعمار وسواهم كانوا يحبون من احبه الرسول. اضف الى ذلك ان الرسول يريد ان يقول انه مولى لجميع المسلمين ولم يكن الرسول محبا لهم جميعاً لأنه لا يحب العصاة منهم.

ولم يقصد المنعم عليه لأن الرسول لم يكن منعما عليه من الناس او على الاقل من عديد يذكر. ولم يقصد المنعم ماديا فالرسول لم يكن منعما على كل المسلمين ماديا. والرسول يريد ان يقول ان عليا مثله في انه مولى لجميع المسلمين من كل الأجيال. ولم يقصد المنعم روحيا، بالرغم من ان الرسول منعم روحيا على جميع المسلمين بهدايته اياهم لدين الله وكذلك علي بجهاده غير المضارع في سبيل اعلاء كلمة الله. ان الرسول لم يقصد ذلك لأنه لم يكن في ذلك الموقف مخبراً بأمر حدث في الماضي، بل كان يريد ان يمنح عليا رتبة ومنصباً. وبالطبع لم يقصد الرسول الفقيد. لعدم صحة المعنى وتفاهته ولا المعتق لأنه لم يكن معتقا لكل المسلمين لأن المسلمين لم يكونوا في اكثريتهم الساحقة عبيداً. والمعاني الأحد عشر الأخيرة منها بالطبع لا يصح ان يقصد منها الرب لأنه كفر ولا العبد ولا التابع لأن الرسول لم يكن عبدا ولا تابعاً لأحد ولم يقصد المالك لأن الرسول لم يكن مالكاً للمسلمين ولم يقصد الحليف لأن الرسول لم يكن حليفاً لكل مسلم. ولو قصد الحليف الروحي لما صح ايضا لأنه ليس حليفا للعصاة منهم وما اكثرهم.

ولا يصح ان يعني الناصر لأن الرسول كما ذكرنا يريد ان يقول انه مولى لكل المسلمين من جميع الأجيال والرسول ليس نصيرا لجميع الأجيال. ومن يتمكن ان يكون نصيرا لكل الأجيال هو الله وحده. ومع ذلك فالرسول ليس نصيرا لكل مسلم بل للخُلّص منهم ولا يتناول نصره العصاة من المسلمين.

وإذن فلم يبق الا خمسة من المعاني الأحد عشر الأخيرة وهي السيد غير المعتق او المالك والأولى بالشيء والمتصرف بالأمر والمتولي للأمر. والولي.

والمعنى الأخير (الولي) لا يصح الا إذا قصد منه احد المعاني الأربعة الأخرى. فهو ليس معنى مستقلاً. اما (السيد) فيصح إذا قصد منه القائد او المتبوع لأن الرسول متبوع وقائد لجميع المؤمنين. والمعاني الثلاثة الأخرى: الاولى بالشيء والمتصرف بالأمر والمتولي للأمر متقاربة المفهوم وتتلاءم مع معنى المتبوع والقائد حيث يقصد بالمتبوع والقائد من كان كذلك بأمر من الله. فإذا قصد من المولى الأولى بكل مؤمن وهو الأحق بان يتصرف بامور المؤمنين فهو ما يعنيه القائد او المتبوع بأمر من الله وكذلك المتولي للأمر والمتصرف بالأمر.

الأولى

وماذا عنى الرسول بكلمة اولى في قوله: «الست اولى بالمؤمنين من انفسهم؟»

لقد صرح اهل اللغة ان كلمة اولى تأتي لمعنين:

(١) الأحق (٢) الأجدر (وهو الاليق أو الأنسب) ومن الواضح ان النبي قصد معنى احق لا معنى اجدر لأن من المستهجن ان يقال ان النبي اليق او انسب بالمؤمنين من انفسهم.

ان النبي اراد ان يذكر المسلمين بحق منحه الله اياه واعلنه الوحي في القرآن الكريم:

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِيْنَ مِنْ أَنفُسِهِم، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ....﴾[١٤]

ان الآية تنطق بأن للرسول الحق في ادارة شؤون المسلمين اكثر مما للمسلمين من الحق في ادارة شؤون انفسهم. حيث يجب عليهم طاعته والأنقياد لأمره. وقد

---

(١٤) سورة الأحزاب (٣٣) آية رقم ٦

اكد القرآن هذا الحق في آيات عديدة منها:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُوْلُهُ أَمراً أَنْ يَكُوْنَ لَهُمُ الخِيْرَةُ فِيْ أَمْرِهِمْ. وَمَنْ يَعص اللهَ وَرَسُوْلَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِيْناً﴾(١٥)

وإذا فهمنا كل ذلك فقد سهل علينا فهم ما أراد الرسول من تصريحه يوم الغدير. فلو اخذنا المحتوى الأخير وحده من التصريح وهو قول الرسول: «من كنت مولاه فعلي مولاه». لما امكن ان يراد إلاَّ معنى القائد او المتبوع بأمر من الله او من له حق منحه الله اياه بادارة شؤون المسلمين. والرسول يصرح بان عليا مثله في ذلك.

وإذا اخذنا هذا المحتوى مع المحتوى الثاني وهو قوله «الست اولى بالمؤمنين من انفسهم؟ (وهو ما تضمنه عدد من الروايات) يصبح المقصود مكتمل الوضوح فالنبي احق بكل مؤمن من نفسه بمقتضى نص القرآن وهذا ما أراد النبي ان يذكر المسلمين به. وإذ اردف هذا السؤال بقوله:

«من كنت مولاه فهذا علي مولاه.» فقد عنى أن عليا كالنبي له حق من الله بادارة شؤون المسلمين.

وإذا كان لأحد إن يتردد في هذا فان المحتوى الاول للحديث «اني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي اهل بيتي. لن تضلوا ان تمسكتم بهما فانظروا كيف تخلفوني فيهما. وانهما لن يتفرقا حتى يردا على الحوض». يزيل كل تردد ويبرز الحقيقة ناصعة فالعترة (ورئيسها علي) يجب ان تتبع كما يتبع القرآن. واتباعها كاتباع القرآن فرض على كل مسلم. والاحاديث التي حفلت بهذا المحتوى كثيرة ومتعددة. وصدورها عن الرسول متيقن. ومعنى ذلك كله ان اتباع علي والأنقياد له كالأنقياد للرسول. ومتابعته مفروضة على المسلمين بامر الله.

ولهذا كان علي مولى لكل من رسول الله مولاه.

---

(١٥) سورة الاحزاب آية رقم

وإذا تذكرنا قول الرسول لبريده وسواه في احاديث عديدة أن عليا مني وانا منه. وهو ولي كل مؤمن من بعدي أو وهو وليكم بعدي، لم يعد اي مجال لجدل حول ما عناه الرسول من كلمتي مولى وولي.

وهذا هو ما تحدثت عنه تصريحات الرسول التي ذكرناها سابقاً وهي ان اطاعة علي اطاعة لله ورسوله وعصيان علي عصيان لله ولرسوله ومفارقته مفارقة لله ولرسوله وسبه سب لله ولرسوله.

– ٣ –

آية التبليغ

وإذا اطلعنا على سبب وقفة الرسول في غدير خم وبلاغه للمسلمين في ولاية علي عليهم تأكد ان ما تحدث عنه الرسول ما كان الاّ اعلانا امر الله به رسوله، وان الاعلان يتعلق بمستقبل الرسالة والأمة وتأمين قيادة صالحة.

اننا نقرأ في سورة المائدة قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّها الَّرسُوْلُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ. وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ. وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاس. إنَّ اللهَ لاَ يَهْدِيْ الْقَوْمَ الْكَافِرِيْنْ﴾[١٦]

هذه الآية بصرف النظر عن اي حديث ورد في تفسيرها تنبىء بعدة امور:

(١) ان رسالة سابقة لهذه الآية كانت قد نزلت على الرسول (ص) ليبلغها للناس.

(٢) ان الرسول ارجأ تبليغ تلك الرسالة أو استعفى ربه من مهمة تبليغها خشية من الناس ويدل على ذلك قوله تعالى في الآية نفسها: «والله يعصمك من الناس».

(٣) ان محتوى الرسالة السابقة المرجأة كان مهما جداً لأن الآية نزلت عليه تأمره امرا شديداً بابلاغ تلك الرسالة وفي الوقت نفسه تنذره:

---

(١٦) آية رقم ٧٠

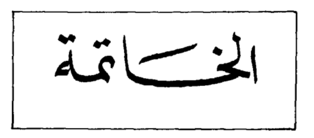
وينبغي ان لا ننسى ان قول الرسول لبريده وآخرين في أحاديث عديدة: ان عليا مني وانا منه وهو وليكم بعدي او هو ولي كل مؤمن من بعدي صريح في انه خليفته من بعده.

وكذلك قوله في احاديث الثقلين: «اني تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي...» صريح في الاستخلاف من بعده.

وقبل ان أنهي حديثي عن بلاغ الغدير، اود ان اذكر ان جمهور المسلمين لم يترددوا في دلالة الحديث على عهد الرسول لعلي بالخلافة عنادا او تعصبا بل كان منشأ ترددهم ان نشأوا في مجتمع يؤمن بان الرسول لم يستخلف احدا. فصعب عليهم ان يوفقوا بين هذا الاعتقاد وبين دلالة الحديث على عهد الرسول لعلي.

وانا اقول مخلصا: لو ان الرسول وقف يوم الغدير وقال: من كنت مولاه فابو بكر مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، لا يقنت دون اي تردد بان الرسول عهد الى ابي بكر بالخلافة. وما اظن ان جمهور المسلمين كانوا يترددون في الاعتقاد بعهد الرسول اليه. ولو قال انه اولى بالمؤمنين من انفسهم وان أتباعه واتباع القرآن امان من الضلال لما كان عهد الرسول لأبي بكر موضعا لجدل.


القسم الخامس


الخاتمة

« وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَه ». ومعنى ذلك انه ان لم يبلغ تلك الرسالة لم يقم بوظيفته كرسول لله، وان عدم ابلاغ تلك الرسالة يعدل عدم تبليغ الرسالة النبوية كلها.

محتوى الرسالة

لو نزلت هذه الاية والرسول في مكة في السنين الأولى من بعثته لفهمنا منها بوضوح ان النبي كان يخشى ان يجابه مجتمعه الوثني بمبدأ الوحدانية والدعوة الى نبذ عبادة الأصنام. ولكن هذه الاية جزء من سورة المائدة. وهي سورة مدنية مئة بالمئة.

ولو نزلت في اوائل مدة الهجرة لجاز لنا أن نفكر ان محتوى الرسالة كان امراً بصلاة او زكاة او صوم يخشى ان يثقل على الناس او امراً بجهاد الوثنيين الأشداء ممن كانوا يقفون في طريق الأسلام. والجهاد يعني خسارة في الأرواح والأموال يخشى من المسلمين ان لا يتحملوها.

ولكن سورة المائدة نزلت في السنة العاشرة من الهجرة بعد ان أنزلت الفرائض كلها وبعد ان خاض المسلمون عشرات المعارك ضد الوثنيين وسواهم واستعلى امر الاسلام واستقر في شبه الجزيرة العربية.

وقد روي عن عائشة وعبد الله بن عمر (رض) ان المائدة كانت آخر سورة نزلت[١٧].

ويؤيد ذلك ان السورة تحتوي آية اكمال الدين:

﴿اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِيْ وَرَضَيْتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيْناً﴾. وقد نزلت هذه الآية في حجة الوداع والرسول في موقف عرفة كما يدل عليه رواية الشيخين عن عمر[١٨]. وقد روي ايضا انها نزلت والرسول عائد من

---

(١٧) روى ذلك الحاكم في المستدرك ج ٢ ص ٣١١

(١٨) روى ذلك البخاري في صحيحه ج ٦ - ص ٦٣ في تفسير سورة المائدة (في كتاب التفسير) وروى مثله مسلم في صحيحه.

حجة الوداع التاريخية وهو في موقفه يوم غدير خم كما تدل عليه روايات عديدة يأتي ذكر بعضها.

ومن ذلك نعرف ان محتوى الرسالة التي ارجأ الرسول ابلاغها الى الناس لم يكن امرا باعلان مبدأ الوحدانية و لا فريضة من فرائض العبادة ولا امرا بجهاد الوثنيين او الكتابيين، بل كان امراً يتعلق بالسياسة الداخلية للدولة والحكم. وإذا تذكرنا ان سورة المائدة قد نزلت في ايام حجة الوداع وما بعدها كما يدل عليه ما رواه الحاكم والبخاري ومسلم وتذكرنا ان النبي نادى بولاية علي بن ابي طالب في غدير خم وهو عائد من حجة الوداع، سهل علينا ان نستنتج ان محتوى الرسالة كان امرا باعلان ولاية علي.

ومعنى ذلك ان النبي حينما تلقى الأمر باعلان علي قائداً للأمة خشي من اختلاف اتباعه وان يظنوا انه حابى عليا لقرابته وقربه منه. فنزلت آية التبليغ تأمره بان يبلغ ما انزل اليه من ربه وتنذره بأنه ان لم يفعل ذلك فانه لا يكون قد قام بوظيفته كرسول، وتعده بان الله سيعصمه ممن يخاف منهم من الناس. وحينما تلقى الرسول هذا الأمر المشدد وقف في غدير خم ليعلن ما اعلن في امر علي. وإذا كان هذا هو ما عنته الآية وضح ان ما عناه الرسول من بلاغ الغدير هو قيادة علي للمسلمين دينيا ودنيويا على غرار قيادة الرسول نفسه. ولو كان ما اعلنه الرسول اقل من ذلك في امر علي لما خشي خلاف الناس عليه ولما نزل امر مشدد معه انذار. فما كان يزعج الطامعين بالرئاسة من المكيين وسواهم ان يلي علي اي منصب إذا لم يكن ذلك المنصب رئاسة عامة في الدين والدنيا. ان الأمر الالهي بالتبليغ دليل على ان الله اراد ان يُؤمِّن لعبادة المسلمين قيادة لا يضلون ان مشوا تحت لوائها: وهي قيادة علي رئيس العترة الطاهرة التي لا تفارق القرآن وتضمن للأمة وحدتها وتقدمها. وامتثالا لهذا الأمر الالٓهي وقف الرسول امام الألوف معلنا ما اعلن.

لا علاقة للرسالة باهل الكتاب

وقد يتوهم ان الرسالة التي ارجأ الرسول ابلاغها خشية الناس كانت تتعلق باهل الكتاب. فقبل الآية آيات عديدة تتحدث عنهم، منها قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ

الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ. غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ. وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْرا. وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ. وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادَا. واللهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِيْنَ﴾. وبعد الآية نجد عديداً من الآيات في اهل الكتاب منها:

﴿قُلْ: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالأَنْجِيْلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِكُمْ. وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً. فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِيْن﴾.

ولكن هذا الوهم يتبدد حينما نتذكر ان ترتيب الآيات في القرآن لم يكن طبقا لتتابعها في النزول. فيمكن ان لا يكون مكان آية التبليغ في حال نزولها هو نفس مكانها فيما نقرأه من السورة.

ولو اعتبرنا ان مكانها في النزول هو مكانها في التدوين فليس في الآية اشارة الى ارتباط معناها بمعنى ما قبلها او ما بعدها.

وإذا تأملنا في معناها نجزم باستقلالها عما سبقها او تلاها. لأن مضمونها يدل على عدم ارتباطها بما تقدمها وما تأخر عنها من الآيات. ان الآية تدل على ان الرسول كان يخشى من اذاعة محتوى الرسالة التي اشارت اليها الآية ولم يكن الرسول وقت نزول آية التبليغ يخشى ان يذيع اي شيء يختص بعلاقة المسلمين باهل الكتاب. فقد وقعت معارك عديدة بين المسلمين واليهود كان منها معركة بني قينقاع ومعركة بني النظير في اوائل سني الهجرة. ومعركة بني قريضة التي وقعت تلو معركة الأحزاب في السنة الخامسة. وكانت خاتمة المعارك بين النبي واليهود معركة خيبر التي وقعت في السنة السادسة. وبذلك انتهى كل خطر يهودي على المسلمين. فما كان الرسول يخشى من اليهود اي خطر ان هو اذاع اي رسالة في السنة العاشرة ضدهم. وقد كان المسلمون في حالة حرب مع المسيحيين بدأت بمعركة مؤتة في السنة الثامنة وتبعها معركة تبوك في السنة التاسعة. ومن لا يخشى ان يحارب المسيحيين لا يخشى ان يذيع رسالة ضدهم.

اضف الى ذلك ان مضامين الآيات المحيطة بآية التبليغ قد نزل مثلها في سُوَرٍ

سبقت سورة المائدة زمانا. فما تقدمها يأمر المؤمنين بان لا يتخذوا اهل الكتاب الذين يهزأون بدين الاسلام اولياء ويذكر ان منهم من لعنه الله وجعل منهم القردة والخنازير وانهم إذا جاؤا الى المسلمين قالوا نفاقا انهم قد آمنوا وانهم يسارعون الى الأثم ويأكلون السحت وان اليهود كلما اوقدوا نارا للحرب اطفأها الله. وان اهل الكتاب لو اتقوا او اقاموا التوراة والانجيل لدخلوا الجنة ولأكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم. وما تأخر عن الآية ينطق بان اهل الكتاب ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والانجيل وانهم إذا آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحا فلا خوف عليهم. وان بني اسرائيل كذبوا رسلاً وقتلوا آخرين بعد ان اخذ الميثاق عليهم. وان الذين قالوا ان المسيح هو الله قد كفروا...

•

هذه المضامين او امثالها كانت قد اذيعت في سور شتى سبق نزولها زمان المائدة. ففي سورة البقرة ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ (يعني اليهود) رَسُوْلٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُم. فَفَرِيْقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيْقاً تَقْتُلُوْنَ؟ وَقَالُواْ: قُلُوْبُنَا غُلْفٌ. بَل لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيْلاً مَا يُؤْمِنُوْنَ﴾. ٨٨ - ٨٩ وفي وفي آل عمران: ﴿وَلَوْ آمَنَ

وفي سورة مريم (١٩ وهي مكية) نقرأ: ﴿وقالوا: اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَدَا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً. تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يتفطَّرْنَ مِنهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرَّ الْجِبَالُ هَدًّا. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً وَمَاَ يَنْبَغِيْ أَنْ يَتَّخِذَ الرَّحمنُ وَلَدَا﴾. ٩٠ - ٩٤.

وفي سورة التوبة (٩ نزلت في السنة التاسعة بعد الهجرة) نقرأ:

﴿قَاتِلوْا الَّذِيْنَ لاَ يُؤمِنُوْنَ باللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُوْنَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُوْله وَلاَ يَدِيْنُوْنَ دِيْنَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِيْنَ أُوْتُوْا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوْا الجِزْيَة عَنْ

يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُوْنْ. وَقَالَتْ الْيَهُوْدَ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللهَ وَقَالَتْ النَّصَارَى: الْمسيح إبْنُ الله. ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِافْواهِهِمْ. يُضَاهِئُوْنَ قَوْلَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ قَبْل. قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنّى يُؤْفَكُوْنْ؟ اتَّخَذُوْا أَحْبَارُهُمْ وَرُهْبَانِهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُوْنِ اللهِ وَالْمَسِيْحَ بْنَ مَرْيَم. وَمَا أُمِرُوْا إِلاَّ لِيَعْبُدُوْا الَهاً وَاحِداً. لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَه عمَّا يُشْرِكُوْنْ﴾ ٣١ - ٣٣

ان كل هذا يدل على ان الرسول ما كان يخشى وهو في السنة العاشرة من الهجرة ان يواجه اهل الكتاب بمعركة او رسالة. وآية التبليغ تدل على انه كان يخشى ان يذيع رسالة كانت انزلت اليه، فامره الله باذاعتها ووعده بان يعصمه من الناس. ولذلك فان منطوق الآية يشهد بانها غير مرتبطة المعنى بما قبلها وما بعدها. بل هي مستقلة عنهما استقلالاً تاما. وهذا ما يحملنا على الجزم بان الرسالة التي خشي الرسول الناس في تبليغها لم تكن تتعلق بسياسة خارجية تجاه اهل الكتاب او المشركين. بل كانت تتعلق بسياسة داخلية اسلامية. وإذ لم تكن تتعلق بفريضة من الفرائض الاسلامية لأنها جميعا كانت قد اعلنت قبل نزول آية التبليغ بسنين، فلنا ان نجزم بان الرسالة المرجأة كانت تتعلق بالحكم ورئاسة الدولة.

وإذ كانت سورة المائدة قد نزلت في حجة الوداع والأيام التي بعدها كما تدل عليه الأحاديث السابقة وإذ وقف الرسول بشكل مستعجل ومفاجىء على غدير خم موقفاً الحجاج ليعلن لهم ولاية علي، جاز لنا ان نجزم بان محتوى الرسالة المرجأة كان اعلان تلك الولاية. اجل نتمكن ان نجزم بذلك دون الرجوع الى احاديث خاصة تعرفنا عن اسباب نزول آية التبليغ.

ونزداد جزما بذلك حينما نعرف ان احاديث متعددة تدل على ان الأمر كان يتعلق بولاية علي. فقد نقل الامام السيوطي ان الحافظ ابن ابي حاتم اخرج باسناده عن ابي سعيد الخدري ان الآية نزلت على رسول الله يوم غدير خم في علي بن ابي طالب[١٩].

---

[١٩] لقد اعتمدنا في مصادر الأحاديث ١٩ الى ٢٥ على كتاب الغدير ج ١ ص ٢١٤ - ٢٢٢ للثقة الأميني.

وذكر في كنز العمال ج ٦ ص ١٤٣ (الطبعة الأولى) ان المحاملي اخرج في اماليه باسناده عن ابن عباس ما يلي: «لما امر النبي ان يقوم بعلي بن ابي طالب المقام الذي قام به فانطلق النبي الى مكة، فقال: رأيت الناس حديثي عهد بكفر (و) جاهلية. ومتى افعل هذا يقولوا صنع هذا بابن عمه. ثم مضى حتى قضى حجة الوداع. ثم رجع حتى إذا كان بغدير خم انزل الله عز وجل: يا ايها الرسول: بلغ ما انزل اليك من ربك، الآية. فقام مناد فنادى: الصلاة جامعة، ثم قام واخذ بيد علي فقال:

من كنت مولاه فعلي مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه[٢٠]».

وروى ابن مردوية ما يقرب من هذه الألفاظ عن ابن عباس[٢١] ونقل ابن بطريق في العمده ص ٤٩ ان ابا اسحاق الثعلبي روى في تفسيره (الكشف والبيان) عن الامام الباقر وعن ابن عباس انها نزلت في علي، فأخذ الرسول بيد علي وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه[٢٢].

واخرج شيخ الاسلام ابو اسحاق الحمويني في كتابه اسباب النزول ص ١٥٠ عن ابي سعيد الخدري انه قال نزلت هذه الاية يوم غدير خم في علي بن ابي طالب[٢٣].

وذكر الامام فخر الدين الرازي في تفسير الكبير ج ٣ ص ٦٣٦ ان البراء بن عازب وابن عباس ومحمد بن علي رووا ان الآية نزلت في علي يوم غدير خم[٢٤].

وذكر ابو جعفر محمد بن جرير الطبري باسناده (في كتاب الولاية) في طريق حديث الغدير، عن زيد بن ارقم ان الآية نزلت في علي بن ابي طالب[٢٥].

وإذا عرفنا ان وقفة الرسول التاريخية يوم غدير خم كانت نتيجة وحي آلهي نزل في آية قرآنية جاء بها جبرائيل الى الرسول يوم الغدير يأمره بابلاغ المسلمين ولاية علي عليهم وينذره ان لم يبلغ ويعده ان يعصمه الله ممن يخشاه من الناس ان هو ابلغ فقد اتضح ان بلاغ الغدير بلاغ خطير يعلن للمسلمين ان ولاية علي المعلنة هي امامة عامة في الدين والدنيا وانها قيادة كقيادة الرسول نفسه. ولو كانت اي شيء آخر لما نزل به هذا الوحي الآمر المنذر. وما نقل من حديث الغدير هو بعض مما قاله الرسول في تلك الوقفة التاريخية.

لماذا لم يقل الرسول علي اميركم او خليفتي او امامكم

ومن ذلك تعرف عدم صواب ما يقوله علماء من ان حديث الغدير بالرغم من صحته لا يدل على خلافة علي وانه لو كان الرسول يقصد استخلاف علي على المسلمين لما استعمل كلمة مولى او ولي بل كان من اللازم ان يقول علي اميركم بعدي او خليفتي عليكم او امامكم.

ان مجرد نزول آية التبليغ التي تحمل الأمر المؤكد بابلاغ المسلمين الرسالة التي فاه بها النبي يوم غدير خم يدل اجلى الدلالة على ان الرسالة كانت بمنتهى الخطورة وانها تتعلق بمصير الاسلام والمسلمين وانه حينما اعلن الرسول للمسلمين ان عليا كالنبي مولى لجميع المسلمين كان يعلن ان الله قد اعطى عليا منصبا عظيما هو الامامة العامة والقيادة التي تحل محل قيادة النبي نفسه.

ولو صرفنا النظر عن آية التبليغ وعن كل ما جاء في تفسيرها من الروايات عن طريق الجمهور، فان ما نقله الجمهور من بلاغ الغدير كان كافيا كل الكفاية في الدلالة على امامة علي. لقد صرح الرسول ان اتباع القرآن واتباع عترة الرسول امان للمسلمين من الضلال وان القرآن والعترة لن يتفرقا حتى يردا على الحوض وان عليا كالنبي، اولى بالمؤمنين من انفسهم وانه كالنبي مولى لجميع المؤمنين (من جميع الأجيال والأجناس). هذه الكلمات بنفسها، دون حاجة الى اي إضافة تدل بوضوح تام على ان الرسول كان في ذلك الموقف مبلغا عن الله ان عليا خيرة الله وخيرة رسوله لقيادة الأمة، وانه نائب الرسول في الرئاسة دينيا ودنيويا.

لم يقل الرسول: علي اميركم بعدي لأن الرسول قلما استعمل كلمة امير في غير الشؤون العسكرية او امارة الحج. وفي ادارة شؤون المسلمين عامة او بعض الأقطار الاسلامية كان يستعمل كلمة الولاية. فقد كان يرسل ولاة على المناطق ويعبر عن نفسه بانه ولي المسلمين والقرآن يعلن:

﴿أَلنَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِيْنَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ...﴾[٢٦]

---

(٢٦) سورة الاحزاب (٣٣) آية رقم ٦

• ويقول: ﴿إِنَّمَا وَلِيَكُمْ اللهُ وَرَسُوْلُهْ وَالَّذْينَ آمنوا، الَّذِيْنَ يُقِيْمُوْنَ الصَّلاَةَ وَيُؤتُوْنَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُوْنْ﴾(٢٧)

ويقول ايضا: ﴿هُنَالِكَ الوَلاَيَةُ للهِ الْحَق. هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْبَا﴾(٢٨) وَيَنْطِقِ القرآن ايضا: ﴿فَاعْلَمُوْا أَنَّ اللهَ مَوْلاَكُمْ، نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْم النَّصِيْر﴾(٢٩) ولم ار في القرآن ان الله دعا رسوله اميراً، ولم اجد في حديث نبوي ان النبي دعا نفسه اميراً او حاكما. والسبب في ذلك ان العلاقة الطبيعة بين ولي امور المسلمين وبينهم ليست علاقة امير ومأمور او حاكم ومحكوم. بل علاقة اب باولاده. فهو يدير شؤونهم ويحافظ على مصالحهم محافظة الأب على مصالح ولده. وليس ولاة امور المسلمين طبقة عليا والشعب طبقة ادنى.

اما السؤال عن سبب اختيار كلمة مولى المؤمنين واولى بهم من انفسهم دون كلمة خليفة، فجوابه ان الخليفة لا تجب طاعته الا بعد موت المستخلف. وان النبي يريد ان يقول للمسلمين ان عليا تجب طاعته في حياة الرسول وبعد وفاته. فهو نائبه في حياته وبعد وفاته. وقد مر ان ابا ذر روى ان الرسول قال: «يا علي من اطاعني فقد اطاع الله ومن اطاعك فقد اطاعني ومن عصاني فقد عصى الله ومن عصاك فقد عصاني». وهكذا فان عليا لم يكن خليفة للرسول فحسب بل نائبا له في ايام حياته وكان (بمقتضى بلاغ الغدير) مثل النبي في انه مولى المؤمنين واولى بهم من انفسهم. لقد كان النبي رئيس الأمة ومن تجب عليها طاعته وكان علي نائبه. له على الامة مثل طاعة الرسول. وقد مر سابقاً ان هذا هو مفاد قول الرسول: «يا علي اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي؟»

فقد كان هارون نائبا لموسى في حياته وقائدا للأسرائيلين كموسى اخيه. وهذا هو مفاد كل ما قدمناه من الاحاديث في هذا الفصل.

---

(٢٧) سورة المائدة (٥) آية رقم ٥٨
(٢٨) سورة الكهف (١٨) آية رقم ٤٤
(٢٩) سورة الانفال (٨) آية رقم ٤٠

لقد حاولنا في بحثنا للخلافة ان نجيب على تساؤل فرضه علينا عرضنا لاحداث التاريخ الاسلامي التي وقعت في عهدي النبوة والخلافة الراشدة في فترة. يثير قصرها الدهشة اذ لم تعمر الخلافة نصف ما يعمره الانسان الواحد.

ان الانظمة الحزبية والديمقراطية في العصور الحديثة قد عاش بعضها مئات السنين وقد مضى على ولادة احدثها ما يزيد على نصف قرن. ونرى ان أيا منها لم ينقلب الى دكتاتورية عسكرية ظالمة ونرى الدلائل تشير بان كل واحد من هذه الانظمة سوف يعيش طويلا دون ان ينقلب على نفسه.

ولكن الحكم الاسلامي العادل الذي يسمو روحا ومادة على كل ما وجد في العصور الحديثة من انظمة ديمقراطية أو شيوعية لم يعمر الا قليلا. وقد انتهى في مدّة تقل عن ثلاثين سنة. وكان من الطبيعي ان يحملنا موت الخلافة الراشدة بهذه السرعة المفاجئة على ان نسأل:

هل كان هذا الموت السريع نتيجة طبيعية لسير المسلمين على منهاج وضعه الرسول اذ إمتنع (كما يعتقد جمهور المسلمين) عن اختيار خلف له ليقود الامة من بعده واوكل الامر الى الامة لتختار لنفسها من يقودها؟ ام ان موت الخلافة الراشدة كان نتيجة طبيعية لاهمال المسلمين مخططا وضعه الرسول ورغب الى امته ان تسير عليه اذ اختار لها قائداً فلم ترض بقيادته؟

ومن اجل تحري الواقع في هذه النقطة المهمة من التاريخ الاسلامي حاولنا في بحثنا في الخلافة ان نجيب على سؤالين:

(١) هل كان ينبغي ان تكون الخلافة بالوراثة او بانتخاب شعبي أو طبقي؟ أم كان ينبغي ان تكون بتعيين نبوي؟

(٢) اذا كان ينبغي ان تكون بتعيين نبوي فهل كان ما ينبغي ان يكون؟ وهل اختار الرسول لأمته قائدا من بعده؟

وقد ادى بنا البحث الى استنتاج ان الخلافة ينبغي ان تكون بتعيين نبوي وان النبي قد اختار للامة قائدا من بعده هو علي بن ابي طالب. كما استنتجنا ان

انفصام وحدة الامة وما مرت به من فتن يعود الى عدم اخذ المسلمين بالمنهاج الذي وضعه الرسول في امر الخلافة.

فلو تسلم الحكم علي بن ابي طالب بعد وفاة الرسول لما وقعت حرب البصرة ولا حرب صفين ولا حرب النهروان. فحرب النهروان كانت نتيجة لحرب صفين وحربا صفين والبصرة كانتا نتيجة لمقتل عثمان. ولو كان علي الخليفة الاول لما استخلف عثمان ولما قتل. ولو لم تكن الحروب الثلاثة لما انتهت الخلافة الراشدة حيث انتهت. ولما كان بامكان الامويين ان يصلوا الى قوة تمكنهم من انهاء الخلافة واستبدالها بملك عضوض يتداولونه فيما بينهم تسعين سنة. ولا كان بإمكان الامويين ان يبيدوا آل رسول الله في مذبحة كربلاء. بلى كان بامكان الخلافة ان تستمر امدا طويلا تتأصل خلاله المبادىء الاسلامية في نفوس المسلمين.

ولو ولي علي الخلافة لما انقسم المسلمون الى سنة وشيعة. فالتسنن والتشيع هما نتيجة الخلاف في انه هل اختار الرسول عليا للخلافة؟ ام ترك الأمر للمسلمين ليختاروا لأنفسهم؟ فلو تسلم علي الخلافة بعد وفاة الرسول لما انقسم المسلمون من اجلها لأنه ليس بين المسلمين من يدعي ان الرسول اختار للخلافة ابا بكر أو سواه من الاصحاب.

على ان استنتاجاتنا هذه لا تعني انا نذهب الى ان الخلفاء الثلاثة وبقية الأصحاب قد تعمدوا الخلاف على رسول الله بعد أن اعلمهم بأن عليا خيرته لقيادة الامة. كلا، فإنا نجل هؤلاء الابرار عن ان يتعمدوا مخالفة لله ولرسوله في امور دينهم. بلى ان هؤلاء الابرار حسبوا ان قيادة الامة امر من امور دنياهم. ورأوا ان لهم ان يختاروا لانفسهم في تدبير مصالح دنياهم غير ما اختاره الرسول. وقد كان الرسول يستشير اصحابه في امور لم يتنزل فيها اليه وحي من الله. ويظهر انهم فكروا ان الخلافة ليست امرا من امور الوحي. وقد كان لهؤلاء الاصحاب ان يجتهدوا وللمجتهد اجره عند الله اصاب أو أخطأ.

والاصحاب كانوا بشرا لا يعلمون الغيب ولا يعرفون ماذا سيكون من نتائج اختيارهم. فهم غير مسؤولين عن الفتن التي امتحنت بها الامة والاضرار الفادحة التي اصيبت بها نتيجة تلك الفتن ولا عن زوال الخلافة الراشدة. لقد فكر هؤلاء الاصحاب ان الافضل لقريش ولهم ان يختاروا غير ما اختاره الرسول، وما تمكنوا

ان يعرفوا ما سوف يقود اليه اختيارهم من النتائج.

لقد اخطأ الاصحاب في اجتهادهم وتقديرهم ولم يعرفوا ابعاد ما قصد اليه الرسول. وبالرغم من ذلك فان من واجبنا ان نحسن الظن بهم وان نحمل اعمالهم على افضل وجوهها. وقد امرنا ان نستغفر لجميع اخواننا الذين سبقونا بالايمان، فضلا عن الاصحاب الذين كانوا الرعيل الاسلامي الاول.

– ٢ –

على المسلمين ان يتفقوا على ان لهم الحق في ان يختلفوا

واود ان اقول انه بالرغم من ان بحوثنا في الخلافة ادت بنا الى استنتاج ان الخلافة ينبغي ان تكون بانتقاء نبوي وان الرسول اختار علياً لقيادة الامة فانا لا نتوقع ولا نرى من الضروري ان يتفق المسلمون على هذا الرأي. فما من شك بأنه سيبقى لفكرتي الانتخاب والتعيين انصارهما ما بقي العالم الاسلامي.

ونعتقد أن هذا لا يحتم على المسلمين ان يتبادلوا العداء والريبة. فاختلاف الرأي لا يمنع المسلمين من تبادل الاحترام والمحبة والشعور بالإخاء **اذا هم اتفقوا على ان لهم الحق في ان يختلفوا وان يكون لهم اكثر من رأي واحد في امر الخلافة.** إن منشأ الريبة المتبادلة بين اصحاب الفكرتين لم يكن الاختلاف في الرأي وانما هو اعتقاد كل فريق بانه لا يحق للفريق الآخر ان يخالفه في الرأي وايمانه بان رأيه هو الاسلام وان رأي غيره زيغ وباطل ومخالفة لله ولرسوله وهدم للاسلام.

ولو رجع الفريقان الى ما يفرضه المنطق لوجدا ان الله اكمل دينه قبل ان يستخلف ابو بكر وان خلافة ابي بكر لم تأت في قرآن ولا سنة، وانها ليست من واضحات التعاليم الاسلامية. بل انها من الاحداث التاريخية التي يحق لكل مسلم ان يكون فيها رأيه ايجاباً أو سلبا وان سلبية رأيه أو ايجابيته لا تضعه في صفوف الاعداء لله ولرسوله ولا في صفوف العصاة لأوامرهما.

وانتقاء الرسول لعلي واختياره اياه لقيادة الامة، مع كل ما يدل عليه من تصريحات بلغ عدد بعض منها حد التواتر، لم يبلغ من الوضوح ما يجعله من بديهيات التعاليم النبوية التي لا يحق لمسلم ان يجادل فيها.

ان ذهاب السنة الى القول بأن الرسول لم يستخلف وان خلافة الخلفاء الثلاثة

شرعية وصحيحة وذهاب الشيعة الى ان الرسول استخلف عليا وان خلافة الخلفاء الثلاثة لم تكن طبق رغبة الرسول لن يعدو أن يكون خلافا في فهم التاريخ الاسلامي أو خلافاً في قانون من القوانين الاسلامية أو حكم من الاحكام الشرعية.

وإذا كان المسلمون يجيزون لانفسهم ان يختلفوا في الفتاوى الشرعية التي تتعلق باحكام لم تبلغ في وضوحها درجة الضرورة والبداهة في الدين الاسلامي فمن الحق ان يجيزوا لانفسهم ان يختلفوا في امر الخلافة دون ان يتبادلوا العداء ويتهم بعضهم بعضا في دينهم وايمانهم من اجل آرائهم في الخلافة.

لقد اختلف ائمة المذاهب الاربعة في مئات من الاحكام الشرعية وتباينت فتاواهم فيها. وما كان تعدد المذاهب عند جمهور المسلمين الا نتيجة هذا الاختلاف. ولو اتفق ائمة المذاهب الاربعة في فتاواهم لكان لجمهور المسلمين مذهب واحد لا اربعة. وبالرغم من هذا الاختلاف والتعدد نرى اتباع المذاهب الاربعة يتبادلون الاحترام والمحبة ولا يتهم بعضهم بعضا في دينهم بل يؤمنون جميعا بصحة اسلامهم وعقيدتهم جميعا. وهذا ما يمليه المنطق وتعاليم القرآن والسنن النبوية. فما دام الخلاف حول مسائل لم يتضح جوابها في القرآن والسنة وضوحا قاطعا مانعا للشك يكون لكل مجتهد الحق في ان يكون رأيا في تلك المسائل حسبما يؤدي اليه استنتاجه بعد استفراغ وسعة في البحث.

ولكن هذا الموقف المنطقي السمح الذي يتفق مع تعاليم القرآن والسنن النبوية لا نجد مثله فيا يتعلق بالخلافة. فبالرغم من ان علماء الجمهور يرون ان الخلافة ليست اصلا من اصول الدين وبالرغم من ان المسلمين جميعا يتفقون على ان الرسول لم يستخلف ابا بكر ولا الخليفتين من بعده نجدهم لا يسمحون لأي مسلم بالمناقشة في صحة خلافتهم ويرون ان القول بان عليا هو الخليفة الشرعي الاول زيغ وانحراف عن الدين وكبيرة من الكبائر لا تغتفر. فكأنه انكار لنبوة محمد أو شرك بالله.

ولماذا كل هذا؟ السبب واضح. ان موقف المسلمين من الخلافة والخلفاء موقف عاطفي. واذا تحكمت في المرء عاطفته انقلبت عنده المقاييس وعظم في عينه الصغير وصغر الكبير.

(٣)

لنرجع في امر هذا الخلاف الى كتاب الله وسنة نبيه

ولكي نرى ما في هذا الرأي من صواب أو خطأ فان من المنطق ان نعرضه على كتاب الله وسنة نبيه. ومن اليسير ان نجد في الكتاب والسنة تحديدا واضحا لمعنى الاسلام الصحيح والايمان الصحيح وشروطهما اللازمة التي اذا توفرت في المسلم كان اسلامه صحيحا وكان من المؤمنين المتقين. وهذا كتاب الله ينطق بما يلي:

﴿آمَنَ الرَّسُوْلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِهِ وَالْمُؤْمِنُوْنَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ. وَقَالُوْا سَمِعْنَا وَاطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَالَيْكَ الْمَصِيْرُ﴾[٢].

ونجد كتاب الله ناطقا ايضا بما يلي:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوْا وُجُوْهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِب. وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّيْنَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِيْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِيْن وَابنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِيْنَ وَفي الرِّقَاب وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وآتَى الزَّكَاةَ، والْمُوْفُوْنَ بِعَهْدِهِمْ وَحِيْنَ الْبأْسِ أُولَئِكَ الَّذِيْنَ صَدَقُوْا وَاولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُوْنْ﴾[٣].

ونرى الآية الأولى تخبرنا بان المؤمنين هم الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وان الآية الثانية تعلن ان الصادقين والمتقين هم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتوا المال على حب الله من يستحقه واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ووفوا بعهودهم وصبروا في البأساء والضراء وحين البأس. ونرى بوضوح آيتين لم تشترطا في الإيمان والصدق والتقوى رأيا خاصا في الخلافة سلبيا او ايجابياً.

---

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٥

(٣) السورة نفسها آية ١٧٧

وسنن الرسول تنطق بما نطق به القرآن. واليك الأحاديث السبعة التالية:

(١) روى البخاري[٤] ومسلم[٥] عن طلحة بن عبيد الله «ان اعرابيا سأل الرسول عن الاسلام. فقال رسول الله: خمس صلوات في اليوم والليلة. فقال: هل عليَّ غيرهن؟ فقال لا. الاَّ ان تطوع، وصيام شهر رمضان. فقال: هل علي غيره؟ فقال: لا، إلا ان تطوع. وذكر له رسول الله الزكاة فقال: هل علي غيرها؟ قال: لا، الا ان تطوع. قال: فادبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا انقص منه. فقال رسول الله: افلح ان صدق».

(٢)روى مسلم عن ابي هريرة ان اعرابيا جاء الى الرسول فقال له: دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة. فقال: تعبد الله، لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان. قال (الاعرابي) والذي نفسي بيده لا ازيد على هذا شيئاً ابدا ولا انقص منه. فلما ولى قال النبي: «من سره ان ينظر الى رجل من اهل الجنة فلينظر الى هذا».[٦]

(٣) وروى عن عبادة بن الصامت انه قال وهو في مرضه: ما من حديث سمعته من رسول الله لكم فيه خير الا حد ثتكموه الاَّ حديثا واحداً. وسوف احد ثكموه اليوم وقد احيط بنفسي. سمعت رسول الله (ص) يقول:« من شهد ان لا آله الا الله وان محمدا رسول الله حرم الله عليه النار[٧]».

(٤) وروى عن عبادة بن الصامت ايضا ان الرسول قال: «من قال: اشهد ان لا آله الا الله وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله وان عيسى عبد الله وابن امته وكلمته القاها الى مريم وروح منه وأن الجنة حق وأن النار حق ادخله الله من اي ابواب الجنة الثانية شاء[٨]».

---

(٤) في الصفحة ١٩ من الجزء الأول من صحيحه (كتاب الايمان).
(٥) في الصفحة ١٦٦ من الجزء الأول من صحيحه (كتاب الايمان).
(٦) صحيح مسلم ج ١ ص ١٧٤
(٧) المصدر نفسه ص ٢٢٩
(٨) المصدر نفسه ص ٢٢٦ - ٢٢٧)

(٥) وروى عن معاذ بن جبل ان الرسول قال: ان حق الله على العباد ان يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله عز وجل ان لا يعذب من لا يشرك به شيئاً. قال قلت: يا رسول الله افلا ابشر الناس؟ قال: قال: لا تبشرهم فيتكلوا[٩].

(٦) وروى البخاري[١٠] وروى مسلم[١١] عن ابي هريرة ان الرسول قال لسائل: «الايمان ان تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث. وانه قال: الاسلام ان تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان....»

(٧) وروى مسلم في صحيحة بسنده عن عمر بن الخطاب ان الرسول قال لسائل سأله: «الاسلام ان تشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا». وان ذلك السائل استعلم النبي عن الايمان فقال له النبي: «ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره[١٢]».

هذه الصحاح وصحاح اخرى كثيرة لم نذكرها تتطابق مع القرآن وتدل بمجموعها على ان من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه والبعث وعبد الله وحده فأقام الصلوات المكتوبة وصام رمضان وآتى الزكاة وحج البيت إذا استطاع اليه سبيلا فهو مسلم صحيح الاسلام ومؤمن صحيح الايمان وأنه يكون من المفلحين ويحرم الله عليه النار ويدخله الجنة من اي ابوابها الثمانية شاء سواء في ذلك من آمن بان الخليفة الشرعي بعد وفاة الرسول هو ابو بكر او علي بن ابي طالب. ذلك ان الايمان بشرعية خلافة الخلفاء لم يذكر شرطا في الاسلام او الايمان أو الفلاح او البعد عن النار او الدخول الى الجنة.

---

(٩) المصدر نفسه ص ٢٣٢
(١٠) في صحيحه ج ١ ص ٢٠ (كتاب الايمان)
(١١) في كتاب الايمان من صحيحه ج ١ (ص ١٦٢ - ١٦٧)
(١٢) (ج ١ ص ١٥٧)

وهذا هو ما يقتضيه المنطق السليم. فاذا كان الرسول لم ينص على خلافة الخلفاء الثلاثة ولا عهد الى ابي بكر فلماذا يكون الايمان بخلافة الخلفاء الثلاثة جزء من الدين الاسلامي ويكون عدم القول بذلك مضرا في الايمان؟ هذا والدين الاسلامي قد تم واكمل في زمن النبي وقبل زمن الخلافة. ولم تذكر خلافة هؤلاء الابرار في كتاب الله و (سنة نبيه).

واذا كان الرسول قد استخلف عليا وعهد اليه كان العهد اليه من سنن الرسول. ولكن هذا العهد لم يصل الى درجة من الوضوح تمنع الجدل او الشك في صدوره او دلالة ما زوي فيه من احاديث. واذا استقصى مسلم ادلة صدور ذلك العهد وكان مخلصا في استقصائه ولم تقنعه تلك الادلة، يكون معذورا ولا يكون مخالفا لكتاب الله ولا لسنة النبي.

واذا كان كتاب الله ينطق بأن من آمن بالله ورسله وملائكته واليوم الآخر وادى الفرائض هو مسلم صحيح الايمان وكذلك تنطق سنن الرسول الأعظم، فلن يكون من المنطق ولا من الاسلام ان يقول اتباع القرآن والرسول بأنه لن يكون مؤمنا ولا مفلحا ولا بعيدا عن النار ولا مستحقا لدخول الجنة الاّ من آمن بان الخليفة الشرعي الاول ابو بكر أو الاّ من آمن بأن الخليفة الشرعي الاول هو الامام علي. وليس من الاسلام ان يقول مسلمون بان من لم يؤمن برأي الجمهور فليس من المؤمنين ولا من اهل الجنة بل هو من اهل النار وان شهد أن لا آله الا الله وان محمدا رسوله وعبد الله وحده واقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان وحج الى بيت الله الحرام وآمن بالله وملائكته ورسله وكتبه ولقائه والبعث.

ان الله اعظم من ان يخلف وعده واعظم من ان يستجيب الى رغبات المتعصبين. وهو جل شأنه اعدل من ان يعذب عباده ويحرمهم ثوابه من اجل عدم الايمان برأي لم يذكره لهم في كتابه ولا ذكره لهم رسوله أو من اجل تكوين رأي في التاريخ الاسلامي وصل اليه صاحبه بعد بحث عن الحقيقة مخلص بذل فيه كل ما امكنه من جهد.

وليس من المنطق ان يعذر فريق من المسلمين في القول بأن ابا بكر (رض) كان خليفة رسول الله الشرعي الاول، بالرغم من ان الرسول لم ينطق بتصريح

يدل على استخلافه اياه وان لا يعذر فريق آخر من المسلمين في القول بأن عليا بن ابي طالب هو الخليفة الشرعي الاول في حين ان المسلمين يجمعون على ان الرسول قال لعلي: «اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير انه لا نبي بعدي؟ كما ثبت ان الرسول اعلن للمسلمين انه ترك لهم كتاب الله وعترته وانهم اذا تمسكوا بهما أمنوا من الضلال.

اسس التفاهم (٤)

لقد ذكرت انه لم يكن غرضنا مما عرضنا في بحوث الخلافة تحويل جمهور المسلمين عن رأيهم وحملهم على القول بأن الخليفة الشرعي الاول هو الامام علي. فذلك ما لم نتوقعه أو نهدف اليه. بلى كان هدفنا ان نوضح امورا نعتقد انها تصلح اساسا لتفاهم متبادل بين المسلمين نرجو ان تكون ثماره زوال الريبة المتبادلة بينهم واحلال الالفة والاخاء محلها والعمل على نشر الدعوة بين المسلمين الى الايمان بأن المسلمين جميعا صحيحو الاسلام والايمان ويستحقون رضوان الله وثوابه ان هم ادوا الفرائض بعد ان آمنوا بالله ورسوله وكتابه وملائكته والبعث. لا فرق في ذلك بين من قال بأن الرسول اختار خليفة ومن قال بأن الرسول ترك امر الخلافة لانتخاب الامة.

وانه ليبدو لنا ان بحوث الخلافة التي مرت قد أوضحت بجلاء تلك الامور التي كنا نهدف الى ايضاحها والتي تصلح لأن تكون اساسا لتفاهم اسلامي عام. ومن تلك الامور ما يلي:

ليس القول بالاستخلاف ابداعا

(أ) ان القول بان عليا كان خيرة الرسول لقيادة الامة لم يكن ابداعا في الدين ولا انحرافا عن الايمان ولا ادعاء تعوزه الحجة. بلى انه من الاسلام ومن جادته المستقيمة. ويتفق مع طبيعة التعاليم الاسلامية. وما كان الاستخلاف بدعا في الاسلام فقد استخلف ابو بكر (رض) عمر احتياطا للاسلام والمسلمين. وما كان ابو بكر اشد حرصا على مستقبل الاسلام والامه من الرسول الاعظم.

ان القول باختيار الرسول لعلي وتعيينه خلفا له هو قول له ما يدعمه من

المنطق وله ما يدعمه من السنن المستفيضة. فالمسلمون لا يجادلون في صحة حديث المنزلة وحديث غدير خم وسواهما من الصحاح التي يفهم منها الشيعة انها تدل اختيار الرسول عليا للخلافة. **وللسنة أن يجادلوا في دلالة هذه الاحاديث على استخلاف علي. وما من شك بأن لهم الحق في ان لا يفهموا منها ان الرسول اختار عليا لقيادة الامة. ولكن ليس لهم الحق ان ينكروا على الشيعة ان فهموا منها ان الرسول استخلفه.**

ولن يجعل الايمان بدلالة هذه الصحاح على استخلاف الرسول لعلي ولا الايمان بعدم دلالتها على ذلك ايّا من الفريقين مدخول الايمان أو ناكبا عن الصراط.

(٥)

كان من الاصحاب شيعة لعلي وكان النبي يحبهم

(ب) ان التشيع لعلي وبقية العترة الطاهرة لم يكن امرا حادثاً بعد وفاة الرسول ولا كان رأيا جديدا في الاسلام قال به قوم لم يعاصروا الرسول ولم يسمعوا منه. كلا إنه مبدأ اعتنقه رجال من اعلام صحابة الرسول الذين زكاهم الرسول وشهد بصدقهم وانهم على الحق.

من هؤلاء ابو ذر الغفاري الذي قال فيه الرسول: «ما اظلت الخضراء ولا اقلت الغبراء اصدق من ابي ذر وانه يمشي في الارض بزهد عيسى بن مريم[١١]».

وعمار بن ياسر الذي قال الرسول له ولابويه:

«صبرا يا آل ياسر فان موعدكم الجنة». وقال له:[١٢] «ابشر يا عمار تقتلك الفئة الباغية[١٣]».

والمقداد بن الاسود الذي قال الرسول فيه وفي علي وابي ذر وسلمان: ان الله

---

(١١) صحيح الترمذي ج ٥ ص ٣٣٤ (رقم الحديثين ٣٨٨٩و ٣٨٩٠)
(١٢) المستدرك للحاكم ج ٣ ص ٣٨٣
(١٣) سنن الترمذي ج ٥ ص ٢٣٣

امرني بحب اربعة واخبرني انه يحبهم. فقيل له من هم يا رسول الله؟ فقال: علي منهم (يكرر ذلك ثلاثا) وابو ذر وسلمان والمقداد[١٤]».

وسلمان الفارسي الذي قال فيه رسول الله فيه وفي علي وعمار: ان الجنة تشتاق الى ثلاثة: «علي وعمار وسلمان»[١٥].

وابن عباس الذي قال فيه الرسول: «اللهم علمه التأويل وفقهه في الدين واجعله من اهل الايمان[١٦]».

كل هؤلاء وعديد من الاصحاب سواهم كانوا شيعة لعلي حتى في ايام الخلفاء الراشدين وكانوا يرون ان الخلافة حق لأهل بيت الرسول. ولو كان لديهم اعوان لقاتلوا في سبيل ايصال علي الى الخلافة. وقد دعا عمار والمقداد الامام الى القتال بعد ما بويع الخليفة الثالث. ولكن الامام امتنع عن ذلك.

وما اعتقد ان من الشيعة الامامية من يتمكن ان يكون اكثر تشيعا لعلي بن ابي طالب من ابي ذر الذي روى ان رسول الله قال: «من اطاعني فقد اطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله. ومن اطاع عليا فقد أطاعني، ومن عصى عليا عصى الله. ومن اطاع عليا فقد أطاعني، ومن عصى عليا فقد عصاني[١٧]». وانه قال لعلي: «يا علي، من فارقني فقد فارق الله ومن فارقك يا علي فقد فارقني[١٨]».

وقد قال وهو آخذ بباب الكعبة: من عرفني فأنا من عرفني ومن انكرني فأنا ابو ذر. سمعت النبي (ص) يقول: «الا ان مثل اهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من قومه. من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق[١٩]».

---

(١٤) سنن ابن ماجة ج ١ ص ٥٣ (رقم الحديث ١٤٩)

(١٥) سنن الترمذي ج ٥ ص ٣٣٢ (رقم الحديث ٣٨٨٤)

(١٦) المستدرك للحاكم ج ٣ ص ٥٣٦

(١٧) نفس المصدر ص ١٣١

(١٨) نفس المصدر ص ١٤٤

(١٩) نفس المصدر ص ١٥١

- ٦ -

شرعية الخلافة الانتخابية وسلبياتها

(ج) اذا لم يكن الرسول عهد الى شخص معين ليقود الامة من بعده أو عهد الى شخص معين ولكن الاصحاب لم يروا في كلمات الرسول دلالة واضحة على انه عهد اليه ثم اختارت الامة قائدا كأبي بكر تكون خلافة الشخص المنتخب شرعية. لأن للمسلمين حقاً طبيعيا في ان يفوضوا من شاؤوا في تدبير شؤونهم. فتكون البيعة عقدا بين الناخبين والقائد المنتخب يجب الوفاء به مادام المنتخب وفياً بالشروط التي تضمنتها البيعة. فاذا كانت البيعة على كتاب الله وسنة نبيه كان على الناخبين الطاعة للمنتخب مادام المنتخب يعمل طبقا للكتاب والسنة.

غير ان الخلافة التي تأتي بالانتخاب بالرغم من صحتها تحمل معها جانبين سلبيين:

(١) انه لا حرج على اي مسلم في ان يمتنع عن بيعة خليفة من هذا النوع وان بايعته الاكثرية. فيجوز لأقلية ان تمتنع عن بيعته وان لا تتفق مع الاكثرية وان لا ترى اهليته للقيادة. ان خلافته ليست بعهد نبوي وليست من وحي السماء. فهي ليست بأمر الله ولا بأمر النبي. فليس في موقف سلبي تجاهه ما يعتبر مخالفة للكتاب او السنة. نعم يكون من واجب من يقف منه هذا الموقف ان لا يشق عصا المسلمين وان لا يعرقل سير ادارة الحكومة التي يرأسها الخليفة، بل عليه ان يطيعه فيما هو طاعة لله لقوله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم ». بناء على ان كلمة « أولي الامر » تشمل من لم يؤمره الرسول.

واذ كان لأقلية ان لا تبايع من بايعته الاكثرية، فليس للمنتخب ان يجبر من لم يبايعه على البيعة. واذا حاول اجباره كان ظالما مغتصبا للحرية.

وان من متواتر التاريخ ان الصحابيين الجليلين سعداً بن ابي وقاص وعبد الله بن عمر امتنعا عن بيعة الامام علي فلم يجبرهما الامام على البيعة. ولم ير المسلمون في امتناعهما عن البيعة اثما بالرغم من ان كلا منهما كان يعرف كفاءة الامام

وعظيم مؤهلاته وبارز فضله. وقد امتنع الامام عن ان يبايع ابا بكر (رض) واستمر على امتناعه ستة اشهر. ولولا اشتعال حروب الردة في زمن الخليفة الاول لاستمر الامام في سلبيته. وما كان يرى حرجا في ذلك.

وهذا ما تسير عليه الامم الحرة في هذا العصر، حيث تنتخب الرئيس اكثرية وتنتخب منافسه اقلية لا تعتقد باهلية الفائز وكفاءته. وبعد الانتخاب لا تحاول الاكثرية ان تجبر الاقلية ان تغير لاءها بنعم. بل تستمر الاقلية في معارضتها دون ان تحاول عرقلة الادارة الفائزة.

واذا كان لمن عاصر الخليفة المنتخب الحق في ان يمتنع عن بيعته، فان للاجيال التي تأتي بعد الخليفة كامل الحق في ان تعتقد أو أن لا تعتقد بكفاءته وصواب بيعته.

فتأيثم هؤلاء لموقفهم السلبي أو الايجابي تجاه خلفاء ماتوا قبل قرون ليس من الدين بل زيادة على الدين لا مسوغ لها.

(٢) ان الخليفة المنتخب اذا كان صالحا لا يعدو أن يكون مجتهدا تقيا يجوز لمجتهد آخر أن يخالفه في الرأي. ويجوز لغير المجتهد ان يقلد سواه من المجتهدين. وقوله لا يصبح قانونا شرعيا لأنه ليس معصوما عن الخطأ. وانتخاب الاكثرية له لا يغير من شخصيته. فلا يصبح معصوما اذا لم يكن كذلك قبل الانتخاب ولا يجعله واسع العلم ان كان محدود العلم.

وعلى العكس يكون الأمر حين يكون الخليفة معينا بعهد من النبي. حيث ينتفي الجانبان السلبيان المذكوران. اذ يجب على الامة ان تتقبل قيادته ولا يجوز لأحد أن يعارضه او يمتنع عن بيعته لأن الامتناع عن بيعته يكون مخالفة لأمر الرسول. كما أن اوامره ونواهيه الدينية تصبح قوانين اسلامية. لأن قداسته تنبع من قداسة الرسول. واختياره اياه يدل على انه يراه اعلم المسلمين بكتاب الله وسنن الرسول. فامره امره وقوله قوله.

— ٧ —
لزوم الأخذ بتعاليم اهل بيت الرسول

ان حديث الثقلين الذي اعلن فيه الرسول انه ترك لأمته ما ان تمسكت به لن

تضل: كتاب الله وعترته يدل بوضوح على ان الرسول امر المسلمين ان يتبعوا تعاليم اهل بيته في الشريعة. فقد انبأ ان تعاليمهم تتفق مع القرآن اذ صرح بان القرآن والعترة لن يتفرقا حتى يردا عليه الحوض (يوم القيامة).

واذا كان لعلماء المسلمين ان يتجادلوا في دلالة الحديث على استخلاف الرسول لأهل بيته فما ارى ان من المنطق ان يجادل احد في ان النبي اراد من المسلمين ان يأخذوا بتعاليمهم.

وان من نافلة القول ان نؤكد صحة حديث الثقلين بعدما رواه نحو من عشرين صحابياً. واذ يقول علماء المسلمين بلزوم الأخذ بفتاوى ائمة المذاهب الأربعة مع انه لم يرد عن النبي اي حديث في شأن هؤلاء الأئمة وفتاواهم فإنا لا نجد مبررا لاعراض هؤلاء العلماء عن تعاليم اهل بيت الرسول بعدما شهد لهم الرسول بأنهم حلفاء القرآن الذين لا يفارقونه.

وان اقل ما ينبغي ان يفعله المسلمون تجاه تعاليم اهل البيت ان يضعوها على قدم المساواة مع المذاهب الأربعة.

والواقع أن أتباع المذاهب الاربعة وقفوا من فتاوى ائمة اهل البيت موقف الريبة والإنكار دون ان يعرفوا تلك الفتاوى وحسبوها وهم لا يعرفونها غير جديرة بالاهتمام والاعتبار. وفي هذا نرى ان اتباع المذاهب الاربعة في موقفهم هذا لم يوافقوا ائمتهم وكانوا ملكيين اكثر من الملك. فابو حنيفة تتلمذ على الامام جعفر الصادق وكان يراه اعلم اهل زمانه بالشريعة.

ان المنصور امر ابا حنيفة ان يعد للامام الصادق عديدا من المسائل الصعبة. فسأل أبو حنيفة الامام الصادق في حضرة المنصور اربعين مسألة فاجاب عن كل واحدة منها وزاد على ذلك بأن ذكر له ما يقوله علماء العراق وما يقوله علماء الحجاز وما يقوله اهل البيت في كل واحدة من تلك المسائل. وعلق ابو حنيفة على ذلك قائلا: «ان اعلم الناس اعلمهم بخلافات الناس». وقال ابو حنيفة يصف شعوره عندما دخل على المنصور وعنده الصادق: «أتيته فدخلت عليه وجعفر بن محمد جالس عن يمينه. فلما بصرت به دخلني من الهيبة لجعفر الصادق بن محمد ما لم

يدخلني لابي جعفر (المنصور)». هذا والمنصور كان يحكم العالم الاسلامي والصادق ليس بيده من الامر شيء[٢٠].

وكان الامام مالك من تلامذته وممن اخذ عنه. وقد روي عن مالك انه قال: كنت آتي جعفر بن محمد. وقد اختلفت اليه زمانا فما كنت اراه الا على احدى خصال ثلاث: اما مصليا واما صائما واما يقرأ القرآن وما رأيته يحدث عن رسول الله الا على طهارة ولا يتكلم فيما لا يعنيه. وكان من العباد الزهاد الذين يخشون الله. وما زرته الاّ وأخرج الوسادة من تحته وجعلها تحتي....[٢١]»

والأمام احمد بن حنبل روى حديث الثقلين بعدة طرق. فقد روى بطريقين عن زيد بن ثابت ان النبي قال: «اني تارك فيكم خليفتين: كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والارض (او ما بين السماء الى الارض). وعترتي اهل بيتي. وانهما لن يتفرقا حتى يردا على الحوض[٢٢]».

وروى عن ابي سعيد الخدري ان الرسول قال: «اني اوشك ان ادعى فأجيب. واني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله عز وجل وعترتي. كتاب الله، حبل ممدود من السماء الى الارض، وعترتي اهل بيتي. وان اللطيف اخبرني انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض. فانظرو ني كيف تخلفوني فيهما»[٢٣]. ورواه ايضا عن زيد بن أرقم[٢٤].

وقد قال الشيخ محمد ابو زهرة وهو من اكابر علماء السنة المعاصرين: ما اجمع علماء الاسلام على اختلاف طوائفهم في امر اجماعهم على فضل الامام الصادق وعلمه. فأئمة السنة الذين عاصروه تلقوا عنه واخذوا. أخذ عنه مالك (رض) وأخذ

---

(٢٠) الامام الصادق ص ٢٧ للشيخ محمد ابو زهرة.
(٢١) المصدر نفسه ج ٥ ص ٧٦ - ٧٧
(٢٢) المسند ج ٥ ص ١٨١
(٢٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٧
(٢٤) المصدر نفسه ج ٤ ص ٣٧١

عنه طبقة مالك كسفيان بن عيينه وسفيان الثوري وغيرهم كثير. واخذ عنه ابو حنيفة مع تقاربهما في السن واعتبره اعلم الناس[٢٥]..».

أما تشيع الامام الشافعي لأهل البيت فهو معروف ونقله الثقاة من العلماء. وقد ذكر الامام الرازي في تعليقه على الآية الكريمة: «قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى....» ان الامام الشافعي نظم ما يلي:

يا راكبا قف بالمحصب من منى   واهتف ابساكن خيفها والناهض

سحراً اذا فاض الحجيج الى منى   فيضا كملتطم الفرات الفائض

ان كان رفضا حب آل محمد   فليشهد الثقلان اني رافضي[٢٦]

وذكر ابن حجر في الصواعق المحرقة ان الشافعي قال:

ال النبي ذريعتي   وهم اليه وسيلتي

ارجو بهم اعطى غدا   بيدي اليمين صحيفتي[٢٧]

وقوله:

يا آل بيت رسول الله حبكم   فرض من الله في القرآن انزله

يكفيكم من عظيم الفخر انكم من   لم يصل عليكم لا صلاة له.[٢٨]

ان ائمة المذاهب الاربعة علماء مجتهدون. والاجتهاد يعني تكوين رأي في

---

(٢٥) الامام الصادق للشيخ محمد ابي زهرة ٦٦

(٢٦) التفسير الكبير للامام فخر الدين الرازي في شرح سورة الشورى

(٢٧) الصواعق المحرقة لابن حجر ص ١٠٨ (نقله الفيروزبادي في فضائل الخمسة مجلد ٢ ص ٨١

(٢٨) نور الأبصار للشبلنجي ص ١٠٤

الاحكام الشرعية التي لم تبلغ من الوضوح حدا يجعلها موضع اتفاق بين علماء المسلمين. أما الامور الواضحة في الاسلام فليس فيها اجتهاد ولا رأي ولا مذهب. فلا يقال مثلا ان مذهب ابي حنيفة أو سواه من الائمة هو وجوب خمس صلوات في اليوم والليلة أو أن صلاة الصبح ركعتان وان كلا من صلوات الظهر والعصر والعشاء اربع ركعات وان صلاة المغرب ثلاث ركعات. هذه امور لا اجتهاد فيها ولا رأي لأننا نعلم انها من صلب الاسلام.

ان الاجتهاد يكون في الأمور التي يعوزها الوضوح بفقدان النص أو اجماله او لتعارض النصوص. حيث يصبح حكم الله غير معلوم لدى العلماء.

يجتهد الائمة ويختلفون، مثلا، في انه هل يجب وضع المصلي حال القراءة، احدى يديه على الآخرى؟ أم يجوز له ارسال يديه؟ وهل على المصلي ان يبدأ الفاتحة بالتسمية؟ ام لا يجب عليه ذلك؟ وهل في صلاة الجمعة اذانان؟ أم هنالك اذان واحد؟ وهل يجب غسل الرجلين في الوضوء؟ أم يجب مسحهما؟

وهل ينتقض الوضوء بمصافحة المرأة؟ ام لا ينتقض؟

لقد وقع الخلاف في هذه المسائل وامثالها لأن العلماء لم يجدوا في كتاب الله والمعلوم من سنن الرسول نصوصا واضحة فيها. فاجتهدوا فيها ووقع بسبب ذلك الخلاف بين الأئمة. ولأن تلك الآراء تتناقض لا يمكن ان تتفق جميعها مع تعاليم الرسول لأن تعاليم الرسول لا تتناقض. اذ لا يمكن ان يقول النبي، مثلا ان مصافحة المرأة تنقض الوضوء ثم يقول بأنها لا تنقضه.

واذا اخذنا ايا من الرأيين بمفرده فان من الممكن ان يكون متفقا مع ما قاله الرسول ولكننا لا نتمكن ان نجزم بذلك لأن المفروض اننا لم نعرف على وجه اليقين ما قاله الرسول في المسألة المبحوثة.

هذا فيما يتعلق بآراء المجتهدين. اما تعاليم اهل البيت فانها لا تتناقض فانهم لا يجتهدون في احكام الشريعة بل يعرفونها معرفة يقينيه. وما قاله واحد منهم كالامام جعفر الصادق هو ما قاله جميع ائمة اهل البيت. وما قالوه هو ما قاله رسول الله. فما يقولونه هو رواية يرويها الواحد منهم عن ابيه عن جده الى ان تتصل روايته الى امير المؤمنين علي بن أبي طالب. وما يقوله امير المؤمنين هو ما يقوله الرسول.

وقد روي ان الامام الصادق قال: « حديثي حديث ابي، وحديث ابي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث امير المؤمنين، وحديث امير المؤمنين حديث رسول الله، وحديث رسول الله قول الله[٢٩] ».

وقد روى هذا في الصير في انه كان مع الحكم بن عيينة عند ابي جعفر محمد بن علي الباقر فجعل يسأله فقال ابو جعفر:

« يا بني قم فاحضر كتاب علي. فاخرج كتابا مدرجا عظيما ففتحه وجعل ينظر حتى اخرج المسألة. فقال ابو جعفر: هذا خط علي واملاء رسول الله (ص). واقبل على الحكم وقال: « يا ابا محمد، اذهب انت وسلمة والمقداد حيث شئتم يمينا وشمالا. فوالله لا تجدون العلم اوثق منه عند قوم كان ينزل عليهم جبريل[٣٠] ».

هاتان الروايتان وامثالهما مما رواه المحدثون من اتباع اهل البيت تتطابق في مدلولها مع حديث الثقلين المتواتر الذي رواه المحدثون من اهل السنة عن نحو من عشرين صحابياً. والحديث يشهد، كما اسلفنا، ان تعاليم اهل البيت صحيحة توافق ما قاله الله ورسوله لأن الله اخبر الرسول بأن الكتاب وعترته لا يتفرقان حتى يردا الحوض، وان الكتاب والعترة يمثلان ضمانة ضد الضلال.

ومن اجل ذلك تكون تعاليم اهل البيت نفس تعاليم الرسول التي عرفها ائمة اهل البيت معرفة اليقين. وليست اراء ظنية ادت اليها اجتهاداتهم. شأن اجتهادات ائمة المذاهب الاربعة الابرار (رض).

ولست اعني من هذا ان علماء الشيعة ومحدثيهم يعرفون جميع ما حدث به اهل البيت معرفة يقين. كلا، فإن الكثير من تعاليمهم لم يعرفها علماء الشيعة معرفة اليقين لأنها وردت في اخبار آحاد أو لأن بعض الروايات التي جاءت عنهم في بعض الاحكام جاءت متعارضة أو غير واضحة الدلالة.

---

(٢٩) الكافي للمحدث الكليني نقله الشيخ ابو زهرة في كتابه الامام الصادق ص ٤٢٨
(٣٠) المصدر نفسه ص ٤٢٥

ولكن هذا لا يضر. فما روي عنهم حاله حال ما روي عن الرسول نفسه. فالأحاديث النبوية في اكثريتها المطلقة اخبار احاد. ومنها ما هو متعارض، ومنها ما هو غير واضح الدلالة. وبالرغم من ذلك فإنه لا يجوز لنا ان ننزل بالاحاديث النبوية الى مستوى آراء المجتهدين. لأن الحديث النبوي اذا كان متواتراً أو مستفيضاً افادنا العلم أو ما يشبه العلم بحكم الله. واذا كان من اخبار الآحاد التي رواها العدول أو الثقاة وليس لها معارض مثلها وجب الأخذ به ولا يجوز العدول عنه الى رأي ادى اليه اجتهاد مجتهد.

وكذلك تعاليم اهل البيت التي شهد الرسول بأنها امان من الضلال وموافقة للقرآن يجب العمل بها اذا ثبتت بالتواتر أو ما يشبهه أو جاءت في رواية العدول أو الثقاة دون ان يعارضها ما هو مثلها.

اما الرأي الذي يصل اليه اجتهاد مجتهد فليس يجب على المسلمين الأخذ به وان ثبت بالتواتر صدوره عن المجتهد. اذ يجوز لمجتهد آخر ان يخالفه ويجوز لعامة المسلمين أن يأخذوا بفتوى المجتهد الآخر.

هذا ما يراه علماء اتباع اهل البيت وما نراه. وللعلماء الآخرين أن لا يوافقونا على هذا الرأي. ولكل حقه في تكوين رأيه وعلى الله اجره.

ولكنه يحزننا ونرى انه اقل من الانصاف ان لا توضع تعاليم اهل البيت على قدم المساواة مع فتاوى ائمة المذاهب الاربعة بالرغم من كل ما قاله الرسول في عترته وبالرغم من أنه لم يقل شيئاً في الأئمة الاربعة.

— ٨ —

لماذا لا يأخذ علماء بما روي عن اهل البيت؟

ويعتذر بعض علماء السنة بأنهم لا يرون اتباع ما روي من تعاليم اهل البيت لأنهم لا يثقون بمن رووا تلك التعاليم. ويعني ذلك انهم لا يثقون برواية المحدثين من الشيعة. ولكن اذا اريد معرفة تعاليم امام هل يرجع في معرفتها الى غير اتباعه ام الى اتباعه؟ وهل يحق للشيعة اذا ارادوا معرفة رأي امام كابي حنيفة ان يقولوا اننا لا نتمكن ان نأخذه من اتباعه لأننا لا نثق بهم؟

ومتى اشترط الله ورسوله ان يكون الرواة سنة أو ان لا يكونوا شيعة؟ لقد نهانا الله عن الأخذ برواية الفاسق اذ قال: « يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ». وليس التشيع لأهل البيت وحبهم واتباع تعاليمهم فسقا ولا عدم التشيع لهم حسنة تثبت العدالة. بلى ان التشيع لأهل البيت توكيد للعدالة وحسنة كبرى ذكر الله في كتابه انه يضاعفها. اذ امر نبيه ان يعلم المسلمين بأن مكافأتهم له على اداء الرسالة هي مودتهم لاهل بيته فقال له: « قل لا أسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى. ومن يقترف حسنة نزد له حسنا. ان الله غني شكور[٣١] ». وقد عرفت ان عديدا من اعلام الصحابة كانوا شيعة لأهل بيت الرسول. وقد سأل الرسول ربه ان يحب من يحب عليا حينما قال: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه.

ان من واجب علماء المسلمين ان يقولوا بجملة تصحيحية تزيل من اذهان المسلمين ما رسب فيها من تعصب هو من مخلفات الاجيال الماضية يوم كان الامويون ومن جاء بعدهم يعاقبون المسلمين من اجل حبهم لعلي وبقية أهل بيت الرسول ويرمونهم بالتهم التي كانوا هم اولى بها.

وعلى علماء المسلمين ان يعرفوا عامة المسلمين على حقيقة ثابتة: هي ان شريعة الله ليست مقصورة على مذهب من المذاهب ولا تابعة لأي منها وان المذاهب الاربعة ليست الطريق الوحيد لمعرفة شريعة الاسلام.

وينبغي ان يعرفوهم على ابسط الحقائق وهي ان النبي لم يأمر باتباع هذه المذاهب وانها نشأت بعد وفاته بما يزيد على مئة سنة. فكيف اصبح اتباعها شرطا في الاسلام أو الايمان؟

ان الأئمة الأربعة علماء مجتهدون مؤهلون للافتاء. ولكن كيف يسوغ ان نعتقد بأن الاجتهاد والاهلية للافتاء مقصوران عليهم. وهل عقمت النساء في جميع الاجيال عن ان تلد مثلهم؟ انا نعتقد بأن الرسول خاتم الانبياء لأن الله اخبرنا

---

(٣١) سورة الشورى (٤٢) آية ٢٣

في كتابه العزيز ان محمدا خاتم النبيين. ولكن كيف نقول بأن الامام احمد بن حنبل آخر الأئمة الاربعة هو خاتم المجتهدين وانه لن يأتي بعد الأئمة الاربعة مؤهل للفتوى؟ وهل اخبرنا الله ورسوله بذلك؟

ان ما تيسر وما يتيسر للعلماء الذين اتوا ويأتون بعد الائمة الاربعة من كتب الحديث ومصادره المعتبرة لم يتيسر مثله عددا وخصوبه للأئمة الاربعة (رض). فاحرى ان يفتح باب الاجتهاد وبعدهم للعلماء الاعلام بدلا من ان يقفل هذا الباب ويختم الى الابد دون اي مبرر معقول.

واذا اردنا ان نتناس هذا ونقول بانسداد باب الاهلية للفتوى على جميع الاجيال بعد الائمة الاربعة فكيف انسد هذا الباب على اهل بيت الرسول وهم اساتذة الاولين من الائمة الاربعة مالك وابي حنيفة؟

انني اعرف انه ليس من السهل تغيير تفكير استقر في اذهان المسلمين عديدا من القرون ولكنه لن يكون ممتنعا اذا قام عدد من العلماء المصلحين بحملة تصحيحية تثقيفية في شتى انحاء العالم الاسلامي. ولدى العلماء اليوم من وسائل الاعلام ما لم يوجد مثله في اي عصر سابق.

— ٩ —

فتوى شيخ الأزهر

ولقد حاولت قبل نحو من خمسة عشر سنة ان ابدأ بجهد في هذا السبيل فذهبت الى القاهرة في اليوم الاول من شهر تموز من سنة ١٩٥٩ وتحدثت وشيخ الازهر الاسبق الشيخ محمود شلتوت في مشكلة التسنن والتشيع التي فصلت المسلمين منذ قرون.

قلت للشيخ ان هذه مشكلة بدأت في العصر الاموي واستمرت في العصر العباسي ثم العصر التركي. ولا نزال نعاني آثارها وما زالت تفصل المسلمين وتزرع بينهم الريبة وتحمل الفريقين على تبادل التهم التي يتبرأ منهما الفريقان. وكثيرا ما يذهب مؤمنون مخلصون لدين الله ضحية تلك التهم الباطلة.

وقد قلت له ان الشيعة الامامية لا يبتغون امتيازا ولا علوا ولكنهم يريدون ان يعرف العالم الاسلامي ان تعاليم الامام الصادق وسائر ائمة اهل البيت ليست

اقل قيمة ولا صحة من تعاليم ائمة المذاهب الاربعة. وان هذه التعاليم التي يسير عليها الشيعة الامامية جديرة بالتقدير لدى جميع المسلمين. وان الذين يتبعونها مسلمون صحيحو الاسلام ومؤمنون كاملو الايمان شأن اتباع المذاهب الاربعة. وان اعلانا يقوم به شيخ الازهر في هذا السبيل سيكون خطوة صحيحة في سبيل الوحدة الاسلامية.

وقد سألني شيخ الازهر يوم ذاك: الا يكفي لحل هذه المشكلة ان يدرس المذهب الجعفري في الازهر؟ فاجبته بالنفي. وذكرت له سببين: (١) ان تدريس المذهب الجعفري لا يدل على ان الازهر وشيخه يؤمنان بصحة ذلك المذهب. ويمكن للازهر ان يقرر تدريس النظرية الماركسية. ولكن ذلك لا يدل على انكم تؤمنون بصحتها[٢]. ان تدريس هذا المذهب في الازهر ربما يؤدي الى تعريف بضع مئات من طلاب الازهر على هذا المذهب. وليس غايتنا ان يعرف المئات صحة التعاليم الجعفرية. ان غايتنا ان تعرفوا ملايين المسلمين على صحة تعاليم اهل بيت الرسول. ولن يكون ذلك الا بأن تصدروا فتوى بالمساواة بين المذهب الجعفري والمذاهب الاربعة. ثم تنشر الفتوى وتذاع بكل الوسائل الاعلامية. وفي ذلك ما يعرف ملايين المسلمين دفعة واحدة على هذه الحقيقة التي جهلوها مئات السنين.

وقد استجاب الشيخ الاكبر لهذه الدعوة الخيرة سريعا ففي اليوم التالي من مقابلتي اياه زارني صهره وامين سره الاستاذ احمد نصار وبشرني بأن الشيخ قد لبى دعوتي واصدر فتواه في الموضوع. وعند ذلك ذهبت معه الى الشيخ شاكرا لعمله التاريخي الكبير. واسمعني الشيخ نص الفتوى قبل ان تنشر.

وفي اليوم السابع من شهر تموز، سنة ١٩٥٩ اذاعت محطات الراديو في الشرق الاوسط والصحف المصرية وسواها نص الفتوى.

لقد اصدر الشيخ الاكبر فتواه في صيغة جواب على سؤال وجه اليه كما يلي:

«ان بعض الناس يرى انه يجب على المسلم لكي تقع عباداته ومعاملاته على وجه صحيح ان يقلد أحد المذاهب الاربعة المعروفة. وليس من بينها مذهب الشيعة الامامية ولا الشيعة الزيدية. فهل توافقون على هذا الرأي على اطلاقه

فتمنعون تقليد مذهب الشيعة الامامية الاثنا عشرية مثلا؟ »
وكان جواب فضيلته ما يلي:

« أولاً »: يجوز لمن ليس من اهل الاجتهاد والنظر ان يقلد اي مذهب من مذاهب العلماء الموثوق بعلمهم وصلاحهم بشرط ان يصل اليه ذلك المذهب من طريق منضبط يطمئن اليه سماعاً أو نقلا.

« ولا عبرة بما يكتب في بعض الكتب عن انحصار المذاهب التي يجوز تقليدها في الاربعة المشهورة. ولا بما يقال من ان من قلد مذهبا فليس له ان ينتقل منه الى غيره. وفي ذلك يقول الشيخ عز الدين بن عبد السلام: لم يزل الناس يسألون من اتفق من العلماء من غير تقيد بمذهب ولا انكار على احد من السائلين الى ان ظهرت هذه المذاهب ومتعصبوها من المقلدين. فان احدهم يتبع امامه مع بعد مذهبه عن الادلة مقلدا له فيما قال، كأنه نبي مرسل. وهذا نأي عن الحق وبعد عن الصواب لا يرضى به احد من ذوي الالباب.

« ثانيا »: ان لفظ الشيعة الذي اشتهر به اتباع علي وآل بيته خاصة هو مأخوذ من المشايعة بمعنى المتابعة. فشيعه الرجل اصحابه واتباعه.....

« ثالثا »: ان هناك فرقا تنتسب الى علي، وهم شيعته المهتدون..... ومن هؤلاء الشيعة الصالحين الطائفة المعروفة « بالجعفرية » أو بالامامية الاثنا عشرية ».

« رابعا »: ان لهذه الطائفة المعروفة اصولها المستمدة من كتاب الله تعالى ومن سنة رسوله المروية عن ائمتهم في العقيدة والشريعة. وليس الخلاف بينهم وبين مذاهب السنة اعظم من الخلاف بين مذاهب السنة بعضها مع بعض.

« فهم يدينون باصول الدين كما وردت في القرآن الكريم والسنة المتواترة، كما يؤمنون بكل ما يجب الايمان به ويبطل الاسلام بالخروج عنه من الاحكام المعلومة من الدين بالضرورة.

« خامساً »: ان مذهبهم الفقهي مدون محرر له كتبه واسانيده وادلته، وان مؤلفي هذه الكتب ومن استمدوا منهم معروفون محفوظة سيرتهم العلمية ومكانتهم الفقهية بين العلماء.

لا اتباع لمذهب معين

« ومن هذا البيان يتضح جلياً:

(١) ان الاسلام لا يوجب على احد من اتباعه اتباع مذهب معين. بل يقرر ان لكل مسلم الحق في ان يقلد بادىء بدء اي مذهب من المذاهب المنقولة نقلا صحيحا والمدونة احكامها في كتبها الخاصة. ولمن قلد مذهبا من هذه المذاهب ان ينتقل الى غيره - أي مذهب كان - ولا حرج عليه في شيء من ذلك.

(٢) « ان مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الامامية الاثنا عشرية مذهب يجوز التعبد به شرعا كسائر مذاهب اهل السنة.

« فينبغي على المسلمين ان يعرفوا ذلك وان يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة. فما كان دين الله وما كانت شريعته بتابعة لمذهب أو مقصورة على مذهب. فالكل مجتهدون مأجورون، مقبولون عند الله تعالى يجوز لمن ليس اهلا للنظر والاجتهاد تقليدهم والعمل بما يقرونه في فقههم. لا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات »[٣٢]

لقد كان ينبغي ان يصدر هنا الاعتراف في القرن الثاني الهجري يوم كانت المذاهب الاربعة في دور التكوين. فمذهب الامام جعفر الصادق هو مذهب اهل بيت الرسول (ص) الذين اعلن الرسول انهم لا يفارقون القرآن وان اتباع القرآن واتباعهم ضمانة للأمة ضد الضلال. وهو مذهب الامام امير المؤمنين علي الذي شهد له الرسول بأنه باب مدينة علمه.

ولكن سياسة الامويين والعباسيين والذين جاؤوا بعدهم من الحكام. فكانت ترى في الاعتراف بمدرسة اهل البيت خطرا عليها.

وبالرغم من ان هذا الاعتراف تأخر عن وقته قرونا عديدة فان مجرد صدوره دليل على بدء اتجاه جديد في تفكير علماء العالم الاسلامي. وهو اتجاه ايجابي

---

(٣٢) جريدة الكفاح (البيروتية) ص ٧ تاريخ ٨ تموز سنة ١٩٥٩ نقلا عن جريدة الشعب (المصرية) تاريخ ٧ تموز سنة ١٩٥٩

مبارك وخطوة اولى في الطريق الصحيح لو تتابعت الخطوات الايجابية من بعدها لاستعاد العالم الاسلامي اخاءه ووحدته.

الى الامام الخميني

انني اتمنى ان يتخذ آية الله الامام السيد روح الله الخميني الخطوة الثانية ويستعمل في سبيل الوصول الى تفاهم اسلامي شامل كل ما آتاه الله من قيادة عليا وشهرة عالمية وجاه عريض في العالم الاسلامي.

انني اتمنى ان يدعو الامام الخميني علماء المسلمين سنة وشيعة من جميع البلاد الاسلامية وغير الاسلامية الى مؤتمر اسلامي يعقد في ايران من اجل البحث في افضل الطرق التي تؤدي الى الرجوع بالمسلمين الى تفاهم حقيقي واخاء شامل قد يؤدي بهم الى الوحدة.

ولو انهم وصلوا الى اتفاق يعلن ان لكل مسلم الحق في ان يتبع فتاوى اي امام يعتقد بعد الفحص والتدقيق انه اعلم الأئمة واتقاهم وانه إذا فعل ذلك فهو معذور عند الله وان اخطأ. لكان في ذلك ما يرضي الله ورسوله ويزيل الحواجز المصطنعة بين المسلمين.

ثبت المصادر

١ - الاحتجاج

لأحمد بن علي ابن طالب الطبرسي من اعلام القرن السادس الهجري طبع مطابع النعمان النجف عام ١٩٦٦م.

٢ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب

ليوسف ابن عبد الله بن محمد ابن عبد البر المتوفي ٤٦٣ هـ طبع بمطبعة مصر الفجاله القاهرة عام ١٣٨٠ = ١٩٦٠.

٣ - اضواء على السنة المحمدية

لمحمود ابو رية الطبعة الثالثة نشر دار المعارف مصر عام ١٣٧٧ = ١٩٥٧

٤ - اعيان الشيعة

للامام السيد محسن الأمين طبع بيروت ودمشق

٥ - الإمام علي بن ابي طالب
للكاتب عبد الفتاح عبد المقصود من منشورات مكتبة العرفان - بيروت - دون تاريخ -
٦ - الامام الصادق
للشيخ محمد ابو زهرة طبع دار الفكر العربي - مصر
٧ - انساب الاشراف
البلاذري المتوفي ٢٧٩ طبع القدس
٨ - تاريخ الأمم والرسل والملوك
للامام محمد ابن يزيد ابن جرير الطبري المتوفي ٣١٠ هجرية.
٩ - تفسير الجلالين
للأمامين جلال الدين محمد المحلي وجلال الدين السيوطي المتوفي سنة ٩١١ هـ
١٠ - التفسير الكبير
للأمام فخر الدين محمد الرازي الطبعة الثانية بالمطبعة الشرقية عام ١٣٠٤ هـ .
١١ - تفسير القرآن
لشيخ الازهر محمود شلتوت عام ١٣٧٣ = ١٩٦٠.
١٢ - جامع البيان
للامام محمد ابن جرير الطبري المتوفي ٣١٠ هـ المطبعة اليمنية بمصر عام ١٣٢١ هـ.
١٣ - حياة محمد
للدكتور محمد حسين هيكل الطبعة الثالثة ط دار الكتب المصرية القاهره ١٣٥٨ هـ.
١٤ - سنن ابن ماجه (من الصحاح الستة)
للحافظ محمد ابن يزيد القزويني ابن ماجه المتوفي ٢٧٥ هـ طبع في مطبعة دار

احياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي عام ١٩٥٢ م

١٥ - سنن ابي داود (من الصحاح الستة)

للمحدث سليمان بن الاشعث بن شداد الازدي المتوفي ٢٧٥ هـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي في مصر عام ١٩٥٢ م.

١٦ - سنن الترمذي (من الصحاح الستة)

للمحدث محمد بن عيسى الترمدي الضرير المتوفي ٢٧٩ هـ مطبعة البابي الحلبي في مصر عام ١٣٥٦ = ١٩٣٧ وما نقلناه عن الجزء الخامس فهو من طبعة الفجالة بمصر عام ١٩٦٧.

١٧ - سنن النسائي (عن الصحاح الستة)

للامام احمد بن شعيب ابن علي النسائي المتوفي ٣٠٣ هـ طبع المطبعة المصرية بالأزهر عام ١٣٤٨ هـ = ١٩٣٠ م.

١٨ - السيرة الحلبية

للمؤرخ علي ابن برهان الدين الحلبي الشافعي المتوفي ١٠٤٤ هـ مطبعة مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية الكبرى بمصر - دون تاريخ -

١٩ - السيرة النبوية (= سيرة ابن هشام)

لعبد الملك ابن هشام بن ايوب الحميري المتوفي ٢١٨ هـ طبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر عام ١٩٥٥ م.

٢٠ - شرح نهج البلاغة

لعز الدين ابن هبة الله بن محمد ابن ابي الحديد المدائني المتوفي ٦٥٥ هـ مطبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر ١٣٨٥ هـ ١٩٦٥ م.

٢١ - صحيح البخاري (اشهر الصحاح الستة)

للمحدث محمد بن اسماعيل البخاري المتوفي ٢٥٦ هـ طبعة محمد علي صبح واولاده في مصر بالازهر دون تاريخ.

٢٢ - صحيح مسلم (من الصحاح الستة)

للمحدث مسلم بن الحجاج القشيري المتوفي ٢٦١ هـ طبع محمد علي صبيح من مصر (مع شرح الامام النووي) عام ١٣٤٩ هـ

٢٣ - الطبقات الكبرى
للمؤرخ محمد بن سعد بن منيع الزهري البصري المتوفي ٢٣٠ هـ مطبعة دار صادر بيروت عام ١٩٦٠ م.

٢٤ - عبد الله بن سبأ
للسيد مرتضى العسكري الطبعة الثانية مطابع الكتاب العربي القاهرة ١٣٨١ م.

٢٥ - الغدير في الكتاب والسنة والادب
للشيخ عبد الحسين احمد الأميني النجفي الطبعة الثانية مطبعة الحيدري طهران عام ١٣٧٢

٢٦ - غرائب القرآن
للحسن ابن محمد النيسابوري طبع على هامش تفسير جامع البيان للامام الطبري

٢٧ - الفتنة الكبرى
للدكتور طه حسين ط دار المعارف بمصر عام ١٩٥٣ م.

٢٨ - فضائل الخمسه عن الصحاح السته
للسيد مرتضى الحسيني الفيروزبادي - المعاصر - الطبعة الثالثة طبع بمؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت ١٩٧٣.

٢٩ - في رحاب علي
للاستاذ خالد محمد خالد

٣٠ - الكافي (الاصول - الفروع - الروضة)
للمحدث محمد يعقوب الكليني المتوفي ٣٢٩ هـ مطبعة الحيدري طهران عام ١٣٧٥ هـ.

٣١ - **الكامل في التاريخ**

لعلي ابن محمد الشيباء المعروف بابن الأثير المتوفي ٦٧٠ هـ الطبعة الثانية عام ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧ م.

٣٢ - **مختصر كنز العمال**

(مطبوع على هامش المسند لابن حنبل مطبعة صادر بيروت).

٣٣ - **المدخل الى دراسة الفقه المقارن**

للسيد محمد تقي الحكم طبع دار الاندلس بيروت عام ١٩٦٣ م.

٣٤ - **المراجعات**

للامام عبد الحسين شرف الدين مطبعة العرفان - صيدا لبنان عام ١٩٣٦ م.

٣٥ - **المستدرك على الصحيحين**

للامام محمد ابن عبيد الله النيسابوري المعروف بالحاكم المتوفي ٤٠٥ (الطبعة الجديدة) مطابع النصر في الرياض (ومعه حاشية الامام الذهبي) عام ١٣٣٥ هـ

٣٦ - **المسند**

للامام احمد بن حنبل الميروزي البغدادي المتوفي ٢٤١ هـ (وهو امام الحنابلة وأحد ائمة المذاهب الاربعة) مطبعة صادر - بيروت لبنان ١٩٦٩ م.

٣٧ - **المغازي**

لمحمد الوافدي المتوفي ٢٠٧ هـ مطبعة اكسفورد.

٣٨ - **نهج البلاغة**

جمع الشريف الرهني، المتوفي ٦٠٤ هـ المكتبة الاهلية في بيروت (مع شرح الأمام محمد عبده)

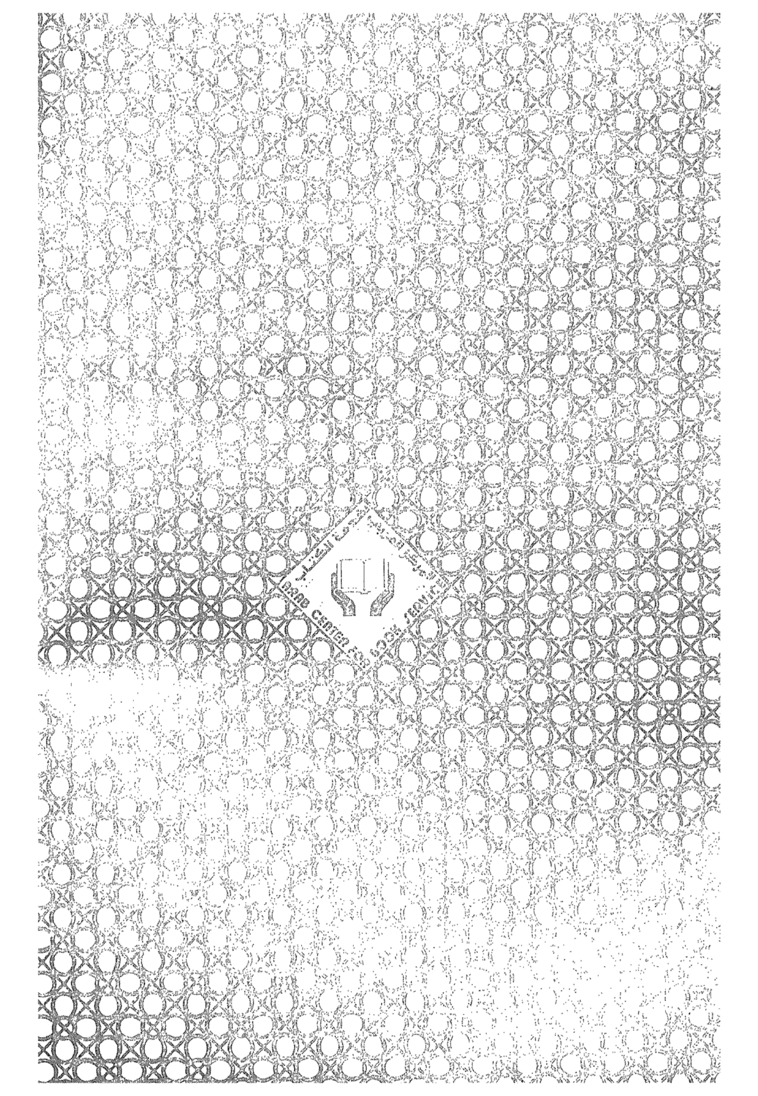
٣٩ - **نور الأبصار في مناقب النبي المختار**

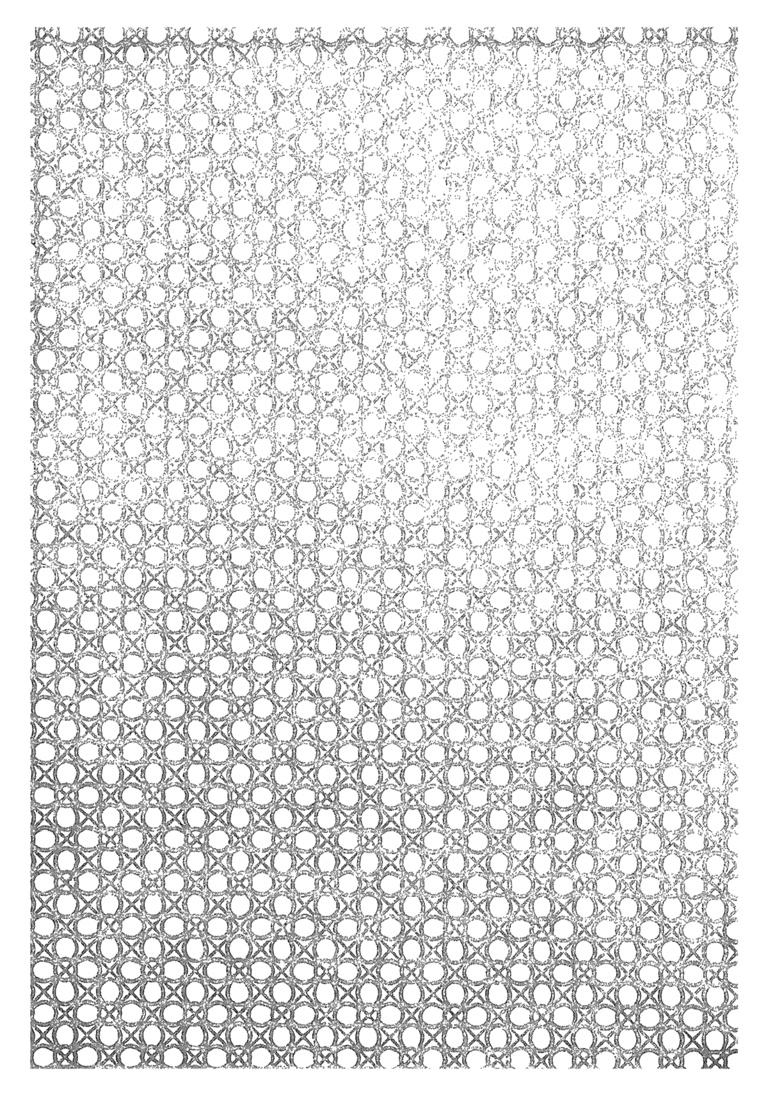
للمؤمن ابن حسن مؤمن الشبلجي الطبعة الثامنة عاطف ١٩٦٣ م.

٤٠ - **هذه هي الوهابية**

للشيخ محمد جواد مغنية - معاصر -

الفهرس


المركز العربي لخدمة الكتاب
ARAB CENTER FOR BOOK SERVICE





السعر ٥٠ ل.ل اوما يعادلها